تفسير الحسن البصري

جمع وتوثيق ودراسة

دكتور / محمد عبد الرحيم

الجزء الثاني

توزيع
المكتبة التجارية
مكة المكرمة
مصطفى الباز
تليفون ٥٧٤٩٠٢٢

تفسير الحسن البصري

جمع وتوثيق ودراسة

دكتور / محمد عبد الرحيم

(الجزء الثانى)

دار الحديث

دار الحديث

١٤٠ شارع جوهر القائد أمام جامعة الأزهر
ت: ٩١٩٦٩٧٠ - ٩١٨٧١٩ - ٩٢٦٥٠٨

تلكس: ٩٢٩٨٥
٢٣١٦٢

تفسير سورة يونس

قال الحسن : يونس : مكية[1] .

﴿ الر تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾(١)

قال الحسن التوراة والزبور[2] .

﴿ أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾(٢)

عن الحسن فى قوله « ــــ » قال : محمد (ص) شفيع لهم يوم القيامة[3] .

عن الحسن فى قوله « ــــ » قال : مصيبتهم فى نبيهم صلى الله عليه وسلم[4] .

﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا ﴾(٨)

قال الحسن : والله ما زينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية ، فلا يتفكرون فيها ، والشرعية فلا يأتمرون بها ،

---

(١) ذكره ابن الجوزى وعزاه أيضاً إلى ابن عباس وعكرمة . فراجعه فى زاد المسير ٤ / ٣ .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٠٥ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : « حدثنى المثنى قال حدثنا إسحاق قال حدثنا يحيى بن أدم عن فضيل بن عمرو بن الجون عن قتادة والحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ١٥ .

– ولقد أورد هذا الخبر أيضاً ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٥ ، وكذلك السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٣٤١ وعزاه إلى ابن جرير وأبى الشيخ .

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٣٤٢ .

فإن مأواهم يوم معادهم النار جزاء على ما كانوا يكسبون فى دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام ما هم فيه من الكفر بالله ورسله واليوم الآخر[1]

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. ﴾[9]

عن الحسن فى قوله « يهديهم ربهم بإيمانهم » قال قتادة : حدثنا الحسن قال : بلغنا أن النبى (ص) قال : « المؤمن إذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة حسنة وريح طيبة فيقول له : ما أنت ، فو الله إنى لأراك عين امرئ صدق ، فيقول له : أنا عملك فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة ، وأما الكافر فإذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة سيئة وريح منتنة ، فيقول له : ما أنت فو الله إنى لأراك عين امرئ سوء فيقول : أنا عملك فينطلق به حتى يدخله النار »[2] .

﴿ ولا أدراكم به ﴾[16]

عن الحسن أنه كان يقرأ « ولا أدرأتكم به » يقول : ما أعلمتكم به[3] .

﴿ ويقولون هؤلاء شفعاؤنا ﴾[18]

قال الحسن : شفعاؤنا فى إصلاح معايشنا فى الدنيا لأنهم لا يقرون بالبعث[4].

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٠٧ .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٣٤٤ بقوله « وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : حدثنا الحسن .. » .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٤٢ .

(٤) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ١٦ .

﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء ﴾[٢١]

قال الحسن : الرحمة الإسلام ، والضراء : الكفر ، وهذا فى حق المنافقين[١] .

﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾[٢٥]

عن الحسن رضى الله عنه قال : ما من ليلة إلا ينادى منادياً يا صاحب الخير هلم ، ويا صاحب الشر أقصر ، فقال رجل للحسن رضى الله عنه : أتجدها فى كتاب الله ؟ قال نعم « والله يدعو إلى دار السلام » قال : ذكر لنا أن فى التوراة مكتوباً : يا باغى الخير هلم ، ويا باغى الشر انته[٢] .

﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾[٢٦]

عن الحسن قال : النظر إلى الرب[٣] .

كان الحسن يقول فى هذه الآية : الزيادة بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف[٤] .

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ١٨ .

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن ، فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٣٥٦ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا هوذة قال حدثنا عوف عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٦٧ . ولقد ذكر هذا الخبر أيضاً ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤١٤ .

(٤) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : « حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة قال كان الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٧٠ .
- ولقد أورد هذا الخبر أيضا كل من ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٢٥ ، والسيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٣٦٠ وعزاه إلى ابن جرير وابن المنذر .

﴿ هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ﴾[٣٠]

عن الحسن رضى الله عنه « هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت » قال : عملت[١] .

﴿ فأنى تؤفكون ﴾[٣٤]

قال الحسن : أنى تصرفون[٢] .

﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ﴾[٤٥]

عن الحسن فى قوله « يتعارفون بينهم » قال : يعرف الرجل صاحبه إلى جنبه فلا يستطيع أن يكلمه[٣] .

﴿ وشفاء لما فى الصدور ﴾[٥٧]

عن الحسن رضى الله عنه قال : إن الله سبحانه وتعالى جعل القرآن شفاء لما فى الصدور ولم يجعله شفاء لأمراضكم[٤] .

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٣٦٢ .

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده هكذا : « حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال حدثنا محمد ابن ثور عن معمر عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٨٦ .

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن . فراجعه فى الدر المنثور للسيوطى ٤ / ٣٦٥ وفتح القدير للشوكانى ٢ / ٤٥٠ .

(٤) أخرجه أبو الشيخ عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٣٦٦ ، وفتح القدير ٢ / ٤٥٤ .

قلت : ولقد جانب الصواب الحسن فى هذا التفسير ، لأن القرآن الكريم شفاء للصدور والأمراض معاً ، وصدق الله العظيم إذ يقول « ما فرطنا فى الكتاب من شىء » (٣٨ : الأنعام) . وهأنذا أسوق إليك آيات الشفاء الست الواردة فى القرآن الكريم ، والتى يتعبد بتلاوتها الإنسان طلباً للشفاء : =

﴿ قل بفضل الله وبرحمته ﴾(٥٨)

قال الحسن : إن فضل الله القرآن ، ورحمته أن جعلهم من أهل القرآن(١) .

قال الحسن : فضله الإسلام ورحمته القرآن(٢) .

= ١ - قال تعالى « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين » (١٤ : التوبة) .

٢ - قال تعالى « وإذا مرضت فهو يشفين » (٨٠ : الشعراء » .

٣ - قال تعالى « يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » (٥٧ : يونس) .

٤ - قال تعالى « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » (٦٩ : النحل) .

٥ - قال تعالى « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا » (٨٢ : الإسراء) .

٦ - قال تعالى « ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء » (٤٤ : فصلت) .

كذلك فإن ثمة أحاديث كثيرة رويت عن النبى (ص) فى هذا المعنى ، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم « تداووا بالشفاءين : العسل والقرآن » ، ولذا فقد جاء فى الصحيح أن رجلاً جاء إلى رسول الله (ص) فقال : إن أخى استطلق بطنه ، فقال « اسقه عسلا » ، فذهب فسقاه عسلا ، ثم جاء فقال يا رسول الله : سقيته عسلاً فما زاده إلا استطلاقا ، قال « اذهب فاسقه عسلا » فذهب فسقاه عسلاً ، ثم جاء فقال يا رسول الله : ما زاده إلا استطلاقا ، فقال رسول الله (ص) « صدق الله وكذب بطن أخيك » اذهب فاسقه عسلا ، فذهب فسقاه عسلاً فبرئ .

راجع صحيح البخارى كتاب (المرضى) باب (دواء البطون) ٤ / ١٠ ، والمسند لأحمد ٣ / ١٩ .

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٤٠ وعزاه أيضاً إلى ابن عباس وأبى سعيد الخدرى .

(٢) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال حدثنا محمد بن

﴿ لهم البشرى فى الحياة الدنيا ﴾(٦٤)

قال الحسن : أنها ما بشر الله به فى كتابه من جنته وثوابه ، كقوله « وبشر الذين آمنوا » (٢٥ : البقرة) ، « وأبشروا بالجنة » (٣٠ : فصلت) ، و « يبشرهم ربهم » (٢١ : التوبة)[١] .

﴿ إن عندكم من سلطان بهذا ﴾(٦٨)

قال الحسن : ما عندكم من سلطان بهذا[٢] .

﴿ فأجمعوا أمركم وشركائكم ﴾(٧١)

قال الحسن : أى فلتجمعوا أمرهم معكم[٣] .

﴿ فاليوم ننجيك ببدنك ﴾(٩٢)

قال الحسن : أى بجسم لا روح فيه[٤] .

ثور عن معمر عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ١٠٧ .

- كذلك أورد هذا الخبر ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٤٠ ونسبه أيضاً إلى ابن عباس وقتادة وهلال بن يساف ومجاهد وابن قتيبة .

- كذلك ذكر هذا الخبر السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٣٦٨ ، وذكر بعضه ابن القيم ، فراجع التفسير القيم ص ٣٠٧ .

(١) أورده ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٤٤ .

(٢) أخرجه أبو الشيخ عن الحسن ، فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٣٧٩ ، وفتح القدير ٢ / ٤٦١ .

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٣٨٠ وفتح القدير ٢ / ٤٦٣ .

(٤) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٣١ .

﴿ فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك .. ﴾[٩٤]

عن الحسن فى هذه الآية قال : لم يشك رسول الله (ص) ولم يسأل[١] .

عن الحسن رضى الله عنه قال : خمسة أحرف فى القرآن « وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال » (إبراهيم : ٢٦) معناه : وما كان مكرهم لتزول منه الجبال ، « ولو أردنا أن نتخذ لهوا لا تخذناه من لدنا إن كنا فاعلين » (الأنبياء : ١٧) معناه : ما كنا فاعلين ، و « قل إن كان للرحمن ولد » (٨١ : الزخرف) معناه : ما كان للرحمن ولد ، « ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه » (٢٦ : الأحقاف) معناه فى الذين مكناكم فيه ، و « فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك » معناه : فما كنت فى شك[٢] .

عن الحسن فى قوله : « فأسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك » قال : سؤالك إياهم نظرك فى كتابى كقولك : سل عن آل المهلب دورهم[٣] .

---

(١) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا الحارث قال حدثنا القاسم بن سلام قال حدثنا هشيم قال أخبرنا أبو بشر عن سعيد بن جبير ومنصور عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٢٠٢ .

- كذلك ذكره ابن كثير بقوله « لا شك ولا سأل » فراجع تفسيره ٢ / ٤٣٢ .

(٢) أخرجه ابن الأنبارى فى المصاحف عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٣٩٠ .

- كذلك ذكر لنا الطبرى هذا الخبر بإسنادين :

الأول : « قال هارون وأخبرنى يونس عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٣ / ٢٤٧ .

والإسناد الثانى : « قال هارون وحدثنى بهن عمرو بن أسباط عن الحسن » تفسير الطبرى ١٣ / ٢٤٧ .

(٣) أخرجه أبو الشيخ عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٣٩٠ .

﴿ ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾(١٠٠)

قال الحسن : (الرجس) : العذاب[1] .

﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ﴾(١٠٧)

قال الحسن : ثلاث آيات فى كتاب الله اكتفيت بهن عن جميع الخلائق :

أولهن : « وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله » .

والثانية : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له » .

والثالثة : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها »[2] .

تفسير سورة هـود

قال الحسن : سورة هود مكية[3] .

﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت ﴾(١)

قال الحسن : أحكمت بالأمر والنهى ، وفصلت بالوعد والوعيد[4] .

---

(١) ذكره ابن الجوزى وعزاه أيضاً إلى أبى عبيدة والزجاج فراجعه فى زاد المسير ٤ / ٦٨ .

(٢) ذكره ابن الجوزى وعزاه أيضاً إلى ابن عباس وعكرمة ومجاهد وجابر بن زيد وقتادة فراجع زاد المسير ٤ / ٧٢ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا ابن حميد قال حدثنا عبد الكريم بن محمد الجرجانى عن أبى بكر الهذلى عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٢٢٦ .
- كذلك أورد هذا الخبر كل من ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٧٣ ، ٧٤ ، والسيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٣٩٩ ، والشوكانى فى فتح القدير ٢ / ٤٨٣ .

(٤) أخرجه أبو الشيخ عن الحسن فراجعه فى فتح القدير ٢ / ٤٧٨ ، وكذلك ذكر بعضه السيوطى فى الدر المنثور (الآية الأولى) ٤ / ٣٩٤ .

قال الحسن : أحكمت بالأمر والنهى وفصلت بالثواب والعقاب[1] .

قال الحسن : أحكمت بالثواب والعقاب ، وفصلت بالأمر والنهى[2] .

﴿ ويؤت كل ذى فضل فضله ﴾[3]

عن الحسن رضى الله عنه قال : يؤت كل ذى فضل فى الإسلام فضل الدرجات فى الآخرة[3] .

﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه إلا حين يستغشون ثيابهم ﴾[5]

عن الحسن فى قوله « ألا إنهم .. » قال : من جهالتهم به ، قال الله « ألا حين يستغشون ثيابهم » فى ظلمة الليل فى أجواف بيوتهم « يعلم » تلك الساعة « ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور »[4] .

---

(١) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنى المثنى قال حدثنا إسحق قال حدثنا عبد الله بن الزبير عن ابن عيينة عن رجل عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٢٢٦ .
- كذلك أورده ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٧٣ - ٧٤ .

(٢) أخرجه الطبرى بسنده التالى : « حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثنى حجاج عن ابن جريج عن أبى بكر عن الحسن قال : وحدثنا عباد بن العوام عن رجل عن الحسن قال .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٢٢٦ .

(٣) أخرجه أبو الشيخ عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٣٩٩ وفتح القدير ٢ / ٤٨٣ .

(٤) أخرجه الطبرى بسنده الآتى : « حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا هوذة قال حدثنا عوف عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٢٣٥ .
- كذلك أخرجه مختصراً عن الطبرى كل من السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٤٠٠ ، والشوكانى فى فتح القدير ٢ / ٤٨٣ .

عن الحسن قال : إنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا شيئاً أو عملوه ، فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك ، فأخبرهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم فى ظلمة الليل يعلم ما يسرون من القول وما يعلنون[1] .

﴿ نوف إليهم أعمالهم ﴾[15]

عن الحسن قال : طيباتهم[2] .

عن الحسن قال : نزلت هذه الآية فى اليهود والنصارى[3] .

﴿ أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ﴾[17]

عن الحسن فى قوله « أفمن كان على بينة من ربه » قال : المؤمن على بينة من ربه[4] .

---

(١) ذكره الشوكانى فى فتح القدير ٢ / ٤٨٣ ، وابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٣٦ .

(٢) أورده الطبرى بثلاثة أسانيد هى :

الأول :قال «حدثنا حفص بن عمرو قال حدثنا يزيد بن زريع عن أبى الأزدى عن الحسن .. » .

والإسناد الثانى : « حدثنى يعقوب قال حدثنا ابن علية عن أبى رجاء عن الحسن .. » .

والإسناد الثالث : « حدثنا ابن وكيع قال حدثنا ابن علية عن أبى رجاء، عن الحسن .. » انظر تفسير الطبرى ١٥ / ٢٦٥ - ٢٦٦ .

- كذلك ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٤٠٩ .

(٣) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٣٩ .

(٤) أخرجه أبو الشيخ عن الحسن ، فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٤١١ .

عن الحسن فى قوله « ويتلوه شاهد منه » قال : لسانه[1] .

عن الحسن فى قوله « ويتلوه شاهد منه » قال : محمد صلى الله عليه وسلم[2] .

﴿ وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك ﴾[36]

عن الحسن رضى الله عنه قال : إن نوحاً لم يدع على قومه حتى نزلت هذه الآية « وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » فانقطع عند ذلك رجاؤه منهم فدعا عليهم « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » (٢٦ : نوح)[3] .

---

(١) أورده الطبرى بسبعة أسانيد هى :

الأول : « حدثنى يعقوب وابن وكيع قالا حدثنا ابن علية عن أبى رجاء عن الحسن قال .. » .

والثانى : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا ابن أبى عدى عن عوف عن الحسن .. » .

والثالث : « حدثنا محمد بن المثنى قال حدثنا الحكم بن عبد الله أبو النعمان العجلى قال حدثنا شعبة عن أبى رجاء عن الحسن قال .. » .

والرابع : « حدثنى على بن الحسن الأزدى قال حدثنا المعافى بن عمران عن قرة بن خالد عن الحسن .. » .

والخامس : « حدثنى بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن .. » .

والسادس : « حدثنا ابن وكيع قال حدثنا أبو أسامة عن شعبة عن أبى رجاء عن الحسن .. » .

والسابع : « حدثنا ابن وكيع قال حدثنا غندر عن عوف عن الحسن .. » انظر تفسير الطبرى ١٥ / ٢٧٠ - ٢٧١ .

- كذلك ذكر هذا الخبر ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٨٥ .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٤٠ .

(٣) أخرجه أحمد فى الزهد وابن المنذر وأبو الشيخ ، فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٤١٧ وكذلك انظر فتح القدير ٢ / ٥٠١ .

﴿ ويصنع الفلك ﴾(٣٨)

عن الحسن قال : كان طول سفينة نوح عليه السلام ألف ذراع ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع[1] .

عن الحسن قال : كان طولها ستمائة ذراع وعرضها ثلثمائة[2] .

﴿ وفار التنور ﴾(٤٠)

عن الحسن قال : كان تنوراً من حجارة ، كان لحواء حتى صار إلى نوح ، قال : قيل له : إذا رأيت الماء يفور من التنور ، فاركب أنت وأصحابك[3] .

﴿ ونادى نوح ربه ﴾(٤٥)

قال الحسن : نادى نوح ربه فقال : رب إن ابنى من أهلى ، وإنك قد وعدتنى أن تنجى لى أهلى[4] .

---

(١) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنى الحارث قال حدثنا عبد العزيز قال حدثنا مبارك عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٣١١ .
- كذلك ذكره السيوطى وعزاه إلى ابن جرير وابن أبى حاتم وأبى الشيخ فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٤٢٠ .
- كذلك أورد هذا الخبر ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٤٤ .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٤٤ .

(٣) أخرجه الطبرى باسناده : « حدثنى يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا هشيم عن أبى محمد عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٣٢٠ .
- ولقد نقله السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٤٤٢ ، كذلك ذكره مختصراً ابن الجوزى بقوله « كان تنوراً من حجارة » فى زاد المسير ٤ / ١٠٥ ..

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٤٣٧ وفتح القدير ٢ / ٥٠٣ .

﴿ قال يا نوح إنه ليس من أهلك ﴾(٤٦)

قال الحسن : لم يكن ابنه[١] .

قال الحسن : والله ما هو بابنه[٢] .

كنت عند الحسن ، فقال « نادى نوح ابنه » لعمر الله ما هو ابنه ، قال ، قلت يا أبا سعيد : يقول « ونادى نوح ابنه » وتقول : ليس بابنه ، قال : أفرأيت قوله « إنه ليس من أهلك » ؟ قال : قلت : إنه ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك ، ولا يختلف أهل الكتاب أنه ابنه ، وقال : إن أهل الكتاب يكذبون[٣] .

---

(١) أورده الطبرى بإسنادين :

الأول : « حدثنى يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا هشيم عن عوف عن الحسن » .

والثانى : « حدثنى المثنى قال حدثنا عمرو بن عون قال حدثنا هشيم عن عوف ومنصور عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٣٤٠ - ٣٤١ .

- كذلك ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ١١٣ .

(٢) أورده الطبرى بثلاثة أسانيد :

الأول : « حدثنا ابن وكيع قال حدثنا ابن علية عن أصحابه عن ابن أبى عروبة عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٣٤٠ - ٣٤١ .

والثانى : « حدثنا ابن وكيع قال حدثنا ابن علية عن ابن عون عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٣٤٢ .

والإسناد الثالث : « حدثنا ابن وكيع قال حدثنا ابن نمير عن ابن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن .. » انظر تفسير الطبرى ١٥ / ٣٤٧ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده « حدثنا الحسن بن يحيى قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة قال كنت عند الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٣٤١ .

سمعت الحسن يقرأ هذه الآية « إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح » فقال عند ذلك : والله ما كان ابنه ، ثم قرأ هذه الآية « فخانتاهما » (١٠ : التحريم) ، قال سعيد ، فذكرت ذلك لقتادة ، قال : ما كان ينبغي له أن يحلف[١] .

عن الحسن فى قوله « إنه عمل غير صالح » قال : أنه لغير رشده[٢] .

---

(١) أخرجه الطبرى بسنده : « حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة قال سمعت الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٣٤١ .

قلت : لقد جانب الصواب الحسن فى هذه المسألة عندما ادعى أن ابن نوح لم يكن ابنه حقيقة ، معللاً ذلك بخيانة زوجته إياه ، والأقرب إلى الصواب - فى نظرى - أنه كان ابنه ولكن ليس من أهله الذين وعده الله بنجاتهم ، وهذا هو قول ابن عباس .

ولله دره ابن كثير إذ أشار إلى ذلك حيث قال : « وقول ابن عباس فى هذا هو الحق الذى لا محيد عنه ، فإن الله تعالى أغير من أن يمكن من امرأة نبى هذه الفاحشة ، ولهذا غضب الله على الذين رموا أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج النبى (ص) ، وأنكر على المؤمنين الذين تكلموا بهذا أو وأشاعوه ، ولهذا قال تعالى : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم . لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم » إلى قوله « إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبوه هينا وهو عند الله عظيم » .

ثم يستطرد ابن كثير القول فى ذلك مقيما الدليل على أنه ابنه ، فيستدل بأقوال السلف الصالح بأنه ابنه ، وبقول بعض العلماء : ما فجرت امرأة نبى قط ، ثم يوضح أن خيانة امرأة نوح لزوجها التى أشار إليها القرآن الكريم « فخانتاهما » (١٠ : التحريم) بأن هذه الخيانة لم تكن بالزنا ولكن كانت امرأة نوح تخبر الناس أنه مجنون ، وامرأة لوط تدل على الأضياف . انظر تفسير ابن كثير ٢ / ٤٤٨ .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ١١٤ .

﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك ﴾(٤٨)

عن الحسن أنه كان إذا قرأ سورة هود فأتى على « قيل يا نوح اهبط بسلام منا .. » حتى ختم الآية ، قال الحسن : فأنجى الله نوحاً والذين آمنوا ، وهلك المتمتعون حتى ذكر الأنبياء كل ذلك يقول : أنجاه الله وهلك المتمتعون[١] .

عن الحسن أنه أتى على هذه الآية « اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك » قال : فكان ذلك حين بعث الله عادًا فأرسل إليهم هودًا فصدقه مصدقون وكذبه مكذبون حتى جاء أمر الله ، فلما جاء أمر الله نجى الله هودًا والذين آمنوا معه ، وأهلك الله المتمتعين ، ثم بعث الله ثمود ، فبعث إليهم صالحاً فصدقه مصدقون وكذبه مكذبون حتى جاء أمر الله فلما جاء أمر الله نجى الله صالحا والذين آمنوا معه ، وأهلك الله المتمتعين ، ثم استقرأ الأنبياء نبيا نبيا على نحو من هذا »[٢] .

عن الحسن رضى الله عنه قال : فما زال الله يأخذ لنا بسهمنا وحظنا ، وكذلك يذكرنا من حيث لا نذكر أنفسنا ، كلما هلكت أمة جعلنا فى أصلاب من ينجو بلطفه حتى جعلنا فى خير أمة أخرجت للناس[٣] .

---

(١) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنى المثنى قال حدثنا الحجاج بن المنهال قال حدثنا حماد عن حميد عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٣٥٥ .

(٢) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا العباس بن الوليد قال أخبرنى أبى قال أخبرنا عبد الله بن شوذب قال سمعت داود بن أبى هند يحدث عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٣٥٥ .

(٣) أخرجه أبو الشيخ عن الحسن ، راجع تفسير الدر المنثور ٤ / ٤٤٠ .

﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾(٧١)

فمر بنا الحسن بن أبى الحسن ، فقال : يا أبا المغيرة : من هذا الفتى ؟ قال : ابنى من ورائى ، فقال الحسن : « فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب »[١] .

قال الحسن : إنها البشرى بالولد[٢] .

﴿ إن إبراهيم لحليم أواه منيب ﴾(٧٥)

عن الحسن رضى الله عنه فى قوله « إن إبراهيم .. » قال : كان إذا قال : قال لله ، وإذا عمل عمل لله ، وإذا نوى نوى لله[٣] .

﴿ قال يا قوم هؤلاء بناتى ﴾(٧٨)

قال الحسن : إنه قد كان يجوز ذلك فى شريعته ، وكان جائزًا فى صدر الإسلام حتى نسخ[٤] .

---

(١) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا عمرو بن على ومحمد بن المثنى قال كل واحد منهما ، حدثنى أبو اليسع إسماعيل بن حماد بن أبى المغيرة مولى الأشعرى قال : كنت إلى جنب جدى أبى المغيرة ابن مهران فى مسجد على بن زيد ، فمر بنا الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٣٩٤ - ٣٩٥ .

(٢) أورده ابن الجوزى ونسبه أيضاً إلى مقاتل ، فراجعه فى زاد المسير ٤ / ١٢٧ .

(٣) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان عن الحسن رضى الله عنه فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٤٥٥ .

(٤) أورده ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ١٣٨ .

﴿ قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن رشيد ﴾(٨٠)

عن الحسن أن هذه الآية لما نزلت قال ، فقال رسول الله (ـــ) : « رحم الله لوطاً لقد كان يأوى إلى ركن شديد »[١] .

عن الحسن فى قوله « إلى ركن شديد » قال : إلى ركن من الناس[٢] .

عن الحسن قال : قال رسول الله (ـــ) : « رحم الله أخى لوطا ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد فلأى شىء استكان »[٣] .

﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ﴾(٨٢)

عن الحسن رضى الله عنه قال : إن جبريل عليه السلام اجتث مدينة قوم لوط من الأرض ، ثم رفعها بجناحه حتى بلغ بها حيث شاء الله ، ثم جعل عاليها سافلها[٤] .

عن الحسن البصرى قال : كان أصل الحجارة طيناً فشددت[٥] .

---

(١) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا ابن أبى عدى عن عوف عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٤١٩ .

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده الآتى : « حدثنى الحارث قال حدثنا عبد العزيز قال حدثنا مبارك بن فضالة عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٤١٩ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا أبو كريب قال حدثنا جابر بن نوح عن مبارك عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٤١٩ .

(٤) أخرجه عبد بن حميد عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٤٦٣ .

(٥) أورده الطبرى بلا إسناد فراجع تفسيره ١٥ / ٤٣٦ .

﴿ مسومة عند ربك ﴾(٨٣)

قال الحسن : علامتها : بياض فى حمرة[1] .

﴿ إنى أراكم بخير ﴾(٨٤)

قال الحسن « إنى أراكم بخير » : الغنى ورخص السعر[2] .

﴿ بقية الله خير لكم ﴾(٨٦)

قال الحسن : رزق الله خير من بخسكم الناس[3] .

إنك

---

(١) ذكره ابن الجوزى ونسبه أيضاً إلى ابن عباس فراجع زاد المسير ٤ / ١٤٥ .

(٢) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنى محمد بن عمرو بن على قال : حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث عن أبى عامر الخراز عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٤٤٤ .

- كذلك ذكره ابن الجوزى بقوله « رخص الأسعار » فراجع زاد المسير ٤ / ١٤٧ .

(٣) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٥٦ ، والسيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٤٦٦ وعزاه إلى أبى الشيخ .

(٤) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٥٦ .

(٥) أخرجه البخارى فى كتاب تفسير القرآن ، تفسير سورة هود ، قوله تعالى « قالوا يا شعيب » راجع صحيح البخارى ٣ / ١٤٠ .

﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفا ﴾(٩١)

قال الحسن : « ضعيفا » : ذليلاً(١) .

﴿ خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾(١٠٧)

عن الحسن رضى الله عنه فى قوله « ما دامت السماوات والأرض » قال : تبدل سماء غير هذه السماء ، وأرض غير هذه الأرض ، فما دامت تلك السماء وتلك الأرض(٢) .

عن الحسن قال : إذا كان يوم القيامة أخذ الله السماوات السبع والأرضين السبع فطهرهن من كل قذر ودنس ، فصيرهن أرضا بيضاء فضة نوراً يتلألأ ، فصيرهن أرضاً للجنة ، والسماوات والأرض اليوم فى الجنة كالجنة فى الدنيا ، يصيرهن الله على عرض الجنة ، ويضع الجنة عليها ، وهى اليوم أرض زعفرانية عن يمين العرش ، فأهل الشرك خالدين فى جهنم ما دامت أرضاً للجنة(٣) .

عن الحسن عن عمر رضى الله عنه قال : لو لبث أهل النار فى النار كقدر رمل عالج لكان لهم يوم على ذلك يخرجون فيه(٤) .

عن الحسن فى قوله « إلا ما شاء ربك » قال : إن الأستثناء هنا عائد على العصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين من الملائكة والنبيين والمؤمنين حيث يشفعون فى أصحاب الكبائر ، ثم

---

(١) أورده ابن الجوزى وعزاه أيضاً إلى مقاتل وأبى روق ، فراجع زاد المسير ٤ / ١٥٢ .

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن ، فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٤٧٧ .

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن ، فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٤٧٧ .

(٤) أخرجه ابن المنذر عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٤٧٨ .

تأتى رحمة أرحم الراحمين فيخرج من النار من لم يعمل خيراً قط ، وقال يوما من الدهر : لا إله إلا الله[1] .

﴿ وأما الذين سعدوا ففى الجنة ﴾(١٠٦)

قال الحسن البصرى : هى فى حق عصاة الموحدين الذين كانوا فى النار ثم أخرجوا منها[2] .

﴿ فاستقم كما أمرت ﴾(١١٢)

قال الحسن : لما نزلت هذه الآية قال : شمروا شمروا ، فما رؤى ضاحكا[3] .

﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ﴾(١١٣)

عن الحسن قال : خصلتان من العبد إذا صلحتا صلح ما سواهما : الركون إلى الظلمة والطغيان فى النعمة ، قال الله عز وجل « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار » وقال الله عز وجل « ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى »[4] .

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٦٠ .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٦٠ .

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن فراجعه فى فتح القدير ٢ / ٥٣٢ ، والدر المنثور ٤ / ٤٨٠ .

(٤) أخرجه أبو نعيم بهذا الإسناد : « حدثنا محمد بن على قال ثنا عبد الله شداد قال ثنا بكير بن نصير قال ثنا ضمرة عن هشام عن الحسن .. » الحلية ٢ / ١٥٨ .

عن الحسن قال : خصلتان إذا صلحتا للعبد صلح ما سواهما من أمره : الطغيان فى النعمة ، والركون إلى الظلم ، ثم تلا هذه الآية « ولا تركنوا .. »[1] .

﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ﴾[114]

عن الحسن فى قوله « طرفى النهار » قال : الصبح والمغرب[2] .

عن الحسن فى قوله « طرفى النهار » قال : صلاة الصبح وصلاة العصر[3] .

عن الحسن فى قوله « طرفى النهار » قال : الفجر والعصر[4] .

عن الحسن فى قوله « طرفى النهار » قال : الغداة والعصر[5] .

عن الحسن فى قوله « طرفى النهار » قال : المغرب والعصر[6] .

---

(١) أخرجه ابو الشيخ عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٤٨٠ .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٦١ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنى يعقوب قال حدثنا ابن علية قال حدثنا أبو رجاء عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٥٠٣ - ٥٠٤ .
- كذلك ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٦٢ .

(٤) أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن ، فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٤٨١ .

(٥) أخرجه الطبرى بثلاثة أسانيد :
الأول : « حدثنى الحسين بن على الصدائى ، قال حدثنا أبى قال حدثنا مبارك عن الحسن .. » .
والثانى : « حدثنى المثنى قال حدثنا سويد قال أخبرنا ابن المبارك عن مبارك ابن فضالة عن الحسن .. » .
والثالث : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا أبو عامر قال حدثنا قرة عن الحسن .. » انظر تفسير الطبرى ١٥ / ٥٠٤ .

(٦) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ١٦٧ .

عن الحسن فى قوله « طرف النهار » قال : صلاة الغداة والمغرب[1] .

عن الحسن فى قوله « وزلفا من الليل » : قال : العشاء[2] .

عن الحسن فى قوله « وزلفا من الليل » : قال : هما زلفتان من الليل : صلاة المغرب وصلاة العشاء[3] .

عن الحسن فى قوله « وزلفا من الليل » قال : قال الله لنبيه (صـ) « أقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل » قال : زلفا من الليل : المغرب والعشاء ، قال رسول الله (صـ) : هما زلفتا الليل : المغرب والعشاء[4] .

---

(١) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا يحيى عن عوف عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٥٠٣ .

- ولقد ذكر بعضه ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ١٦٧ .

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا يحيى عن عوف عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٥٠٧ .

- ولقد أورد هذا ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٦٢ .

(٣) أورده الطبرى بأربعة أسانيد :

الأول : « حدثنى يعقوب بن إبراهيم وابن وكيع = واللفظ ليعقوب = قالا : حدثنا ابن علية ، قال حدثنا أبو رجاء عن الحسن .. » .

والثانى : « حدثنا ابن حميد وابن وكيع قالا : حدثنا جرير عن أشعث عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٥٠٧ .

والثالث : « حدثنا ابن وكيع قال حدثنا جرير عن الأعمش عن عاصم عن الحسن .. » .

والرابع : « حدثنا ابن حميد قال حدثنا جرير عن عاصم عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٥٠٩ .

- كذلك ذكر هذا الخبر كل من ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ١٦٨ ، وابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٦٢ .

(٤) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنى الحسن بن على قال حدثنا أبى قال =

قال الحسن : وزلفا من الليل : صلاة العتمة[1] .

عن الحسن قال : قد بيَّن الله مواقيت الصلاة فى القرآن ، فقال « أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل » (٧٨ : الإسراء) ، قال : دلوكها : إذا زالت عن بطن السماء ، وكان لها فى الأرض فىء ، وقال : أقم الصلاة طرفى النهار : الغداة والعصر « وزلفا من الليل » : المغرب والعشاء ، فقال ، فقال رسول الله (صـ): هما زلفتا الليل : المغرب والعشاء[2] .

عن الحسن فى قوله « إن الحسنات يذهبن السيئات » قال : الصلوات الخمس[3] .

عن الحسن فى قوله « إن الحسنات يذهبن السيئات » قال : استعينوا على السيئات القديمات بالحسنات الحديثات ، وإنكم لن تجدوا شيئا أذهب لسيئة قديمة من حسنة حديثة ، وتصديق ذلك فى كتاب الله تعالى « إن الحسنات يذهبن السيئات »[4] .

= حدثنا مبارك عن الحسن » تفسير الطبرى ١٥ / ٥٠٨ ، كذلك ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٤٨١ وعزاه إلى ابن جرير وابن أبى حاتم وأبى الشيخ » .

(١) ذكره ابن الجوزى وعزاه أيضاً إلى ابن عباس ومجاهد وابن زيد ، فراجعه فى زاد المسير ٤ / ١٦٨ .

(٢) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : » قال حدثنا سويد قال أخبرنا ابن المبارك عن المبارك بن فضالة عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٥٠٨ .

(٣) أورده الطبرى بإسنادين :

الأول : » حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا يحيى وحدثنا ابن وكيع قال حدثنا أبو أسامة = جميعاً = عن عوف عن الحسن .. » .

الثانى : » حدثنى المثنى قال حدثنا عمرو بن عون قال أخبرنا هشيم عن منصور عن الحسن .. » انظر تفسير الطبرى ١٥ / ٥١٠ - ٥١١ .

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن ، انظر الدر المنثور ٤ / ٤٨٩ - ٤٩٠ .

عن الحسن فى قوله « ذلك ذكرى للذاكرين » قال : هم الذين يذكرون الله فى السراء والضراء والشدة والرخاء ، والعافية والبلاء[1] .

﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم ﴾[116]

سألنى بلال عن قول الحسن فى القدر : قال : فقال : سمعت الحسن يقول « قيل يا نوح .. عذاب أليم » قال : بعث الله هودًا إلى عاد ، فنجى الله هودًا والذين آمنوا معه وهلك المتمتعون ، وبعث الله صالحاً إلى ثمود ، فنجى الله صالحاً وهلك المتمتعون ، فجعلت أستقريه الأمم فقال : ما أراه إلا كان حسن القول فى القدر[2] .

﴿ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ﴾[118 - 119]

قلت للحسن ، قوله : « ولا يزالون .. » قال : الناس مختلفون على أديان شتى إلا من رحم ربك ، فمن رحم غير مختلفين[3] .

عن الحسن « ولا يزالون مختلفين » قال : أهل الباطل « إلا من رحم ربك »[4] .

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن ، فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٤٩٠ ، وفتح القدير ٢ / ٥٣٣ .

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : « حدثنا محمد بن المثنى قال حدثنا ابن أبى عدى عن داود قال سألنى بلال .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٥٢٨ .

(٣) أورده الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنى يعقوب بن إبراهيم وابن وكيع قالا : حدثنا ابن علية قال أخبرنا منصور بن عبد الرحمن قال قلت للحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٥٢٢ .

- هذا وقد أورده الطبرى بإسناد آخر : « قال حدثنا معلى بن أسد قال حدثنا عبد العزيز عن منصور بن عبد الرحمن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٥٢٣ .

(٤) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « قال حدثنا عبد العزيز قال حدثنا الحسن بن واصل عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٥٢٤ .

إن الحسن قال : مختلفين فى الرزق ، سخر بعضهم لبعض[1] .

قال الحسن : « إلا من رحم ربك » قال : أهل رحمة الله لا يختلفون[2] .

عن الحسن فى الآية قال : الناس مختلفون على أديان شتى إلا من رحم ربك غير مختلف « ولذلك خلقهم » قال : للاختلاف[3] .

عن الحسن فى قوله « ولذلك خلقهم » قال : خلق هؤلاء لجنته وخلق هؤلاء لناره وخلق هؤلاء لرحمته وخلق هؤلاء لعذابه[4] .

---

(١) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : « حدثنا ابن عبد الأعلى قال حدثنا المعتمر عن أبيه أن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٥٣٤ .
- كذلك أورده ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٦٥ .

(٢) أورده ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ١٧٢ .

(٣) أورده السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٤٩١ .
- وكذلك أخرجه ابن جرير بهذا الإسناد : « حدثنا أبو كريب قال حدثنا وكيع وحدثنا ابن وكيع قال حدثنا أبى عن مبارك بن فضالة عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٥٣٥ .
- كذلك ذكر هذا الخبر كل من ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ١٧٢ ، وابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٦٥ .

(٤) أورده الطبرى بأربعة أسانيد هى :
الأول : « حدثنى يعقوب قال حدثنا ابن علية قال حدثنا منصور بن عبد الرحمن قال ، قلت للحسن .. » .
والثانى : « حدثنا ابن وكيع قال حدثنا ابن علية عن منصور عن الحسن .. » .
والثالث : « حدثنى المثنى قال حدثنا المعلى بن أسد قال حدثنا عبد العزيز عن منصور بن عبد الرحمن عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٥٣٥ .
والرابع : « حدثنا معلى بن أسد قال حدثنا عبد العزيز عن منصور بن عبد الرحمن عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٥٣٢ .
- كذلك ذكر هذا الخبر ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٦٥ والسيوطى فى الدر
=

إن الحسن قال فى هذه الآية : خلق هؤلاء لهذه ، وخلق هؤلاء لهذه[1] .

عن الحسن قال : أما أهل رحمة الله فإنهم لا يختلفون اختلافاً يضرهم[2] .

﴿ وجاءك فى هذه الحق ﴾[120]

عن الحسن قال : فى هذه السورة[3] .

= المنثور ٤ / ٤٩٢ بقوله « وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن .. » .

(١) أخرجه الطبرى بإسناده : « قال حدثنا الحجاج بن المنهال قال حدثنا حماد عن خالد الحذاء إن الحسن قال .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٥٣٥ .

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا هوذة بن خليفة قال حدثنا عوف عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٥٣٥ - ٥٣٦ .

(٣) أورده الطبرى بثلاثة أسانيد هى :

الإسناد الأول : « حدثنى يعقوب قال حدثنا ابن علية قال أخبرنا أبو رجاء عن الحسن .. » .

والثانى : « حدثنا ابن المثنى قال حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن شعبة عن أبى رجاء عن الحسن .. » .

والثالث : « حدثنا أبو كريب قال حدثنا وكيع وحدثنا ابن وكيع قال حدثنا أبى عن شعبة عن أبى رجاء عن الحسن .. » انظر تفسير الطبرى ١٥ / ٥٤٢ .

- كذلك أورده الطبرى - مع اختلاف يسير فى بعض ألفاظه - بهذا الإسناد : « حدثنى المثنى قال حدثنا أدم قال حدثنا شعبة عن أبى رجاء، قال سمعت الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٥٤٢ .

- كذلك أورد هذا الخبر كل من ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ١٧٣ ، والسيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٤٩٣ . والشوكانى فى فتح القدير ٢ / ٥٣٦ .

عن الحسن قال : فى الدنيا[1] .

تفسير سورة يوسف

﴿ لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾(٧)

قال الحسن : « آيات للسائلين » : عبرة[2] .

﴿ وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب ﴾(١٥)

قال الحسن : كان سنه حين ألقى فى الجب : اثنتا عشرة سنة[3] .

قال الحسن : كان سنه حين ألقى فى الجب : سبع عشرة سنة[4] .

قلت للحسن : أيحسد المؤمن المؤمن ؟ قال : لا أبالك ، ما نسَّاك نبى يعقوب[5] .

﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب ﴾(١٨)

عن الحسن قال : جىء بقميص يوسف إلى يعقوب ، فجعل ينظر إليه ، فيرى أثر الدم ولا يرى فيه خرقا ، قال : يا بنى : ما كنت أعهد الذئب حليما إذ أكل ابنى وأبقى قميصه[6] !.

---

(١) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا أبو كريب قال حدثنا وكيع وحدثنا ابن وكيع قال حدثنا أبى عن شعبة عن قتادة قال . كان الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٥٤٣ .

- كذلك أورد هذا الخبر كل من ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ١٧٣ وابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٦٥ ، والسيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٤٩٣ .

(٢) اخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن ، فراجعه فى فتح القدير ٣ / ٨ .

(٣) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ١٩٠ .

(٤) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ١٩٠ ونسبه أيضاً إلى ابن السائب .

(٥) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ١٩٠ بقوله « قال حميد : قلت للحسن .. » .

(٦) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنى عبيد الله بن أبى زياد قال حدثنا عثمان =

عن الحسن فى قوله « فصبر جميل » قال : الصبر الجميل الذى ليس فيه شكوى إلا إلى الله[1] .

﴿ ولما بلغ أشده ﴾[22]

قال الحسن : أربعون سنة[2] .

﴿ وقالت هيت لك ﴾[23]

قال الحسن : هلم لك[3] .

= ابن عمرو قال حدثنا قرة عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٥٨٠ - ٥٨١ .

- كذلك أورد هذا الخبر السيوطى بقوله « وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن الحسن رضى الله عنه .. » انظر الدر المنثور ٤ / ٥١٣ .

- كذلك أورد الطبرى هذا الخبر مرة أخرى مختصراً بأربعة أسانيد هى :

الأول : « حدثنا محمد بن المثنى قال حدثنا حماد بن مسعدة عن عمران بن مسلم عن الحسن .. » .

والثانى : « حدثنا أحمد بن عبد الصمد الأنصارى قال حدثنا أبو عامر العقدى عن قرة قال سمعت الحسن .. » .

والثالث : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا أبو عامر قال حدثنا قرة عن الحسن . » .

والرابع : « قال حدثنا حماد بن مسعدة قال حدثنا قرة عن الحسن .. » انظر تفسير الطبرى ١٥ / ٥٨١ - ٥٨٢ .

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن ، فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٥١٤ .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٧٣ .

(٣) أورده الطبرى بأربعة أسانيد هى :

الأول : « حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة قال قال الحسن .. » .

والثانى : « حدثنا الحسن بن محمد قال حدثنا عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة عن الحسن .. » . =

قال الحسن : يقول بعضهم : هلم لك[1] .

عن الحسن : فى قوله « هيت لك » قال : كلمة بالسريانية : أى عليك[2] .

﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾[24]

عن الحسن قال : زعموا - والله أعلم - أن سقف البيت انفرج فرأى يعقوب عاضاً على أصابعه[3] .

= والثالث : « حدثنا الحسن بن محمد قال حدثنا خلف بن هشام قال حدثنا محبوب عن قتادة عن الحسن .. » .

والرابع : « حدثنا أحمد بن يوسف قال حدثنا القاسم قال حدثنا هشيم عن يونس عن الحسن .. » انظر تفسير الطبرى ١٦ / ٢٦ - ٢٨ .

- كذلك ذكر هذا الخبر ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٧٣ والسيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٥١٩ بقوله « تعال » .

(١) أورده الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن قتادة عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٢٦ .

- كذلك أورده ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٧٣ .

(٢) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا الحسن بن محمد قال حدثنا عبد الوهاب بن عطاء عن عمرو عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٢٧ .

- كذلك اورد هذا الخبر كل من ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٧٣ ، والشوكانى فى فتح القدير ٣ / ١٩ .

(٣) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا أبو كريب = قال حدتنا وكيع وحدثنا ابن وكيع ، قال حدثنا أبى عن قرة بن خالد السدوسى عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٤٢ .

- كذلك أورد هذا الخبر السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٥٥٢ وعزاه إلى ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وأبى الشيخ .

عن الحسن قال : رأى تمثال يعقوب عاضاً على إصبعه ، يقول : يوسف ، يوسف[1] .

عن الحسن رضى الله عنه فى قوله « ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » قال : إنه لما هم قيل له : يوسف ارفع رأسك ، فرفع رأسه ، فإذا هو بصورة فى سقف البيت تقول : يا يوسف ، أنت مكتوب فى الأنبياء فعصمه الله عز وجل[2] .

﴿ وألفيا سيدها ﴾[25]

عن الحسن عن زيد بن ثابت قال : السيد : الزوج[3] .

---

(١) لقد أورد الطبرى هذا الخبر - مع اختلاف - يسير فى بعض ألفاظه وذلك بهذه الأسانيد :

الأول : « حدثنى يعقوب قال حدثنا ابن علية عن يونس عن الحسن .. » .

الثانى : « حدثنا ابن وكيع قال حدثنا ابن علية عن يونس عن الحسن .. » .

الثالث : « حدثنى محمد بن عبد الأعلى قال حدثنا يزيد بن زريع عن يونس عن الحسن .. » .

الرابع : « قال حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن .. » .

الخامس : « حدثنى المثنى قال حدثنا عمرو بن عون قال أخبرنا هشيم عن منصور ويونس عن الحسن .. » .

السادس : « حدثنا الحسن بن يحيى قال أخبرنا جعفر بن سليمان عن يونس بن عبيد عن الحسن .. » انظر تفسير الطبرى ١٦ / ٤٣ - ٤٧ .

- كذلك أورد ابن كثير هذا الخبر فى تفسيره ٢ / ٤٧٤ ، والسيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٥٢٢ وعزاه إلى ابن جرير وابن أبى حاتم وأبى الشيخ .

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٥٢٢ .

(٣) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنى المثنى قال حدثنا إسحق قال حدثنى يحيى بن سعيد عن أشعث عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٥١ .

﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾[٢٦]

عن الحسن فى قوله « وشهد شاهد » قال : رجل له رأى أشار برأيه[١] .

عن الحسن فى قوله « وشهد شاهد » قال : كان صبيا فى المهد[٢] .

---

(١) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنى المثنى قال حدثنا عمرو بن عون قال أخبرنا هشيم عن بعض أصحابه عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٥٨ .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره/ ٤٧٥ .

قلت : ولعله من المفيد هنا أن أشير إلى من تكلموا فى المهد كما رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « لَمْ يَتكلَّمْ فى المَهْدِ إلا ثَلاثَةٌ : عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، وصَحِب جُرَيْجٍ ، وَكَانَ جُرَيْجٌ رَجُلاً عَابِداً ، فَاتَّخَذَ صَوْمَعَةً فكانَ فِيهَا ، فَأتَتْهُ أُمُّهُ وَهو يُصلى فقالَتْ : يا جُرَيْجُ ، فقال : يَارَبُّ أُمِّى وَصَلاتِى فأَقْبلَ على صلاتِهِ فانصرفَتْ فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وهُو يُصلِّى ، فَقَالَتْ : يَا جُرَيْجُ ، فقال : أىْ رَبُّ أُمى وَصَلاتِى . فَأَقْبلَ على صَلاتِهِ ، فلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَد أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّى فَقَالَتْ : يَا جُرَيْجُ ، فقال : أىْ رَبُّ أُمِّى وَصَلاتِى ، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاتِهِ ، مِنَ الْغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّى فَقَالَتْ : يَا جُرَيْجُ ، فقال ح أىْ رَبُّ أُمِّى وَصَلاتِى ، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاتِهِ ، فَقَالَتْ : اللَّهُمَّ لا تُمِتْه حَتَّى يَنْظُرَ إِلَى وُجُوهِ الْمومِسَاتِ .

فَتَذَاكَرَ بَنُو إِسْرائِيلَ جُرَيْجاً وَعِبادَتَهُ ، وَكَانَتِ امْرأة بَغِىُّ يُتَمثَّلُ بحُسْنِها فقالَتْ : أنْ شِئْتُمْ لأَفْتِنَنَّهُ ، فتعرَّضَتْ لَهُ ، فلم يلْتفتْ إِليْهَا ، فأتَتْ رَاعِياً كَانَ يَأْوِى إِلَى صَوْمعَتِه ، فأمْكنَتْهُ مِنْ نفسِهَا فوقع عليْهَا . فحملَتْ ، فَلَمَّا وَلَدتْ قَالَتْ : هُوَ جُرَيْجٌ ، فأتَوْهُ فاسْتنزلُوه وهدَمُوا صَوْمعَتَهُ ، وجَعَلُوا يَضْرِبُونَه ، فقال : دَعُونِى حَتَّى أُصلى ، فصلَّى ، فلَمَّا على جُرَيْجٍ يقَبِّلُونَهُ ويَتَمَسَّحُونَ بِهِ وقَالُوا : نَبْنِى لَكَ صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ ، قال ، لا ، أعِيدُوهَا مِنْ طينٍ كَمَا كَانَتْ ، فَفَعَلُوا .

وَبيْنَا صَبِىٌّ يرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ ، فَمَرَّ رَجُلَ رَاكِبٌ على دابَّةٍ فارِهَةٍ وَشارةٍ حَسَنَةٍ ، فقالت أُمُّهُ : اللَّهُمَّ اجْعَل ابْنِى مِثْلَ هذا ، فَتَرَكَ الثَّدْىَ وَأَقْبلَ إِلَيْهِ فَنظَرَ إِلَيْهِ فقال : اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْنِى مِثْلَه ، ثُمَّ أَقْبلَ عَلَى ثَدْيِهِ فَجَعَلَ يَرْتَضِعُ » فَكَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى رسول الله ﷺ وَهُوَ يحْكِى ارْتِضاعَهُ بِأُصْبُعِه السَّبَّابة فى فِيهِ ، فَجَعلَ يَمَصُّهَا .

قال : « وَمَرُّوا بِجارِيَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا ، وَيَقُولُونَ : زَنَيْتِ سَرَقْتِ . وَهِى تَقُولُ : حَسْبِىَ اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ : فقالت أُمُّهُ : اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ ابْنِى مِثْلَهَا ، فَتَركَ الرَّضَاعَ وَنَظَرَ إِلَيها فقال : اللَّهُمَّ اجْعَلْنِى مِثْلَهَا .

عن الحسن فى قوله « وشهد شاهد » قال : هو رجل له فهم وعلم[1] .

﴿ واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾[29]

عن الحسن رضى الله عنه فى قوله « واستغفرى .. » قال حلما[2] .

﴿ قد شغفها حبا ﴾[30]

عن الحسن فى قوله « قد شغفها حبا » قال : بطنها حبا[3] .

فَهُنالكَ تَراجَعَا الحَديث فقالَت : مَرَّ رَجُلَ الْهَيْئَةِ فَقُلْتَ : اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِى مِثْلَهُ فَقُلْتَ : اللَّهُمَّ لا تَجْعَلنِى مِثْلَهُ ، وَمَرُّوا بِهَذِهِ الأمَةِ وَهُم يَضْرِبُونَهَا ويَقُولُونَ : زَنَيْتِ سَرقْتِ ، فَقُلْتُ : اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ ابْنِى مِثْلَها فَقُلْتَ : اللَّهُمَّ اجعلْنِى مِثْلَهَا ! قالَ : إنَّ ذلكَ الرَّجُلَ كَانَ جبارا فَقُلتُ : اللَّهُمَّ لا تجعَلْنِى مِثْلَهُ ، وإنَّ هَذِهِ يَقُولُون لها زَنَيْت ، وَلَمْ تَزْنِ ، وَسَرقْتِ ، وَلَمْ تَسْرِقْ ، فَقُلْتَ : اللَّهُمَّ اجْعَلْنِى مِثْلَهَا » متفق عليه .

« والمُومِسَاتُ » : بضم الميم الأولى ، وإسكان الواو وكسر الميم الثانية وبالسين المهملة ؛ وهنَّ الزَّوانِى . والمُومِسةُ : الزانية . وقوله . « دابَّةٌ فَارِهَة » بالْفاءِ : أىْ حاذِقَةٌ نِفِيسَةٌ . « والشَّارَةُ » بِالشِّين المعْجمةِ وتخْفيف الرَّاءِ : وَهى الجمالُ الظَّاهِرُ فى الهَيْئَةِ والملبس . ومعْنى « تراجعا الحديث » أىْ : حدَّثَتِ الصَّبى وحدَّثَهَا ، والله أعلم .

انظر : رياض الصالحين ١ / ١٦٥ - ١٦٧ .

(١) أورده الشوكانى فى فتح القدير ٣ / ٢٠ .

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن ، فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٥٢٧ .

(٣) أورده الطبرى بستة أسانيد هى :

الأول : « حدثنى يعقوب قال حدثنا ابن علية عن أبى رجاء عن الحسن .. » .

والثانى : « حدثنا ابن وكيع قال حدثنا ابن علية عن أبى رجاء عن الحسن .. » .

والثالث : « حدثنا الحسن بن محمد قال حدثنا عبد الوهاب عن قرة عن الحسن .. » .

﴿ فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن ﴾[٣١]

عن الحسن أنه كان يقرأ « متكئا » ويقول : هو المجلس والطعام[١] .

عن الحسن فى قوله « متكئا » قال : طعاما[٢] .

عن الحسن قال : هو المجلس المعد فيه مفارش ومخاد وطعام ، وفيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه[٣] .

عن الحسن فى قوله « فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن » قال ، قال النبي (ـــ) : أعطى يوسف وأمه ثلث حسن أهل الدنيا ، وأعطى الناس الثلثين[٤] .

والرابع : « حدثنا الحسن قال حدثنا أبو قطن قال حدثنا أبو الأشهب عن الحسن .. » .
والخامس : « حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن .. » .
والسادس : « قال حدثنا أبى عن أبى الأشهب عن أبى رجاء والحسن .. »
راجع تفسير الطبرى ١٦ / ٦٤ - ٦٥ .
- ولقد ذكر هذا الخبر أيضاً السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٥٢٨ وزاد عليه قوله « قال : وأهل المدينة يقولون بطنها حبا » .

(١) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « قال حدثنا عمرو بن عون قال أخبرنا هشيم عن أبى الأشهب عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٧٠ .

(٢) أورده الطبرى بإسنادين :
الأول : « حدثنى يعقوب والحسن بن محمد قالا : حدثنا ابن علية عن أبى رجاء عن الحسن .. » .
والثانى : « حدثنا ابن وكيع قال حدثنا ابن علية عن أبى رجاء عن الحسن .. » .
انظر : تفسير الطبرى ١٦ / ٧٢ .

(٣) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٧٦ .

(٤) أخرجه الطبرى بإسنادين :
الأول : « حدثنا ابن حميد قال حدثنا حكام عن أبى معاذ عن يونس عن
=

عن الحسن رضى الله عنه قال : قسم الحسن ثلاثة أقسام ، فأعطى يوسف الثلث ، وقسم الثلثان بين الناس ، وكان أحسن الناس[1] .

عن الحسن فى قوله « وقلن حاش لله » قال : معاذ الله[2] .

﴿ قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما ﴾[37]

قال الحسن : لا يأتيكما طعام ترزقانه فى اليقظة إلا أخبرتكما به قبل أن يصل إليكما ؛ لأنه كان يخبر بما غاب كعيسى عليه السلام[3] .

﴿ وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك ﴾[42]

عن الحسن قال ، قال نبى الله(ص): رحم الله يوسف ، لولا كلمته ما لبث فى السجن طول ما لبث ، يعنى قوله « اذكرنى عند ربك » قال : ثم يبكى الحسن فيقول : نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس[4] .

= الحسن .. » .

والثانى : « حدثنا ابن حميد قال حدثنا حكام عن عيسى بن يزيد عن الحسن .. » انظر تفسير الطبرى ١٦ / ٨٠ - ٨١ .

- ولقد أورد هذا الخبر أيضاً السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٥٢٢ وعزاه إلى أبى الشيخ .

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٥٢٢ وعزاه إلى ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

(٢) أورده الطبرى بهذا الإسناد : « قال حدثنا عبد الوهاب عن عمرو عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٨٣ .

(٣) أورده ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٢٤٤ .

(٤) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنى يعقوب بن إبراهيم وابن وكيع قالا : حدثنا ابن علية قال حدثنا يونس عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ١١٢ .

- كذلك أورد هذا الخبر السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٥٤١ وعزاه إلى أحمد فى الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبى الشيخ .

عن الحسن قال : ذكر لنا أن نبي الله (صـ)قال : لولا كلمة يوسف ما لبث فى السجن طول ما لبث[1] .

عن الحسن عن النبي (صـ)قال : لو لم يقل - يعنى يوسف - الكلمة التى قال ما لبث فى السجن طول ما لبث ، حيث يبتغى الفرج من عند غير الله[2] .

عن الحسن رضى الله عنه قال : لما قال يوسف عليه السلام للساقى : اذكرنى عند ربك ، قيل له « يا يوسف » اتخذت من دونى وكيلا ؟ لأطيلن حبسك ، فبكى يوسف عليه السلام وقال : يا رب تشاغل قلبى من كثرة البلوى فقلت كلمة[3] .

عن الحسن فى قوله « بضع سنين » قال : البضع ما بين الخمس إلى السبع[4] .

﴿ وادكر بعد أمة ﴾[45]

عن الحسن فى قوله « ـــــ » قال : بعد حين[5] .

---

(١) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنى يعقوب قال حدثنا ابن علية عن أبى رجاء عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ١١٢ .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٧٩ . والشوكانى فى فتح القدير ٣ / ٢٩ .

(٣) ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٥٤٢ وقال « أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ » .

(٤) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٢٢٨ .

(٥) أورده الطبرى بثلاثة أسانيد هى :

الأول : « حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن .. » .

والثانى : « حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن قتادة عن الحسن.. » .
=

عن الحسن فى قوله « ــــ » قال : بعد أمة من الناس[1] .

﴿ فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة ﴾[50]

عن الحسن عن النبى(صـ)قال : « رحم الله أخى يوسف ، لو أنا أتانى الرسول بعدطول الحبس لأسرعت الإجابة حين قال « ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة »[2] .

﴿ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ... ﴾[52 - 53]

قال الحسن : ليعلم العزيز أنى لم أخنه فى امرأته بالغيب : أى إذا غاب عنى[3] .

عن الحسن رضى الله عنه فى قوله « ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب » قال : قال له جبريل عليه السلام : اذكر همك ، قال « وما أبرئ نفس إن النفس لأمارة بالسوء »[4] .

= والثالث : « حدثنا الحسن بن محمد قال حدثنا عفان قال حدثنا يزيد بن زريع قال حدثنا سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن .. » انظر تفسير الطبرى ١٦ / ١٢٠ - ١٢١ .

- كذلك ذكر هذا الخبر أيضاً السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٥٤٤ والشوكانى فى فتح القدير ٣ / ٣٢ .

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن . فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٥٤٤ .

(٢) أخرجه أحمد فى الزهد وابن المنذر عن الحسن فراجع الدر المنثور ٤ / ٥٤٨ .

(٣) أورده ابن الجوزى ونسبه أيضا إلى ابن عباس ومجاهد وقتادة والجمهور فراجع زاد المسير ٤ / ٢٣٩ .

(٤) أورده الطبرى باسنادين :

الأول : « حدثنا ابن وكيع قال حدثنا العلاء بن عبد الجبار وزيد بن حباب عن =

عن الحسن رضى الله عنه فى قوله « ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب » قال : خشى نبى الله (ص) أن يكون زكى نفسه فقال « وما أبرئ نفسى .. » الآية[1] .

عن الحسن رضى الله عنه فى قوله « وما أبرئ نفس » قال : يعنى همته التى هم بها[2] .

﴿ قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ﴾[55]

عن الحسن فى قوله « حفيظ عليم » قال : حفيظ لما استودعتنى عليه ، عليم بهذه السنين[3] .

عن الحسن رضى الله عنه - قال : قيل ليوسف عليه السلام : تجوع وخزائن الأرض بيدك ؟ قال : إنى أخاف أن أشبع فأنسى الجيعان[4] .

= حماد بن سلمة عن ثابت عن الحسن .. » .

والثانى : « حدثنا الحسن قال حدثنا عفان قال حدثنا حماد عن ثابت عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ١٤٥ .

- كذلك أورده هذا السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٥٥٠ وعزاه إلى ابن جرير وابن المنذر .

(١) أخرجه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن . فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٥٥٠ وزاد المسير ولابن الجوزى ٤ / ٢٤١ .

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن . فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٥٥٠

(٣) أورده ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٢٤٣ .

(٤) أخرجه وكيع فى الغرر وأبو الشيخ والبيهقى فى شعب الإيمان عن الحسن. فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٥٥٢ .

﴿ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾[٥٧]

قال : سألت الحسن - رضى الله عنه - فقلت : يا أبا سعيد ، قوله « ولأجر الآخرة .. » ما هى ؟ قال : يا مالك ، اتقوا المحارم ، خمصت بطونهم تركوا المحارم وهم يشتهونها[١] .

﴿ فعرفهم وهم له منكرون ﴾[٥٨]

قال الحسن : إنه ما عرفهم حتى تعرفوا إليه[٢] .

﴿ جعل السقاية فى رحل أخيه ﴾[٧٠]

عن الحسن أنه كان يقول : « الصواع » و « والسقاية » سواء : هو الإناء الذى يشرب فيه[٣] .

﴿ وفوق كل ذى علم عليم ﴾[٧٦]

عن الحسن فى قوله « ـــ » قال : ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهى العلم إلى الله[٤] .

---

(١) أورده السيوطى بقوله « اخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن مالك بن دينار رضى الله عنه قال : سألت الحسن .. » الدر المنثور ٤ / ٥٥٤ .

(٢) أورده ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٢٤٧ .

- كذلك أورده السيوطى بقوله : « أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عون قال : قلت للحسن - رضى الله عنه - ترى يوسف عرف إخوته ؟ قال : لا والله ما عرفهم حتى تعرفوا إليه » انظر الدر المنثور ٤ / ٥٥٤ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : « حدثنا الحسن بن محمد قال حدثنا عفان قال حدثنا عبد الواحد عن يونس عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ١٧٢ .

(٤) أخرجه الطبرى بإسنادين :

الأول : « حدثنا ابن حميد قال حدثنا جرير عن ابن شبرمة عن الحسن .. » .

والثانى : « حدثنا الحسن بن محمد قال حدثنا على عن جرير عن ابن شبرمة

=

سمعت الحسن قرأ هذه الآية يوما « وفوق .. » ثم وقف فقال : إنه والله ما أمسى على ظهر الأرض عالم إلا فوقه من هو أعلم منه حتى يعود العلم إلى الذى علمه[1] .

﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾[77]

قال الحسن : إنهم كذبوا عليه فيما نسبوا إليه[2] .

﴿ وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن ﴾[84]

عن الحسن رضى الله عنه قال : كان منذ خرج يوسف عليه السلام من عند يعقوب عليه السلام إلى يوم رجع ثمانون سنة لم يفارق الحزن قلبه ، ودموعه تجرى على خديه ، ولم يزل يبكى حتى ذهب بصره ، والله ما على وجه الأرض يومئذ خليقة أكبر على الله من يعقوب[3] .

عن الحسن عن الأحنف بن قيس أن النبى (ص) قال : « إن داود عليه السلام قال : يا رب ، إن بنى إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فاجعلنى لهم رابعاً ، فأوحى الله تعالى إليه : أن يا داود ، إن إبراهيم ألقى فى النار بسببى فصبر ، وتلك بلية لم تنلك ، وإن إسحاق

= عن الحسن .. » انظر تفسير الطبرى ١٦ / ١٩٣ .
- وكذلك أورد هذا الخبر السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٥٦٢ وعزاه إلى ابن جرير وأبى الشيخ وزاد عليه « منه بدأ وإليه يعود » .

(١) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا الحسن بن محمد قال حدثنا عاصم قال حدثنا جويرية عن بشير الهجيمى قال سمعت الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ١٩٣ .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٢٦٤ .

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن ، انظر الدر المنثور ٤ / ٥٦٨ .
- كذلك أورده الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنى عمرو بن عبد الحميد الأملى قال حدثنا أبو أسامة عن هشام عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٢٣١ - ٢٣٢ .

بذل مهجة دمه بسببى فصبر ، وتلك بلية لم تنلك ، وإن يعقوب أخذت منه حبيبه فابيضت عيناه من الحزن فصبر ، وتلك بلية لم تنلك »[١] .

عن الحسن - رضى الله عنه - عن النبى (ـــ) أنه سئل : ما بلغ وجد يعقوب على ابنه ؟ قال : وجد سبعين ثكلى ، قيل : فما كان له من الأجر ؟ قال : أجر مائة شهيد ، وما ساء ظنه بالله ساعة من ليل أو نهار[٢] .

---

(١) ذكره ابن كثير بقوله « وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن الحسن عن الأحنف بن قيس أن النبى (ص).. » تفسير ابن كثير ٢ / ٤٨٧ .
قلت : ولله دره ابن كثير إذ عقب على هذا الخبر فقال ما نصه « وهذا مرسل وفيه نكارة ، فإن الصحيح أن إسماعيل هو الذبيح ، ولكن على بن زيد بن جدعان له مناكير وغرائب كثيرة والله أعلم ، وأقرب ما فى هذا أن الأحنف بن قيس - رحمه الله - حكاه عن بعض بنى إسرائيل ككعب ووهب ونحوهما والله أعلم ، فإن بنى إسرائيل ينقلون أن يعقوب كتب إلى يوسف لما احتبس أخاه بسبب السرقة يتلطف له فى رد ابنه ويذكر له أنهم أهل بيت مصابون بالبلاء ، فإبراهيم ابتلى بالنار ، وإسحاق بالذبح ، ويعقوب بفراق يوسف فى حديث طويل لا يصح والله أعلم » انظر تفسير ابن كثير ٢ / ٤٨٧ - ٤٨٨ .

(٢) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا ابن حميد قال حدثنا حكام عن عيسى بن يزيد عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٢٢٧ .
- كذلك نقله السيوطى عن الطبرى فى الدر المنثور ٤ / ٥٧٠ .
- كذلك أورده الطبرى عن الحسن منسوبا إلى النبى (ص) بهذا الإسناد : « حدثنا به ابن حميد مرة أخرى قال : حدثنا حكام عن أبى معاذ عن يونس عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٢٢٧ .

﴿ حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين ﴾[٨٥]

عن الحسن فى قوله « حرضا » قال : هرما[١] .

عن الحسن فى قوله « من الهالكين » قال : من الميتين[٢] .

﴿ قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله ﴾[٨٦]

عن الحسن فى قوله « بثى وحزنى » قال : حاجتى وحزنى إلى الله[٣] .

عن الحسن فى قوله « بثى » قال : حاجتى[٤] .

عن الحسن فى قوله « بثى » قال : حزنى[٥] .

عن الحسن - رضى الله عنه - قال : من ابتلى ببلاء فكتمه ثلاثا ، لا يشكو إلى أحد أتاه الله برحمته[٦] .

---

(١) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا ابن وكيع قال حدثنا عمرو عن أبى بكر الهذلى عن الحسن » تفسير الطبرى ١٦ / ٢٢٣ .

(٢) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا ابن وكيع قال حدثنا عمرو بن عون عن أبى بكر الهذلى عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٢٢٥ .

(٣) أورده الطبرى بإسنادين :
الأول : « حدثنا ابن وكيع قال حدثنا أبو أسامة عن عوف عن الحسن .. » .
والثانى : « حدثنا الحسن بن محمد قال حدثنا هوذة بن خليفة قال حدثنا عوف عن الحسن » تفسير الطبرى ١٦ / ٢٢٦ .

(٤) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا يحيى بن سعيد عن عوف عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٢٢٦ .
- كذلك أورده السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٥٧٣ .

(٥) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : « حدثنى محمد بن عمرو قال حدثنا أبو عاصم قال حدثنا يحيى وسعيد عن عوف عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٢٢٦ .

(٦) أخرجه ابن أبى الدنيا والبيهقى عن الحسن فراجعه الدر المنثور ٤ / ٥٧٢ .

﴿ ببضاعة مزجاة ﴾(٨٨)

قال الحسن : البضاعة كانت أقِطا[١] .

عن الحسن قال : ثمن الطعام قليل[٢] .

عن الحسن فى قوله « ببضاعة مزجاة » قال : القليلة[٣] .

﴿ اذهبوا بقميصى هذا ﴾(٩٣)

عن الحسن رضى الله عنه - أن رسول الله (ص) قال فى قوله « اذهبوا بقميصى هذا » أن نمرود لما ألقى إبراهيم فى النار ، نزل إليه جبريل بقميص من الجنة ، وطنفسة من الجنة ، فألبسه القميص وأقعده على الطنفسة ، وقعد معه يتحدث فأوحى الله إلى النار « كونى بردا وسلاماً على إبراهيم » ولولا أنه قال : وسلاما لأذاه البرد ولقتله البرد[٤] .

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٢٧٧ .
وأقطا : هو الشيء الذى يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يمصل .
انظر : لسان العرب ١ / ٩٩ .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٨٨ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسنادين :
الأول : « حدثنا ابن وكيع قال حدثنا عمرو بن محمد عن أبى بكر الهذلى عن سعيد والحسن .. » .
والثانى : « قال حدثنا عمرو بن عون قال أخبرنا هشيم عن منصور عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٤) أخرجه أبو الشيخ عن الحسن ، الدر المنثور ٤ / ٥٧٩ .

﴿ إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾[94]

عن الحسن قال : ذكر لنا أنه كان بينهما يومئذ ثمانون فرسخا ، يوسف بأرض مصر ، ويعقوب بأرض كنعان ، وقد أتى لذلك زمان طويل[1] .

عن الحسن رضى الله عنه قال : « وجد ريح يوسف من مسيرة شهر »[2] .

عن الحسن فى قوله : « لولا أن تفندون » قال : تهرمون[3] .

---

(١) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٢٥١ .
- ولقد ذكر هذا الخبر أيضاً ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٩٠ .

(٢) أخرجه ابن المنذر عن الحسن ، الدر المنثور ٤ / ٥٨١ .

(٣) أخرجه الطبرى بثلاثة أسانيد هى :
الأول : « حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن .. » .
والثانى : « حدثنى يعقوب قال حدثنا هشيم قال أخبرنا أبو الأشهب عن الحسن .. » .
والثالث : « حدثنى المثنى قال حدثنا عمرو بن عون قال أخبرنا هشيم عن أبى الأشهب وغيره عن الحسن » انظر تفسير الطبرى ١٦ / ٢٥٥ - ٢٥٦ .
- كذلك أورد هذا الخبر كل من ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٢٨٥ وابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٩٠ .
- وروى أيضاً هذا الخبر عنْ طريق سفيان الثورى عن أبى مودود عن الحسن ، فراجع تفسير الثورى ص ١٤٦ .

﴿ فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه ﴾(٩٦)

عن الحسن - رضى الله عنه - قال : لما جاء البشير إلى يعقوب عليه السلام ، قال : ما وجدت عندنا شيئا ، وما اختبزنا منذ سبعة أيام ، ولكن هوّن الله عليك سكرة الموت[1] .

عن الحسن - رضى الله عنه - قال : لما أن جاء البشير إلى يعقوب عليه السلام ، فألقى عليه القميص ، قال : على أى دين خلفت عليه يوسف عليه السلام ؟ قال : على الإسلام ، قال : الآن تمت النعمة[2] .

﴿ فلما دخلوا على يوسف ﴾(٩٩ - ١٠٠)

عن الحسن قال : كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة ، لم يفارق الحزن قلبه ودموعه تجرى على خديه وما على وجه الأرض عبد أحب إلى الله من يعقوب[3] .

عن الحسن قال : ألقى يوسف فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة ، وكان بين ذلك وبين لقائه يعقوب ثمانون سنة ، وعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة ، ومات وهو ابن عشرين ومائة وسنة[4] .

---

(١) أخرجه أبو الشيخ عن الحسن ، فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٥٨٣ .

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن ، فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٥٨٣ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : « حدثنا عمرو بن على قال حدثنا عبد الوهاب الثقفى قال حدثنا هشام عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٢٧٣ .

(٤) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا الحسن بن محمد قال حدثنا داود بن مهران قال حدثنا عبد الواحد بن زياد عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٢٧٤ .
- كذلك ذكر هذا الخبر ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٩١ ، والسيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٥٨٩ وعزاه إلى ابن شيبة وأحمد فى الزهد وابن عبد الحكم فى فتوح مصر وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه .

عن الحسن قال : كان بين الرؤيا والتأويل : ثلاث وثمانون سنة[1] .

عن الحسن قال : كان بين الرؤيا والتأويل : ثمانون سنة[2].

عن الحسن قال : ألقى يوسف فى الجب وهو ابن سبع عشرة سنة ، وكان فى العبودية وفى السجن وفى الملك ثمانون سنة ، ثم جمع الله عز وجل شمله وعاش بعد ذلك ثلاثا وعشرين سنة[3] .

عن الحسن قال : ألقى يوسف فى الجب وهو ابن سبع عشرة فغاب عن أبيه ثمانين سنة ثم عاش بعدما جمع الله له شمله ورأى تأويل رؤياه ثلاثا وعشرين سنة فمات وهو ابن عشرين ومائة سنة[4] .

عن الحسن قال : غاب يوسف عن أبيه فى الجب وفى السجن حتى التقيا ثمانين عاما فما جفت عينا يعقوب وما على وجه الأرض أحد أكرم على الله من يعقوب[5] .

---

(١) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « قال حدثنا سعيد بن سليمان قال حدثنا هشيم عن يونس عن الحسن » تفسير الطبرى ١٦ / ٢٧٤ .

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن الحسن . الدر المنثور ٤ / ٥٨٩ وزاد المسير ٤ / ٢٩٠ .

(٣) اخرجه الطبرى بإسناده : « قال حدثنا داود بن مهران قال حدثنا ابن علية عن يونس عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٢٧٤ .

(٤) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنى الحارث قال حدثنا عبد العزيز قال حدثنا مبارك بن فضالة عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٢٧٤ .

(٥) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا مجاهد قال حدثنا يزيد قال أخبرنا هشيم عن الحسن » تفسير الطبرى ١٦ / ٢٧٤ ٢٧٥ .

كذلك أورد هذا الحبر ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٩١ .

﴿ آوى إليه أبويـه ﴾[٩٩]

قال الحسن : أبوه وأمه[١] .

﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله ﴾[١٠٦]

قال الحسن فى قوله « وما يؤمن أكثرهم » قال : ذاك المنافق ، يعمل بالرياء وهو مشرك بعمله[٢] .

﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم ﴾[١٠٩]

قال الحسن : لم يبعث الله نبياً من أهل البادية ولا من الجن ولا من النساء[٣] .

عن الحسن فى قوله « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » قال فينظروا كيف عذب الله قوم نوح وقوم لوط وقوم صالح والأمم التى عذب[٤] .

﴿ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾[١١٠]

قال الحسن : المعنى : وتيقن الرسل أن قومهم قد كذبوهم فيكون الظن هنا بمعنى اليقين[٥] .

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٢٨٨ ونسبه أيضا إلى ابن إسحاق .

(٢) أخرجه أبو الشيخ عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٥٩٣ ، وتفسير ابن كثير ٢ / ٤٩٤ والشوكانى فى فتح القدير ٢ / ٦٠ .
- وذكره ابن الجوزى أيضاً ولكن بلفظ « إنهم المنافقون يؤمنون فى الظاهر رئاء الناس ، وهم فى الباطن كافرون » انظر زاد المسير ٢ / ٢٩٤ .

(٣) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٢٩٥ .

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٥٩٥ .

(٥) ذكره ابن الجوزى ونسبه أيضا إلى عطاء وقتادة . فراجع زاد المسير ٤ / ٢٩٦ .

عن الحسن قال : حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومهم وظنوا أنهم قد كذبوا : أى : استيقنوا أنه لا خير عند قومهم ولا إيمان « جاءهم نصرنا »[1] .

تفسير سورة الرعد

قال الحسن : سورة الرعد مكية[2].

﴿ رفع السماوات بغير عمد ترونها ﴾[2]

قال الحسن : لها عمد ولكن لا ترى[3] .

قال الحسن : هاء الكناية فى « ترونها » ترجع إلى السماوات ، فالمعنى : ترونها بغير عمد[4] .

عن قتادة والحسن قالا : خلقها بغير عمد ، قال لها : قومى فقامت[5] .

﴿ وفى الأرض قطع متجاورات ﴾[4]

عن الحسن قال : هذا مثل ضربه الله لقلوب بنى آدم ، كانت الأرض فى يد الرحمن طينة واحدة فسطحها وبطحها فصارت الأرض قطعاً

---

(١) أخرجه ابن جرير بإسناده : « حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٣٠٩ .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٢٩٩ ونسبه أيضا إلى ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء وقتادة .

كذلك ذكره الشوكانى فى فتح القدير ٣ / ٦٣ ونسبه أيضا إلى جابر بن زيد .

(٣) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٤٩٩ .

(٤) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٣٠١ ونسبه أيضا إلى قتادة والجمهور .

(٥) أورده السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٦٠١ بقوله « وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ » .

متجاورة فينزل عليها الماء من السماء فتخرج هذه زهرتها وثمرها وأشجارها وتخرج نباتها وتحيى مواتها ، وتخرج هذه سبخها وملحها وخبثها ، وكلتاهما تسقى بماء واحد ، فلو كان الماء مالحا قيل : إنما استسبخت هذه من قبل الماء ، كذلك الناس خلقوا من آدم فتنزل عليهم من السماء تذكرة فترق قلوب ، فتخشع وتخضع وتقسو قلوب ، فتلهو وتسهو وتجفو ، قال الحسن : والله ما جالس القرآن أحد إلا قام من عنده بزيادة أو نقصان ، قال الله « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا » (٨٢ : الإسراء)[١] .

عن الحسن فى قوله « فى الأرض قطع متجاورات » قال : فارس والأهواز والكوفة والبصرة[٢] .

﴿ وإن تعجب فعجب قولهم ﴾[٥]

عن الحسن رضى الله عنه فى قوله « **وإن تعجب فعجب قولهم** » **قال : إن تعجب يا محمد من تكذيبهم إياك فعجب قولهم**[٣] .

عن الحسن فى قوله « وأولئك الأغلال فى أعناقهم » قال : إن الأغلال لم تجعل فى أعناق أهل النار لأنهم أعجزوا الرب ولكنها جعلت فى أعناقهم ، لكى إذا طفا بهم اللهب أرسبتهم فى النار[٤] .

---

(١) أورده الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنى القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثنى حجاج عن أبى بكر بن عبد الله عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٢٤٠ .
كذلك نقل هذا الخبر السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٦٠٤ وعزاه إلى ابن جرير .

(٢) أخرجه أبو الشيخ عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٦٠٢ .

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٦٠٦ وفتح القدير ٣ / ٦٩ .

(٤) أخرجه ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم والخطيب عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٦٠٦ .

﴿ ولكل قوم هاد ﴾[٧]

قال الحسن : أن الهادى هو النبى صلى الله عليه وسلم[١] .

﴿ وما تغيض الأرحام وما تزداد ﴾[٨]

قال الحسن : « وما تغيض » بالسقط الناقص ، « وماتزداد » بالولد التام[٢] .

عن الحسن قال : الغيض : ما دون التسعة الأشهر[٣] .

قال الحسن : ما تغيض الأرحام ، ما كان من سقط ، وما تزداد : تلد المرأة لعشرة أشهر .

عن الحسن قال : ما نرى من الدم فى حملها ، وما تزداد على تسعة أشهر[٤] .

﴿ الكبير المتعال ﴾[٩]

قال الحسن : المتعالى عما يقول المشركون[٥] .

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٣٠٧ ونسبه أيضاً إلى عطاء وقتادة وابن زيد . فالمعنى على هذا يكون : ولكل قوم نبى ينذرهم .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٣٠٨ . ونسبه أيضاً إلى ابن عباس وذكر بنصه السيوطى حيث قال « وما تغيض الأرحام : قال : السقط » انظر الدر المنثور ٤ / ٦٠٩ وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبى حاتم .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : « قال حدثنا هشيم عن جويبر عن الضحاك ومنصور عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٣٦٣ .

- ولقد أورد هذا الخبر أيضاً ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٣٠٨ .

(٤) انظر التفسير القيم ص ٣٢٠ .

(٥) ذكره كل من ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٣٠٨ وابن كثير فى تفسيره ٢ / ٥٠٢ .

(٦) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٣٠٩ .

﴿ سواء منكم من أسر القول و من جهر به ﴾(١٠)

عن الحسن - رضى الله عنه - فى الآية قال : يعلم من السر ما يعلم من العلانية ويعلم من العلانية ما يعلم من السر ، ويعلم من الليل ما يعلم من النهار ويعلم من النهار ما يعلم من الليل[١] .

﴿ له معقبات من بين يديه ﴾(١١)

عن الحسن فى قوله « معقبات » قال : الملائكة[٢] .

﴿ هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا ﴾(١٢)

عن الحسن رضى الله عنه قال : « خوفا » : لأهل البحر ، « وطمعا » : لأهل البر[٣] .

﴿ وهو شديد المحال ﴾(١٣)

عن الحسن فى قوله « شديد المحال » قال : يعنى الهلاك ، قال : إذا محل فهو شديد[٤] .

عن الحسن فى قوله « شديد المحال » قال : شديد الحقد[٥] .

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٦١١ .

(٢) أورده الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا محمد بن المثنى قال حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا شعبة عن منصور = يعنى ابن زاذان = عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٣٦٩ - ٣٧٠ .

- كذلك أورد هذا الخبر كل من ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٢١٠ والسيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٦١٢ .

(٣) أخرجه أبو الشيخ عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٦١٨ .

(٤) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن الحسن : تفسير الطبرى ١٦ / ٣٩٦ .

(٥) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٣١٦ .

=

﴿ ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها ﴾[15]

عن الحسن رضى الله عنه فى الآية قال : يسجد من فى السماوات طوعا ، ومن فى الأرض طوعا وكرها[1] .

﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ﴾[17]

عن الحسن فى قوله « أنزل من السماء .. » إلى « أو متاع زبد مثله » فقال : ابتغاء حلية الذهب والفضة أو متاع الصفر والحديد ، قال : كما أوقد على الذهب والفضة والصفر والحديد فخلص خالصه ، قال « فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » كذلك بقاء الحق لأهله فانتفعوا به[2] .

﴿ أولئك لهم سوء الحساب ﴾[18]

عن الحسن رضى الله عنه قال « سوء الحساب » : أن يؤخذ العبد بذنوبه كلها ولا يغفر له منها ذنب[3] .

= قلت : ولله دره ابن الجوزى إذ عقب على هذا القول قائلا : « قال الحسن البصرى فيما سمعناه عنه مسنداً من طرق وقد رواه عنه جماعة من المفسرين منهم ابن الأنبارى والنقاش ، ولا يجوز هذا فى صفات الله تعالى قال النقاش : هذا قول منكر عند أهل الخبر والنظر فى اللغة لا يجوز أن تكون هذه صفة من صفات الله عز وجل » انظر زاد المسير ٤ / ٣١٦ .

(١) أخرجه أبو الشيخ عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٦٢٠ .

(٢) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنى يعقوب قال حدثنا ابن علية عن أبى رجاء عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٤١١ .
- كذلك روى هذا المعنى ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٥٠٨ .
- كذلك ذكر هذا الخبر بنصه السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٦٣٥ وعزاه إلى ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبى الشيخ عن الحسن .

(٣) أخرجه ابن المنذر وأبو الشيخ عن الحسن ، الدر المنثور ٤ / ٦٣٥ .

﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾(١٩)

عن الحسن رضى الله عنه قال : إنما عاتب الله تعالى أولى الألباب ، لأنه يحبهم ، ووجدت ذلك فى آية من كتاب الله تعالى « إنما يتذكر أولوا الألباب »[1].

﴿ جنـات عـدن ﴾(٢٣)

عن الحسن - رضى الله عنه - قال : (جنات عدن) : وما يدريك ما جنات عدن ؟ قال : قصر من ذهب لا يدخله إلا نبى أو صديق أو شهيد أو حكم عدل[2].

عن الحسن - رضى الله عنه - أن عمر قال لكعب : ما عدن ؟ قال : هو قصر فى الجنة لا يدخله إلا نبى أو صديق أو شهيد أو حكم عدل[3].

﴿ سلام عليكم بما صبرتم ﴾(٢٤)

قال الحسن : صبرهم على فضول الدنيا[4].

﴿ طوبى لهم ﴾(٢٩)

قال الحسن : أى : حسنى لهم[5].

---

(١) اخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٦٣٦ .

(٢) أخرجه سعيد بن منصور وابن المنذر عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٦٣٨ .

(٣) أخرجه عبد بن حميد عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٤ / ٦٣٨ ، وفتح القدير ٣ / ٨٠ .

(٤) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٣٢٥ ، وذكره أيضاً السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٦٤٠ وقال « أخرجه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن » .

(٥) رواه سعيد عن قتادة عن الحسن فراجعه فى زاد المسير ٤ / ٣٢٨ .

﴿ أفلم يأيئس الذين آمنوا ﴾[٣١]

عن الحسن فى قوله « أفلم ييأس » قال : أفلم يعلم[١].

عن الحسن فى قوله « أو تحل قريبا من دارهم » قال : أو تحل القارعة قريبا من دارهم[٢].

عن الحسن فى قوله « حتى يأتى وعد الله » قال : يوم القيامة[٣].

﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية ﴾[٣٨]

عن الحسن عن سمرة قال : نهى رسول الله (ص) عن التبتل ، وقرأ قتادة رضى الله عنه « ولقد أرسلنا من قبلك .. » الآية[٤].

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٣٣١ ونسبه أيضاً إلى ابن عباس وقتادة وابن زيد .

(٢) أورده الطبرى بإسنادين :

الأول : « حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن قتادة قال قال الحسن .. » .

والثانى : « حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٤٥٩ - ٤٦٠ .

- كذلك أورد هذا الخبر ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٣٣٢ وابن كثير فى تفسيره ٢ / ٥١٦ . والسيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٦٥٥ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنى المثنى قال حدثنا معلى بن أسد قال حدثنا إسماعيل بن حكيم عن رجل قد سماه عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٤٦٠ .

- كذلك أورد هذا الخبر كل من ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٣٣٢ وابن كثير فى تفسيره ٢ / ٥١٦ والسيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٦٥٥ .

(٤) أخرجه ابن ماجه وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه من طريق قتادة عن الحسن . انظر الدر المنثور ٤ / ٦٥٨ . وفتح القدير ٣ / ٨٩ .

﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾(٣٩)

قال الحسن : يمحو من جاء أجله فذهب ، والمثبت الذى هو حى يجرى إلى أجله[١] .

سمعت الحسن يقول « يمحو الله ما يشاء » : قال : من جاء أجله « ويثبت » قال : من لم يجىء أجله[٢] .

عن الحسن رضى الله عنه - فى قوله « لكل أجل كتاب » قال : أجل بنى آدم فى كتاب « يمحو الله ما يشاء » قال : من جاء أجله ، « ويثبت » قال : من لم يجىء أجله بعد ، فهو يجرى إلى أجله[٣] .

عن الحسن رضى الله عنه فى الآية قال : يمحو الله رزق هذا الميت ، ويثبت رزق هذا المخلوق الحى[٤] .

---

(١) أورده الطبرى بإسنادين :
الأول : « حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا ابن أبى عدى عن عوف عن الحسن .. » .
والثانى : « حدثنا الحسن بن محمد قال حدثنا هوذة قال حدثنا عوف عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٤٨٦ .
- كذلك ذكر هذا الخبر ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٥٢٠ .

(٢) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا عمرو بن على قال حدثنا يحيى قال حدثنا عوف قال سمعت الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٤٨٦ .
- كذلك أورد هذا الخبر ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٣٣٨ .

(٣) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « قال حدثنا عبد الوهاب بن عطاء قال أخبرنا سعيد عن قتادة عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٤٨٧ .
- كذلك أورده السيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٦٦٤ وقال عنه « أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم » .

(٤) أخرجه ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن ، فراجع الدر المنثور ٤ / ٦٦٥ .

قال الحسن : لكل أجل من أجال الخلق كتاب عند الله[1] .

سألت الحسن : قلت « أم الكتاب » قال : الحلال والحرام ، قال ، قلت فما « الحمد لله رب العالمين » قال : هذه آم القرآن[2] .

﴿ أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ﴾[41]

كان الحسن يقول فى قوله تعالى « أو لم ... » الآية : هو ظهور المسلمين على المشركين[3] .

قال الحسن فى الآية : إنه ما يفتح الله على نبيه من الأرض[4] .

﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾[43]

عن الحسن فى قوله « ومن عنده علم الكتاب » قال : الله[5] .

---

(١) أورده ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٣٣٦ .

(٢) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنى المثنى قال حدثنا مسلم بن إبراهيم قال حدثنا محمد بن عقبة قال حدثنا مالك بن دينار قال سألت الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٤٩٠ .

(٣) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال حدثنا محمد بن ثور عن معمر قال كان الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٤٩٤ .
- كذلك أورده ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٥٢٠ ، والسيوطى فى الدر المنثور ٤ / ٦٦٦ وقال عنه « أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال كان الحسن .. » .

(٤) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٣٤٠ ، ونسبه أيضا إلى ابن عباس والضحاك .

(٥) أورده الطبرى بإسنادين :
الأول : « قال حدثنا على يعنى ابن الجعد = قال حدثنا شعبة عن منصور بن زاذان عن الحسن .. » .
والثانى : « قال حدثنا شعبة عن منصور بن زاذان عن الحسن ... » تفسير =

عن الحسن قال : من عند الله عَلِمَ الكتاب[١] .

كان الحسن يقرؤها « قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده عَلِمَ الكتاب » يقول : من عند الله عَلِمَ الكتاب وجملته[٢] .

عن الحسن فى قوله « ومن عنده علم الكتاب » قال : عبد الله بن سلام[٣] .

تفسير سورة إبراهيم

قال الحسن : سورة إبراهيم مكية إلا آيتين منها أو ثلاث آيات نزلت فى الذين حاربوا رسول الله (ص) وهى قوله : « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا » إلى قوله « فإن مصيركم إلى النار »[٤] (٢٨ : ٢٩ - إبراهيم) .

= الطبرى ١٦ / ٥٠٤ .

- ولقد ذكر هذا الخبر أيضاً ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٣٤٢ .

(١) أورده الطبرى بأربعة أسانيد هى :

الأول : « قال حدثنا الحسن بن محمد قال حدثنا هوذة قال حدثنا عوف عن الحسن .. » .

والثانى : « حدثنا ابن المثنى قال حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا شعبة قال سمعت منصور بن زاذان يحدث عن الحسن .. » .

والثالث : « حدثنا محمد بن الأعلى قال حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن الحسن .. » .

والرابع : « حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثنى عباد عن عوف عن الحسن .. » انظر تفسير الطبرى ١٦ / ٥٠٤ ٥٠٦ .

(٢) أورده الطبرى بإسناد هذا : « حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتا قال كان الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٥٠٥ .

- وذكره أيضا ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٥٢١ .

(٣) أورده ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٣٤١ ونسبه أيضاً إلى مجاهد وابن زيد وابن السائب ومقاتل .

(٤) ذكره الشوكانى فى فتح القدير ٣ / ٩٢ .

﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾[٧]

عن الحسن - رضى الله عنه - فى قوله « لئن شكرتم لأزيدنكم » قال : من طاعتى[١] .

﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم ﴾[٩]

قال الحسن : إنهم وضعوا أيديهم على أفواه الرسل ردأ لقولهم[٢] .

﴿ من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد ﴾[١٦]

عن الحسن رضى الله عنه قال : « لو أن دلوأ من صديد جهنم دلى من السماء فوجد أهل الأرض ريحه لأفسد عليهم الدنيا »[٣] .

﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ﴾[٢٢]

عن الحسن فى قوله « وقال ... » الآية ، قال : إذا كان يوم القيامة قام إبليس خطيبا على منبر من نار فقال « إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم » إلى قوله « وما أنتم بمصرخى » قال : بناصرى « إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل » قال : بطاعتكم إياى فى الدنيا[٤] .

---

(١) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : « حدثنى الحارث قال حدثنا عبد العزيز قال حدثنا مالك بن مغول عن أبان بن أبى عياش عن الحسن » تفسير الطبرى ١٦ / ٥٢٧ .

- كذلك أورد هذا الخبر كل من ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٢٣٧ والسيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٧ والشوكانى فى فتح القدير ٣ / ٩٨ .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٣٤٩ .

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ١٥ .

(٤) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا ابن وكيع قال حدثنا أبى عن سفيان عن رجل عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٥٦٣ . =

﴿ تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ﴾(٢٥)

عن الحسن فى قوله « كل حين » قال : الحين : ما بين الستة والسبعة أشهر[١] .

قال الحسن : الحين : ستة أشهر[٢] .

﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا ﴾(٢٩)

قال الحسن : إنها عامة فى جميع المشركين[٣] .

﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾(٣٤)

عن الحسن قال : من كل الذى سألتموه[٤] .

﴿ مهطعين مقنعى رءوسهم ﴾(٤٣)

قال الحسن : الإهطاع : الإسراع[٥] .

= - ولقد أورد هذا الخبر أيضاً السيوطى بقوله « وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن .. » الدر المنثور ٥ / ١٩ . كذلك أورده الشوكانى فى فتح القدير ٣ / ١٠٥ .

(١) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : « حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال حدثنا محمد بن ثور عن معمر قال قال الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٥٧٩ .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٣٥٩ ونسبه أيضا إلى ابن عباس وعكرمة وقتادة .

(٣) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٣٦٢ .

(٤) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : « حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٣ / ٢٢٦ .
- كذلك أورده الشوكانى فى فتح القدير ٣ / ١١١ .

(٥) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٣٧٠ ونسبه أيضاً إلى سعيد بن جبير وقتادة وأبى عبيدة .

عن الحسن فى قوله « مقنعى رءوسهم » قال : وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد[1].

﴿ وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم ﴾[45]

قال الحسن : عملتم بمثل أعمالهم[2].

﴿ وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾[45]

عن الحسن فى قوله « وعند الله مكرهم » قال : إنه محفوظ عنده حتى يجازيهم به[3].

أن الحسن كان يقول : كان أهون على الله وأصغر من أن تزول منه الجبال ، يصفهم بذلك[4].

قال الحسن : ما كان مكرهم لتزول منه الجبال[5].

---

(١) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : « حدثنا أبو كريب قال حدثنا أبو بكر عن أبى سعد قال قال الحسن .. » تفسير الطبرى ١٣ / ٢٣٩ .

(٢) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن رضى الله عنه ، فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٥٢ وفتح القدير ٣ / ١١٧ .

(٣) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٣٧٤ وعزاه أيضاً إلى قتادة ..

(٤) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة أن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٢٤٦ .
- ولقد ذكر هذا أيضاً السيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٥٣ .

(٥) أورده الطبرى بإسنادين :
الأول : « حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال ثنا محمد بن ثور عن معمر قال قال الحسن .. » .
والثانى : « حدثنى المثنى قال حدثنا عمرو بن عون قال أخبرنا هشيم عن عوف عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٣ / ٢٤٧ .
- ولقد أورد هذا أيضا ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٥٤٢ .

كان الحسن يقول : وإن كان مكرهم لأوهن وأضعف من أن تزول منه الجبال[1] .

عن الحسن قال : أربع فى القرآن : « وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال » : ما كان مكرهم لتزول منه الجبال ، وقوله « لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين » : ما كنا فاعلين . وقوله « إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين » : ما كان للرحمن ولد ، وقوله « ولقد مكناهم فيما إن مكناكم » قال : ما مكناكم فيه[2].

عن الحسن : وزاد فيهن واحدة : « فإن كنت فى شك » : ما كنت فى شك مما أنزلنا إليك[3] .

عن الحسن أنه كان يقرأ « وإن كان مكرهم لتزول » بكسر اللام الأولى وفتح الثانية ويقول : فإن مكرهم أهون وأضعف من ذلك[4] .

---

(١) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : « حدثنى الحرث قال حدثنا القاسم قال حدثنا حجاج عن هارون عن يونس وعمرو عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٣ / ٢٤٧ .
- ولقد ذكر هذا أيضاً ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٣٧٤ .

(٢) أخرجه الطبرى بهذا : « قال هارون وأخبرنى يونس عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٣ / ٢٤٧ .
- وكذلك أورده السيوطى فى الدر ٥ / ٥٣ بقوله « وأخرج ابن جرير وابن الأنبارى فى المصاحف » .

(٣) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « قال هارون وحدثنى بهن عمرو بن أسباط عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٣ / ٢٤٧ .

(٤) أخرجه ابن الأنبارى عن الحسن ، فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٥٣ .

﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾(٤٨)

سمعت الحسن قال ، قالت عائشة : يا رسول الله : « يوم تبدل الأرض .. » فأين الناس يومئذ ؟ قال : إن هذا لشيء ما سألني عنه أحد ، قال : على الصراط يا عائشة[١] .

﴿ سرابيلهم من قطران ﴾(٥٠)

عن الحسن « من قطران » قال : يعني : الخضخاض : هناء الإبل[٢] .

عن الحسن « من قطران » قال : قطران الإبل[٣] .

سمعت الحسن يقول : كانت العرب تقول للشيء إذا انتهى حره : قد أنى حر هذا : قد أوقدت عليه جهنم منذ خلقت فأنى حرها[٤] .

عن الحسن في قوله « من قطران » قال : من نحاس حار قد انتهى حره[٥] .

---

(١) أخرجه الطبري بهذا الإسناد : « حدثنا الحسن قال حدثنا على بن الجعد قال أخبرني القاسم قال سمعت الحسن .. » تفسير الطبري ١٣ / ٢٥٣ .
- ولقد ذكر هذا الخبر أيضاً ابن كثير في تفسيره ٢ / ٥٤٣ .

(٢) اخرجه الطبري بهذا الإسناد : « حدثنا الحسن بن محمد قال حدثنا عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة عن الحسن .. » تفسير الطبري ١٣ / ٢٥٦ .

(٣) أخرجه الطبري بإسناده هكذا : « حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال حدثنا محمد ابن ثور عن معمر عن الحسن .. » تفسير الطبري ١٣ / ٢٥٦ .
- ولقد أورد هذا الخبر أيضاً كل من ابن الجوزي في زاد المسير ٤ / ٣٧٧ والشوكاني في فتح القدير ٣ / ١٢٠ والسيوطي في الدر المنثور ٥ / ٥٩ .

(٤) أخرجه الطبري بهذا الإسناد : « حدثنا الحسن بن محمد قال حدثنا عفان قال حدثنا المبارك بن فضالة قال سمعت الحسن .. » تفسير الطبري ١٣ / ٢٥٧ .

(٥) ذكره ابن كثير في تفسيره ٢ / ٥٤٥ .

تفسير سورة الحجر

﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق ﴾(٨)

قال الحسن : المراد بالحق : العذاب إن لم يؤمنوا[١] .

﴿ كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين ﴾(١٢)

عن الحسن فى قوله « كذلك نسلكه » قال : الشرك[٢] .

قرأت القرآن كله على الحسن فى بيت أبى خليفة ففسره على الإثبات ، فسألته عن قوله « كذلك نسلكه » قال : أعمال سيعملونها لم يعملوها[٣] .

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٣٨٤ .

(٢) أورده الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا الحسن بن يحيى قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا الثورى عن حميد عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٤ / ٩ .

- كذلك أورده الطبرى بلفظ آخر وبإسناد آخر ، حيث روى ما نصه « قرأت القرآن كله على الحسن ، فما كان يفسره إلا على الإثبات ، قال : فوقفته على « نسلكه » قال : « الشرك » .لك بالإسناد التالى : « حدثنى المثنى قال حدثنا سويد قال أخبرنا ابن المبارك عن حماد بن سلمة عن حميد الطويل قال قرأت .. » تفسير الطبرى ١٤ / ٩ .

- كذلك أورد هذا الخبر كل من ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٣٨٥ وابن كثير فى تفسيره ٢ / ٥٤٧ والسيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٦٧ والشوكانى فى فتح القدير ٣ / ١٢٤ .

(٣) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنى المثنى قال حدثنا الحجاج بن المنهال قال حدثنا حماد بن سلمة عن حميد قال قرأت القرآن » تفسير الطبرى ١٤ / ٩ .

﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما ﴾(١٤ - ١٥)

كان الحسن يقول : لو فعل هذا ببني آدم فظلوا فيه يعرجون : أى يختلفون « لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون »[١].

قال الحسن : إنهم المشركون[٢].

﴿ والأرض مددناها .. ﴾(١٩)

كان الحسن يقول : أخذ طينة فقال لها : انبسطى ، وفى قوله « وألقينا فيها رواسى » قال : رواسيها : جبالها ، « وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » يقول : معلوم مقسوم[٣].

عن الحسن فى قوله « من كل شيء موزون » قال : عنى به الشيء الذى يوزن كالذهب والفضة والرصاص والحديد والكحل ونحو ذلك[٤].

﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾(٢٢)

عن الحسن في قوله « وأرسلنا الرياح لواقح » قال : لواقح للشجر ، قلت : أو للسحاب ؟ قال : وللسحاب تمر به حتى يمطر[٥].

---

(١) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة قال كان الحسن .. » تفسير الطبرى ١٤ / ١١ .

(٢) أورده ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٤٨٦ وعلى هذا يكون المعنى : لو وصلناهم إلى صعود السماء لم يستشعروا إلا الكفر لعنادهم .

(٣) اخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة رضى الله عنه انظر الدر المنثور ٥ / ٦٩ - ٧٠ .

(٤) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٣٩١ بقوله « وهذا المعنى مروى عن الحسن وعكرمة وابن زيد وابن السائب واختاره الفراء » .

(٥) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنى يعقوب قال حدثنا ابن علية عن أبى رجاء عن =

﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ﴾[٢٤]

كان الحسن يقول : المستقدمون فى طاعة الله ، والمستأخرون فى معصية الله[١] .

عن الحسن قال : المتقدمين فى الخير من الأمم ، والمستأخرين يقول : المبطئون عنه[٢] .

﴿ والجان خلقناه من قبل من نار السموم ﴾[٢٧]

قال الحسن : إنه إبليس[٣] .

﴿ قال هذا صراط على مستقيم ﴾[٤١]

عن الحسن فى قوله « ــــ » قال : إلى مستقيم[٤] .

= الحسن .. » تفسير الطبرى ١٤ / ٢١ .

- ولقد ذكر هذا الخبر أيضاً السيوطى بقوله « وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى رجاء رضى الله عنه قال : قلت للحسن .. » فراجع الدر المنثور ٥ / ٧٢ .

(١) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا بشر بن معاذ قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة قال كان الحسن .. » تفسير الطبرى ١٤ / ٢٥ .

- ولقد ذكر هذا الخبر أيضاً الشوكانى فى فتح القدير ٣ / ١٢٨ ، والسيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٧٥ بقوله « وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن » .

(٢) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنى المثنى قال حدثنا عمرو بن عون قال أخبرنا هشيم عن عباد بن راشد عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٤ / ٢٥ .

- ولقد أورد هذا الخبر أيضاً السيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٧٥ وعزاه إلى ابن جرير وابن المنذر .

(٣) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٣٩٩ ونسبه أيضاً إلى عطاء وقتادة ومقاتل .

(٤) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا الحسن بن محمد قال حدثنا عبد الوهاب ابن عطاء عن إسماعيل بن مسلم عن الحسن وسعيد عن قتادة عن الحسن .. » تفسير =

﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم﴾(٤٤)

عن الحسن رضى الله عنه فى قوله « جزء مقسوم » قال : فريق مقسوم[1] .

﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا ﴾(٤٧ - ٤٨)

سمع الحسن البصرى يقول : قال على : فينا والله أهل بدر نزلت « ونزعنا .. »[2] .

عن الحسن : بلغنى أن رسول الله (ص) قال : « يحبس أهل الجنة بعدما يجوزون الصراط حتى يؤخذ لبعضهم من بعض ظلاماتهم فى الدنيا ، ويدخلون الجنة وليس فى قلوب بعضهم على بعض غل »[3] .

= الطبرى ١٤ / ٣٤ .

- كذلك أورد هذا الخبر السيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٧٩ ، وابن القيم فى تفسيره ص ١٥ .

قلت : ولقد فسر ابن القيم هذا القول فقال « وهذا يحتمل أمرين : أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض ، فقامت أداة « على » مقام « إلىٰ » . والثانى : أنه أراد التفسير على المعنى ، وهو الأشبه بطريق السلف : أى « صراط موصل إلى » انظر التفسير القيم ص ١٥ .

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٨٢ .

(٢) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنى المثنى قال حدثنى الحجاج بن المنهال قال حدثنا سفيان بن عينية عن إسماعيل بن أبى موسى سمع الحسن .. » تفسير الطبرى ١٤ / ٣٦ .

- كذلك أورد هذا الخبر بإسناده ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٥٥٣ .

- كذلك أورده أيضاً بدون إسناد كل من الشوكانى فى فتح القدير ٣ / ١٣٦ والسيوطى فى الدر المنثور٥ / ٨٤ وعزوه إلى سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه .

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٨٤ .

﴿ ولقد آتيناك سبعًا من المثانى والقرآن العظيم ﴾(٨٧)

عن الحسن فى قوله « سبعًا من المثانى » قال : فاتحة الكتاب[١] .

سألت الحسن عن قوله تعالى « سبعًا من المثانى » قال : هى فاتحة الكتاب ، ثم سئل عنها وأنا أسمع فقرأها : « الحمد لله رب العالمين » حتى أتى على آخرها ، فقال : تثنى فى كل قراءة[٢] .

عن الحسن فى قوله « سبعًا من المثانى » قال : هى أم الكتاب[٣] .

﴿ كما أنزلنا على المقتسمين ﴾(٩٠)

عن الحسن قال : هم أهل الكتاب[٤] .

﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾(٩١)

قال الحسن : آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، اليهود والنصارى[٥] .

---

(١) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنى يعقوب قال حدثنا ابن علية قال أخبرنا يونس عن الحسن » تفسير الطبرى ١٤ / ٥٥ .
- ولقد أورد هذا الخبر أيضاً ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٤١٣ ونسبه إلى جماعة من الصحابة والتابعين .

(٢) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنى يعقوب قال حدثنا ابن علية عن أبى رجاء قال سألت الحسن .. » تفسير الطبرى ١٤ / ٥٦ .

(٣) أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٩٥ وعزاه إلى ابن جرير .

(٤) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنى المثنى قال حدثنا عمرو بن عون قال أخبرنا هشيم عن منصور عن الحسن » تفسير الطبرى ١٤ / ٦٢ .
- وذكر هذا الخبر أيضاً ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٤١٧ .

(٥) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٥٥٨ .

﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾(٩٩)

قال الحسن : الموت[١] .

تفسير سورة النحل

قال الحسن : سورة النحل مكية[٢] .

﴿ ينزل الملائكة بالروح ﴾(٢)

عن الحسن فى قوله « ينزل الملائكة بالروح » قال : بالنبوة[٣] .

عن الحسن فى قوله « ينزل الملائكة بالروح » قال : القرآن[٤] .

﴿ وترى الفلك مواخر فيه ﴾(١٤)

عن الحسن فى قوله « مواخر » قال : المواخر : (المملوءة)[٥] .

---

(١) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : « حدثنى المثنى قال حدثنا سويد بن نصر قال أخبرنا ابن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٤ / ٧٤ .

- كذلك ذكر هذا الخبر ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٥٦٠ ، والسيوطى فى الدر المنثور ٥ / ١٠٥ بقوله « وأخرجه ابن المبارك فى الزهد عن الحسن » .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٤٢٥ ونسبه أيضاً إلى ابن عباس وعكرمة وعطاء .

- كذلك ذكر هذا الشوكانى فى فتح القدير ٣ / ١٤٦ .

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ١٠٩ .

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى فتح القدير ٣ / ١٥٠ .

(٥) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : « حدثنا عمرو بن موسى القزاز قال حدثنا عبد الوارث قال حدثنا يونس عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٤ / ٨٨ . وذكر هذا ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٤٣٥ .

عن الحسن فى قوله « مواخر » قال : مقبلة ومدبرة بريح واحد[1] .

﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ﴾[15]

عن الحسن عن قيس بن عباد أن الله تبارك وتعالى لما خلق الأرض جعلت تمور ، قالت الملائكة : ما هذه بمقرة على ظهرها أحدا ، فأصبحت صبحاً وفيها رواسيها[2] .

عن الحسن فى قوله « وألقى .. » قال : الجبال أن تميد بكم ، قال قتادة : سمعت الحسن يقول : لما خلقت الأرض كادت تميد فقالوا : ما هذه بمقرة على ظهرها أحدا ، فأصبحوا وقد خلقت الجبال ، فلم تدر الملائكة مم خلقت الجبال[3] .

---

(١) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا المثنى قال أخبرنا إسحق قال حدثنا يحيى بن سعيد عن يزيد بن ابراهيم قال سمعت .. » تفسير الطبرى ١٤ / ٨٩ .

(٢) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن » تفسير الطبرى ١٤ / ٩٠ .

- كذلك أورده السيوطى بزيادة « فلم يدورا من أين خلقت ، فقالوا ربنا هل من خلقك شىء أشد من هذا ؟ قال : نعم الحديد ، فقالوا هل من خلقك شىء أشد من الحديد ؟ قال : نعم : النار ، قالوا ربنا هل من خلقك شىء أشد من النار ؟ قال نعم : الماء ، قالوا : ربنا هل من خلقك شىء أشد من الماء ؟ قال : نعم الريح ، قالوا : ربنا هل من خلقك شىء هو أشد من الريح ؟ قال : نعم الرجل ، قالوا : ربنا هل من خلقك شىء هو أشد من الرجل ؟ قال : نعم المرأة » انظر الدر المنثور ٥ / ١١٨ حيث ذكره بقوله « أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر من طريق قتادة عن الحسن .. » .

- كذلك ذكر ابن كثير الخبر كما أورده الطبرى فراجعه فى تفسيره ٢ / ٥٦٥ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا الحسن بن يحيى قال أخبرنا عبد الرازق قال أخبرنا معمر عن قتادة عن الحسن » تفسير الطبرى ١٤ / ٩٠ .

﴿ ولنعم دار المتقين ﴾[٣٠]

قال الحسن : ولنعم دار المتقين الدنيا ؛ لأنهم نالوا بالعمل فيها ثواب الأخرة[١] .

﴿ ولله يسجد ما فى السماوات وما فى الأرض طوعا وكرها ﴾[٤٩]

عن الحسن فى الآية قال : يسجد من فى السماوات طوعا ومن فى الأرض طوعا وكرها[٢] .

﴿ وله الدين واصبا ﴾[٥٢]

عن الحسن فى الآية قال : إن هذا الدين واصب ، شغل الناس وحال بينهم وبين كثير من شهواتهم فما يستطيعه إلا من عرف فضله ورجا عاقبته[٣] .

عن الحسن فى قوله : « واصبا » قال : دائما[٤] .

﴿ فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾[٥٥]

عن الحسن فى قوله « فتمتعوا ... » قال : هو وعيد[٥] .

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٤٤٣ .

(٢) أخرجه بن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ١٣٦ ، وفتح القدير ٣ / ١٦٨ .

(٣) أخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ١٣٧ .

(٤) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٤٥٥ ونسبه أيضاً إلى ابن عباس وعكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة وابن زيد والثورى وغيرهم .

(٥) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ١٣٨ وفتح القدير ٣ / ١٧٢ .

﴿ وأنهم مفرطون ﴾(٦٢)

عن الحسن فى قوله « وأنهم مفرطون » قال : معجل بهم إلى النار[١] .

﴿ تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ﴾(٦٧)

عن الحسن قال : ذكر الله نعمته فى السكر قبل تحريم الخمر[٢] .

عن الحسن قال : السكر : ما حرم الله ، والرزق : ما أحل الله منه[٣] .

عن الحسن قال : الرزق الحسن : الحلال ، والسكر : الحرام[٤] .

عن الحسن : السكر : الخمر[٥] .

﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾(٦٨)

عن الحسن قال : النحل دابة أصغر من الجندب ، ووحيه إليها قذف فى قلوبها[٦] .

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ١٤١ وفتح القدير ٣ / ١٧٢

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا هوذة قال حدثنا عوف عن الحسن ..» تفسير الطبرى ١٤ / ١٣٥ .

- وأورده السيوطى بقوله « ذكر الله نعمته عليهم فى الخمر قبل أن يحرمها عليهم » الدر المنثور ٥ / ١٤٣ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنى المثنى قال حدثنا عمرو بن عون قال أخبرنا هشيم عن منصور وعوف عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٤ / ١٣٥ .

(٤) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا ابن وكيع قال حدثنا أبى عن أبى جعفر عن الربيع عن الحسن » تفسير الطبرى ١٤ / ١٣٥ .

(٥) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٤٦٤ ونسبه أيضاً إلى ابن مسعود وابن عمرو وسعيد ومجاهد وإبراهيم بن أبى ليلى والزجاج وابن قتيبة .

- كذلك ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٥ / ١٤٢ بقوله « وأخرج ابن أبى شيبة » .

(٦) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ١٤٣ .

﴿ والله فضل بعضكم على بعض ﴾(٧١)

عن الحسن البصرى ، قال : كتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى ، اقنع برزقك فى الدنيا فإن الرحمن فضل بعض عباده على بعض فى الرزق ، بلاء يبتلى به كلا ، فيبتلى به من بسط له ، كيف شكره فيه ، وشكره لله أداؤه الحق الذى افترض عليه مما رزقه وخوله[1] .

﴿ بنين وحفدة ﴾(٧٢)

عن الحسن قال : البنين وبنى البنين : من أعانك من أهل وخادم فقد حفدك[2] .

عن الحسن قال : هم الخدم[3] .

عن الحسن قال : الحفدة : هم أولاد البنين[4] .

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ١٤٨ .

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : « حدثنى محمد بن خالد قال حدثنى سلمة عن أبى هلال عن الحسن . تفسير الطبرى ١٤ / ١٤٥ .
- ولقد أورد هذا الخبر السيوطى فى الدر المنثور ٥ / ١٤٩ وعزاه إلى الطبرى .

(٣) أورده الطبرى بإسنادين :
الأول : « حدثنى المثنى قال حدثنا عمرو بن عون قال أخبرنا هشيم عن منصور عن الحسن .. » .
والثانى : « حدثنا الحسن قال أخبرنا عبد الرزاق قال اخبرنا ابن التميمى عن أبيه عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٤ / ١٤٥ - ١٤٦ .
- ولقد ذكر هذا الخبر أيضاً كل من ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٤٦٩ وابن كثير فى تفسيره ٢ / ٥٧٧ .

(٤) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٥٧٧ .

﴿ ضرب الله مثلاً عبدًا مملوكاً لا يقدر على شىء ﴾(٧٥)

عن الحسن فى قوله « ــــ » قال : الصنم[١] .

﴿ وأكثرهم الكافرون ﴾(٨٣)

قال الحسن : وجميعهم كفار ، فذكر الأكثر والمراد به الجميع[٢] .

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾(٩٠)

سمعت الحسن رضى الله عنه أنه قرأ هذه الآية « إن الله يأمر .. » إلى آخرها ثم قال : إن الله عز وجل جمع لكم الخير كله والشر كله فى آية واحدة ، فوالله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئاً إلا جمعه ، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغى من معصية الله شيئًا إلا جمعه[٣] .

﴿ فلنحيينه حياة طيبة ﴾(٩٧)

قال الحسن : لنرزقنه طاعة يجد لذتها فى قلبه .

قال الحسن : لنرزقنه رزقا لا نعذبه عليه .

قال الحسن : كل حياة ابن آدم والله مرة إلا حياته فى الجنة[٤] .

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ١٥١ .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٤٧٩ .

(٣) أورده أبو نعيم بهذا الإسناد : « حدثنا محمد بن أحمد قال حدثنا محمد بن يحيى المروزى قال حدثنا عاصم بن على قال حدثنا جويرية بن بشير قال : سمعت الحسن .. » انظر حلية الأولياء ٢ / ١٥٨ وكذلك أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ١٦٠ .
- كذلك ذكره ابن الجوزى مختصراً فى زاد المسير ٤ / ٤٨٤ .

(٤) ذكره ابن الجوزى فى كتاب « الحسن البصرى » ص ٧٠ .

عن الحسن البصرى قال : الحياة الطيبة : القناعة[1] .

عن الحسن البصرى قال : لا تطيب لأحد حياة دون الجنة[2] .

عن الحسن البصرى قال : ما تطيب الحياة لأحد إلا فى الجنة[3] .

﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾[106]

عن عكرمة والحسن البصرى قالا فى سورة النحل « من كفر بالله .. » الآية ، ثم نسخ واستثنى من ذلك فقال « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعدما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » وهو عبد الله بن أبى سرح الذى كان يكتب لرسول الله (ص) فأزله الشيطان فلحق بالكفار ، فأمر به النبى (ص) أن يقتل يوم فتح مكة ، فاستجار له أبو بكر وعمر وعثمان بن عفان فأجاره النبى (ص)[4] .

---

(١) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال ثنا أبو عصام عن أبى سعيد عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٤ / ١٧١ . كذلك ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٤٨٨ .

(٢) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا هودة عن عوف عن الحسن » تفسير الطبرى ١٤ / ١٧١ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا ابن وكيع قال ثنا أبو أسامة عن عوف عن الحسن » تفسير الطبرى ١٤ / ١٧١ .
- ولقد ذكر هذا الخبر ابن كثير فى تفسيره ٢ / ٥٨٥ . والسيوطى فى الدر المنثور ٥ / ١٦٥ وقال عنه « أخرجه ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم » .

(٤) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنى ابن حميد قال حدثنا يحيى بن واضح عن الحسين عن يزيد عن عكرمة والحسن » تفسير الطبرى ١٤ / ٤٨٤ . =

عن الحسن رضى الله عنه أن عيونا لمسيلمة أخذوا رجلين من المسلمين فأتوه بهما ، فقال لأحدهما . أتشهد أن محمد رسول الله ؟ قال : نعم ، قال : أتشهد أنى رسول الله ، فأهوى إلى أذنيه ، فقال : إنى أصم ، فأمر به فقتل ، وقال للأخر : أتشهد أن محمدًا رسول الله ؟ قال : نعم ، قال : أتشهد أنى رسول الله ؟ قال نعم ، فأرسله فأتى النبى (ص) فأخبره فقال : « أما صاحبك فمضى على إيمانه ، وأما أنت فأخذت بالرخصة »[١] .

﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة ﴾[١١٢]

قال الحسن : إنها قرية أوسع الله على أهلها حتى كانوا يستنجون بالخبز فبعث الله عليهم الجوع حتى كانوا يأكلون ما يقعدون[٢] .

﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل ﴾[١١٨]

عن الحسن فى قوله « ـــ » قال : فى سورة الأنعام[٣] .

= - ولقد أورد هذا الخبر السيوطى فى الدر المنثور ٥ / ١٧١ - ١٧٢ وعزاه إلى ابن جرير .

(١) أخرجه ابن أبى شيبة عن الحسن ، فراجعه فى الدر المنثور ـ / ١٧٢ .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٤٩٩ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا يعقوب ، قال حدثنا ابن علية عن أبى رجاء عن الحسن » تفسير الطبرى ١٤ / ١٩٠

- كذلك أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥ / ١٧٥ ، والشوكانى فى فتح القدير ٣ / ٢٠٢

قلت : والمراد بهذه المحرمات ما ذكره الله فى الآية ١٤٦ من سورة الأنعام وهى قوله ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما أختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾ .

﴿ وآتيناه فى الدنيا حسنة ﴾[١٢٢]

قال الحسن : النبوة[١] .

﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾[١٢٨]

عن الحسن فى قوله « ــــ » قال : اتقوا الله فيما حرم عليهم وأحسنوا فيما افترض عليهم[٢] .

تفسير سورة الإسراء :

﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾[١]

عن الحسن بن أبى الحسن قال ، قال رسول الله (ص) : « بينما أنا نائم فى الحجر جاءنى جبريل فهمزنى بقدمه فجلست فلم أر شيئاً فعدت لمضجعى ، فجاء فى الثانية فهمزنى بقدمه فجلست ، فلم أر شيئاً فعدت لمضجعى ،فجاءنى فى الثالثة فهمزنى بقدمه فجلست فأخذ بعضدى فقمت منه فخرج بى إلى باب المسجد فإذا دابة بيضاء بين الحمار والبغل له فى فخذيه جناحان يخفر بهما رجليه ، يضع يده فى منتهى طرفه ، فحملنى عليه ثم خرج معى لا يفوتنى ولا أفوته »[٣] .

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٤ / ٥٠٤ .

(٢) أورده الطبرى بإسنادين : الأول : « حدثنا ابن حميد قال حدثنا حكام عن سفيان عن رجل عن الحسن » والثانى : « حدثنا الحسن قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن رجل عن الحسن » تفسير الطبرى ١٤ / ١٩٨ .
كذلك ذكر هذا الخبر السيوطى فى الدر المنثور ٥ / ١٨٠ ، والشوكانى فى فتح القدير ٣ / ٢٠٥ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده : حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة قال محمد بن إسحاق ، حدثنى عمرو بن عبد الرحمن عن الحسن بن أبى الحسن .. « تفسير الطبرى ١٥ / ٣ .

عن الحسن فى قوله « من المسجد الحرام » قال : يعنى المسجد نفسه[1].

﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد ﴾[5]

قال الحسن : هم العمالقة وكانوا كفارا.

عن الحسن رضى الله عنه قال : إن بختنصر لما قتل بنى إسرائيل وهدم بيت المقدس وسار بسبايا بنى إسرائيل إلى أرض بابل فسامهم سوء العذاب ، أراد أن يتناول السماء فطلب حيلة يصعد بها ، فسلط الله عليه بعوضة ، فدخلت منخره فوقعت فى دماغه ، فلم تزل تأكل دماغه وهو يضرب رأسه بالحجر حتى مات[2].

﴿ اقرأ كتابك ﴾[14]

قال الحسن : يقرؤه أميا كان أو غير أمى ، ولقد عدل عليك من جعلك حسيب نفسك[3].

﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾[15]

عن الحسن عن أبى رافع عن أبى هريرة أن رسول الله (ص) قال : « أربعة يحتجون يوم القيامة : رجل أصم لا يسمع شيئا ، ورجل أحمق ورجل هرم ورجل مات فى فترة ، فأما الأصم فيقول رب قد جاء الإسلام وما أسمع شيئا . وأما الأحمق فيقول رب قد جاء الإسلام والصبيان يحذفونى بالبعر ، وأما الهرم فيقول رب قد جاء الإسلام وما أعقل شيئا ، وأما الذى مات فى الفترة فيقول رب ما أتانى لك رسول ، فيأخذ مواثيقهم ، ليطيعنه فيرسل إليهم أن ادخلوا النار ، فوالذى نفسى بيده من دخلها كانت عليه بردا وسلاما ومن لم يدخلها يسحب إليها[4].

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٩ .

(٢) خرجه ابن عساكر عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(٣) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ١٦ .

(٤) ذكره ابن كثير فى تفسيره بقوله . قال الإمام أحمد حدثنا على بن عبد الرحمن

﴿ أمرنا مترفيها ﴾(١٦)

عن الحسن قال : أكثرناهم(١) .

قال الحسن : أى جعلناهم أمراء مسلطين(٢) .

﴿ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ﴾(٢٠)

سمعت الحسن يقول : كلا نعطى من الدنيا البر والفاجر(٣) .

عن الحسن فى قوله « وما كان عطاء ربك محظورا » قال : أى ممنوعا(٤) .

﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾(٢٣)

جـاء رجل إلى الحسن فقال : إنه طلق امرأته ثلاثا ، فقال : إنك عصيت ربك وبانت منك امرأتك ، فقال الرجل : قضى الله ذلك على ، قال الحسن وكان فصيحا : ما قضى الله ، أى ما أمر الله ، وقرأ هذه الآية « وقضى ربك ألا .. » فقال الناس : تكلم الحسن فى القدر(٥) .

= حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبى عن قتادة عن الحسن عن أبى رافع عن أبى هريرة .. » انظر تفسير ابن كثير ٣ / ٢٩ .

- كذلك أورد هذا الخبر الشوكانى فى فتح القدير ٣ / ٢١٥ .

(١) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنى يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا ابن علية عن أبى رجاء عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٥٦ .

- ولقد أورد أيضاً هذا الخبر ابن كثير بقوله « أكثرنا عددهم » تفسيره ٣ / ٢٣ .

- كذلك أورده أيضاً الشوكانى فى فتح القدير ٣ / ٢١٤ .

(٢) ذكره الشوكانى فى فتح القدير ٣ / ٢١٤ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا محمد بن عبد الله المخرمى قال حدثنا عبد الرحمن بن مهدى قال حدثنا سهل بن أبى الصلت السراج قال سمعت الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٦٠ .

- كذلك أورد هذا الخبر كل من السيوطى والشوكانى بلفظ « كلا نرزق فى الدنيا البر والفاجر » فراجع الدر المنثور ٥ / ٢٥٦ . وفتح القدير ٣ / ٢١٩ وعزوه إلى ابن جرير وابن أبى حاتم وأبى نعيم فى الحلية .

(٤) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٣٣ .

(٥) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : حدثنا ابن حميد قال حدثنا الحكم بن بشير قال =

عن الحسن فى قوله « وبالوالدين إحسانا » قال : برا[1].

﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ﴾[8]

عن الحسن فى قوله « حصيرا » قال : فراشا ومهادا[2].

﴿ ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير ﴾[11]

عن الحسن رضى الله عنه فى قوله « ويدع ـــ » قال : ذلك دعاء الإنسان بالشر على ولده وعلى امرأته ، يغضب أحدهم فيدعو عليه ، فيسب نفسه ويسب زوجته وماله وولده فإن أعطاه الله ذلك شق عليه ، فيمنعه ذلك ، ثم يدعو بالخير فيعطيه[3].

﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ﴾[13]

قال الحسن « طائره » أى شقاوته وسعادته[4].

قال الحسن : « طائره » : أى عمله[5].

عن الحسن قال : يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ، ووكل بك ملكان كريمان ، أحدهما عن يمينك والآخر عن يسارك ، حتى إذا مت طويت صحيفتك ، فجعلت فى عنقك معك فى قبرك ، حتى تخرج يوم القيامة ، فعند ذلك يقول « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه » حتى بلغ « عليك حسيبا »[6].

= حدثنا زكريا بن سلام قال جاء رجل إلى الحسن .. » ١٥ / ٦٢ .

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن . فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٢٥٨ ، وفتح القدير ٣ / ٢٢٠ .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٢٤٥ بقوله ، وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن .. » .

(٣) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن . فراجع الدر المنثور ٥ / ٢٤٦ .

(٤) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ١٥ .

(٥) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ١٥ .

(٦) أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٢٥١ بقوله . وأخرج ابن جرير عن الحسن .

عن الحسن رضى الله عنه أنه سئل : ما بر الوالدين ؟ قال : أن تبذل لهما ما ملكت ، وإن تطيعهما فيما أمراك به ، إلا أن يكون معصية[1].

عن الحسن رضى الله عنه أنه قيل له : إلام ينتهى العقوق ؟ قال : أن يحرمهما ويهجرهما ويحد النظر إلى وجههما[2].

عن الحسن فى قوله « وقل لهما قولا كريما » قال : يقول : يا أبت ، يا أمه ، ولا يسميهما بأسمائهما[3].

عن الحسن رضى الله عنه قال : للأم ثلثا البر وللأب الثلث[4].

عن الحسن رضى الله عنه قال : قال رسول الله (ص) : « لا يدخل الجنة عاق ولا مدمن خمر ولا مكذب بقدر »[5].

﴿ كان للأوابين غفورا ﴾[25]

قال الحسن : الأواب : المقبل إلى الله تعالى بقلبه وعمله[6].

﴿ وآت ذا القربى حقه ﴾[26]

عن الحسن فى قوله « وآت ... » قال : هو أن توفيهم حقهم إن كان يسيرا ، وإن لم يكن عندك « فقل لهم قولا ميسورا » وقل لهم الخير[7].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق فى المصنف عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٢٥٩ .

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٢٥٩ .

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٢٥٩ .

(٤) أخرجه ابن أبى شيبة عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٢٧٠ .

(٥) أخرجه ابن أبى شيبة عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٢٧٠ .

(٦) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٢٦ .

(٧) أخرجه ابن أبى شيبة وابن المنذر عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٢٧٢ .

قال الحسن : إنه قرابة الرجل من قبل أبيه وأمه[1] .

سأل رجل الحسن قال : أعطى قرابتى زكاة مالى ، فقال : إن لهم فى ذلك لحقا سوى الزكاة ثم تلا هذه الآية[2] .

﴿ فقل لهم قولا ميسورا ﴾[28]

عن الحسن فى قوله « فقل لهم قولا ميسورا » قال : أى بالوعد[3] .

عن الحسن رضى الله عنه فى قوله « فقل ــــ » قال : لينا سهلا سيكون إن شاء الله تعالى فأفعل سنصيب إن شاء الله فأفعل[4] .

قال الحسن : إنه العدة الحسنة[5] .

﴿ ولا تجعل يدك مغلولة ﴾[29]

عن الحسن فى قوله « ولا ... » قال : لا تجعلها مغلولة من النفقة ، ولا تبسطها : تبذر بسرف[6] .

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٢٧ .

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا عمران بن موسى قال حدثنا عبد الوارث بن سعيد قال حدثنا حبيب المعلم قال سأل رجل الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٧١ .

(٣) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٣٧ .

(٤) أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٢٧٥ .

(٥) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٢٩ .

(٦) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا هوذة عن الحسن » تفسير الطبرى ١٥ / ٧٦ - ٧٧ .

كان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول : لا تطفف برزقى عن غير رضاى ولا تضعه فى سخطى فأسلبك ما فى يديك فتكون حسيرا ليس فى يديك منه شيء[1] .

عن الحسن رضى الله عنه فى قوله « ولا ـــ » الآية قال : نهاه عن السرف والبخل[2] .

﴿ إن ربك يبسط الرزق ﴾[30]

قال الحسن : ينظر له ، فإن كان الغنى خيرا له أغناه ، وإن كان الفقر خيرا له أفقره[3] .

قال الحسن : يبسط لهذا مكرابه ، ويقدر لهذا نظرا له[4]

﴿ ولا تقربوا الزنا ﴾[32]

عن الحسن رضى الله عنه أن رسول الله (ص) كان يقول : « لا يزنى العبد حين يزنى وهو مؤمن ولا ينتهب حين ينتهب وهو مؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يغل حين يغل وهو مؤمن ، قيل : يا رسول الله ، والله إن كنا لنرى أنه يأتى ذلك وهو مؤمن فقال رسول الله (ص) : إذا فعل شيئا من ذلك نزع الإيمان من قلبه ، فإن تاب تاب الله عليه[5] .

---

(١) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا ابن حميد قال حدثنا يوسف بن بهز قال حدثنا حوشب قال كان الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٧٧ .

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٢ / ٢٧٧ .

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٢٧٨ . وفتح القدير ٣ / ٢٢٥ .

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٢٧٨ .

(٥) أخرجه ابن أبى حاتم عن قتادة . فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٢٨٠ .

﴿ ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ﴾[٣٣]

عن الحسن فى قوله « ـــــ » قال : كان الرجل يقتل فيقول وليه : لا أرضى حتى أقتل به فلانا وفلانا من أشراف قبيلته[١] .

﴿ وزنوا بالقسطاس ﴾[٣٥]

عن الحسن فى قوله « القسطاس » قال : القبّان[٢] .

عن الحسن فى قوله « القسطاس » قال : الحديد[٣] .

﴿ إذا لا بتغوا إلى ذى العرش سبيلا ﴾[٤٢]

قال الحسن : لا بتغوا سبيلا إلى ممانعته وإزالة ملكه[٤] .

﴿ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ﴾[٤٤]

عن الحسن فى قوله « وإن من شىء .. » قال : كل شىء فيه الروح[٥] .

---

(١) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنى يعقوب قال حدثنا ابن علية قال حدثنا أبو رجاء عن الحسن » تفسير الطبرى ١٥ / ٨٢ - ٨٣ .

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا صفوان بن عيسى قال حدثنا الحسن بن ذكوان عن الحسن » تفسير الطبرى ١٥ / ٨٥ .

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٢٨٥ . وفتح القدير ٣ / ٢٢٩ .

(٤) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٣٨ .

(٥) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنى يعقوب قال حدثنا هشيم قال أخبرنا جويبر عن الضحاك ويونس عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٩٢ .

- كذلك أورد هذا الخبر كل من ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٣٩ وابن كثير فى تفسيره ٣ / ٤٢ . والسيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٢٩٤ وعزاه إلى أبى الشيخ .

قال الحسن : هذه الآية فى التوراة كقدر ألف آية « وإن من شىء إلا يسبح بحمده » قال : فى التوراة تسبح له الجبال ويسبح له الشجر ويسبح له كذا[1] .

عن ابن شوذب : قال : جلس الحسن مع أصحابه على مائدة ، فقال بعضهم هذه المائدة تسبح الآن ، فقال الحسن : كلا ، إنما ذاك كل شىء على أصله[2] .

سأل يزيد الرقاشى الحسن البصرى ، فقال له : يا أبا سعيد : هل يسبح هذا الخوان ؟ فقال : كان يسبح مرة ، قلت : الخوان هو المائدة من الخشب ، فكأن الحسن رحمه الله ذهب إلى أنه لما كان حيًا فيه خضرة كان يسبح ، فلما قطع وصار خشبة يابسة انقطع تسبيحه[3].

---

(١) أخرجه ابن المنذر عن الحسن فراجعه فى فتح القدير ٣ / ٢٣٣ ، والدر المنثور ٥ / ٢٩٣ .

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن شوذب فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٢٩٢ .

(٣) ذكره ابن كثير بقوله ، قال ابن جرير حدثنا محمد بن حميد حدثنا يحيى بن واضح وزيد بن حباب قالا : حدثنا جرير أبو الخطاب قال : كنا مع يزيد الرقاشى ومعه الحسن .. » تفسير ابن كثير ٣ / ٤٢ .

قلت : ولقد عقب على ذلك ابن كثير مؤيدا قول الحسن فقال « وقد يستأنس لهذا القول بحديث ابن عباس أن رسول الله (ص) مر بقبرين فقال « إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير . أما أحدهما فكان لا يستنزه من البول ، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة . ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين ثم غرز فى كل قبر واحدة ثم قال : لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا » أخرجاه فى الصحيحين . قال بعض من تكلم على هذا الحديث من العلماء : إنما قال ما لم ييبسا لأنهما يسبحان ما دام فيهما خضرة . فإذا يبسا انقطع تسبيحهما » تفسير ابن كثير ٣ / ٤٢ - ٤٣ .

عن الحسن رضى الله عنه قال : التراب يسبح فإذا بنى به الحائط سبح[1] .

عن الحسن رضى الله عنه قال : لولا ما غمى عليكم من تسبيح ما معكم فى البيوت ما تقاررتم[2] .

﴿ أو خلقا مما يكبر فى صدوركم ﴾[51] .

عن الحسن فى قوله « أو خلقا ــ » قال : الموت[3] .

قال الحسن : الموت لو كنتم موتى لأحييتكم[4] .

﴿ وتظنون إن لبثتم إلا قليلا ﴾[52]

قال الحسن : فى الدنيا لعلمهم بطول اللبث فى الآخرة[5] .

﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ﴾[53]

عن الحسن فى هذه الآية قال : لا يقول له مثل قوله ، يقول له : يرحمك الله ، يغفر الله له[6] .

---

(١) أخرجه أبو الشيخ عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٢٩٤ .

(٢) أخرجه أبو الشيخ عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٢٩٤ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنى محمد بن المثنى قال حدثنا سليمان أبو داود قال حدثنا شعبة عن أبى رجاء عن الحسن .. » ١٥ / ٩٨ .

كذلك أورد هذا الخبر السيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٣٠٠ وقال عنه « أخرجه أبو الشيخ فى العظمة عن الحسن .. » .

(٤) أخرجه أبو الشيخ فى العظمة عن الحسن فراجعه فى فتح القدير ٣ / ٢٣٥ .

(٥) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٤٦ .

(٦) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا خلاد بن أسلم قال حدثنا النضر قال أخبرنا المبارك عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ١٠٢ .

ولقد ذكر هذا الخبر كل من السيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٣٠١ والشوكانى فى فتح القدير ٣ / ٢٣٦ .

قال الحسن : إنهم المشركون ، يقول له : يهديك الله[1] .

عن الحسن قال : حدثنى رجل من بنى سليط قال : أتيت النبى (ص) ، وهو فى رفلة من الناس فسمعته يقول : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ، التقوى ههنا »[2] .

﴿ إن يشأ يرحمكم أوإن يشأ يعذبكم ﴾[54]

قال الحسن أن يشأ يرحمكم بالتوبة أو يعذبكم بالإقامة على الذنوب[3] .

﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾[59]

عن الحسن فى قوله تعالى « وما منعنا ـــ » قال : رحمة لكم أيتها الأمة ، إنا لو أرسلنا بالآيات فكذبتم بها أصابكم ما أصاب من قبلكم[4] .

(١) زاد المسير ٥ / ٤٧ .

قلت : وما يؤيد كلام الحسن إنهم المشركون ما قيل فى سبب نزول هذه الآية ، حيث ورد فى سبب نزولها قولان ، كلاهما يشهد لكلام الحسن ، وهما :

الأول : أن المشركين كانوا يؤذون أصحاب رسول الله (ص) بمكة بالقول والفعل فشكوا ذلك إلى رسول الله (ص) فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثانى : أن رجلاً من الكفار شتم عمر بن الخطاب فهم به عمر رضى الله عنه فنزلت هذه الآية قال مقاتل ، والمعنى : وقل لعبادى المؤمنين يقولوا الكلمة التى هى أحسن . انظر زاد المسير ٥ / ٤٦ - ٤٧ .

(٢) ذكره ابن كثير بقوله « قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد أنبأنا على بن زيد عن الحسن » تفسير ابن كثير ٣ / ٤٦ .

(٣) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٤٧ .

(٤) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنى إسحق بن وهب قال حدثنا أبو عامر قال حدثنا مسعود بن عباد عن مالك بن دينار عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ١٠٨ .

- كذلك أورد هذا الخبر السيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٣٠٧ .

عن الحسن فى قوله « وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » قال : الموت الذريع[1] .

﴿ وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ﴾[60]

سمعت الحسن يقول : أحاط بالناس : أى : عصمك من الناس[2] .

عن الحسن قال : أحطت لك بالعرب ألا يقتلوك فعرف أنه لا يقتل[3] .

قال الحسن : هى رؤيا عين رآها ليلة أسرى به[4] .

عن الحسن فى قوله « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس » قال : أسرى به عشاء إلى بيت المقدس فصلى فيه ، وأراه الله ما أراه من الآيات ، ثم أصبح بمكة ، فأخبرهم أنه أسرى به إلى بيت المقدس ، فقالوا له : يا محمد ، ما شأنك ، أمسيت فينا ثم أصبحت فينا

---

(١) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثنا نوح بن قيس عن أبى رجاء عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ١٠٩ .
– كذلك أورد هذا الخبر كل من ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٥٢ والشوكانى فى فتح القدير ٣ / ٢٣٩ والسيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٣٠٨ بقوله « وأخرج سعيد بن منصور وأحمد فى الزهد وابن أبى الدنيا فى ذكر الموت وابن جرير وابن المنذر عن الحسن .. » .

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا محمد بن المثنى وقال حدثنا عبد الصمد قال حدثنا شعبة عن أبى رجاء قال سمعت الحسن » تفسير الطبرى ١٥ / ١٠٩ .
– كذلك أورد هذا الخبر ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٤٨ . والسيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٣٠٨ والشوكانى فى فتح القدير ٣ / ٢٣٩ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : « حدثنا ابن حميد قال حدثنا يحيى بن واضح قال حدثنا أبو بكر الهذلى عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ١١٠ .

(٤) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٥٣ .

تخبرنا أنك أتيت بيت المقدس ، فعجبوا من ذلك حتى ارتد بعضهم عن الإسلام[١] .

عن الحسن قال : قال كفار أهل مكة : أليس من كذب ابن أبى كبشة أنه يزعم أنه سار مسيرة شهرين فى ليلة[٢] .

عن الحسن فى قوله « والشجرة الملعونة فى الفرآن » قال : فإن قريشا كانوا يأكلون التمر والزبد ويقولون : تزقموا هذا الزقوم ، قال أبو رجاء : فحدثنى عبد القدوس عن الحسن قال : فوصفها الله لهم فى الصافات[٣] .

عن الحسن قال : قال أبو جهل وكفار أهل مكة : أليس من كذب ابن أبى كبشة أنه يوعدكم بنار تحترق فيها الحجارة ، ويزعم أنه ينبت فيها شجرة « والشجرة الملعونة فى القرآن » قال : هى شجرة الزقوم[٤] .

(١) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنى يعقوب قال حدثنا ابن علية عن أبى رجاء عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ١١١ .
- كذلك أورد هذا الخبر مختصرا السيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٣٠٩ وعزاه إلى ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر .

(٢) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا هوذة قال حدثنا عوف عن الحسن » تفسير الطبرى ١٥ / ١١١ .

(٣) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنى يعقوب قال حدثنا ابن علية عن أبى رجاء عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ١١٢ .
قلت : ولقد جاء وصف هذه الشجرة فى سورة الصافات فى قوله تعالى « أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم . إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين . فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون . ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم »(٦٢ - ٦٧ : الصافات) .

(٤) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا هوذة قال حدثنا عوف عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥/ ١١٢ .
- كذلك أورد هذا ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٤٨ ، ٤٩ .

﴿ وشاركهم فى الأموال والأولاد ﴾(٦٤)

عن الحسن قال : قد والله شاركهم فى الأموال وأعطاهم الله أموالاً فأنفقوها فى طاعة الشيطان فى غير حق الله تبارك اسمه[١] .

قال الحسن : مرهم أن يكسبوها من خبيث وينفقوها فى حرام[٢] .

قال الحسن : قد والله شاركهم فى أموالهم وأولادهم ، فمجسوا وهودوا ونصروا وصبغوا غير صبغة الإسلام ، وجزءوا من أموالهم جزءاً للشيطان[٣] .

قال الحسن : التى انفقوها فى معاصى الله[٤] .

﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾(٧١)

عن الحسن فى قوله « بإمامهم » قال : بأعمالهم[٥] .

---

(١) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ١١٩ .

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا ابن عبد الأعلى قال حدثنا محمد عن معمر قال قال الحسن » تفسير الطبرى ١٥ / ١١٩ .

- كذلك أورد هذا الخبر ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٤٩ - ٥٠ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ١٢١ .

- كذلك أورد هذا الخبر كل من ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٥٩ وابن كثير فى تفسيره ٣ / ٥٠ .

(٤) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٥٩ .

(٥) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ١٢٧ .

- كذلك ذكر هذا الخبر كل من ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٦٥ والشوكانى فى فتح القدير ٣ / ٢٤٦ .

عن الحسن فى قوله « بإمامهم » قال : بكتابهم الذى فيه أعمالهم[1] .

﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾[72]

قال الحسن : من كان فى الدنيا أعمى بالكفر فهو فى الآخرة أعمى ، لأنه فى الدنيا تقبل توبته وفى الآخرة لا تقبل[2] .

﴿ إذًا لأذقناك ضعف الحياة ﴾[75]

عن الحسن رضى الله عنه فى قوله « ضعف الحياة » قال : هو عذاب القبر[3] .

﴿ وإن كادوا ليستفزونك ﴾[76]

قال الحسن : إنهم المشركون أهل مكة ، هموا بإخراج رسول الله (ص) من مكة ، فأمره الله بالخروج وأنزل هذه الآية إخباراً عما هو به[4] .

قال الحسن : المراد بالاستفزاز هنا : القتل ، ليخرجوه من الأرض كلها[5] .

---

(١) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا محمد قال حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن قتادة قال قال الحسن » تفسير الطبرى ١٥ / ١٢٧ .
- كذلك ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٥٢ والشوكانى فى فتح القدير ٣ ٢٤٦ .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٦٦ .

(٣) أخرجه البيهقى فى كتاب عذاب القبر عن الحسن ، فراجعه فى الدر المنثور ٥ ٣١٩ وفتح القدير ٣ / ٢٤٩ .

(٤) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٧٠ .

(٥) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٧٠ .

﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل ﴾[٧٨]

عن الحسن قال ، قال الله عز وجل « أقم الصلاة لدلوك الشمس .. » قال : الظهر : دلوكها ، فإذا زالت الشمس عن بطن السماء وكان فى الأرض فىء[١] .

عن الحسن قال : دلوكها : زوالها[٢] .

عن الحسن قال : لدلوكها : لغروبها[٣] .

عن الحسن قال : غسق الليل : المغرب والعشاء[٤] .

﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾[٧٩]

عن الحسن قال : التهجد : ما كان بعد العشاء الآخرة[٥] .

عن الحسن فى قوله « نافلة لك » قال : لم تكن النافلة لأحد إلا للنبى (ص) خاصة من أجل أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فما عمل من عمل مع المكتوب فهو نافلة له سوى المكتوب من أجل أنه

---

(١) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : « حدثنى الحسين بن على الصدائى قال حدثنا أبى قال حدثنى مبارك عن الحسن .. » تفسير الطبرى ٥ / ١٣٥ .
- كذلك ذكره الشوكانى فى فتح القدير ٣ / ٢٥٠ .

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا يعقوب قال حدثنا هشيم قال أخبرنا يونس عن الحسن » تفسير الطبرى ١٥ / ١٣٦ ، وذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٧٢ .

(٣) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٥٣ - ٥٤ .

(٤) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٧٤ .

(٥) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنى الحارث قال حدثنا القاسم قال حدثنا يزيد عن هشام عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ١٤٢ .
- ولقد ذكر هذا الخبر أيضاً ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٥٤ .

لا يعمل ذلك فى كفارة الذنوب فهى نوافل له وزيادة ، والناس يعملون ما سوى المكتوب فى كفارة ذنوبهم ، فليس للناس نوافل ، إنما هى للنبى (ص) خاصة[1] .

عن الحسن فى قوله « مقاما محمودا » قال : مقام الشفاعة يوم القيامة[2].

﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق ﴾[80]

عن الحسن قال : إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله (ص) ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه وأراد الله قتال أهل مكة فأمره أن يخرج إلى المدينة ، فهو الذى قال الله « وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق » الآية[3] .

قال الحسن : « مدخل صدق » أى الجنة ، ومخرج صدق من مكة إلى المدينة[4] .

---

(١) أخرجه ابن المنذر عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٣٢٤ .
- كذلك أورد هذا الخبر مختصرا كل من السيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٣٢٤ وعزاه إلى محمد بن نصر وابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٧٥ .

(٢) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا ابن أبى عدى عن عوف عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ١٤٤ .
- كذلك أورده كل من ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٧٦ ، وابن كثير فى تفسيره ٣ / ٥٥ .

(٣) أورده الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيغ قال حدثنا بشر ابن المفضل عن عوف عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ١٤٩ .
- كذلك أورد هذا الخبر كل من ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٧٧ وابن كثير فى تفسيره ٣ / ٥٨ .

(٤) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : « حدثنا الحسن بن يحيى قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة قال ، قال الحسن » تفسير الطبرى ١٥ / ١٥٠ ، كذلك
=

﴿ واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ﴾(٨٠)

عن الحسن قال : يوعده- لينـزعن ملك فارس وعز فارس وليجعلنه له ، وعز الروم وملك الروم وليجعلنه له[1] .

﴿ كل يعمل على شاكلته ﴾(٨٤)

عن الحسن فى قوله : « على شاكلته » قال : على نيته[2] .

﴿ ويسألونك عن الروح ﴾(٨٥)

قال الحسن : الروح : جبريل عليه السلام[3] .

قال الحسن : الروح : إنه القرآن[4] .

﴿ أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ﴾(٩٢)

قال الحسن : « قبيلا » : قبيلة قبيلة ، كل قبيلة على حدة[5] .

= ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٧٧ .

تعقيب : وهذا القول أرجح وأصوب عند الطبرى .

(١) أخرجه الطبرى بسنده الآتى : « حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع قال حدثنا بشر ابن المفضل عن عوف عن الحسن » تفسير الطبرى ١٥ / ١٥٠ .

(٢) أخرجه هناد وابن المنذر عن الحسن ، فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٣٣٠ ، وزاد المسير ٥ / ٨٠ .

(٣) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٨٢ .

(٤) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٨٢ .

(٥) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٨٢ .

﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا ﴾[97]

قال الحسن : هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة يخرجون من الدنيا كذلك فإذا قاموا من قبورهم إلى الموقف قاموا كذلك ثم إنهم يسمعون ويبصرون فيما بعد .[1]

﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾[101]

عن الحسن فى قوله « تسع آيات » قال : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات » قال : هذه الآية واحدة ، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، ويد موسى وعصاه إذ ألقاها فإذا هى بثعبان مبين ، وإذ ألقاها فإذا هى تلقف ما يأفكون[2] .

عن الحسن فى قوله « فاسأل بنى إسرائيل » قال : سؤالك إياهم : نظرك فى القرآن[3] .

---

(١) أورده ابن القيم بقوله « وهذا مروى عن الحسن » فراجعه فى التفسير القيم ص٣٦١ .

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده التالى : « حدثنى الحسن بن يحيى قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر قال قال الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ١٧٢ .
- ولقد أشار إلى هذا ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٦٦ .

(٣) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنى الحارث قال حدثنا القاسم قال حدثنا حجاج عن هارون عن اسماعيل عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ١٧٣ .

﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾[١٠٦]

عن الحسن رضى الله عنه قال : كان يقال : أنزل القرآن على نبى الله (ص) ثمان سنين بمكة وعشرًا بعدما هاجر[١] .

عن الحسن فى قوله « وقرآنا فرقناه » قال : فرق الله به بين الحق والباطل[٢] .

تلا الحسن « وقرآنا .. » الآية : فقال : كان الله تبارك وتعالى ينزل هذا القرآن بعضه قبل بعض ، لما علم أنه سيكون ويحدث فى الناس ، لقد ذكر لنا أنه كان بين أوله وآخره ثمانى عشرة سنة : قال : فسألته يوماً فقلت يا أبا سعيد : « وقرآنا فرَّقناه » فثقلها أبو رجاء ، فقال الحسن : ليس « فرَّقناه » ولكن « فرقناه » فقرأ الحسن مخففة . قلت : من يحدثك هذا يا أبا سعيد ، أصحاب محمد ، قال : فمن يحدثنيه ، قال : أنزل عليه بمكة قبل أن يهاجر إلى المدينة ثمانى سنين وبالمدينة عشر سنين[٣] .

عن الحسن قال : أنزل على نبى الله القرآن ثمانى سنين وعشراً بعدما هاجر[٤] .

---

(١) أخرجه ابن الضريس من طريق قتادة عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٣٤٦ .

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : « حدثنا ابن المثنى قال حدثنا بدل بن المحبر قال حدثنا عباد يعنى ابن راشد عن داود عن الحسن » تفسير الطبرى ١٥ / ١٧٣ .
– كذلك أورد هذا الخبر ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٩٦ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنى يعقوب قال حدثنا ابن علية قال حدثنا عن أبى رجاء قال تلا الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ١٧٩ .

(٤) أخرجه الطبرى بإسناده هكذا : « حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن » تفسير الطبرى ١٥ / ١٨٠ .

﴿ يخرون للأذقان ﴾(١٠٧)

قال الحسن « الأذقان » : اللحى[1] .

﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها ﴾(١١٠)

عن عكرمة والحسن البصرى قالا : قال فى بنى إسرائيل « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها » وكان رسول الله (ص) إذا صلى يجهر بصلاته ، فأذى ذلك المشركين بمكة حتى أخفى صلاته هو وأصحابه ، فذلك فقال « ولا تجهر ... » وقال فى الأعراف « واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والأصال ولا تكن من الغافلين »[2] .

عن الحسن أنه كان يقول فى قوله « ولا تجهر » : أى لا تراء بها علانية ولا تخفها سراً[3] .

عن الحسن أنه كان يقول فى قوله « ولا تجهر » : لا تحسن علانيتها وتسىء سريرتها[4] .

---

(١) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا الحسن قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر قال قال الحسن » تفسير الطبرى ١٥ / ١٨٠ .

(٢) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا ابن حميد قال حدثنا يحيى بن واضح قال حدثنا الحسين عن يزيد عن عكرمة والحسن » تفسير الطبرى ١٥ / ١٨٧ .

(٣) أورده الطبرى بإسنادين :

الأول : « حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن » .

والثانى : « حدثنى يعقوب قال حدثنا هشيم عن عوف عن الحسن » تفسير الطبرى ١٥ / ١٨٧ .

- كذلك أورد هذا الخبر مع اختلاف يسير فى بعض ألفاظه المحاسبى بهذا الإسناد : « حدثنا هشيم قال حدثنا منصور وعوف عن الحسن » راجع العقل وفهم القرآن ص ٤٢٢ .

(٤) أورده الطبرى بإسنادين الأول : =

عن الحسن فى قوله « ـــ » قال : لا تصلها رياء ولا تدعها حياء[1] .

قال الحسن : نزلت هذه الآية فى القراءة فى الصلاة[2] .

تفسير سورة الكهف

قال الحسن : هى مكية[3] .

﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ﴾[7]

عن الحسن فى قوله « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها » قال : هم الرجال العباد العمال لله بالطاعة[4] .

= الأول : « حدثنا الحسن قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر قال كان الحسن .. » .

والثانى : « حدثنى على بن الحسن الأزرقى قال حدثنا الأشجعى عن سفيان عن منصور عن الحسن » مع اختلاف يسير فى بعض ألفاظه ، انظر تفسير الطبرى ١٥ / ١٨٧ .

- كذلك روى هذا الخبر ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٦٩ بقوله « رواه عبد الرزاق عن معمر عن الحسن به ، وهشام عن عوف عنه به ، وسعيد عن قتادة عنه كذلك » .

- كذلك ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ١٠ .

(١) أخرجه ابن عساكر عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٢٥١ .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٦٩ ونسبه أيضاً إلى عكرمة وقتادة .

(٣) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ١٠٢ .

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٣٦١ وفتح القدير ٣ / ٢٧١ .

عن الحسن فى قوله « لنبلوهم أيهم أحسن عملا » قال : أشدهم للدنيا تركا[1].

عن الحسن فى قوله « لنبلوهم أيهم أحسن عملا » قال : أيهم أزهد فى الدنيا[2].

﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا ﴾[8]

قال الحسن : يعنى بالجرز : الخراب[3].

﴿ والرقيم ﴾[9]

قال الحسن : هو اسم الجبل[4].

﴿ إذ قاموا فقالوا ربنا ﴾[14]

قال الحسن : قاموا فى قومهم فدعوهم إلى التوحيد[5].

﴿ وكلبهم باسط ذراعيه ﴾[18]

قال الحسن البصرى : كان اسم كبش ابراهيم عليه السلام جرير ، وا سم هدهد سليمان عليه السلام عنفز ، واسم كلب أصحاب الكهف قطمير[6].

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٣٦١ وفتح القدير ٣ / ٢٧١ .

(٢) ذكره الشوكانى فى فتح القدير ٣ / ٢٧١ ، وابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ١٠٦ .

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى فتح القدير ٣ / ٢٧١ .

(٤) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ١٠٨ .

(٥) قال الحسن : قاموا فى قومهم فدعوهم إلى التوحيد .

(٦) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ١١٥ .

واسم عجل بنى إسرئيل الذى عبدوه يهموت ، وهبط آدم عليه السلام بالهند وحواء بجدة وإبليس بدستبيسان والحية بأصفهان[1] .

﴿ إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم ﴾[20]

قال الحسن : يرجموكم بأيديهم استنكاراً لكم[2] .

﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾[24]

قال الحسن : إذا لم تقل إن شاء الله[3] .

بلغنى أن الحسن قال : إذا ذكر أنه لم يقل : إن شاء الله ، فليقل : إن شاء الله[4] .

قال الحسن : إذا نسيت الاستثناء فاستثن عند ذكرك له[5] .

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٧٦ بقوله : « روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة همام بن الوليد الدمشقى حدثنا صدقة بن عمر الغسانى ، حدثنا عباد المنتصرى سمعت الحسن .. »
- كذلك أورد اسم كلب أهل الكهف كل من السيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٣٧٣ والشوكانى فى فتح القدير ٣ / ٢٧٦ وعزوه إلى ابن أبى حاتم .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ١٢٢ .

(٣) أخرجه البيهقى فى الأسماء والصفات عن الحسن فراجعه فى فتح القدير ٣ / ٢٨٠ ، والدر المنثور ٥ / ٣٧٨ .

(٤) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : « حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال ثنا المعتمر عن أبيه قال بلغنى أن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٥ / ٢٢٩ .

(٥) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٧٩ .

﴿ متكئين فيها على الأرائك ﴾[31]

عن الحسن قال : لم نكن ندرى ما الأرائك حتى لقينا رجلاً من أهل اليمن فأخبرنا أن الأريكة عندهم الحجلة إذا كان فيها سرير[1].

سئل الحسن رضى الله عن الأرائك : فقال : هى الحجال ، أهل اليمن يقولون أريكة فلان[2] .

﴿ والباقيات الصالحات خير ﴾[46]

قال الحسن : لا إله إلا الله والله أكبر والحمد لله وسبحان الله هن الباقيات الصالحات[3] .

عن الحسن البصرى قال : رأى رجل فى المنام أن منادياً نادى فى السماء ، أيها الناس خذوا سلاح فزعكم ، فعمد الناس وأخذوا السلاح حتى إن الرجل ليجئ وما معه عصا ، فنادى مناد من السماء : ليس هذا سلاح فزعكم ، فقال رجل من الأرض ما سلاح فزعنا ؟ فقال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر[4] .

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن الأنبارى فى الوقف والابتداء عن الحسن ، فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٣٨٩ .

(٢) أخرجه عبد بن حميد عن أبى رجاء فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٣٨٩ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا الحسن بن يحيى قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن الحسن وقتادة » تفسير الطبرى ١٥ / ٢٥٥ .
– كذلك ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٨٦ .

(٤) أخرجه ابن أبى شيبة عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٣٩٩ .

﴿ إلا إبليس كان من الجن ﴾[50]

عن الحسن قال : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين وإنه لأصل الجن كما أن آدم عليه السلام أصل الإنسان[1] .

قال الحسن : قاتل الله أقواماً زعموا أن إبليس كان من الملائكة والله يقول : كان من الجن[2] .

عن الحسن في قوله « أفتتخذونه وذريته » قال : ذريته : أولاده وهم يتوالدون كما يتوالد بنو آدم[3] .

﴿ وجعلنا بينهم موبقا ﴾[52]

عن الحسن قال : جعل بينهم عداوة إلى يوم القيامة[4] .

---

(١) أخرجه الطبري بهذا الإسناد : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا ابن أبي عدى عن عوف عن الحسن .. » تفسير الطبري ١٥ / ٢٦٠ .
- كذلك ذكر هذا الخبر السيوطي في الدر المنثور ٥ / ٤٠٢ وعزاه إلى ابن جرير وابن الأنباري في كتاب الأضداد وأبو الشيخ في العظمة عن الحسن .

(٢) أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم فراجعه في الدر المنثور ٥ / ٤٠٢ وفتح القدير ٣ / ٢٩٤ .

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٥ / ١٥٤ .

(٤) أخرجه الطبري بإسنادين :
الأول : « حدثني محمد بن عبد الله بن بزيع قال حدثنا بشر بن المفضل عن عوف عن الحسن » .
والثاني : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا عثمان بن عمر عن عوف عن الحسن » تفسير الطبري ١٥ / ٢٦٤ .
- كذلك ذكر هذا الخبر ابن الجوزي في زاد المسير ٥ / ١٥٦ وابن كثير في تفسيره ٣ / ٩٠ .

﴿ أو أمضى حقبا ﴾(٦٠)

قال الحسن : الحقب : سبعون ألف سنة(١) .

﴿ أقتلت نفساً زكية ﴾(٧٤)

قال الحسن : تائبة(٢) .

قال الحسن : لم تبلغ الخطايا(٣) .

﴿ وكان تحته كنز لهما ﴾(٨٢)

سمعت الحسن فى قوله « كنز لهما » قال : لوح من ذهب مكتوب فيه بسم الله الرحمن الرحيم « عجبت لمن يؤمن كيف يحزن ، وعجبت لمن يوقن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها ، لا إله إلا الله محمد رسول الله(٤) .

عن الحسن فى قوله « كنز لهما » قال : كان مالا(٥) .

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ١٦٥ .

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا الحسن بن يحيى قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر قال قال الحسن » تفسير الطبرى ١٥ / ٢٨٦ .
- كذلك ذكره السيوطى وزاد عليه : « يعنى صبياً لم يبلغ » فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٤٢٦ وعزاه إلى عبد الرزاق وابن المنذر .

(٣) أخرجه عبد الرزاق وابن المنذر فراجعه فى فتح القدير ٢ / ٢٠٥ .

(٤) أخرجه الطبرى بإسناده الآتى : « حدثنى يعقوب قال حدثنا الحسن بن حبيب بن ندبة قال حدثنا سلمة بن محمد عن نعيم العنبرى - وكان من جلساء الحسن - قال سمعت الحسن تفسير الطبرى ١٦ / ٦ .

(٥) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ١٨١ .

﴿ ويسألونك عن ذى القرنين ﴾(٨٣)

قال الحسن : كان زمانه بعد ثمود[١] .

قال الحسن : سمى بذى القرنين لأنه كانت له غديرتان من شعر[٢] .

عن الحسن قال : كان أنف الاسكندر ثلاثة أذرع[٣] .

﴿ فى عين حمئة ﴾(٨٦)

قال الحسن : أى حارة[٤] .

﴿ تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترًا ﴾(٩٠)

عن الحسن فى قوله « تطلع ... » قال : كانت أرضاً لا تحتمل البناء ، وكانوا إذا طلعت عليهم الشمس تفور فى الماء ، فإذا غربت خرجوا يتراعون كما ترعى البهائم . ثم قال الحسن : هذا حديث سمرة[٥] .

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ١٨٤ .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ١٨٤ .

(٣) أخرجه ابن عبد الحكم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٤٣٨ .

(٤) أورده الطبرى بإسنادين :

الأول : « حدثنى يعقوب قال حدثنا ابن علية عن أبى رجاء قال سمعت الحسن .. » .

والثانى : « حدثنا الحسن قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن الحسن » تفسير الطبرى ١٦ / ١٢ .

– كذلك ذكر هذا الخبر ابن الجوزى فى زاد المسير ٣ / ١٠٢ .

(٥) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنى إبراهيم بن المستمر قال حدثنا سليمان بن داود وأبو داود قال حدثنا سهل بن أبى الصلت السراج عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ١٤ .

– كذلك أورد هذا الخبر السيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٤٥٤ وعزاه إلى الطيالسى والبزار فى آماليه وابن المنذر وابن ابى حاتم وأبى الشيخ

عن ابن جريج فى قوله « حتى إذا بلغت مطلع الشمس .. » الآية ، قال : حدثت عن الحسن عن سمرة بن جندب قال ، قال النبى (ص) : « لم نجعل لهم من دونها سترا » : أنها لم يبن فيها بناء قط ، كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسرابا لهم حتى تزول الشمس(١) .

﴿ كانت لهم جنات الفردوس ﴾(١٠٧)

عن الحسن عن سمرة بن جندب أن النبى (ص) قال : « الفردوس من ربوة الجنة هى أوسطها وحسنها »(٢) .

عن الحسن عن سمرة بن جندب أن النبى (ص) قال : « أن الفردوس هى أعلى الجنة وأحسنها وأرفعها »(٣) .

﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾(١١٠)

قلت للحسن : قول الله « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » قال : فى المؤمن نزلت : قلت : أشرك بالله ؟ قال : لا ، ولكن أشرك بذلك العمل عملاً يريد الله به والناس ، فذلك يرد عليه(٤) .

---

(١) أخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة عن ابن جريج قال انظر الدر المنثور ٥ / ٤٥٤ .

(٢) أخرجه الطبرى باسناده : « حدثنا أحمد بن يحيى الصوفى قال حدثنا أحمد بن الفرج الطائى قال حدثنا الوليد بن مسلم عن سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٣٨ .

- كذلك ذكر هذا الخبر ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١٠٧ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا ابن أبى عدى قال أنبأنا إسماعيل بن مسلم عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٣٨ .

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم عن كثير بن زياد قال : قلت للحسن .. الدر المنثور ٥ / ٤٧٠ .

قلت للحسن : أخبرني عن الرياء ؟ أشرك هو ؟ قال نعم يا بنى ، أو تقرأ « فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »[1] ؟.

تفسير سورة مريم

﴿ كهيعص ﴾[1]

قال الحسن : إنه اسم للسورة [2].

﴿ يرثنى ويرث من آل يعقوب ﴾[6]

عن الحسن فى قوله « يرثنى ... » قال : نبوته وعلمه [3].

عن الحسن قال قال رسول الله (ص) : رحم الله أخى زكريا ما كان عليه من ورثة ماله حين يقول « فهب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من آل يعقوب »[4].

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن عبد الواحد بن زيد قال : قلت للحسن .. الدر المنثور ٥ / ٤٧٠ .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٢٠٦ ونسبه أيضاً إلى مجاهد .

(٣) أخرجه الطبرى بإسنادين :

الأول : « حدثنا الحسن بن يحيى قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة عن الحسن يقول » .

والثانى : « حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة قال كان الحسن يقول » تفسير الطبرى ١٦ / ٤٨ .

- ولقد ذكر هذا الخبر أيضاً ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١١١ والسيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٤٨٠ .

(٤) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا أبو كريب قال حدثنا جابر بن نوح عن مبارك عن الحسن » تفسير الطبرى ١٦ / ٤٨ .

=

قال الحسن : « يرثنى » نبوتى وعلمى ، ويرث من آل يعقوب النبوة أيضاً[1] .

﴿ وآتيناه الحكم صبيا ﴾[12]

قال الحسن : اللب[2].

﴿ وحنانا من لدنا ﴾[13]

عن الحسن فى قوله « ــــ » قال : الرحمة[3].

﴿ ولم يكن جباراً عصيا ﴾[14]

قال الحسن : قال النبى (ص) : « ما أذنب يحيى بن زكريا قط ولا هم بامرأة »[4] .

= - ولقد ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١١١ ، كذلك أورده السيوطى وزاد عليه قوله : « ويرحم الله لوطا إن كان ليأوى إلى ركن شديد » .

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٢٠٩ .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٢١٣ . ونسبه أيضاً إلى عكرمة .

(٣) أخرجه عبد بن حميد عن الحسن . الدر المنثور ٥ / ٤٨٦ ، وزاد المسير ٥ / ٢١٣ .

(٤) أورده السيوطى بقوله « وأخرج عبد الرزاق وأحمد فى الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال ، قال الحسن .. » انظر الدرالمنثور ٥ / ٤٨٦ .

﴿ وسلام عليه يوم ولد ﴾[15]

أن الحسن قال : إن عيسى ويحيى التقيا ، فقال له عيسى : استغفر لى أنت خير منى ، فقال له الآخر : استغفر لى أنت خير منى ، فقال له عيسى : أنت خير منى ، سلمت على نفسى وسلم الله عليك ، فعرف والله فضلها[1] .

﴿ فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ﴾[22]

عن الحسن قال : بلغنى أن مريم حملت لسبع أو تسع ساعات ، ووضعته من يومها[2] .

عن الحسن قال : إنها حملته تسع ساعات ووضعت من يومها[3] .

﴿ فنادها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا ﴾[24]

عن الحسن فى قوله « فناداها من تحتها » قال : ابنها[4] .

---

(١) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة أن الحسن » تفسير الطبرى ١٦ / ٥٩ .

- كذلك أورد هذا الخبر ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١١٤ ، والسيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٤٨٩ وعزاه إلى عبد الرزاق وأحمد فى الزهد وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم .

(٢) أخرجه ابن عساكر عن الحسن ،فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٤٩٧ .

(٣) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٢١٩ .

(٤) أورده الطبرى بإسنادين :

الأول : « حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن .. » .

والثانى : « حدثنا الحسن قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة قال قال الحسن » تفسير الطبرى ١٦ / ٦٨ .

كذلك ذكر هذا الخبر ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١٧ .

عن الحسن فى قوله « فناداها من تحتها » قال : هو عيسى[1] .

عن الحسن قال : من قرأ من تحتها فهو جبريل ، ومن قرأ من تحتها فهو عيسى[2] .

عن الحسن فى قوله « قد جعل ربك تحتك سريا » قال : نبيا وهو عيسى[3] .

أن الحسن تلا هذه الآية وإلى جنبه حميد بن عبد الرحمن الحميرى « قد جعل ربك تحتك سريا » قال : إن كان لسريا ، وإن كان لكريما ، فقال : حميد ، يا أبا سعيد : إنه الجدول فقال له : لم تزل تعجبنا مجالستك ، ولكن غلبتنا عليك الأمراء[4] .

تلا الحسن « قد جعل ربك تحتك سريا » فقال : كان والله « سريا » يعنى عيسى عليه السلام ، فقال له خالد بن صفوان : يا أبا سعيد ، إن العرب تسمى الجدول : السرى ، فقال : صدقت[5] .

---

(١) أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٥٠٢ .

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٥٠٢ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن » تفسير الطبرى ١٦ / ٧٠ .

- كذلك أخرجه ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١١٧ .

(٤) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا محمد بن بشار قال ثنا أبو داود قال حدثنا شعبة عن قتادة عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٧٠ .

- كذلك أخرجه عبد بن حميد عن الحسن ٥ / ٥٠٣ ، كذلك أورده ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٢٢٢ .

(٥) أخرجه ابن عساكر سفيان بن حسين قال : تلا الحسن ، انظر الدر المنثور ٥ / ٥٠٣ - ٥٠٤ .

قلت : هكذا ورد عن الحسن تفسيران فى قوله « سريا » ، ولكن ابن الأنبارى =

﴿ لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا ﴾(٤٦)

عن الحسن فى قوله « لأرجمنك » قال : بالحجارة حتى تتباعد عنى[1] .

عن الحسن فى قوله « واهجرنى مليا » قال : زمانا طويلا[2] .

عن الحسن فى قوله « واهجرنى مليا » قال : سالماً[3]

﴿ ورفعناه مكانا عليا ﴾(٥٧)

قال الحسن : الجنة[4] .

﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا ﴾(٥٩)

قال الحسن البصرى : عطلوا المساجد ولزموا الضيعات[5] .

= قال » وقد رجع الحسن عن هذا القول - وهو قوله : عيسى - إلى القول الأول وهو أن السرى هو الجدول » فراجعه فى زاد المسير ٥ / ٢٢٢ .

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٢٣٧ .

(٢) أورده الطبرى بإسنادين :

الأول : » حدثنا الحسن بن يحيى قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن الحسن » .

والثانى : » حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن قال : طويلا » انظر : تفسير الطبرى ١٦ / ٩١ .

- كذلك ذكر هذا القول ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٢٣٧ وابن كثير فى تفسيره ٣ / ١٢٣ .

(٣) أخرجه عبد بن حميد عن الحسن فراجعه فى فتح القدير ٣ / ٢٣٧ ، والدر المنثور ٥ / ٥١٤ .

(٤) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١٢٦ .

(٥) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١٢٨ .

﴿ لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما ﴾[٦٢]

عن الحسن ، وذكر أبواب الجنة فقال : أبواب يرى ظاهرها من باطنها ، فتكلم وتكلم ، فتهمهم : انفتحى انغلقى فتفعل[١] .

عن الحسن فى قوله « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » قال : كانت العرب لا تعرف شيئا من العيش أفضل من الغداة والعشى فذكر الله لهم ذلك[٢] .

قال الحسن ، قال رجل : يا رسول الله : هل فى الجنة من ليل ؟ قال : وما هيجك على هذا ؟ قال : سمعت الله يذكر فى الكتاب « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا » فقلت : الليل من البكرة والعشى ، فقال رسول الله (ـــ) : « ليس هناك ليل وإنما هو ضوء ونهار ، يرد الغدو على الرواح ، والرواح على الغدو ، وتأتيهم طرف الهدايا من الله لمواقيت الصلوات التى كانوا يصلون التى كانوا يصلون فيها فى الدنيا ، وتسلم عليهم الملائكة »[٣] .

قال الحسن : كانت العرب الأنعم فيهم من يتغذى ويتعشى فنزل القرآن على ما فى أنفسهم من النعيم[٤] .

قال الحسن : البكور يرد على العشى ، والعشى يرد على البكور ، ليس فيها ليل[٥] .

---

(١) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا على قال حدثنا الوليد بن مسلم عن خليد عن الحسن » تفسير الطبرى ١٦ / ١٠٢ .
- ولقد ذكره ابن كثير أيضاً بهذا الإسناد فى تفسيره ٣ / ١٢٩ .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٢٤٧ .

(٣) أخرجه الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول عن طريق أبان عن الحسن وأبى قلابة قالا : إنظر الدرالمنثور ٥ / ٥٢٩ وفتح القدير ٣ / ٣٤١ ٣٤٢ .

(٤) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١٢٩ .

(٥) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١٢٩ .

عن الحسن قال : كانوا يعدون النعيم : أن يتغدى الرجل ثم يتعشى ، قال الله لأهل الجنة « ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا »[1] .

﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾[71]

عن الحسن قال : قال رجل لأخيه : هل أتاك بأنك وارد النار ؟ قال : نعم ، قال : فهل أتاك أنك صادر عنها ؟ قال : لا ، قال : ففيم الضحك ؟ قال : فما رؤى ضاحكا حتى لحق بالله[2] .

قال الحسن : الورود : المدخول[3] .

﴿ أثاثا ورئيا ﴾[74]

عن الحسن فى قوله « أثاثا ورئيا » قال : الأثاث : أحسن المتاع ، والرئى : المال[4] .

قال الحسن البصرى : يعنى : الصور[5] .

﴿ أفرأيت الذى كفر بآياتنا ﴾[77]

عن الحسن قال : كان لرجل من أصحاب النبى (ص) دين على رجل من المشركين فأتاه يتقاضاه ، فقال : ألست مع هذا الرجل ؟ قال :

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٥٢٩ .

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثنى حجاج عن ابن المبارك عن الحسن » تفسير الطبرى ١٦ / ١١٢ .
كذلك ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٢٥٥ .

(٣) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٢٥٥ .

(٤) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا هوذة قال حدثنا عوف عن الحسن » تفسير الطبرى ١٦ / ١١٧ .

(٥) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١٣٤ .

نعم ، قال : أليس يزعم أن لكم جنة وناراً وأموالا وبنين ؟ قال : بلى ، قال : اذهب ، فلست بقاضيك إلا ثمة فأنزلت « أفرأيت الذى كفر بآياتنا » إلى قوله « ويأتينا فردا »[1] .

قال الحسن البصرى : نزلت فى الوليد بن المغيرة[2] .

﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ﴾(٨٦)

سمعت الحسن فى قوله « وردا » يقول : عطاشا[3] .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾(٩٦)

قال الحسن البصرى : قال رجل : والله لأعبدن الله عبادة أذكر بها ، فكان لا يرى فى حين صلاة إلا قائما يصلى ، وكان أول داخل إلى المسجد وآخر خارج ، فكان لا يعظم ، فمكث بذلك سبعة أشهر ، وكان لا يمر على قوم إلا قالوا : انظروا إلى هذا المرائى ، فأقبل على نفسه ، فقال : لا أرانى أذكر إلا بشر ، لأجعلن عملى كله لله عز وجل ، فلم يزد

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٥٣٦ .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٢٦٠ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسنادين :
الأول : « حدثنى يعقوب والفضل بن صباح قالا : حدثنا إسماعيل بن علية عن أبى رجاء قال سمعت الحسن .. » .
والإسناد الثانى : « حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن يونس عن الحسن » تفسير الطبرى ١٦ / ١٢٧ .
- كذلك أخرجه هناد عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٥٤١ .

على أن قلب نيته ولم يزد على العمل الذى كان يعمله ، فكان يمر بعد القوم فيقولون : رحم الله فلانا الآن وتلا الحسن « إن الذين آمنوا وعملوا ... »[1] .

﴿ وتنذر به قوما لدا ﴾[97]

قال الحسن : صما عن الحق[2] .

﴿ أو تسمع لهم ركزا ﴾[98]

قال الحسن البصرى : صوتا[3] .

قال الحسن البصرى : ذهب القوم فلا صوت ولا عين[4] .

---

(١) ذكره ابن كثير بقوله « قال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن الربيع بن صبيح عن الحسن البصرى رحمه الله قال » تفسير ابن كثير ٣ / ١٤٠ .

(٢) أخرجه الطبرى بإسنادين :
الأول : « حدثنا أبو صالح الفزارى قال حدثنا العلاء بن عبد الجبار قال حدثنا مهدى بن ميمون عن الحسن » .
والثانى : « حدثنى ابن سنان قال حدثنا أبو عاصم عن هارون عن الحسن » تفسير الطبرى ١٦ / ١٣٤ .
- كذلك أورد هذا الخبر كل من ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١٤٠ والسيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٥٤٦ ، والشوكانى فى فتح القدير ٣ / ٣٥٤ .

(٣) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١٤١ . ورواه أيضاً سفيان الثورى عن زياد عن عثمان مولى مصعب عن الحسن . راجع تفسير الثورى ص ١٩٠ .

(٤) أخرجه عبد بن حميد عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٥٤٧ . كذلك أورده ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١٤١ .

قال الحسن : ذهب الناس فلا صوت ولا خبر[1] .

قال الحسن : أى بادوا جميعا فلم يبق منهم عين ولا أثر[2].

تفسير سورة طه

﴿ طه ﴾[1]

عن الحسن فى قوله « طه » قال : يا رجل[3] .

﴿ فإنه يعلم السرّ وأخفى ﴾[7]

عن الحسن قال : السر ما أسر الرجل إلى غيره ، وأخفى من ذلك ما أسر فى نفسه[4] .

﴿ فاخلع نعليك ﴾[12]

قال الحسن : كانتا - يعنى نعلى موسى - من بقر ، ولكن إنما أراد الله أن يباشر بقدميه بركة الأرض ، وكان قد قدس مرتين[5] .

---

(١) رواه سفيان الثورى عن زياد عن عثمان مولى مصعب عن الحسن ، راجع تفسير الثورى ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٢) ذكره البغوى فى المعالم ٢ / ١٥٠ .

(٣) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا الحسن قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة والحسن » تفسير الطبرى ١٦ / ١٣٦ .
- كذلك أورد هذا الخبر كل من ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٢٦٩ وابن كثير فى تفسيره ٣ / ١٤١ ، والشوكانى فى فتح القدير ٣ / ٣٥٥ .

(٤) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٥٥٣ .

(٥) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثنا حجاج قال ، قال ابن جريج قال الحسن » تفسير الطبرى ١٦ / ١٤٤ .
- ولقد ذكر هذا الخبر أيضاً ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٢٧٣ =

عن الحسن رضى الله عنه قال : ما بال خلع النعلين فى الصلاة ؟ إنما أمر موسى بخلع نعليه ، إنهما كانا من جلد حمار ميت[1] .

عن الحسن فى قوله « إنك بالواد المقدس طوى » قال : واد بفلسطين قدس مرتين[2] .

﴿ بيضاء من غير سوء ﴾[22]

عن الحسن قال : أخرجها والله من غير سوء ، من غير برص ، فعلم موسى أنه لقى ربه[3] .

عن الحسن قال : أخرجها كأنها مصباح فعلم موسى أنه لقى ربه ولهذا قال تعالى « لنريك من آياتنا الكبرى »[4].

﴿ واحلل عقدة من لسانى ﴾[27]

قال الحسن البصرى : حل عقدة واحدة ، ولو سأل أكثر من ذلك لأعطى[5] .

= - كذلك أورده الطبرى مختصراً بقوله « كان قد قدس مرتين » بنفس الإسناد : فراجعه فى تفسير الطبرى ١٦ / ١٤٦ . كذلك ذكر هذا أيضاً ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٢٧٥ .

(١) أخرجه عب بن حميد عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٥٥٨ .

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٥٥٩ .

(٣) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا حماد بن مسعدة قال حدثنا قرة عن الحسن » تفسير الطبرى ١٦ / ١٥٨ .
- كذلك ذكر هذا الخبر ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١٤٦ .

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٥٦٥ .

(٥) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١٤٧ .

﴿ فقولا له قولا لينا ﴾(٤٤)

قال الحسن البصرى : اعذرا إليه وقولا له : إن لك رباً ولك معاداً وإن بين يديك جنة ونارا(١).

عن الحسن فى قوله « لعله يتذكر أو يخشى » قال : لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون أهلكه قبل أن أعذر إليه(٢).

﴿ أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ﴾(٥٠)

عن الحسن قال : أعطى كل شىء ما يصلحه ثم هداه له(٣).

﴿ ثم ائتوا صفا ﴾(٦٤)

قال الحسن : كان السحرة خمسة وعشرين صفاً ، كل ألف ساحر صف(٤).

﴿ ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾(٦٩)

عن الحسن عن جندب بن عبد الله البجلى قال ، قال رسول الله (ص) : «إذا أخذتم - يعنى الساحر - فاقتلوه ، ثم قرأ « ولا يفلح الساحر حيث أتى » : قال : لا يؤمن من حيث وجد »(٥).

---

(١) اورد هذا كل من ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٢٨٨ ، وابن كثير فى تفسيره ٣ / ١٥٣ بقوله « قال عمرو بن عبيد عن الحسن » . والسيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٥٨٠ وعزاه إلى ابن أبى حاتم .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١٥٣ .

(٣) ذكره السيوطى بقوله « وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن » راجع الدر المنثور ٥ / ٥٨١ .

(٤) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٣٠٠ .

(٥) ذكره ابن كثير بهذا الإسناد : « قال ابن أبى حاتم ، حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن موسى الشيبانى حدثنا حماد بن خالد ، حدثنا ابن معاذ - أحسب الصائغ - عن الحسن » تفسير ابن كثير ٣ / ١٥٨ .

﴿ ما أخلفنا موعدك بملكنا ﴾(٨٧)

عن الحسن فى قوله « بملكنا » قال : بسلطاننا[١] .

﴿ فأخرج لهم عجلا جسدا ﴾(٨٨)

قال الحسن البصرى : إن هذا العجل اسمه بهموت[٢] .

﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول ﴾(٩٦)

عن الحسن فى قوله « فقبضت » أنه كان يقرؤها « فقبصت » بالصاد ، وقال : والقبض بأطراف الأصابع[٣] .

﴿ وإن لك موعدًا لن تخلفه ﴾(٩٧)

عن الحسن فى قوله « لن تخلفه » قال : لن تغيب عنه[٤] .

﴿ يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا ﴾(١٠٣)

عن الحسن قال : إنهم عنوا لبثهم فى الدنيا[٥] .

﴿ لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ﴾(١٠٧)

قال الحسن « العوج » : الانخفاض ، والأمت : الارتفاع[٦]

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٥٩٥ وفتح القدير ٣ / ٣٨٢ .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١٦٢ .

(٣) ذكره السيوطى بقوله ، وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه الدر المنثور ٥ / ٥٩٦ .

(٤) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١٦٤ .

(٥) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٣٢١ ونسبه أيضاً إلى قتادة .

(٦) ذكر ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٣٢٣ .

﴿ يومئذ يتبعون الداعى ﴾(١٠٨)

قال الحسن البصرى : أى يوم يرون هذه الأحوال والأهوال يستجيبون مسارعين إلى الداعى حيثما أمروا بادروا إليه ، ولو كان هذا فى الدنيا لكان أنفع لهم ، ولكن حيث لا ينفعهم كما قال تعالى « أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا » وقال « مهطعين إلى الداع »[1].

عن الحسن فى قوله « إلا همسا » قال : همس الأقدام[2].

عن الحسن فى قوله « إلا همسا » قال : صوت وطء الأقدام[3].

﴿ فلا يخاف ظلما ولا هضما ﴾(١١٢)

عن الحسن فى قوله « فلا ـــ » قال : لا ينتقص الله من حسناته شيئاً ، ولا يحمل عليه ذنب سيئ[4]

﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾(١١٤)

عن الحسن قال : لطم رجل امرأته فجاءت إلى النبى (ﷺ) تطلبه قصاصا ، فجعل النبى (ص) بينهما القصاص ، فأنزل الله « ولا تعجل

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١٦٥ .

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا سليمان قال حدثنا حماد عن حميد عن الحسن » تفسير الطبرى ١٦ / ٢١٤ .

(٣) أخرجه عبد بن حميد عن الحسن فراجعه فى فتح القدير ٣ / ٣٨٨ . كذلك ذكر هذا الخبر ابن الجوزى فى زاد المسير بقوله « وطء الأقدام » ٥ / ٣٢٣ .

(٤) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : « حدثنا الحارث قال حدثنا الحسن قال حدثنا سلام ابن مسكين عن ميمون بن سياه عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٢١٨ .
- كذلك ذكر هذا الخبر ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١٦٦ .

بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدنى علما » فوقف النبى(ﷺ) حتى نزلت « الرجال قوامون على النساء » الآية(١)

﴿ فنسى ولم نجد له عزما ﴾(١١٥)

عن الحسن قال : كان عقل آدم مثل عقل جميع ولده ، قال الله « فنسى ولم نجد له عزما »(٢).

عن الحسن فى قوله « فنسى » قال : ترك ما قدم إليه ولو كان منه نسيان ما كان عليه شيء ، لأن الله قد وضع عن المؤمنين النسيان والخطأ ، ولكن آدم ترك ما قدم إليه من أكل الشجرة(٣).

﴿ فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾(١١٧)

عن الحسن رضى الله عنه فى قوله « فلا يخرجنكما .. » قال : عنى به شقاء الدنيا فلا تلقى ابن آدم إلا شقيا ناصبا(٤).

﴿ فبدت لهما سوءاتهما ﴾(١٢١)

عن الحسن عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله (ﷺ) : « إن الله خلق آدم رجلاً طوالاً كثير شعر الرأس ، كأنه نخلة سحوق ، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه ، فأول ما بدا منه عورته ، فلما نظر إلى عورته

---

(١) ذكر هذا ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٣٢٥ - ٣٢٦ . كذلك ذكره كل من السيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٦٠٢ والشوكانى فى فتح القدير ٣ / ٣٩٠ وعزوه إلى الفريابى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه .

(٢) أخرجه أبو الشيخ فى العظمة عن الحسن ، الدر المنثور ٥ / ٦٠٣ .

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٦٠٤ .

(٤) أخرجه ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن ، فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٦٠٥ .

جعل يشتد فى الجنة فأخذت شعره شجرة فنازعها فناداه الرحمن يا أدم : منى تفر ؟ فلما سمع كلام الرحمن قال : يا رب ، لا ولكن استحياء ، أرأيت إن تبت ورجعت أعائدى إلى الجنة ؟ قال : نعم ، فذلك قوله « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه »[1] .

﴿ فإن له معيشة ضنكا ﴾[124]

عن الحسن فى قوله « فإن له معيشة ضنكا » قال :فى جهنم[2] .

عن الحسن فى قوله « فإن له معيشة ضنكا » قال : شدة عيشه فى النار[3] .

عن الحسن قال : المعيشة الضنك : جهنم[4] .

﴿ ومن آناء الليل ﴾[130]

سمعت الحسن قرأ « ومن أناء الليل » قال : من أوله وأوسطه وآخره[5] .

---

(١) ذكره ابن كثير هكذا « قال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين بن إشكاب حدثنا على بن عاصم عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن » تفسير ابن كثير ٣ / ١٦٨ ثم قال عنه « وهذا منقطع بين الحسن وأبى بن كعب . فلم يسمعه منه وفى رفعه نظر » .

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنى محمد بن عمرو بن على بن مقدم قال حدثنا يحيى بن سعيد عن عوف عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٢٢٦ .

(٣) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٣٣١ ونسبه أيضاً إلى ابن عباس وقتادة وابن زيد .

(٤) أخرجه ابن أبى شيبة وابن المنذر عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٦٠٩ .

(٥) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنى يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا ابن علية عن أبى رجاء قال سمعت الحسن .. » تفسير الطبرى ١٦ / ٢٣٤ .
- كذلك ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٣٣٤ .

﴿ كتابا فيه ذكركم ﴾(١٠)

عن الحسن فى قوله « كتابا فيه ذكركم » قال : فيه دينكم ، أمسك عليكم دينكم كتابكم[١] .

قال الحسن بن أبى الحسن : أمسك عليكم دينكم أخلاق القرآن[٢] .

﴿ لو أردنا أن نتخذ لهوا ﴾(١٧)

عن الحسن فى قوله « لو أردنا ــــ » قال : النساء[٣] .

عن الحسن قال : اللهو بلسان اليمن : المرأة[٤] .

﴿ ولكم الويل مما تصفون ﴾(١٨)

عن الحسن رضى الله عنه فى قوله « ولكم الويل مما تصفون » قال : هى والله لكل واصف كذب إلى يوم القيامة[٥] .

---

(١) ذكره السيوطى فى الدر المنثور وعزاه إلى ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم . انظر الدر المنثور ٥ / ٦١٧ ، كذلك ذكر هذا الخبر ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٣٤١ .

(٢) أنظر تفسير سفيان بن عيينة ص ٢٩٥ .

(٣) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٦٢٠ .

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٦٢٠ .

- ولقد ذكر الطبرى هذا الخبر بهذا الإسناد : « حدثنى محمد بن سليمان بن عبيد الله الغيدانى قال حدثنا أبو قتيبة قال حدثنا سلام بن مسكين قال حدثنا عقبة بن أبى حمزة قال شهدت الحسن » تفسير الطبرى ١٧ / ١٠ .

- كذلك ذكر هذا ابن كثير فى تفسير ٣ / ١٧٥ والشوكانى فى فتح القدير ٣ / ٤٠٤ ، وابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٣٤٣ .

(٥) أخرجه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى البعث فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٦٢٠ .

﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾(٢٠)

عن الحسن رضى الله عنه فى قوله « ـــ » الآية قال : جعلت أنفاسهم تسبيحاً[١] .

﴿ إلا لمن ارتضى ﴾(٢٨)

عن الحسن فى قوله « إلا لمن ارتضى » قال : قول لا إله إلا الله[٢] .

﴿ إن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ﴾(٣٠)

قال الحسن : كانتا جميعا ، ففصل الله بينهما بهذا الهواء[٣] .

قال الحسن : كانتا ملتصقتين ففتقهما الله تعالى[٤] .

عن الحسن فى قوله « وجعلنا من الماء كل شىء حى » قال : خلق كل شىء من الماء ، وهو حياة كل شىء[٥] .

---

(١) أخرجه أبو الشيخ فى العظمة عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٦٢١ .

(٢) أخرجه عبد بن حميد عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٦٢٤ والشوكانى فى فتح القدير ٣ / ٤٠٦ .

(٣) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة قال كان الحسن » تفسير الطبرى ١٧ / ١٨ .

- وكذلك ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١٠٧٧ والسيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٦٢٦ .

(٤) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٣٤٨ ونسبه أيضاً إلى ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة .

(٥) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٦٢٦ .

﴿ كل فى فلك يسبحون ﴾[٣٣]

ذكر عن الحسن أنه كان يقول : الفلك طاحونة كهيئة فلكه المغزل[١] .

قال الحسن : فى فلك مثل فلكة المغزل[٢] .

﴿ أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ﴾[٤٤]

كان الحسن يقول : ظهور النبى (ﷺ) على من قاتله أرضا أرضا وقوما قوما[٣] .

قال الحسن البصرى : يعنى بذلك ظهور الإسلام على الكفر[٤] .

﴿ الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون ﴾[٤٩]

عن الحسن عن رسول الله (ﷺ) قال : قال الله تبارك وتعالى : وعزتى لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين ، فمن خافنى فى الدنيا أمنته فى الآخرة[٥] .

﴿ لعلهم يشهدون ﴾[٦٠]

قال الحسن : يشهدون أنه قال لآلهتنا ما قال[٦] .

---

(١) أورده الطبرى بدون إسناد ١٧ / ٢٣ .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١٥٩ ، وأخرجه البخارى فى صحيحه .

(٣) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٦٣٢ وذلك عن طريق قتادة .

(٤) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١٨٠ .

(٥) أخرجه الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٦٣٥ .

(٦) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٣٥٩ ونسبه أيضاً إلى ابن عباس وقتادة .

﴿ إلى الأرض التى باركنا فيها ﴾(٧١)

قال الحسن : الشام[١]

﴿ ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث ﴾(٧٤)

عن الحسن قال ، قال رسول الله (ﷺ) : عشر خصال عملتها قوم لوط ، بها أهلكوا وتزيدها أمتى بخلة : إتيان الرجال بعضهم بعضا ، ورميهم بالجلاهق ، والخذف ، ولعبهم بالحمام ، وضرب الدفوف ، وشرب الخمور ، وقص اللحية ، وطول الشارب ، والصفر والتصفيق ، ولباس الحرير ، وتزيدها أمتى بخلة ، إتيان النساء بعضهن بعضا[٢] .

﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان ﴾(٧٨)

كان الحسن يقول : كان الحكم بما قضى به سليمان ، ولم يعنف الله داود فى حكمه[٣] .

لما استقضى إياس بن معاوية أتاه الحسن فبكى ، فقال : ما يبكيك ؟ قال : يا أبا سعيد بلغنى أن القضاة رجل اجتهد فأخطأ فهو فى النار ،

(١) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا أبو أحمد قال حدثنا سفيان عن فرات القزاز عن الحسن » تفسير الطبرى ١٧ / ٤٦ .

(٢) أخرجه اسحق بن بشر والخطيب وابن عساكر ، فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٦٤٤ .

والجلاهق : الطين المدور ، لسان العرب ١ / ٦٦٨ .

والخذف : الرمى بالحصى ، لسان العرب ٢ / ١١٧ .

(٣) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة وعلى بن مجاهد عن محمد بن إسحاق قال فحدثنى من سمع الحسن .. » تفسير الطبرى ١٧ / ٥٤ .

- كذلك ذكر هذا الخبر السيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٦٤٨ .

ورجل مال به الهوى فهو فى النار ورجل اجتهد فأصاب فهو فى الجنة ، فقال الحسن البصرى : إن فيما نص الله من نبإ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء حكما يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم ، قال الله تعالى « وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين » فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود ، ثم قال : يعنى الحسن : إن الله اتخذ على الحكام ثلاثا لا يشتروا به ثمنا قليلا ولا يتبعوا فيه الهوى ولا يخشوا فيه أحدًا ثم تلا « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » وقال « فلا تخشوا الناس واخشون » وقال : « ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا »[١] .

قال الحسن بن أبى الحسن : لولا هذه الآية لرأيت أن الحكام قد هلكوا ، ولكن الله تعالى حمد هذا بصوابه ، وأثنى على هذا باجتهاده[٢] .

﴿ وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر ﴾[٨٣]

قال الحسن : إن إبليس جاء إلى زوجته بسخلة ، فقال : ليذبح أيوب هذه لى وقد برأ ، فجاءت فأخبرته فقال : إن شفانى الله لأجلدنك مائة

---

(١) ذكره ابن كثير بقوله « قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد عن حميد أن إياس بن معاوية لما استقضى .. » تفسير ابن كثير ٣ / ١٨٦ .

- كذلك ذكر هذا الخبر مع اختلاف يسير فى بعض ألفاظه - السيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٦٥٠ وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن عساكر من طريق حماد بن سلمة عن حميد الطويل .

(٢) انظر أحكام القرآن للشافعى ٢ / ١٢٢ .

جلدة ، أمرتنى أن أذبح لغير الله ثم طردها عنه فذهبت ، فلما رأى أنه لا طعام له ولا شراب ولا صديق خر ساجدًا وقال « مسنى الضر »[١] .

قال الحسن : ابتلى أيوب عليه السلام سبع سنين وأشهراً ملقى على كناسة بنى إسرائيل تختلف الدواب فى جسده، ففرج الله عنه وأعظم له الأجر وأحسن عليه الثناء[٢] .

عن الحسن قال : ضرب أيوب بالبلاء ، ثم بالبلاء بعد البلاء بذهاب الأهل والمال ، ثم ابتلى فى بدنه ، ثم ابتلى حتى قذف فى بعض مزابل بنى إسرائيل ، فما يعلم أيوب دعا الله يوما أن يكشف ما به ليس إلا جهدا واحتسابا ، حتى مر به رجلان فقال أحدهما لصاحبه : لو كان لله فى هذا حاجة ما بلغ به هذا كله ، فسمع أيوب فشق عليه فقال « رب إنى مسنى الضر » ثم رد ذلك إلى ربه فقال « وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم » قال : وآتيناه أهله : فى الدنيا ، ومثلهم معهم » : فى الآخرة[٣] ..

عن الحسن فى قوله « وأتيناه أهله ومثلهم معهم » قال : ردوا عليه بأعيانهم[٤] .

عن الحسن فى قوله « وأتيناه أهله ومثلهم معهم » قال : لم يكونوا ماتوا ولكنهم غيبوا عنه فأتاه أهله « ومثلهم معهم » فى الآخرة[٥] .

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٣٧٧ .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٣٧٧ . وابن كثير فى تفسيره ٢ / ١٨٨ والسيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٦٥٦ .

(٣) أخرجه ابن عساكر عن الحسن فراجعه بنصه فى الدر المنثور ٥ / ٦٥٤ . وكذلك ذكره مختصراً السيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٦٥٥ .

(٤) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١٨٩ .

(٥) أخرجه ابن المنذر عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٦٥٥ .

عن الحسن فى قوله « وأتيناه أهله ومثلهم معهم » قال : أحيا الله أهله بأعيانهم وزاده إليهم مثلهم[1].

عن الحسن فى قوله « ومثلهم معهم » قال : من نسلهم[2].

عن الحسن قال : ما كان بقى من أيوب عليه السلام إلا عيناه وقلبه ولسانه ، فكانت الدواب تختلف فى جسده ، ومكث فى الكناسة سبع سنين وأياما[3].

عن الحسن قال : إن كانت الدودة لتقع من جسد أيوب فيأخذها إلى مكانها ويقول : كلى من رزق الله[4].

عن الحسن قال : لقد مكث أيوب مطروحاً على كناسة بنى إسرائيل سبع سنين وأشهرا ما يسأل الله أن يكشف ما به ، قال : وما على وجه الأرض خلق أكرم على الله من أيوب فيزعمون أن بعض الناس قال : لو كان لرب هذا فيه حاجة ما صنع به هذا فعند ذلك دعا[5].

---

(١) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا بشر قال حدثنا يزيد قال حدثنا سعيد عن قتادة قال ، قال الحسن » تفسير الطبرى ١٧ / ٧٣ .
- كذلك أورد هذا الخبر ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٣٧٨ . والسيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٦٥٥ .

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا ابن عبد الأعلى قال حدثنا ابن ثور عن معمر عن رجل عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٧ / ٧٣ .
- كذلك ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٦٥٥ .

(٣) أخرجه أحمد فى الزهد عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٦٥٥ .

(٤) أخرجه أبو نعيم وابن عساكر عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٦٥٩ .

(٥) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا يحيى بن طلحة اليربوعى ، قال : ثنا فضيل بن عياض عن هشام عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٧ / ٦٩ .

عن الحسن قال : بقى أيوب على كناسة لبنى اسرائيل سبع سنين وأشهرا تختلف فيه الدواب[1] .

عن الحسن قال : إن أيوب آتاه الله مالا ، وأوسع عليه ، وله من النساء والبقر والغنم والإبل . وإن عدو الله إبليس قيل له : هل تقدر أن تفتن أيوب ؟ قال : ربّ إن أيوب أصبح فى دنيا من مال وولد ، ولا يستطيع أن لا يشكرك . ولكن سلطنى على ماله وولده ، فسترى كيف يطيعنى ويعصيك . قال : فسلطه على ماله وولده ، قال : فكان يأتى بالماشية من ماله من الغنم فيحرقها بالنيران . ثم يأتى أيوب ، وهو يصلى متشبها براعى الغنم ، فيقول : يا أيوب تصلى لربك ما ترك الله لك من ماشيتك شيئا من الغنم إلا أحرقها بالنيران ، وكنت ناحية فجئت لأخبرك ، قال : فيقول أيوب : اللهم أنت أعطيت ، وأنت أخذت ، مهما تبقى نفسى أحمد على حُسن بلائك ، فلا يقدر منه على شىء مما يريد ، ثم يأتى ماشيته من البقر فيحرقها بالنيران . ثم يأتى أيوب فيقول له ذلك ، ويرد عليه أيوب مثل ذلك . قال : وكذلك فعل بالإبل حتى ما ترك له من ماشية حتى هدم البيت على ولده . فقال : يا أيوب أرسل الله على ولدك من هدم عليهم البيوت ، حتى هلكوا ، فيقول أيوب مثل ذلك ، قال رب هذا حين أحسنت إلىّ الإحسان كله ، قد كنت قبل اليوم يشغلنى حب المال بالنهار ، ويشغلنى حب الولد بالليل شفقة عليهم ، فالآن أفرغ سمعى وبصرى ، وليلى ونهارى بالذكر والحمد ، والتقديس والتهليل ، فينصرف عدو الله من عنده لم يصب منه شيئاً مما يريد .

---

(١) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنى يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا ابن علية عن يونس عن الحسن .. » تفسيرُ الطبرى .

قال : ثم إن الله تبارك وتعالى قال : كيف رأيت أيوب ؟ قال إبليس : أيوب قد علم أنك سترد عليه ماله وولده ولكن سلطنى على جسده ، فإن أصابه الضر فيه أطاعنى وعصاك ، قال : فسلط على جسده ، فأتاه فنفخ فيه نفخة قرح من لدن قرنه إلى قدمه ، قال : فأصابه البلاء بعد البلاء ، حتى حمل فوضع على مزبلة كناسة لبنى إسرائيل ، فلم يبق له مال ولا ولد ولا صديق ، ولا أحد يقربه غير زوجته ، صبرت معه بصدق ، وكانت تأتيه بطعام ، وتحمد الله معه إذا حمد ، وأيوب على ذلك لا يفتر من ذكر الله . والتحميد والثناء على الله ، والصبر على ما ابتلاه الله . قال الحسن : فصرخ إبليس عدو الله صرخة جمع فيها جنوده من أقطار الأرض جزعا من صبر أيوب ، فاجتمعوا إليه وقالوا له : جمعتنا ، ما خبرك ؟ ما أعياك ؟ قال : أعيانى هذا العبد الذى سألت ربى أن يسلطنى على ماله وولده فلم أدع له مالا ولا ولدا ، فلم يزدد بذلك إلا صبرا وثناء على الله وتحميدا له ، ثم سلطت على جسده فتركته قرحة ملقاه على كناسة بنى اسرائيل ، لا يقربه إلا امرأته ، فقد افتضحت بربى ، فاستعنت بكم ، فأعينونى عليه ، قال : فقالوا له : أين مكرك ؟ أين علمك الذى أهلكت به من مضى ، قال : بطل ذلك كله فى أيوب ، فأشيروا على ، قالوا : نشير عليك ، أرأيت آدم حين أخرجته من الجنة ، ومن أين أتيته ؟ قال : من قبل امرأته ، قالوا : فشأنك بأيوب من قبل امرأته ، فإنه لا يستطيع أن يعصيها ، وليس أحد يقربه غيرها ، قال : أصبتم فانطلق حتى أتى امرأته وهى تصدّق فتمثل لها فى صورة رجل ، فقال : أين بعلك يا أمة الله ؟ قالت : هو ذاك يحك قروحه ، ويتردد الدواب فى جسده ، فلما سمعها طمع أن تكون كلمة جزع ، فوقع فى صدرها ، فوسوس إليها ، فذكرها ما كانت فيه من النعم والمال والدواب ، وذكرها جمال أيوب وشبابه ، وما هو فيه من الضر ، وأن ذلك لا ينقطع

عنهم أبداً . قال الحسن : فصرخت ، فلما صرخت علم أن قدصرخت وجزعت ، أتاها بسخلة فقال : ليذبح هذا إلى أيوب ويبرأ ، قال : فجاءت تصرخ يا أيوب ، يا أيوب ، حتى متى يعذبك ربك ألا يرحمك ؟ أين الماشية ؟ أين المال ، أين الولد ؟ أين الصديق ؟ أين لونك الحسن ؟ قد تغير ، وصار مثل الرماد ؟ أين جسمك الحسن الذى قد بلى وتردد فيه الدواب ؟ اذبح هذه السخلة واسترح ، قال أيوب : أتاك عدو الله ، فنفخ فيك ، فوجد فيك رفقا ، وأجبته ! ويلك أرأيت ما تبكين عليه مما تذكرين مما كنا فيه من المال والولد والصحة والشباب ؟ من أعطانيه ؟ قالت : الله ، قال : فكم متعنا به ؟ قالت : ثمانين سنة ، قال : فمذ كم ابتلانا الله بهذا البلاء الذى ابتلانا به ؟ قالت : منذ سبع سنين وأشهر ، قال : ويلك ! والله ما عدلت ، ولا أنصفت ربك ، ألا صبرت حتى نكون فى هذا البلاء الذى ابتلانا ربنا به ثمانين سنة ، كما كنا فى الرخاء ثمانين سنة ؟ والله لئن شفانى الله لأجلدنك مئة جلدة ، هيه أمرتينى أن أذبح لغير الله طعامك وشرابك الذى تأتينى به على حرام ، وأن أذوق ما تأتينى به بعد ، إذ قلت لى هذا فاغربى عنى ، فلا أراك ، فطردها ، فذهبت ، فقال الشيطان : هذا قد وطنّ نفسه ثمانين سنة على هذا البلاء الذى هو فيه ، فباء بالغلبة ورفضه . ونظر أيوب إلى امرأته وقد طردها ، وليس عنده طعام ، ولا شراب ، ولا صديق .

قال الحسن : ومر به رجلان وهو على تلك الحال ، ولا والله ما على ظهر الأرض يومئذ أكرم على الله من أيوب ، فقال أحد الرجلين لصاحبه : لو كان لله فى هذا حاجة ، ما بلغ به هذا ، فلم يسمع أيوب شيئاً كان أشد عليه من هذه الكلمة[1] ..

---

(١) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا القاسم قال ثنا الحسين قال ثنا مخلد بن حسين عن هشام عن الحسن ، وحجاج عن مبارك - زاد أحدهما على الآخر - =

عن الحسن قال : فقال : « رب إنى مسنى الضر » ثم رد ذلك إلى ربه فقال : « وأنت أرحم الراحمين[1] .

عن الحسن قال : فقيل له : (اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) فركض برجله فنبعت عين ، فاغتسل منها ، فلم يبق عليه من دائه شيء ظاهر إلا سقط ، فأذهب الله كل ألم وكل سقم ، وعاد إليه شبابه وجماله ، أحسن ما كان وأفضل ما كان ، ثم ضرب برجله ، فنبعت عين أخرى فشرب منها ، فلم يبق فى جوفه داء إلا خرج ، فقام صحيحا ، وكسى حلة ، قال : فجعل يتلفت ولا يرى شيئاً مما كان له من أهل ومال إلا وقد أضعفه الله له ، حتى والله ذكر لنا أن الماء الذى اغتسل به ، تطاير على صدره جرادا من ذهب ، قال : فجعل يضمه بيده ، فأوحى الله إليه : يا أيوب ألم أغنك ؟ قال : بلى ، ولكنها بركتك فمن يشبع منها قال : فخرج حتى جلس على مكان مشرف ، ثم إن امرأته قالت أرأيت إن كان طردنى إلى من أكله ؟ أدعه يموت جوعا أو يضيع فتأكله السباع ؟ لأرجعن إليه فرجعت ، فلا كناسة ترى ، ولا من تلك الحال التى كانت ، وإذا الأمور وقد تغيرت ، فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكى ، وذلك بعين أيوب ، قالت : وهابت صاحب الحلة أن تأتيه فتسأل عنه ، فأرسل إليها أيوب فدعاها ، فقال : ما تريدين يا أمة الله ؟ فبكت وقالت : أردت ذلك المبتلى الذى كان منبوذا على الكناسة ، لا أدرى أضاع ، أم ما فعل ؟ قال لها أيوب : ما كان منك ؟ فبكت وقالت : بعلى ، فهل رأيته ؟ وهى تبكى إنه قد كان ها هنا ، قال : وهل تعرفينه إذا رأيتيه ؟ قالت وهل يخفى على أحد رآه ؟ ثم جعلت تنظر إليه وهى تهابه . ثم قالت : أما إنه كان أشبه خلق الله بك إذ كان صحيحاً . قال :

= قالا : .. » تفسير الطبرى ١٧ / ٦٩ - ٧١ . كذلك أورد هذا الخبر السيوطى فر الدر المنثور وعزاه إلى ابن جرير . فراجعه فى الدر ٥ / ٦٥٦ - ٦٥٩ .

(١) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا القاسم قال ثنا الحسين قال فحدثنى مخلد ابن الحسين عن هشام عن الحسن » تفسير الطبرى ١٧ / ٧١ .

فإنى أنا أيوب الذى أمرتينى أن أذبح للشيطان ، وإنى أطعت الله وعصيت الشيطان ، فدعوت الله فرد على ما ترين ، قال الحسن : ثم إن الله رحمها بصبرها معه على البلاء أن أمره تخفيفاً عنها أن يأخذ جماعة من الشجر فيضربها ضربة واحدة تخفيفا عنها بصبرها معه[1] .

﴿ وذا الكفل ﴾[٨٥]

قال الحسن : إنه كان نبياً[2] .

﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه ﴾[٨٧]

قال الحسن : إنه خرج مغاضباً لأجل ربه[3] .

عن الحسن رضى الله عنه فى قوله « إذ ذهب مغاضبا » قال : انطلق آبقا « فظن أن لن نقدر عليه » فكان له سلف من عمل صالح فلم يدعه الله فيه أدركه[4] .

(١) اخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثنى حجاج عن مبارك بن الحسن ومخلد عن هشام عن الحسن دخل حديث أحدهما فى الآخر قالا .. » تفسير الطبرى ١٧ / ٧١ - ٧٢ .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٢٧٩ ونسبه أيضاً إلى عطاء .

(٣) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٢٨٢ ونسبه أيضاً إلى سعيد بن جبير والشعبى وعروة .

(٤) أخرجه أحمد فى الزهد وعبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٦٦٥ .

عن الحسن رضى الله عنه فى قوله « فظن أن لن نقدر عليه » قال : ظن أن لن نعاقبه « فنادى فى الظلمات » قال : ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت « أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » قالت الملائكة : صوت معروف فى أرض غريبة[1] .

عن الحسن قال : بلغنى أن يونس لما أصاب الذنب انطلق مغاضباً ربه واستزله الشيطان حتى ظن أنه لن تقدر عليه قال : وكان له سلف وعبادة وتسبيح ، فأبى الله أن يدعه للشيطان ، فأخذه فقذفه فى بطن الحوت ، فمكث فى بطن الحوت أربعين ما بين ليلة ويوم ، فأمسك الله نفسه فلم يقتله هناك فتاب إلى ربه فى بطن الحوت وراجع نفسه قال : « سبحانك إنى كنت من الظالمين » قال : فاستخرجه الله من بطن الحوت برحمته بما كان سلف من العبادة والتسبيح فجعله من الصالحين[2] .

عن الحسن فى قوله « فظن أن لن نقدر عليه » قال : وكان له سلف من عبادة وتسبيح فتداركه الله بها فلم يدعه للشيطان[3] .

---

(١) أخرجه البيهقى فى الأسماء والصفات عن الحسن . فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٦٦٦ .

(٢) أورده الطبرى مرتين بهذا الإسناد : . حدثنا ابن بشار قال حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا عوف عن سعيد فراجعه فى تفسير الطبرى ١٧ / ٧٧ ، ٧٩ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا هوذة قال حدثنا عوف عن الحسن » تفسير الطبرى ١٧ / ٧٩ .

قال الحسن : فظن أنه يعجز ربه فلا يقدر عليه[1] .

عن الحسن قال : « فنادى فى الظلمات » : ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل[2] .

عن الحسن فى قوله « أن لا إله إلا أنت سبحانك » قال : اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين »[3] .

سألت الحسن فقلت : يا أبا سعيد : اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطئ ؟ قال يا ابن أخى ألم تقرأ القرآن ، قول الله تعالى « وذا النون إذ ذهب مغاضبا إلى قوله - وكذلك ننجى المؤمنين » ابن أخى هذا اسم الله الأعظم ، الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى[4] .

عن الحسن فى قوله « فنادى أن لا إله إلا أنت .. » قال : هذا اعتراف من يونس بذنبه وتوبة من خطيئة[5] .

﴿ ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ﴾[90]

عن الحسن فى قوله « ويدعوننا ـــ » قال : الخوف الدائم فى القلب[6] .

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٣٨٣ .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١٩٢ .

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٦٦٩ .

(٤) ذكره ابن كثير بقوله « قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أحمد بن أبى شريح حدثنا داود بن المجبر بن مخدم المقدسى عن كثير بن معبد قال سألت الحسن .. » تفسير ابن كثير ٣ / ١٩٣ .

(٥) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٣٨٣ .

(٦) أخرجه ابن المبارك عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٦٧٠ ، وكذلك رواه =

عن الحسن فى قوله « ويدعوننا ــــ » قال : أى متذللين لله عز وجل[1] .

عن الحسن فى قوله « ويدعوننا ــــ » قال : دام خوفهم ربهم فلم يفارق خوفه قلوبهم إن نزلت بهم رغبة خافوا أن يكون ذلك استدراجاً من الله لهم ، وإن نزلت بهم رهبة خافوا أن يكون الله عز وجل قد أمر بأخذهم لبعض ما سلف منهم[2] .

﴿ إنهم كانوا يسارعون .. إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾(٩١ - ٩٢)

قال الحسن البصرى : فى هذه الآية يبين لهم ما يتقون وما يأتون ، ثم قال « إن هذه أمتكم أمة واحدة » أى : سنتكم سنة واحدة[3].

﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾(١٠٢)

عن عكرمة والحسن البصرى قالا : قال فى سورة الأنبياء « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ... وهم فيها لا يسمعون » ثم استثنى فقال « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون » فقد عبدت الملائكة من دون الله وعزيز وعيسى من دون الله[4] .

قال الحسن : نزلت فى عيسى بن مريم وعزير عليهما السلام[5] .

= سفيان الثورى عن رجل عن الحسن فراجعه فى تفسير الثورى ص ٢٠٥ .

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١٩٣ .

(٢) أخرجه عبد بن حميد فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٦٧٠ .

(٣) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١٩٤ .

(٤) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا ابن حميد قال حدثنا يحيى بن واضح عن الحسين عن يزيد عن عكرمة والحسن » تفسير الطبرى ١٧ / ٩٦ .

- كذلك ذكر هذا الخبر السيوطى وعزاه إلى الطبرى فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٦٨٢ .

(٥) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ١٩٨ .

﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾(١٠٣)

عن الحسن فى قوله « الفزع الأكبر » قال : انصراف العبد حين يؤمر به إلى النار[1] .

عن الحسن فى قوله « الفزع الأكبر » قال : إذا أطبقت النار عليهم : يعنى الكفار[2] .

﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ﴾(١٠٥)

قال الحسن : الزبور الذى أنزل على داود ، والذكر : التوراة[3] .

﴿ إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين ﴾(١٠٦)

عن الحسن فى قوله « لقوم عابدين » قال : الذين يحافظون على الصلوات الخمس فى الجماعة[4] .

﴿ وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴾ (١١١) .

خطب الحسن رضى الله عنه فقال : أما بعد ، أيها الناس إن الله هداكم بأولنا ، وحقن دماءكم بآخرنا ، وإن لهذا الأمر مدة ، والدنيا دول ، وإن الله تعالى قال لنبيه « وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون » إلى قوله

---

(١) ذكره الطبرى بإسناده هذا : « حدثنا ابن حميد قال حدثنا حكام عن عنبسة عن رجل عن الحسن » تفسير الطبرى ١٧ / ٩٩ .
- كذلك أورد هذا الخبر السيوطى وعزاه إلى ابن جرير وابن أبى حاتم فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٦٨٢ .

(٢) أورده السيوطى بقوله « وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن الحسن » فراجع الدر المنثور ٥ / ٦٨٢ .

(٣) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٢٠١ .

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٦٨٧ .

« ومتاع إلى حين » (١٠٩ - ١١١ : الأنبياء) الدهر كله ، وقوله « هل أتى على الإنسان حين من الدهر » (١ : الإنسان) الدهر : الدهر كله ، وقوله « تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها » (٢٥ : إبراهيم » قال : هى النخلة - من حين تثمر إلى أن تصرم - وقوله « ليسجننه حتى حين » (٣٥ : يوسف)[١] .

تفسير سورة الحج

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾[١ - ٢]

عن الحسن قال : بلغنى أن رسول الله (ص) لما قفل من غزو العسرة ومعه أصحابه بعدما شارف المدينة قرأ « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم يوم ترونها » ، فقال رسول الله (ﷺ) : « أتدرون أى يوم ذاكم ؟ قيل : الله ورسوله أعلم ، فذكره نحوه ، إلا أنه زاد : وإنه لم يكن رسولان إلا كان بينهما فترة من الجاهلية فهم أهل النار ، وإنكم بين ظهرانى خليقتين لا يعادهما أحد من أصل الأرض إلا كثَّروهم ، وهم يأجوج ومأجوج ، وهم أهل النار وتكمل العدة من المنافقين »[٢] .

---

(١) أخرجه البيهقى عن الزهرى ، فراجعه فى الدر المنثور ٥ / ٦٨٨ - ٦٨٩ .

(٢) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا عوف عن الحسن » تفسير الطبرى ١٧ / ١١١ .

عن الحسن عن عمران بن حصين أن رسول الله (ﷺ) قال وهو فى بعض أسفاره وقد تقارب من أصحاب السير رفع بهاتين الآيتين صوته « يا أيها الناس اتقوا ربكم .. » فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطى وعرفوا أنه عند قول يقوله ، فلما دنوا حوله قال « أتدرون أى يوم ذاك ؟ ذاك يوم ينادى آدم عليه السلام فيناديه ربه عز وجل ، فيقول : يا آدم : ابعث بعثك إلى النار ، فيقول : يا رب : وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة» قال: فأبلسه أصحابه حتى ما أوضحوا أيضاً حكمه ، فلما رأى ذلك قال « أبشروا واعملوا فو الذى نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا من شىء قط إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج ، ومن هلك من بنى آدم وبنى إبليس ، قال : فسرى عنهم ثم قال « اعملوا وأبشروا فو الذى نفس محمد بيده ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى جنب البعير أو الرقمة فى ذراع الدابة »[1] .

﴿ تذهل كل مرضعة عما أرضعت ﴾[2]

عن الحسن فى قوله « ـــ » قال : ذهلت عن أولادها بغير فطام وقوله « وتضع كل ذات حمل حملها » قال : ألقت الحوامل ما فى بطونها لغير تمام[3] .

---

(١) أورده ابن كثير وعزاه إلى الإمام أحمد فقال « قال : حدثنا يحيى عن هشام حدثنا قتادة عن الحسن .. » تفسير ابن كثير ٣ / ٢٠٤ .

- كذلك روى هذا الخبر الشوكانى فى فتح القدير ٣ / ٤٣٨ .

قلت : وكذلك رواه الترمذى عن محمد بن بشار عن يحيى وهو القطان عن هشام وهو الدستوائى عن قتادة ثم قال عنه « هذا حديث حسن صحيح وقد روى من غير وجه عن عمران بنْ حصين » .

(٢) أخرجه ابن جرير بإسناده : « حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثنى حجاج =

عن الحسن فى قوله « وترى الناس سكارى » من الخوف « وما هم بسكارى » : من الشراب[1] .

﴿ مخلقة وغير مخلقة ﴾[6]

قال الحسن : المخلقة : المصورة ، وغير المخلقة : غير المصورة[2] .

﴿ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾[9]

قال الحسن : بلغنى أن أحدهم يحرق فى اليوم سبعين ألف مرة[3] .

﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾[11]

عن الحسن رضى الله عنه فى قوله « ومن الناس من يعبد الله على حرف » قال : كان الرجل يأتى المدينة مهاجرا فإن صح جسمه وتتابعت عليه الصدقة وولدت امرأته غلاما وأنتجت فرسه مهرا قال : والله لنعم الدين وجدت دين محمد (ﷺ) هذا ، ما زلت أعرف الزيادة فى جسدى وولدى وإن سقم بها جسمه واحتبست عليه الصدقة وأزلقت فرسه وأصابته الحاجة وولدت امرأته الجارية قال : والله لبئس الدين دين محمد هذا ، الله ما زلت أعرف النقصان فى جسدى وأهلى وولدى ومالى[4] .

= عن أبى بكر عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٧ / ١١٤ .
- ولقد ذكر هذا الخبر السيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٧ .

(١) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثنى حجاج عن أبى بكر عن الحسن » تفسير الطبرى ١٧ / ١١٥ .
- كذلك ذكر هذا الخبر السيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٧ .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٤٠٧

(٣) ذكره ابن كثير بهذا الإسناد : « قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أحمد بن الصباح حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا هشام عن الحسن » تفسير ابن كثير ٣ / ٢٠٩ ، كذلك ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٦ / ١٣ .

(٤) أخرجه عبد بن حميد عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ١٤ .

﴿ هذان خصمان اختصموا فى ربهم ﴾(١٩)

قال الحسن : هم الكافرون والمؤمنون اختصموا فى ربهم[1] .

قال الحسن : نزلت فى جميع المؤمنين والكفار[2] .

﴿ ولهم مقامع من حديد ﴾(٢١)

قال الحسن : إن النار ترميهم بلهبها ، حتى إذا كانوا فى أعلاها ، ضربوا بمقامع فهووا فيها سبعين خريفا ، فإذا انتهوا إلى أسفلها ضربهم زفير لهبها ، فلا يستقرون ساعة[3] .

عن الحسن قال : كان عمر يقول : أكثروا ذكر النار ، فإن حرها شديد ، وإن قعرها بعيد وإن مقامعها حديد[4] .

﴿ فى أيام معلومات ﴾(٢٨)

قال الحسن : الأيام المعلومات : أيام العشر[5] .

﴿ ثم ليقضوا تفثهم ... وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾(٢٩)

عن الحسن فى قوله « ليقضوا تفثهم » قال : حلق الرأس[6] .

---

(١) ذكره السيوطى بقوله « وأخرج ابن جرير عن مجاهد وعطاء بن أبى رباح والحسن » والدر المنثور ٦ / ٢٠ .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٤١٦ ونسبه أيضاً إلى عطاء ومجاهد .

(٣) ذكره ابن الجوزى زاد المسير ٥ / ٤١٧ .

(٤) أخرجه ابن أبى شيبة عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٢٢ .

(٥) ذكره كل من ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٢١٦ وابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٤٢٥ والسيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٣٨ وعزاه إلى عبد بن حميد .

(٦) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثنا هشيم قال =

عن الحسن فى قوله « البيت العتيق » قال : القديم[1] .

عن الحسن فى قوله « البيت العتيق » قال · إنما سمى العتيق لأنه أو بيت وضع[2] .

عن الحسن فى قوله « وليطوفوا بالبيت العتيق » قال : طواف الزيارة[3] .

عن الحسن فى قوله « وليطوفوا بالبيت العتيق » قال : الطواف الواجب[4] .

﴿ والصابرين على ما أصابهم ﴾[35]

عن الحسن البصرى فى قوله « والصابرين على ما أصابهم » قال : والله لنصبرن أو لنهلكن[5] .

﴿ والبدن جعلناها لكم ﴾[36]

عن الحسن فى قوله « والبدن » قال : البقرة والبعير[6] .

= أخبرنا منصور عن الحسن وأخبرنا جويبر عن الضحاك أنهم قالا .. » تفسير الطبرى ١٧ / ١٥٠ .

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٤٢٨ ونسبه أيضاً إلى ابن زيد .

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٤١ ، وكذلك ذكره ابن كثير فى تفسيره عن قتادة ٣ / ٢١٨ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : « حدثنا عمرو بن سعيد القرشى قال حدثنا الأنصارى عن أشعث عن الحسن » تفسير الطبرى ١٧ / ١٥٢ .

(٤) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : « حدثنا ابن عبد الأعلى قال حدثنا خالد قال حدثنا الأشعث أن الحسن » تفسير الطبرى ١٧ / ١٥٢ .

(٥) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٢٢١ .

(٦) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٢٢١ .

عن الحسن فى قوله « والبدن » قال : البدن من البقرة[1] .

عن الحسن فى قوله « صواف » قال : مخلصين[2] .

عن الحسن فى قوله « صواف » قال : خالصة لله[3] .

عن الحسن فى البدنة كيف تنحر ؟ قال : تعقل يدها اليسرى وينحرها من قبل يدها اليمنى[4] .

عن الحسن فى قوله « فكلوا منها » قال : إن شاء أكل وإن شاء لم يأكل[5] .

عن الحسن فى قوله « وأطعموا القانع والمعتر » قال : القانع : الذى يقنع إليك ويسألك . والمعتر : الذى يتعرض لك ولا يسألك[6] .

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٥٠ .

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا ابن عبد الأعلى قال حدثنا المعتمر عن أبيه عن الحسن » تفسير الطبرى ١٧ / ١٦٥ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسنادين :
الأول : « حدثنا ابن ثور عن معمر قال ، قال الحسن » .
الثانى : « حدثنا الحسن قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر قال قال الحسن » تفسير الطبرى ١٧ / ١٦٥ .
- كذلك ذكر هذا السيوطى بقوله « عن الحسن قال : خالصة لله تعالى ، قال : كانوا يذبحونها لأصنامهم » انظر الدر المنثور ٦ / ٥٣ ، وعزاه السيوطى إلى عبد الرزاق وأبى عبيد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن الأنبارى فى المصاحف وابن أبى حاتم .

(٤) أخرجه ابن أبى شيبة عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٥٣ .

(٥) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثنا هشيم قال أخبرنا يونس عن الحسن » تفسير الطبرى ١٧ / ١٦٧ .

(٦) أخرجه الطبرى بأربعة أسانيد على النحو التالى : =

عن الحسن قال : القانع : الذى يقنع ، والمعتر : الذى يعتريك[1] .

عن الحسن قال : القانع : المعتفف ، والمعتر : السائل[2] .

عن الحسن قال : القانع الذى يسأل ، والمعتر : الذى يتعرض ولا يسأل[3] .

= الأول : « حدثنا ابن بشار قال حدثنى ابن عبد الأعلى قال حدثنا يونس عن الحسن » .

والثانى : « حدثنى نصر بن عبد الرحمن الأودى قال حدثنا المحاربى عن سفيان عن يونس عن الحسن » .

والثالث : « حدثنى يعقوب قال حدثنا ابن علية قال أخبرنا يونس عن الحسن » .

والرابع : « حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثنا هشام قال أخبرنا منصور ويونس عن الحسن » انظر تفسير الطبرى ١٧ / ١٦٨ - ١٦٩ .

- كذلك ذكر هذا ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٤٣٣ وابن كثير فى تفسيره ٣ / ٢٢٣ .

- كذلك ذكر السيوطى هذا الخبر بقوله « وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد عن الحسن قال : القانع الذى يقنع إليك بما فى يديك ، والمعتر : الذى يتصدى إليك لتطعمه ، ولفظ ابن أبى شيبة : والمعتر الذى يعتريك ، يريك نفسه ولا يسألك » انظر الدر المنثور ٦ / ٥٥ .

(١) أخرجه الطبرى بإسنادين :

الأول : « حدثنا ابن المثنى قال حدثنا محمد بن جعفر قال حدثنا شعبة عن منصور بن زاذان عن الحسن » .

والثانى : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا عبد الرحمن قال حدثنا سفيان عن يونس عن الحسن » تفسير الطبرى ١٧ / ١٦٨ ، ١٧٠ .

(٢) ذكره ابنُ الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٤٣٣ ونسبه أيضاً إلى ابن عباس وقتادة والنخعى .

(٣) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٤٣٣ ونسبه أيضاً إلى ابن عباس وسعيد بن جبير والفراء .

- وكذلك ذكره الشوكانى فى فتح القدير ٣ / ٤٥٤ .

عن الحسن قال : إن القانع : المتعفف الذى لا يسأل ، والمعتر : الذى يتعرض لك .[1]

﴿ ولتكبروا الله على ما هداكم ﴾[37]

عن الحسن فى قوله « ولتكبروا الله على ما هداكم » قال : أمرنا رسول الله (ﷺ) أن نلبس أجود ما نجد وأن نتطيب بأجود ما نجد ، وأن نضحى بأسمن ما نجد ، والبقرة عن سبعة ، والجزور عن سبعة وأن نظهر التكبير ، وعلينا السكينة والوقار »[2] .

﴿ حتى تأتيهم الساعة ﴾[55]

عن الحسن فى قوله « حتى تأتيهم الساعة » : القيامة تأتى من تقوم عليه من المشركين[3] .

عن الحسن فى قوله « أو يأتيهم عذاب يوم عظيم » قال : هو يوم القيامة لا ليل له[4] .

﴿ إن الإنسان لكفور ﴾[66]

عن الحسن فى قوله « إن الإنسان لكفور » قال : يعد المصيبات وينسى النعم[5] .

---

(١) رواه سفيان الثورى عن يونس بن عبيد عن الحسن فراجعه فى تفسير الثورى ص ٢١٤ .

(٢) أخرجه الحاكم وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٥٦ .

(٣) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٤٤٤ .

(٤) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٢٣١ .

(٥) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٧٢ وفتح القدير للشوكانى ٣ / ٤٦٧ .

﴿ وجاهدوا ... وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾(٧٨)

عن الحسن فى قوله « وجاهدوا فى الله حق جهاده » قال : إن الرجل ليجاهد فى الله حق جهاده وما ضرب بسيف[١] .

عن الحسن فى قوله « من حرج » قال : من ضيق[٢] .

عن الحسن فى قوله « واعتصموا بالله » قال : تمسكوا بدين الله[٣] .

﴿ وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾(٥٠)

عن الحسن فى قوله « وآويناهما » قال : عيسى وأمه[٤] .

عن الحسن فى قوله « ربوة ذات قرار ومعين » قال : دمشق[٥] .

عن الحسن قال : هى أرض ذات أشجار وأنهار يعنى أرض دمشق ، وفى لفظ قال : ذات ثمار وكثرة ماء هى دمشق[٦] .

عن الحسن قال : إنها بيت المقدس[٧] .

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٧٨ .

(٢) ذكره الطبرى بإسناده هكذا : « حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا حماد بن مسعدة عن عوف عن الحسن » تفسير الطبرى ١٧ / ٢٠٦ .

(٣) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٤٥٧ .

(٤) أخرجه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٩٩ .

(٥) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٢٤٦ .

(٦) أخرجه ابن عساكر عن قتادة عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ١٠٢ .

(٧) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٤٧٦ ونسبه أيضاً إلى ابن عباس وقتادة .

﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ﴾(٥١)

عن الحسن فى قوله : « يا أيها الرسل » قال : يعنى بالرسل ها هنا محمد (ص) وحده(١) .

عن الحسن فى قوله « من الطيبات » قال : أما والله ما أمركم بأصفركم ولا أحمركم ولا حلوكم ولا حامضكم ولكن قال انتهوا إلى الحلال منه(٥) .

﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا ﴾(٥٣)

عن الحسن قال : تقطوا كتاب الله بينهم فحرفوه وبدلوه(٣) .

﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾(٥٥ - ٥٦)

عن الحسن : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أتى بفروة كسرى فوضعت بين يديه ، وفى القوم سراقة بن مالك ، فأخذ عمر سواريه فرمى بهما إلى سراقة ، فأخذهما فجعلهما فى يديه فبلغتا منكبيه فقال : الحمد لله سوارا كسرى بن هرمز في يدى سراقة بن مالك بن جعشم أعرابى من بنى مدلج ، ثم قال : اللهم إنى قد علمت أن رسولك كان حريصاً على أن يصيب مالا ينفقه فى سبيلك وعلى عبادك فزويت عنه ذلك نظراً منك وخيارا اللهم إنى أعوذ بك أن يكون هذا مكراً منك بعمر ثم تلا « أيحسبون أنما .. بل لا يشعرون »(٤) .

١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٤٧٧ ونسبه أيضاً إلى ابن عباس ومجاهد وقتادة .

٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٢٤٦ .

٣) أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦ / ١٠٣ عن قتادة .

٤) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر والبيهقى فى سننه عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ١٠٤ .

﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ﴾[٥٧]

قال الحسن البصرى : إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة ، وإن الكافر جمع إساءة وأمنا ثم تلا « إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون » إلى قوله « إنهم إلى ربهم راجعون » وقال المنافق « إنما أوتيته على علم عندى » (٧٨ : القصص)[١] .

﴿ والذين يؤتون ما ءاتوا وقلوبهم وجلة ﴾[٦٠]

عن الحسن قال : يعملون ما عملوا من أعمال البر وهم يخافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب ربهم[٢] .

عن الحسن وقتادة أنهما كانا يقرآن « يؤتون ما ءاتوا » قالا : يعملون ما عملوا من الخيرات ويعطون ما أعطوا على خوف من الله عز وجل[٣] .

---

(١) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنى يعقوب قال حدثنا ابن علية عن يونس عن الحسن » تفسير الطبرى ١٨ / ٣٢ .

- كذلك ذكر هذا الخبر السيوطى وعزاه إلى ابن جرير وابن أبى حاتم فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ١٠٥ كذلك ذكره مختصراً ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٢٤٨ .

(٢) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثنى حجاج عن أبى الأشهب عن الحسن » تفسير الطبرى ١٨ / ٣٢ .

- كذلك ذكر هذا السيوطى وعزاه إلى ابن المبارك فى الزهد وعبد بن حميد وابن جرير فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ١٠٦ .

(٣) أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن الحسن وقتادة فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ١٠٦ .

تفسير سورة « المؤمنـون »

﴿ الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾[٢]

عن الحسن قال : كان خشوعهم فى قلوبهم فغضوا بذلك البصر وخفضوا به الجناح[١] .

قال الحسن : رحم الله قوماً كان خشوعهم فى قلوبهم فغضوا أبصارهم وحفظوا فروجهم وتجنبوا المحارم فنالوا أعلى الدرجات[٢] .

عن الحسن فى قوله « خاشعون » قال : خائفون[٣] .

﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾[٣]

عن الحسن فى قوله « اللغو » قال : المعاصى[٤] .

---

(١) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا عبد الجبار بن يحيى الرملى قال ، قال ضمرة بن ربيعة عن أبى شوذب عن الحسن » تفسير الطبرى ١٨ / ٢ .
- كذلك ذكر هذا الخبر ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٢٣٨ والسيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٨٤ .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى كتابه « الحسن البصرى » ص ٧١

(٣) أخرجه الطبرى بإسنادين :
الأول : « حدثنا ابنُ عبد الأعلى قال حدثنا ابن ثور عن معمر عن الحسن » .
والثانى : « حدثنا الحسن بن يحيى قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر قال الحسن » تفسير الطبرى ١٨ / ٢ .
- كذلك ذكر هذا الخبر ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٤٦٠ ، وابن كثير فى تفسيره ٣ / ٢٣٨ وزاد عليه « ساكنون » .

(٤) أخرجه الطبرى بإسنادين :
الأول : « حدثنا ابن عبد الأعلى قال حدثنا ابن ثور عن معمر عن الحسن » .
والثانى : « حدثنا الحسن بن يحيى قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر قال الحسن » تفسير الطبرى ١٨ / ٢ .
=

﴿ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴾(٦)

عن الحسن قال : الفرج لا يعار[1] .

﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر ﴾(١٤)

قال الحسن : أنه جعله ذكراً أو أنثى[2] .

قال الحسن : يعنى فنفخنا فيه الروح[3] .

عن الحسن قال « الذين يصلون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون ألا يتقبل منهم[4] .

﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾(٦٠)

قال الحسن : يعملون ما يعملون من بر ، ويقدمون ما يقدمون من خير وهم خائفون ألا ينجيهم ذلك من عذاب الله[5].

= - كذلك ذكر هذا الخبر كل من ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٤٦٠ والسيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٨٧ والشوكانى فى فتح القدير ٣ / ٤٧٤ .

(١) أخرجه ابن أبى شيبة عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٨٩ .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٤٦٣ .

(٣) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٢٤١ ، والشوكانى فى فتح القدير ٣ / ٤٧٩ .

(٤) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٢٤٨ .

(٥) الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٦٩ .

﴿ ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون ﴾(٦٣)

سألت الحسن عن قولهم « ولهم ... » قال : أعمال لم يعملوها سيعملونها[١] .

قال الحسن : لابد أن يعملوها[٢] .

﴿ مستكبرين به سامرا تهجرون ﴾(٦٧)

عن الحسن فى قوله « مستكبرين به » قال : مستكبرين بجرمى[٣] .

عن الحسن فى قوله « سامرا تهجرون » قال : رسول الله (ﷺ)[٤] .

عن الحسن فى قوله « سامرا تهجرون » قال : كتاب الله ورسوله[٥] .

---

(١) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا على بن سهل قال حدثنا زيد بن أبى الزرقاء عن حماد بن سلمة عن حميد قال سألت الحسن » تفسير الطبرى ١٨ / ٣٦ .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٢٤٩ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا عوف عن الحسن » تفسير الطبرى ١٨ / ٣٩ .

- ولقد ذكر هذا السيوطى فى الدر المنثور ٦ / ١٠٨ وعزاه إلى عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن .. » .

(٤) أورده الطبرى بإسنادين :

الأول : « حدثنا ابن عبد الأعلى قال حدثنا ابن ثور عن معمر عن قتادة قال قال الحسن » .

والثانى : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا هوذة قال حدثنا عون عن الحسن » تفسير الطبرى ١٨ / ٤١ .

(٥) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا الحسن قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر قال قال الحسن » تفسير الطبرى ١٨ / ٤١ .

- ولقد ذكر هذا الخبر أيضاً ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٤٨٣ والسيوطى فى الدر المنثور ٦ / ١٠٨ .

عن الحسن فى قوله « سامرا تهجرون » قال : القرآن وذكرى ورسولى[1] .

﴿ أم تسألهم خرجا ﴾[72]

عن الحسن قال : أجرا[2] .

﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴾[76]

قال الحسن : إذا أصاب الناس من قبل الشيطاء بلاء فإنما هى نقمة فلا تستقبلوا نقمة الله بالحمية - ولكن استقبلوها بالاستغفار وتضرعوا إلى الله وقرأ هذه الآية[3] .

﴿ ادفع بالتى هى أحسن ﴾[96]

عن الحسن قال : والله لا يصيبها صاحبها حتى يكظم غيظا ويصفح عما يكره[4] .

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦ / ١٠٨ وعزاه إلى عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

(٢) أخرجه الطبرى بإسنادين :
الأول : « حدثنا ابن عبد الأعلى قال حدثنا ابن ثور عن معمر عن الحسن » .
والثانى : « حدثنا الحسن قال حدثنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن الحسن » تفسير الطبرى ١٨ / ٤٣ .
- كذلك ذكر هذا الخبر ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٢٥٠ والسيوطى فى الدر المنثور ٦ / ١١٠ وعزاه إلى عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

(٣) وأخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا ابن حميد قال حدثنا الحكم بن بشير قال أخبرنا عمرو قال قال الحسن » تفسير الطبرى ١٨ / ٤٥ .
- كذلك نقله السيوطى عن الطبرى فى الدر المنثور ٦ / ١١٢ .
والحمية : هى الأنفة والغيرة ، فراجع لسان العرب ٢ / ١٠١٤ .

(٤) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا هوذة قال حدثنا عوف عن
=

قال الحسن : ادفع إساءة المسيء بالصفح[1] .

﴿ ومن ورائهم برزخ ﴾(١٠٠)

عن الحسن قال : البرزخ بين الدنيا والآخرة[2] .

﴿ تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ﴾(١٠٤)

قال الحسن : أى منظر عباد الله ؟ ما أسوأه فاحذروه ، روى أن النار تلفح وجوههم لفحة ، فلا تدع لحماً ولا جلداً إلا ألقته على العراقيب وأبقت الوجوه كالحة ، ثم يبكى ويقول : اللهم بك نستعيذ من عذاب النار وبئس المصير[3].

﴿ قال اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾(١٠٨)

عن الحسن فى الآية قال : تكلموا قبل ذلك وخاصموا فلما كان أخر ذلك قال « اخسأوا فيها ولا تكلمون » قال : منعوا الكلام أخر ما عليهم[4] .

تفسير سورة النور : ٢٤

﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم ﴾(٢)

عن الحسن وسعيد بن المسيب فى قوله « ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله » قال : الجلد الشديد[5] .

= الحسن » تفسير الطبرى ١٨ / ٥١ .

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٥ / ٤٨٩ .

(٢) أخرجه عبد بن حميد عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ١١٥ .

(٣) الحسن البصرى لابن الجوزى ص ٦٧ - ٦٨ .

(٤) أخرجه عبد بن حميد عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ١٢٠ .

(٥) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : « حدثنا ابن المثنى قال حدثنا يحيى بن أبى بكر

عن الحسن فى قوله « ولا تأخذكم بهما رأفة » قال : فتخففوا الضرب ولكن أوجعوهما[1] .

عن الحسن فى قوله « وليشهد عذابهما طائفة » قال : عشرة[2] .

﴿ الزانى لا ينكح إلا زانية ﴾[3]

قال الحسن : إن المراد بالزانى والزانية المحدودان ، قال : وهذا حكم من الله ، فلا يجوز لزان محدود أن يتزوج إلا محدودة[3].

﴿ والذبن يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ﴾[4]

قال الحسن : لا حد على الشهود ولا على المشهود عليه[4] .

﴿ إلا الذين تابوا من بعد ذلك ﴾[5]

قال الحسن : إن هذا الاستثناء يعود إلى جملة الحكم بالفسق لا إلى جملة عدم قبول الشهادة فيرتفع بالتوبة عن القاذف وصف الفسق ولا تقبل شهادته أبدا[5] .

= قال حدثنا أبو جعفر عن قتادة عن الحسن وسعيد .. » تفسير الطبرى ١٨ / ٦٨ .
- وذكر هذا الخبر أيضاً السيوطى فى الدر المنثور ٦ / ١٢٥ .

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ٧ ونسبه أيضاً إلى سعيد بن المسيب والزهرى وقتادة .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ٨ وابن كثير فى تفسيره ٣ / ٢٦٢ ، والسيوطى فى الدر المنثور ٦ / ١٢٦ وعزاه إلى عبد بن حميد .

(٣) حكاه الزجاج وغيره عن الحسن فراجعه فى فتح القدير ٤ / ٥ . وذكره السيوطى بقوله « المحدود لا يتزوج إلا محدودة مثله » انظر الدر المنثور ٦ / ١٣٠ وعزاه إلى ابن أبى شيبة وعبد بن حميد .

(٤) ذكره الشوكانى فى فتح القدير ٤ / ٨ .

(٥) ذكره الشوكانى فى فتح القدير ٤ / ٩ .

عن الحسن أنه قال : القاذف توبته فيما بينه وبين الله وشهادته لا تقبل[1] .

عن الحسن أنه قال : لا تقبل شهادة القاذف إنما توبته فيما بينه وبين الله[2] .

عن الحسن قال : الزنا أشد من القذف ، والقذف أشد من الشرب[3] .

﴿ ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا ﴾[12]

عن الحسن فى قوله « بأنفسهم » قال : يعنى بذلك المؤمنين والمؤمنات[4] .

عن الحسن فى قوله « بأنفسهم » قال : بأهل دينهم ، لأن المؤمنين كنفس واحدة ، ألا ترى إلى قوله « ولا تقتلوا أنفسكم »[5] .

---

(١) أخرجه الطبرى بإسنادين :
الأول : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا ابن عبد الأعلى قال حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن .. » .
والثانى : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا عبد الأعلى قال حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن » تفسير الطبرى ١٨ / ٧٩ .

(٢) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا ابن عبد الأعلى قال حدثنا ابن ثور عن معمر عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٨ / ٧٩ .
- كذلك أورد هذا الخبر ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ١٢ والسيوطى فى الدر المنثور ٦ / ١٣٢ وعزاه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر .

(٣) أخرجه عبد الرزاق عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ١٣٣ .

(٤) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا هوذة قال حدثنا عوف عن الحسن » تفسير الطبرى ١٨ / ٩٦ .

(٥) ذكره الشوكانى فى فتح القدير ٤ / ١٣ .

عن الحسن فى قوله « وقالوا هذا إفك مبين » قال : إن هذا لا ينبغى أن يتكلم به إلا من أقام عليه أربعة من الشهود وأقيم عليه حد الزنا[1] .

﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة ﴾[22]

عن الحسن قال : كان ذو قرابة لأبى بكر ممن كثر على عائشة ، فحلف أبو بكر لا يصله بشىء وقد كان يصله قبل ذلك ، فلما نزلت هذه الآية ، صار أبو بكر يضعف له بعد ذلك بعدما نزلت هذه الآية ضعفى ما كان يعطيه[2] .

﴿ الخبيثات للخبيثين ﴾[26]

روى عن الحسن البصرى أنه قال : الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول ، والطيبات من القول للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال للطيبات من القول ، وهذه الآية نزلت فى عائشة وأهل الإفك[3] .

﴿ ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة ﴾[29]

قال الحسن البصرى : قال الله « لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم » ثم نسخ واستثنى فقال تعالى « ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم »[4] .

---

(١) اخرجه الطبري بإسناده هذا : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا هوذة قال أخبرنا عوف عن الحسن » تفسير الطبرى ١٨ / ٩٦ .

(٢) أخرجه ابن المنذر عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ١٦٣ .

(٣) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٢٧٨ . وكذلك أورده السيوطى - مع اختلاف يسير فى بعض ألفاظه - فى الدر المنثور ٦ / ١٦٧ - ١٦٨ وعزاه إلى عبد بن حميد .

(٤) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٢٨١ . وإلى هذا أشار أيضاً ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ٢٩ .

﴿ إلا ما ظهر منها ﴾[٣١]

عن الحسن فى قوله « إلا ما ظهر منها » قال : الثياب[١] .

عن الحسن فى قوله « إلا ما ظهر منها » قال : الخاتم والسوار[٢] .

عن الحسن فى قوله « إلا ما ظهر منها » قال : الوجه والثياب[٣] .

﴿ أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال ﴾[٣١]

عن الحسن فى قوله « أو التابعين غير أولى الإربة » قال : المخنث كان يتبع الرجل يخدمه بطعامه ولا يستطيع غشيان النساء ولا يشتهيهن »[٤] .

﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ﴾[٣٢]

عن الحسن أنه قال : وأنكحوا الصالحين من عبيدكم وإمائكم[٥] .

---

(١) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنى يعقوب قال حدثنا ابن علية قال أخبرنا بعض أصحابنا - إما يونس وإما غيره عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٨ / ١١٨ .
- كذلك ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٢٨٣ .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ٣١ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا ابن عبد الأعلى قال حدثنا المعتمر قال ، قال الحسن » تفسير الطبرى ١٨ / ١١٩ .

(٤) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ٣٣ .
قلت : ويشهد لكلام الحسن ما روته أم سلمة أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل عليها فسمع مخنثاً يقول لعبد الله بن أمية : إن يفتح الله الطائف غدا دللتك على امرأة تقبل بأربع وتدبر بثمان ، فقال « أخرجوهم من بيوتهم » رواه ابن ماجة فى كتاب الحدود باب المخنثين ٢ / ٨٧٢ ، وكذلك رواه فى كتاب النكاح باب المخنثين ١ / ٦١٣ .

(٥) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن فراجع فى الدر المنثور ٦ / ١٨٨ .

﴿ فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا ﴾[٣٢]

عن الحسن فى قوله « فكاتبوهم .. » قال : صدقا ووفاء وأُداء وأمانة[١] .

عن الحسن فى قوله « فكاتبوهم .. » قال : إن علمتم فيهم دينا[٢] .

عن الحسن فى قوله « فكاتبوهم .. » قال : الخير هو المال ، وهو الدين والأمانة[٣] .

عن الحسن فى قوله « فكاتبوهم .. » قال : الخير هو المال والأمانة[٤] .

قال الحسن : إن يشأ كاتبه وإن يشأ لم يكاتبه[٥] .

عن الحسن فى قوله « وءاتوهم من مال الله الذى ءاتاكم » قال : حث الناس عليه مولى وغيره[٦] .

عن الحسن فى قوله « وءاتوهم من مال الله الذى ءاتاكم » قال : هو النصيب الذى فرض الله لهم من أموال الزكاة[٧] .

---

(١) أخرجه الطبرى بإسناده : حدثنى يعقوب قال حدثنا ابن علية قال أخبرنى يونس عن الحسن » تفسير الطبرى ١٨ / ١٢٨ .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ٣٧ .

(٣) ذكره الشوكانى فى فتح القدير ٤ / ٢٩ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ١٩١ .

(٥) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٢٨٧ .

(٦) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنى يعقوب قال حدثنا ابن علية قال أخبرنى يونس عن الحسن » تفسير الطبرى ١٨ / ١٣١ .
- وذكره أيضاً السيوطى فى الدر المنثور ٦ / ١٩١ وعزاه إلى عبد بن حميد .

(٧) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٢٨٨ .

عن الحسن فى قوله « وءاتوهم » قال : إن الخطاب هنا لجميع الناس[1] .

عن الحسن فى قوله « فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم » قال الحسن : لهن والله لهن والله[2] .

﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾[35]

عن الحسن فى قوله « مثل نوره » قال : مثل هذا القرآن فى القلب « كمشكاة »[3] .

عن الحسن فى قوله « كمشكاة » قال : ككوة « فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى »[4] .

عن الحسن فى قوله « زيتونة لا شرقية ولا غربية » قال : لو كانت فى الأرض هذه الزيتونة لكانت شرقية أو غربية ، ولكن والله ما هى فى الأرض ، وإنما هو مثل ضربه الله لنوره[5] .

---

(١) ذكره الشوكانى فى فتح القدير ٤ / ٢٩ .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٢٨٩ بقوله « قال أبو عبيد حدثنى إسحاق الأزرق عن عوف عن الحسن .. » .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنى يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا ابن علية عن أبى رجاء عن الحسن » تفسير الطبرى ١٨ / ١٣٧ .

- كذلك ذكر هذا الخبر السيوطى فى الدر المنثور ٦ / ١٩٩ وعزاه إلى عبد بن حميد وابن جرير .

(٤) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنى يعقوب قال حدثنا ابن علية عن أبى رجاء عن الحسن » تفسير الطبرى ١٨ / ١٣٩ .

(٥) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا عثمان يعنى ابن الهيثم قال حدثنا عوف عن الحسن » تفسير الطبرى ١٨ / ١٤٢ .

- كذلك أورده الطبرى بإسنادين آخرين هما :

الأول : « حدثنا محمد بن عبد الله بن بزيع قال حدثنا بشر بن المفضل قال =

عن الحسن فى قوله « لا شرقية ولا غربية » قال : إنها من شجر الجنة لا من شجر الدنيا[1] .

﴿ فى بيوت أذن الله أن ترفع ﴾[36]

عن الحسن فى قوله « فى بيوت ... » قال : المساجد[2] .

قال الحسن : المراد بها بيوت بيت المقدس[3] .

عن الحسن فى قوله « أذن الله أن ترفع » قال : أن تعظم لذكره[4] .

قال الحسن : معنى ترفع : تعظم ويرفع شأنها وتطهر من الأنجاس والأقذار[5] .

= حدثنا عوف عن الحسن » .

والثانى : « حدثنى يعقوب قال حدثنا هشيم قال أخبرنا عوف عن الحسن تفسير الطبرى ١٨ / ١٤٢ .

- كذلك أورد هذا الخبر كل من ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٢٩١ والسيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٢٠١ والشوكانى فى فتح القدير ٤ / ٢٣ .

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ٤٣

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا الحسن قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن الحسن .. » تفسير الطبرى ١٨ / ١٤٤ .

(٣) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ٤٦ والشوكانى فى فتح القدير ٤ / ٣٤ .

(٤) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا الحسن بن يحيى قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن الحسن » تفسير الطبرى ١٨ / ١٤٥ .

- كذلك أورده ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ٤٦ والسيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٥) ذكره الشوكانى فى فتح القدير ٤ / ٣٤ .

عن الحسن فى قوله « يسبح له فيها بالغدو والأصال » قال : أذن الله أن تبنى فيصلى فيها بالغدو والآصال(١) .

﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾(٣٧)

عن الحسن قال : إذا كان يوم القيامة نادى مناد : سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ؟ فيقومون فيتخطون رقاب الناس ، ثم ينادى مناد : سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم . أين الذين كانت لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ؟ فيقومون فيتخطون رقاب الناس . ثم ينادى أيضاً فيقول : سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم ، أين الحمادون لله على كل حال ؟ فيقومون وهم كثير ، ثم تكون التبعة والحساب على من بقى(٢) .

﴿ إذا أخرج يده لم يكد يراها ﴾(٤٠)

عن الحسن فى قوله « إذا أخرج ... » قال : أما رأيت الرجل يقول : والله ما رأيتها ، وما كدت أن أراها(٣) .

عن الحسن فى قوله « لم يكد يراها » قال : إنه لم يرها(٤) .

---

(١) أخرجه الطبرى بإسناده : حدثنا الحسن بن يحيى قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن الحسن » تفسير الطبرى ١٨/ ١٤٦ .

(٢) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان عن الحسن فراجعه فى آلدر المنثور ٦ / ٢٠٩ . ٢٠٩ .

(٣) أخرجه عبد بن حميد عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٢١٠ .

(٤) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ٥٠ ونسبه أيضاً إلى الزجاج .

﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ﴾(٤٨)

عن الحسن عن سمرة مرفوعا « من دعى إلى سلطان فلم يجب فهو ظالم لاحق له »[١] .

﴿ وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ﴾(٤٩)

قال الحسن : كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة فدعى إلى النبى (ص) وهو محق أذعن وعلم أن النبى (ص) سيقضى له بالحق ، وإذا أراد أن يظلم فدعى إلى النبى (ص) أعرض وقال : أنطلق إلى فلان فأنزل الله هذه الآية ، فقال النبى (ص) « من كان بينه وبين أخيه شيء فدعى إلى حكم من أحكام المسلمين فأبى أن يجيب فهو ظالم لا حق له »[٢] .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم ... ﴾(٥٨)

كان الحسن يقول : إذا أبات الرجل خادمه معه فهو إذنه ، وإن لم يبته معه استأذن فى هذه الساعات[٣] .

---

(١) رواه الطبرانى من حديث روح بن عطاء عن أبى ميمونة عن أبيه عن الحسن فراجعه فى تفسير ابن كثير ٣ / ٢٩٨ ، وكذلك ذكره الشوكانى فى فتح القدير ٤ / ٤٨ - ٤٩ والسيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٢١٣ .

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا ابن أبى الشوارب قال حدثنا يزيد بن زريع قال حدثنا يونس عن الحسن » تفسير الطبرى ١٨ / ١٦٢ .

(٣) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٣ / ١٢٤ ونسبه أيضاً إلى السدى .

عن الحسن فى قوله : « والذين لم يبلغوا الحلم منكم » قال أبناؤكم[٢] .

﴿ والقواعد من النساء ﴾[٦٠]

عن الحسن فى قوله « والقواعد من النساء » قال : المرأة إذا قعدت عن النكاح[٣] .

عن الحسن فى قوله « فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن » قال : الجلباب أو الرداء[٤] .

﴿ ليس على الأعمى حرج ... ﴾[٦١]

قال الحسن : نزلت هذه الآية فى إسقاط الجهاد عن أهل الزمانة المذكورين فى الآية[٥]

﴿ فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم ﴾[٦١]

قال الحسن : المراد بها المساجد[٦] .

قال الحسن : أى ليسلم بعضكم على بعض كقوله « ولا تقتلوا أنفسكم »[٧] .

---

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٢٢٠ .

(٣) أخرجه عبد الرزاق وابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٢٢٢ .

(٤) ذكره ابن كثر فى تفسيره ٣ / ٣٠٤ .

(٥) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ٦٤ .

(٦) ذكره الشوكانى فى فتح القدير ٤ / ٥٤ .

(٧) أخرجه الطبرى بسنده : حدثنا الحسن قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن الحسن تفسير الطبرى ١٨ / ١٧٤ .
- وذكره أيضا ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٣٠٥ والسيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٢٢٨ وعزاه إلى عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ﴾(٦٢)

عن الحسن قال : كان الرجل إذا كانت له حاجة والإمام يخطب قام فأمسك بأنفه ثم أشار إليه الإمام أن يخرج قال : فكان رجل قد أراد الجوع إلى أهله فقام إلى هرم بن حيان وهو يخطب فأخذ بأنفه فأشار إليه هرم أن يذهب ، فخرج إلى أهله فأقام فيهم ثم قدم ، فقال له هرم : أين كنت ؟ قال : فى أهلى ؟ قال : أبأذن ذهبت ؟ قال : نعم . قمت إليك وأنت تخطب فأخذت بأنفى ، فأشرت إلى أن أذهب فذهبت ، فقال : أفاتخذت هذا دغلا أو كلمة نحوها ثم قال : اللهم أخر رجال السوء إلى زمان السوء[1] .

﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ﴾(٦٣)

عن الحسن فى الآية قال : لا تقولوا يا محمد ، ولكن قولوا : يا رسول الله[2] .

عن الحسن فى قوله « يتسللون منكم لواذا » قال : اللواذ : هو الفرار من الجهاد[3] .

---

(١) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنى يعقوب قال حدثنى ابن عليه قال أخبرنا هشام بن حسان عن الحسن » تفسير الطبرى ١٨ / ١٧٦ .

(٢) أخرجه عبد بن حميد عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٢٣١ .

(٣) ذكره الشوكانى فى فتح القدير ٤ / ٥٨ .

تفسير سورة الفرقان :

قال الحسن : هى مكية[1] .

﴿ وكانوا قوما بورا ﴾(١٨)

عن الحسن فى قوله « وكانوا قوما بورا » قال : هم الذين لا خير فيهم[2] .

عن الحسن فى قوله « وكانوا قوما بورا » قال : قاسين لا خير فيهم[3] .

﴿ ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا ﴾(١٩)

عن الحسن فى قوله « ومن يظلم منكم » قال : هو الشرك[4] .

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ٧١ ونسبه أيضاً إلى ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة .

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا الحسن قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن الحسن » تفسير الطبرى ١٨ / ١٩٠ .

(٣) أخرجه عبد بن حميد عن الحسن انظر الدر المنثور ٦ / ٢٤٢ .

(٤) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا الحسن قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن الحسن » تفسير الطبرى ١٨ / ١٩٣ .

- كذلك أورد هذا الخبر السيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٢٤٣ والشوكانى فى فتح القدير ٤ / ٧٠ .

﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ﴾(٢٠)

عن الحسن قال : يقول هذا الأعمى : لو شاء الله لجعلنى بصيرا مثل فلان . ويقول هذا الفقير : لو شاء الله لجعلنى غنيا مثل فلان . ويقول هذا السقيم : لو شاء الله لجعلنى صحيحا مثل فلان[١] .

عن الحسن عن النبى (ص قال « لو شاء الله لجعلكم أغنياء كلكم لا فقير فيكم ، ولو شاء الله لجعلكم فقراء كلكم لا غنى فيكم ، ولكن ابتلى بعضكم ببعض »[٢] .

﴿ ويقولون حجرا محجورا ﴾(٢٢)

عن الحسن فى قوله « ويقولون » قال : أى الملائكة هى التى تقول[٣] .

عن الحسن فى قوله « حجرا محجورا » قال : هى كلمة كانت العرب تقولها ، كان الرجل إذا نزلت به شدة قال : حجرا محجورا حراما محرما[٤] .

---

(١) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنى يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا ابن علية عن أبى رجاء قال حدثنى عبد القدوس عن الحسن » تفسير الطبرى ١٨ / ١٩٤ .
- كذلك ذكر هذا الخبر ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ٨٠ والسيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٢٤٣ والشوكانى فى فتح القدير ٤ / ٧٠ وعزاه إلى عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الشعب عن الحسن ..

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٢٤٤ .

(٣) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٣١٤ .

(٤) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنى عبد الوارث بن عبد الصمد قال حدثنا أبى عن جدى عن قتادة عن الحسن ... » انظر تفسير الطبرى ١٩ / ٢ .
- كذلك ذكر هذا الخبر السيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٢٤٥ والشوكانى فى فتح القدير ٤ / ٧١ وعزوه إلى عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

عن الحسن قال : كانت المرأة إذا رأت الشىء تكرهه تقول : حجر من هذا[1] .

﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾[٢٣]

عن الحسن فى قوله « هباء منثورا » قال : هو الشعاع فى كوة أحدهم إن ذهب يقبض عليه لم يستطع[2] .

عن الحسن فى قوله « هباء منثورا » قال : ما رأيت شيئاً يدخل البيت من الشمس تدخله من الكوة فهو الهباء[3] .

﴿ ورتلناه ترتيلا ﴾[٣٢]

عن الحسن قال : كان ينزل آية وآيتين وآيات جوابا لهم إذا سألوا عن شىء ، أنزل الله جوابا لهم ، وردًا عن النبى (ص) فيما تكلموا به ، وكان بين أوله وآخره نحو من عشرين سنة[4].

---

(١) أخرجه عبد بن حميد عن الحسن ، الدر المنثور ٦ / ٢٤٥ .

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنى يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا ابن علية عن أبى رجاء عن الحسن » تفسير الطبرى ١٩ / ٤ .
- كذلك أورد هذا الخبر ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٣١٤ والسيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٢٤٦ وعزاه إلى عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا الحسن قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن الحسن » تفسير الطبرى ١٩ / ٤ .
- كذلك ذكر معنى هذا الخبر ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ٨٣ .

(٤) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنا الحسن قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن الحسن » تفسير الطبرى ١٩ / ١١ .
- كذلك ذكر هذا الخبر السيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٢٥٥ وعزاه إلى عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

﴿ الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم ﴾[٣٤]

سمعت الحسن يقول : قرأ رسول الله (ص) هذه الآية ، فقالوا : يا نبى الله : كيف يمشون على وجوههم ؟ قال : أرأيت الذى أمشاهم على أقدامهم أليس قادرا على أن يمشيهم على وجوههم[١] .

﴿ وقرونا بين ذلك كثيرا ﴾[٣٨]

عن الحسن قال : القرن ستون سنة[٢] .

﴿ وكلا تبرنا تتبيرا ﴾[٣٩]

عن الحسن قال : تبر الله كلا بالعذاب تتبيرا[٣] .

﴿ ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء ﴾[٤٠]

قال الحسن : هى بين الشام والمدينة[٤] .

﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾[٤٣]

عن الحسن فى قوله « أرأيت من .. » قال : لا يهوى شيئاً إلا تبعه[٥] .

---

(١) أخرجه الطبرى بهذا الإسناد : « حدثنى أحمد بن المقدام قال حدثنا حزم قال سمعت الحسن » تفسير الطبرى ١٩ / ١٢ .

- كذلك ذكر هذا السيوطى فى الدر المنثور ٥ / ٣٤١ .

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٢٥٩ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا الحسن قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن الحسن » تفسير الطبرى ١٩ / ١٦ .

- كذلك أورد هذا الخبر السيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٢٥٩ وعزاه إلى عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم .

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٢٦٠ .

(٥) أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٢٦٠ والشوكانى فى فتح القدير ٤ / ٧٧ =

عن الحسن أنه قيل له : فى أهل القبلة شرك ؟ فقال : نعم : المنافق مشرك ، إن المشرك يسجد للشمس والقمر من دون الله ، وإن المنافق عند هواه ثم تلا هذه الآية « أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا »[1] .

﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ﴾[45]

عن الحسن قال : مده من المشرق إلى المغرب فيما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس « ولو شاء لجعله ساكنا . قال : تركه كما هو ظلاً ممدوداً ما بين المشرق والمغرب[2] .

قال الحسن : يعنى الظل من وقت الإسفار إلى طلوع الشمس ، وهو ظل لا شمس له[3] .

﴿ وهو الذى مرج البحرين ... ﴾[53]

عن الحسن فى قوله « مرج البحرين » قال : بحر فى السماء وبحر فى الأرض[4] .

عن الحسن فى قوله « وجعل بينهما برزخا » قال : هو اليبس[5] .

= وعزوه إلى ابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم .

(١) أخرجه عبد بن الحميد عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٢٦١ .

(٢) أخرجه عبد بن حميد وابن أبى حاتم / فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٢٦٢ . وكذلك ذكر بعضه ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٣٢٠ .

(٣) ذكره الشوكانى فى فتح القدير ٤ / ٧٩ .

(٤) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٢٦٥ .

(٥) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنى يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا ابن علية عن أبى رجاء عن الحسن » تفسير الطبرى ١٩ / ٢٥ .

- كذلك ذكر هذا الخبر ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ٩٦ والسيوطى فى الدر المنثور ٦ / =

﴿ وكان الكافر على ربه ظهيرا ﴾[٥٥]

عن الحسن فى قوله « وكان ... » قال : عونا للشيطان على ربه على المعاصى[١] .

﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة ﴾[٦٢]

عن الحسن قال : جعل أحدهما خلفاً للآخر ، إن فات رجلاً من النهار شىء أدركه من الليل وإن فاته من الليل أدركه من النهار[٢] .

قال الحسن : إن عمر أطال صلاة الضحى ، فقيل له : صنعت اليوم شيئاً لم تكن تصنعه ؟ فقال : إنه بقى على وردى شىء فأحببت أن أتمه ، أو قال أقضيه ، وتلا هذه الآية « وهو الذى جعل .. »[٣] .

عن الحسن قال : إن لم يستطع عمل الليل عمله بالنهار ، وإن لم يستطع عمل النهار عمله بالليل ، فهذا خلفة لهذا[٤] .

= ٢٦٥ وعزاه إلى عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم .

(١) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا الحسن قال أخبرنا عبد الرازق قال أخبرنا معمر عن الحسن » تفسير الطبرى ١٩ / ٢٦ .

- كذلك أورده السيوطى بلفظ « معينا للشيطان على معاصى الله » انظر الدر المنثور ٦ / ٢٦٧ وعزاه إلى عبد بن حميد .

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا الحسن قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن الحسن » تفسير الطبرى ١٩ / ٣١ .

- كذلك ذكر هذا الخبر ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٣٢٤ .

(٣) أخرجه الطيالسى وابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٢٧٠ وفتح القدير للشوكانى ٤ / ٨٧ .

(٤) أخرجه عبد بن حميد عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٢٧١ .

عن الحسن قال : من عجز بالليل كان له فى أول النهـار مستعتب ، ومن عجز بالنهار كان له فى الليل مستعتب[1] .

﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ﴾[63]

عن الحسن فى قوله « يمشون على الأرض هونا » قال : حلماء ، وإن جهل عليهم لم يجهلوا[2] .

عن الحسن فى قوله « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » قال : علماء حلماء لا يجهلون[3] .

عن الحسن فى قوله « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » قال : لا يجهلون على أحد ، وإن جهل عليهم حلموا[4] .

عن الحسن قال : حلماء لا يجهلون وإن جهل عليهم لم يجهلوا[5] .

عن الحسن قال : إن المؤمنين قوم ذلل ، ذلت منهم والله الأسماع والأبصار والجوارح حتى يحسبهم الجاهل مرضى ، وإنهم لأصحاء القلوب ، ولكن دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم

---

(١) أخرجه عبد بن حميد عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٢٧١ .

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا أبو كريب قال حدثنا ابن يمان عن أبى الأشهب عن الحسن » تفسير الطبرى ١٩ / ٣٤ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا الحسن قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن الحسن » تفسير الطبرى ١٩ / ٣٤ .

(٤) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ١٠١ .

(٥) أخرجه الطبرى بإسنادين :

الأول : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا عبد الرحمن قال حدثنا أبو الأشهب عن الحسن » .

والثانى : « حدثنا الحسين قال حدثنا هشيم قال أخبرنا عبادة عن الحسن » تفسير الطبرى ١٩ / ٣٤ ، ٣٥ .

بالآخرة ، فقالوا « الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن » والله ما حزنهم حزن الدنيا ، ولا تعاظم فى أنفسهم ما طلبوا به الجنة أبكاهم الخوف من النار ، وإنه من لم يتعز بعزاء الله تقطع نفسه على الدنيا حسرات ومن لم ير لله عليه نعمة إلا فى مطعم ومشرب فقد قل علمه وحضر عذابه(1) .

عن الحسن قال : حلماء لا يجهلون ، وإن جهل عليهم حلموا ولم يسفهوا ، هذا نهارهم فكيف ليلهم خير ليل ، صفوا أقدامهم وأجروا دموعهم على خدودهم يطلبون إلى الله جل ثناؤه فى فكاك رقابهم(2) .

عن الحسن قال : قالوا : سلام عليكم ، إن جهل عليهم حلموا ، يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون(3) .

عن الحسن فى قوله « وعباد الرحمن .. » قال : نسخ فى براءة وأمر بالقتال(4) .

﴿ إن عذابها كان غراما ﴾(65)

عن الحسن فى قوله « إن عذابها كان غراما » قال : قد علموا أن كل غريم مفارق غريمه إلا غريم جهنم(5) .

---

(1) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا ابن حميد قال حدثنا ابن المبارك عن معمر عن يحيى بن المختار عن الحسن » تفسير الطبرى 19 / 34 .
- كذلك أورد هذا الخبر بإسناده هذا ابن كثير فى تفسيره 3 / 324 .

(2) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : « حدثنا الحسين قال حدثنا يحيى بن يمان عن أبى الأشهب عن الحسن » تفسير الطبرى 19 / 35 .

(3) ذكره ابن كثير فى تفسيره 3 / 325 .

(4) ذكره المحاسبى بهذا الإسناد : « حدثنا شريح قال حدثنا هشيم عن عباد عن الحسن » انظر العقل وفهم القرآن ص 445 .

(1) أخرجه الطبرى بإسناده : قال « حدثنا المعافى عن أبى الأشهب عن الحسن » تفسير الطبرى 19 / 36 .
=

قال الحسن : كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام ، وإنما الغرام اللازم ما دامت السماوات والأرض[1].

﴿ لم يسرفوا ولم يقتروا ﴾[٦٧]

عن الحسن فى قوله « لم يسرفوا ولم يقتروا » قال : إن عمر بن الخطاب قال : كفى سرفا أن الرجل لا يشتهى شيئاً إلا اشتراه فأكله[2] .

قال رحمه الله : عبداً كسب من طيب ، وأنفق قصدًا ، وقدم ليوم فقره وشدة حاجته فضلاً[3] .

قال الحسن : وجهوا رحمكم الله فضول أموالكم حيث وجهها الله ورسوله وضعوها حيث وضعها ، فإن الذين كانوا من قبلكم كانوا يأخذون قليلا ويبتاعون من الله جل ثناؤه أنفسهم بالفضل[4] .

﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾[٧٠]

قال الحسن : أبدلهم الله بالعمل السيىء العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك إخلاصا وأبدلهم بالفجور إحصاناً وبالكفر إسلاما[5] .

= - كذلك أورد هذا الخبر السيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٢٧٤ وعزاه إلى ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم .

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٣٢٥ .

(٢) أخرجه عبد الرزاق عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٢٧٥ .

(٣) ذكره ابن الجوزى فى كتابه « الحسن البصرى » ص ٦٩ .

(٤) نفسه ص ٦٩ .

(٥) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٣٢٧ ، وكذلك ذكر نحوه السيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٢٨٠ وعزاه إلى عبد بن حميد وابن أبى حاتم .

قال الحسن : يبدل الله شركهم إيماناً وقتلهم إمساكا وزناهم إحصانا[١] .

قال الحسن : يبدل الله سيئات المؤمنين إذا غفرها لهم حسنات حتى إن العبد يتمنى أن تكون سيئاته أكثر مما هى[٢] .

قال الحسن : ود قوم يوم القيامة أنهم كانوا فى الدنيا استكثروا من الذنوب فقيل من هم ؟ قال : هم الذين قال الله تعالى فيهم « فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات »[٣] .

عن الحسن فى قوله « يبدل الله سيئاتهم حسنات » قال : فى الدنيا[٤] .

﴿ والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو ﴾[٧٢]

عن الحسن فى قوله « والذين لا يشهدون الزور » قال : الغناء النياحة[٥] .

عن الحسن فى قوله « وإذا مروا باللغو » قال : اللغو : المعاصى[٦] .

﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ﴾[٧٣]

قال الحسن البصرى : كم من رجل يقرؤها ويخر عليهم أصم أعمى[٧]

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ١٠٧ .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ١٠٧ .

(٣) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ١٠٧ .

(٤) أخرجه عبد بن حميد فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٢٨٠ .

(٥) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى اندر المنثور ٦ / ٢٨٣ .

(٦) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا الحسن قال أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن الحسن » تفسير الطبرى ١٩ / ٥٠ .
– كذلك أورد هذا الخبر السيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٢٨٤ والشوكانى فى فتح القدير ٤ / ٨٩ ، وابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ١١٠ .

(٧) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٣٢٩ .

﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا ﴾[٧٤]

سمعت كثيراً سأل الحسن قال : يا أبا سعيد قول الله « هب لنا .. » فى الدنيا والآخرة ؟ قال : لا بل فى الدنيا ، قال : وما ذاك ؟ قال : المؤمن يرى زوجته وولده يطيعون الله[١] .

سئل الحسن البصرى عن هذه الآية فقال : إن الله يرى العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميمه طاعة الله ، لا والله لا شىء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدا أو ولد ولده أو أخاً أو حميما مطيعا لله عز وجل[٢] .

عن الحسن قال : هب لنا من أزواجنا فى طاعة الله ، وما شىء أقر لعين المؤمن أن يرى حبيبه فى طاعة الله[٣] .

سئل الحسن عن قوله « قرة أعين » فى الدنيا أم فى الأخرة ؟ قال : لا بل فى الدنيا ، وأى شىء أقر لعين المؤمن من أن يرى زوجته وولده يطيعون الله ، والله ما طلب القوم إلا أن يطاع الله فتقر أعينهم[٤] .

---

(١) أخرجه الطبرى بإسنادين :
الأول : « حدثنى أحمد بن المقدام قال حدثنا خرم قال سمعت كثيراً » .
والثانى : « حدثنا الفضل بن إسحاق قال حدثنا سالم بن قتيبة قال حدثنا خرم قال سمعت الحسن » تفسير الطبرى ١٩ / ٥٢ .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٣٢٩ ، وكذلك ذكر نحوه السيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٢٨٤ .

(٣) ذكره البخارى فى صحيحه فى كتاب تفسير القرآن ٣ / ١٦٩ .

(٤) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ١١١ .

عن الحسن فى قوله « واجعلنا للمتقين إماما » قال : أى أئمة يقتدى بنا فى الخير[1] .

﴿ فسوف يكون لزاما ﴾[77]

عن الحسن فى قوله « فسوف يكون لزاما » قال : ذاك يوم القيامة[2] .

تفسير سورة الشعراء

﴿ لعلك باخع نفسك ﴾[3]

قال الحسن : أى قاتل نفسك[3] .

﴿ وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ﴾[19]

قال الحسن : من الكافرين بإلهك ، كنت معنا على ديننا الذى تعيب[4]

﴿ وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل ﴾[22]

قال الحسن : معنى الآية : إن فرعون أخذ أموال بنى اسرائيل واستعبدهم وأنفق على موسى منها ، فأبطل موسى النعمة لأنها أموال بنى إسرائيل[5] .

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٣٣٠ .

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٢٨٧ ، وكذلك ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٣٣٠ .

(٣) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٣٣١ .

(٤) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ١١٩ ونسبه أيضاً إلى السدى .

(٥) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ١٢١ .

﴿ الذى خلقنى فهو يهدين .. واجعلنى من ورثة جنة النعيم ﴾(٧٨ - ٨٥)

من طريق الحسن عن سمرة بن جندب قال ، قال رسول الله (ص) : « إذا توضأ العبد لصلاة مكتوبة فأسبغ الوضوء ثم خرج من باب داره يريد المسجد فقال حين يخرج : بسم الله الذى خلقنى فهو يهدين ، هداه الله للصواب ، ولفظ ابن مردويه - لصواب الأعمال - « والذى هو يطعمنى ويسقين » : أطعمه الله من طعام الجنة وسقاه من شراب الجنة ، « وإذا مرضت فهو يشفين » : شفاه الله وجعل مرضه كفارة لذنوبه « والذى يميتنى ثم يحيين » : أحياه الله حياة السعداء ، وأماته ميتة الشهداء « والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » : غفر الله خطاياه كلها ، وإن كانت أكثر من زبد البحر « رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين » : وهب الله له حكما وألحقه بصالح من مضى وصالح من بقى : « واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » : كتب فى ورقة بيضاء إن فلان ابن فلان من الصادقين ، ثم وفقه الله بعد ذلك للصدق « واجعلنى من ورثة جنة النعيم » : جعل الله له القصور والمنازل فى الجنة وكان الحسن يزيد فيه : واغفر لوالدى كما ربيانى صغيرا[١] .

عن الحسن أنه قرأ « خطيئتى » : خطاياى وقال : ليست خطيئة واحدة[٢] .

قال الحسن : خطيئته قوله للكوكب : هذا ربى[٣] .

---

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا فى الذكر وابن مردويه من طريق الحسن ، فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٣٠٦ .

(٢) ذكره الشوكانى فى فتح القدير ٤ / ١٠٥ .

(٣) ذكره الشوكانى فى فتح القدير ٤ / ١٠٥ .

﴿ واغفر لأبى ﴾[86]

قال الحسن : بلغنى أن أمه كانت مسلمة على دينه فلذلك لم يذكرها[1] .

﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾[89]

قال الحسن : سليم من الشرك[2] .

﴿ لتكونن من المرجومين ﴾[116]

عن الحسن فى قوله « لتكونن من المرجومين » قال : بالشتيمة[3] .

﴿ الفلك المشحون ﴾[119]

قال الحسن : المستدير .[4]

﴿ ونخل طلعها هضيم ﴾[148]

عن الحسن فى قوله « طلعها هضيم » قال : هو الذى لا نوى له[5] .

عن الحسن فى قوله « طلعها هضيم » قال : الرخو[6] .

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ١٣٠ .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ١٣٠ وابن كثير فى تفسيره ٣ / ٣٣٩ .

(٣) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٣١١ .

(٤) رواه سفيان الثورى عن أبى مودود عن الحسن فراجعه فى تفسير الثورى ص ٢٢٩ .

(٥) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ١٣٨ وابن كثير فى تفسيره ٣ / ٣٤٣ والسيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٣١٥ وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبى حاتم .

(٦) أخرجه عبد بن حميد عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٣١٥ .

﴿ وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ﴾(١٤٩)

عن الحسن فى قوله « فارهين » قال : معجبين ناعمين آمنين[1] .

﴿ فأخذهم عذاب يوم الظلة ﴾(١٨٩)

عن الحسن قال : سلط الله الحر على قوم شعيب سبعة أيام ولياليهن حتى كانوا لا ينتفعون بظل بيت ولا ببرد ماء ، ثم رفعت لهم سحابة فى البرية فوجدوا تحتها الروح ، فجعلوا يدعون بعضهم بعضا حتى إذا اجتمعوا تحتها أشعلها الله عليهم نارا فذلك قوله « فأخذهم عذاب يوم الظلة »[2] .

﴿ نزل به الروح الأمين ﴾(١٩٣)

عن الحسن - أظنه عن سعد - قال : قال النبى (ص) : « ألا وإن الروح الأمين نفث فى روعى : أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وإن أبطأ عليها »[3] .

﴿ كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين ﴾(٢٠٠ - ٢٠١)

عن الحسن فى هذه الآية « كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين » قال : خلقناه[4] .

---

(١) ذكره الشوكانى فى فتح القدير ٣ / ١١٢ .

(٢) أخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٣١٩ - ٣٢٠ .

(٣) أخرجه ابن مردويه عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٣٢١ .

(٤) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنى على بن سهل قال حدثنا زيد بن أبى الزرقاء عن سفيان عن حميد عن الحسن » انظر تفسير الطبرى ١٩ / ١١٥ .

عن الحسن فى قوله « كذلك سلكناه » قال : الشرك جعلناه « فى قلوب المجرمين »[1] .

سألت الحسن فى بيت أبى خليفة عن قوله « كذلك سلكناه » قال : الشرك سلكه فى قلوبهم ، وقوله « لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم » يقول : فعلنا ذلك بهم لئلا يصدقوا بهذا القرآن حتى يروا العذاب الأليم فى عاجل الدنيا كما رأت ذلك الأمم الذين قص الله قصصهم فى هذه السورة[2] .

﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾(٢١٤)

عن الحسن بن أبى الحسن قال : لما نزلت هذه الآية على رسول الله (ص) ، قام رسول الله (ص) بالأبطح ثم قال : يا بنى عبد المطلب ، يا بنى عبد مناف ، يا بنى قصى ، قال : ثم فخذ قريشا قبيلة قبيلة حتى مر على آخرهم فقال : إنى أدعوكم إلى الله وأنذركم عذابه[3] .

﴿ الذى يراك حين تقوم ﴾(٢١٨)

قال الحسن : « حين تقوم » أى : حين تخلو[4] .

---

(١) وأورده السيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٣٢٣ والشوكانى فى فتح القدير ٤ / ١١٨ وكذلك رواه سفيان الثورى عن حميد عن الحسن فراجعه فى تفسير الثورى ص ٢٣٠ .

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده : « قال حدثنا زيد عن حماد بن سلمة عن حميد قال سألت الحسن » تفسير الطبرى ١٩ / ١١٥ .

(٣) أخرجه الطبرى بإسناده هذا : « حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة قال حدثنى إسحق عن عمرو بن عبيد عن الحسن » تفسير الطبرى ١٩ / ١٢٢ .

(٤) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ١٤٨ .

﴿ وتقلبك فى الساجدين ﴾(٢١٩)

قال الحسن : وتصرفك فى ذهابك ومجيئك فى أصحابك المؤمنين[1] .

سألت الحسن عن قوله « وتقلبك فى الساجدين » قال : فى الناس[2] .

عن الحسن فى قوله « الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين » قال : فى الصلاة يراك وحدك ويراك فى الجمع[3] .

﴿ ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ﴾(٢٢٥)

قال الحسن البصرى : قد والله رأينا أوديتهم التى يخوضون فيها ، مرة فى شتيمة فلان ومرة فى مديحة فلان[4] .

﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾(٢٢٧)

كان الحسن إذا مرت عليه جنازة نصرانى قال « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون »[5] .

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ١٤٩ .

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا يحيى قال حدثنا ربيعة ابن كلثوم قال سألت الحسن » تفسير الطبرى ١٩ / ١٢٤ .

(٣) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٣٥٢ .

(٤) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٣٥٣ .

(٥) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٣٥٥ بقوله « قال أبو داود الطيالسى حدثنا إياس ابن أبى تميمة قال حضرت الحسن ومر عليه بجنازة فقال : » .

تفسير سورة النمل

﴿ نودى أن بورك من فى النار ﴾(٨)

عن الحسن فى قوله « أن بورك من فى النار » قال : هو النور[1] .

عن الحسن فى قوله « أن بورك من فى النار» قال : إن المراد بمن فى النار هو الله سبحانه أى نوره[2] .

عن الحسن فى قوله « أن بورك من فى النار » قال : قدس من فى النار وهو الله عز وجل[3] .

عن الحسن فى قوله « ومن حولها » قال : الملائكة[4] .

﴿ يا موسى لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلون إلا من ظلم ﴾(١٠ - ١١)

عن الحسن قال : إنى إنما أخفتك لقتلك النفس ، قال : وقال الحسن : كانت الأنبياء تذنب فتعاقب[5] .

---

(١) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثنا أبو سفيان عن معمر عن الحسن : تفسير الطبرى ١٩ / ١٣٤ .

(٢) ذكره الشوكانى فى فتح القدير ٤ / ١٢٧ .

(٣) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ١٥٥ .

(٤) أخرجه الطبرى بإسناده الآتى : « حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثنى حجاج عن ابن جريج عن الحسن » تفسير الطبرى ١٩ / ١٣٥ .
- كذلك ذكر هذا الخبر ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ١٥٥ وابن كثير فى تفسيره ٣ / ٣٥٧ .

(٥) أخرجه الطبرى بإسناده التالى : « حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثنا عبد الله الفزارى عن عبد الله بن المبارك عن أبى بكر عن الحسن » تفسير الطبرى ١٩ / ١٣٦ .

عن الحسن فى قوله « إلا من ظلم » قال : إنه استثناء صحيح[1] .

﴿ فهم يوزعون ﴾(١٧)

عن الحسن فى قوله « يوزعون » قال : يتقدمون[2] .

﴿ قالت نملـة ﴾(١٨)

عن الحسن قال : إن اسم هذه النملة حرس وأنها من قبيلة يقال لهم بنو الشيصان ، وأنها كانت عرجاء وكانت بقدر الذئب[3] .

﴿ وقال رب أوزعنى ﴾(١٩)

عن الحسن فى قوله « أوزعنى » قال : ألهمنى[4] .

﴿ فقال مالى لا أرى الهدهد ﴾(٢٠)

قال الحسن : كان اسم هدهد سليمان غبر[5] .

---

(١) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ١٥٦ والمعنى : إلا من ظلم منهم فإنه يخاف . ولقد نسبه ابن الجوزى هذا أيضاً إلى قتادة ومقاتل .

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا الحسين قال حدثنا أبو سفيان عن معمر قال قال الحسن » تفسير الطبرى ١٩ / ١٤٢ .

(٣) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٣٥٩ بقوله « أورده ابن عساكر من طريق إسحاق ابن بشر عن سعيد عن قتادة عن الحسن » .
- كذلك أورد هذا الشوكانى فى فتح القدير ٤ / ١٣٥ .

(٤) ذكره الشوكانى فى فتح القدير ٤ / ١٣٥ وعزاه إلى عبد بن حميد .

(٥) رواه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٣٤٩ وفتح القدير للشوكانى ٤ / ١٣٥ .
قلت : ولله دره الشوكانى إذْ ضعف هذا بقوله : « وأقول : من أين جاء علم هذا للحسن رحمه الله ، وهكذا ما رواه عنه ابن عساكر أن اسم النملة حرس .. وهو

﴿ وجئتك من سبأ بنبأ يقين ﴾(٢٢)

عن الحسن أنه قرأ « من سبأ بنبأ يقين » قال : بجعله أرضا[1] .

﴿ إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ﴾(٢٣)

عن الحسن فى قوله « إنى وجدت امرأة تملكهم » قال : هى بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ[2] .

عن الحسن قال : كانت ملكة سبأ اسمها ليلى ، وسبأ مدينة باليمن ، وبلقيس حميرية[3] .

عن الحسن أنه سئل عن ملكة سبأ فقال : إن أحد أبويها جنى ، فقال : الجن لا يتوالدون ، أى أن المرأة من الإنس لا تلد من الجن[4] .

عن الحسن فى قوله « وأوتيت من كل شىء » قال : يعنى من كل أمر الدنيا[5] .

رحمه الله أورع الناس عن نقل الكذب ، ونحن نعلم أنه لم يصح عن رسول الله (ص) فى ذلك شىء ، ونعلم أنه ليس للحسن إسناد متصل بسليمان أو بأحد من أصحابه ، فهذا العلم مأخوذ عن أهل الكتاب ، وقد أمرنا أن لا نصدقهم ولا نكذبهم ، فإن ترخص مترخص بالرواية عنهم لمثل ما روى « حدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج » فليس ذلك فيما يتعلق بتفسير كتاب الله سبحانه بلا شك ، بل فيما يذكر عنهم من القصص الواقعة لهم ولقد كررنا التنبيه على مثل هذا عند عروض ذكر التفاسير الغريبة » فتح القدير ٤ / ١٣٥ .

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٣٥١ .

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٣٥١ وتفسير ابن كثير ٣ / ٣٦٠ وفتح القدير ٤ / ١٣٥ .

(٣) أخرجه ابن عساكر عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٣٥١ .

(٤) أخرجه ابن عساكر عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٣٥١ .

(٥) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثنى حجاج عن أبى عبيدة الباجى عن الحسن » تفسير الطبرى ١٩ / ١٤٨ .

عن الحسن فى قوله « ولها عرش عظيم » قال : يعنى : سرير عظيم[1] .

﴿ قال الذى عنده علم من الكتاب ﴾[40]

عن الحسن قال : هو آصف بن برخيا بن مشعيا بن منكيل ، واسم أمه باطورا من بنى اسرائيل[2] .

﴿ قيل لها ادخلى الصرح ﴾[44]

قال الحسن البصرى : لما رأت العلجة الصرح عرفت والله أن قد رأت ملكاً أعظم من ملكها[3] .

﴿ بل أنتم قوم تفتنون ﴾[47]

عن الحسن فى قوله « تفتنون » قال : تصرفون عن دينكم[4] .

﴿ بل ادارك علمهم فى الآخرة ﴾[66]

عن الحسن أنه كان يقرأ « بل أدرك علمهم فى الأخرة » قال : اضمحل علمهم فى الدنيا حين عاينوا الآخرة[5] .

---

(١) أخرجه الطبرى بإسناده : « قال حدثنى حجاج عن أبى عبيدة الباجى عن الحسن » تفسير الطبرى ١٩ / ١٤٨ .

(٢) أخرجه ابن عساكر عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٣٦٠ .

(٣) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٣٦٥ .

(٤) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ١٨١ .

(٥) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٣٧٥ .

﴿ فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ﴾[69]

قال الحسن : كيف عذب الله قوم نوح وقوم لوط وقوم صالح والأمم التى عذب الله[1].

﴿ وما من غائبة فى السماء والأرض ﴾[75]

قال الحسن : الغائبة هنا يوم القيامة[2] .

﴿ أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ﴾[82]

عن الحسن أن موسى عليه السلام سأل ربه أن يريه الدابة ، فخرجت ثلاثة أيام ولياليهن تذهب فى السماء ولا يرى واحد من طرفها قال : فرأى منظراً فظيعاً فقال : رب ردها فردها[3] .

﴿ صنع الله الذى أتقن كل شىء ﴾[88]

عن الحسن قال : ألم تر إلى كل دابة كيف تبقى على نفسها[4] .

﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها .. ومن جاء بالسيئة فكبت ﴾[89 - 90]

عن الحسن قال : من جاء بلا إله إلا الله فله خير منها خيرا .[5]

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٣٧٥ .

(٢) ذكره الشوكانى فى فتح القدير ٤ / ١٥٠ .

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٣٧٨ - ٣٧٩ .

(٤) أخرجه عبد بن حميد فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٣٨٥ .

(٥) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثنا أبو سفيان عن معمر عن الحسن » تفسير الطبرى ٢٠ / ٢٣ .

عن الحسن فى قوله « ومن جاء بالسيئة » قال : الشرك .[1]

عن الحسن قال « من جاء بالحسنة » قال : لا إله إلا الله « ومن جاء بالسيئة » قال : الشرك[2]

عن الحسن فى قوله « من جاء بالحسنة فله خير منها » قال : فله خير منها يصل إليه وهو الثواب[3] .

عن الحسن أن النبى (ص) قال « ثمن الجنة لا إله إلا الله »[4] .

﴿ سيريكم آياته ﴾(٩٣)

قال الحسن : سيريكم آياته فى الآخرة فتعرفونها على ما قال فى الدنيا[5] .

تفسير سورة القصص

قال الحسن : هى مكية[6].

أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثنا أبو سفيان . معمر عن الحسن » تفسير الطبرى ٢٠ / ٢٣ .

- ولقد أورد هذا ابن كثير أيضاً فى تفسيره ٣ / ٣٧٨ .

(١) أخرجه عبد بن حميد فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٢٨٧ .

(٢) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ١٩٦ .

(٣) أخرجه عبد بن حميد عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٢٨٧ .

(٤) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ١٩٨ .

(٥) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ٢٠٠ ونسبه أيضاً إلى عطاء، وعكرمة .

﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ﴾[٥]

عن الحسن قال : قال عمر رضى الله عنه : إنى استعملت عمالا لقول الله « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض »[١] .

﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ﴾[١٠]

قال الحسن : فارغا من كل شىء من أمور الدنيا إلا من موسى[٢] .

قال الحسن : فارغا مما أوحى إليها من قوله « ولا تخافى ولا تحزنى » (٧ : القصص) وذلك لما سول الشيطان لها من غرقه وهلاكه[٣] .

قال الحسن : فارغا من وحينا بنسيانه[٤] .

﴿ عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ﴾[٢٢]

عن الحسن فى قوله « عسى ... » قال : الطريق المستقيم[٥] .

---

(١) أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن فراجعه فى الدر المنثور ٦ / ٣٩٢ .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣ / ٣٨١ ، وكذلك ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٣٩٥ وعزاه إلى عبد بن حميد .

(٣) ذكره الشوكانى فى فتح القدير ٤ / ١٦٠ وعزاه أيضاً إلى ابن إسحاق وابن زيد .

(٤) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ٢٠٤ ونسبه أيضاً إلى ابن زيد .

(٥) أخرجه الطبرى بإسناده هكذا : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا عبد الرحمن قال حدثنا عباد بن راشد عن الحسن » تفسير الطبرى ٢٠ / ٥٤ .
- كذلك أخرجه السيوطى بزيادة « فالتقى والله يومئذ خير أهل الأرض شعيب وموسى بن عمران » راجع الدر المنثور ٦ / ٤٠٣ حيث عزاه إلى ابن أبى حاتم .

﴿ فجاءته إحداهما تمشى على استحياء ﴾(٢٥)

سمعت الحسن يقول فى قوله « فجاءته إحداهما تمشى على استحياء » قال : بعيدة عن النداء[1] .

﴿ قالت إحداهما يا أبت استأجره ﴾(٢٦)

سمعت الحسن يقول : يقولون شعيب صاحب موسى ، ولكنه سيد أهل الماء يومئذ[2] .

قال الحسن : الذى استأجر موسى رجل من قوم شعيب[3] .

﴿ اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾(٣٢)

عن الحسن فى قوله « اسلك يدك .. » قال : فخرجت كأنها المصباح ، فأيقن موسى أنه لقى ربه[4] .

عن الحسن فى قوله « واضمم إليك جناحك » قال : يدك[5] .

---

(١) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا عبد الرحمن قال حدثنا سفيان قال حدثنا قرة بن خالد قال سمعت الحسن » تفسير الطبرى ٢٠ / ٦٠ .

(٢) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا ابن بشار قال حدثنا عبد الرحمن قال حدثنا قرة بن خالد قال سمعت الحسن » تفسير الطبرى ٢٠ / ٦٢ .

– كذلك أورد هذا الخبر السيوطى فى الدر المنثور ٦ / ٤٠٧ وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبى حاتم .

(٣) ذكره ابن الجوزى فى زاد المسير ٦ / ٢١٦ .

(٤) أخرجه الطبرى بإسناده : « حدثنا بشر قال حدثنا ابن المفضل قال حدثنا قرة بن خالد عن الحسن » تفسير الطبرى ٢٠ / ٧٢ .

(٥) أخرجه الطبرى بإسناده هكذا : « حدثنا بشر قال حدثنا ابن المفضل قال حدثنا قرة بن خالد عن الحسن » تفسير الطبرى ٢٠ / ٧٢ .

(يابني)

- ٣ -

قال الفاضل المقدسي [١] :

الحكم المقتبسة من الآية

نتعلم من هذه الآية الأمور الآتية :

١ ـ انه ينبغي للأب أن يدلي بالنصح لابنه ، ويحذره ممن يظن أنهم ربما يؤذونه ولو كانوا أقاربه .

٢ ـ انه يجب لذوي الفضل ان لا يتظاهروا بمفاخرهم وفضائلهم إذا خافوا من أهل الحسد شراً .

٣ ـ ان الاخوة ربما اتفقوا كلهم على إيذاء أخ واحد من بينهم فيجب للانسان أن يكون على حذر من كل الناس .

٤ ـ ان للشيطان سلطة على كل الناس حتى أولاد الأنبياء ، حاشا الأنبياء أنفسهم .

٥ ـ إن تعدد الزوجات ربما أثار عداءً ينتشر من الضرائر الى أولادهن .

٦ ـ ان أهل الفضل والنبل مُحَسَّدون من قديم الزمان .

٧ ـ ان الحسد قد يقع ممن هم في سن الشيوخ لمن هو في سن الفتيان الصغار ، لأن سن رأوبين مثلاً كان عند هذه الحادثة على أقل تقدير (٣٦) سنة ، وهكذا يقال في شمعون ولاوي ويهوذا وسواهم بما هو المناسب ، ولكن يوسف كان عمره على أكثر الروايات (١٧) سنة .

---

(١) نسبة الى بيت المقدس في فلسطين

(يابني)

- ٤ -

قال المحقق البلبيسي [١] :

خطاب الاستعطاف بين الأقرباء

خاطب يعقوب يوسف بذلك تحريكاً لسلسلة النسب وتذكيراً برابطة البنوة وإرشاداً لما على الابن من وجوب سماع نصيحة الأب ، ونظيره مافي قول لقمان لابنه : ﴿ يابُنيَّ لاتُشْرِكْ باللهِ ، إنَّ الشِركَ لظُلمٌ عظيمٌ ـ الى أن يقول ـ يابُنيَّ إنها إنْ تَكُ مِثقالَ حَبةٍ من خردلٍ فتكُنْ في صخرةٍ أو في السموات أو في الأرض يأت بها اللهُ ، إنَّ اللهَ لطيفٌ خبيرٌ ، يابُني أقِمْ الصلاةَ وأْمُرْ بالمعروفِ وانْهَ عن المنكر ، واصبِرْ على ماأصابَكَ ، إنذلكَ من عزمِ الأمور﴾ (٣١ : ١٣ - ١٧)

ثم مافي قول ابراهيم لولده الذبيح اسماعيل : ﴿ يابُنيَّ إني أرَى في المنامِ أني أذبَحُكَ ، فانظُرْ ماذا ترى ؟ قال يا أبَتِ افعَل ما تُؤْمر ، ستَجِدُني إن شاءَ اللهُ مِنَ الصابرين ﴾ (٣٧ : ١٠٢)

ثم مافي قول يعقوب لأولاده وهو في شرقيةمصر إذحضرته الوفاة: ﴿ يابُنيَّ إنَّ اللهَ اصطفى لكم الدِّينَ ، فلا تَمُوتُنَّ إلا وأنتم مُسلِمونَ ﴾ (٢ : ١٣٢)

ثم مافي قول إبراهيم لوالده آزَرَ : ﴿ يا أبتِ ، لِمَ تعبُدُ مالا يَسمعُ ولا يُبصِرُ ولا يُغني عنكَ شيئاً الخ ﴾ (١٩ : ٤٥) وبالعكس ماصدر من

---

(١) نسبة الى بلبيس من بلاد مصر

آزرَ لابنـــه إذ ﴿ قال : أراغبٌ أنتَ عن آلهتي يا إبراهيم ؟! لئِن لمْ تَنتَهِ لأرجُمَنّكَ .. واهجرني مليّاً ﴾ (١٩ : ٤٦) .

ثم ما في قول هرون وهو يخاطب أخاه ويستعطفه إذ ﴿ قال : أبنَ أمّ ، إنّ القومَ استَضعَفُوني وكادوا يقتلونَني،فلا تُشمِتْ بيَ الأعداءَ ، ولا تَجعلني مِن القومِ الظالمين ﴾ (٧ : ١٤٩) وبعكسه خطاب أخيـــه موسى له إذ ﴿ قال يا هرونُ ما مَنعكَ إذْ رأيتَهم ضلّوا أنْ لا تَتّبِعَنِ ، أفعصَيْتَ أمْري ؟ ﴾ (٢٠ : ٩٢ و ٩٣) ، فموسى خاطب أخاه باسمه الشخصي ، ولم يرد أن يخاطبه باسم « الأخ » مع إن هرون أكبر منه بأربع سنين ، لأنه متكدر منه أيمّا كدر ، وأما هرون فخاطب موسى بابنَ أمه ، ليذكره برابطة الأخوة ، ويحرك منه سلسلة انتسابه اليه ، كي يتحنن ويعطف عليه .

(لا تقصص)

- ١ -

قال الشمس التبريزي :(١)

بعض العداءات التاريخية التي تشبه عداء اخوة يوسف له

كأني بسيدنا يعقوب كان في تلك الساعة يمشط لحيته الشريفة بأصابعـــه ، ويفتكر في مصداق هذه الرؤيا وفخامتها وقد صار بين عاملين ، الأول ترك تحذير يوسف لئلا يكون ذلك حاملاً له على كرههم ، في الوقت الذي هو فيه خالي الذهن

(١) نسبة الى تبريز من بلاد فارس (ايران)

من كل كراهة ، والعامل الثـاني الرمز اليه بعداء إخوته له ليحذرهم ، ويتحفظ من غوائلهم ، والنصيحة من الإيمـان ، وبعد التفكير العميق فضّل الجري مـع العامل الثاني ، لا سيما وقد يكون يوسف عرف شيئاً من حسد إخوته له من قبل، فإن أباه كان أحبه أكثر من سائر بنيه ، لأنه ابن شيخوختـــه ، فصنع له قميصاً ملوناً ، فلمـا رأى إخوته أن أباه أحبه أكثر من جميــع إخوته أبغضوه ، ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام ، لا سيما وقد حَلِم حلماً وأخبر به إخوته ، فازدادوا بغضاً له ، وصاروا ينظرون اليه نظرات الحقـــد الموجدة ، ويسمونه مرة « الولد المغرور » ويدعونه مرة « صاحب الأحلام » يذكرون ذلك استهانة به على سبيل التهكم ، وكانوا يرقبونه ليوقعوا به ، وكم كان حكى معهم أبوهم ووعظهم بأنه فتى صغير لا ينبغي لإخوة مثلهم كبـــار أن يجمعوا كيدهم ، ويتفقوا على إغاظته ، ولكن ـ مع الأسف ـ لم ينجع فيهم كلامه ووعظه ، ولم يقع في نفوسهم :

إنمـا تنجح المقـــالة في المر ء إذا صادفت هوى في الفؤاد
وإذا الحلم لم يكن في طبـاع لم يُحَلِّمْ تقـــدمُ الميـــلاد

(ابو العلاء المعري)

وهذا ما حدا بأبيه أن ينصح له بجعل هذا المنام الثاني تحت طي الكتمان

ثم نحن نعلم من التاريخ :

١ ـ حادثة قابين[١] وهابيل ولدي آدم من حواء ، فهما رغماً عن كونهما أخوين شقيقين ، ابنى أول نبي على وجه الأرض ، (فيما هو المشهور وعلى رأي الجمهور) ، فقد قتل أولهما ثانيهما .

٢ ـ نعلم العداء والخلاف الذي ظهر من ابن نوح ومن امرأة نوح له عليـــه السلام ، فابنه كان عملاً غير صالح ، ولم يحفظ لأبيه حق الأبوة ، وامرأته كانت

(١) ويسميه البعض بقابيل

منافقة خائنة ، كما أن زوجة لوط كتلك نفاقاً وخيانة (٦٦ : ١٠) ولم يحفظا لزوجيهما حق الزوجية .

٣ ـ نعلم إن آزر كان العدو الألد لولده إبراهيم عليه السلام .

٤ ـ نعلم من التاريخ ما حدث من غيرة ساراي من هاجر وولدها إسماعيل حتى الجأت إبراهيم عليه السلام لنقلهما الى جزيرة الحجاز .

٥ ـ نعلم من التاريخ ماذا صار من عيسو مع أخيه يعقوب من العداء الشديد ، حتى هرب يعقوب من وجهه للعراق ، فهذه الحوادث وأشباهها تجعل عداء اخوة يوسف له ليس بالأمر الغريب .

والخلاصة ، إننا نعلم يقيناً ان يعقوب ويوسف عليهما السلام كتما أمر هذه الرؤيا بتاتاً ، وبعد ذلك فهل بلغ خبرها مسامع إخوته أم لا ؟ لنا أن نقول يحتمل أنه لم يبلغهم خبرها بالمرة ، وإنما كرهوه واجتووه وألقوه في غيابة الجب ، لداعي الحسد والغيرة من جراء محبة أبيه له أكثر منهم ، ويجوز أن يكون بلغهم خبر هذه الرؤيا من بعض الخدم الذين سمعوا المحاورة التي جرت بين وأبيه حينما قص عليه رؤياه ، سمعوا ذلك ، ولم يكن يعقوب ولا يوسف يشعران بوجود أحد من الخدم ، فحمل هذا الخادم خبر رؤيا يوسف لإخوته ، فزادوا له بغضاً على بغض .

(لا تقصص .. الخ)

ـ ٢ ـ

قال استاذنا سعيد الدمشقي العماري [١] :

وجوب اطاعة الابن للأب ـ الوصايا العشر في التوراة والقرآن

لجأ يوسف لأبيه ورجع اليه ليستطلع فكره ، ويعمل بما سيشير اليه ، فأوصاه

(١) نسبة الى حي العمارة في دمشق (سورية)

أن لا يطلع إخوته على رؤياه ، فصدع بأمر أبيه وعمل على إطاعته ، لأن إطاعة الابن للأب من أوكد الفرائض المقرونة بفرائض الله تعالى ، وقد جملت من الوصايا العشر التي جاءت في التوراة وهي : (لا يكن لك آلهة أخرى أمامي ، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ، صورة ما ، مما في السماء من فوق ، وما في الارض من أسفل ، وما في الماء من تحت الأرض ، لا تسجد لهنّ ، ولا تعبدهنّ ، لأني أنا الرب آلهك اله غيور ، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من الذين يبغضونني وأصنع إحساناً الى ألوف من محبيّ وحافظي وصاياي ، لا تنطق باسم الرب آلهك باطلاً ، لأن الرب لا يبرئ من نطق باسمه باطلاً ، احفظ يوم السبت لتقدسه.. أكرم أباك وأمك ، كما أوصاك الرب الهك لكي تطول أيامك ، ولكي يكون لك خير على الأرض التي يعطيك الرب الهك ، لا تقتل ، ولا تزن ، ولا تسرق ، ولا تشهد على قريبك شهادة زور ، ولا تشته امرأة قريبك ، ولا تشته بيت قريبك ولا حقله ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا كل ما لقريبك) (تث ٥:٧-٢١) وقريب منه ما في (خر ٢٠:٣-١٧) ونظيره عندنا الوصايا العشر المدرجة في قوله تعالى : ﴿ واعبُدوا اللهَ ولا تُشركوا به شيئاً ، وبالوالدينِ إحساناً ، وبذي القُربى واليتامى والمساكينِ ، والجارِ ذي القُربى ، والجارِ الجُنُبِ (١) والصاحبِ بالجَنْبِ ، وابنِ السبيلِ ، وما ملكت أيمانكم ، إنّ اللهَ لا يحب مَنْ كان مختالاً فخوراً ﴾ (٤ : ٣٥) والوصايا العشر المنتظمة في قوله تعالى: ﴿ وإذْ قال لقمانُ لابنِه (وهو يَعِظُه): يابُنيّ ، لا تُشرِكْ بالله ، إنّ الشِركَ لَظُلمٌ عظيم ، ووصّينا الإنسانَ بوالِدَيهِ ، حَمَلَتْهُ أُمُّه وَهْناً على وَهْنٍ ، وفِصالُهُ في عامَيْنِ : أنْ اشكُرْ لي ولوالِدَيْكَ ، اليّ المصيرُ ، وإنْ جاهَـداكَ على أنْ تُشرِكَ بي ، ما ليسَ لكَ به عِلمٌ ، فلا تُطِعْهُما ،

(١) وهو الجار الذي جاورك من قوم آخرين ، ليس من اهل الدار ولا من اهل النسب (اساس)

وصاحبهما في الدّنيا معروفاً ، واتّبع سبيل مَن أنابَ اليّ ، ثم اليّ مرجعكُم فأُنبئُكُم بما كنتم تعملون ، يا بُنيّ إنها إنْ تكُ مثقالَ حَبّةٍ من خردلٍ ، فتكن في صخرةٍ ، أو في السموات ، أو في الأرض ، يأتِ بها اللهُ ، إنّ اللهَ لطيفٌ خبيرٌ ، يا بُنيّ : أقمِ الصلاةَ وأمُرْ بالمعروفِ ، وانْهَ عن المُنكَرِ ، واصبرْ على ما أصابَكَ ، إنّ ذلك مِنَ عزْمِ الأمورِ ، ولا تُصعّرْ خدّكَ للناسِ ، ولا تمْشِ في الأرضِ مَرَحاً ، إنّ اللهَ لا يُحِب كلّ مختالٍ فخورٍ ، واقصِدْ في مَشيِكَ ، واغضُضْ من صوتِك ، إنّ أنكرَ الأصواتِ لصوتُ الحَميرِ ﴾ (٣١ : ١٣ - ١٩) .

(اخوتك)

- ١ -

قال الشهاب احمد من علماء سنغافورة [١] :

المتاوئون ليوسف من اخوته ـ التنافس بينهم

لو قال قائل : أراد من كلمة « اخوتك » الاخوة المتاوئين له المتألبين عليه الذين كان برأسهم شمعون ، فليس منهم بنيامين قطعاً كما هو واضح ، بل ولا رأوبين ولا يهوذا على الراجح ، ولكن يظهر انه أراد عموم الإخوة العشرة إجمالاً ، سداً لبــــاب الفساد بالمرة ، وطرداً للكلام على وتيرة واحدة ، لأن الوقت ليس وقت تفصيل ولا تشريح .

هذا واننا نعلم من التاريخ ، ومن قرائن الأحوال انه كان يوجد شيء من

(١) سنغافورة احدى مدن شبه جزيرة مالاقا في الهند الصينية .

التنافس والتناظر بين إخوة يوسف العشرة الكبار ، وانـه لم يكن بعضهم مخلصا لبعض ، كيف وليسوا كلهم من أم واحدة ، بل كان رأوبين وشمعون ولاوي ويهوذا ويساكر وزبولون من أمّ وهي « ليئة » ، وكان دان ونفتالى من أمّ اخرى هي « بلهة » وكان جاد واشير من أم ثالثة هي « زلفة » كما كان يوسف وبنيامين من أم هي « راحيل » ، فالعشرة الأولى الكبار لم يكونوا من أم واحدة ، ولم تكن ميولهم وعواطفهم واحدة ، وبالتالي لم يكونوا متفقي الكلمة ، ولم يكونوا يداً واحدة ، ولا على قلب واحد ، ولكن جرت العادة أن الأعداء يتصالحون إذا أصيبوا جميعاً بمصيبة نزلت على رؤوسهم ، وهؤلاء الإخوة العشرة اجتمعوا في مصيبة واحدة ، هي أن أباهم قد جعلهم في حبه إياهم في الدرجة الثانية ، وأحب يوسف وبنيامين في الدرجة الأولى ، فهذا ما جمع كلمتهم وألف نوعاً بينهم ، وجعلهم يشعرون بلزوم مصافاة بعضهم لبعض ، وذلك طبيعي في جسم العمران ، فالناس لا يزالون في خصام ونفار ، أو في تنافس وتناظر ، حتى يصيبهم سوء على السواء ويقعوا جميعاً تحت ردم واحد ، فتراهم قد تآلفت قلوبهم ، وأغضوا عن السوابق.

(فيكيدوا لك كيداً)

– ١ –

قال الشيخ مضيوف الحانوني (١) :

تعريف الكيد

أي يتكلمون معك بكلام حسن ، وهم في طيه يضمرون لك السوء ، ويفعلون

(١) نسبة الى بيت حانون من أعمال فلسطين .

ظاهراً الفعل الجميل ، وهم يرصدون لك الانتقام ، وهم أحرياء بذلك كله وأكثر:

فلو خبرتهم الجوزاء خبري لما طلعت مخافة أن تُكادا

« والكيد » بهذا المعنى من صفات العاجز الذي يحتال على عدوّ له قويّ لا يقدر على مصارحته بالبطش ، ولا مصارعته بالانتقام ، فيظهر له رفقاً ولين جانب ، وهو في خلال ذلك ينصب له حبائل الشر حتى يرتطم فيها ، وربما استعمل « الكيد » في الضرر والإيذاء ولو علناً ظاهراً .

وبالحقيقة إن عمل اخوته معه كان بحسب مبدئه سرياً تحت طي الكتمان ، ولكنه بحسب غايته صار جهرياً ، فوق رؤوس الأشهاد .

و « الكيد » في اللغة يكون مذموماً وممدوحاً ، وإن كان يستعمل في المذموم أكثر ، قال تعالى : ﴿ وأنّ اللهَ لا يَهْدي كَيْدَ الخائنينَ ﴾ (ع ٥٢) فخص الخائنين تنبيهاً على أنه قد يهدي كيد من لم يقصد بكيده خيانة ، وقال تعالى : ﴿ أمْ يُريدونَ كَيْداً ، فالذين كفروا هُمُ المَكيدُونَ ﴾ (٥٢ : ٤٢) وسميت الحرب كيداً ، لما فيها من الاحتيال والاجتهاد ، ومنه حديث ابن عمر : «ان رسول الله (ﷺ) غزا غزوة كذا ، فرجع ولم يلق كيداً » أي حرباً ، سميت بذلك لما فيها من الختل والخديعة ، قال أبو العلاء المعري:

إذا رام كيداً بالصلاة مقيمها فتاركها عمداً الى الله أقرب

(ان الشيطان .. الخ)

- ١ -

قال الدراكة الدمشقي[1] :

الشيطان عالم غيبي ضار بالانسان

عداوة الشيطان للانسان قديمة العهد ، فقد كانت منذ الانسان الأول ، كما قال تعالى : ﴿ فَقُلْنا يا آدمُ إنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ ولِزَوْجِكَ ﴾ (٢٠ : ١١٧) فلا يألوا الشيطان جهداً في مناصبته للانسان . وحمله على ما لا خير له فيه ، بل على ما فيه ضرر الانسان ، يأتيه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله .

وقد ثبت في وحي الله تعالى الى رسله أن في عالم الغيب خَلْقاً اسمه«الشيطان» أرغمَ اللهُ أنْفَهُ ، لا تدركه حواسنا ، له أثر في أنفسنا ، فهو يتصل بها ويقوي داعية الشر فيها بما سماه الوحي « وسواساً ونَزْغاً ومسّاً وتجربةً » ، ونحن نجد أثر ذلك في أنفسنا وإن لم ندرك مصدره ، وما أشبه هذه الشياطين الخفية في الارواح بتأثير النسم الخفية المادية — المسماة بالجراثيم (الميكروبات) — في الأجساد ، فقد مرت القرون التي لا يحصيها إلا ربُّ العالمين ، والناس يجهلون هذه النسم الخفية ، ويجهلون فعلها ، لعجز الأبصار عن إدراكها بنفسها ، وعن رؤية فعلها ، لدقتها وتناهيها في اللطف والصغر ، الى أن اخترعت في هذا العصر المجاهر والنظارات المكبرة التي تريك الجسم أضعاف أضعاف جرمه ، فبها رؤيت ، وعلم ما

---

(١) نسبة الى دمشق من بلاد الشام (سورية) .

يحدث بسببها ـ في المواد السائلة والرخوة وكل ذات رطوبة ـ من التحول والتغير ، كالاختمار والفساد وغيرهما ، ومن الأمراض المُعْدية في الانسان والحيوان .

وحكمة إخبار الله تعالى إيانا على ألسنة رسله عليهم السلام بهذا العـــالم الغيبي المعادي لنا الضار بأرواحنا كضرر نسيم الأمراض بأجسادنا ـ أنْ نراقب أفكارنا وخواطرنا ولا نغفل عنهـا ، كما نراقب ما يحدث في أجسادنا من تغير في المزاج ، وخروج الصحة عن الاعتدال ، فنبادر الى علاجه ، فمتى فطنّا بميل من أنفسنا الى الشر أو الباطل عالجناه بالالتجاء الى الله سبحانه وتعالى .

(ان الشيطان .. الخ)

ـ ٢ ـ

قال السيد البصري [١] :

اطلاق لفظ الشيطان على العدو وبعض الأشخاص والجن والانس

المتبادر ان « الشيطان » ههنا بالمعنى المشهور المعروف ، وهو إبليس وأعوانه ، وقد يكون لفظ « الشيطان » ههنا عبارة عن أحد الأعداء ، وإطلاق الشيطان على العدو معهود وكثير في كتب الدين وإليك بعض الشواهد :

(١) ـ قال تعـــالى : ﴿ وكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شياطِينَ الإنْسِ والجِنِّ ﴾ (٦ : ١١٢) .

(٢) قال تعالى : ﴿ وإذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشيطانُ أعْمالَهُمْ ،وقال : لاغالِبَ لكم

---

(١) نسبة الى بلدة البصرة من القطر العراقي

اليومَ مِنَ الناسِ ، وإني جارٌ لكم ، فلما تراءت الفئتانِ نكصَ على عقبيهِ ، وقال : إنيَ بريءٌ منكُمْ ، إني أرى ما لا ترونَ ، إني أخافُ اللهَ ، واللهُ شديدُ العقاب ﴾ (٨ : ٤٩) فالشيطان ههنا قال فريق إنه « سُراقة » بن مالك الكناني الذي كان من أشرافهم .

(٣) ـ قال تعالى: ﴿ وإذا لقُوا الذينَ آمنوا قالوا : آمنّا ، وإذا خلَوْا الى شياطينِهم قالوا : إنّا معَكم ، إنما نحن مستهزِئون﴾ (٢ : ١٤) فشياطينهم هم الذين ماثلوا الشياطين في تمردهم من رؤساء العرب و كبرائهم .

(٤) قال تعالى : ﴿ ويُريد الشيطانُ أنْ يُضلَّهم ضَلالاً بعيداً ﴾ (٤ : ٥٩) قيل هو « كعب » بن الأشرف ، كما اطلق عليه طاغوت في قوله تعالى: ﴿ ألمْ ترَ الى الذينَ يزعُمون أنهم آمنوا بما أُنزِلَ اليك ، وما أُنزِلَ مِنْ قبلِكَ ، يُريدون أنْ يتحاكموا الى الطاغوتِ ، وقد أُمِروا أن يكفُروا به !!﴾ (٤ : ٥٩) ، قيل إن هذا الطاغوت هو كعب بن الاشرف .

(٥) قال تعالى: ﴿ الذي يُوسوِسُ في صدورِ الناسِ ، من الجِنّةِ والناس﴾ (١١٤ . ٥ و ٦) فقوله من ﴿ الجِنّةِ والناسِ ﴾ بيان للذي يوسوس ، أو بيان للوسواس الخناس ، فالموسوس قسمان : قسم الجن وقسم الناس ، ولا ريب إنه يطلق على كل منهما إذا وسوسا شيطانٌ » .

(٦) قوله ﷺ: « المسافرُ شيطانٌ والمسافران شيطانان ، والثلاثة ركبٌ ».

(٧) قال (ﷺ) : « إنَّ الابلَ مخلوقةٌ من الشياطين » [١] هذا ما تيسر

(١) رواه سعيد بن منصور في سننه بلفظ : « خلقت » وبزيادة : « وان وراء كل بعير شيطاناً » وهو ضعيف كما رمز له السيوطي لانه من رواية خالد بن معدان مرفوعاً فهو منقطع مرسل لان خالداً هذا تابعي .

للعبد الحقير أن يمليه على أسماعكم – ايهـــا السادة – فتأملوه فإني مستعد لإصلاح ما عسى أن يكون فيه . وسلفاً أشكركم .

(ان الشيطان . الخ)

– ٣ –

وقال العلامة الخليلي [١] :

الشيطان قوة غضبية او قوة ذميمة في الانسان

لقد ذهب « الغزالي » الى أن الشيطان القوة الغضبيـة التي في الإنسان ، وقال الراغب :« كل قوة ذميمة للانسان شيطان » ، ومنه قولهم :« ركب شيطانَه » إذا غضب ، « ونَزَغَ شيطانَه » أي كِبْرَه ، أو الشيطان كما قاله الجمهور : « هو من العوامل الخفية ، التي لا تحس » فعلى مـا قاله الغزالي والراغب ، هو من قبيـــل الداعية الداخليـة ، وعلى ما قاله الجمهور ، يكون الشيطان داعية خارجيـــة ، وهو الظاهر .

وقد ورد النهي عن خروج الصبيان في الليل ، لأنه وقت انتشار الشياطين ، فالشياطين هنا الأشرار من الناس ،الخبيثون من أهل الوسواس، وذلك كشياطين الأزبكية بمصر ، وشياطين شارع بغداد في دمشق وشياطين شـارع الرشيد في بغداد .. الخ ، فهؤلاء ينتشرون من بعـد الغروب وقبيل الغروب ، يفسد بعضهم بعضاً ، فنحث من يهمهم تربيـة أولادهم ، على منعهم من الخروج ، لئلا يفسدهم هؤلاء الشياطين .

(١) نسبة الى خليل الرحمن من بلاد فلسطين .

وأما عداء الشيطان المبين للانسان ، فلا يتعدى الإغراء والوسوسة ، وليس للشيطان من سلطان ، على الانسان بغير ذلك ، وتوضيح المقام يحتاج الى بسط في الكلام ، فمن كان له أذنان للسمع فليسمع :

أتى الاسلام ، والناس جميعاً ، واهمون في مسألة تأثير الشياطين ، ورسخ في عقول الامم كافة ، أن الأرواح الخبيثة ، مسلطة على الانسان بالاذى ، فإذا رأو مفلوجاً أو مشلولا أو مجنوناً أو أبكم أو أصم ، أو مصاباً بأي مرض آخر — نسبوا ذلك للشياطين ، فلذلك امتلأت قلوبهم رعباً منها ، وخافوا من الاماكن القديمة ، أو الخالية ، أو المظلمة ، أو من كب شيء على الأرض ، أو من دخول محال التغوط ، الى غير ذلك من الأوهام ، التي لا يزال أثرها في النساء ، خصوصاً نساء أهل مصر الى اليوم ، ويا ليت الأمر كان قاصراً على ما ذكر ، بل ظهرت نتيجة ذلك في أعمالهم ، وكانت سبباً في ضررهم ، ضرراً بليغاً ، فاذا أصيب أحدهم بمرض ما ، تداووا بالطلاسم ، وإيقاد البخور ، أو زيارة بعض القبور ، أو تعليق أوراق ، أو الاستنجاد براق ، حتى يتمكن الداء وتستفحل العلة ، فلا يقوى الطبيب على استئصالها ، أو ايقاف سيرها ، ويموت الشخص ضحية الجهل والوهم ، هذا كان شأن الأمم ، في هذه المسألة ، وهذه كانت أفكارهم ، وكانت الأديان تأتيهم ، ولا تزيل عنهم هذه الخزعبلات ، المميتة للنفوس والأجسام بل ينسب الى رجال بعض الأديان ، أنهم اعترفوا بها ، وأيدوها تأييداً ، وأنهم نصوا على صحتها صريحاً ، فتجد أن كل صحيفة من كتبهم ، التي كتبوها كما يشاؤون وحسبما هو شائع في تلك العصور ، تدل على ان الشياطين ، هي علة هذه الأمراض، كالصرع وأنواع الشلل ، والبكم والصمم ، وأنواع الجنون والعتاهة ، وغير ذلك ، مما عرفت أسباب أكثره العلوم الطبية الحديثة ، وما لم تعرفه قامته على غيره ،

لوجود التشابه العظيم بينهما ، والشفاء بعضه باستعمال العلاجات المادية المحضة ، كالمواد الكيماوية ونحوها ،

أتى الإسلام والناس على تلك الحالة التوهمية ، فلم يشأ أن يتركهم وشأنهم ، يخبطون خبط العشواء ، في الليلة الدهماء ، بل أصلح هذه المسألة، كما أصلح غيرها، مما يميت النفس والجسم معـــاً ، صغيراً كان أو كبيراً ، وذلك بالإفصاح أن ليس للشيطان ، سبيل على الانسان ، إلا بالإغراء والوسوسة فقط ، قال تعالى حكايةعن الشيطان ﴿ وما كانَ لي عليكم مِنْ سُلطانٍ،إلاّ أنْ دَعَوْتكُمْ،فاستجبتُم لي ، فلا تلوموني ، ولوموا أنفُسَكم ﴾ (١٤ : ٢٢) وقال تعالى في خطابه للشيطان: ﴿ إنّ عبادي ليسَ لكَ عليهم سُلطانٌ ، إلاّ مَن اتبَعَكَ مِنَ الغاوين ﴾ (١٥ : ٤٢) الى غير ذلك من الآيات القرآنية ، التي تحصر سلطته في الوسوسة ، وتنفي عنه كل ما عداها ، وأما ماورد من قوله تعالى في حق المرابين:﴿ لا يقومون الا كما يقومُ الذي يَتَخَبَّطُهُ الشيطانُ مِنَ المَسّ ﴾ (٢:٢٧٥)فهو على سبيل التمثيل والتشنيع ، الذي ورد مثله في كل لغة ، مهما كان اعتقاد قائله ، فهو على حد قوله تعالى في مقام آخر : ﴿ طَلْعُها كأنّه رؤوسُ الشياطين ﴾ (٣٧ : ٣٥) ، وتلك عبارة واحدة ، لم يَرد غيرها ، فليطالع القارىء « العهد العتيق » بل ليطالع « العهد الجديد » ، ليعلم الفرق بين ذينك الكتابين ، وبين القرآن المجيد .

بمثل هذه الحقائق التي قررها القرآن ، صار المسلم الحق ، لا يعبأ بالشيطان ، ولا يخشى منه أذى أو ضرراً ، إلا ما كان دعوة لشهوة أو نحوها ، مما يجب عليه فيه الاحتراس ، فلذلك إذا أصابه مرض ما ، لا يستشفي بقديس أو قسيس ، كما يفعل غيره ، بل يطالب الطب والدواء ، ويأتي البيوتَ من أبوابها ، فأعظِمْ بدين

الاسلام من دين ، لم يذكر مما يُعتَقَدُ الا أرجحه ، وأكبر بالقرآن من كتاب ، لم يهمل شيئاً فاسداً إلا أصلحه :

الله أكبر إن دين محمد
وكتابه أقوى وأقوم قيلا

لا تذكروا الكتب السوالف عنده
طلع الصباح فأطفأ القنديلا

وهنا أتذكر ، والشيء بالشيء يذكر ، أن المبشر موسى القبطي ، قال لي : إنه ورد عن نبيكم في بعض الأحاديث الصحيحة مامعناه : « أن ليس للشيطان على المسيح من سبيل ، حتى ولا بالنخس » ـ فقلت له : هذا صحيح ، ولكنه ورد لاجل الرد على من يقول منكم : إن الشيطان كان له سلطة على المسيح أن يُصعِدَهُ الى البريّة ليجرّب ، ثم يأخذه الى المدينة المقدسة ، ويوقِفَهُ على جناح الهيكل ، ثم يأخذه الى جبل عال (مت ٤ : ١ ـ ١٢) . فلاجل المحاماة عن شرف السيد المسيح ، عليه السلام ، ورد في حقه ذلك القول ، على انه لا خصوصية للسيد المسيح في ذلك ، فقد ورد مثله في حق بعض صحابة نبينا ﷺ ، وذلك ماروواه الطبراني في الكبير وهو قوله عليه الصلاة والسلام : « ان الشيطان لم يلق عمر منذ اسلم الا خر لوجهه » « وعن سعد بن ابي وقاص (رض) قال رسول الله ﷺ لعمر : والذي نفسي بيده مالقيك الشيطان قط سالكا فجاً إلا سلك فجاً غير فجك »[١] .

---

(١) من سيرة عمر بن الخطاب (رض) لابن الجوزي

(ان الشيطان ... الخ)

- ٤ -

قال الشيخ الموصلي :

معاهدة سيلان

نعلم من هذا ان للشيطان سلطاناً على هؤلاء الإخوة ، وبالتالي والنتيجة نعلم منه انهم ليسوا بأنبياء ، وقد قص الله تعالى علينا صورة « معاهدة سيلان » عاصمة آدم التي أجريت فيها تلك المعاهدة العتيقة بين المندوب السامي عن الله تعالى وهو بعضُ ملائكته من جهة ، وبين إبليس أرغم الله أنفه ، من جهة أخرى ، وهي كما يلي :

المادة الاولى ـ إعطاء إبليس سلطة واسعة وكبيرة جداً ، وهي سلطانه العظيم على جمهور الناس ، والدليل على هذه المادة قوله تعالى: ﴿ قال : أرأيتَكَ هذا الذي كرَّمْتَ عليَّ ؟ لإن أخَّرتَنِ الى يومِ القيمةِ لأحتنِكنَّ ذُريتَهُ إلاَّ قليلاً ـ قالَ: اذهب فمن تبِعكَ منهم فانَّ جهنَّمَ جزاؤُكم جزاءً موفوراً واستفزِزْ مَنْ استطعتَ منهم بصوتِكَ ، وأجلِبْ عليهمْ بخيلِكَ ورَجِلِكَ ، وشارِكْهمْ في الأموالِ والأولادِ وعِدْهم ، وما يَعِدُهُمْ الشيطانُ إلاَّ غروراً ﴾ (١٧ : ٦٢ ـ ٦٤)

المادة الثانية ـ عدم سلطة إبليس على عباد الله الصالحين ، أي عدم نفاذها لقلوبهم وعدم تأثيرها فيهم ، والدليل على هذه المادة قوله تعالى: ﴿ كذلكَ لنصْرِفَ عنهُ السوءَ والفحشاءَ إنّهُ مِنْ عبادِنا المُخلَصينَ ﴾ (١٢ : ٢٤) وقوله: ﴿ إلاَّ

عبادَكَ منهم المُخلَصينَ ، قال هذا صراطٌ عليَّ مُستَقيمٌ ، إنَّ عبادِي ليس لكَ عليهمْ سلطانٌ ، إلاّ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الغاوينَ ﴾ (١٥ : ٤٠ - ٤٢) وقوله : ﴿ إنَّ عبادي ليسَ لكَ عليهم سلطانٌ ، وكفى بربِّكَ وكيلا ﴾ (١٧ : ٦٥)

المادة الثالثة ـ إجابة طلب إبليس الإنظار الى يوم القيامة، والدليل على هذه المادة قوله تعالى : ﴿ قالَ :ربِّ فأنظِرْني الى يَوْمِ يُبْعَثونَ ، ـ قالَ فإنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ الى يومِ الوقتِ المعلومِ ﴾ (١٥ : ٣٦ - ٣٨) و (٣٨: ٧٩ - ٨١)

المادة الرابعة ـ أن يبقى إبليس ملعوناً الى يوم القيمة ، والدليل على هذه المادة قوله تعالى :﴿ وإن عليك اللعنةَ الى يومِ الدِّين ﴾ (١٥ : ٣٥) وفي آية اخرى: ﴿ وإنَّ عليكَ لَعنَتي الى يوم الدين ﴾ (٣٨ : ٧٨)

المادة الخامسة ـ هذه المعاهدة معمول بها وموضوعة موضع الإجراء الى آخر الدوران .

المادة السادسة ـ تسمية هذه المعاهدة « معاهدة سيلان » لأن في « سيلان » عاصمة آدم ، جرى هذا الاتفاق .

توقيع الفريق الأول	توقيع الفريق الثاني
« المَلَك »	« إبليس »

(رجع وانعطاف

سلطان الشيطان على اخوة يوسف

فلهذا ولكون إخوة يوسف ليسوا بأنبياء كما حققه أخونا العلامة سليم الخانيوتي في الفصل الثاني من المقدمة ـ كان للشيطان عليهم سلطان وتأثير ،

فصدر منهم الحسد والحيلة والخدعة وخلف الوعد والكذب والهم بقتل أخيهم أو طرحه أرضاً ، ثم إعطاء القرار النهائي بإلقائه في غياهب الجب كي يلتقطه بعض التجار المسافرين ، فيكون بعيداً عن وجه أبيه ، وأضف الى ذلك قطع الرحم وعقوق الوالد وظلم الأخ البريء بلا موجب من جانبه ، وكل هذه المنكرات منهي عنها نهياً جازماً ، محظورة مخالفة للشريعة .

نعم لا ننسى أن الله تعالى قال: ﴿ لكلٍ جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً ﴾ (٥ : ٥١) . وليس كل ممنوع في الشريعة المحمدية يجب أن يكون ممنوعاً في الشرائع السالفة ، لكن هذه المحظورات هي ممنوعة ومحرمة في كل شريعة وملة ، عند سائر أهل الأديان ، من لدن آدم الى خاتم الأنبياء ، فهي من الشرائع العامة التي أجمعت عليها الكتب والرسل ، هي من الشرائع الكلية التي لا يعتريها نسخ ولا تبديل ولا تحوير ، ولا هوادة ، لأن النسخ إنما يكون في الأعمال الفرعية ، أما الأخلاق الفاضلة والآداب الحميدة فلا يعتريها نسخ ما ، كالعقائد الأصولية ، والأقاصيص التاريخية فلا يدخل شيئاً من ذلك نسخ ولا تحوير ، فالأخلاق المذمومة محرمة في كل دين، كما أن الأخلاق الفاضلة والأدبيات واجبة في كل ملة .

سعادة الدين تكون باقامته

وبالنتيجة: فلتلك الأعمال السيئة على اختلاف أنواعها التي عملتها إخوة يوسف الصديق لم يستأهلوا أن يكونوا أنبياء ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ (٦ : ١٢٤) بل ولا نقدر أن نقول : إنهم كانوا قبل توبتهم أتقياء ، مع أن البيت بيت نبوة فأخوهم نبي، وأبوهم نبي وجدهم الأقرب نبي وأخوه نبي وجدهم الأعلى نبي، وابن أخيه نبي ، ولكن هم لم يكونوا أنبياء ، لأنهم بأعمالهم ومسلكهم وأخلاقهم لم يكونوا أهلاً لهذه المنحة الجليلة

العظمى ، بل الأمر أعظم من ذلك ، وهو أن سعادة الدين لا تحصل إلا باقامته ، كما قال تعالى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقَ بني إسرائيلَ : لا تعبُدون إلا اللهَ ، وبالوالدين إحساناً ، وذي القُربى واليتامى والمساكينِ وقولوا للناس حُسْناً ، وأقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ ، ثم تولَّيتُمْ إلا قليلاً منكم ، وأنتم مُعرِضون ، وإذْ أخذنا ميثاقكم ، لا تَسفِكُون دماءَكم ، ولا تُخرِجون أنفسَكم من ديارِكم ، ثمَّ أقررتُم وأنتم تَشهَدون ، ثم أنتم هؤلاءِ تَقتُلون أنفسَكُم ، وتُخرِجون فريقاً منكم من ديارِهم ، تَظاهَرون عليهم بالإثمِ والعُدوانِ ـ وإنْ يأتوكم أُسارى تُفادوهم ـ وهو مُحرَّمٌ عليكم إخراجُهم ، أفتؤمِنُون ببعضِ الكتابِ وتكفُرون ببعضٍ ، فما جزاءُ مَنْ يفعلُ ذلك منكم إلا خِزْيٌ في الحياةِ الدنيا ، ويومَ القيامةِ يُرَدُّونَ الى أشدِ العذاب ، وما اللهُ بغافلٍ عما تعملون ، اولئك الذين اشتَرَوُا الحياةَ الدنيا بالآخرةِ ، فلا يُخفَّفُ عنهم العذابُ ، ولا هم يُنصَرون ﴾ (٢ : ٨٣ — ٨٦) ، فاخوة يوسف لم يعملوا مع أبيهم إحساناً ، ولا مع ذي قرباهم وهو أخوهم ، ولا مع اليتيم من الأم ، ولم يقولوا لأخيهم حسناً ، ثم تفاوضوا في قتله وأخيراً أخرجوه من دياره ، وتظاهروا عليه بالإثم والعدوان ، وهو محرم عليهم إخراجه .. فانّا .. وانّا .. ولا .. ولا .

سعادة الدين يا هذا إنما تحصل باقامته ، فإذا لم يقمه الإنسان لم يكن سعيداً به ، فكيف يجوز للذي لم يقمه أن يكون نبياً ؟!! ولعمري لولا أن إخوة يوسف قد لطف الله بهم بأن وفقوا للتوبة لكانت عاقبتهم من أردأ العواقب ، ولكن الله سلم ، هذا ما تيسر لنا ههنا والسلام عليكم .

أصوات من الجميع : لا فض فوك ، لا فض فوك .

غير أن استاذاً واحداً من أعضاء المؤتمر ، وهو الشيخ البغدادي[١] ، قام وصعد على المنبر وقال :

انتقاد عقد معاهدة سيلان والرد عليه

إخواني : إني انتقد على الأخ الشيخ الموصلي ، حفظه الله أموراً :

أولها — تصوره انعقاد معاهدة بين إبليس وبين المَلَك المندوب عن الله ، لأن محصل هذا وخلاصته أن معاهدة عقدت بين إبليس وبين الله ، ولا يخفى ما في هذا من توقير لإبليس وعدم احترام لجانب الله تعالى .

ثانيها — تعبيره « بالمندوب » الذي لم يرد استعماله في لسان الشرع ، دون التعبير الوارد في اللسان الشرعي ؟ وهو كلمة « رسول » بدلاً من مندوب .

ثالثها — قول الأخ الموصلي إن الله أعطى إبليس سلطة واسعة وسلطاناً عظيماً على جمهور الناس ، وأما أنا فلا أظن شيئاً من ذلك سوى أن الله ترك إبليس وشأنه يعمل ما يشاء مع غير عباد الله المخلصين ، فحكمه حكم باقي المخلوقات ، الذين أعطاهم الله جزءاً اختيارياً ، وحرية في العمل ضمن نفوذ مشيئة الله تعالى ، هذا ما عرض لي أن ألاحظ به على الأخ .

قال ذلك ونزل عن المنبر ، فعاد اليه الشيخ الموصلي يدافع عن نفسه قائلاً :

سادتي : أرى أخي وصديقي الشيخ البغدادي ، لاحظ عليّ ثلاثة أمور ، وإني أريد أن أجيب عنها واحداً بعد واحد :

فأما الجواب عن الانتقاد الأول : فهو أن الله تعالى عمل معاهدة مع اليهود

---

(١) نسبة الى بغداد عاصمة العراق .

كما جاء في القرآن الكريم على لسانهم : ﴿ إنَّ اللهَ عَهِدَ الينا : أنْ لا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حتى يأتينا بقُربانٍ تأكلُهُ النارُ الخ ﴾ (٣ : ١٨٢) والنبي (ﷺ) عاهد اليهود وعاهدوه ، كما قال الله في كتابه العزيز : ﴿ أوَ كلّما عاهَدوا عَهْداً نَبَذَهُ فريقٌ منهم ؟ بل أكثرهُمْ لا يؤمنون ﴾ (٢ : ١٠٠) ، ووقعت المعاهدة بين النبي (ﷺ) والمشركين كما نعلمه من قوله : ﴿ إلا الذينَ عاهدتُمْ مِنَ المُشرِكِينَ ﴾ (٩ : ٥) ، ولا ريب أن مآل المعاهدة بين النبي واليهود وبين اليهود والمشركين أن تكون هذه المعاهدة بين من ذكروا وبين الله تعالى ، ذلك لأن النبي سفير عن الله ، كما أن المَلَك الذي سميناه «مندوباً» هو سفير عن الله فكما جاز هذا التعبير فليجز تعبيرنا .

وأما الجواب عن الانتقاد الثاني : فلسان الشرع لا يمنع تسمية المَلَك المرسل من قبل الله ، « مندوباً سامياً » لأن العلماء لم ينصوا على أن اسماء الملائكة توقيفية وإنما التوقيفية هي أسماء الله تعالى وصفاته ، والذي حدا بي الى هذا التعبير بهذا الاسم ، هو سرعة فهم المراد منه عند القراء من أهل العصر الحاضر .

وأما الجواب عن الانتقاد الثالث : فهو أن الله تعالى ذكر تلك المحاورة في عدة مواضع من كتابه الكريم ، فمنها آية : ﴿ قال ربِّ فأنظِرْني الى يوم يُبْعَثونَ ، قال فإنَّكَ مِنَ المُنْظَرِين ، الى يومِ الوقتِ المعلومِ ، قال ربِّ بما أغويتَني لأُزَيِّنَنَّ لهم في الأرض ، ولأُغوِيَنَّهُمْ أجمعينَ ، إلا عبادَكَ منهم المُخلَصين ، قال هذا صراطٌ عليَّ مستقيمٌ : إنَّ عبادي ليسَ لكَ عليهم سلطانٌ ، إلا مَن اتبعَكَ مِنَ الغاوين ، وإنَّ جهنَّمَ لمَوعِدُهُمْ أجمعينَ ﴾ (١٥ : ٣٧ — ٤٣) .

فأثبت هنا أن لإبليس سلطاناً على الغاوين ، كما قال في آية اخرى : ﴿ إنه ليسَ له سلطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربِّهِمْ يتوكلون ، إنما سلطانُهُ على الذين يتولَّوْنَهُ ،

والذينَ هم بهِ مُشرِكون ﴾ (١٦ : ٩٩ و ١٠٠) ، ومنها آية ﴿قال ربِ فأنظِرْني الى يوم يُبعثون ، ــ قال فإنكَ من المُنظَرين ، إلى يوم الوقتِ المعلوم ــ قال فبعِزّتِكَ لأُغوِيَنَّهُم أجمعينَ ، إلاّ عبادَكَ منهم المُخلَصين ، ــ قال فالحقُّ والحقَّ أقولُ لأملأنَّ جهنمَ منكَ وممَّنْ تبِعَكَ منهم أجمعين ﴾ (٣٨ : ٧٩ ــ ٨٥) وغيرخافٍ أن هذه الآيات الكريمة تفيد أن الله تعالى سلط إبليس على الناس. قال في القاموس : والتسليط التغليب وإطلاق القهر والقدرة . وهذا المقدار ، جائز على الله ومن الله كما قال تعالى : ﴿ ولو شاءَ اللهُ ، لَسَلَّطَهم عليكم فلقاتَلوكُم ﴾ (٤ : ٩٤) أي لو أراد الله تعالى لسلط هؤلاء القوم المشركين على المؤمنين ، فاذا كان يجوز على الله ومن الله ، أن يسلط بعض المشركين على المؤمنين ليقاتلوهم ، جاز عليه ان يسلط ابليس على الناس ، والله تعالى اعلم .

آمال يعقوب في يوسف

آ(٦) « وكذلكَ يَجتَبيكَ ربُّكَ ، ويُعلِّمُكَ مِنْ تأويلِ الأحاديثِ ، ويُتِمُّ نِعمتَهُ عليكَ وعلى آلِ يعقوبَ ، كما أتمَّها على أبويْكَ من قبلُ إبراهيمَ وإسحقَ ، إنَّ ربَّكَ عليمٌ حكيمٌ » .

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة فقام السيد النجفي [١] وقال :

(وكذلك) أي ومثل ذلك الاجتباء (يجتبيك ربك) يعني كما اجتباك لمثل

(١) نسبة الى النجف الاشرف من بلاد العراق .

هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وعلو شأن ، كذلك يجتبيك ربك لأمور عظام ، والاجتباء الاصطفاء ، من جبيت الشيء إذا حصلته لنفسك ، وجبيت الماء في الحوض ، جمعته ، (ويعلمك من تأويل الأحاديث) وهي الرؤى ، لأن الرؤيا إما حديث نفس أو ملك أو شيطان ، وتأويلها عبارتها وتفسيرها ، وكان يوسف أعبر الناس للرؤيا وأصحهم عبارة لها ، ويجوز أن يراد بتأويل الأحاديث معاني كتب الله وسنن الأنبياء وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها ، يفسرها لهم ويشرحها ، ويدلهم على مودعات حكمها ، وسميت أحاديث ، لأنه يحدث بها على الله ورسله ، فيقال قال الله وقال الرسول كذا وكذا ، ألا ترى الى قوله تعالى: ﴿فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ (٧ : ١٨٤) وقوله : ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ (٣٩ : ٢٣) فلفظ « أحاديث » مرن ، يسمك أن تضيقه وأن توسعه ، وهو اسم جمع للحديث ، (ويتم نعمته عليك) بالترقي في الدرجات الدنيوية ، كمصيره وزير مالية وعزيزاً بمصر ووكيلاً عن مليكها الريان وإحرازه لقب صديق ، وفي أمور الآخرة كمصيره نبياً ورسولاً (وعلى آل) ذرية (يعقوب) وسلالته بأن جعل منهم أنبياء وملوكاً (كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق) فكان إبراهيم نبياً ورسولاً وخليلاً وأميراً ، وكان ولده إسحق نبياً ورسولاً ، (إن ربك عليم) يعلم من يحق له الاجتباء (حكيم) لا يتم نعمته إلا على من يستحقها .

هذا ما أظهره لك ودع ما أضمره والله على كل شيء قدير ..

وكذلك . . الخ

– ١ –

قال السيد الكربلائي:

بشارة يعقوب ليوسف بثلاث الاجتباء والتعليم واتمام النعمة

أخذ يعقوب يعد ولده ويبشره بالسعادة الكبرى المستقبلة فقال ما معناه الروحي: إن الأمر لأعظم مما تفيده رؤياك ياولدي ، فإني على مثل اليقين أنك لا تلبث إلا قليلا ، حتى ترى في مستقبلك ثلاثة أمور عظمى : الاجتباء والتعليم وإتمام النعمة ، فانتظر ما سيجيء به الغد ، ورؤياك التي ذكرتها لي هي عربون من الله على صحة وتحقيق ما قلته لك ، وبشرتك به الآن ، وإني أرى مستقبلك أمامي رأي العين ، فلا بد أن يقع ذلك ، إن عاجلاً وإن آجلاً ، وليست المسألة مسألة تعيين لك مني أو من غيري من المخلوقين ، ولكنها مسألة انتخاب لك من رب العالمين ، انتخبك الله لهذه الأمور الثلاث ، من بين إخوتك وسائر أنسبائك .

★ ★ ★

إن تصورات يعقوب في أحوال يوسف المستقبلة هي من نوع أو قريبة من رؤيا يوسف نفسه ، نعم إن مرمى بشارة يوسف المنامية مختلف بالشخص مع مرمى بشارة يعقوب اليقظية ، ولكن النوع واحد ، وهو الحصول على رقي تام وامتيازات تامه ، وبالنتيجة فبشارتاهما ترميان لشيء واحد هو علو مكانة يوسف فيما يأتي من الزمان ، فكأن يعقوب سكب قلبه في قلب يوسف ، حتى استحالا الى قلب واحد ،

يتوسم مناقبه مصورة في محياه . وفي حديث ابن عمر (ض) « اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله عز وجل » ، رواه البخاري في تاريخه ، وغني كل فني عن البيان أن البشارة الثانية أعلى جداً ، وجداً أعلى من البشارة الأولى ، ولذلك فلا نرتاب في أن يوسف كما كان طرب واندهش من مرمى رؤياه المنامية ، فقد طرب ودهش أكثر وأكثر من بشارة أبيه اليقظية ، وقد وقع كل ما أخبر به يعقوب ولده ، حرفاً بحرف ، كأن الغيب كتاب مفتوح بين يديه ، يقرأ منه ما يشاء وعلى الأقل كأنه كان يقرأ ذلك في وجه ولده السعيد ، فلذلك وعده أبوه ومنّاه ، كأنما هو عن وحي وإلهام .

(يجتبيك . .)

- ١ -

قال العلامة الدمشقي السوقساروجي (١) :

الاجتباء في اللغة واجتباء الله ليوسف والانبياء والاسلام

يقال : جباه الله واجتباه ، جمعه اليه وأدناه منه واختاره دون سواه ، فهو مجتبي ، منخول ، مختار ، مصطفى : متقاربة ، والجابية تجمع الماء وجمعها جوابي ، قال تعالى : ﴿ وجِفانٍ كالجوابِ ﴾ (٣٤ : ١٣) وقال سبحانه : ﴿ أوَ لَمْ نُمَكِّنْ لهم حَرَماً آمِناً يُجْبَى إليهِ ثَمَراتُ كلِّ شيءٍ ﴾ (٢٨ : ٥٧) ، أي يجمع ، وجَبَى الخراج يجبي جباية ، جمعه : وكلمة (جبى) تشارك (جابَ) الثلاثية في حرفين ، فهما متقاربان في المعنى ، جاب بمعنى قطع ، وفيه قوله تعالى : ﴿ جابُوا

(١) نسبة الى حي سوق ساروجة في بلدة دمشق

الصَّخْرَ بالوادِ ﴾ (٨٩ : ٩) أي قطعوه ، وجاب البلاد ، قطعها بالاسفار ، واجتبيتها : قطعتها ، ووجه المقاربة بينهما في المعنى أن من استحسن شيئاً فاصطفاه فقد قطعه لنفسه ، ومن قطع شيئاً لنفسه اصطفاه لها .

فمعنى (يجتبيك) في الآية ، يختارك ويصطفيك ويدنيك منه ، ويجمعك اليه ، ويقتطعك من دون العالم الى حضرته ، تبارك المعطي الوهاب ، فالله اجتبى يوسف ، وملك مصر استخلصه لنفسه ، وما الثانية الا مظهراً من مظاهر الأولى ، فذرة من ذرات الاجتباء السماوي تجعل العبد مجتبى لجميع من يعقل من أهل الأرض .

الله اجتبى يوسف وانتحله على اخوته ، واختاره على عموم من سواهم من الأسرة ، واصطفاه على سائر أهل عصره ، ونوّه باسمه في فلسطين ومصر وغيرهما ، لأنه أصفاهم جوهراً ، وأروضهم نفساً ، وأطيبهم قلباً ، وقد جاءت لفظة الاجتباء بصيغة المضارع (يجتبيك) باعتبار ماسيكون ليوسف آنذاك ، في القريب العاجل ، وكل آت قريب ، وما أبعد المسافات ؟ وما أقرب ماهو آت ؟ فيوسف اجتبي كآدم الذي بعد توبته ﴿ اجتَبَاه رَبهُ فتابَ عليه وهَدَى ﴾ (٢٠ : ١٢٢) وكجده إبراهيم الذي : ﴿ اجتَبَاهُ وهَدَاه الى صِراطٍ مستقيم ﴾ (١٦ : ١٢) ، وكعموم الخمسة وعشرين نبياً الذين : ﴿ اجتَبَيْناهُم وهَدَيناهُم الى صِراطٍ مستقيم ﴾ (٦ : ٨٧) نعم ، قال الله تعالى في كل العالم الاسلامي : ﴿ هُو اجتباكم ﴾ (٢٢ : ٧٨) ولكن يوجد فرق كبير بين الاجتبائين ، فاجتباء الله لأهل الاسلام هو بمعنى أعم وأحط من اجتبائه تعالى ليوسف وسائر إخوانه الأنبياء ، فهو أخص وأعلى من الأول .

(انتعش يا أستاذ)

(يجتبيك . . الخ)

- ٢ -

قال الاستاذ الباب سريجي (١)

نبوة يوسف والانبياء قبله وبعده

اجتبى الله يوسف وأتم نعمته عليه بالنبوة والرسالة للمصريين ، كما قال مؤمن آل فرعون خطاباً للمصريين : ﴿ وَلَقَدْ جاءَكُم يوسفُ مِنْ قبلُ بالبيناتِ ، فمازلتُم في شكٍ مما جاءَكم به ، حتى إذا هَلَكَ قلتم لن يَبعثَ اللهُ من بعدِه رسولاً ﴾ (٤٠ : ٣٤) وقبله أرسل أبوه يعقوب - لأهل فلسطين ، وإسماعيل للعرب ، وأخوه إسحاق - للفلسطينيين ، وإبراهيم - للكلدان ، ولوط - لشرقي الأردن والمؤتفكات ، وهي (قريات الملح) الخمس ، وصالح لثمود الذين في الحجْر بين الشام والحجاز الى وادي القرى ، أو بين معان والعقبة ، وذلك هو (بترا) ، وهود - لعاد ، مابين عُمان وحضرموت .

وأما بعد يوسف فقد أرسل الله شعيباً - الى مَدْيَن ، وهي تمتد من العقبة الى طور سينـــاء ، أو من شبه جزيرة سينا الى الفرات كما أرسله الله أيضاً الى أصحاب الأيكة ، كانوا أصحاب غيضة بين ساحل البحر الأحمر الى مَديَن ، وأيوب - الى أهالي نجد على القول بأنه نجدي ، أو الى حوران على القول بأنه حوراني ، وموسى وأخوه هارون - الى القبط وبني اسرائيل بمصر ، وداود وابنه سليمان - الى بني اسرائيل بفلسطين ، وهكذا زكريا وابنه يحيى ، وأما يونس فالى

(١) نسبة الى حي باب سريجة في دمشق .

نينوى عاصمة الآشوريين ـ قرب الموصل ـ

وما أن نزل الأستاذ الدمشقي الباب سريجي عن منبر الخطابة حتى نهض على أثره الأستاذ البرامكي[1] وقال :

سمعتم أيها السادة ماتفضل به صديقنا المحترم ،والآن تذييلاً لما ذكره أذكركم بالنبي (صموئيل بن ألقانه) المرموز اليه في القرآن بقوله تعالى : ﴿ ألمْ ترَ الى الملأ مِن بني إسرائيلَ مِن بعدِ موسى إذ قالوا لنبيٍ لهم ـ وهو صموئيل ـ ابعَث لنا مَلِكاًنقاتلْ فيسبيلِ اللهِ ؟ـ قال : هل عَسَيتم إن كُتِبَ عليكُمُ القتالُ أن لاتقاتلوا ؟ـ قالوا : وما لنا ألّا نقاتلَ في سبيل اللهِ وقدأُخرِجنـا مِن ديارِنا وأبنائنا ؟ فلما كُتِبَ عليهم القتالُ تولّوا إلا قليلاً منهم ، واللهُ عليمٌ بالظالمين ـ وقال لهمنبيُّهُم : إن الله قد بعثَ لكم طالوتَ مَلِكاً ، ـ قالوا : أنّى يكون له الملكُ علينا ونحن أحقُّ بالملكِ منه ، ولم يُؤتَ سَعَةً من المال ؟ ـ قالَ إنّ اللهَ اصطفاهُ عليكم ، وزادَه بَسطةً في العِلمِ والجسمِ ، والله يؤتي مُلكَهُ من يشاء ، والله واسعٌ عليمٌ ـ وقال لهم نبيُّهم : إن آيةَ مُلكِه ،أن يأتيكمُ التابوتُ فيه سكينةٌ مِن ربّكم ، وبقيةٌ ممـا تَرَكَ آلُ موسىوآلُ هرونَ ، تَحمِلُه الملائكةُ ، إنّ في ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين ﴾(٢ : ٢٤٦-٢٤٨)

فهذا النبي هو (صموئيل) الذي يسميه مؤرخو العرب على سبيل التعريب : (صمويل أو شمويل) وهذا النبي الكريم هو آخر قضاة بني اسرائيل الخمسة عشر ، مكث قاضياً عليهم مدة « ١٢ » سنة ، وكانت مدة حكم هؤلاء القضاة نحو « ٤٥٠ » سنة من موت يشوع بن نون ، فتى موسى ، الى أيام النبي صموئيل المذكور ، وبهذه المناسبة نتذكر النبي (يشوع) المرموز له في قوله تعالى : ﴿ وإذقالَ موسى لفتاه :

(١) نسبة الى حي البرامكة في دمشق (سورية).

لا أبرحُ حتى أبلغَ مَجمعَ البحرين أو أمضِيَ حُقُباً ﴾ (١٨ : ٦١) فهذا الفتى هو يشوع بن نون تلميذ موسى الذى صار نبياً بعده وخليفة عنه على بني اسرائيل والقائد الأعظم في حربهم مع الفلسطينيين ، وهو أحد الاثني عشر رجلاً الذين أرسلهم موسى ليتجسسوا أرض كنعان ، كما هو أحد الرجلين الاثنين في قوله تعالى : ﴿ قال رجلانِ مِنَ الذينَ يخافونَ ، أنعمَ اللهُ عليهما : ادخلُوا عليهِمُ البابَ ، فاذا دخلتُمُوهُ فإنكم غالبونَ ﴾ (٥ : ٢٥) والرجل الثالث هو كالب ابن يَفُنَّة ، والخلاصة إن من الأنبياء هذين الكريمين وهما : صموئيل ويشوع ، ويهمنا معرفتهما بصورة خاصة ، لأنهما مذكوران في القرآن الكريم ، ولذلك اقتصرت في خطابي على ذكرهما فقط . (جيد)

(ويُعلمك ...)

— ١ —

قال الفاضل اسماعيل من علماء غزة :

تعليم يوسف

(ويعلمك) كما علم قبلك الملائكة حتى قالوا : ﴿ سبحانَكَ لا عِلمَ لنا إلاّ ما علّمتَنا ﴾ (٢ : ٣٢) وكما ﴿ علّمَ آدمَ الأسماءَ كلَّها ﴾ (٢ : ٣١) وقال في أبيك يعقوب : ﴿ وإنّه لَذو عِلمٍ لِما علّمناهُ ﴾ (آ : ٦٨) وقال عن الخضر : ﴿ وعلّمناهُ من لَدُنّا عِلماً ﴾ (٨٨ : ٦٦) كانت هذه البشارة ليوسف من أبيه كما كانت رؤياه المنامية وهو في (سيلون) من أعمال فلسطين ، وقد تحقق مضمونها وهو في (صوعن) عاصمة مصر ، أي عاصمة المملكة الهكسوسية

في ذلك العصر ـ وكما تسمى صوعن فتسمى (تانيس) و (طانس) و (صان) ، وتسمى اليوم (صان الحجر) ـ ، وقد كان الزمن بين البشرى النامية وبين تحقيق مضمونها نحو « ٢٢ » سنة ، فعلى العاقل إذا وعد بشيء أن ينتظر ولا يستبطىء ما وعد به ، فقد دعا موسى وهرون على فرعون وملائه ، فالباري تعالى قال : ﴿ قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ (١٠ : ٨٩) قيل مكث موسى بعد الدعاء قريباً من أربعين سنة .

(تأويل الاحاديث)

ـ ٣ ـ

قال الشيخ مضيوف اليافي (١) :

مقومات الحديث وتأويله

لكل حديث معنى افرادي ، ومعنى تركيبي ، وغاية ينتهي اليها ، وإن شئت قلت : مصداق يقع فيكون هو خُبْرَ الخَبَرِ .

فأما القسم الأول ، وهو المعنى الإفرادي ، فهو ما يذكر في كتب الصرف واللغة كالبناء والمقصود والأمثلة والقاموس والأساس والمصباح والصحاح واللسان والفائق ومفردات الراغب وغيرها من كل المعاجم التي تبين الألفاظ المفردة .

وأما القسم الثاني وهو المعنى التركيبي ، فهو ما يذكر في كتب النحو والمعاني

(١) نسبة الى يافا من بلاد فلسطين

والبيان ، من معنى الجملة الحقيقي أو المجازي أو الكنائي ، والفهم في هذين الضربين قاصر محدود لا يتسع عقل صاحبه للتدبر كثيراً ، وإنه ليستوي فيه كل إنسان عاقل لبيب ، سواء أكان صالحاً أو طالحاً ، مؤمناً أو كافراً ، وهو أمر كسبي يتحصل عليه الإنسان بكسبه وجده ، ولا يتفاوت إلا بتفاوت العقل والإدراك .

وأما القسم الثالث وهو الغاية التي ينتهي اليها الحديث وان شئت قلت : مصداق الحديث الذي يقع فيكون هو خبر الخبر ـ فهذا لا يكون بكسب وجد ولا يستوي فيه سائر الناس ، ولا يمكن أن يتحصل عليه الإنسان بذكائه وحدة فهمه ولا يمكن أن يستقل به المرء ، ولكنه موهبة من الله تعالى ، وإلهام يلهمه عباده الصالحين ، من أنبيائه وأوليائه وعلمائه ، وهذه الغاية التي تنتهي إليها الأحاديث ـ وبعبارة أخرى ـ هذا المصداق الذي هو ذات ما أخبر به هي التي يعبر عنها تارة بالمصائر وحيناً بالعواقب والمراجع وطوراً بالمصاديق وأخيراً وبتعبير مختصر : إذا قلنا : « تأويل الأحاديث » نعني المحكي عنه في تلك الحكاية التي هي الحديث ، فالحديث حكاية ، وتأويله هو المحكي عنه ، فالتأويل تفعيل من آل إذا رجع ، وهو ما يؤول اليه الشيء ، وبالمثال يتضح المعنى وتظهر صحة المقال :

١ ـ قال تعالى: ﴿ فإن تنازعتم في شيءٍ فردُّوه الى اللهِ والرسول ، إن كنتم تؤمنون باللهِ واليومِ الآخرِ ، ذلكَ خيرٌ وأحسنُ تأويلا ﴾ (٤ ٥٨) أي عاقبة ، كما في الكشاف ، فهو تأويل فعلي .

٢ ـ قال تعالى :﴿ ولا تقربوا مالَ اليتيمِ إلاّ بالتي هي أحسنُ حتى يبلغَ أشدَّه ، وأوفوا بالعهدِ ، إن العهدَ كان مسئولاً ، وأوفوا الكيلَ إذا كلتم ، وزنوا بالقسطاسِ المستقيمِ : ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً ﴾(١٧ : ٣٤ و ٣٥)أي أحسن عاقبة ، كما في الكشاف ، فهو تأويل فعلي .

٣ ـ قال تعالى :﴿ ولَقَدْ جِئناهم بكتابٍ فصَّلناهُ على علمٍ ، هُدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون ، هل ينظرونَ إلا تأويلَهُ ؟ يومَ يأتي تأويلُهُ ، يقولُ الذينَ نَسُوهُ منْ قبلُ : قد جاءتْ رسُلُ ربِّنا بالحق ، فهل لنا مِن شُفَعاءَ فيَشْفَعوا لنا ، أو نُرَدُّ فنعمَلَ غيرَ الذي كنا نَعْملُ ؟ ، قد خَسِروا أنفسَهُم ، وضلَّ عنهم ما كانوا يَفْتَرون ﴾ (٧ : ٥٣) فتأويله هنا عاقبةُ أمره ومايؤول اليه من تبيين صدقه وظهور صحة مانطق به من الوعد والوعيد (كشاف) فهو تأويل فعلي .

فليس المراد هنا من تأويل الكتاب تفسيره وبيانه ، لأنه جاءهم مفصلاً على علم وهدى ورحمة ، فلا يحتاج الى التفسير والبيان ، ولكن أولئك الخاسرين ينتظرون تحقق ماجاء به من شؤون الآخرة كالجنة والنار وعذاب القبر والحساب وهلم جرا، وذلك واضح لاغبار عليه ، وهل يفهم غيرهذا من قوله تعالى:﴿يومَ يأتي تأويلُهُ يقولُ الذينَ نَسُوهُ مِنْ قبلُ : قد جاءت رُسُلُ ربِّنا بالحق . . الخ ﴾ فالتأويل هنا مصائر وعواقب أخبار الكتاب الغيبية ، ولا جرم أنه لايعلم حقائق شؤون الآخرة مثلاً ، ولا كيف تقع ، ولامتى تكون سوى السميع العليم، فالمؤمنون يؤمنون بما ورد من ذلك في الكتاب وإن لم يعلموه وقتاً وقدراً ونوعاً وحقيقة ، فان ذلك من موسوعات علم الله وحده ، دون سواه إلا من ارتضى من رسول ، وأما الذين كفروا ، فيكذبون بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله .

٤ ـ قال تعالى :﴿ بل كذَّبوا بما لمْ يُحيطوا بعلمِهِ ولمّا يأتِهِمْ تأويلُهُ ﴾ (١٠ : ٣٩) أي مصيره ومصداقه وذات ما أخبرَ به مما سينزل بهم من عقاب الدنيـــا والآخرة ، وسائر نذره وبشائره ، فهو تأويل فعلي . وذلك كإخبار القرآن بالجنة والنار والملائكة والجن ونعيم الجنـة وعذاب النار والنشر والحشر والحساب والميزان والصراط وعذاب القبر ونعيمه والسؤال فيه ، والكلام عن الله

وذاته وصفاته والساعة وأشراطها وشؤون الآخرة والوعدوالوعيد ، وكيف يقع ومتى يقع ، فكل هذه الاشياء ومآلها لا يعلمها إلا الله ولكنه ربما علمّ شيئاً منها لبعض عباده ممن ارتضى من رسول ، ومن كان على قدمه من الصالحين ، وكل هذه الأشياء ونحوها كذبوا بها لأنهم لم يحيطوا بعلمها ولما يروا ويشاهدوا تأويلها أي مصاقها وذاتها ، فالتأويل هو كل مايعد به الكتاب السماوي من المثوبة والعقوبة أي مايؤول اليه الأمر في الوعد والوعيد والاخبار .

٥ ـ في حديث عائشة (رض) كان النبي (ﷺ) يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : (سبحانك اللهم وبحمدك) يتأول القرآن ، تعني إنه مأخوذ من قوله تعالى :﴿ فسبحْ بحمدِ ربّكَ واستَغفِرهُ ﴾ (١١٠ : ٣) أي تعني أن النبي يرجع بذلك الى القرآن ويصير الى هذه الآية ، فهو تأويل فعلي .

٦ ـ روي عن رسول الله (ﷺ) أنه تلا آية ﴿ قُلْ هو القادرُ على أنْ يبعثَ عليكم عذاباً مِن فوقكم أو من تحتِ أرجلكُم أو يَلبِسكُم شيَعاً ويُذيقَ بعضَكُم بأسَ بعضٍ ﴾ (٦ : ٦٥) فقال : (إنها كائنة ، ولمّا يأتِ تأويلها بعدُ) فالتأويل هنا أيضاً فعلي بمعنى تحقق وجود الخبر .

ولابد لنا قبل الختام من كلمة لها علاقتها الكبيرة بهذا المقام وهي أن لكلمة (تأويل) ثلاث معان :

١ ـ التأويل بمعنى مصير الشيء وعاقبته ، وهذا تأويل ليس بالقول ولكنه تأويل بالفعل ، ومنه الشواهد السبعة التي تلوناها على أسماعكم ، بل منه أيضاً مافي قول يوسف الصديق (يا أبتِ هذا تأويلُ رؤيايَ من قبلُ) أي هذا الفعل مصداقها ومصيرها ، فهو تأويل فعلي .

٢ ـ التأويل بمعنى تفسير المتشابه ، وهذا تأويل قوليّ علميّ ، وله أمثلة في القرآن والحديث كثيرة، ليس هذا موضع بيانها .

٣ ـ التأويل بمعنى بيان السبب والعلة ، كما في قصة موسى مع ذلك العبد الصالح الذي آتاه الله علماً إذ يقول لموسى ﴿ سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً ، أما السفينة . . الخ ﴾ (١٨ : ٨٠)

(الاحاديث)

ـ ١ ـ

قال استاذنا الحضرموتي [١] :

الحديث لغة واصطلاحاً

الأحاديث اسم جمع لحديث ، على ماظن الزمخشري في كشافه ، أو جمع تكسير له على غير قياس ، على ماظن الزمخشري أيضاً ، في (المفصل) ، كما قالوا باطل وأباطيل وإذا كانوا يقولون في عبابيد إنه جمع تكسير ولم يلفظوا له بمفرد ، فكيف لايكون أحاديث وأباطيل جمع تكسير وقد لفظوا بمفرده ؟ هـذا ويطلق لفظ (الحديث) على أربعة أمور :

١ ـ على القرآن الكريم كما قال تعالى : ﴿ فبأيّ حديثٍ بعدَه يُؤمنون ﴾ (٧ : ١٨٤ و ٧٧ : ١٥) وقال تعالى: ﴿ فليأتوا بحديثٍ مثلِه إنْ كانوا صادقين ﴾ (٥٢ : ٣٤) .

(١) نسبة الى حضرموت احدى البلاد العربية في جنوبي جزيرة العرب

٢ ـ على كلام النبي (ﷺ) كقولهم (حديث النبي وأحاديث النبي) أي ما كان النبي (ﷺ) يحدثهم به ومنه أحاديث البخاري ، أحاديث مسلم ، احاديث الموطأ وهكذا .

٣ ـ على الأقاصيص التاريخية ومنه ﴿ هل أتاكَ حديثُ موسى ﴾(١٥:٧٩)، ﴿ وجعلناهُم أحاديثَ ، فَبُعداً لقوم لا يُؤمِنُون ﴾ (٢٣ : ٤٤) ، ﴿ فجعلناهم أحاديث ، ومَزَّقْناهُم كلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ (٣٣ : ١٩) غير أنه وقع الاصطلاح على أن الأحاديث التي يتحدث بها الناس على وجه الذكرى والاستفادة هي اسم جمع لحديث ، وذلك كما في المثال الأول، وأما الاحاديث التي يتحدث بها الناس تلهياً وتعجباً ، فهو عندهم جمع أحدوثة مثل أضحوكة وألعوبة وأعجوبة ، وذلك كما في المثالين الأخيرين .

٤ ـ على أحاديث النفس يقظة أو مناماً ، ثم أحاديث النفس في اليقظة هي درجة بين الخواطر والهموم ، وأما أحاديث المنام ، فإن كانت من الله قيل لها (رؤيا)، وان كانت من الشيطان قيل لها (حلم) .

وكل هذه المعاني الأربعة وما ألحق بها داخل تحت عموم كلمة (أحاديث) فالمعنى أن يعقوب يبشر ولده النجيب بأن الله تعالى سيوجد فيه أهلية وقدرة على تفهم مرامي ومعاني الكتب السماوية وأحاديث النفس وإلهام الملك في المنام وغير ذلك من كتب العلم والتاريخ وكلام الناس وأسفار الحكمة والآداب ، وعلى العموم يتعلم مقاصد الكتب السماوية ، والشرائع الوضعية ، والقوانين والنظامات الحكومية ، والأسفار الاجتماعية ، ومرامي أحاديث الناس ، وما يقرأ ومايسمع ، وما يقول وما الى ذلك ، فيكون صاحب رأي في عاقبة كل هذه المذكورات ، وذا بصيرة في مرجع كل ما يقوله ويقال له .

هذا ما ألهمنيه الملك العلام ، في هذا المقام ، نفضته اليكم والسلام عليكم .

(لا يفضض الله فاك)

٣ ـ انتصر على عزيز مصر فوطيفار ، الذي سجنه سجناً إدارياً ظلماً ، فخرج من سجنه وجلس محله على العرش ، وصار (عزيزاً لمصر) بدلاً منه (ع٥٤-٥٦)

٤ ـ انتصر على إخوته العشرة برجوعهم اليه ثالث سفرة ، وخضوعهم بين يديه واعترافهم بخطائهم، وسكناهم وأهلهم بمعيته وتحت نظره (ع ٨٨ - ٩١)

(آل يعقوب)

- ١ -

قال صدر الدين الدمشقي الباب سريجي (١) :

من هم آل يعقوب

(آل يعقوب) : أسباطه ، والسبط ولد الولد ، والفريق من اليهود ، ويقال للعرب قبائل ولليهود أسباط كما في المصباح .

وكلمة (آل) لفظ من خمسة ألفاظ وردت في كتاب الله تعالى بمعنى واحد ، والثاني بنو إسرائيل كما في : ﴿ وجاوَزْنا ببني إسرائيلَ البحرَ ﴾ (١٠ : ٩٠) والثالث ذرية إسرائيل كما في : ﴿ وَمِنْ ذريةِ إبراهيمَ وإسرائيلَ ... ﴾ (١٩ : ٥٨) والرابع والخامس الأسباط والأمم كما في : ﴿ وقَطَّعناهم اثنتَيْ عَشْرةَ أسباطاً أُمَماً ﴾ (٩ : ١٥٩)

ويطلق آل الرجل على أهل بيته وأقاربه الذين يضافون الى اسمه ، ويطلق على جميع أتباع الرجل ، فمن الأول قوله تعالى : ﴿ فالتَقَطَه آلُ فرعونَ ليكونَ لهم عَدُوّاً وحَزَناً ﴾ (٢٨ : ٨) إذا قلنا إن الملتقط هو شخص من أفراد الاسرة المالكة ، فإن قلنا أن الملتقط هو إحدى الجواري أو الخادمات كان من

(١) نسبة الى حي باب السريجة في دمشق (سورية)

قبيل إطلاقه على الأتباع كما في : ﴿ وأغرقنا آلَ فرعونَ ﴾ (٢ : ٥٠) ، ومن أمثلة إطلاقه على الذرية مافي قوله سبحانه : ﴿ إنَّ اللهَ اصطفى آلَ إبراهيمَ وآلَ عمرانَ على العالمينَ ، ذريةً بعضُها مِنْ بعضٍ واللهُ سميعٌ عليم ﴾ (٣: ٣٣و٣٤)، فالمراد من آل إبراهيم هنا ذريته وسلائله من اسماعيل بن (هاجر) وإسحاق بن (ساراي) وأبنائه الستة من زوجه (قطورة) ، وهم زِمْران ويَقْشان ومَدَان ومِديان ويَشْباق وشُوحا (تك ٢٥ : ١ و ٢) ، فأولاد إبراهيم لصلبه ثمانية من ثلاث زوجات ، ثنتان عربيتان وواحدة عبرانية ، وكان من المديانيين (شعيب) عليه السلام ، كما كان من اسحاق جميع أنبياء بني اسرائيل ، وكما كان من اسماعيل خاتم الأنبياء (ﷺ) و (عمران) ههنا تعريب (عمرام) ، ومعنى عمرام (شعب عالي) وهو المدعو في الانجيل (هالي) أي عالي ، لأنهم يبادلون بين العين والهاء ، متصرف فيه بحذف صدره والاكتفاء بعجزه ، وهو أبو مريم أم المسيح (فآل عمران) إذن عبارة عن المسيح فقط ، وبهذا التحقيق الذي ذكرناه بالمناسبة يندفع اعتراض البروتستانت على القرآن المجيد بأن أبا مريم لا يدعى (عمران) كما يقول القرآن ، ولكن يدعى (هالي) كما يقول الانجيل ، فخذ ما أتيتك وكن من الشاكرين .

(شكراً وحمداً يااستاذ) .

(آل يعقوب)

- ٢ -

قال غلام الدين الدمشقي العماري [١] :

النعم التي أتمها الله على آل يعقوب

لم يكتب المفسرون على هذه الكلمة ما يجب أن يكتبوه ، وأنا الحقير مع عجزي وقلة بضاعتي لا أضعف أن ألقي على هذه الكلمة مايشاء الله أن ألقيه ، فاستمعوا لما يُلقى :

أيها السادة :

أتم الله نعمته على آل يعقوب ، وسلالتـه ولو بَعُدوا ، وهم بنو إسرائيل ، أعني القبائل الاسرائيلية ، بنجاتهم من عبودية مصر وسخرتهم فيهـا ، وتذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم ، ثم بنجاتهم من الوثنية التي اعتنقوها بمصر أيام الفراعنة لمدة نحو مئتي سنه تقريباً ، والإيذاء الذي كانوا يلاقونه من الفراعنة من قبل أن يأتيهم موسى ، وعلى أثر مجيئـــه ، فخلصوا من كل ذلك ، وخرجوا من مصر منصورين تحت قيادة موسى وظللوا بالغمام وانزل عليهـم المن والسلوى وفلق لهم البحر ، وأغرق فيه عدوهم ، وانفجرت لهم اثنتا عشرة عيناً ، ثم ملكوا الأرض المقدسة التي كتب الله لهم ، وأقاموا فيها قضاة وحكاماً لهم ، ثم شكلوا فيها مملكة ، ولا تنس أن الله جعل فيهم النبوة والكتاب وآتاهم مالم يؤت أحداً من العالمين .

فإن قلت : إن هذه النعم التي عددتها لآل يعقوب أي سلالته إنما صارت بعد

---

(١) نسبة الى حي العمارة في دمشق (سورية)

عهد طويل أى بعد ٤٣٠ سنة ، تغربوا فيها بمصر ، على كلام التوراة ، أو بعد ٢١٥ سنة أقاموها بمصر على ما حققه العلماء من مؤرخي النصارى والمسلمين ، وإنه ليبعد أن يكون يعقوب أراد من بشارته تلك النعم ، التي ما حصلت لآله المعاصرين له ، ولكنها إنما حصلت لآله البعيدين عنه ، الى ما بعد تلك المدة الطويلة ، سيما وقد سبق هذه النعم ما ذكرته من اضطهادهم بالسخرة والعبودية بمصر ، وإذلالهم وتذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم ، وإيذائهم بأنواع الأذى ، لمدة ٤٣٠ سنة أو لمدة ٢١٥ سنة ، فيبعد أن يكون يعقوب أراد البشارة بتلك النعم التي لم تقع إلا بعد أكثر من جيلين.

قلتُ : أما ماذكرتَ من سبق تلك النعم باضطهادهم بالسخره والعبوديه بمصر وتذبيح الذكور واستحياء النساء ، فلا يضر في جوهر البشارة ، فهذا يوسف لم يحصل له ماحصل مما بُشّر به من اتمام النعمة عليه إلا بعد أن أهين من جانب إخوته ، وألقي في الجب ثم استرق وشرد عن وطنه ، وبيع عبداً لعزيز مصر ، وخدم في بيته أحدى عشرة سنة ، وقذف بالفحشاء وسجن مع المجرمين ولبث في السجن بضع سنين ، فكما أن هذه الأمور لم تمنع أباه أن يبشره بإتمام النعمة عليه بما سيجد له في مصر من صيرورته بها « عزيزاً » وناظر ماليه ونبياً ورسولاً ، فكذلك تلك المصائب التي كانت نزلت فوق رؤوس بني اسرائيل بمصر ، لا تمنع يعقوب أن يبشرهم باتمام النعمة عليهم فيما بعد ، لأن العبرة بالخواتيم .

وأما ما ذكرت من طول المدة ، وأن بنى إسرائيل لم يحصلوا على تلك النعم إلا بعد جيلين ، فقريب من حالهم حال يوسف ، فانه لم يحصل على إتمام النعمة عليه إلا بعد أن صار عمره قريباً من أربعين سنة أي بعد ٢٣ سنة من بشارة أبيه له .

وأخيراً نقول : إن الرجل ليس كالنملة التي لاتنظر إلا ّ ما بين عينيها ، بل الرجل ينظر إلى الأمد البعيد جداً ، سيما إذا كان من الأنبياء الملهمين ، كسيدنا

يعقوب عليه السلام ، وإنا نسمع عن الساسة الانكليز وغيرهم أنهم ينظرون الى ما سيجد بعـــد أجيال ، ويخبرون عنه ويقع حسبما أخبروا ، فكيف بالأنبياء الذين يتكلمون عن الله تعالى ، وكما ان الله يقول: ﴿ وإنَّ يوماً عندَ ربِّكَ كألفِ سنةٍ مما تَعُدّون ﴾ (٢٢ : ٤٧) ، ﴿ وأنتم يرَوْنه بعيـــداً ونراهُ قريباً ﴾ (٧٠ : ٦ و ٧) ، فكذلك الأنبياء الذين يتكلمون عن ربهم ، يخبرون بالاشياء التي سوف تحدث بعد حين مهما طال زمنه .

هذا كلامنا عن اتمام النعمة على آل يعقوب مجملاً ، وأما تفصيلاً فكان من سبط (لاوي) موسى وهرون وزكريا ويحيى ومريم أخت موسى ، وكان هذا السبط هو المتعين للخدمة في الهيكل ، وأما سبط (شمعون) فقد ألحق – باللاويين في مهنه التعليم (كما في قاموس بوست)

وأما سبط (يهوذا) فكان بيده صولجان الملك وكان من سلالة الأنبياء الكرام مثل : اشعياء وصَفَنْيا ودانيال وحزقيال وعيسى وداود وسليمان وحجّي ويوحنا بن اختيار ومريم أم المسيح والمسيح عليهم السلام ، كما أن من سلالتـه ملوك يهوذا التسعة عشر ، والقاضي « عثنيئل » والقاضي « عالي » وجميع الكهنة، وكل من كانوا يمارسون الأعمال الدينية في هيكل بيت المقدس .

وأما سبط (دان) فكان منه جنود أصحاب شأن ، وخرج منه القاضي «شمشون» الشهير .

وأما سبط (نفتالي) فكان منه القاضي (باراق) الشهير .

وأما سبط (جاد) فكان منه ذلك النبي الشهاب (إيليا) ، وهو « اليـاس » عليه السلام .

وأما سبط (أشير) فكان وجد منه امرأة اسمها (حنّه) وهي من المتعبدات الصالحات الصلحات المصليات حتى اعتبرت في نظر المسيحيين الأقدمين كنبيّة .

وأما سبط (يسّاكر) فقد كان منه القاضي (تُولَع) الذي حكم بني اسرائيل ثم كان منه اثنان من ملوك اسرائيل وهما (بِعْشَا) و (أيْلَه) .

وأما سبط (زبولون) فكان منه قاضيان حكما بني اسرائيل وهما (أبصان) و (أيلون) وكان منه (يونس بن متى) عليه السلام .

وأما سبط (يوسف) فكان قد انقسم إلى قسمين ، القسم الأول (مِنَسّى) الولد البكر ليوسف ، وكان منه ثلاثة قضاة حكموا بني إسرائيل ، وهم(جدعون) و (يائير) و (يفتاح) ، والقسم الثاني (أفرايِمْ) ثاني ولدي يوسف ، وكان منه (يشوع) بن نون عليه السلام ، والقاضي (عبدون) الذي حكم بني اسرائيل ، ثم كان منهم النبي (صموئيل) ، كأكثر ملوك إسرائيل في المملكة الشمالية التي عاصمتها (نابلس) . ومن إتمام النعمة على فخذ (أفرايم) أن التابوت كان في إحدى مدنه وهي (سيلون) ، فقد بقيت فيها الخيمة (٣٠٠) سنه .

وأما سبط (بنيامين) فكان منهم القاضي (أهُود) الذى حكم بني إسرائيل ، ثم كان منهم طالوت (شاؤل) أول ملك لبني اسرائيل .

وكل ما ذكرته لكم حكم مقتبس من (العهد العتيق)و (السنن القويم)وقاموس (بوست) و (معجم البلدان) .

وقبل أن أختم مقالي هذا أرجوكم أن تسمحوا لي بكلمتين خطرتا على فكري الآن فوق هذا المنبر :

أما الكلمة الأولى فهي أنه يتبين مما قدمنا أن نعمة الله تمت على شخص يوسف

وعلى سلالته المنَسَّيين والأفراعيين وأما إخوته الأحد عشر فالنعمة إغـاتمت على سلالتهم ، لا على أشخاصهم ، وهـذه هي الحكمـة فيما يظهر لنا في أن يعقوب قال ليوسف : ﴿ ويُتمُّ نعمَتَـهُ عليكَ وعلى آلِ يعقوبَ ﴾ . فالنعمة تمت على شخص يوسف ثم تمت على سلائل يعقوب ومنهم سلالتا يوسف .

والكلمة الثانية — هي أنه لم يقل : (وعلى يعقوب) بل أقحم لفظ (آل) ، مع أن الله تعالى كما أتم نعمته على شخص ابراهيم وإسحاق فقد أتمها كذلك على شخص يعقوب ، نعم أتمها عليه بالنبوة والرسالة والبركة والسيرة الحسنة — لكنه لم يقل ذلك تنزلاً وتواضعاً وهضماً لشخصه ، وتَقَصِّياً عن تزكية النفس بالقول ، كما قال تعالى : ﴿ فلا تُزَكُّوا أنفسَكُم ، هو أعلمُ بمَنْ اتَّقَى ﴾ (٥٣ : ٣٢) ، وقال تعالى : ﴿ ألمْ تَرَ إلى الذينَ يُزَكُّونَ أنفسَهُمْ ؟ . . . بلْ الله يُزَكِّي مَنْ يشاء ، ولا يُظلمونَ فتيلا ﴾ (٤ : ٤٨) هـذا ما أردت أن أختم به خطابي ، والله أعلم . (مرحى)

(كما أتمها . . . الخ)

- ١ -

قال الفاضل النابلسي :

النعم التي أتمها الله على ابراهيم واسحاق

تعلمون أن الله أتم نعمته على « ابراهيم » بنجاته من نار الكلدانيين ،وخروجه من دائرة الذل والاضطهاد أرض العراق،الى بلاد الشام بلادالعزوالحريةوالاحترام — الى آخر مالاقاه في سوريا وفلسطين من الراحة والاطمئنان هذا كله بعد أن

كان نبياً ورسولاً وخليلاً للرحمن ، وبـــذلك صار مقـــدساً بلسان البوذيين. والزردشتيين ووثني العرب وطبعاً عند اليهود فالنصارى فالاسلام ، لا يذكر عند كل هؤلاء الا " ويشكر ، وأكثر الأنبياء من سلالته ، وبذلك صار مباركاً عليه في العالمين : حتى صرنا نقول — نحن الاسلام — ولا نزال نقول « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل ابراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين ، إنك حميد مجيد » نكرر هـذه الصلاة الابراهيمية في صلواتنا في اليوم والليلة ربما أكثر من أربعين مرة، يكررها كذلك نحو أربعمائة مليون مسلم بكل ضراعة وحرارة ..

وتعلمون أن الله أتم نعمته على (إسحاق) بكونه ابن ساراي السيدة المحبوبة ، ثم بالنبوة والرسالة ، وكفى .

فيعقوب كان يتوقع لابنه يوسف مستقبلا ذا شأن ، وكان على بينة من أنـــه سيرتقي رقياً محسوساً باهراً ، وأن التاريخ سيسجل ليوسف الصديق ولآل يعقوب ذكراً حسناً ، كما سجل ذلك لإبراهيم واسحاق ، وان اسمـــه سيكون جليلا ، وسيحفظ له التاريخ ذكريات فخمة عليه وعلى آبائه الصلاة والسلام .

(ان ربك عليم حكيم)

— ١ —

وقال العلامة الدوماني [١] :

علم الله وحكمته

إن الله سبحانه وتعالى « عليم » بذات الصدور ، وبمن هو أهل لإتمام النعمة

(١) نسبة الى بلدة دوما قصبة قرب دمشق (سورية).

عليه ، كما هو عليم بكل شيء وكل دقيق وجليل ، حتى لو وقفت بعوضة على طرف سفينة عظيمة فإنها تثقلها وتميلها حقيقة ، والله يعلم ذلك تماماً ، وإن لم تدرك ذلك مشاعرنا ، فسبحان من يعلم ويسمع دبيب النملة السوداء ، في الليلة الظلماء ، على الصخرة الصماء ، ويرحم الله الإمام الزمخشري حيث يقول :

يامن يرى من البعوض جناحها
في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها في نحرها
والمخّ في تلك العظام النحّل (١)
امنن عليّ بتوبة تمحو بها
ما كان مني في الزمان الأول

وإنه تعالى « حكيم » يضع كل شيء في موضعه ، وإن دائرة فضله مرنة تسع كل من أهّل نفسه للفضيلة .

الفصل الرابع

الحكم والعبر في قصة يوسف

آ (٧) ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة فقام مولانا الناصر التونسي وقال:

يقول الله : بذاتي حلفت (لقد كان في يوسف) عليه السلام وهو الحزب

(١) البهيم الأليل : الشديد السواد ، المناط : المربط ، النحر : الرقبة ، النحل : الضعيفة .

الراقي ، (وإخوته) أصلحهم الله ، وهم الحزب المعارض ، أي لقد كان لمن تتبع حوادثهم معه ، وحوادثه معهم ، مع التأمل في أسبابها ونتائجها ، (آيات) أي حِكم وعظات وعجائب وعبر ، كما سيقول « لقدْ كانَ في قَصَصِهِمْ عِبرةٌ لأولي الألباب »(ع : ١١١) وذلك من حين أن رآى أحلامه فحسدوه ، الى أن سكنوا في شرقية مصر تحت رعايته ، وما تخلل ما بين هذين الطرفين من الماجريات النادرة المثال ، والمراد من لفظ (إخوته) عموم الاخوة المناوئين له المتألبين عليه ، والمحبين له الذابين عنه .

وفي الحقيقة إن الآيات كانت في يوسف وإخوته وأبيه والسيارة وعزيز مصر وامرأة العزيز ، وفي الشاهد من أهلها ، والسيدات المصريات ، والفتيين الساقي والخباز ، ومليك مصر الريان ، والملأ الذين استفتاهم فلم يفتوه ، وفي أحفاد يعقوب ، وفي خدمة يوسف لأرباب الحكومة في تلك العصور ، و ... و ... الخ ، ولكن الله سبحانه اقتصر على « يوسف وإخوته » لأنهم موضوع القصة ، ومحور السيرة ، وما سواهم فهو مذكور بالمناسبة والعرض ، فقصة يوسف كتاب مفتوح ، ذو أبواب وفصول وذيول وحواش ، ولكن اهم ما في هذا الكتاب « يوسف واخوته » .

جعل الله سبحانه هذه السورة الشريفة علة من العلل ، التي يُظهِر فيها حِكَمَه ووسيلة من الوسائل ، التي يرشد الناس بها للعبرة والعِظة فعلى الرجل الرشيد العاقل أن يقرأ هذه السورة ليس لما فيها من التاريخ فحسب بل لما حوته من العظات والعبر ، وما اشتملت عليه من الحكمة والأدب .

إن أول ما ينبغي لمن قرأ هذه السورة أو استمع لها ، أن يعرف وجوه العبر التي نزلت لأجلها ، ويتعلم رموز الحكم التي رُمِزت فيها ، والغاية التي أراد الله تعالى

من سرد مواضيعها ، ولعمري إن القاريء لهذه السورة إذا لم يفعل ذلك لم يدر ما أريد بتلك المعاني ، ولا أي ثمرة يجتنى منها ، ولا أي نتيجة روحية تحصل له من تعاليم هذه السورة ، وإنه إن كانت غايته من هذه السورة التلذذ بقراءتها والبلوغ الى آخرها ، دون تفهم ما يقرأ منها ، وبلا تفكر في عبرها وحكمها ، فلاريب أنه لا يعود عليه شيء يرجع اليه نفعه في تأديبه وتكميله ، ووقوفه على عجائب التدابير والألطاف الإلهية ، وباهر الحكم الربانية ويكون مثله كمثل رجل قدّم له لوز صحيح فلا بد أن يكسره ويستخرج ما فيه ، لكي ينتفع منه النفع العظيم ، وإلاّ لم ينتفع إلا بالتمتع برؤية قشره الذي هو ظرف للبّه .

ينبغي لقاريء هذه السورة الكريمة أن لا تكون غايته معرفة معاني المفردات فقط ، ولا الوقوف على السيرة كقصة تاريخية فحسب ، ولا استفادة النكت التي تذكر في علم البلاغة فقدَ ، فإن هذه الأمور وإن كانت مهمة في ذاتها ، لكن هناك ما هو أهم منها جداً ، وذلك كما قلنا هو الإشراف على ماتضمنته هذه السورة من الأمثال وعجيب التدبير الإلهي ، والمسائل الإجتماعية ، والعبر الربانيـــة ، فيقف القاريء عند كل مثل وجملة وكلمة وحرف من حروف المعاني ، ومقدمـــة ونتيجة ، وتأصيل وتفريع ، وقاعدة كونية ، وتطور مدهش ، وانقلاب سريع .

يجب على قاريء هذه السورة الكريمة أو سامعها أن يلتمس جواهر معانيها ، ويلتمس درر مراميها ومغازيها ، ولا يظن أن نتيجتها هي الإخبار عن حيلة إخوة يوسف حتى أخذوه ، أو مغازلة السيدات المصريات ليوسف وجماله ، أو محاورة الجنود المصريين لإخوته حين اتهموا بأخذ الصواع ، أو بغير ذلك ، فينصرف بهذا عن الغرض المقصود ويكون مثله مَثَلَ الغواص في البحر الذي كان يلتقط الجواهر ذات القيمة ، فرأى في عقيق الماء سمكة ، فترك الصدف الذي فيه الدر الثمين ،

وقذف نفسه في اللجة التي فيها السمكة، فاشتغل بصيدها عن التقاط الجواهر، كأنه نسيها أو تناساها أو جهل أنها تساوي أموالاً كثيرة، وكذلك الأغرار الذين يجمدون عند ألفاظ هذه السورة وظواهرها ويغفلون أمر التفكير فيما شملته من الحِكم والعِبَر وما تضمنته من الاجتماعيات وتطور الحوادث، وأسرار ذلك وأسبابه.

(حسن)

(لقد كان ... الخ)

– ٢ –

قال اخونا التقي البخاري (١) :

التفكر والاعتبار حال قراءة القرآن

وهكذا سائر قصص الأنبياء التي اقتصها علينا القرآن الكريم كسائر ما فيه من حوادث الصالحين والطالحين، والمصلحين والمفسدين، والجبابرة والمستكبرين، وما الى ذلك مما أملاه الله علينا في كتابه المجيد، فكم في ذلك من عبر وذِكرَ، وكم فيها من فوائد وعوائد، ولقد كنا فيما مضى نأسف جد الأسف للجمهور من أهل الاسلام الذين كانوا لا يعنون بالتفكير والاعتبار، حال قراءة القرآن، ولا يتأملون في مراميه ومواعظه، حتى يقيسوا حاضرهم على ماضي غيرهم، ولكننا اليوم نرى — والحمد لله — أنه قد نفخت روح جديدة في جمهور العصريين، فطفقوا يقرأون كتاب الله بتدبر وإمعان، جديرين بالثناء والشكران، مما يبشرنا بحسن مستقبل الاسلام، وسيرهم الى الأمام.

(١) نسبة الى بخارى من بلاد التركستان

وإذا كان في المسلمين اليوم قوم لا يعبأون بالتفكر والتدبر حال قراءة القرآن الكريم ، وقوم يعنون بذلك ويهتمون له كثيراً — فليس ذلك إلا لأن فينا رجالاً قد اهتدوا الى سواء الصراط ،وآخرين لم يظفروا من ذلك الا بحظ قليل.وانتشار العلم الصحيح في أهل الاسلام في هذا العصر ، وازدياد انتشاره من يوم لآخر ، واتجاه الجهود الفردية والجماعية الى التنور والتفكير — كل ذلك سيقضي غداًأو بعد غدٍ بأن يكون المستقبل للقرآن وأهل القرآن ، وما ذلك على الله بعزيز .

(اطال الله بقاءك)

(واخوته ...)

- ١ -

قال الفاضل الاستانبولي [١] :

القرآن يكتفي بذكر المهم من الحوادث التاريخية

لي ههنا كلمة وهي ربما يقول قائل : إنا نرى كتب اليهود التي يسمون مجموعتها « العهد العتيق » تذكر أسماء الرجال والنساء والزوجات والصبيان والبنات ، وتأتي على أسماء المواضع التي حدثت فيها الحوادث ، وربما تعرضت لذكر زمانها ،فما بالنا نرى القرآن الكريم لا يأتي على مثل هذه التفصيلات أو على ما يقرب منها ؟ هذا سؤال طالما شغف بذكره دعاة النصرانية في الانتقاد على كتابنا الحكيم .

وأما نحن فنجيب عنه بجوابين :

الجواب الأول — إن حوادث الأسباط الأقدمين ، وما جريات الآباء الأولين

(١) نسبة الى استامبول من بلاد الترك

ــ إنما تهم بالدرجـــة الأولى سلائلهم اليهود ، فلذلك عني في توراتهم بذكر كل جزئية من جزئيات أخبارهم ، فذلك يهمهم كثيراً ، ويلذ لهم جداً ، ويشتاقون اليه أيما اشتياق ، بخلاف العرب وما إليهم من العناصر ممن لم يكونوا يهوداً ، فلا يهمهم من هذه الحوادث إلا ما كان جوهرياً منها ، هو الروح،وهو محل الاستشهاد وأما ما عدا ذلك فلا لزوم للتطويل بذكره ، سيما وقد طال عليه الأمد ، وانهم من عنصر غير عنصر العرب ، فالتوراة تضع تواريخ الآباء ليقرأها أبنــاؤهم اليهود ، وهؤلاء الأبناء متشوفون متشوقون الى سيرة أسلافهم ، حتى لمعرفة أسمائهم وأسماء أولادهم ، فهذا النوع من البيان ربما كان فيه شيء من الأهمية بالنسبة لليهود،ولكنه بالنسبة للعرب وباقي العناصر فليس مهما ، إنما المهم الوقوف على ما فيــه من الجوهر والروح ، وهذا هو أسلوب القرآن الكريم .

الجواب الثاني ــ إن السفر الذي بيد اليهود اليوم المدعو«توراة»أو«عهداً عتيقاً» هو تاريخ كباقي تواريخ العالم يجمع الغث ، والسمين ، ويذكر المهم وغير المهم ، ويأتي على ما فيه فائدة روحية وعلى ماليس فيه ذلك ، بل يذكر مايعود بالضرر على القاريء ــ على شرفه ودينه ومروءته وعرضه ــ حتى أنه ليذكر حوادث زنا الأنبياء (حاشاهم) وزنا أبناء الأنبياء وبناتهم ــ على قوله ــ وحتى انــه ليذكر سكرهم وكذبهم وختلهم ، وحتى انه ليذكر ، انهم قوادون على نسائهم الى آخر ما تقشعر منه الجلود ، وتتبرأ منه الانسانية!!! كأنها تفعل هذا كباقي المؤرخين الذين يذكرون في أسفارهم كل ما هب ودرج ، ومن كل مـــا بين السماء والماء ، وأما القرآن المجيد فليس تاريخاً ينبغي أن يذكر فيه جميــع أسماء الأزمنة والأمكنة والأشخاص الذين لهم تعلق بالسيرة التاريخية ، أعني أن القرآن إذا ذكر نبذة من التاريخ فلا يذكرها على أنها تاريخ حتى يجب عليه أن يلتزم ذكر هذه الأشيــاء

تفصيلا ، وإنما يذكر ذلك لأجل العبرة والقياس كما سيأتي قوله : « لقد كانَ في قَصَصِهِم عِبرةٌ لأولي الألباب » (ع : ١١١) ، أو بيان سنن الاجتماع كما قال: ﴿ قد خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُم سُنَنٌ ، فَسيرُوا في الأرضِ ، فانظروا كيف كان عاقِبَةُ المكذِّبين ﴾ (٣ : ١٣٧) ، أو للهداية والعظة كما قال : ﴿ هـذا بيانٌ للناسِ وهدىً وموعظةٌ للمتقين ﴾ (٣ : ١٣٨) ، أو للتذكير كما قال : ﴿ إنْ هو إلاّ ذِكرَى للذاكرين ﴾ (٦ : ٩٠) ، الى غير ذلك من المقاصد الدينية ، فالقرآن لا يذكر شيئاً من التاريخ إلا لذلك ونحوه ، فلا يذكر قصة لبيان حدوثها ولا لأجل التفكه بها ، أو الإحاطة بتفاصيلها وجزئياتها ، وربما اكتفى القرآن بموضع العبرة ومحل الذكرى ، ولا يأتي بها مفصلة بجزئياتها التي لا تزيد في العبرة ، بل ربما تشغل عنها .

وقد اهتدى بعض المؤرخين الراقين في هذه الأزمنة الى الاقتداء بهذه الطريقة فصار أهل المنزلة العالية منهم يذكرون من وقائع التاريخ ما يستنبطون من الاحكام الاجتماعية ، وهي الأمور الكلية ولا يحفلون بالجزئيات ، لما يقع فيها منه الخلاف الذي يذهب بالثقة ، ولما في قراءتها من الاسراف في الزمن ، والاضاعة للعمر بغير فائدة توازيه ، وبهذه الطريقة يمكن إيداع ما عرف من تاريخ العالم في مجلد واحد يوثق به ويستفاد منه ، فلا يكون عرضة للتكذيب والطعن ، كما هو الشأن في المصنفات التي تستقصي الوقائع الجزئية مفصلة تفصيلا .

إن محاولة جعل قَصَص القرآن ككتب التاريخ بإدخال ما يروون فيها على انه بيان لها — هي مخالفة لسنته ، وصرف للقلوب عن موعظته وإضاعة لمقصده وحكمته ، فالواجب أن نفهم ما فيه ، ونُعْمِل أفكارنا في استخراج العِبَر منــه ونَنزِعَ نفوسنا عما ذمّه وقبّحه ، ونحملها على التحلّي بما استحسنه ومدحه .

وجملة القول ان طريقة القرآن في قصص الذين خلوا هي منتهى الحكمة التي اهتدى اليها المؤرخون الراقون ، وما كان لمحمد الأمي الناشيء في تلك الجاهلية الأمية أن يرتقي اليها بفكره ، وقد جهلها الحكماء في عصره وقبل عصره ، ولكن ذلك وحي يوحى ، وتعليم من الله يقتفى . (مرحى)

(واخوته ...)

– ٢ –

قال السيد البصري :

سلامة قلب الاناث وبعدهن عن حسد أقاربهن

نعلم من التاريخ أنه كان ليعقوب بنت اسمها « دينه » من زوجته « ليئة » ولدت بعد إخوتها الأشقاء الستة ، فهي أخت يوسف لأبيه ، ولكن ليس لهذه الأخت مشاركة في حسد يوسف والكيد له ، ولم يذكر عنها أقل انتقاد على أبيها من هذا القبيل .

ونعلم أيضاً من التاريخ أن ليعقوب من الحفدة الإناث « سارح » وهي بنت ابن « أشير » ولكن هذه أيضاً لم يخبرنا التاريخ أن لها دخلا في الانتقاد على جدها مع أحفاده الذكور حينما قالوا له : « تالله إنك لفي ضلالك القديم » — الأمر الذي نستنتج منه سلامة قلب الإناث مطلقاً من أخوات وبنات أخ ، وشدة بعدهن عن حسد وعداء أقاربهن على كل حال ، شأن النساء عموماً في ميلهن للطف والحب ورقة العاطفة ، هذه كلمتي المختصرة والسلام عليكم .

٧ ـ إن المحسود وإن لحقه في البدء ضرر وأذى فربما ستكون العاقبة في مصلحته وإنه سوف ينتصر على أعدائه ومقاوميه .

٨ ـ إنه ينبغي للمحسود أن يعفو عند المقدرة ، وليس هذا فقط بل يحسن منه أن يقابل السيئة بالحسنة ، والحرمان بالعطاء .

٩ ـ إنه لا بأس للمكيد إذا قوي أن يشذب شوكة كائديه خوفاً من إعادة الكرة ثاني مرة .

١٠ ـ إن من اتقى ارتقى ، ولو خاصمه كل أهل الشقاء ، كما قيل: (كُنْ معَ اللهِ ولا تبالي) .

١١ ـ إنه متى تقاربت طباع جماعة أنس بعضهم ببعض وتحابوا ، وكانوا حزباً وحرباً على من ليس من مسلكهم ، فهؤلاء الأخوة العشرة لما اتفقوا في الصفات اتفقوا على كراهة يوسف الذي هو (أمّة وحده) فضلاً ولطفاً وأدباً وكمالاً .

١٢ ـ إن الفاضل الخبير قد ينخدع بحيلة أهل الدهاء كما جرى على يعقوب من أولاده !

١٣ ـ إن الإخوة قد تختلف أحوالهم مع اتحاد الأصل الذي ينتسبون إليه واتحاد الخؤولة والبيئة البيتية والوطنية .

أبوكَ أبي والأصل لا شك واحدٌ
ولكننا صنوان وردٍ وخروع

فيوسف وإخوته كانوا كما قال أبو الطيب :

تفرقهم وإياه السجايا ويجمعهم وإياه النّجار (١)

(١) النجار الاصل .

١٤ ـ الانسان الكامل مهما اعتورته الفتن وأحاطت به المشتهيات فلا بد أن يتغلب عليها بكماله وعفافه كما وقع ليوسف الصديق مع امرأة العزيز ثم النسوة المصريات.

١٥ ـ إنه متى كان الله مع الإنسان، ارتفع من عقر البئر إلى رأس المأذنة وصعد من مقر الأسماك إلى منازل الأفلاك طفرة وخرقاً للعادة.

١٦ ـ إن أعمال يوسف تصدق القول بإن يوسف نبيّ، وأعمال إخوته تصدق القول بعدم نبوتهم، خلافاً للعوام.

١٧ ـ إنه لا يلزم أن يكون ابن النبي نبياً، بل ولا يقتضي أن يكون ابن التقي تقياً، ولكنه قد يتفق اتفاقاً.

١٨ ـ إن العبرة بالأواخر، ولذلك سمّي إخوة يوسف «كواكب» ـ مع العلم بما سيقع منهم ـ نظراً لعاقبة أمرهم وتوبتهم أخيراً وصلاحهم آخر أيامهم.

١٩ ـ عاقبة التقوى والصبر الفرج: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٢: ٩٠).

٢٠ ـ كان مآل إخوة يوسف فترة بعد شرة، وأناة بعد طيش، وحلماً بعد نزق، وفناء جماعة في فرد هو «يوسف».

(آيات)

ـ ٣ ـ

قال الشيخ الموصلي [١]:

العبرة بعاقبة يوسف واخوته

لا أحد يجهل ما فعله إخوة يوسف من كيد، وما دبروا من ختل وحيلة،

(١) نسبة الى الموصل من بلاد العراق.

وكيف نصبوا له الحبائل، وجاءوا على قميصه بدم كذب، وسولت لهم أنفسهم أمراً، وألقوه في غيابة الجب، فما كان عاقبته ألا أنه تربى في مصر، وترعرع وبلغ أشده، ثم كان لإخوته من المحسنين.

هذه كانت قصة يوسف، وذلك نبأ إخوته، كان منهم الإساءة ومنه الاحسان ومنهم الشر ومنه الخير، وكان أول أمره عناء وآخره هناء، ومبدأه ذل، ونهايته عز، وعلى العكس كان حال إخوته، كان مبدأهم الاستقلال وأخيراً صاروا تحت سيطرته، ذلك عبرة للمعتبرين، وفيه آيات للسائلين.

تنبئك قصة يوسف مع إخوته بما يلاقيه ذوو الفضل من تعدى الجاهلين، فما في الأرض من فاضل إلا كان في أول أمره مطارداً متبوذاً من الأعداء، تسطوا عليه الأقرباء، وتحط من قدره الأصدقاء، وتهينه الأولياء، استغراباً لقوله، واستهجاناً لعمله، وحطاً من شأنه، وحسداً على ما آتاه الله من فضله، وإحباطاً لأمله، وتشنيعاً عليه، واستهزاءً بما لديه، فان صبر فاز، وإن جزع باد، تعجب كيف كانت حال يوسف الصديق، بيع للمصريين، وترعرع في بيت العزيز، ثم حافت به الفتنة، وصبر على الظلم والسجن، ولم يدر ظالموه أن السعد سيخدمه، وأن راية العز ستخفق فوق رأسه، وأنه سيقبض على ناصية البلاد، وتدين له العباد، ويساعده الزمان، وينسج على ما قاساه عناكب النسيان.

ذلك مثل الصادقين القائمين بالأعمال الشريفة، فليُبشر اولئك الذين صدقت نياتهم، وحسنت أعمالهم، وأخلصوا لأمتهم، فسوف يُبدل شقاؤهم راحة، وذلهم عزاً وسعادة، هذا هو ناموس الوجود، لم يشذ منه نبي مرسل، ولا عالم فاضل، وكانت العاقبة للمتقين، ولقد كان لنا في رسول الله (ﷺ) أسوة حسنة فلقد أوذي كما أوذي يوسف الصديق، وما آذاه إلا أقرباؤه الأدنون، وما تألب عليه سوى قريش، ثم نصره الله كما نصر يوسف، وآوى اليه من كان يؤذيه

كأبي سفيـــان وزوجه هند ، وغيرهـا من عِلْيَة القوم وسراتهم وعظمائهم ، فأصبحوا له خاضعين ، كما خرّ إخـوة يوسف له ساجدين ، آمنـــا بناموس الله وكتابه الكريم .

(للسائلين)

- ١ -

قال الاستاذ الحلبي :

تخصيص الفائدة بمن يبحث عنها

للسائلين — أي لمن يسأل ويهمه الوقوف على الحوادث التاريخية وعواقبها، ويُعنى بغرائب الأعمال ونتائجها .

للسائلين — الذين يستحثون الأخبـــار ، ويستطلعون الوقائع ، ويتطلبون الوقوف على الحوادث .

للسائلين ـ الذين يسألون الرواة ، وأهـل الذِكْر ، ويسألون التاريخ الذي سجّل سيرتهم ، وحفظ لنا ترجمة حياتهم وأعمالهم .

للسائلين — الذين يهمهم الوقوف على العِبَر والعظات ، وتهمهم الاستفادة من القَصَص والمثُلات .

للسائلين — الذين يتأملون في أسباب حوادثهم ونتائجها ، والوقوف على القواعد الاجتماعية ، والفوائد التاريخية .

للسائلين — الذين يحرصون على العلم والتعلم ويبحثون عما يجهلونه حباً منهم في العلم والمعرفة ، فهم الذين يعتبرون بعواقب الأمور التي تدل عليها أوائلها ومقدماتها

وأما الذين لايسألون عما يجهلون ، ولا يجتهدون أن يقفوا على ما يجب الوقوف عليه، بل يستوي عندهم العلم بالشيء وجهله ، من كسلهم انهم إن جاءهم شيء عرفوه ، وإن لم يسمعوا شيئاً لم يسألوا عنه ، ولم يأبهوا به ، فالعلم بالشيء والجهل به سيان عندهم ،فهؤلاء الكسالى لا يعتبرون بما يسمعون من الحوادث ، ولا يحفلون بالآيات التي يجب أن يستفيدوها من التاريخ وحوادث الدهر ، فلهذا كلـه خص استفادة الآيات « بالسائلين » عنها ، دون سواهم .

مقدمة المؤامرة

آ(٨) ﴿ إِذْ قالوا : لَيُوسُفُ وأخوهُ أحَبُّ الى أبِينا مِنّا ، ونحنُ عُصْبَةٌ !!! ، إنَّ أبانا لَفِي ضَلالٍ مُبينٍ !! ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة فقام الأستاذ الحمصي وقال :

(إذ قالوا)قولاًمبطناًبالزراية بأخويها والنقد على أبيها(ليوسف) بالتأكيد(وأخوه) بنيامين ، وهما اثنان صغيران ، (أحب الى أبينا منا) فانه يحبها من أخمص قدمـه الى فرع رأسه (و) الحال اننا (نحن عصبة) جماعة ، عشرة رجال ، فنحن أحق بزيادة المحبة منها ، لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليها (إن أبانا) يعقوب الشيخ الهرم (لفي ضلال مبين) أي في ذهاب عن طريق الصواب في ذلك ، وحقاً إننا نحتج عليه بهذا العمل ، وصدق من قال (الحب أعمى) (وحبك الشيء يعمي ويصم) .

فمنشأ هـذا الحسد هو تفضيل يعقوب يوسف وأخاه في الحب ولكن لايجوز أن ننسى أن للامهات الضرائر ههنا دخلاً في هذا الحسد وهذه الحركات ، فانهن مثار حركات أولادهن .

(إذ قالوا . . الخ)

- ١ -

وقال الاستاذ الصيداوي :

مفاوضة الاخوة في شأن يوسف

لقد تم الكلام أيها السادة على يوسف وحلمه ، ويعقوب وبشارته لابنه ، والآن نشرع في المفاوضة التي تبودلت بين إخوة يوسف في شأنه :

اجتمع إخوة يوسف العشرة ، وقد ظهرت على وجوههم علامات الاهتمام يمازجها الانتقاد المر على أبيهم الكريم ، تذاكروا في حال والدهم مع عموم أولاده واضطراب جو معاملته لهم ، وعدم مساواته بينهم في التوجه والمِقَة ، فاستشاطوا غيظاً ، وأضْغَنَ بعضهم بعضاً على أبيهم ، عقدوا مجلساً تآمروا فيه وتشاوروا متذمرين من أبيهم ، محرقين أسنانهم ، قائلين لنتحدث هنا بهدوء وسكينة عن هذا العطف الأبوي لأخوينا الصغيرين خاصة ، إن يوسف وبنيامين أقرب الى قلب أبينا منا ، وأفضل عنده من جميعنا ، فلا نرى فيه شيئاً من روح المساواة بين الأولاد ، نقول ذلك ، والأسف ملء أفئدتنا ، لأنه يجب على كل آب أن يساوي بين أولاده في المحبة ، في الأعمال ، في التوجه ، في الالتفات ، في التمليك ، في التعليم ، في الراحة ، وفي كل موجبات السرور ، فأبونا ـ مع احترامنا لشخصه ـ هو «غلطان» ، ولذلك لم يبق لنا صبر على السكوت عن هذا الأمر الإدّ ، كيف وهو يحمل بين جنبيه قلباً خلواً من الانصاف والعدالة التي تنبغي للأولاد من والديهم . قالوا ذلك

ويشمه ، كما اقتصر بعض المفسرين ، فما أضعف الحب اذا كان كله عبارة عن مجرد الضم والشم ، كما أنه ليس هو مجرد أن يعقوب عمل لابنه قميصاً ملوناً ، كما اقتصر عليه آخرون ، ولكن حب يعقوب لابنه حباً كثيراً لامزيد عليه ظهر في مظاهر عديدة مما أتينا عليه ونحوه ، وأما حب يعقوب لبنيامين فلأنه أصغر أبنائه جميعاً ولأنه ابن زوجه راحيل المحبوبة ، فلذلك كان يوسف وبنيامين تحت جناح أبيهما وكانا كريمين عليه ، ولذا هاج اخوتهما عليهما وماجوا ، وقالوا : ماهو المبرر لهذا الانعطاف الخصوصي نحو هذين الولدين ؟ فهل هذا انصاف وعدالة بين الأولاد ؟ وهل هو جار مجرى المساواة المطلوبة ؟ . . اللهم كلا . . فاذاً ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ لأنه فضل المفضول علينـــا نحن الفاضلين على الأقوياء ، وخص بعطفه الاثنين دون الجماعة . هذا مرمى مقالتهم ، وهكذا نحتوا أثلة أبيهم ، ولعمرى لقد أصبحوا بهذا الحكم الجائر في ضلال أبين من مبين ، وأظهر من الشمس في رائعة النهار.

ولقد كنا نتوقع من هؤلاء الاخوة أن ينسجوا على منوال أبيهم في شدة المحبة منهم لأخويهم ، اقتداء بذلك الوالد الكريم ، الذي ماعمل إلا مايرضي الله والضمير، ولكنا رأينا منهم عكس ذلك ، وكنا نتوقع أن يكون بين هؤلاء الاخوة وفاق ، يكون من ورائه راحة عيشه لأبيهم ، ولكن رأينا عكس ذلك . وكنا نتوقع من هؤلاء الاخوة العشرة أن يربأوا بأنفسهم عن حسد يوسف وأخيه لأنهما صغيران، وهم كبار السن ، ربما كان للواحد منهم في ذاك الوقت ، ولد أكبر من يوسف أو بنيامين فكان ينبغي أن يكون حالهم أرفع من هذا الحال ، ولكن رأينا عكس ذلك ، وكنا نتوقع من هؤلاء « العصبة » أن يكونوا متواضعين ودبعـــين ، وإذا افتخروا ولا بد افتخروا بآدابهم وكمالهم ، لا بالقوة والشدة . ورحم الله أبا نواس حيث يقول :

عجبت للانسان في كبره   وهو غـداً في قبره يقبر

مابال من أوله نطفـــة　　وجيفـــة آخره يفخر
أصبح لا يملك تقديم ما　　يرجو ولا تأخير ما يحذر

ولله في ذلك حكمة ، وله في خلقه شؤون : ﴿ وكذلكَ فتنّا بعضَهم ببعضٍ ، ليقولوا : أهؤلاءِ منَّ اللهُ عليهم مِنْ بيْننا ؟ ، أليسَ اللهُ بأعلمَ بالشاكرين ؟ ﴾ (٦ : ٥٣) .

(إذ قالوا .. الخ)

— ٣ —

وقال الشيخ محمود الخليلي (١) :

اسباب عداء الاخوة المهمة ليوسف

كانت إخوة يوسف على جانب عظيم من بغضه والنفرة منه وعدائه ، ويرجع ذلك لأسباب شتى نجملها فيما يلي :

١ ـ زيادة محبة أبيه له وتفضيله إياه .

٢ ـ كونه ابن راحيل الجميلة المحبوبة الحظية عند زوجها .

٣ ـ اختلاف الطباع بينهم وبين أخيهم ، فيوسف كان روحياً ميالاً للمعنويات ، وهم كانوا جـديين ميالين للماديات ، فلم تأتلف طبيعة الطرفين بل كانت مختلفـة أيمـا اختلاف .

---

(١) نسبة إلى الخليل من فلسطين .

٤ ـ إنه كان لا يكلف عملاً ما ، بخلافهم فقد كانوا يعانون رعى الأغنام .

٥ ـ العداء الذي كان بين ليئة وضرتها أختها راحيل ، فكانت الأولى مغلوبة مكسورة الجناح لمرض في عينيها ، بخلاف الثانيه فكانت منتصرة عليها لجمالها ولأنها الصغرى ولأنها هي التي أول ما خطبها سيدنا يعقوب عليه السلام عند البئر .

أتى حبها من قبل أن أعرف الهوى

فصادف قلباً خـاليـــاً فتمكنا

ولأنها هي التي كان يعقوب خطبها أولاً من أبيها ، ولكنه أدخله على ليئة بدلاً منها ــ على ذمة التوراة ــ فالخلاصة إنه لأسباب نسائية انعقدت العداوة بين الأختين الضرتين ، فانتقلت بطريق السراية والعدوى إلى الأولاد .

٦ ـ كانوا يتخيلون إن يوسف يترفع عليهم ، فكانوا يظنون إنه استمد هذه القوة من محبة أبيه إياه .

٧ ـ أحلام يوسف التي كانت تزعجهم وتذيب لفائف قلوبهم ، إذ كان يوسف رأى رؤياه الأولى فذكرها لإخوته ، فقال له إخوته : « ألَـعَلَّكَ تصير علينـا ملكاً ، أو على الأقل يكون لك علينا سلطة » ، وازدادوا بغضاً له من أجل حلمـه هذا ومن أجل كلامه ، ثم رأى رؤياه الثانية التي هي أبلغ من أختها . فذكرهـا لأبيه فقط ، ولكن الرؤيا فيا بعد بلغت أسماعهم ، ثم لا بد أيضاً أن يكون قــد نُمِيَ اليهم ماقاله أبوهم لأخيهم من البشائر المستقبلة ، فلهذا مع ما كان يبـدو من إمارات ظاهرة ودلائل ناطقة ، على كثرة حبه له ، تفاقم الأمر لديهم ،واستشرى عداؤهم ليوسف ، وبلغ السيل الزُبى واعتقدوا أن اباهم التَهَم حقوقهم البنوية ، فقالوا عن يوسف وسَوَّغِه : إنهذينالولدين لايزالان عثرةفيطريقناالى اكتساب

توجه أبينا الينا ، وبنوع خاص يوسف ، فانه هو العلة الوحيدة لرغبة أبينا عنا ، فحقا إن يوسف هو الجدير بالمجازاة ، لأنه السبب الوحيد في ذلك ، وهو أيضاً الذي لا يزال يكاثرنا باحلامه ، ويباهينا بأوهامه .

وتابع الشيخ الخليلي كلامه قائلا :

تفنيد عداء اخوة يوسف له

هذه هي أهم الأسباب التي حدت بهم الى كره أخيهم ، ثم انتقاد أبيهم، ولعمري إنهم يخطئون في ذلك ، لأن أخاهم كان في سن لا ينبغي معها توجيه الكراهة اليه ، ولأن أباهم في الحقيقة لم يحب شخص يوسف فقط لأنه يوسف ولأنه مركب من لحم وعظم ، ولكنه أحب من ستسجد له الكواكب الأحدعشر والشمس والقمر، أحب من سجدت الحزم الأحد عشر لحزمته في الحقل، أحب الذي سيجتبيه ربه ، ويعلمه من تأويل الأحاديث ، أحب من سيتم الله نعمته عليه ، كما أتمها على ابراهيم وإسحق ، ، فيعقوب أحب هذه المعاني السامية والمواعيد المجيدة ، التي سيكون يوسف مَظْهَراً لها ، فحبه إنما هو ليوسف في تلك المواعيد ، أو لتلك المواعيد في يوسف . نعم . نعم يوجد في فطرة البشر من التحاسد بين الأقرباء أكثر مما يوجد بين الغرباء ، ويشتد بين اثنين على نعمة كلما تقارب اقتدارهما من نيلها ، أو تشابهت أسبابها إليها ، ولذلك كان التحاسد على أشده بين أصحاب المهنة الواحدة، فإخوة يوسف ههنا وقع التحاسد والتزاحم بينهم على نعمة هي اكتساب توجيه أبيهم ، وكل منهم يعتقد أنه قادر على نيل هذه النعمة ، لأن السبب الذي حصل عليه يوسف (فيما يعتقدون) حاصل عندهم أيضاً وما هذا السبب في اعتقادهم سوى النبوة ، بل هم يظنون أنهم حاصلون على شيء آخر يقوي هذا السبب ويدعمه،

وهو أنهم رجال أكفاء أهل عمل ودفاع ، ولذلك تخيلوا أن أباهم غالط في أنه كان أشد احتفاظاً بيوسف ، حتى كان أكرم ولده عليه ، كأنه واحد أبيه ، ليس له ولد غيره ، وإن هذا الأمر يقضي بالعجب العجاب . هذه شبهتهم التي اتكأوا عليها ، وما دروا ان ماتصوره ليس هو السبب التام بل السبب التام هو المزايا والخصائص التي كانت في شخص يوسف ، فهم غالطون أو مغالطون في قياس أنفسهم على أخيهم فهو قياس مع الفارق أو مع الفوارق ؛ هذا ما يحضرني الآن ، فتأملوه يرحمكم الله ، والسلام عليكم .

(اذ قالوا ليوسف واخوه .. الخ)

- ٤ -

قال تقي الدين المقدسي :

ضرر تعدد الزوجات

من أعظم أسباب عداء إخوة يوسف العشرة ليوسف وبنيامين اختلاف الأمهات (كما سبق أن أشار اليه بعض الحاضرين الأفاضل) مع ضميمة ان سيدنا يعقوب كان يحب راحيل أكثر من كل من سواها ، مع ضميمة أنه قد كان يوجد بين راحيل وبين ضرائرها الثلاثة لا سيما ليئة الحُرّة من الحسد والغيرة ما هو معهود اليوم بين سائر الضرات ، والتاريخ يعيد نفسه وليس تحت الشمس من جديد وما أشبه الليلة بالبارحة ، فلذلك انتقل العداء الذي بين راحيل وسواها ، وسرى للأبناء طبعاً ، وهذا المرض هو بعض مايقاسيه الرجل الذي يتزوج أكثر من واحدة ، وهذا من بعض اسرار قوله تعالى : ﴿ فإنْ خِفْتُم أنْ لا تَعدِلوا

فَوَاحِدَةً ﴾ (٤ : ٣) ، ثم قال : ﴿ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النساءِ ولَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ (٤ : ١٢٨) فالبيت الذي فيه زوجتان مثلاً لزوج واحد لا تستقيم له حال ، ولا يقوم فيه نظام ، وقد ينتقل الضرر من كل ضرة الى ولدها — الى والده — الى سائر أقاربه ، فهي تغري بينهم العداوة والبغضاء الى مالا نهاية له ولعبد العزيز الديريني :

تزوجت اثنتين لفرط جهلي وقد حاز البلى زوج اثنتين
فقلت أعيش بينها خروفاً أنعَّمُ بينَ أكرمِ نعجتين
فجاء الأمر عكس الحال دوماً عذاباً دائماً بيليتين
رضا هذي يحرك سخط هذي فما أخلو من احدى السخطتين
لهذي ليلة ولتلك أخرى نقار دائم في الليلتين
إذا ما شئتَ أن تحيا سعيداً من الخيرات مملوء اليدين
فمش عزبا فإن لم تستطعه فواحدة تكفي عسكرين

وبعد فلا بد — كما أشار اليه أخونا الشيخ محمود الحليلي فيما مر — أن يكون لتعدد الزوجات دخل في هذا الحسد ، فقد كان يوجد كره بين « راحيل » أمّ يوسف الصديق ، وبين شقيقتها « ليئة » حيث الاولى كانت جميله وصغيرةومحبوبة أكثر ، فكانت الثانية حاسدة لها حاقدة عليها — الامر الذي أوقد نار الحقد والعداء في صدر الأختين ، فاستطارت منها شرارة الى صدر أبنائها ، وبعبارة أصح استطارت شرارة من صدر « ليئة » الى صدور أبنائها الستة ، ثم بالتبعية من صدر جاريتها « زلفة » لصدر ولديها .

سبحان الله ! أزواج يتخاصمن على التافه ، ويكبرن من شأن الشيء الحقير ،

وأبناء تزرع فيم أمهاتهم بغض الإخوة ، وربما وشيئاً من كراهة الآباء ، وكل هذا من نتائج تعدد الزوجات لغير حاجة .

نعم ، وإن ديننا ينص على جواز تعدد الزوجات ولكنه نص محوط بالقيود والأغلال ، نعم ، أباحت لنا شريعتنا التعدد المحدود ، لكن الله تعالى قال لنا في أثر ذلك : ﴿ فإنْ خِفتُم أنْ لا تَعدِلوا فَواحِدَةً ﴾ (٤ : ٣) ، غير اننا نحن ما تقيدنا بهذا القيد المتين ، بل أهملناه فانفسح لنا مجال الإجرام ، فاللوم ليس على شريعتنا ، بل علينا نحن ليس إلا .

لم يسند الله الحسد لجماعة معينين الا لليهود

قلت لكم : إن ما قاله إخوة يوسف ناشيء عن الحسد الذي ملأ صدورهم ، وإن تعجبوا ، فعجب أن الله تعالى لم يسند الحسد لجماعة مُعيّنين إلا لليهود وذلك في موضعين الأول قوله تعالى : ﴿ أم يَحسُدونَ النَّاسَ على ما آتاهم اللهُ مِنْ فَضلِه ﴾ (٤ : ٥٣) والثاني قوله تعالى : ﴿ وَدَّ كثيرٌ مِنْ أهلِ الكتابِ لوْ يَرُدُّونَكُم مِنْ بَعدِ إيمانِكم كُفّاراً ، حَسَداً من عِندِ أنفُسِهم ﴾ (٢ : ١٠٩) فليعلم ذلك أهالي فلسطين خاصة والعرب عامة وليأخذوا حذرهم من الصهيونيين ...

الحكمة من ذكر الأعمال السيئة لأقرباء الأنبياء في القرآن

وهنا أمور مدهشه تستلفت الأنظار ، كلا ، بل هي من الغرابة بمكان :

١ ـ نقرأ في كتاب الله تعالى فنجده يصف أبناء يعقوب العشرة بأنهم حسدوا

أخاهم ، وضللوا أباهم ، وتفاوضوا في قتل يوسف أو طرحه أرضاً ، ثم رجعوا للعمل على إلقائه في غيابة الجب ليلتقطه بعض التجار ، ثم توصلاً لذلك احتالوا على أبيهم بأنهم ناصحون لأخيهم ، والحال انهم غاشون ، ثم وعدوه إن أرسله معهم أن يحفظوه ، ثم أخلفوا وعدهم ، بل كانوا منذ إعطاء الوعد مصممين على عدم الوفاء به ، ثم كانت النتيجة أن ذهبوا به وأهانوه وألقوه في غيابة الجب ، فقطعوا بذلك الرحم وعقّوا أباهم وآذوه ثم رجعوا لأبيهم داعين بالويل والثبور وعظائم الأمور ، عجب عاجب وأمر غريب !!!

٢ ـ نقرأ في كتاب الله تعالى فنجده يحكي عن « قابين[1] » أنه حسد أخاه « هابيل » فقتله ، فأصبح من الخاسرين (٥ : ٣٠ ـ ٣٣) فالعبرة في هذا القصص أن حادثة ابن آدم هي أقدم قصة يدلنا على أن الحسد كان مثار أول جناية في البشر ، ولا يزال هو الذي يفسد على الناس أمر اجتماعهم ، من اجتماع العشيرة في الدار ـ إلى اجتماع القبيلة ـ إلى اجتماع الأمة والدولة ـ فترى الحاسد تثقل عليه نعمة الله على أخيه في النسب أو الجنس أو الدين ، وهو لم يتعرض لمثلها لينالها ، فيبغي على أخيه ولو بما فيه شقاء الأبد .

٣ ـ نقرأ في كتاب الله فنجده يحكي أن ابن نوح عليه السلام أبى أن يدخل في سفينته فكان من المغرقين ، وأنه كان عملاً غير صالح ، حتى أنه لعدم صلاحه خرج من عمود النسب (١١ : ٤٢ ـ ٤٧) .

٤ ـ نقرأ في كتاب الله تعالى فنجده يقول : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مثلاً لِلذينَ كَفَرُوا امرأةَ نوحٍ وامرأةَ لوطٍ ، كانتا تحتَ عبدَيْنِ مِنْ عبادِنا صالحَيْنِ فخانتاهما فلم يُغْنِيا عنهما مِنَ اللهِ شيئاً ، وقيلَ : ادخلا النارَ مع الداخلين ﴾ (٦٦ : ١٠) .

٤ ـ نقرأ في كتاب الله تعالى فنجده يصف آزر أبا سيدنا إبراهيم بأنه كان

---

(١) ويسميه بعضهم قابيل

من عبدة الأوثان ، ولياً للشيطان ، (١٩ : ٤٢ ـ ٤٦) وأنه كان عدواً لله (٩ : ١١٤) .

٦ ـ نقرأ في كتاب الله تعالى فنجده يذكر أن قارون (قورح) بغى على موسى ، فخسف الله به وبداره الأرض ، فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين (٢٨ : ٧٦ و ٨١) مع أن قارون كان ابن عم موسى ، لأنه « قارون بن يَصْهار بن قَهات » ، وأما موسى فهو « موسى بن عمران (عمرام) بن قَهَات » ، فلم تنفعه القرابة القربى .

٧ ـ نقرأ في كتاب الله تعالى فنجده يقول ﴿ ولقدْ فَتَنَّا سليمانُ ، وألقينا على كرسيِّه جَسَداً ﴾ الخ (٣٨ : ٣٤ ـ ٤٠) وذلك حينما كان سليمان وليّ عهد أبيه ، فتعدى عليه أخوه « أدونيّا » واغتصب منه الملك : وكان هذا في حال شيخوخة أبيها داود ، ولما سمع داود أمَرَ بمسح ابنه سليمان ملكاً بالفعل ، فهبّت ريح سليمان بمُلْك عظيم ، إلى آخر ما هو مذكور في القرآن والتاريخ ، وهذه الحركة كانت من ابن نبيّ على ابن نبيّ في حالة حياة أبيهما .

٨ ـ نقرأ في كتاب الله تعالى فنجده يذكر أن « أبا لهب » وامرأته « أم جميل » من التابيّن ، ومن صالي النار ، مع أن أبا لهب جار النبيّ اللصيق ، وعمه القريب ، وكان قد أعتق « ثويبَه » حينما بشرته بولادته ، وكان أبو لهب وزوجه من سنام قريش وواسطة العقد ودرة تاج العرب في ذلك العصر .

نعم . نعم . إننا نقرأ كل هذه الحوادث في القرآن ، ونروي حوادث أخرى من هذا القبيل في الأحاديث ، ونرى أمثلة كثيرة من هذه الحوادث في الأسفار التاريخية العتيقة ، فما هي الحكمة والفائدة من ذكر هذه الأخبار والأقاصيص في القرآن المجيد ونحوه يا ترى ؟

هذا سؤال كان وجهه علينا بعض طلبة العلم ، وقد أجبناه عنه في ذلك الحين بما خلاصته :

إن الحكمة والفائدةمن ذكر هذه الحوادث وأشباههاهي تقرير أصل التوحيد الهادم لقاعدة الوثنية بالفصل بين ما هو لله ، وما هو لرسله ، تصويراً لحالة الرسل الحقيقية ، وهي أنهم لم يرسلوا إلا مبشرين ومنذرين ، ما عليهم إلا تبليغ دين الله وإقامته ، وليس لهم من الأمر شيء ، ولا يملكون لأحد ضراً ولا نفعاً ، وليس عليهم هدى أحد ولا رشده بالفعل ، وإنما عليهم هداية التعليم والحجة ، فلا يهدون من أحبوا ، ولا يغنون عنه من الله شيئاً ، وإن كان أقرب الناس وأحبهم إليهم في النسب ، والمعاملة الدنيوية .

وأما قاعدة وثنية العرب ، ونحوهم فهي اتخاذ أولياء من العباد يزعمون أنهم وسطاء بين الله وبين عباده ، في شؤون الأشقاء والإسعاد ، والسلب والإمداد فجعلوا مدار السعادة والنجاة على شفاعة أنبيائهم وأوليائهم فجاء القرآن بذكر هذه الحوادث ، حوادث أقارب الأنبياء هادماً لتلك القاعدة الوثنية ، معلماً الناس أن مدار النجاة على الإيمان والأعمال ، ولا تأثير للأقربين والبنين .. (مرحى) .

(إذ قالوا .. الخ)

— ٥ —

قال المدقق اللدي :

الدفاع عن حب يعقوب لولديه يوسف وبنيامين

لي هٰهنا كلمة أقولها تمهيداً للدفاع عن سيدنا يعقوب عليه السلام في حبه لولديه يوسف وبنيامين وإليكموها :

لمحبة الولد طوران : « طور الصغر » ، وهو حب ذاتي لهم ، لا علة له ولا

فكرة فيه ولا تدبير، بل هو أمر طبيعي فطري داخل في عموم الرحمة الربانية العامة لجميع الحيوانات، لا فرق فيها بين الإنسان والهرة، و «الطور الثاني» حب معلول، معه فكر، وهو حب الأمل والرجاء بالولد، ودرجات هذا النوع من الحب على قدر درجات الأمل.

إذا تقرر هذا فحب يعقوب الزائد لولده (بنيامين) كان من قبيل النوع الأول لأنه كان إذ ذاك ابن سبع سنين، وأما حبه الزائد لولده يوسف فكان تقريباً من قبيل النوعين، لأنه كان صغيراً ابن سبع عشرة سنة أو أقل «وكان لأبيه فيه الأمل والرجاء العظيمان، لما كان يتفرس فيه من إمارات النجابة، ولما سمعه من رؤييه المناميتين ولما أوحي إليه فيه من الاجتباء والتعليم وإتمام النعمة، وأنتم تعلمون أن وجوه المحبة إذا تعددت غذى بعضها بعضاً، وعلى هذا فيعقوب معذور طبعاً وشرعاً على هذين النوعين مع الزيادة والتفضيل، فانتقاد أبنائه العشرة عليه في ذلك في غير محله، والسلام عليكم ورحمة الله. (حياك الله)

(إذ قالوا .. الخ)

— ٦ —

قال الوحيد الاسكندري:

اسناد القول الى الاخوة العشرة جميعاً

أضاف القول إلى الإخوة العشرة جميعاً في قوله: «إذ قالوا» مع أنه لا بد أن يكون القائل هو البعض فقط، والباقي ساكت مستمع، وإنما صح ذلك لأن الجماعة متكافلة في الأمور العامة، ولذلك وجب على الأمــــة

الإنكار على قائل أو فاعل المنكر من أفرادهـا ، لئلا يفشوا فيها . فيصير خلقاً من أخلاقها وعادة من عاداتها، فتستحق عقوبته في الدنيا كالذل وسوء السمعة كما تستحق عقوبته في الآخرة بمـا دنّس نفوسها ، ولذلك لعن الله تعالى الذين كفروا من بني إسرائيل بما عصوا وكانوا يعتدون ، وبين سبب ذلك بقوله : ﴿ كانوا لا يَتَنَاهَوْنَ عن مُنكَرٍ فعلوه﴾ (٦ : ٨٢) ، ذلك بأن من أقر قائل أو فاعل المنكر ، فلم ينهه ولم يسخط عليه ، تكون نفسه مشاكلة لنفسه ، تأنس بما تأنس به ، ثم لا يلبث أن يقول أو يفعل المنكر ولو بعد حين ، إذا لم يعجز عن ذلك بسبب من الأسباب الحسية .

الساكت عن المنكر يكون شريكاً في الاثم لفاعله

وثم وجه آخر يجعل إسناد المنكر إلى قائله والراضي بـه إسناداً قريباً من الحقيقة ، وهو ان عدم النهي عن المنكر هو السبب في انتشاره وشيوعه ، لأن المائلين إلى المنكر لو علموا أن باقي الجماعة يمقتونهم ويؤاخذونهم عليه لما فعلوه ، إلا ما يكون من الخلس الخفية ، ولذلك كان الساكت على المنكر شريكاً في الإثم للفاعل .

ومثل هؤلاء مثل راكب مع جماعة في سفينة ، ذهب ينقر فيها ، فإن أخذوا على يده نجوا ونجا معهم ، وإلا هلك وهلكوا جميعاً، ففشوّ المنكرات مهلكة للأمة: ﴿ واتقوا فتنةً لا تُصيبَنَّ الذينَ ظَلَموا منكم خاصةً ﴾ (٨ : ٢٥) فلا بد للمرء في حفظ نفسه ومن معه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا سيما أمهات المنكرات المفسدة للاجتماع كالكذب والخيانة والحسد والغش ، فهـذا ليس من فروض الكفاية التي يتواكل فيها الناس كصلاة الجنازة . إذ لا يجب على كل من علم

أن هنا ميتاً أن ينتظر غسله ليصلي عليه ، بل يكفي أن يعلم أنه يوجد من يصلي عليه ولكنه إذا رأى منكراً وجب عليه أن ينهى عنه ولا ينتظر غيره .

(أحسنت أحسنت)

(ونحن عصبة ..)

— ١ —

قال الاستاذ الجزائري [١] :

وجه انتقاد الاخوة العشرة لأبيهم على حبه ليوسف وأخيه والرد عليه

يقول إخوة يوسف العشرة إن أبانا يفضل علينا في المحبة يوسف وسوغه[٢]، وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة، بل لا في العير ولا في النفير ،وأمانحن فرجال عشرة كفاة ، ملتفون حول أبينا نقوم بمرافقه من رعي الغنم وغيرها ، أولوا قوة وأولوا بأس شديد ، لا نُستَذَلّ ولا نُستَقَلّ ، فما لأبينا يعبث بنا ويستصغر أمرنا ؟ هما ولدان صغيران ، لا يرجيان لدفع أو نفع ، ولا يؤمل منها عائدة ، فما هي هذه المحبة الزائدة ؟ ولماذا يعوّل أبونا على غُصنَيْن غَضَّيْن ،ويترك الجذوع القوية ؟ وهل يلتقط الخردل دون الجندل ؟ وأين الحسام من المنجل ؟

هذه خلاصة شبهتهم التي تمسكوا بها للانتقاد على أبيهم ، ذكرها الله تعالى ولم يذكر الجواب عنها ، لأنها شبهة ضعيفة واهية ، والجواب عنهـــا ظاهر لائح ،

(١) نسبة إلى الجزائر من بلاد المغرب العربي في شمال افريقية .

(٢) هذا سوغ هذا وسوغته كلاهما في الذكر والانثى ولد بعده ولم يولد بينهما (القاموس).

وخلاصته إن صغر بنيامين ويتمه من أمه ، هو الذي أوجب تفضيل أبيه له في المحبة كما هو معروف في كل عصر ومصر ، وأما يوسف فإن صغر سنه ، وعدم المنفعة الجسمانية منه ، لا يصح أن يكون أقل منهم فضلاً ، بل هو أفضل منهم ، لأنه أحيا قلباً ، وأذكى فؤاداً ، وفضل الإنسان في حياة قلبه ، وذكاء لبه ، وحسن مستقبله ، ونفع يوسف — بحسب ما علم أبوه فيه — أعلى وأجل وأبقى ، وأما القوة البدنية ، والخدمة الجسمانية ، فعارية تغدو وترتحل ، وتقر عيناً ثم تنتقل :

تقول أنا الكبـــير فعظموني　　ألا هبلتك أمك من كبير
إذا كان الصغير أعم نفعاً　　فما فضل الكبير على الصغير

يوسف إنسان بنفسه ، حي بطبعه ، دائم الحياة بعقله وفضله ، وهؤلاء معدومون بذواتهم إذا كانوا منفردين ، موجودون إذا كانوا مجتمعين ، مفتخرون بطولهم (وبطُولتهم) وعرضهم (وعراضتهم) : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، لا يَسْخَرْ قومٌ من قومٍ عسى أنْ يكونوا خيراً منهم ﴾ (٤٩ : ١١) فلا ينبغي الانسان أن يعجب بالكثرة فإنها لا تغني من المعنويات شيئاً ، وليست الفضيلة بقوة الأجساد ولكن بالعقل والفؤاد .

العصبة في اللغة

واسمحوا لي قبل أن أغادر هذا المنبر أيها السادة بقص النادرة التالية : (قيل لأبي عبد الملك عنّاق : بأي شيء تزعمون أن « أبا علي الأسواري » أفضل من « سلام أبي المنذر ؟ » — قال : لأنه لما مات « سلام أبو المنذر » مشى « أبو علي » في جنازته ، فلما مات « أبو علي » لم يمش « سلام » في جنازته !) وما أشبه حال إخوة

يوسف بهذه الحكاية ؟ فإنهم ادعوا أنهم أحق بالأحبية من يوسف وأخيه ، ولماذا يا ترى ؟ .. لأنهم عصبة ـ والعصبة العشرة فصاعداً كما في (الكشاف) أو الجماعة المتعصبة المتعاضدة ، كما في (مفردات الراغب) أو من العشرة إلى الأربعين ، كما في (النهاية لابن الأثير) ، وأما الإثنان فلا يستحقان (اسم العصبة) ، لكونهما اثنين فقط ـ فكأنهم قالوا : نحن أحق بالأحبية لأننا عشرة بخلاف أخوينا الإثنين ، لأنهما ليسا بعشرة ، فهذه القضية شبيهة بتلك ، كشابهة الليلة بالبارحة .

(إنّ أبانا لفي ضلال مبين)

— ١ —

قال أبو الفضل المدني (١) :

تضليل اخوة يوسف لأبيهم جهلاً منهم وسفاهة

ضللوا أباهم ، لأنهم لم يكونوا يعلمون علمه ، ولكن أبوهم سيأتي يقول لهم : « وأعلَمُ مِنَ اللهِ مالا تعلَمون » ، كيف لا ؟ وقد تأكد صحة منامي ولده ، وعلم فيه من الله ما علم ، من اجتبائه وتعليمه وإتمام نعمته عليه ، وشيء من هذا لم يصل مضمونه عند إخوته إلى درجة العلم :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني ... أو كنت أجهل ماتقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتي فعذلتني ... وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

(١) نسبة إلى المدينة المنورة في الحجاز .

قيل : « العالم يعرف الجاهل ، لأنه كان قبل علمه جاهلاً، والجاهل لا يعرف العالم، إذ لم يكن قبل جهله عالماً » ، ولرئيس المؤتمر :

واحذَرِ الناسَ أنْ يروكَ مُحِبّاً   أو حبيباً واذكرْ بني يعقوبا
ضلّلوا مَنْ أحبَّ وهو أبوهم !!   ثم ظلّماً قد شرّدوا المحبوبا !!

(إن أبانا لفي ضلال ... الخ)

— ٢ —

قال الاستاذ العكاري :

شرح كلمة الضلال

لقد اختصر المفسرون في شرح كلمة « الضلال » اختصاراً ، ولكني أنا الحقير لن أقف عند هذا الاختصار ، لأني لم أقف عنده فيما بيني وبين نفسي ، بل جاوزته ، وأريد أن أجاوزه مع القراء الكرام ، إلى ما يقتضيه المقام ، من بسط في الكلام ، فأقول :

الضلال في الشيء فقدان الهدى فيه ، سواء أكان كثيراً أم يسيراً ، وسواء أكان عمداً ، أم سهواً ، أم تأويلاً ، وسواء أكان في الأمور الدنيوية ، أم في الأمور الدينية ، وسواء أكان في الفروع أم في الأصول ، ولذلك وصف به الكفار تارة ووصف به كبراء أهل الإيمان تارة أخرى ، فمن الضلال الذي هو فقدان الفروع الشرعية التفصيلية ، أو فقدان أفضل طريق لإرشاد البشر — قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ﴾ (٩٣ : ٧) ، أي رآك ضالاً عن فروع

الشريعة التفصيلية فهداك إليها بالوحي ، أو رآك ضالاً عن الطريقة المثلى التي تنبغي لإرشاد الناس ، فهداك إليها بالرسالة.

ومن الضلال الناشيء عن السهو والخطأ دون العمد ما في قول موسى: ﴿ فَعَلْتُها إذنْ وأنا مِن الضالِّين ﴾ (٢٦ : ٢٠) ومن إطلاقه على النسيان: ﴿ أنْ تَضِلَّ إحداهُما فتُذَكِّرَ إحداهُما الأخرى ﴾ (٢ : ٢٨٢)، ومن الضلال بمعنى الوقوع في الغلط عن تأويل دون تعمد الغلط: ﴿ ولا الضَّالِّينَ ﴾ (١ : ٧) قيل هم النصارى لأنهم لم يتعمدوا الكفر ، بل وقعوا فيه بسبب الجهل والتأويل ، بخلاف المغضوب عليهم اليهود فإن رؤساءهم وقعوا في الكفر عن عمد ، ومن الضلال في الأمور الدنيوية ما هو في آيتنا التي نحن بصدد التعليق عليها ، لأن الضلال الذي نسبوه لأبيهم إنما هو في معاملة أولاده ، ومثله ما في قول أحفاده: ﴿ تاللهِ إنكَ لَفِي ضَلالِكَ القديمِ ﴾ (آ : ٩٥) وقول النسوة المدنيات: ﴿ إنَّا لَنَراها في ضلالٍ مبينٍ ﴾ (آ : ٣٠).

وبعد فهذه الأنواع من الضلال هي أخف من الضلال الذي يكون في أصول الدين عمداً ، لا عن تأويل ، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿ وَوَيْلٌ للكافرينَ مِنْ عذابٍ شديدٍ ، الذينَ يَسْتَحِبُّونَ الحياةَ الدنْيا على الآخرةِ ، ويَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللهِ ، ويَبْغُونَها عِوَجاً ، أولئكَ في ضلالٍ بعيدٍ ﴾ (١٤ : ٣) وقوله تعالى: ﴿ فكذَّبْنا وقلنا ما نَزَّلَ اللهُ مِنْ شيءٍ ، إنْ أنتمْ إلاّ في ضلالٍ كبيرٍ ﴾ (٦٧ : ٩)، وقوله تعالى: ﴿ لقدمَنَّ اللهُ على المؤمنينَ ، إذْ بَعَثَ فيها رَسُولاً مِنْ أنفُسِهِم ، يتلو عليهم آياتِهِ ويُزَكِّيهِمْ ، ويُعَلِّمُهُمُ الكتابَ والحِكْمَةَ ، وإنْ كانوا مِنْ قَبْلُ لَفي ضلالٍ مُبينٍ ﴾ (٣ : ١٦٤)، فهذا النوع من الضلال هو ضلال الكفر العمدي ، الذي ليس شيء أكبر منه ، وعلامته أن يوصف

بوصف بعيد أو كبير أو مبين ، وما يشبه ذلك مما يشير إلى عظمه في باب الكفر .

وإنما وصف أبناء يعقوب ضلال أبيهم بأنه (مبين)تشدداً في البذاءة ، وغلواً في السفاهة على جناب والدهم عليه السلام .

انتقاد اخوة يوسف على تضليلهم ابيهم

أمر عجيب والله ، جماعة ليسوا بأولاد صغار ، ولكنهم رجال كبار ، وجماعة ليسوا عبارة عن ثلاثة أو أربعة ، ولكنهم عشرة ، كلهم يتفقون على حسد ولدين صغيرين لطيمين ، يتفقون على حسدهما ليس على شيء جوهري مهم ، ولكن على القبلة والبسمة والجلسة على الركبة ، يتفقون على انتقاد أبيهم وهم يعلمون أنه نبي معصوم، لا يحب إلا ما يحب الله ولا يكرم إلا من أكرمه الله ولا يخالف في حبه وكرهه شريعة الله ، كلهم يتفقون على الحكم عليه بأنه في ضلال ، وياليتهم اقتصروا على كلمة « ضلال » التي يوصف بها (بمجردها) كل من وقع في غلط مطلقاً ، بل وصفوا هذا الضلال بأنه « مبين » ، والضلال المبين أو الكبير أو البعيد ، لا يوصف به إلا الكافر المتعمد الكفر كما قدمنا ، ثم بعد هذا كله يأتي بعض المفسرين ويوجه عليهم لقب « النبوة » ، كأنه هو الذي يملك هذه الرتب ، وكأن بيده تصريف هذه الألقاب ، فيتفضل بإعطاء النبوة لأناس ، لم يقل الله أنهم أنبياء . ولا قال ذلك رسوله ، ولا روي ذلك عن الخلفاء الراشدين ، ولا عن الأئمة المجتهدين ، وبالله ماذا يعمل من يقول بذلك في الآية (٨)؟ هل يسقط هذا العدد من السورة ؟ فبعد ما كانت أعدادها (١١١) تصير أعدادها (١١٠) ؟ وهل يقدر أن يجتمع بجبرائيل أمين الوحي ليرجع اليه هذه الآية الثامنة ، بل الآيات الكثيرة من الثامنة الى الثامنة عشر ، وأضف الى ذلك الآية (٧٧) فهل يمكننا أن نطمسها من المصحف ، حتى

يمكننا أن نقول إن هؤلاء القوم أنبياء ؟ أو هل النبوة رتبة رسمية توجه لمن هو أهل لها ومن ليس لها بأهل ؟

الدخول الجِدّي في المؤامرة

آ(٩) ﴿ اقتُلُو يُوسفَ ، أو اطرَحُوهُ أرْضاً ، يَخْلُ لكُم وَجْهُ أبيكُمْ !!! وتكونوا مِنْ بعدِهِ قَوْماً صالِحِينَ !﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة فقام الحاج سعدي العكي[1] وقال :

﴿اقتلو يوسف﴾، كأنهم أطبقوا على ذلك ، إلا من قال :«لا تقتلوا يوسف» وقيل الآمر بالقتل شمعون ، والباقون كانوا راضين فجُعلوا آمرين﴿ او اطرحوه أرضاً ﴾منكورة مجهولة بعيدة من العمران﴿يخل لكم وجه أبيكم ﴾يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم الى غيركم ، والمراد سلامة محبته لهم ممن يشاركهم فيها وينازعهم إياها فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم ، لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه ، ويجوز أن يراد من الوجة الذات كما قال تعالى:﴿ ويَبْقَى وَجْهُ ربِّكَ ﴾ (٥٥ : ٢٧) وقيل يخل لكم : يفرغ لكم من الشغل بيوسف، ﴿وتكونوا من بعده﴾ من بعد يوسف ، أي من بعد كفايته بالقتل أو التغريب ـ أو يرجع الضمير الى مصدر « اقتلوا أو اطرحوا » ـ ،﴿قوماً صالحين﴾تائبين الى الله مما جنيتم عليه ، أو يصلح ما بينكم وبين أبيكم بعذر تمهدونه ، أو تصلح دنياكم

---

(١) نسبة الى عكا من أعمال فلسطين .

وتنتظم أموركم بعده ، بخلو وجه أبيكم ، وبعد ثما ذنب أخيهم حتى يقتل أو يطرح أرضاً ، والمجرم —على رأيهم— هوأبوهم ؟ ولكن صدق من قال :

لكل داء دواء يستطب به　　　إلا الحماقة أعيت من يداويها

وإنا لنعجب من هؤلاء الأذكياء المنصفين !! ، يريدون أن يخلقوا الفضيلة ، فضيلة توجه أبيهم عليهم ، من جريمة هي من أكبر الجرائم بعد الشرك بالله تعالى !!!...

(اقتلوا يوسف ... الخ)

- ١ -

ثم تابع الحاج سعدي العكي كلامه قائلا : ـ

الاقتراح بقتل يوسف أو ابعاده

كان الاخوة قد نقموا على أبيهم ، في تفضيله يوسف عليهم في الحب، وضللوه بسبب ذلك ، ولم ينقموا على يوسف شيئاً ما . فما بالهم الآن يأتمرون على قتله وسفك دمه الحرم بلا جريمة ولا جريرة ؟ .. إنّ هذا إلا أمر عجاب .

أصبح يوسف شغلهم الشاغل ، وصاروا يتقلبون منه على جمر الغضا،فاجتمعوا واقترحوا إهلاكه ! فيا للجريمة ! يا للفظاعة ! من يسمع هذا الحديث ولا يسخط على هذه الطريقة الشنعاء التي يريدون أن يستخدموها بقتله أو إبعاده أو اسقاطه في غياهب الجباب ؟ .. ثم ما الحيلة وما العمل ؟ والنافذ القوي لم يكن غير هؤلاء الإخوة الذين استبد بهم الحسد استبداداً . وأما يعقوب فكان شيخاً وحيداً ، ليس له بأولاده قوة ، بل هم قوة عليه ولم يكن له ركن شديد من عشيرته سوى أولئك المقاوِمين :

لو بغير المـــاء حلقي شرقٌ كنت كالغصّان بالماء اعتصاري

هم اتفقوا على حسد يوسف ، لسبب تفضيل أبيه له عليهم في المحبـة ، ذلك التفضيل الذي حجب أباهم عنهم ، وشغله بيوسف ، فلهذا اتفقوا على إزالته من الوسط ،ولم يختلفوا في ذلك ابداً – اللهم إلا رأوبين ويهوذا – نعم اختلفوا في شكل إزالتـه من وسطهم ، هل يقتلونه او يبعدونه ؟ كما هو راي الأكثرية الساحقة مبدئياً ، او يلقونه في غيابة الجب ، الذي تمر عليه التجار السائرون ، فيأخذوه معهم ، كما هو رأي يهوذا ، وقد تابعته الأكثرية الساحقة أخيراً ، فصار إجماعاً من الجميع ، وكأنهم تصوروا أن لهم حلقاً لا يعيشون إلا به ، وهذا الحلق هو محبة يعقوب إياهم ، وتوجه أنظاره عليهم ، وتفرغه لهم ، وكأنَّ يوسف حسكة في ذلك الحلق فعزموا على إزالته والإيقاع به ، ويجب أن لا ننسى ما نقله المفسرون عن « وهبة ابن منبه » ، ونقله صاحب (السنن القويم) عن مفسري التوراة أن الساعي في قتل يوسف هو « شمعون » ، فهو زعيم الثورة الذي يحمل على رأسه تاج العداء ليوسف.

مؤامرة قريش على قتل أو ابعاد أو حبس النبي (ﷺ)

سبحان الله ما أشبه الليلة بالبارحة !! وما أشبه هـذه المفاوضة بالمفاوضة التي صارت في دار الندوة من قريش ، في شأن النبي (ﷺ) ، فقريش أقرباء النبي كانوا بمنزلة إخوة يوسف ، ولكن ليس في كل شيء ، لأن إخوة يوسف مؤمنون وأما قريش فكافرون ، وإنما هو مثلهم في التـــألب على الأخيار ، وعقد جلسة المؤامرة على الناس الطيبين ، إذ كان النبي (ﷺ) هو موضوع مؤامرة قريش ، ويوسف موضوع مؤامرة إخوته ، وكذلك إخوة يوسف تمنوا أن يخلو لهم وجه أبيهم ، وبذلك تصلح شؤونهم ، وقريش تمنـوا أن يخلو لهم الجوّ في مكة فتصلح بذلك أمورهم ، وكان الحـــال في مؤامرة قريش على النبي (ﷺ) دائراً بين

حبسه في بيت وإبعاده من بين أظهرهم ، وقتله ، وأخيراً قرّ رأيهم على قتله ، قال تعالى :﴿وإذْ يَمْكُرُ بكَ الذينَ كفروا ليُثْبِتوكَ ،أو يقتلوكَ،أو يُخرِجوكَ﴾ (٨ : ٣٠) وهكذا كانت مؤامرة إخوة يوسف عليه ، وأخيراً قر رأيهم على حبسه في الجب ، هذا ما حضرني الآن فتأملوه رحمكم الله .

(اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً)

- ٢ -

وقال الحاج أسعد اللاذقاني :

الطرح أرضاً كالقتل

أوعز لهم شمعون بقتل يوسف أو إبعاده ، فتابعه جمهورهم على ذلك ، فهم أرادوا (بطرحه أرضاً) التغريب ، فإن الغربة كربة ، يقال : طرحت الشيء أبعدته ، ومنه قول الشاعر :

ومن يك مثلي ذا عيال ومُقْتِراً
من المال يطرح نفسه كل مطرح

وقد قرن الابعاد عن الديار بقتل النفس في قوله تعالى:﴿ولَوْ أنّا كَتَبْنا عليهمْ أنِ اقتُلوا أنفسَكُمْ ، أوِ اخرُجوا مِنْ ديارِكُم ما فعَلُوه إلاّ قليلٌ منهم﴾ (٤ : ٦٥) ، وقوله تعالى : ﴿ قالوا : ومَا لنَا ألاّ نُقاتِلَ في سبيلِ اللهِ ؟ وقد أُخرِجْنا مِنْ ديارِنا وأبنائِنا ﴾ (٢ ٢٤٦) ، وقوله تعالى : ﴿لا يَنْهاكُمُ اللهُ عنِ الذينَ لمْ يقاتِلُوكُمْ في الدينِ ، ولم يُخرِجُوكم مِنْ دِيارِكُم﴾ (٦٠ : ٨) وقوله تعالى : ﴿ وإذْ أخَذْنا مِيثاقَكُمْ لا تَسْفِكون

دِماءَكُم ، ولا تُخرِجُونَ أنفُسَكُم مِنْ دِيارِكُم ﴾ (٢ : ٨٤) ، وهـذه شريعة عامة في كل ملة ، ورغماً عن ذلك فنجد هؤلاء الأشبال العشرة الكرام !! قد تفـــاوضوا في إبعاد أخيهم عن فلسطين ، عن أبيه وسوغه وجـــده إسحق وباقي أسرته !!.

الفوائد المستنبطة من الآية

نعلم من هـذه المفاوضة أن الانسان قد يضعف عن احتمال سلطـــان الحسد وسيطرته عليه ، فيقدم على المخاطر المهلكة ، وهو لا يجهل مكان الخطر منها ، ولكنه يعجز عن مغالبة نفسه ومثاوراتها ، حتى يتردى في مهواتها .

ونعلم أن الأفراد التي تشكل جماعة قد يتواطؤون على عظائم الامور القبيحة.

ونعلم انه ينبغي للانسان أن يحترس ويتحفظ من النـاس حتى من أقاربه وانه لا يبعد أن يجتمعوا على ضرره . ونعـلم ، وهو المدهش ، انه ربمـــا يوجد أخوة كهول وشيوخ ، يغارون من أخ لهم صغير في سن الحُلُم ربمـا يكون لهم أولاد أكبر منه ، لا يترفعون عن حسدهم له وغيرتهم منه !!..

تعليل الاخوة الايقاع بيوسف

عللوا الإيقاع بيوسف بخلوّ وجه أبيهم لهم ، يريدون أن وجـود يوسف في الوسط ، مانع من تفرغ أبيهم اليهم ، وتوجهه عليهم ، وأنهم حريصون على ذلك ، ويهمهم كثيراً ، فتوصلاً لهذا الغرض الهام ، لا مندوحة لهم من أن يزيلوا هـــذه العقبة ، التي تحول بينهم وبين أبيهم ، هـــذا ما تظاهروا به ، وهذا ما تمركزوا عليه ، توصلاً للايقاع بأخيهم ، وهو علة مخالفة للعقل والمنطق والواقع ، وإنمـــا

العلة الحقيقية الحسد والبغضاء والعداء الناجم من مجموعة أشياء ، هي : مزايا يوسف وفضائله ، أخلاقه العالية ، كونه ابن (راحيل) الحظية عند والدهم ، التي كانت مترفعة جداً عن ضرتها (ليئة) ، وبالطبع عن (بلهة) و (زلفة) الجاريتين ، فهؤلاء كنّ حزباً ، وهي كانت وحدها حزباً آخر ، فلا بد أن يكون عداء هذا الفريق الأول قد سرى من النساء لأولادهن ، ولا تنس مراثيه المنامية وبشائر أبيه اليه ، التي بلغتهم فاستاؤا منها .

لماذا لم يدخلوا بنيامين مع يوسف في مؤامرتهم

وبعد فإنا لم نرهم حين المفاوضة أدخلوا في دائرة القتل أو الإبعاد (بنيامين) مع أنهم كانوا أظهروا التذمر من الأخوين معاً . فلماذا هذا يا ترى ؟ والجواب إن تذمرهم أولاً وبالذات إنما هو من يوسف ، وأما من بنيامين فثانياً وبالعرض ، ولهذا سمعناهم يقولون « ليوسف وأخوه » فلم يذكروه باسمه ، إشعاراً بأن محبة يعقوب له إنما هي لأجل عيون يوسف ، وأيضاً إنما كان بنيامين وقت هذه المفاوضة ابن سبع سنين ، فالدواعي للتعرض له بالضرر غير متوفرة ، بخلاف يوسف فإنه كان ابن سبع عشرة سنة ، وكان هو الشغل الشاغل لقلب أبيه فلذلك اقتصروا في مفاوضتهم على الإيقاع بيوسف فحسب .

(اقتلوا يوسف..الخ)

- ٣ -

وقال السيد جميل الناصري (١) :

أيها السادة : لي هاهنا أربع كلمات :

من هو صاحب الاقتراح بقتل يوسف او ابعاده

الكلمة الاولى — ربما كان الباديء باقتراح قتل يوسف أو طرحه أرضاً واحداً منهم هو (شمعون) على ما قاله مفسرو اليهود ، أو اثنين هما (شمعون ولاوي) على ما أظن أنا العبد الحقير ، لأنني أقرأ في التاريخ فأرى طبيعة الاثنين واحدة ، وأنهما متشابهان في الحركات القاسية (تك ٣٤ : ٢٥ و ٤٩ : ٥ - ٧) والباقي ردد هذا الصوت ترديداً ، أو قلد هذه الحركة تقليداً ، أو سكت عليها سكوت إقرار ورضىً ، أو ضم صوته الى صوت المقترح مؤيداً له ، ولذلك نسب هذا الاقتراح الى مجموع الاخوة ، لأنهم متكافلون متضامنون ، فمهما وقع من بعضهم وسكت عليه الباقي فهو منسوب لجميعهم ، ألا ترى الى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وأنتم ظالمون ﴾ (٢ : ٥١) وقوله جل ثناؤه : ﴿ وإذْ قلتم : ياموسى لنْ نُؤمِنَ لَكَ حتى نرى اللهَ جَهْرَةً ، فأخذَتْكُمُ الصاعقةُ وأنتم تنظُرُون ، ثم بعثناكم مِنْ بعدِ موتِكُمْ لعلكم تَشْكُرُونَ ﴾ (٢ : ٥٥ و ٥٦) وقوله جل ذكره : ﴿ وإذْ قلتم يا موسى لنْ نَصبِرَ على طعامٍ واحدٍ ﴾ (٢ : ٦١) وقوله سبحانه : ﴿ وإذْ قَتَلْتُم نَفْساً فادّارأتُم

(١) نسبة الى الناصرة من بلاد فلسطين .

فيها ، والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ (٢ : ٧٢) وقال تعالى : ﴿ فكذبوه فعقروها ، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم ﴾ (٩١ : ١٤ و ٥) وما إلى ذلك مما لا يحصى في الكتاب الكريم ، والأحاديث النبوية والآثار العربية .

الحسد هو الدافع الحقيقي لاخوة يوسف على ارادة قتله

الكلمة الثانية — ترتيب القتل على مجرد كون يوسف أحب لأبيهم منهم مما لا يقبله العقل ، ولا يدخل في دائرة من دوائر الفهم ، وعليه فلا مندوحة لنا من أن نلاحظ ان الدافع الحقيقي لهم على إرادة قتله إنما هو الحسد الشخصي — والحاسد غضبان على من لا ذنب له — مع العداء العائلي الموروث عن الأمهات الضرائر ، والذي سهل عليهم هذه الفكرة القاعدة الاجتماعية ، وهي ان الجماعة أقل مبالاة من الفرد ، لانحلال المسؤولية بكثرة التكافل ، ونحن إذا لم نحمل كلامهم على ذلك كان منال النجم أقرب من تطبيق حالهم على قاعدة من قواعد العقل .

انواع الأمزجة البدنية وتطبيقها على اخوة يوسف

الكلمة الثالثة — صدق من قال : (الأقارب أعداء الحياة ، أحباب ساعة قبل الوفاة) ، فهؤلاء الاخوة حسدوا يوسف ، فصارت نفوسهم تنازعهم الى الايقاع به ، وجعلوا يتفاوضون ويتساندون في كيفية إهلاكه ، ويظهر أنهم كانوا من أصحاب المزاج العصبي ، فإنهم لا يصبرون على ضيم ، ولا يستطيعون الكظم ، فاذا غضبوا غلبت عليهم الحدة ، حتى يخرجوا عن الصواب ، فربما بدرت من أحدهم كلمة يقولها عن غير روية وتثبت ، بخلاف أصحاب المزاج الدموي الذين لا تستحوذ عليهم الحدة ، ونظن أن كلاً من رأوبين ويهوذا من أهل هذا المزاج ،

وبعبارة اخرى — يوجد أناس يخرجهم الغضب عن طور التعقل فاذا غضبوا ظهرت أمارات الغضب في عيونهم وجباههم وألسنتهم ، ولذلك ندرت فيهم رباطة الجأش والصبر على المكاره ، وهؤلاء هم أهل الأمزجة العصبية ، ولعل إخوة يوسف الذين أشاروا بقتله هم من هذا القبيـــل ، ويوجد نوع هم من أقدر الناس على الكظم وكتمان ما تكنه ضمائرهم . فهم لذلك يصبرون عـلى الضيم ، فلا يخرجهم الغضب عن طور التعقل ، وذلك يساعدهم على كتمان عواطفهم ، فهؤلاء هم الذين غلب عليهم المزاج الدموي ، وربما كان كل من رأوبين ويهوذا من هذا النوع .

غرابة مشايعة دان ونفتالي لاخوتهم في المؤامرة

الكلمة الرابعة — إنا لا نعجب من هؤلاء الاخوة عجبنا من أخويه ولدي (بلهة) جارية أمه ، وهما (دان) و (نفتالي) ، فيوسف بعدما ماتت أمه راحيل ، وقد كان عمره تسع سنين ، انتقل هو وشقيقه بنيامين إلى خيمة جارية أمها هذه وهي (بلهة) وحضنته وأخاه المذكور ، فتربيا عندها مع ولديها المزبورين ، فكان مقتضى العادة والواجب أن لا يتفق أخواه هذان مع باقي إخوته على قتله أو طرحه أرضاً ، مع ان ظاهر الكتاب الكريم انهما ممن شايع وبايع مع الجميع على يوسف ، وهو أمر من الغرابة بمكان !

(اقتلوا يوسف أو اطرحوه . . الخ)

— ٤ —

وقال العلامة البيروني :

نظائر اعمال ابناء يعقوب العشرة في التاريخ

رب سائل يسأل : كيف جاز لهؤلاء الاخوة أن يفتكروا في حسد يوسف وطريده في العمر ، ويبغضوه ويتفاوضوا في قتله أو ابعاده في بيداء مجهل ، ثم أخيرا تتفق كلمتهم على القائه في غيهب الغيابة ، لكي تكون النتيجة بعده عن محبّيه ومُعاديه لوطن آخر يعيش فيه غريباً مشرّداً ؟ — كيف جاز أن يقع هذا مع انهم أبناء نبيّ مرسل ، بل من بيت نبوات ، فكان يجب أن تكون الأخلاق عالية ، والضمائر حساسة ، والقلوب رقيقة غير متحجرة ، لأن الانسان ابن التربية أو ابن أبيه ، والعرق دسّاس ، فإن نظرنا لنسبهم ، فالأب نخل كريم ، والبيت عريق في المجد وكريم الغرائز ، وإن نظرنا لتربيتهم فكان يجب أن تكون قد أثرت عليهم التربية البيتية أو الأبوية فنراهم رُحَمَاء وُدَعَاء متسامحين حساسين ، ذوي عطف وحنان ووجدان طاهر .

فكيف نقدر أن نجمع في أدمغتنا ما حكاه القرآن الكريم من نبوة يعقوب ورسالته وهدايته للبشر وإرشاده للناس قريبهم وبعيدهم من الاعتقاد بهذا الذي حكاه القرآن عنهم من هذه الأقوال والأعمال التي لا تصدر إلا عن عديمي الأخلاق فاسدي الطباع ، ناقصي التربية ، خبيثي النوايا ؟

وإذا كان يعقوب (ع) قد ثقّف عقول أمته وهذبها ، وأصلح طباع قومه وقومها ، وجب بالأولى أن يكون لأولاده من ذلك الحظ الأوفر ؟

وإذا لاحظنا أن جدهم إسحاق (ع) كان إذ ذاك موجوداً بين أظهرهم — لأنه عاش نحو عشر سنين بعد غياب يوسف — وكانوا قريبي العهد بسيرة الجد الأعلى إبراهيم (ع) زاد الإشكال وزادت الحيرة والاعتلال .

هذه صورة ما عسى أن يوجه إلينا من السؤال والاستشكال ، وأما الجواب عنه فنقول : إن كلا من الأصالة والتربية قد لا يفيد شيئاً إذا كان العبد لم يُمَدّ بالألطاف الإلـهية ، والتوفيقات الربانية ، والدين لا ينظر إلى هـذه الأشياء التي تنظر إليها الناس ، ولكنه يقول في الكتاب الكريم : ﴿ إنَّ أكرمَكُمْ عندَ اللهِ أتقاكُم ﴾ (٤٩ : ١٣) ويقول في الحديث الشريف « اليومَ أرفعُ نَسَبي وأضعُ أنسابَكُم ، أينَ المتّقونَ ؟ » ، ويقول الشاعر :

لعمرك ما الإنسان إلاّ بدينه
فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب
لقد رفع الإسلام (سلمان) فارس
كما وضع الكفرُ الشريفَ (أبا لهب)

فما ترى من أبناء يعقوب ليس ببدع في التاريخ بل له نظائر وشواهد تدانيه وتقاربه وإننا نجتزىء بالبعض منها فنقول :

١ — انظر لآدم (ع) مع كونه نبياً ورسولاً لم يؤثر على ولده (قابين) ، فكان شريداً فاسداً ، حتى قتل شقيقه (هابيل) ! ولماذا يا ترى ؟ لا لشيء سوى أن (هابيل) رجل صالح تقي قد تقبل الله منه تقدمته ، وأن (قابين) رجل عاص طاغ ، فلم يتقبل الله منه التقدمة ، قال تعالى : ﴿ واتلُ عليهِمْ نَبَأَ ابنَيْ آدمَ

بالحق ، إذ قَرَّبا قُرْبَاناً ، فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِما ، ولم يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخرِ ، قال : لأَقْتُلَنَّكَ ، — قال إنما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِينَ ،لَئِنْ بَسَطْتَ يدكَ إليَّ لِتَقْتُلَني ، ما أنا بِبَاسِطٍ يَدي إليكَ لأَقْتُلَكَ ، إنّي أخافُ اللهَ ربَّ العالمينَ ، إنّي أُريدُ أنْ تَبُوءَ بإثْمي وإثْمِكَ ،فتكونَ من أصحابِ النارِ ، وذلكَ جزاءُ الظالمين،—فطوَّعَتْ له نفسُهُ قَتْلَ أخيهِ فقتَلَهُ، فأصبحَ مِنَ الخاسِرِينَ ﴾ (٥ : ٣٠ - ٣٣) .

٢ — انظر إلى نوح (ع) فهو مع كونه نبياً مرسلاً ، لم يؤثر على ابنه كنعان، ولا على امرأته أم أولاده ، فكانا كافرين به ، مخالفين له ، كامرأة لوط (ع) قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مثلاً لِلَّذينَ كَفَرُوا — امرأةَ نوحٍ وامرأةَ لوطٍ ، كانَتَا تحتَ عبْدَيْنِ مِنْ عبادِنا صالِحَيْنِ ، فخانَتَاهُما فلم يُغْنِيَا عنهما مِنَ اللهِ شيئاً ، وقيلَ : ادخُلا النارَ مَعَ الداخلينَ ﴾ (٦٦ : ١٠) .

٣ — انظر إلى ابراهيم(ع) نبي الله ورسوله وخليله،لم يؤثر على أبيه آزر(تارح) فكان عدواً لله (٥ : ١١٥) .

٤ — انظر لاسحق (ع) نبي الله ورسوله ، لم يؤثر على ولده (عيسو)الذي كان حقد على أخيه يعقوب (ع) وسخط وغضب عليه،ونوى متى توفي أبوه إسحاق أن يقتله ، كما يعلم هذا كله من التاريخ ، ونعلم منه أيضاً أن المقاومة والمناوأة كانت على أشدها بينه وبين شقيقه يعقوب ، فكان عدواً له،مخالفاً له في المسلك والأخلاق ومنحطاً جداً أمام ارتقاء أخيه ، ولذلك لم تقع بـــه البشارة في قوله تعالى : ﴿ فبشَّرْناها باسحقَ ، ومِنْ وَرَاءِ إسحاقَ يعقوب ﴾ (١١ : ٧١) ، ولم يعنِ الله بهبته لأبيه في قوله : ﴿ وَوَهَبْنا له إسحاقَ ويعقوبَ نافلةً ، وكلاً جعلنا صالِحِينَ ﴾ (٢١ : ٧٢) .

٥ ـ انظر إلى يعقوب (ع) لم يؤثر على خاله (لابان) إذ بقي في وثنيته رغماً عن كونه خاله وحماه ، ورغماً عن انه قد صحبه نحو (٢٠) سنة .

٦ ـ انظر إلى داود نبي الله ورسوله والخليفة في الأرض بعد حميه الملك (طالوت) فهو لم يؤثر على ولده (أمنون) الذي ذكر التاريخ انه اغتصب أخته (ثامار) ـ والعهدة في ذلك على مؤرخي التوراة ـ وكذا لم يؤثر على ولده (أبشالوم) الذي قيل أنه أمرَ غلمانه بقتل أخيه (أمنون) في وليمة دعاه إليها ، انتقاماً منه لشقيقته (ثامار) فقتلوه ، وكذا لم يؤثر على ولده (أبشالوم) أيضاً في حادثة أخرى ، وهي أنه كان أفسد الشعب على أبيه ، ليكون بدله في المُلْك ، حسداً لأخيه (سليمان) إذ كان أبوه يميل إليه ، وكان حق الملك بحسب السن إلى (أبشالوم) ، لأنه كبير إخوته حينئذ ، فقام على أبيه وتملك في حياته ، وحارب أباه حتى دخل عاصمة ملكه (أورشليم) ، وألجأ أباه للهرب منها ، وفيما بعد قتل (أبشالوم) في ميدان الحرب ، كما ذكر ذلك المؤرخون .

٧ ـ انظر إلى سليمان (ع) وهو نبي مرسل ، وملك قوي ، وكان ابنه (رَحُبْعَام) تربى بين يديه ، وتحت نظره ، ثم تولى الملك بعده ، فأثار روح الغضب في الشعب بسوء إدارته ، فسبب انقسام المملكة لاثنتين ، إذ خرج عليه عشرة أسباط وشكلوا المملكة الشمالية ، ولم يبق معه سوى سبطين ، هما يهوذا وبنيامين ، الأمر الذي سبب الضعف والانحلال والمحاربات الداخلية والخارجية ، حتى فنيت المملكتان ، ولم نر أن تربية سليمان لولده رحُبْعام أثر في حسن حاله واستقامة إدارته شيئاً .

٨ ـ قد تخاصم أخَوانِ من بني إسرائيل وتحاكما إلى نبي الله داود (ع) وليس على أمر ذي بال ، ولكن على نعجة من الغنم كما قال تعالى : ﴿ وهل أتاكَ نَبأُ

الخصم إذ تسوروا المحراب ، إذ دخلوا على داود ، ففزع منهم : قالوا : لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واهدنا إلى سواء الصراط ، إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ، ولي نعجة واحدة ، فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب ، — قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ما هم ﴾ (٣٨ : ٢١ - ٢٤) فهذان الأخوان هما من الشعب الإسرائيلي من رعايا داود بصفته ملكاً ، ومن مريديه بصفته خليفة ، ومن أمته بصفته نبياً ورسولاً ، ومع ذلك فلم تؤثر تربيته لهما على المتعدي منهما أن لا يكون قد تعدى على أخيه الفقير المسكين .

٩ ـ قد تعدى (أدونيا) بن داود (ع) من زوجته (حجّيث) ، على أخيه (سليمان) بن داود من زوجته (بثشبع) فجلس (أدونيا) المغتصب على عرش مملكة أورشليم الموعود به من داود لسليمان ، والمبايع عليه من الشعب ، ثم رجعت المياه لمجاريها ، ورد الملك المغتصب لصاحبه الشرعي ، كما قال تعالى : ﴿ولقد فتنا سليمان ، وألقينا على كرسيه جسداً ، ثم أناب ، قال : رب اغفر لي ، وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ، إنك أنت الوهاب ﴾ (٣٨ : ٣٤ و٣٥) .

١٠ ـ وهذا أبو العباس السفاح قتل نحو (٩٠) رجلاً من بني أمية ، كانوا جلوساً على مائدته يأكلون ، فأمر بهم ، فضربوا بالعمد حتى قتلوا ، وبسط عليهم الأنطاع فأكل الطعام عليها ، وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً ، كما في ابن الأثير .

وتتبع بنو العباس من كان بالشام من أولاد الأمويين الخلفاء وغيرهم فأخذوهم .

وقتلوهم ، ولم يفلت منهم أحد ، سوى رضيع أو من هرب منهم إلى الأندلس ، ولم يكتفوا بذلك بل عمدوا إلى قبور بني أميـة فنبشوها ، توصلاً لمحو آثارهم ، وأخرجوا جثة هشام فضربوها بالسياط وصلبوها ، وحرقوها وذروها في الهواء.

١١ ـ وهذا أبو جعفر المنصور أمر بقتل بضعة عشر رجلاً من آل الحسن رضي الله عنه فقتلوا جميعاً بعد نقلهم من المدينة الى العراق.

١٢ ـ وهؤلاء هم سلاطين آل عثمان فمنهم من قتل أولاده ومنهم من قتل اخوته ومنهم من حارب أباه ومنهم من قتل نساء أبيه .

١٣ ـ وأخيراً هذا أبو لهب عم النبي ﷺ وهذه زوجه (أم جميل) القرشية كانا على أشد العداء والمقاومة للنبي ﷺ ، رجل يفسد عليه الرجال ، وامرأة تفسد عليه النساء .

وعلى الجملة فإيذاء الأقارب بعضهم لبعض معهود في التاريخ ، تمشياً مع قاعدة (الأقارب كالعقارب) و (الأقارب لا تقارب) ، و (امرأة الأب نقمة من الرب ، لا تحِبُ ولا تُحَبُ) و (العم عمى ، والخال خالٍ من المنفعة) و (صِلُوا قراباتِكُم ولا تجاوروهم ، فإن الجوار يورث بينكم الضغائن) ، و (رُبَّ أخٍ لك لم تلده أمك).

إن كل ما ذكرناه من الأمثلة التاريخية لا يشابه ولا يداني حادثة هؤلاء آباء الأسباط الكرام !! لأن تلك الحوادث جرائم فردية لا أهمية لها باعتبار أنها صدرت من فرد سقط في هوة الغلط ، وأما أنَّ إخوة عشرة كبـــار ، كهول وشيوخ أزمعوا على قتل أخ لهم هو أصغرهم فهي جريمة صدرت من جمع ، وهي من الأهمية والغرابة بمكان !! لا سيما إذا تصورنا أنهم أبناء نبي ورسول ، ثم لا سيما إذا تصورنا أن حاله تشبه حالة من قال : « غيري جنى وأنا المعذب فيكم » ، ثم لا سيما إذا تصورنا

أنهم أخذوه من أبيه تحت العهود والأيمان أن يحفظوه ويكلأوه ،ثم وأخيراً إذا تصورنا أنهم بذلك العمل يكونون: قـــد أغضبوا أباهم عليهم وأحزنوه ومرّروا عيشته !!! فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ولا نقول في شأن هؤلاء الناس آباء الصهيونيين إلاّ ما يرضى الشريعة ، فاللهم أدم ضرب الزلة والمسكنة عليهم إلى يوم الدين .

أصوات من المستمعين:

(آ ... مين)

(اقتلوا يوسف . الخ)

— ٥ —

وقال الامام الدمشقي القيمري [١] :

لي ههنا على هذه الآية الكريمة الكلمات التالية:

التستر وراء الدين للتوصل للمآرب الشخصية:

الكلمة الأولى — في تلك الجلسة المشؤمة،جلسة المؤامرة القاسية على يوسف أبدوا هذا الرأي الوخيم ، إصغاء لنداء الحسد والغيرة والأثرة ، ومع الأسف لم يصغوا لنداء ضمائرهم ، وإلاّ لما افتكروا هذا الفكر الرديء .

ورغماً عن أن قلوبهم كانت تناجيهم بأن هذا الفكر سيء ، فقد تعاهدوا عليه وتواثقوا ، وصمموا على إبرازه من حيز القول لحيز العمل ! ، — لولا أن قال قائل منهم بغير مقالتهم ، ورأى رأياً غير رأيهم — وقد احتجوا على الإقدام على هـذا العمل الخطير بدفع تشويش معيشتهم مع أبيهم ، وتفرغه لهم .

(١) نسبة الى حي القيمرية بدمشق (سورية)

وما أشبه هذه المؤآمرة بالمؤامرة التي صارت بين « البرك » بن عبد الله التميمي و « عمرو » بن بكر التميمي ، و « عبد الرحمن بن ملجم » المرادي » لأجل قتل الأول « لمعاوية » بن أبي سفيان ، وقتل الثاني « لعمرو بن العاص » وقتل الثالث « لعلي » بن أبي طالب رضي الله عنه ، تذاكروا واتفقوا على قتلهم ، دفعاً للفتنة وإراحة المسلمين منهم — في زعمهم — ، هذه شبهتهم التي هي أوهى من بيت العنكبوت ، كما أن شبهة إخوة يوسف أضعف من لعاب الشمس ، ومع ذلك فيوجد فرق كبير ، أو فروق كبيرة ، بين هذه الحادثة وتلك الحادثة الأخرى .

وا عجباه لعمري إن هذا شيء لم يسمع بمثله في تاريخ الجرائم ، هاجت فيهم عوامل الغيرة ، ولا ذنب ليوسف سوى أنه وجد في طريقهم لأبيهم عَرَضاً وهو لا يعلم ولا يقصد ، وما أقدر المنشيء لهذه الفكرة ؟ فقد تلطف وتعلل بهذه العلة الدينية ، علة أن أباهم لم يزدهم حباً عن يوسف لأنهم انفع منه ، بل لم يساوبينه وبينهم في الحب كما هو الواجب ، عللوا بذلك — وهم يعلمون فساده — توصلاً للقضاء على أخيهم : كمنوا وراء أكمة الدين ، ليُصمّوا إنساناً هو من أهل الدين باسم الدين، يتسترون بذلك تغفيلاً للجاهلين ، وفي الحقيقة إن الدافع لهم لهذا العمل إنما هو العداء والنزق ، وثورة القوة ونشوتها .

عجباً لهؤلاء الإخوة الأكارم أجداد الصهيونين الرحماء !! أشاروا بهاته المشورة السوءى، وألبسوها لباساً دينياً ، ليستثمروها ويستخدموها لغرضهم الشخصي النفساني فوا أسفاه !

نحمدُ الله تعالى على أنهم لم يكونوا قضاة إذ لو كانوا كذلك لحكموا بالموت على كل إنسان أجمل منهم أو أعلم أو أثرى أو أكمل ، ولماذا ؟ لأنه يشغل الناس عنهم، ولكانوا حكموا على كل من كان أفضل منهم بالموت ، فتأملوا واعجبوا .

الحسد والغيرة والعداء هي أصل كل شر

الكلمة الثانية — نرى من قولهم : ﴿ يَخْلُ لَكُم وَجْهُ أبيكم ﴾ انهم لم يأتوا على ذكر القتل أو الإبعاد ، إلامشفوعاً بذكر خلوّ أبيهم إليهم ، فالنتيجة التي توخوها من الإيقاع بأخيهم صالحة وحسنة جدا ، ولكن مقدمتها ثقيلة جداً ، وغير جائزة ، فهم كمن يريد أن يسرق المال ، ليتصدق منه أو الماء ليتوضأ به ، على مذهب من يقول : (النتيجة تبرر الواسطة) وهو غلط فاحش ولذلك نراهم أخيراً عدلوا عن هذه المقدمة الى مقدمة اخرى ، هي وان تكن ايضاً غير جائزة ، لكنها أخف من سابقتها ، « وبعض الشر أهون من بعض » فالايقاع بأخيهم ليس عندهم مقصوداً لذاته ، بل هو يراد كواسطة للوصول الى أمر مطلوب لذاته ، هو توجه أبيهم اليهم ، وحنانه وعطفه عليهم ، وكذريعة لحصولهم على خلوة يجدونها في قلب أبيهم يسكنون فيها ، ولكن هذا كله بحسب ظاهر كلامهم ، والحقيقة أن العامل الوحيد الذي دفعهم لذلك هو الحسد ، لا غير .

إن كانت محبة الأب لأولاده ، وتوجه نظره إليهم ، لا تكون الا بقتل ابنه المحبوب الوديع ، فرحمة الله على الفضيلة ، وليبك الباكون عليها ، وعلى مصيرها الحزن الأليم ، عجباً لهولاء الأبناء الأذكياء !! الذين يريدون أن يحبهم أبوهم ، ويخلص لهم ، على حساب ظلم ابنه المحبوب وقتله !

ومع ذلك ، فغني عن البيان أن عملهم هذا الذي افتكروا فيه مبدئياً ، يزيد الطين بلة ، والقلب علة ، ويوجب زيادة عدم عناية أبيهم بهم ، فيؤدي إلى عكس النتيجة المطلوبة لهم ، ولكن عوامل الغيرة ، وبواعث الحسد والعداء هوّنت عليهم هذا الأمر العسير ، وصورت لهم المحال ممكناً وجعلتهم يتخيلون

المانع سبباً موجباً ، حتى أقاموا على أخيهم حرباً أهلية ، وتآمروا على ضره بحجة ما أنزل الله بها من سلطان

النتيجة عند اليهود تبرر الواسطة مهما كانت منحطة

الكلمة الثالثة — قالوا : ﴿ يخل لكم وجه أبيكم .. الخ ﴾ فتمنوا أن تكون حالهم بحيث يصدق عليها قول القائل :

يالكِ مِن قُنْبُرَةٍ بِمَعْمَرِ خلا لكِ الجوّ فبيضي واصفِري
ونقّري ما شئت أن تنقري[1]

منّوا أنفسهم بهذه الأمنية التي هي بعيدة عنهم بعد السماء عن الأرض ، ووعدوا أطماعهم بما هو ضرب من المحال ، لأنهم بالاقدام على هذا الحوب الكبير يثيرون حفيظة أبيهم عليهم بعكس ماتخيلوا .

وأما قولهم ﴿وتكونوا مِنْ بعده قَوماً صالحين﴾ فشبكة أرسلوها ليصيدوا بها ثلاثة أشياء : « ١ - صالحين أي تائبين الى ربكم مما جنيتم على أخيكم ، ٢ - صالحين أي يصلح ما بينكم وبين أبيكم بعذر تمهدونه له ، ٣ - صالحين : أي تصلح دنياكم وتنتظم أموركم بعده بخلو وجه أبيكم لكم ، وتصيروا مسرورين فرحين ، فهذه ثلاثة معان ، صيرت برمية واحدة ، وهذا هو شأن اليهود من القديم ، وهذا هو حال سلالاتهم الصهيونيين اليوم في فلسطين ، النتيجة تبرر الواسطة ، فهما كانت منحطة وسافلة !!! .

(١) المعمر : المنزل الكثير الماء والكلاء او هو اسم لموضع بعينه

نقر (بتشديد وفتح القاف) : في الموضع تنقيراً سهله ليبيض فيه · ونقر (بتشديد القاف) صوت (بتشديد الواو)

ان اكرمكم عند الله اتقاكم

الكلمة الرابعة ــ يتبين من إرادتهم قتل أخيهم ظلماً أنه ليس يكفي الانسان حتى يكف عن الأذى الوخيم أن يكون ابن نبي الله،أومن سلالة بيت كريم بل يجب قبل كل شيء أن يكون ابن تربية كاملة ، صاحب أخلاق فاضلة ، ونفس كريمة ، تمنعه من ارتكاب ما لا يجوز في ملة من الملل ، ولعمري إنه كان يكفيهم أن يتفاهموا مع أبيهم في تفضيله يوسف في الحب عليهم ، قبل أن يفتكروا في قتله ، والكي لا يكون إلا آخر الدواء.

بعض طبائع الاسرائيليين

الكلمه الخامسة ــ قص الله تعالى مفاوضة هؤلاء الاخوة في قتل أخيهم ليوقفنا على بعض طبائع الإسرائيليين التي منها أنهم قد يجتمعون على شر الشرور،ولا يخجل بعضهم من بعض ولا يبالي بضميره ، وإذا وجد فيهم واحد هو أحسن منهم،أشار عليهم بأخف الشرين ، ذلك لكي نعتبر ، ونكون دائماً على حذر ، من سلالتهم اليهود (أبناء العم) المحترمين !! خاصة الصهيونيين ، الذين كأنما « قانون الوراثة » قد ظهر فيهم بأجلى أمثلته .

ما هي افكار الصهيونيين اليوم مع ابناء اسماعيل

الكلمة السادسة ــ يظهر من مذكراتهم في موضوع القتل ، أنه كان قسم منهم من ذوي العزم والشرس ، وكان في قسم آخر نزق الشباب ، فغلت في قلوبهم مراجل العداء والتهبت في صدورهم نار البغضاء فلفظوا بهذا القول ، وقد أخذ

الحماس منهم مأخذاً عظيماً، هذه أفكارهم مع أبناء جلدتهم فماعسى تكون أفكارهم مع ابناء اسماعيل؟ وماهو الفكر اليوم عند سلائلهم الصهيونيين! هل يقولون إلا كما قالت أجدادهم في الجزيرة : « لَيسَ علينا في الأميِّينَ سَبيل !»(٣:٧٥)

الطرح أرضاً في اللغة

الكلمة السابقة — قولهم ﴿ أو اطرحوه أرضاً ﴾ : يقال بلد طروح ومكان سحيق ، ومحلة نازحة ، والمعنى أبعِدُوه لغير أرض ، أبعدوه لأرض منكورة مجهولة بعيدة عن العمران ، اجتهدوا في ذلك ، فإن لهذا العمل ما بعده ، أتيهوه في بَيْداء مَجْهَل ، وعلى الدنيا السلام .

كلمة اطرحوه في القرآن

الكلمة الثامنة — راجعنا القرآن من أوله إلى آخره فلم نجد لفظة ـ اطرحوه ـ قد بدرت من فم جبار من الجبابرة ، أو ظالم من الظلمة ، ولكن إنما رأيناها تلوح كالزهرة اليانعة على فم هؤلاء الأشبال الكرام !! في أخيهم المغدور ، فلا .. ولا .. وإنّا .. وإنّا ..

الصلاح وأقسامه

الكلمة التاسعة — قالوا (وتكونوا من بعده قوماً صالحين) يطلق الصلاح على الصلاح الدنيوي ، وعلى الصلاح الديني ، والآية التي ههنا تحتمل الوجهين ، كما احتملها ما في قوله تعالى : ﴿ وأنكِحُوا الأيامى منكم والصالحين مِنْ عبادِكم وإمَائِكم ﴾ (٢٤ : ٣٢) أي من كان تقياً غير مفسد، أو أريد بالصلاح القيام بحقوق

النساء ، وقوله تعالى : ﴿ ولقد كتبنا في الزّبور من بعْدِ الذّكر أنّ الأرضَ يَرثها عبادِيَ الصالحون ﴾ (٣١ : ١٠٥) أي المتقون ، أو الذين فيهم أهلية لخدمتها وعمرانها وحراستها والمحافظة عليها وإقامة العدل فيها ، ومن اطلاقه على الصلاح الدنيوي خاصة ما في قوله تعالى : ﴿ وأصلحْنا له زَوجَهُ ﴾ (٢١ : ٩٠) أي جعلناها صالحة للولادة بعد عُقرها ، وقوله تعالى : ﴿ سيَهْديهِمْ ويُصلِحُ بالَهُمْ ﴾ (٤٧ : ٥) أي يحسن أحوالهم الدنيوية ، وأما شواهد إطلاقه على الصلاح الديني خاصة ، فهي في كتاب الله أكثر من أن تحصر .

الحسد والغبطة والمنافسة

الكلمة العاشرة — تعلمون أن الحسد هو تمني زوال النعمة عن الغير ، بأن يتمنى الإنسان أن يغرق مالُ فلان أو يُحرَق،أو أن تزول عنه الأرباح في تجارته أو تتبدل محبة الناس له بكراهتهم إياه ، وعلى الأقل تزول تلك المحبة ، أو أن تتحول عافيته إلى مرض ، أو يموت أولاده ، أو يعزل في منصبه،وهكذا لا فرق في ذلك بين الحسد على الأمور المادية ، والأحوال المعنوية ، كما لا فرق بين أن يتمنى تحول هذه النعمة إليه أو إلى غيره ، ولا فرق في هذا التمني بين أن يكون تمنياً قلبياً فقط بحيث لا يتعدى الفكر ، أو تمنياً يترتب عليه السعي بالمكر ، بأن يسعى لإزالة الربح أو الحب عن المحسود ، وأن يبذل جهده في إحباط عمل المحسود ، وعدم معاملة الناس له أو عدم إسناد المنصب لعهدته ، إلى غير ذلك ، وهذا النوع حرام ممقوت يمقته الله وملائكته ، وأهل المروءة من الناس ، وهو معدود من الكبائر ، وهو يشف عن سوء النيه ، وخبث الطوية .

وأما تمني مثل نعمة الغير من غير أن تزول عنه تلك النعمة فهو حسد محمود ،

ويسمى بالحقيقة « غبطة » ولا يسمى حسداً إلا مجازاً ، وصورة ذلك أن يجاري الرجل غيره ويسابقه مسابقة ، ويجتهد اجتهاده ويحصل الأسباب التي اقتضت ثروة غيره مثلاً ، ويسلك المسلك الذي سلكه غيره من الناس المحبوبين حتى يصير محبوباً مثله .

وهذا النوع من الحسد ، وبعبارة أصح من الغبطة ، إنما وجد في الإنسان لطلب المجد والرفعة وعلو الشأن ، وليسابق الإنسانُ غيرَه في المفاخر والفضائل والمجد والثروة ، فتربو المساعي ، وتكثر الأعمال ، ويزداد العمران ، ويترقى نوع الإنسان ، وهذا النوع من الحسد ، كما يسمى (غبطة) فهو حقيق أيضاً بأن يسمى (منافسة) .

واعلم أن الحسد لا يكون إلا بين المتشاركين في حال ، كالجار والصهر والقريب ، وكالمشارك لك في صناعة أو تجارة أو زراعة ، أو امارة أو علم أو سن ، أو المقيم معك في مدرسة أو منزل أو شارع أو بلد ، وأكثر ما يكون الحسد بين الجيران والأقارب ، مع المعاصرة في الزمن ، والمقاربة في السن ، والمشاركة في المسلك ، وكلما ارتفع صيت الإنسان حسده من يشاركه في ذلك الصيت ، ويزاد الحسد كلما ازداد الصيت وحَسُنَ الذِكْر ، وكلما زادت ثروة المحسود ، وكثرت عمّالُه وأعماله .

عمل اخوة يوسف مع يوسف من الحسد الممقوت المشؤوم

إذا تقرر هذا فعمل إخوة يوسف مع يوسف ، هو ليس من قبيل الحسد المحمود ، الذي هو حسد الغبطة أو المنافسة ، لأنهم لو أرادوا هذا المعنى لبحثوا عن الأسباب التي اقتضت زيادة محبة أبيه إليه ، واتصفوا بها وسلكوا المسلك الذي

يسلكه يوسف ، لكي يتحصلوا على مثل تلك الدرجة من الحب ، فكان يجب عليهم ، بدلاً من أن يفتكروا في الإيقاع بيوسف أن يجتمعوا ويتفاوضوا فيما يعود عليهم بمحبة أبيهم إليهم ، وعطفه عليهم بمثل درجة محبته وميوله ليوسف ، ثم ليس هو من قبيل الحسد الممقوت فقط ، لأنهم لم يتمنوا زوال نعمة الحب فحسب ، بل تمنوا وافتكروا في إزالة شخص أخيهم من الوجود ، أو على الأقل من فلسطين وهذا النوع من الحسد نادر المثيل ، وهو أرذل وأخش أنواع الحسد المشؤومة .

سبب اقتصار الاخوة الحكم على يوسف وحده

الكلمة الحادية عشرة — تعلمون أنهم كانوا أولاً ذكروا يوسف وأخاه بنيامين ولكننا نراهم الآن لم يتفاوضوا إلا على يوسف فقط ، فلماذا يا ترى ؟ والجواب لائح وهو أن يوسف في نظرهم هو علة العلل ، هو العلة الوحيدة ، هو أساس كل علة هو العدو الأزرق ، هو العقبة الكؤود التي إذا زالت زالت كل أتعابهم ، وأما بنيامين فليس مهماً كثيراً في نظرهم ، لأنهم لم يسمعوا منه يوماً أن الكواكب خرت من السماء وسجدت بين رجليه ، فلم يكن قد أخذ من قلب أبيه عشر معشار ما أخذه يوسف .

ما أشبه الليلة بالبارحة أو حال الصهيونيين اليوم مع عرب فلسطين

الكلمه الثانية عشرة — أنتم تسمعون الآن أن هؤلاء الأشبال يقولون : ﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾ وأما نحن فنعلق عليه بأن الدم الذي كان يتمشى في عروق هؤلاء

الأجداد هو الدم الذي يتمشى اليوم في عروق السلائل اليهودية الصهيونية وما أشبه الليلة بالبارحة ، فالصهيونيين اليوم - حيث طال عليهم الأمد فقست قلوبهم - يريدون قتل أبناء عمومتهم العرب!!! الواقفين أمامهم في جبهة فلسطين ، يريدون قتلهم معنوياً بسلب أراضيهم ، والهجوم على اقتصادياتهم ، ومرافق حياتهم، وكل أسباب عيشهم من مناصب حكومة ، إلى فلاحة إلى تجارة ، إلى كل منابع العز والثروة كما أنهم بالتالي والنتيجة يريدون طرح إخوانهم العرب أرضاً ، بإلجائهم للبعد عن فلسطين ، والتغرب لتناول القوت في شتى البلاد ، وقسرهم لذلك قسراً وذلك حرصاً منهم على أن يكونوا أكثرية في فلسطين، بل أن لا يكون غيرهم فيها، فيشكلوا تلك الدولة الصهيونية الخيالية بهمة زعمائهم !! ويكونوا من بعد هذا كله ﴿قوماً صالحين﴾ (ع ٩) تصلح لهم أمور دولتهم ، ويفرضون على بقايا العرب الذين سيحتالون في بقائهم في فلسطين أن يكونوا «محتطبي حطب ومستقي ماء لكل جماعة» (يش ٩ : ٢١) فيا أيها العرب والمسلمون : إن موعد اليقظة والحذر قد اقترب ، فاحتاطوا لأنفسكم ، قبل أن يحاط بكم ، وإياكم أن تستبعدوا ما أقول ، لأنه إذا كان أجدادهم أبناء الأسباط افتكروا هذه الفكرة في حق بعضهم، فهل من البعيد أن يفتكروا نفس هذه الفكرة أو أسوأ منها في بني عمهم العرب ؟ هذا وليس صهيونيو اليوم بأفضل من آبائهم ، كما أن عرب اليوم ليسوا بأحسن من يوسف (١) .

شواهد من التوراة على صلابة اليهود وقساوتهم ووحشيتهم

حقاً إن اليهود حجر عثرة، وعظمة يابسة في حلق كل العالم الذي على وجه المسكونة

(١) لقد كتب المؤلف هذا الكلام قبل سنة ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م)

وعيناً إنهم سبب كل اضطراب ، وعلة كل تشويش وجد ويوجد فوق الكرة الأرضية ، فقديماً أتعبوا يعقوب وأحزنوه ، كما تراه في هذه السورة ، وأتعبوا موسى وآذوه ، حتى قيل في شأنهم : « وقال الرب لموسى : رأيت هذا الشعب ، وإذا هو شعب صلب الرقبة ، فالآن اتركني ليحمي غضبي عليهم وأفنيهم » (خر ٣٢ ٩ و ١٠) وعن النبي حزقيال : « وقال لي : يا ابن آدم ، أنا مرسلك إلى بني إسرائيل ، إلى أمة متمردة ، قد تمرّدت عليّ ، هم وآباؤهم عصوا عليّ إلى ذات هذا اليوم ، والبنون القُساة الوجوه والصُّلاب القلوب أنا مرسلك إليهم فتقول لهم : هكذا قال السيد الرب، وهم إنْ سمعوا وإن امتنعوا لأنهم بيت متمرد ، فإنهم يعلمون أن نبياً كان منهم ، أما أنت يا ابن آدم . فلا تخف منهم ومن كلامهم لاتخف، لأنهم قريس وسُلاّء لديك ،وأنت ساكن بين العقارب ، من كلامهم لاتخف ، ومن وجوههم لا ترتعب ، لأنهم بيت متمرد ، وتتكلم معهم بكلامي ، إن سمعوا وإن امتنعوا ، لأنهم متمردون » (حز ٢ : ٣ ـ ٧) ، وقال الرب : « لكن بيت إسرائيل لا يشاء أن يسمع لك ، لأنهم لا يشاؤون أن يسمعوا لي ، لأن كل بيت إسرائيل صلاب الوجوه وقساة القلوب » (حز ٣ : ٧)، وقال الرب . « فلم يسمعوا بل صلبوا أقفيتهم ، كأقفية آبائهم » (٢ مل ١٧ : ١٤) وقال :«صلبوا وجوههم أكثر من الصخر » (إر ٥ : ٣) وقال : « فلم يسمعوا لي ولم يميلوا أذنهم ، بل صلبوا رقابهم ، أساءوا أكثر من آبائهم » (إر ٧ : ٢٦) وهكذا هم لم يزالوا على هذا الحال إلى أيام مملكتي الكلدان والآشوريين ثم أيام مملكتي اليونان والرومان ، فأزعجوا الكل وأتعبوا الجميع ثم في الأيام الأخيرة أخرجهم الروس والألمان من بلادهم ، واليوم بعد الحرب العالمية انصب أذاهم فوق رؤوس العرب في بلاد فلسطين ، نسأل الله السلامة من كيدهم آمين .

وانكماشه عنهم ، دون توجه إليهم ، فما وجه هذا الاستنتاج الذي استنتجوه ؟.. الجواب هو أن ضغط الحسد والغيرة أثر على أعصابهم ، فصاروا في حالة غير اعتيادية فقالوا ما قالوا ، ثم فعلوا ما فعلوا ، مما كان نقطة سوداء في تاريخ حياتهم .

(صدقت ، صدقت ، ولا فض فوك)

تعديل الحكم

آ(١٠) ﴿ قَالَ قَائِلٌ منهم : لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ ، وأَلْقُوهُ في غَيَابَةِ الجُبِّ ، يَلْتَقِطْهُ بَعضُ السَّيَّارَةِ ، إِنْ كُنتُمْ فاعِلِينَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية العاشرة ، فقام العلامة المصري وقال :

﴿ قال قائل ﴾ منهم وهو يهوذا وكان أحسنهم فيه رأياً ﴿ لا تقتلوا يوسف ﴾ فالقتل عظيم ، ﴿ وألقوه في غيابة الجب ﴾ ـ وهي ما غاب منه عن عين الناظر وكان في ناحية منه ـ ﴿ يلتقطه ﴾ يأخذه على وجه الصيانة عن الضياع والتلف ، فإن الالتقاط أخذ شيء مشرف على الضياع ﴿ بعض السيارة ﴾ أي بعض الأقوام الذين يسيرون في الطريق ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ أي ان كنتم عازمين على أن تفعلوا ما يحصل به غرضكم فهذا هو الرأي .

أبيكم لا يتوقف على خصوص إهلاك أخيكم ، بل يمكن التوصل لذلك بعمل طريقة لإبعاده من فلسطين ، كما قلت لكم ، هذا هو الرأي القصد الذي أراه لكم الآن ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . بخ ، بخ

(قال قائل منهم .. الخ)

— ٢ —

وقال الشيخ المنصوري (١) :

لي ههنا ثماني كلمات ، كل كلمة مستقلة بنفسها منفردة عن إخوتها :

من هو « القائل » بتعديل الحكم على يوسف

الكلمة الأولى — آنفاً كان الإخوة قالوا ما قالوا ، وفي صوتهم غنّة استفهام كأنهم يستفهم بعضهم بعضاً ، أنفعل ذلك ؟ أنقدم عليه ؟ ماذا ترون ؟ أشيروا علينا، ليبين كل منكم رأيه .

وعليه فانتدب « يهوذا » نفسه لنصيحة إخوته بالعدول عن قتل يوسف ، وشرح لهم مضارّ هذا العمل وسيئاته ، وهكذا صار ، أنّ خلاف شخص حور المؤامرة وعدّلها ، وأثر في المسألة أثراً جديداً ، وما أحسن هذا الخلاف ؟ ولعمري إذا كان الاختلاف « رحمة » كما يقولون ، فهذا الاختلاف من مظاهر هذه الرحمة ، لأن الإلقاء في غيابة الجب ، وإن كان في نفسه نقمة ، لكنه رحمـــة بالنسبة الى إزهاق الروح والقضاء على الحياة ، « حنانيك بعض الشر أهون من بعض » .

---

(١) نسبة إلى المنصورة من البلاد المصرية .

إلا في قلب الوالد ، والوالد لا يقتصر حنوه على أولاده ، بل هو يتعود ذلك حتى يحن الى كل ولد ، وزد على ذلك ان « رأوبين » كان أكبرهم لأنه البكر ، فلا بد أن يكون إذ ذاك قد اكتهل وتجاوز سن الشباب والنزق ، ولا تنس أن « يهوذا » كان كبيراً أيضاً ، لأنه رابع أولاد أبيه، وكان عاقلاً محنكاً وخطيباً مفوّهاً ، هذه هي الاحوال التي تقرب صوابية القول بأن هذا « القائل » هو رأوبين أو يهوذا ، بحيث كان كفرسي رهان في الحرص على تلطيف المصيبة التي يراد انزالها على رأس أخيهما يوسف .

وأما لبيان الأرجح من هذين النقلين ، فقد قلت لكم أيها السادة : إن سفر التكوين يقول : إن هذا « القائل » ابتداءً هو « رأوبين » ، وأما « يهوذا » فإنه هو في الآخر انعطف وضم صوته لأخيه رأوبين ، وعندي أن تفسير هذا«القائل» بيهوذا هو الأرجح ، بدليل أنه المتكلم الوحيد بين إخوته ، والخطيب البليغ ، وصاحب القول الثاقب ، كما ذكر ذلك المؤرخون ، فلذلك وحيث عُبّر عنه بعنوان « القائل » كان هو يهوذا ، لأنه هو القوال الخطيب المفوّه ، وأما«رأوبين» فإنما يُعبّر عنه بالكبير ، كما سيأتي في قول الكتاب الكريم : ﴿ قال كبيرهم ﴾ (ع : ٨٠)والواقع أنه كان أكبرهم سناً ، فاختلاف العنوان دليل على اختلاف المَعْنُون عنه ، فان القرآن بمكان من الدقة التي لا يليق بالبليغ أن يَغْفُل عنها عند كل كلمة .

القتل والطرح أرضاً سواء في النتيجة

الكلمة الثانية – هم كانوا قالوا :﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً ﴾، ولكن هذا « القائل» الآن إنما نراه ينهاهم عن الجملة الأولى ، إذ يقول﴿لا تقتلوا يوسف﴾

ولم يصرح بنهيه عن الخصلة الثـــانية ، وهي طرحه أرضاً ، ولماذا هذا يا ترى ؟ وجوابنا عن ذلك بأن مآل الخصلة الأخرى هـو الموت أيضاً ، لأنه من ألقي في أرض بعيدة عن العمران مجهولة للنـاس كان مآله الموت ، إما جوعاً أو عطشاً أو من البرد أو بافتراس أحد السباع ، أو نحـو ذلك مما يعرض للانسان الوحيد ، في البر البعيد ؛ ونظير قولهم هنا « اقتلوا يوسف َ أو اطـْرحُوهُ أرضاً » قول مواطنيهم أهل العراق في جده سيدنا إبراهيم ﴿ اقتـلوه أو حَرّقوه ﴾ في قوله تعالى : ﴿ فما كانَ جوابَ قومِهِ إلا ّ أنْ قالوا : اقتُلوهُ أو حَرّقوهُ ، فأنجاهُ الله من النـــارِ ﴾ (٢٩ : ٢٤) ، فكما أن مآل قتل إبراهيم وتحريقه واحداً ، وإنْ اختلف شكل الإزهاق ، فكذا هنا مآل قتـل يوسف أو طرحه أرضاً واحد ، وإن اختلف شكل الإزهاق ، وكما أن إبراهيم عقب ذلك هاجر ، فلقي في مهجره راحة وعزاً ، فكذلك يوسف عقب ذلك هاجر ، فلقي في مهجره راحة وعزاً ، وقريب منه أيضاً مافي قوله تعالى ﴿ قـُلْ : لَنْ يَنْفَعَكُم الفِرارُ إنْ فَرَرْتُم مِنَ الموتِ أو القَتْلِ ﴾ (٣٣ : ١٦) فطرحـه أرضاً هو الموت حتف الأنف المذكور هنـا .

ابتعاد يهوذا عن الانتساب ليوسف دفاعاً عن مصلحة اخوته

الكلمة الثالثة ـ إن سأل سائل : لماذا قال يهوذا:﴿لاتقتلوا يوسف﴾؟ فَعَبَّر عنه بعبارة ترمي الى أن يوسف كأنه أجنبي عن أخيه يهوذا ، ولم يقل : لاتقتلوا أخانا ، فالجواب عن ذلك أن يهوذا بهـذا التعبير يفهم إخوته أنه لا يريد الالتصاق بيوسف ولا الانتساب اليه ، لأنه مغبون منه ، ولا يدافع عن شخصه لأنه أخوهم ولكنه بما قال يدافع عن مصلحة إخوته ، متناسياً من جهة يوسف كل نسب وأخوة.

غيابة البئر

الكلمة الرابعة ـ قال الطبرسي في تفسيره مجمع البيان : غيابة البئر شبه لحف أو طاق فوق ماء البئر ؛ وقال الهروى : الغيـابة في الجب شبه كهف أو طاق في البئر فوق المـاء يغيب ما فيه عن العيون (آلوسي) ، وقال ابن جرير في تفسيره : غيابة الجب بعض نواحيها ، وفي صحيح البخاري في تفسيره : كل شيء غيّب عنك شيئاً فهو غيابة .

الجب وهل هو جب معهود

الكلمة الخامسة ـ الجب : البئر التي لم تطو ، لأن الأرض تجب جباً لا غير ، وكما تسمى جبـــاً تسمى « قليبـاً » ، كانوا ولا يزالون في فلسطين يأتون للأرض الصخرية ويجبونها بالفؤوس والمعـــاول ، وكلما نزلوا في الأرض توسعوا ، فيصير الجب أرضه وحوائطه الأربـع وسقفه قطعة واحـدة من الصخر ، ومما يقرب في الهيئة من الجباب الدحال ، جمع دحل ، وهو ثقب فمه ضيق وأسفله واسع ، وأقرب شيء يمثل الجب للقارىء هو الخيمة التي تكون من اسفل واسعة جداً ، مع كون أعلاها ضيقاً جداً ؛ كانوا يجبون هذه الجباب في البراري ، كالبرية المحيطة بوادي دوثان ، وكانت تجف في بعض أيام الصيف ، ولا يبقى فيها ماء ، إلا في وهدة في وسط الجب على أسفله ، تحاذي بابه من اعلاه ، تبقى فيها بقايا الماء ، فتكون دوائر أرض الجب عديمة المـاء في بعض أيام الصيف ، إلاّ في الجورة الـتي في وسطه ، وهذه الجباب هي لجمع ماء المطر وادّخاره الى حين الحاجة ، ينزل فيهـا ماء المطر بواسطة قنوات على سطح الأرض مسلطة على تلك الجباب . وإنما ذكرت الغيـابة مع الجب دلالة على أن هذا « القـائل » أشار عليهم بإلقائه في موضع بناحية الجب

في إحدى أطرافه السفلى ، بعيداً عن وسطه الذي فيه الهُوَّة ، التي تكون عادة لكي يجتمع الماء فيها عند أواخره ، فهذه المشورة خطة ثالثـة ، هي غير القتـل وغير الطرح أرضاً ، فلا بـد أن تكون هذه الخطة الثالثة تحتوي سلامة يوسف ، وتضمن حياته ، وتكفل بقاءه ، وذلك لا يكون إلا بما قلنا وصوّرنا ، فالمراد أن يلقوه في ناحية من نواحيه ، لا في وسطه ، ذلك لكي يكون يوسف بعيداً (نوعاً) عن البقية الباقية من الماء في قعره ووسطه ، إن كان قد بقي فيه وَشَلٌ من آثار الماء ، بل قال المؤرخون إن هذه البئر كانت نزحاً ليس فيهـا ماء ، ذلك لأنهم اتفقوا أخيراً على عـدم إهلاكه ، وهذا لا يتحقق إلا بهـذه الصورة ، وأما لو كانوا يريدون القاءه في جب مملـوء ماء لكانوا يريدون إهلاكه ، وهو خلاف ما وقع عليه اتفاقهم أخيراً ، وأما القول بأن الجب كان ملآنا ماء فهو قول هُرَاء يناقض روح الكلام الذي اتفقوا عليه أخيراً ، هـذا تحقيق القول هنا ، وإن لم تصدقوني فتأملوا جيداً في الآية الكريمة وما ترمي اليه ثم سلموا معي ـ على طول الخط ـ بنظريتي

وبعـد فيظهر أنه أراد من قوله « غيابة الجب » جباً معيناً معهوداً معروفاً لهم في دوثان ، وإنما عيّن ذلك الجب للعلة التي ذكرها ، وهي قوله ﴿يلتقطه بعض السيارة﴾ ، لأن ذاك الجب كان معروفاً في دوثان ، وكانوا يردون عليه كثيراً ، وكان ذلك « القـائل » يعلم أنه إذا طرح فيه أخوه ، يكون الى السلامة أقرب ، أي يكون سالماً في المئة تسعة وتسعين ، لأن السيارة تجوز دائماً وترد على هذا الجب ، ومتى وردت اليه التقت بذلك الغلام ، فتخرجه وتذهب به الى حيث تريد من البلاد القاصية كمصر مثلاً ، حسبما هو مألوف ومعروف في تلك العصور من التقاط بعض الأولاد واغتصاب بعض البنات واسترقاقهم ظلماً ، كما هو معمول به في تلك العصور المظلمة ، وبالتالي وبالنتيجة يكون القاؤه في غيابة الجب أبعد عن الهلاك .

التحقيق في تفسير الغيابة

هذا وأما تفسير « الغيابة » بما غاب عن النظر في قعر البئر وأسفله ، فهو بعيد والأقرب ما نقلناه من أن الغيابة هي شبه كهف أو طاق في البئر ، ودليلنا على ذلك قراءة « غيابات » بالجمع ، لأن الأسفل واحد ، وأما الكهوف والطاقات التي في الجباب فيمكن أن تتعدد ، والمراد « ألقوه في إحدى غيابات الجب » ، ويدل على ذلك أيضاً قول الشاعر :

فإنْ أنا يوماً غيَّبَتْني غَيابتي

فسيروا بسيري في العشيرة والأهلِ

أراد بغيابته لحده ، ومعلوم أن اللحد كهف في جانب القبر عند أسفله .

هذا ما أراه في هذا المقام . وهذا ما يظهر ، ولا أعلم هل أُرضي الجامدين فيما قلت لكم أيها السادة أو أغضبهم وإنما أعلم أني قد أرضيت ضميري وخاطري ، وأرضيتكم أيضاً أيها الإخوان ، وحسبي ذلك وكفى .

اخوة يوسف لم يبيعوا يوسف

الكلمة السادسة ــ قوله : ﴿يلتقطه بعض السيارة﴾ يدل على أن إخوته لم يبيعوه للسيارة ، بل إن السيارة التقطته فهو دليل على أن ضمير الجمع في (شروه) فيما سيأتي يعود على السيارة ، لأن السيارة بمعنى القوم والرهط ، وأنَّ (شروه) بمعنى باعوه ، كما هــــو المعنى اللغوي الكثير ، ولذلك قال على أثره : ﴿وقال الذي اشتراه﴾ أي ابتاعه ، أقول قولي هذا مخالفاً لجمهور المفسرين الذين قالوا بأن إخوته باعوه للسيارة ، وسبب هذا القول منهم ــ مع أن فهمه من الآية الآتية بعيــــد

جداً — أنه هو المذكور في التوراة ، لجمهور المفسرين وفي مقدمتهم ابن عباس (فيما يدّعون) قلّدوا التوراة وقالوا بذلك ، وأما نحن فلا يهمنا سوى متابعة ما يتبادر من كلام الله تعالى في كتابه القرآن الكريم (وتمامه في المحاضرة على الآية العشرين) .

لماذا لم يبت « القائل » برأيه

الكلمة السابعة وهي الأخيرة — قوله : ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ أي عازمين ومصرين على أن تفعلوا به ما يفرّق بينه وبين أبيه ، فهو لم يبت القول لهم ، بل عرض عليهم ذلك عرضاً ، تأليفاً لقلوبهم ، وتوجيهاً لهم إلى رأيه ، وحذراً من سوء ظنهم به ، ثم وبعد ذلك كله لا بد أن يكون هذا الرأي الذي رآه (يهوذا) قد سرّ (رأوبين) كثيراً ، وأساء (شمعون) كثيراً ، وكان الباقي من الإخوه على شيء من الرضى بهذا الرأي الأخير المذكور، لأنهم لم يكونوا في الحب ليوسف كيهوذا ورأوبين ، كما لم يكونوا في عدائه كشمعون ، فكانت حالتهم معه وسطي أو كانوا للغيرة والكره أميل ، والله تعالى وحده بالحقائق أعلم ، وإنا لنعجب لهذه الاختلافات في العواطف ، مع إن الدم واحد ، رأوبين وشمعون ويهوذا هم أولاد يعقوب من ليئة ، ويوسف هو ابن يعقوب من راحيل ، والأمّان أختان ، أبوهما (لابان) خال يعقوب ، فالجرثومة واحدة ، ولكن الفروع مختلفون في العواطف ، ولله تعالى في خلقه شؤون :

قالوا بقانون الوراثة وهو في   نظري مقال مـا عليه دليل
ما أنجبَ النجباءُ قطُ فإن تجد   ولداً نجيباً منهمُ فقليـــلُ

ما يدل على خلاف النصيحة والمقة — وهذه السياسة تدعى سياسة «جس النبض». إذ أرادوا بذلك ، لما عرفوا على كيد يوسف ، استنزاله عن رأيه وعادته في حفظه منهم ، وفيه دليل على انه أحسن منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه — .

(قالوا يا أبانا ... الخ)

— ١ —

وتابع السيدالقيومي كلامه قائلاً —

التمهيد لتنفيذ المؤآمرة على يوسف

كان الاخوة قضوا ساعة وبعض الساعة في تدبير المؤآمرة المشئومة السابقة ، ثم اتفقت كلمتهم على رأي أخيهم (يهوذا) واستحسنوه ، فأرادوا انتهاج طريقة تسني لهم الجري على مقتضاه ، فشرعوا يمهدون الأسباب الموصلة لذلك ، وابتدأوا يذللون العقبات التي تحول بينهم وبين أخيهم ، لم يدخروا وسعاً في استنباط العلل لأخذه ، فلم يجدوا لذلك سبيلاً إلا التزلف لأبيهم وتعليل أخذهم له بما يحبه أبوه له ، رتبوا برنامج الحيلة والدسيسة ، بأن يطلبوه من والده ، بعلة التنزه والرياضة ، وترويح النفس ، فيأخذوه للأرض التي هم فيها ، يرعون حواليهم أغنامهم في «دوثان». ونظراً لما يعلمونه من حال أبيهم بالنسبة لأخيهم - من قرب محبة ومحبة قرب - لم يكونوا يرجون أخذه بسهولة ، ورأوا أن الأمر يحتاج الى سعي وروية لأنه صعب ومشكل ، كما أنهم لم يكونوا قانطين من أخذه حيث لا يعدمون وسيلة لحل هذه الصعوبة ، فرتبوا فيما بينهم ما رتبوا من أخذ وردّ ، وسلب وجلب ، وانبعثوا من.

مكانهم فولوا وجوههم شطر فسطاط أبيهم في «سيلون» وذهبوا حثيثاً ، وما عتموا أن دخلوا عليه ، وهم مقنعوا رؤوسهم وخافضوا أصواتهم ، احتراماً لمقام الأبوة!! وجلال السن والرئاسة الدينيـــة ، ليعجموا عوده ، ويغمزوا قناته ، يواربونه ويماذقونه ، وعيونهم تميل بلفتاتها الى الجانبين ؛ رآهم أبوهم فعجب لهم ، إذ كانوا مجتمعين حين دخولهم عليه ، فقال لهم : «مَهْيَم» ما حالكم وما شأنكم ؟ اذكروا حاجتكم ، — فقالوا : يا أبانا المحترم ، إنا نتقدم اليك بسؤال نرجوا أن لا يثقل عليك ، سؤال بسيط نعرضه على وجه الاستفهام ، — قال : هاتوا — قالوا : إنا نعجب ولا نعلم الأسباب ، مالك لا تأمنا على أخينا المحبوب يوسف ؟ وماذا تنقم منا في معاملتنا معه ؟ يا أبانا ، نحن لا نستطيع أن ننكر عليك شدة محبتك له ، وفضل رأفتك به ، وحنوك عليه ، لأنك تحمل بين جنبيك قلب الأب العطوف على ولده الصغير ، ذلك القلب الذي يخفق بالرحمة والحنان ، ولكن الذي نعجب منه ونعتب فيه أشد العتب هو خوفك منا عليه ، وعدم ثقتك بنا في كلاءته ، ونقسم بالرب (إيلْ شَدَّاي) إنـا لمخلصون له قولاً وفعلاً ، وإنـا لنعجب من هذه المعاملة ، كما إنـا لنقول هذا القول ، والأسف ملء أفئدتنا ، لأنه لا يليق بالوالد أن يكون في حال تحفظ من أولاده الكبار ، بالنسبة لأخ لهم صغير ، يغارون عليه من ظله ، ويخشون عليه من مس الريحان —

هذا وقد خاطبوه بعنوان « الأب » تحريكا لسلسلة النسب ، وتذكيراً برابطة الاخوة التي سببتها الابوة ، كي يتزلوه عن رأيه في حفظه منهم — أي أيّ شيء تشتبه منه لا تجعلنا بسببه أمناء على يوسف ؟ مع إنك أبونا وهو أخونا ، بل وابن خالتنا ولماذا تشفق وتهيب ؟ ولماذا لا تسكن الينا ؟

وقد حضرتني الآن عدة فوائد ، أريد أن أعرضها على اسماع الاخوان الحاضرين ، ليروا فيها رأيهم . —

الاخوة بين عاملي الخوف والرجاء عند طلب يوسف من ابيهم

الفائدة الاولى — قالوا هذا القول لأبيهم وهم بين عاملين ، عامل الخوف من أن يجيبهم بالسلب ، فتحبط تدابيرهم ، وعامل الرجاء أن يلبي طلبهم ، فيفوزوا بصيدهم ، وقد تصوروا عندذلك أن حياة وموت يوسف بين شفتي يعقوب وهو لا يشعر.

طريقة طلب الاخوة ليوسف من ابيهم تدل على سوء نيتهم

الفائدة الثانية — كان يعقوب يخاف على يوسف من إخوته ومن كيدهم له ، وكانت تظهر منه أمارات على ذلك في أعماله وأقواله ، فلذلك خاطبوه بهذا الخطاب.

دفع ونفع

الفائدة الثالثة — إنما قالوا له :﴿ وإنا له لناصحون ﴾ لأنهم كانوا متهمين عند والدهم بكره أخيهم ، ولأنهم كانوا يعلمون أن أباهم يرغب كل الرغبة في النصح لولده يوسف ، ويحرص جد الحرص على صحة جسمه ونموه ورياضته ، ويعني أعظم العناية بحفظه وكلاءته ، فدخلوا عليه من هذا الباب ، ولا يقدرون أن يدخلوا عليه من باب آخر سواه ، فكانت هذه الجملة منهم « لدفع ونفع ».

وثيقة الاعتماد

الفائدة الرابعة — هم قالوا الآن :﴿ وإنا له لناصحون ﴾ وسيأتي على الأثر قولهم أيضاً : ﴿وإنا له لحافظون﴾ ، فوالدهم يعقوب اعتبر هذين الكلامين كوثيقة اعتمد عليها ، فسمح بذهاب ابنه يوسف معهم .

النصح لغة ومعنى

الفائدة الخامسة ــ قولهم : ﴿ وإنا له لناصحون ﴾ هو من : نصحتُ له الود : أخلصته ، وناصح العسل : خالصه ، ونظيره في القرآن الكريم : ﴿ إذا نَصَحُوا لله ورسوله ﴾ (٩ : ٩٢) ﴿ ونَصَحْتُ لكم ﴾ (٧ : ٧٨) ﴿ وهمْ له ناصحون ﴾ (٢٨ : ١٢) ومنه حديث البخاري : (الدينُ النصيحةُ لله ورسوله) وفيه عن جرير : (بايَعتُ رسولَ الله (ﷺ) على شهـــادة أنّ لا إلـه إلاّ الله ، وأنّ محمداً رسولُ الله ، وإقامِ الصلاةِ ، وإيتاء الزكاةِ والسمعِ والطاعةِ ، والنُّصْحِ لِكُلِّ مسلمٍ) ومنه ما في قول أبي العلاء المعري :

إذا قومنا لم يعبدوا الله وحده بنصح فإنّا منهـــمْ بُرَءآءُ

فكل هذه بمعنى الإخلاص وخلوص العمل والقول من شائبة الفساد ، ففرق في المعنى بين نصحته ونصحت له ، لأن معنى نصحتـه : تحريت أن أقول له ما فيه صلاحه ، ومعنى نصحت له : أخلصت له العمـل أو القول ، ونصحه ضد غشه ، وأما نصح له فهو ضد خلط .

لسان أخوة يوسف هو ترجمان أهوائهم

القائدة السادسة ــ عهدنا باللسان انه ترجمـــان الجنان ، ولكننا نراه الآن ترجمـان الأهواء ، لأن هؤلاء الإخوة يتكلمون بما لا ينطوون عليه ، وغنيّ عن البيان أن الوفاء بالوعد من مهات الدين ، ومن الأخلاق الاجتماعيـة الفاضلة ، ومع هذا فانـــا نرى هؤلاء المتكلمين مع أبيهم لم يفوا بالوعد ، ولم يقفوا عند حدود هـــذا العهد .

المتكلم يطلب يوسف من أبيه واحد من الاخوة

الفائدة السابعة — سأل سائل : هل تكلم جمهم جميعاً مع أبيهم ، أو كان المتكلم واحـــداً منهم عنهم ؟ والجواب عن ذلك أنهم كانوا عقدوا اجتماعاً سرياً تداولوا فيه عماذا يصنعون في أخيهم ، ثم قر رأيهم على أخـذه من والدهم ، فالقائه في غيابة القليب ، وأحالوا بتنفيذ هذا القرار على واحـد منهم يتكلم مع والده باسم جميعهم بحضورهم بحيث يترجم عن أفكارهم ، ويحكي مقاصدهم .
واحتمال آخر وهو أنهم توا كلوا الـكلام ، ثم تكلم أحدهم بلسان الجميع .

السم في الدسم

آ (١٢) ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية عشرة فقام عبد الملك الكردي وقال:

﴿أرسله معنا غداً ﴾ من « سيلون » الى « دوثان » ، ﴿ يرتع ﴾ يتسع في أكل الفواكه وغيرها ، (ويلعب) يستبق وينتضل ، كانوا يفعـــلون ذلك ليُضرّوا أنفسهم بما يحتاج اليه لقتال العدو ، لا للهو ، بدليل قولهم ﴿ إنا ذهبنا نستبق ﴾ ، وإنما سموه لعبـاً لأنه في صورته ، هم وعدوه بذلك ، ولكن وعدهم راح أدراج الرياح ، فإن « الرتع » كان بعيداً عن فمه ، و « اللعب » كان نائيـــاً عن رجليه ، وأما « الحفظ » فلم يكن إلا لقميصه ، فلم يرجعـوا إلا به ، كما لم يرجع حنين إلا بخفيه ،... وبعبارة أخرى :

هم يقولون : « لناصحون » ،«يرتع»،« يلعب » ، « لحافظون » ونحن نقول هذه وعود ساحرة ، خلابة ، مختلفة ، منقوضة من حين التكلم !!..

(يرتع ويلعب ..)

— ١ —

وقال الملا صديق الاربيلي [1] :

اخوة يوسف يضربون على الوتر الذي يحبه ابوهم لاخيهم يوسف

لقد رأى إخوة يوسف الأكارم !! بثاقب رأيهم وواسع تفكيرهم !! أن يضربوا على الوتر الحساس الذي يحبه أبوهم لابنه المحبوب يوسف في هذه السن ، سن الصبا وشرخ الشباب فيطالبوه منه ليذهب معهم ليسرح ويمرح ويأكل ويلعب فيدخل السرور إلى قلبه والانشراح والنشاط الى صدره وبدنه ، فتوجهوا اليه قائلين له : (يا أبانا غيّر أنشودة الخوف بأنشودة الأمن ، وبدل نغمة هذا التحفظ بنغمة الثقة ، ولا تكن كمحافظ عتيق !! ، أنفِذْه معنا غداً باسم التنزه والتريض وتبديل المناخ ، واستنشاق الهواء النقي ، يتأمل في مناظر الطبيعة البسيطة ، الخالية عن تصنع المتصنعين ، الدالة على وحدانية رب العالمين ، وإذا أعوزه شيء من أمور هذا العالم المادية (رَتَعَ) وتبسط في الأكل والشرب و وإذا أعوزه اللهو تشاغل و (لعِبَ) بالقفز والجري والركوب والسباق ، وما الى ذلك ، (فيرتع) بمعنى يكثر في الأكل ويتنعم ويتوسع ، و (يلعب) بمعنى يشتغل بالرمي والثقاف (الخصام والجلاد) والصراع والكر والفر ويتأثر طرائد الصيد في مسارحها ومساربها ،

(١) نسبة إلى إربيل من بلاد العراق .

(يلعب) في ذلك المرج الخصب كثير الكلأ بـــين تلك الآجام فينشرح صدره ، ويستقبل أشعة الشمس ، ويتمتع بمناظر الطبيعة ويبسط نفسه ، ويرى حظه ، ويبكر صبيحة كل يوم تبكير الطير ليتمتع بمناظر الطبيعة ، ويمتع نظره فيما أوجد الله فيهـا من بهاء وجمال ، ويعمل رياضة جسمية ، ويتنسم رائحة الهواء البليل العليل ، هواء البر الصافي الطلق ، فيميناً لو يعلم أخونا ما في البادية من طهـــارة الهواء ، وطيب المناخ ، لخرج إليها ولو حبواً » .

معنى الرتع واللعب

هذا مغزى كلامهم الروحي ، ولعلكم وقفتم من هـذا التقرير على معنى الرتـع واللعب ، ومع ذلك فإني أشرح كل لفظ منها على حدة بشيء من التوضيح فأقول : (الرَّتْعُ) في الأصل الاتساع في الخصب ، ثم أريد منه الاتساع في الأكل ، ومنه حـديث أمّ زرع : (في شِبَعٍ ورِيٍّ ورَتْعٍ) أي تنعم ، وحديث عمر : (إني والله أُرْتِـعُ فأُشْبِـعُ) يريد حسن رعايته الرعية ، وأنه يَدَعُهُمْ حتى يَشبعوا في المرتع ، وفي حديث الغضبان الشيباني : (قال له الحجاج : سَمِنْتَ — قال : أسمنني القَيْدُ والرَّتَعَـــة) أي الاتساع في الأكل ، قال الزمخشري : (وأصل الرتعة : الخصب والسعة ، ولكن المقصود التوسع في أكل الفواكه وغيرها) ، وقال في القـاموس (رَتَعَ : أكَلَ وشرب ما شاء في خصب وسعة ، أو هو الأكل والشرب رغداً في الريف أو بِشَرَهٍ) .

هذا وقد أخروا لفظ اللعب عن الرتـع في قولهم لأبيهم ، لأن أحسن وقت للرياضة البدنية هو وقت الصباح ، بعد تناول لقيمات يسيرة ، وفي المساء وقت البرد بعد أن يكون قد تناول طعام الغداء ، وفي كلام الناس :

« تَعَشَّ وتَمَشَّ ولو خطوتين » .

(يرتع ويلعب...)

— ٢ —

قال نادر الزمان الافغاني :

فوائد اللعب

١ — يفهم من مضمون الآية الكريمـــة ان يوسف كان على الأغلب ملازماً لجلوسه بجانب أبيه ، وربما لا يبرح سحابة نهاره ، فهو لا حركة ولا عمل ، ولذلك فاللعب الرياضي يناسبه كثيراً ، فإخوته إنما تكلموا مع أبيهم بتمقل وإظهار نصح ، ولكن النية منهم لم تكن صالحة..

٢ — من المقرر أن الأوفـق في الأعمـــال الرياضية أن تكون في الساحات الفسيحة الطلقة ، حيث الهواء نقي طهور ، والمـــاء رقراق ، ولذلك رغبوا أن يخرج معهم الى البر .

٣ — قال علماء الصحة : إن الرياضة البدنيـــة وعمل العضلات يدعوان الى دوران الدم وسيره في سائر الأعضاء ، فتتخلص الرئة والأجهزة الباطنة ومركز مجموع الأعصاب من كثرة الدم ، وإن عـدم الانتظام في سير الدم يوقع الجسم في الأمراض ، ويضعف أعضاء التحليل ، وبذلك يجد الانسان من نفسه ميـــلاً الى الضعف والكسل وعدم إرادة الحركة .

٤ — إن الرياضة البدنية تهيء الأجهزة المختلفـــة لإفراز الفضلات ، عرقاً أو بولاً أو مع زفير الرئتين ، وتقوي العضلات والمفاصل ، وتحفظ الدورة الدموية في حالة صحية ، فللعب الجسماني مكانة كبرى وأهمية عظمى ، فلذلك وحيث أن أباهم يعقوب يرتاح لكل ما يعود على ولده المحبوب بالفائـدة انتحلوا لسفره معهم هذا السبب .

اللعب عند العرب

٥ — كان العرب كثيري الرياضة والألعاب ، دعاهم إلى ذلك شهامة النفوس وحب الفخار والذود عن الشرف والميل إلى الحرب والمبارزة والركض وركوب الخيل وسرعة إجابة المستغيث، وما إلى ذلك، وإنّا لنرى في كلام أولاديعقوب(ع) ما يشير إلى أن فيهم شيئاً من ذلك .

أنواع اللعب عند العرب

٦ — من يعود إلى قانون الشيخ الرئيس (ابن سينا) ، يرى بحثاً مسهباً في الرياضة البدنية ، والألعاب الجسمانية يدل على أن العرب كانوا يعرفون من أنواعها ما لا يقل عن معرفة أبناء اليوم لها ، فقد عرفوا منها المنازعة ، والجري والقفز ورمي الحديد ، والصيد ، وتسنم الجبال ، وحمل الاثقال والرمي إلى الهدف ، ولعب الكرة ، والسباحة ، وأعمال الفلاحة والصناعة ، وحركات الجباز ، والملاكزة ، وسرعة المشي ، والرمي عن القوس ، والقفز إلى شيء ليتعلق بـه ، والحجل على إحدى الرجلين ، والمثاقفة بالسيف والرمح . وركوب الخيل والسباق عليها ، والخفق باليدين ، وركوب الجمال ، والطفر ، واللعب بالصولجان ، واللعب بالطبطاب ، والمصارعة ، وإشالة الحجر .

لعب النبي ﷺ والصحابة

٧ — هذا النوع من اللعب ، اعني الرياضة البدنيـــة بأقسامها ليس بمعيب ولا مستهجن ولا مكروه ، فقد كان ﷺ يتسابق مع عائشة (ض) فمرةً غلبته ، وذلك لما كانت خفيفة اللحم ، ومرةً ثانية غلبها ، وهذا حينما صارت بدينة ، وقد

ورد أن النبي ﷺ تصارع مع غيره، فكان النبي غالباً وأسلم المغلوب وكان مشركاً ، وورد أن النبي ﷺ كان يسابق على ناقته العَضْباء ، وكانت إذا سوبق بها لم تُسْبَق ، فعظمت في صدور المتسابقين ، ولكن مرة سُبقَت ، فقال ﷺ : « ما رفع العبادُ من شيء إلاّ وضع الله منه » ، وكان عليّ كرم الله وجهه « تِلْعابةً » أي كثير اللعب ، كقولهم (تِلْقَامة) لكثير اللَّقْم ، كذا في فائق الزمخشري، وكان الصحابة رضي الله عنهم يصطادون ويتسابقون على الخيل والإبل، ولا تنسوا ما قاله ﷺ لجابر بن عبد الله الأنصاري لما تزوج ثيباً : « هلاّ بكراً تلاعبها وتلاعبك » ، وقالوا : « لا بأس بملاعبة الرجل لفرسه وترسه وعرسه » ، وروى ابن عدي في الكامل عن ابن عمر « أحبُ اللهو إلى الله تعالى إجراء الخيل والرمي » وهما السباق والرمي عن القوس ، وقال ابن أبي مُلَيْكَةَ : قد ندب الشرع إلى تعليم الصبيان الرميّ والثِّقَافَ (الخصام والجلاد) والصراع وسائر ما يدربهم على حمل السلاح والضرب والكرّ والفرّ وتصلية أعضائهم وتعليمهم البطش والحميّة والأنَفَة من العار والفرار (قاله في الطرق الحُكْمية) .

جواز اللعب للكبار كما للصغار

وكان هرون الرشيد هو ووزيره جعفر البرمكي وسائر وزرائه - يلعبون بالكُرة والصولجان ، فالصولجان عبارة عن عصا طويلة طرفها أعقف ، وأما (الكرة) فهي كتلة مستديرة من الجلد ونحوه ، فإذا ضربت الكرة لا يلبث الفارس أن يلتقطها من الأرض بطرف صولجانه الأعقف حتى تطير في الهواء ، فيستحث الآخرون أفراسهم في إثرها يبغون ملاقاتها بصوالجتهم [١] ؛ وكم سمعنا

---

(١) وهي لعبة تشبه اللعبة المسماة اليوم بلعبة « البولو » .

ونسمع وسنسمع إن الكثير من الرجال الكبار يتبارون في العدو والقفز ،وهكذا الجنود في الثكنات العسكرية ، والأهالي في الحقول ، والتلاميذ في المدارس ، بلا نكير ودون استهجان ؛

إذا تقرر ذلك فلا مانع عندنا أن يراد (باللعب) المذكور في هذه الآية أيّ قسم من أقسام الرياضة المذكورة ، وليس يصعب على ذي الطبع السليم إسناداللعب بالمعنى المذكور ليوسف ، لا سيما إذا لاحظنا أنه لم يكن في ذلك الوقت داخلاً في عداد الرجال ، بل في عداد الغلمان الذين لا بأس لهم بذلك ؛

« إذا ذكر الحاضرون فحيهلاً بالأخ نادر الزمان الأفغاني »

(لحافظون)

— ١ —

قال عبد العظيم التركي :

خديعة اخوة يوسف لأبيهم

يقول إخوة يوسف لأبيهم : والله لأن نسره ، أحب إلينا من أن نضره ، إنه سيكون تحت جناحنا ، ذاهباً ومقيماً وآيباً ، كل واحد منا هو (شُرطي) عليه ، نحفظه من كل ما يسوؤه ، وندفع عنه عاديات الدهر ، بما أوتينا من قوة وعقل ، نموت بموته ـ لا سمح الله ـ ونحيا بحياته ، إن شاء الله ، فلا يلبث أن يعود إليك بالصحة والعافيه ، ونرجو أن تذكرنا بالرضا والدعاء في خلوتك وجلوتك ، كما نحن سنذكرك في (دوثان) وصحرائها ، بالشكر والارتياح ، لحسن صنيعك معنا .

نعم ، نعم ، يميناً بالرب « أَلُوهيمْ » إنه سيكون في خفارتنا وحمايتنا نَذُبّ

عنه ونَذُود ، ونمنع عنه بأنفسنا وأرواحنا ، فلا تمسه يد صالحة أو أثيمة ، ولو رقصت الرماح ، ورخصت الأرواح ، بل نقوم بحفظه من أن يُستَطار أو يُغتال، أو يُفترس أو يتيه ، أو أن لا يَرجع ، إلى نحو ذلك ، فهو العظم واللحم ، ونحن الجُنَّة والرِّداء .

قالوا ذلك ، وجعلوا يرفرفون بأجفانهم ، ويرددون أبصارهم ، وينظرون الى وجه أبيهم خلسة ، ليتبينوا عواطفه ، شأن كل من كان يتكلم بما ليس في قلبه ، ﴿ أقسَموا باللهِ جَهْدَ أيمانِهِمْ ﴾ على هذا كله، وهم قد دخلوا على أبيهم بالخديعة، وهم قد خرجوا بها ؛ هم يقولون : (يرتع ويلعب وإنا له لحافظون) الفـــاظ ثلاثة صدرت منهم ثم ذهبت قبض الريح ولم تلبث أن أقامت إلا بمقدار ما خرجت من شفاههم ثم تلقفها الهواء فاندمجت في طياتـــــه ، وإلاّ فقل لي : أين الرتع ؟ وأين اللعب ؟ وأين الحفظ ؟

الجواب عند علام الغيوب !... فهذه وعود خرجت من لسان لم يتصل بقلب، وأماني لم تنبعث من أقصى النفس وإنما من الحنجرة فقط ...

ولنا ههنا ملحوظة وهي أنّ هذه المعاهدة والمواعدة تذكرنا اليوم بمعاهدات دول الاستعمار مع أهالي الأقطار التي تضع نصب أعينها ، الاستيلاء عليها ، فإن تلك المعاهدات في الغالب مَحَاطّ استراحة بين الحلة والحلة ، ومنازل استجمام بين مراحل الحرب لاغير ، بحيث لدى توفر القوة لا تَعْدَمُ عذراً في نقض تلك المعاهدات التي لم تبرمها منذ البداية إلاّ على نية النقض ؛

فإخوة يوسف هنا عندمادخلوا على أبيهم تبدلوا بجلود النمور أصواف النعاج ، ثم لما أخذوا يوسف قلبوا المجن ونكثوا ماقالوا ، فهم استعملوا الأيمان والعهود وسيلة لا ستنزال أبيهم ورضاه بما طلبوا ، ثم غدروا به ! الأمر الذي لا يليق بذوي البيوتات المحترمة ؛

وهذا يذكرنا بما كان « المنصور العباسي » يفعله ، يحلف كاذباً ، ويعاهد ويخالف ، ويواثق ويغدر ، كما فعل مع « ابن هبيرة » بعد أن أعطاه الأمان ، فإخوة يوسف هنا وعدوا وتلطفوا ولكن حادثة القائه في غيهب القليب شهدت عليهم انهم لم يبروا بوعدهم المرقوبي :

إحذرْ الأقرباءَ ما استطعتَ وانظرْ ... فعلَ إخوانِ يوسفَ المحسودِ
وَعدوه بالنُّصحِ والحفظِ لكنْ ... لم يَرِيمُوا أن أخلفوا بالوعودِ (١)

ورحم الله من قال :

غاض الوفاء وفاض الغدر وانفرجت ... مسافة الخلف بين القول والعمل
إن كان ينجع شيء في ثباتهم ... على العهود فسبقُ السيف للعذل

وقد اعتد الناس على « عبد الملك بن مروان » فَعْلَتَه التي فعلها مع « سعيد بن العاص » ، حيث قتله بعد أن عاهده على تأمين حياته ، وقالوا إنها أول غدرة في الإسلام ، وقد اتفق أن سأل عبد الملك أحدَ كبار رعيته من شيوخ العرب عن رأيه فيما فعل مع سعيد ، فقال : ﴿ حسَنٌ لو قتَلْتَهُ وحَيِيتَ ﴾ — فقال عبدالملك : « أولَستُ بحيّ ؟ » — فقال الشيخ العربي : « حياة من لا يوثق له بعهد ولا عقد » ! .

« رجعاً وانعطافاً » :

خلف الوعد والوفاء به

وخلف الوعد طبيعة الشيطان كما ورد : ﴿ وقال الشيطان لما قُضي الأمرُ : إنّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحقّ ... وَوَعَدْتُكُمْ فأخلفْتُكُمْ ﴾ (١٤ :

(١) النظم لرئيس المؤتمر .

٢٢) وهو قنطرة النفاق كما قال تعالى : ﴿ وَمِنهُم مَن عاهَدَ اللهَ : لَئِن آتانا مِن فضلِه لَنَصَّدَّقَنَّ ، ولَنَكُونَنَّ مِنَ الصالحين ، فلمّا آتاهُم مِن فضلِه بَخِلوا به وتَوَلَّوا وهم مُعرِضون ، فأعقَبهُم نِفاقاً في قلوبِهم الى يوم يَلقَونَه ، بما أخلَفوا اللهَ ما وَعَدُوه ، وبما كانوا يَكذِبُون ﴾ (٩: ٧٦ - ٧٨) .

قال

خذا الوعدَ لكنْ مِنْ يَميني فأعفني　　فلستُ أُرَى يوماً كذوباً فأحلِفا
ولا تخيَّلْ أنَّني لستُ مُخلِفٌ　　فلستُ بأهلٍ للنفاقِ فأخلِفا (١)

والوفاء بالعهد من سيماء المؤمنين إيماناً كاملاً وهولهم عنوان شرفهم ، وملاك مروءتهم ، قال تعالى : ﴿ والذين هم لأَماناتِهم وَعَهدِهم راعُون ﴾ (٢٣ : ٨) .

وقال تعالى : ﴿ وأَوفُوا بالعَهدِ ، إنَّ العهدَ كانَ مَسؤُولاً ﴾ (١٧ : ٢٤)
فلا يوجد شيء أشرف من تقيد الإنسان بقوله ، «والوعد أملك ، عليك أم لك» .

تخوف يعقوب من طلب اولاده

آ(١٣) قالَ إِنِّي لَيَحزُنُنِي أَنْ تَذهَبُوا بِهِ ، وأَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئبُ ، وأنتم عنه غافِلون .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة عشرة فقام السيد البعلبكي (٢) وقال :
(قال) لهم أبوهم معتذراً اليهم بشيئين، الأول ما في قوله ﴿ اني ليحزنني أن

(١) النظم لرئيس المؤتمر .
(٢) نسبة الى بعلبك من بلاد الشام (لبنان) .

تذهبوا به ﴾ ومفارقتي إياه ، لأني ما تعودت الصبر عنه ، (و) الثاني إني ﴿ أخاف أن يأكله الذئب ﴾ أخاف عليه من عـدوة الذئب الموجود بكثرة في « دوثان » ﴿ وأنتم عنه غافلون ﴾ برعيكم ولعبـكم ، أو إذا قلّ به اهتمامكم ولم تصدق بحفظه عنايتكم .

نعم أيها السادة ، لقد سمع يعقوب مقالة أولاده ، فتبسم تبسماً يمازجه القلق ، وأخذ يعجب لهذا الاحتفاء غير الإعتيادي ، قائلاً في نفسه : إن المركب خشن ، وأشد الحزن ما يحزن الرجال .

سكت هنيهة وهو يمشط لحيته الشريفة بأصابعه ، كأنه يفكر بماذا يجيب أولاده على اقتراحهم ، لأنه قد خامره منهم ريبة فقال : أواه ... لعمري إن هم الفراق ، ولوعة النوى ، ولو قليلاً ليملآن قلبي .

افتكر يعقوب في حال أولاده مع يوسف ، وأنهم يحسدونه ، وأنهم له بالمرصاد ، فقال في ضميره : إن سباحة الغزال في الماء مع التماسيح تغرير ، ومن سمح أن تظفر به الأسود عند غاباتها لم يأمن من وثباتها .

رابه أسلوب كلامهم ، وهالته طريقتهم في خطابهم ، فتخوفهم قائلاً بينه وبين نفسه : لعمري إن هذه الكلمة الصادرة منكم التي تطن الآن على أذني لهي أدلّ على ما يتخوف منه من اسم المحلّ على بضاعته ، سمع أبوهم كلتهم وفيها غنّة المكر ، فوقع في نفسه من الذعر ما لا يعلمه إلا الله وهو ، وأوجس خيفة من هذا الطلب ، وغلب عليه الانقباض ، وحدثته نفسه بخطر قريب ، وحصر صدره مما قالوا ، وأحسّ بمكر منهم بحاسة الإشماع السماوي المودعة في قلبه .

طلبوا هذا الطلب من أبيهم ، ولبثوا منتظرين جوابه بكل حرارة ، كأنهم على

مقالي الجر ، فقال أبوهم : لا أخفي عليكم إنكم طلبتم أمراً صعب المرام ، بعيد المتناول أنا لا أريد أن أركب الغرر ، ولا يهون عليّ مفارقة هذا القمر ، إني أحب أن يكون يوسف مني دائماً بمرأى ومسمع ، وإنه ليشجيني أن تبعدوا به عني ويؤلم قلبي أن تفرقوا بينه وبيني ، ويقض مضجعي أن تحرموني رؤيته ، لأن ذلك يجعلني خائرّ النفس ، ضائق الصدر ، بكل ما تحت هذه الكلمة من المعاني .

استغرب أبوهم ما تجدد فيهم من محبة أخيهم ، وعهده بهم ـ وما بالعهد من قدم ـ أنهم لا يحرصون على مسرته ، لما عندهم له من الحسد والضغينة فقال : إني أنا الآن بين خطرين عظيمين الحزن على فراقه ، والخوف على حياته ، ولئن سلمت من أحدهما لا أسلم من الآخر .

سمع أبوهم كلامهم فرابه منه ما يريب (راعيَ الشاة) من ابتسامة والذئب ، فاعتراه امتعاض وابتئاس ، فقال : (إني ليحزنني أن) وسكت ، ـ فقالوا : (أن ماذا) ؟ ـ قال : (أن تذهبوا به) ، فإني أتخيل أن قلبي يذوب يومَ بعد ولدي عني . وأتصور أن لبي يطير شعاعاً عند فراقه لي .

هذه مرامي جواب أبيهم لهم ، وأنتم ترون أن هذا الكلام ليّن والعبارة لطيفة ، ولكن المعنى جارح ، ولذلك نرى أولاده ـ رغماً عن أنهم في مقام الرجاء أجابوه بجواب ملؤه الشدة والصراحه كما سيأتي .

وبعدُ ،ومع كل ذلك فنحن نضم صوتنا لصوت يعقوب (ع) ، ونشاطره في هذا الحزن وذاك الخوف ، كما صدقه الواقع وليس في الواقع من حيلة .

(ليحزنني أن تذهبوا به)

— ١ —

قال عبدالعظيم الشركسي :

عزو حزن يعقوب لثلاث احتمالات

يحتمل أن المعنى : يحزنني ذهاب يوسف عني ومفارقته إياي ، أي يحزنني ذهابه عني ، ومفارقته إياي مطلقاً ، إما وحده وإما مع غيره كائناً من كان ، ويحتمل أن المعنى يحزنني ذهابكم أنتم أيها الحسدة البغضة ،لا سواكم من ذوي الحب والرفق والإخلاص،فعلة الحزن هي كون أولاده هم مناط الذهاب بيوسف أي إنه يحزن لكونهم هم الذاهبين به ، لا غيرهم من ذوي الود والمقة ، فمجرد الذهاب بيوسف لا يحزن أباه ، وإنما الذي يحزنه هو كون الذاهبين به إخوته الذين يكرهونه ، ويناوئونه دائماً ، هذا ما ظهر لي فتأملوه ، فربما أكون واهماً مخدوعاً،وإذا صح هذا المعنى يكون أبوهم رمى حجراً فأصاب اثنين لجعل ذهابه عنه مطلقاً من أسباب حزنه ، كما جعل ذهابهم هم به خصيصاً كذلك ، بل عندنا أن الكلام يحتمل معنى ثالثاً ،وهو هكذا : يحزنني أن تفوزوا – أيها البغضة – بأخذه ، وتستبدوا – أيها الحسدة – باستصحابه معكم – لأنه وإن يكن أصل معنى هذا التركيب – تستصحبونه وتمضون به معكم ، فقد يكون لهذا التركيب في بعض المواضع معنى زائداً على المعنى الأصلي ،وهو الفوز بالشيء ، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ إذاً لذهب كل إله بما خلق ﴾ (٢٣ : ٩٢) ،

أي لفاز به واستبد بأخذه ، دون الآلهة الأخرى ، وقوله تعالى : ﴿ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ (٤ : ١٨)، أي لتفوزوا بشيء من المهر (الراغب) وعليه فأصل المعنى ههنا ، مع رعاية المعنى الأصلي ، يحزنني أن تفوزوا وتظفروا به من بين يديّ ، سيما وأني أعرف عداءكم له ومناوأتكم إياه . « مرحي »

(وأخاف أن يأكله الذئب الخ ..)

— ١ —

قال مولاي برهان الدين من علماء كواتشي في الهند :

خوف يعقوب على يوسف وعلى آماله فيه من الذئب

يقول يعقوب لأولاده المشرة : « إن الصحراء التي أنتم فيها « مَسْبَعَة » أو « مَذْأَبَة » فلا أريد أن يكون ابني الصغير عرضة لافتراس « أبي جعدة »[1] الموجود العدد الكثير منه ، في تلك المفازة التي ترعون فيها أغنامكم ، « فإني خبير بوعث تلك الأصقاع وخوفها ، سيما وأن الذئاب فيها عادية ضارية ، فلا تكونوا سبباً في الوقوع فيما أفرقُ ويطير قلبي شعاعاً منه ، لا تكونوا سبباً في حرماني ولدي ، والتفريق بيني وبينه ، فانكم إن فعلتم أتعبتموني وبرحتم بي ، وملأتم حياتي هماً وكمداً» .

قال لهم أبوهم ذلك علناً بسماع كل منهم ، ثم قال في نفسه سراً : « وإنني لست أخاف من الموت على شخصه فقط ، بل أخاف على تلك الآمال التي آملها فيه أن تموت بموته ، أخاف على مَرْجُوَّاتي فيه المستقبلة أن تدفن معه ، فإن لي في هذا الصبي آمالاً كباراً ، فلي فيه رجاء أن سيكون له مستقبل باهر ، وأترقب أن

(١) أبو جعدة هو الذئب .

سيصير له شأن ذو بال ، فتخو في ليس على ضياع شخصه فقط ، بل على ضياع تلك الآمال الجيدة » .

هذا هو المعنى الروحي لكلام يعقوب (ع) فكأن قلبه دله على ما قال ، ولا غرو فقلب المؤمن دليله ، وقد روي : « استفتِ قلبك ولو أفتاك المفتون » ، وهذا النوع من كل ما يحكى ، فيقع تسميه العرب « ألْمَعِيّة » قال أوس :

والألمعيُّ الذي يظن بك الظن ـــ كأنْ قد رأى وقد سمعا

ويقال له إذا صدر من الرجل الصالح « فراسة » كما قيل : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ، ومن الرجل الأصلح « تحديثاً » كما ورد عنه (ﷺ) « إنْ يكن في أمتي مُحدَّثون فمنهم عمر » أي تُحدِّثهم الملائكة بما تلهمهم إياه .

أو يقال إن يعقوب (ع) كان يتخيل ان « ذئباً » سيغتال ابنه ، فكان لهذا الخيال يحتاط في صونه ، ثم إن الحادث الذي وقع فسَّر هذا الذئب بأنه ذئب خيالي اخترعته أفكار أولاده ، وقلما ترى حادثاً عظيماً لم تتقدمه الهواجس والخيالات التي تحوم حوله ، وتشير الى وقوعه ، وهذا سر من أسرار الكون التي لم يوقف لها حتى اليوم على سبب ، نعم ، إننا نرى بعض المحبين لا يكاد يطمئن باله على من يحب ، حتى إذا جاء أحد يطلبه ، فلا يتبادر الى ذهنه إلا الاحتمال السيء ، ولذلك قال بعضهم :

من سر أسرار الغرام شعورُ مَنْ ـــ يهوى الملاحَ بكل شرٍ قادم

وههنا دقيقة تلميحية لا بأس من الإشارة اليها ، وهي أن كلمة « ذئب » لم تذكر قط في القرآن الكريم إلا في هذه السورة ثلاث مرات ، كأنه لما كان « موضوع » هذه القصة هو « يوسف الغزال » ناسب أن يذكر في مقابله « الذئب » .

(وأخاف أن يأكله الذئب)

— ٢ —

وقال فخر الدين الخوارزمي (١):

التوفيق بين خوف يعقوب على يوسف وبين رؤيا يوسف

سأل سائل : كيف يقع هذا التخوف من يعقوب ، مع انه كان سمع رؤيا ولده ، واعتقد صحتها وعرف مرماها ، وأوصى اليه أن لا يقصها على إخوته ، ثم بشره : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك .. الخ ﴾ ولا ريب أن هذا لم يكن منه على وجه التكهن والتفرس أو الألمعية أو حسن الرجاء ، بل كان على وجه أنه أوحي اليه به لأنه نبيّ : ﴿ وما يَنْطِقُ عن الهَوى ، إنْ هُوَ إلاّ وحيٌ يُوحى ﴾ (٥٣: ٣ و ٤) ، ولذلك رأيناه بعد حادثة الذئب (المزعومة) لا يزال معتقداً بوجود ولده يوسف وبحياته ، كيف لا وقد قال: ﴿بل سَوَّلَتْ لكم أنفسُكُم أمراً﴾ (ع ٨٣) ثم قال: ﴿عسى اللهُ أنْ يأتِيَني بهم جميعاً ﴾ (ع ٨٣) ، ثم قال: ﴿واعلم من الله ما لا تعلمون﴾ ثم قال: ﴿اذهبوا فتحسَّسُوا مِنْ يوسفَ وأخيه، ولا تيأسُوا مِن رَوْحِ الله، إنهُ لا ييأسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلاّ القومُ الكافرون ﴾ (ع ٨٧) ، ثم قال: ﴿إني لأجِدُ ريحَ يوسفَ ﴾ (ع ٩٤) فمجموع هذه الأقوال الخمسة يرشدنا الى أنه كان على اليقين من أن ولده موجود بقيد الحياة ، وما ذلك إلا استناداً على الوحي الذي أوحِيَ به ليوسف في رؤياه المجيدة ، وعلى الوحي الذي أوحِيَ به إليه نفسه

(١) نسبة الى خوارزم احدى المدن التركستانية .

حتى أخبر ولده بمستقبل له باهر ، كمن ينظر الى الغيب ويخبر عنه بأخبار راهنة أكيدة .

فإذا تقرر هذا فكيف سوغ لنفسه التخوف على ولده من « الذئب »؟ .

ونحن نجيب عن هذا السؤال بما يلي :

خوف يعقوب على يوسف أمر طبيعي قسري

١ — إن الخوف من شيء ما هو أمر طبيعي ، يطرأ على الانسان قسراً ، مع اعتقاده بعدم وقوع مضمونه ، وعدم حصول ما يخافه ، انظر الى « يوكابد » أم موسى (ع) ، فقد خافت على ولدها موسى بعد أن ألقته في اليم ، حسبما نفهمه من قوله تعالى : ﴿ وأصبَحَ فؤادُ أُمِّ موسى فارغاً ، إنْ كادَتْ لتُبْدي به ، لولا أنْ رَبَطْنا على قلبها ، لتكونَ مِنَ المؤمنين ﴾ (٢٨ : ١٠) كان هذا منها بعد أن طمأنها الله تعالى وقال لها : ﴿ فألقيهِ في اليمّ ولا تخافي ولا تَحزَني ، إنّا رادّوهُ اليكِ وجاعلوهُ مِنَ المُرسَلينَ ﴾ (٢٨ : ٧) وقال تعالى :﴿فرَجَعْناكَ الى أُمّكَ كَيْ تَقرَّ عينُها ولا تَحزَنَ ﴾ (٢٠ : ٤٠) ، فترى من أن أم موسى بعدما نهاها الله عن الخوف والحزن ، وطمأنها بكلامه ، خافت وحزنت ، وذلك لأن كلاً من الخوف والحزن أمر طبيعي يطرأ على الانسان قسراً ، من حيث لا يشعر ، ولا يكون له فيه اختيار — وقال تعالى : ﴿ ويُسَبّحُ الرَّعْدُ بحَمْدِهِ والملائكةُ مِن خيفَتِهِ ﴾ (١٣ : ١٤) فالملائكة عباد مكرمون : ﴿ لا يَعْصُونَ اللهَ ما أمَرَهُمْ ، ويَفْعَلونَ ما يُؤْمَرونَ ﴾ (٦٦ : ٦) وهم معصومون . ومن العذاب قطعاً آمنون ، لدخولهم دخولاً أولياً في قوله تعالى : ﴿ الذينَ آمنوا ولم يَلْبِسوا إيمانَهم بظُلْمٍ أولئكَ لهم الأمْنُ ﴾ (٦ : ٨٢)

ومع كل هذا فهم ﴿ يخافون ربَّهم مِنْ فوقِهِم ﴾ (١٦ : ٥٠) — وقال تعالى : ﴿ وألْقِ عصاكَ ، فلما رآها تَهتزُّ كأنَّها جانٌّ ، وَلّى مُدبِراً ولَمْ يُعَقِّبْ يا موسى : لا تَخَفْ ، إنّي لا يَخافُ لَدَيَّ المُرْسَلونَ ﴾ (٢٧ : ١٠) ، فموسى بعد أن رآى عصاه قد قلبت حية خاف ، وهو بحضرة الله ، وإنما القاها بأمر الله ، فهرب ممتلئاً ذعراً ، فهذا الخوف أمر طبيعي يعتري المخلوق مع اعتقاده بعدم تأثير ما يخافه ، فالاعتقاد شيء ، وطبع المخلوق شيء آخر ، وقال لموسى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بأخيكَ ونجعلُ لكما سُلْطاناً ، فلا يَصِلُونَ اليكما بآياتنا ، أنتُما ومَنْ اتَّبَعَكُما الغالبونَ ﴾ (٢٨ : ٣٥) ، ثم قال عن السحرة لما قالوا : ﴿ إمّا أنْ تُلقِيَ وإمّا أنْ نكونَ أوَّلَ مَنْ ألقى — الى قوله — فأوجَسَ في نفسِهِ خيفَةً موسى ، قلنا : لا تَخَفْ إنَّكَ أنتَ الأعلى ﴾ (٢٠ : ٦٥)) فهذا موسى رسول الله وكليمه ، كان قد أخبره الله عز وجل بأن فرعون وملأه لا يصلون اليها ، وأنه هو الغالب ، وبعد ذلك فهو قد أوجس في نفسه خيفة ؛ وقال تعالى خطاباً للنبي (ﷺ) : ﴿ ولا تحزَنْ عليهم ولا تَكُ في ضَيْقٍ مِمّا يَمْكُرون ﴾ (١٦ : ١٢٧) وقال : ﴿ فلا يحزُنْكَ قولُهُمْ ﴾ (٣٦:٧٦)وقال: ﴿ فلا تذهَبْ نفسُكَ عليهم حسَرات ﴾ (٣٥ : ٨) ، ثم سمعناه تعالى يقول : ﴿ قدْ نعلَمُ إنَّهُ ليَحزُنُكَ الذي يقولون ﴾ (٦ : ٣٣) ونهاه عن ذلك ، فما هذا إلا لكون الحزن أمراً طبيعياً وكذلك الخوف في قوله : ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ﴾ (ع ١٣) .

جواز عدم وجود اعتقاد جازم عند يعقوب في ولده ينافي خوفه عليه

٢ — يجوز أن لا يكون عند يعقوب اعتقاد جازم في ولده ينافي خوفه عليه

هذا ما ظهر لي الآن ، في الجواب عن سؤال السائل فتأمله فإني لست بالقائل :

ولا تقف صوتاً غير صوتي فانني
أنا الصائح المحكيّ والآخر الصدي

ولكني أقول : ربما أكون واهماً مخدوعاً ، فان أصاب جوابي المحز فذاك ، وإلا فدعه ، ولا تتبعه ، فكلنا يصيب ويخطىء ، ويسرع ويبطىء .

(هتاف من الجميع : نت مصيب يا أستاذ)

(وأنتم عنه غافلون)

— ١ —

قال الحاج اسماعيل السيامي [١] :

يعقوب يكشف ما يجول في ذهن أولاده بالنسبة ليوسف ليعلم بماذا يجيبون

يريد يعقوب أن يقول : إن ولدي نحيل ضعيف العضل ، لم يجرب الكفاح ، ولم يحمل بعد السلاح ، فأخشى عليه عادية « العَمَلَّس » [٢] حال انشغالكم عنه ببعض الأشغال وربما تهاونتم في حفظه ، وفرطتم في الدفاع عنه وإنما يُضَنّ بالضنين ، ولا أكتم عنكم انني قد تشاءمت من قولكم : (مالَكَ لا تأمنا) ، والمكتوب يعرف من عنوانه ، وإن صوت قلبي هو أصدق من تلك التأمينات التي تمنّوني بها . ويا الله !! ما أحوج يعقوب ليوسف ؟ !! يأمله فيه ، وما أحوج يوسف ليعقوب لأنه غلام صغير .

---

(١) نسبة الى سيام احدى مدن الهند الصينية .

(٢) العملس احد اسماء الذئب .

هذا مرمى جواب يعقوب لأولاده ، وقد كانوا قبلما دخلوا على أبيهم تصوروا أن الأمر بالنسبة إليه جلَلٌ ، وأنه يشق عليه فراق ولده المحبوب ، لاسيما إذا كان قد ذهب معهم ، وإن ذلك الأمر يحزنه كثيراً ، وكانوا أضمروا أنهم بعد أن يأخذوه ويسقطوه في الجب ، يرجعون له بدونه ، متعللين بأن « الحَيَوانَ » أكله ، حال غفلتهم عنه ، — فكانت هذه المعاني حاضرة في ذهنهم ، وكانت هذه الصور مرسومة في مخيلتهم ، فحينما دخلوا على والدهم انكشف له ما في قلوبهم من تلك الصور ، وقرأ أفكارهم ، وما أصدق ما قيل : (من القلب الى القلب دليل) فنطق بما يختلج في قلوب أولاده ، فكأنه ناب عنهم أو تكلم بلسانهم ، أو عبر عما في ضمائرهم واحساساتهم ، ليسمع ماذا يقولون في جوابهم ؟

يعقوب يصف غفلة ابنائه عن حفظ يوسف بأنها امر ثابت لهم في نفسه

لقد قال يعقوب : (وأنتم عنه غافلون) ولم يقل : (وأنتم غافلين عنه) إذ يوجد فرق كبير في المعنى بين الجملتين ، فالجملة الأولى (وأنتم عنه غافلون) حال جملة ، ومعناها إن غفلتهم عن حفظ يوسف وصف ثابت لهم في نفس أبيهم يعقوب ، إذ ربما أكله الذئب في حال تلبسهم بتلك الغفلة ، ثم هم غافلون عن حفظه أيضاً قبل هذا الحال وبعده .

وأما إذا قال (وأنتم غافلين عنه) فتكون حال مفردة ، ويكون معناها ، إن الغفلة إنما تكون وصفاً لهم حال أكل الذئب إياه ، فالغفلة تابعة لأكل الذئب ، مقدرة بقدره ، وهكذا يقال في أمثاله مما سيأتي .

جواب الخائف والمكر

آ(١٤) ﴿قالوا : لَئِنْ أَكَلَهُ الذئبُ ، ونحنُ عُصْبَةٌ ، إنّا إذاً لخاسِرونَ ...﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة عشرة فقام الشيخ مضيوف السنغافوري[1] وقال :

(قالوا) بلسان الرد والانكار ، (لئن أكله) أي عدا عليه (الذئب) السبع (و) الحال أننا (نحن عصبة) جماعة متعصبة متعاضدة ، (إنّا اذاً لَـ) قوم (خاسرون) أي لمستحقون أن نخسر ونهلك ، أو معناه : إن لم نقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا إذاً وخسرناها .

حلفوا لأبيهم لئن كان ما خافه من خطفة الذئب أخاهم من بينهم ، وحالهم انهم عشرة رجال انهم خاسرون ، ولما رأوا أن أباهم قد تشاءم ، طلبوا منه سحب تشاؤمه ، مبينين له سبب التفاؤل ، وهم كونهم عصبة ، فإن قلت قد اعتذر لهم بعذرين ، فأجابوا عن أحدهما دون الآخر ؟ قلت إن العذر الذي حذفوه وتغافلوا عنه هو الذي كان يغيظهم ويذيقهم الأمَرّين ، فأعاروه آذاناً صماء ، ولم يعبأوا به وأيضاً كان أشغل العذرين لقلبه هو الثاني وهو خوف الذئب عليه ، لأنه مظنة هلاكه ، وأما حزنه لمفارقته ريثما يرتع ويلعب ويعود سالماً اليه عما قليل فأمر سهل فكأنهم لم يشتغلوا إلا بتأمينه وتطمينه من أشد الأمرين عليه .

---

(١) سنغافورة بلد في الهند الصينية .

(قالوا لئن أكله الذئب .. الخ)

— ١ —

وقال السيد محي الدين الحضرمي[١] :

اصرار ابناء على اخذ يوسف من ابيه

لم يلب والدهم طلبهم ، ولما كان : (أحب شيء الى الانسان ما منعا) ولما رددوا في ذاكرتهم ما كانوا قد آنسوه من كثرة مقته به ، ولما راجعوا صورة المنام الذي كان قد رآه ، لما اجتمعت عندهم كل هذه الأشياء ـ ازدادوا شعوراً بلزوم أخذهم أخاهم مها كلفهم الأمر ، فراجعوا والدهم ثانياً ، وقالوا له ـ وهم يتظاهرون بالدهشة والاستغراب ـ أيّ الذئاب تعني ... تبّاً علينا ، هل يقدر أن يفترسه « العَمَلَّس » ؟ إنه لأضعف من أن يقدم على هذا الأمر ونحن حوالي أخينا ، وإن كبد السماء أقرب الى « العملّس » من أن يصل الى أخينا ، هب ان صحراء دوقان مسبعة كما تقول ، وان كثيراً ما افترس فيها ولدان صغار كما تسمع ولكن كيف يمكن « لأبي جَعْدَة » أن يفترس أخانا المحبوب ، ونحن حواليه نحوطه ، ونقوم بالمحافظة عليه ؟ بل كيف يمكن ذلك وهو ابن سبع عشرة سنة ؟ ما هذه الظنون أيها الوالد العظيم ؟ تالله لئن أكله « الخولع » ـ لا سمح الله ـ ونحن جمع شديد ، بمثلنا تُعصب الأمور وتلقى الخطوب ، إنا إذاً لهالكون ، ضعفاً وخَوَراً وعجزاً ، ـ أو على الأقل ـ لمستحقون أن نهلك ، لأنا نكون لا غناء عندنا ولا جدوى في حياتنا ، نكون لسنا بشيء ، لسنا رجالاً ، لا نستحق الحياة، ليس لنا قِطٌ من البطولة ، حتى لسنا بأهل لأن نكون رعاة أغنام !! حقاً إنه ليسوؤنا ألا يكون لنا نصيب من الثقة بنا ، حتى ولا في نفس والدنا ! فنشدناك

---

(١) نسبة الى حضرموت من بلاد الساحل الجنوبي لجزيرة العرب .

الله يا والدنا أن لا تكسر معنوياتنا بمثل هذا الجواب ، ولا تتخوف عليه ، فإننا مع احترامنا لشخصك الكريم ، لا نرى محلاً لهذا الخوف والحذر ، وإنا نستغرب ما تقول من (الحزن) جد الاستغراب ، ونعجب له جد العجب .

يا أبانا تأكد تماماً أن هـذا الذي تقول لا يكون دون أن يبيّض القـار ، ويجتمع الليل والنهار ! يا أبانا لا تنس أننا عصبة أولوا صهيل وصليل ، يشد بعضنا أزر بعض ، لا نستذل ولا نستقل ، وإن صح ما تظن ، خسرنا حسن سمعتنا بين الرجال بالفتوة والمنعة ، وشاع انه ليس لنـا حمية ولا قوة دفاع ، يا أبانا ، أفضل أعمالنا في غنمنا ، وعمدة شرفنا ذود السباع عنها ، فاذا كنا نزود السباع عن غنمنا أفلا نذودها عن أخينا الصفي !

هذا هـو المعنى الروحي الذي يؤول اليه كلامهم في جوابهم لأبيهم ، وسببه أنهم لمـا سمعوا جواب أبيهم السلبي ، ثارت فيهم الحميـة ، وأوغلوا في إشارات الاستغراب ، وقـد تلونت وجوههم بلون التعجب ، وتذمروا من جواب أبيهم واستهجنوه ، واستنكروه واستكبروه واستعظموه ، فاستنصروا جلدهم وقوتهم ، ذاهبين الى أن : (السكوت عند رد الجواب بدعة) مقيمين على فكرتهم ، مصرّين على مخـالفة أبيهم ، متغلبين على ذهنه ، متسلطين على إرادته ، وهكذا ما زالوا يحتالون عليه بكلام يثقب الخردل ، ويحط الجندل ، وما برحوا يجـادلونه جدال هجوم ، وأبوهم يجادلهم جدال مدافعة ، حتى وقع قولهم في نفسه ، وغلب أخيراً على أمره ، تغلبوا عليه ، وهو واحـد ، وقد قيل : « ضعيفان يغلبـان قوياً » ، فكيف إذا كانوا جماعة أقوياء ؟ فلذلك ولكونهم أمنوه ووعدوه — كانت النتيجة أن سمح لهم بأخـذه ، ورضي بذهابه معهم ، وسلم لهم تسليماً ، وإن كاد يكون تسليماً اغتصابياً .

وبعد هذا كله ، فلنا ثلاث كلمات:

تهربهم من الاجابة على حزن أبيهم ومغالطتهم الجدلية له

١ ـ لنا على جوابهم لأبيهم ملاحظتين : فالملاحظة الأولى أن قولهم ﴿ لئن أكله الذئب .. الخ﴾ إنما هو جواب عن الشق الثاني من المعذرة التي اعتذر بها أبوهم لهم ، وهو قوله ﴿وأخاف أن يأكله الذئب ﴾،وأما الشق الأول من المعذرة وهو قوله :﴿ إني ليحزنني أن تذهبوا به ﴾ فقد ثقل على طبعهم سماعه ، فضاقوا به ذرعاً ، ومروا عنه مرور الكرام ، وجعلوه دَبْرَ آذانهم ، ولماذا ؟.. لأنه سبب حسدهم له ، وهو الذي كان يغيظهم ، فأعاروه آذاناً صماء ولم يعبأوا به ، بل سكتوا عنه كأنهم لم يسمعوه وهذا السكوت يسمى بلسان رجال الحكومات اليوم « التهرب السياسي » .

والملاحظة الثانية ـ أبوهم إنما قال﴿ وأنتم عنه غافلون ﴾،وفي هذه الحال يمكن « للذئب » أن يأكله ولو كانوا مئة عصبة وعصبة ، إذ ربما الجيش الغفير بتمامه في حال الغفلة لا يدفع عادية الهاجمين ، كما أنه بالعكس في حال اليقظة والحيطة ربما إنسان واحد يقدر أن يدفع ذلك ، هكذا أراد أبوهم ، وهكذا يقتضي المنطق والعقل ، ولكن أولاده أدخلوا عليه « المغالطة الجدلية » في جوابهم .

القوة الجسمانية لا تكفي وحدها لحفظ يوسف

٢ ـ لا نزال نرى هؤلاء الإخوة العشرة يقولون : « نحن عصبة » سمعناها منهم أولاً وثانياً ، فهم يفتخرون بقواهم الجسمانية ، ويتكلون على جمعيتهم ، كأنهم نسوا أن لكثير من الحيوانات العجم في هذه القدر حظاً أكمل من حظ الإنسان والقوة وحدها لا تكفي لحفظ يوسف ، ولكن القوة مع المحبة والاخلاص .

اختلاف القرآن والتوراة في هذه الآية

٣ — مما يجب التنبيه عليه انه يوجد في هـــذه السورة اليوسفية ما لا يتفق مع ما هو مذكور في هذه القصة المندرجة في سفر التكوين المتداول بين أيدي اليهود ، فالسورة هنا تحكي ان إخوة يوسف دخلوا على والدهم ورغبوا اليه أن يرسل أخاهم معهم ، وان حواراً دار بينهم وبين والدهم ، انتهى بانتصارهم عليه حتى سلمهم إياه ، ولكن سفر التكوين لا يحكي شيئاً من هذا القبيل ، إنما يذكر ان إخوته مضوا ليرعوا غنم أبيهم قريباً من نابلس ، وفي غيبتهم قال له أبوه : (إن إخوتك يرعون غنمهم عند نابلس فاذهب اليهم لتنظر سلامتهم وسلامة الغنم، وترجع اليّ بالتطمين) فسمع لأبيه فأرسله من شمـــالي (حبرون) أو من (سيلون) الى نابلس ، فوجدهم قد ارتحلوا منها الى (دوثان) ، وهي مدينة شمالي نابلس على غاية اثني عشر ميلاً ، فذهب وراءهم فوجدهم في (دوثان) ؛ هذا هو الذي يؤخذ من سفر التكوين وشروحه ، ولكن نحن علينا أن نجزم بأن ما أوحاه الله الى نبيه خاتم الأنبياء (ﷺ) ونقل الينا بالتواتر الصحيح هو الحق ، وخبره هو الصادق وما خالفه هو الباطل ، وناقـــله مخطيء أو كاذب ، فلا نعدّه شبهة على القرآن ، ولا نكلف أنفسنا الجواب عنه .

حال التاريخ قبل الإسلام وبعده

إن حـــالة التاريخ قبل الاسلام كانت مشتبهة الأعلام ، حالكة الظلام ، فلا رواية يوثق بهـــا للمعرفة التامة بسيرة رجال سندهـــا ، ولا تواتر يعتدّ به بالأولى ، وإنما انتقل العالم من حال الى حال بعد نزول القرآن ومجيء نبيّ الإسلام ، فكان بداية تاريخ جديد للبشر ، كان يجب عليهم ـــ لو أنصفوا ـــ أن يؤرخوا به أجمعين،

فما كان من شؤون الأمم وسير العالم بعد الإسلام لم ينطمس ولم تذهب الثقة به ولم ينقطع سند رواته ، كما كان الحال هكذا في الأمم السالفة .

عناية المسلمين في اول الاسلام بالرواية والرواة

وبيان ذلك بالإجمال — أن القرآن قد جاء البشر بهداية جديدة كاملة ، كانوا قد استعدوا للاهتداء بها بالتدريج ، الذي هو سنة الله تعالى فيهم ، فكان من عمل المسلمين في حفظ العلم والتاريخ العناية التامة بالرواية ، ما يقبل منها وما لا يُقبل، ولذلك ألفوا الكتب في تاريخ الرواة ، لتعرف سيرتهم ، ويتبين الصادق والكاذب منهم ، وتعرف الرواية المتصلة والمنقطعة ، وبحثوا في الكتب المؤلفة ، متى يوثق بنسبتها الى مؤلفيها ، وبينوا حقيقة التواتر الذي يفيد اليقين ، والفرق بينه وبين ما يشتهر من روايات الآحاد ، فبهذه العناية لم ينقطع سند لنوع من أنواع العلم ، التي وجدت في المسلمين ، على أن العناية بعلوم الدين أصولها وفروعها كانت أتم ، ثم كان شأن من قفّى على آثارهم في العلوم والمعارف بعد ضعف حضارتهم على نحو شأنهم في التصنيف ، وإن كان دونهم في ضبط الرواية ونقدها ، والأمانة فيها ، فلم يضع شيء من العلوم والفنون ، ولا من الحوادث والوقائع التي جرت في العالم بعد الإسلام ، وما اختلف الرواة والمصنفون في جزئياته من تاريخ الإسلام وغيره ، يسهل تصفيته وأخذ الصفيّ منه ، لأجل الاعتبار به ، وعرفان سنن الاجتماع منه، جرياً على هدي القرآن فيه .

خلط اليهود في تاريخهم ووقوع الزيادة والنقصان في التوراة

وقد علم وتحقق أن اليهود خلطوا في تاريخهم ، وأن أكثره لا يعرف كاتبه ،

ومن ذلك (التوراة) التي منها (سفر التكوين) المسطور فيه قصة يوسف ، فقد قيل : إن كاتبها موسى ، وقيل وهو الأصح عندهم عزرا الكاهن ، المسمى عند العرب (بالعزيز) ولذلك يسمى أيضاً عندهم (عزرا الكاتب) ، وقيل غير ذلك مما هو مذكور في تفاسيرهم ، وتواريخهم الدينية ، ويكفينا شاهداً على أن الأسفار الخمسة (التوراة) كتبت بيد غير يد موسى ، أولاً ذكر وفاة موسى فيها (تث ٣٤ : ١ — ١٢) ، ثانيـــاً قول سفر التكوين « قَبْلَ مَا مَلَكَ مَلِكٌ لِبَني إسرائيل » (تك ٣٧ : ٣١) ، فهذه العبارة لا يمكن أن تكون من قلم موسى الذي يقولون إنه هو الكاتب لسفر التكوين ، لأن ملوك بني اسرائيل إنما كانوا بعد موسى بنحو (٤٥٠) سنة ، على ما في قاموس بوست وشروح التوراة وتواريخ اليهود والنصارى جميعاً ، الى غير ذلك من الدلائل التي ترشدنا الى الجزم بأن (سفر التكوين) كباقي الأسفار الخمسة قد وقع فيه من الزيادة والنقصان ومخالفة الواقع ما لا يحصى ، وليس الوقت وقت بيان هذه الأدلة .

وكافات بني إسرائيل بتحرير الوقائع بالحوادث فقد فاتهم ما فيها من العبر والحكم فأين ما يذكره (سفر التكوين) في قصة يوسف مما تجده في عبارة القرآن من صنوف العبرة والموعظة ، ثم بالنتيجة والعطف على ما سبق فالحق ما قاله الله تعالى من مجيء إخوة يوسف لأبيهم ، وطلبهم منــــه أن يرسل معهم أخاهم ، ولا يعتبر ما خالفـه من أقوال سائر الكتب معـارضاً له ، فيحتاج الى التوفيق او الجواب ، والله وليّ المتقين .

الفصل الخامس

تنفيذ المؤامرة

آ (١٥) ﴿فلمَّا ذَهَبوا بِهِ ، وأَجْمَعُوا أنْ يَجْعَلوهُ فيغَيَابَةِ الجُبْ ... ، وأَوْحَيْنَا إليهِ : لَتُنَبِئَنَّهمْ بأمْرِهِمْ هذا ، وهُمْ لا يَشْعُرونَ ...﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة عشرة فقـام أستاذنا سعيد الحوراني [1] وقال :

أذن يعقوب لابنائه أن يأخذوا أخاهم يوسف (فلما ذهبوا به) أي بأخيهم من « سيلون » الى « دوثان » ، وأبوهم واضع يده على قلبه (وأجمعوا) أزمعوا (أن يجعلوه في غيابة الجب) بدوثان ، فعلوا معه ما تقصر عنه العبارة ، أو تشمئز منه المسامع ، وتهتز منه الركب ، أي ألقوه في غيابة الجب ، قائلين له : « خذهـا يا صاحب الأحلام ، انزل فيما تضيع فيه آمالك ، وتطيش أحلامك ، فنحن إنما فعلنا بك هذا ، لتعلم أن أحلامك دخان من غير نار » (و) عند ذلك (أوحينـا اليه) أي ألهمناه أو قلنا له بواسطة الملاك ، (لتنبئنهم بأمرهم هذا) أي لتخبرن إخوتك بما فعلوا بك وأنت بمصر وهم ماثلون أمامك ، (وهم لا يشعرون) أنك

(١) نسبة الى اقليم حوران في سورية

يوسف لعلو شأنك ، ولطول العهـد المبدل للهيئات والأشكال ، وذلك قول يوسف لهم في السفرة الثالثة :﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيـه إذ أنتم جاهلون ؟ ﴾، فلا تحزن منهم ولا تك في ضيق مما يمكرون ، فلما أوحى الله اليه ذلك اطمأن قلبه وسكن روعه وهدأ باله .

ولكنه لا ندحة من أنه كان يعجب من عمل إخوته جد العجب ، فيردد في ضميره معنى قول القائل :

ألا إن اخواني الذين عهدتهم
أفاعي رمال لا تقصر عن لسعي
ظننت بهم خيراً فلما بلوتهم
نزلت بواد منهم غير ذي زرعِ

ولا ندحة انه دهمه من الحزن ما دهمه ، وانه كان يحيط به جو من الاستسلام والصبر .

(فلما ذهبوا به . . الخ)

— ١ —

وقال السيد أبو يَعْلَى المدني [١] :

الأنبياء غير معصومين من تصديق الكاذب

لم يزالوا يراجعـون أباهم ، ولم يألوا جهداً في استنزاله عن إرادتهم ، حتى أحرجوه فانصاع اليهم ، وانساق لمشيئتهم ، ونزل على حكمهم ، ظناً منه ان ظواهرهم مرآة لبواطنهم ، فاسترسل اليهم استرسالاً ، وأرسل يوسف معهم إرسالاً .

(١) نسبة الى عدن من بلاد الساحل الجنوبي لجزيرة العرب .

جرت حيلتهم هذه عليه مع فضله وعلمه ، كما جرت حيلة « عمرو بن العاص » على « أبي موسى الأشعري » في التحكيم ، مع أن أبا موسى عليم بدهاء عمرو ، ولكن إذا وقع القدر عمي البصر .

مشت حيلتهم على أبيهم ، وجاز عليه كذبهم ، لأن الأنبياء ليسوا معصومين من تصديق الكاذبين ، فتصديق الكاذب لا يعد ذنباً وقد ثبت أن النبيّ (ﷺ) كان يصدق بعض ما يفتريه المنافقون ، حتى يخبره الله بما كان من المصلحة إخباره به منه ، كما وقع في غزوة تبوك وغيرها ، وصدّق بعض أزواجه في القصة المشار اليها في سورة التحريم حتى أخبره الله تعالى به وبأن من أسر اليها الحديث أفشته ، وتردد في حديث أهل الإفك ، وضاق صدره به زمناً ، حتى نزلت عليه آيات البراءة المكذبة لهم في سورة النور . وفي صحيح البخاري : « إنكم تختصمون اليّ ولعل بعضكم أنّ يكون ألحنّ بحجته من بعض ، وإنما أقضي بنحو مما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً ، فلا يأخذه ، فإنما أقطع له من النار » .

نعم الأنبياء معصومون من التقرير على باطل ، وذلك يتوقف على تحقق البطلان ولا يكفي فيه عدم تحقق الصحة ، على أن هذا القول الذي صدر من أبناء يعقوب ليس هو من قبيل الإخبار المحض ، حتى يوصف بالكذب ، وإنما هو من قبيل الوعد لأبيهم بالنصح لأخيهم وحفظه ، وعداً مبنياً على الرجاء والأمل ، واذاً فلا يوصف بالكذب ، ولكن بخلف الوعد فقط ، هذا ما حضرني الآن قلته تقدمة للدخول على آية (١٥) فتأمله .

ورغماً عما كان سمعه من أبيه من الاشارة الى أنهم له بالمرصاد لكيده ، فنسي هذا كله وأغفله ، وذهب معهم قرير العين مشروح الصدر ، يتوخى من وراء ذلك أسباب البسط والهناء ولم يكن يفتكر قطعاً ان إخوته يريدون به غائلة من الغوائل، وعظيمة من العظائم ، يريدون أن يفعلوها معه وقد فعلوها ،وفي طهارة الصبيان والأطفال رونق للناظر ، وهيبة للمتأمل وعظة للعاقل ، ... فيستدل علماء الأخلاق من ذلك على ما فطر عليه الإنسان من الميل الى الخير ، وانه إنما يساق الى الشر بما يعرض له من أسباب المطامع ، أو يمارسه من اختلاف المشارب ، وإذا أتى شراً فإنما يأتيه في الدفاع عن نفسه أو ماله ، وقد يظهر في بعض الأحوال انه مهاجم متمد ، ولو فحصت ضميره واستطلعت خبايا قلبه لرأيت أساس ذلك التهجم الدفاع عن نفسه ، فالاطفال والصبيان مثال الفطرة البشرية الساذجة ، لا يعرفون الكذب أو التملق أو الخداع ، يقولون ما يعتقدون ، لا يخافون ولا يحاذرون ، ولا سيما إذا رُبّوا كما رُبّي يوسف على يدي يعقوب ، وقد تعلم من أبيه ما يسمح به سنه أن يتعلمه ، سيما طهارة القلب وسلامة النية والاتكال على الله تعالى .

هذا هو الجواب عن يوسف وتسليمه بذهابه مع إخوته مع ما سبق أنه رأى وسمع منهم .

كيف سلم يعقوب ابنه يوسف لاخوته رغم تخوفه عليه منهم

وهنا قدم إلى بعضهم سؤالاً مبنياً على سماح يعقوب بذهاب ولده المحبوب معهم، فقال : إذا كان يعقوب يظن الظنون بأولاده ويتخوف منهم على يوسف ، وإذا كان يعلم أن يوسف لما قص على إخوته رؤياه الأولى ، وهي (رؤيا الحزم) ازدادوا بغضاً له قائلين : « ألَعَلَّكَ تَملك علينا ملكاً ، أم تتسلّط علينا تسلطاً » (تك ٣٧ : ٨) ، وإذا كان قد نهاه عن قص رؤياه الثانية عليهم ، لئلا يكيدوا له كيداً

وإذا كان يعرف أن أولاده قد احتملوا على أبيهم ضِغْناً بمحبته ليوسف أكثر منهم ، وإذا كان قد استروح من قولهم : (مالك لا تأمنا على يوسف) انهم قد احتملوا مكراً وضغناً على أخيهم ، وإذا كان أعلن حزنه بسبب ذهاب إخوته به إذ قال : (إني ليحزنني أن تذهبوا به) ، — إذا كان قد وقع كل هـــذا فليس يعقوب بخليق أن يعجل في الاسترسال إلى أولاده والثقة بهم ، والائتمان لهم ، ويسمح بأخذهم إياه ، دون شرط ولا قيد . هذا سؤاله سمعته فأجبته بقولي :

المؤمن إذا قال صدق ، وإذا قيل له صدّق ، وقد تكلم أولاده معه وأمنوه عليه ، ووعدوه خيراً ، إذ قالوا : (وإنّا له لناصحونَ ، وإنّا له لحافظونَ) ، وقد قيل . « ومن خدعنا في الله انخدعنا له » ، فلذلك استرسل معهم أبوهم وسلمه إليهم ؛ ولا تنس ان المواعيد التي وعِدها يوسف في رؤييه ، ثم ما أوحي لأبيه فيه ، كل ذلك سهل على أبيه استسلامه لأولاده ، إذ هو بحكم ما سمع من المواعيد الإلهية في شخص ولده يوسف ، كأنما قد أخذ من ربه تأميناً على حياة هـــذا الابن الحبيب ؛ وأنت إذا لم تقبل مني هذا الجواب الدقيق ، خشيت عليك أن تهوي بك ريح الضلال في مكان سحيق .

(فلما ذهبوا به ... الخ)

— ٣ —

وقال السيد الحضرمي :

إن عندي على هذه الآية البحوث التالية :

حذف جواب الشرط في القرآن الكريم وشواهد عليه

البحث الأول - إن جواب «لمّا» في قوله: (ولمّا ذهبوا به) محذوف، ومعناه فعلوا به

ما فعلوا ، مما لا تحيط به العبارة ، ولا تكفي فيه الاشارة ، فعلوا به ما فعلوا مما لو لفظ به ، لثقل على السامعين واضطربت له قلوبهم ، فعلوا ما فعلوا مما لا يليق ذكره بنسب هؤلاء المحترمين !! آباء الأسباط !! ، فعلوا ما فعلوا مما يذرف العيون ويدمي القلوب . ويسيء نبأه السامع والقارىء ، ولذلك حسن منا أن لا نصرح له به ، بل وكلناه لفهمه ، وذوقه الخ الخ ...

ولقد رأينا بعض المفسرين ههنا كتب ما لا يليق بتركيب الآية الكريمة قائلاً: إنّ جواب « لمّا » هو قوله « وأوحينا » بتقدير زيادة الواو ، وهـذا ما لا يقوله عاقل يحترم كتاب الله ويقدره قدره ، ولا يجيزه علم بأسرار كتاب ربه الكريم، ولا أخفي عنكم أيها السادة انني لما نظرت هذا القول أصابتني نوبة ذهول شديدة صدعتني أكثر من ساعة ، ولذلك كان حقاً علينا أن نذكر بعض المواضيع التي حذف فيها جواب الشرط للعلة السابقة فنقول :

١ ــ قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يَرَى الذينَ ظَلَموا ــ إذْ يرَوْنَ العذابَ ــ أنّ القوةَ للهِ جميعاً ، وأَنّ اللهَ شديدُ العذابِ ... ﴾ (٢ : ١٦٥) .

٢ ــ قال تعالى : ﴿ قالَ : يا قَوْمِ أَرأَيْتُم إنْ كُنْتُ على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ، ورَزَقَنِي منه رِزْقاً حَسَناً ... ﴾ (١١ : ٨٨)

٣ ــ قال تعالى : ﴿ ولولا فضلُ اللهِ عليكم وَرَحمَتُهُ ، وأَنَّ اللهَ توابٌ حكيمٌ ... ﴾ (٢٤ : ١٠)

٤ ــ قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ له سُوءُ عَمَلِهِ ، فرآهُ حَسَناً ... ﴾ (٣٥ : ٨) .

٥ ــ قال تعالى : ﴿ قالوا : طائِرُكُم مَعَكُم ، أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ ... ﴾ (٣٦ : ١٩) .

٦ — قال تعالى: ﴿ وإذا قيلَ لهم: اتَّقُوا ما بَيْنَ أيديكُم وماخَلْفَكُم لَعَلَّكُم تُرْحَمُون ... ﴾ (٣٦ : ٤٥)

٧ — قال تعالى : ﴿ والنازِعاتِ غَرْقاً ، والناشِطاتِ نَشْطاً ، والسابحاتِ سَبْحاً ، فالسابقاتِ سَبْقاً ، فالمُدَبِّراتِ أمْراً ... ﴾ (٧٩ : ١ — ٥) .

٨ — قال تعالى : ﴿ فإنْ استَطعْتَ أنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً في الأرضِ ، أو سُلَّماً في السماءِ فتأتِيَهُمْ بآيةٍ ... ﴾ (٦ : ٢٥) .

٩ — قال تعالى : ﴿ قال لَوْ أنَّ لي بكم قُوةً ، أوْ آوِي إلى رُكْنٍ شديدٍ ﴾ (١١ : ١٠) يعني لو أن لي بكم قوة لفعلت بكم وصنعت .

١٠ — قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بهِ وهَمَّ بها ، لولا أنْ رأى بُرهَانَ ربِّهِ ... ﴾ (١٢ : ٢٤) فجواب « لولا » محذوف تقديره لولا أن رأى برهان ربه لقتلها ، لأن قوله « وهم بهـا » يدل عليه ، كقولك : هممتَ به (أي بقتله) ، وقولك لولا أني خفتُ الله أو خفت الحكومة ، معناه لولا أن خفت ما ذكر لقتلته .

١١ — قال تعالى : ﴿ وَسِيقَ الذينَ اتَّقوا رَبَّهُم إلى الجنةِ زُمَراً ، حتى إذا جاءوها ، وفُتِحَتْ أبوابُها ، وقال لهم خَزَنَتُها : سلامٌ عليكم ، طِبْتُمْ ، فادْخلوها خالدينَ ... ﴾ (٣٩ : ٧٣)

١٢ — قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إذْ وُقِفُوا على النـــارِ فقالوا : يا ليتنا نُرَدُّ ، ولا نُكَذِّبَ بآياتِ رَبِّنا ، ونكونَ مِنَ المؤمنينَ ... ﴾ (٦ : ٢٧) .

١٣ — قال تعالى : ﴿ وَلَـوْ تَرَى إذْ وُقِفُوا على رَبِّهِم ، قال : أليسَ هذا بالحقِّ ؟ ـ قالوا : بلى وَرَبِّنا ـ قال : فَذُوقوا العذابَ بما كنتم تَكْفُرون ... ﴾ (٦ : ٣٠) .

١٤ — قال تعالى : ﴿ ولو تَرَى إذِ الظالِمُونَ في غَمَراتِ الموتِ والملائكةُ

باسِطُوا أيْدِيهِمْ : أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ ، اليومَ تُجزَوْنَ عَذابَ الهُونِ بِمَا كُنتم تقولونَ على اللهِ غيرَ الحقِّ ، وكُنتم عَنْ آياتِهِ تَستَكبِرُونَ...﴾ (٦ : ٩٣) .

ولنا عدا ذلك من شواهد الحذوف في القرآن الكريم ما لو تتبع لزاد على المئة ، ولعل فيما استشهدنا به كفاية للمتأملين .

يوسف في الجب

البحث الثاني - لما وصل إخوة يوسف إلى «دوثان» نزلوا عن عانة حميرهم وأرادوا أن يخفروا تلك الذمة! فقالوا ليوسف - بنعمة الظافر - أأنت صاحب الأحلام السياسية ؟ أأنت صاحب المنامات الملوكية ؟ هبلتك أمك - وما عتموا أن خلعوا عنه قميصه الملون الذي عليه ، ثم أخذوه وألقوه في غياهب «الجفر[1]» ! ! !

وأما هو فبهت وبغت واصفر لونه وانتقع ، لهفته وتأثره ، وجلس في الغيابة وحيداً ، تتقاذفه الهواجس والبلابل ، وقد أخذ منه القلق مأخذاً عظيماً ، وهو مقطب الوجه ، غارق في بحار التأمل ، وقد هاله ما به من الوحشة والوحدة ، مع الغربة والنأي عن الأهل والوطن ، وليس عنده ما يأكله ، ولا ما يتدفأ به ، ولا ما يقيه من البرودة والرطوبة ، فترقرقت عيناه بالدموع الحارة ، ثم افتكر في صنيع إخوته معه ، وجعل يردد قولهم لأبيهم :﴿ يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف ؟ وإنا له لناصحون ، أرسله معنا غداً يرتع ويلعب ،

(١) الجفر بضم الجيم وفتحها بئر واسعة محفورة لم تطو .

وإنا له لحافظون ﴾ ردده مراراً ، وتغنى به تكراراً ، وهو عند كل كلمة يهز رأسه مستغرباً متعجباً ، ويقول : (يرتع ويلعب :!) أين الرتع ؟ وليس لي الآن ما أسد به الجوع ، وليس حوالي إلا الطحلب ، وأين اللعب ؟ وأنا الآن في جفر صخري ذي أربع حوائط ، هي وسقفه وأرضه قطعة واحدة ، وأين الحفظ ؟ وليس عندي ما يقيني من البرد والرطوبة ، ولا مايؤنس وحدتي ، فلو أن هؤلاء الإخوة (الكرام)قالوا :(فأرسله معنا غداً يجُع ويتقيد : وإنا له لحابسون) لكانوا أقرب إلى الصدق .

هذا ما نظن أن يوسف أخطره في قلبه حينما صار في جبه

كيف اتفق اخوة يوسف على القائه في الجب مع اختلاف مشاربهم وميولهم

البحث الثالث ـ سألني سائل: كيف أمكن لهؤلاء الإخوة العشرة أن يتفقوا ويتحدوا على الإضرار بيوسف وإلقائه في « الجفر » مع انهم عدد غير قليل ، ومع كونهم من أمهات ثلاث ضرائر ، هنّ : ليئة ، وبلهة ، وزلفة ، فهؤلاء الإخوة العشرة لا بد أن يكونوا مختلفي المشرب والميول ، لا سيما رأوبين ويهوذا ، فقد كانا غير حاقدين على يوسف كثيراً ، بعكس شمعون المظهر الحقد عليه ، وبخلاف كل من دان ونفتالي اللذين كانا إلى محبة يوسف أقرب من كرهه ، حيث هما ولدا جارية أمه وقد تربى هو وشقيقه بنيامين في خيمتها بصحبة ولديها المذكورين ، وبخلاف الخمسة الباقين ، فقد كانوا متوسطين في كرههم ليوسف، فكيف مع هذا الاختلاف العظيم، ومع كثرة عددهم اتفقوا وأجمعوا على الإضرار العظيم بيوسف، وقد توفقوا أن فعلوا ما أجمعوا عليه ؟!!..

فأجبته بجواب مختصر ولعل فيه الكفاية ،وهو أنني كنت افتكرت نفس هذا

وادخلوا مِنْ أبوابٍ مُتَفَرِّقةٍ ﴾ ، وقد طلب منهم هـذا التحفظ عند سفرتهم الثانية ، حين كان بنيامين معهم ، ولكن عند سفرتهم الأولى حين لم يكن معهم لم يوصهم بشيء ، ثم عطفاً على ما سبق ـ سمعناه يقول: ﴿ يا بَنيَّ اذهبوا فتَحَسَّسُوا مِنْ يوسف وأخيهِ ﴾ يريد بأخيه « بنيامين » طبعاً ، مع أن رأوبين كان متخلفاً بمصر ، ولكنه لم يشر إليه بشيء ، ثم رأيناهم سلكوا مسلك أبيهم في المحافظة على بنيامين ، حيث صاروا يترضون أباهم بسهرهم عليه وحراستهم له. إذ قالوا ، ﴿ وإنَّا له لحافظون ﴾ ، و ﴿ نحفظ أخانا ﴾ ، ثم سمعناهم يقولون : ﴿ يا أيها العزيزُ إنَّ له أباً شيخاً كبيراً ، فخُذْ أحَدَنا مكانَهُ ﴾ وسمعنا كبيرهم يقول : ﴿ ألم تَعْلَموا أنَّ أباكم قد أخذ عليكم مَوْثِقاً من الله ﴾ يريد موثقاً في شأن (بنيامين)خاصة .

فنتعلم من مجموع هـذه الآيات الكريمة وما إليها ، أن وجه أبيهم بعد غياب أخيهم لم يخل لهم ، ولكنه خلا (لبنيامين) شقيقه ، فنرى من ذلك أن آمالهم خابت وانهم لم يستفيدوا شيئاً بعد أن فعلوا ما فعلوا ، بل خدموا بذلك (بنيامين) إذ نقلوا له حصة الحب والعناية التي كانت ليوسف ، فانحصرت فيه محبة وعناية أبيه خلاف ما كانوا يرجون وعكس ما كانوا يأملون .

سيلون ودوثان والجب

البحث الخامس ـ علمنا أن اخوة يوسف ذهبوا بأخيهم يوسف من « سيلون » محط رحال في والدهم ذلك الحين ، وهي بجوار نابلس قرب « سنجل » ، وما زالو سائرين حتى أتوا « دوثان » : وهي اليوم « خربة » معروفة بهذا الاسم تبعد ستة أميال إلى الجنوب الغربي من « جنين » بجوار « عرّابة » وبعبارة أخرى هي بين سنجل ونابلس ،

تبعد عن « خليل الرحمن » ـ قرية أربع ـ إحدى وثلاثين ساعة لجهة الشمال ، هذا بيان المحل الذي ذهبوا منه والمحل الذي ذهبوا إليه ؛ وأما غيابة الجب ، فمعناه ما غاب من أسفل الجب من جوانبه المرتفعة عادة عن وسطه ، هذا نصف الحقيقة ، أما نصفها الآخر فهو ان الجب كان فيه بقية قليلة من الماء راكدة في وسط الجورة المتوسطة في قعره ، والفرق بين كلمة جب وبئر ، ان الجب هو البئر التي لم تطو ، أي لم تبن بالحجارة ونحوها بل جبت جباً ، أي قطعت قطعاً بالمعاول والفؤوس ، أو الديناميت والبارود ، ويقال للجب أيضاً « جُفْر » وأما ما كان مطوياً بالحجارة فيقال لـه « طويّ » وجمعه أطواء ، وبئر وجمعه آبار ، قال الشاعر :

فإن الماء ماء أبي وجـــدي

وبئري ذو حفرت وذو طويت

والحقيقـة ان آبار صحراء دوثان وصحاري ما حوالبها من سنجل ونابلس ونحوها ، هي جباب صخرية ، ومنه تعلم عدم صحة تعبير التوراة عن جب يوسف « بالبئر » وان الصواب التعبير بالجب كما في القرآن الكريم .

(وأوحينا إليه .. الخ)

— ١ —

قال الميرزا حسين الكاشاني [١] :

الإيحاء ليوسف وهو في الجب

ألقوه في الجب ، ورجعوا لشأنهم ، وتركوه وحيداً يحرّق أسنانه ، ويساور

(١) نسبة إلى كاشان إحدى مدن إيران

ثمارها ، وتتلألأ أزهارها ، إنه جواد كريم ، على أني لم أكن بادئاً بالطلب ، ولا مقترحاً ولا مستبدأ ، إذ كل ما أرجوه قد سبق فيه الوعد ، ممن لا يخلف الميعاد ، فلست أريد أن أموت باليأس ، بل أريد أن أحيا بالأمل .

سبحان المنعم : كن مع الله ولا تبالي ، فكم وكم من الناس يدخلون القصور وهم أعزاء ، ولكن يغادرونها في حالة الذل ، وأما يوسف فنزل في الجب ، وهو بحالة الذل ، ولم يغادره إلا وهو موحىً إليه ، كما سيأتي أنه دخل السجن عبداً فغادره وهو ناظر مالية !!! .

وإذا العناية لاحظتك عيونها
نم فالمخاوف كلهن أمان

هذا حال يوسف في جبه ، وأما إخوته فهل يظن ظان أنهم بعد ما فعلوا فعلتهم أنهم كانوا مستريحين في قلوبهم ؟ ... كلا.. بل لا نرتاب في أن ضمائرهم كانت تخزهم ، ونفوسهم كانت تلومهم على هذا الصنيع الرديء .

الوحي لغة واصطلاحاً

وبعد فقبل الختام اسمحوا لي أن أتكلم كلمة في شرح « الوحي » بمناسبة قوله تعالى هنا : ﴿ وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا ﴾ :

قال أحد المصريين ـ « الوحي في لغة العرب إعلام مع خفاء وسرعة ، ومعنى السرعة أن هذه المعلومات المتلقاة لا تكون نتيجة لمقدمات تبنى عليها تلك النتيجة ، بل هي أشبه شيء بالعلم الضروري الذي لا يتوقف على نظر واستدلال » ،

وقال عصري آخر ـ : « الوحي في اللغة يطلق على الأمور الآتية :

١ ـ على الاشارة والايماء والكتابة ومنه قوله تعالى : ﴿ فأوحى إليهم أن

سَبِّحوا بُكْرَةً وعَشِيّاً ﴾ (١٩ : ١٠) فان الذي وقع من زكريا لقومه إنما هو الاشارة وقيل الكتابة على الأرض .

٢ ـ على الإلهام الذي يقع في النفس ، أو يلقى في الروع ، وهو أخفى من الايحاء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنا إلى أمِّ موسَى أنْ أرْضِعِيهِ ، فإذا خِفْتِ عليه فَأَلْقِيهِ في اليَمِّ ، ولا تخافي ، ولا تحزني ، إنّا رادُّوهُ إليكِ ، وجاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ ﴾ (٢٨ : ٧) ، وهذا من قبيل ما يقع في نفوس الصالحين ، من المعاني والأفكار الصحيحة ، فيعد من الإلهام ، الذي قد يعبر عنه بالوحي .

٣ ـ يطلق على ما يكون غريزة دائمة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وأَوْحَى ربُّك الى النحل ، أنْ اتّخِذِي مِنَ الجبالِ بيوتاً ، ومِنَ الشجرِ ، ومما يَعْرِشُون، ثم كُلِي مِنْ كلِّ الثمراتِ ، فاسْلُكِي سُبُلَ ربِّكِ ذُلُلاً ﴾ (١٦ : ٦٨)

٤ ـ ويطلق على الإعلام في الخفاء ، وهو أن تُعلِم إنساناً بأمر تخفيه عن غيره ومنه قوله تعالى : ﴿ شياطينَ الإنسِ والجن ، يُوحِي بعضُهم الى بعضٍ ﴾ (٦ : ١١٣) .

وقال عصري ثالث : ثبت ان الروح الانسانية إذا تجردت عن الاشتغال بالماديات أمكنها أن تستقي معلوماتها بدون وساطة المشاعر ، فيوسف الصديق لما رأى نفسه وحيداً في الغيابة تملص عن كل شيء من عالم المادة ، وتقلص عما عدا الروحيات ، فانكشف له أنه سوف ينبيء إخوته بما عملوه معه ، غير شاعرين انه أخوهم .

وأما الرسل فينكشف لهم عالم الأرواح العليا باستعداد فطرتهم ، وبتخصيص الله تعالى إياهم لذلك ، فلا جرم إذا كانوا يعرفون من عالم التقديس ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وقال عصري رابع ـ : معنى الوحي او الالهام في اللغة : الإلقاء في الروع ، أي الإخطار على البال ، ويكون على ثلاثة انواع ، يختلف تعريفه اصطلاحاً بحسبها.

النوع الأول : عام ، وهو ما تكون به هداية كل نوع لما يصلح له قوامه ، وذلك كالذي نراه في فطرة الحيوانات آكلة العشب ، من اجتناب التي لا تلائمها من غير معلم ، ومن غير تجربة سابقة كالخيل والبقر والأنعام ، وكالذي نراه من اتخاذ كل نوع من الأنواع المتعادية ، اسبابَ الدفاع والهجوم من صياصي وخدائع ، اعتبر ذلك من صغار الحشرات ، الى كبار السباع ، وكالذي نشاهده من استشفاء البعض منها ، ببعض الأعشاب ، كالسنانير والكلاب ، وكالذي نراه من نظام الحيوانات ، المنقادة لرئيس منها ، كالنحل والنمل ، وكالذي يعلمه كل منسا من اندفاع الرضيع لالتقام حلمة ثدي أمه ،فمصه إياه حتى يكتفي ، وشاهد هذا النوع من القرآن : ﴿ وأوحَى ربُّك الى النحلِ ﴾ (١٦ : ٦٨) .

النوع الثاني : خاص ، وهو ما تكون به هداية هذا النوع الانساني في حياته النوعيـة ، وشؤونه الخصوصية ، متى وصل لسن التمييز : والشاهد لهذا : ﴿ وأوحَيْنَا الى أمِّ موسى أنْ أرضِعيهِ ، فإذا خِفْتِ عليه ، فألْقيهِ في اليَمِّ ، ولا تخافي ولا تَحزَني ، إنّا رادُّوهُ اليكِ ، وجاعِلوهُ مِنَ المرسَلينَ ﴾ (٢٨ : ٧) .

النوع الثالث : أخص ، وهو ما تكون به هداية بعض الأفراد لمعرفة شيء من علم الغيب ، وهذا ما يقع للأنبياء ، وشاهده : ﴿ إنّا أوحَيْنا اليكَ ، كما أوحَيْنا الى نُوحٍ : والنّبِيِّينَ مِنْ بَعدِهِ ﴾ (٤ : ١٦٢) .

ويقابل النوعين الأخيرين ، إضلالات ، تأتي من جانب الناس والشيطان ،

وشاهده : ﴿ وكذلكَ جعلْنا لكلِ نبيٍّ عدواً ، شياطينَ الجنّ والأنسِ ، يُوحِي بعضُهم الى بعضٍ ، زخرفَ القوْلِ غروراً ﴾ (٦ : ١١٢) .

وربما كان الوحي ليوسف من قبيل الإلهام ، فهو من المعنى الثاني من المعاني الآنفة الذكر ، والله تعالى أعلم ، وأما نحن فلا نعلم إلا أنّا لا نعلم .

وأما وحي الله لأنبيائه فقد شرحه إخواننا الامـام القلقيلي والشيخ البيساني والمدقق اللدي في جلسة الائتمار على الآية الثالثة ، فمن أراد فليرجع اليه .

دموع التماسيح

آ (١٦) ﴿ وجاءوا أباهُم عِشاءً يبْكُونَ !! ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة عشرة فقام ابو الفضل البحراني[١] وقال :

(وجاءوا) أي جاء فريق من اخوة يوسف العشرة وبقي فريق آخر منهم في حراسة يوسف وهو في جبه ، حيث السيارة لم تجيء بعد كما هو مقتضى نظم الآيات الكريمة (أباهم) يعقوب (عشاء) في أمسية أحد الأيام (يبكون) وقد عبر بهذه الكلمة مع أن الذي صدر منهم هو التباكي ، لأن الانسان إذا تباكى انتهى تباكيه المصطنع ببكاء حقيقي ، وبيان ذلك : أن الأفكار والخواطر التي تمر بأذهاننا يتأثر بها جسمنا ، كما بالعكس ، أن عقلنا يتأثر من جسمنا ، فكل عواطفنا تؤثر في أجسامنا ، وقد يمكننا استحداث العاطفة بتحريك العضو الخاص بها ، فاذا

(١) نسبة الى البحرين احدى مقاطعات الجزيرة العربية الواقعة على الخليج العربي .

تضاحكنا مثلاً وليس هناك ما يضحكنا ، فإن هذا التضاحك يحدث سروراً عندنا وينتهي بنا الى الضحاك الحقيقي ، وإذا تباكينا انتهى التباكي المصنوع ببكاء حقيقي نشعر فيه بالحزن ، ومعنى هذا ان الجسم يؤثر أيضاً في العقل ، هـــذا هو تحقيق الكلام في هذا المقام الذي غفل عنه المفسرون .

(وجاءوا أباهم . الخ)

— ١ —

وقال الشيخ دخيل الكويتي (١) :

حال يعقوب بعد ذهاب يوسف مع اخوته وحال اخوته بعد القائه في الجب

لنترك يوسف في جبه ، ونأتي على ما جرى ودار بين يعقوب وأولاده حينما رجعوا اليه بدون يوسف :

بعدما فعلوا فعلتهم ، اجتمعوا وتذاكروا في أمر يتخلصون به من أبيهم ، بحيث يتفقون جميعاً عليه ، لئلا تظهر له دخيلتهم ، فاتفقوا على ما سيأتي ذكره .

هذا ما كان من جهتهم ، وأما ما كان من جهة والدهم ، فانه كان في آخر يوم من غياب ولده الحبيب تذكره وتذكر بعده عنه،فانتابته الهواجس ، ورأى نفسه في وحشة عليه ، وكأني به قد شرع يقول بينه وبين نفسه : « كم يوماً أنت غائب عني يا يوسف ؟ وكم يوماً بقي لك حتى ترجع ، وأرى نور وجهك ؟ آه ، أنت يا ولدي في سرائك وأنا في ضرائي ، أنت مشغول القلب بالمتنزهـــات الجميلة الرائعة والمناظر الطبيعية ، وأنا مشغول الفؤاد بغيبتك عني ! » .

(١) نسبة الى بلدة الكويت في امارة الكويت العربية على ساحل الخليج العربي .

ملّ يعقوب الانتظار ، وقد كان يتوقع أن يرى يوسف حاضراً بالسلامة ، ممتلئاً سميناً ، متفقئاً شحماً ، مترعرع البدن بسبب وجوده في الصحراء ، يرتع ويلعب فيها ويستنشق هواءها النقي ، وكان يعدّ مدة غياب ابنه يوسف بالأيام ، بل بالساعات .

بينا يعقوب ، وهو في ظلمة البعاد يتطلع لرؤية وجه ولده الساطع ، كما يتطلع الملاح في ظلمة البحر الى نجمة القطب ،

بينا يعقوب ، قد هاجت بلابله ، وتحركت أشجانه ، وقد جعل يتلفت كأنما يبحث عن ضائع ، ويُصيخ بسمعه ، كأنما يتسمع لأنين طفل يبكي ،

بينا يعقوب ، يتقلب على مثل الجمر من الانتظار ، يقضي بانتظاره كل ليل بطيء الكواكب ، وكل نهار أطول من فقر أهل الكسل ،

نعم بينا هو كذلك ، إذ في ذات ليلة ، في الهزيع الأول من الليل ، بعد أن سحبت الغزالة ذنبها الأحمر ، وتكاثفت العتمة ، وخيم الغسق ؛ وسدل الليل نقابه وانغمست جذوة النهار في فحمة الليل ، جلس يعقوب وهو يفكر في أمر وحشته من يوسف ، وانه لكذلك ، إذ حضر أبناؤه (لسيلون) وقربوا من باب فسطاط أبيهم وقد علتهم الأحزان ، واحمرت عيونهم ، وكلل العرق أصداغهم وجباههم ، وتجول في محاجرهم دموع التماسيح ، يبكون بكاء مر أبكل عين قوية ، وقد شرقوا بدموعهم وهم يجهشون في بكائهم وقد خنقتهم العبرات ، ولكن دموع بكائهم لم تكن سخينة ، بل باردة:

إذا اشتبكت دموع في خدود ... تبين من بكى ممن تباكى

فبغت أبوهم ، وصاح : مَهْيَمْ ؟ ما وراءكم ... ما خبركم ... ؟ ما خطبكم ..؟ تكلموا .. قولوا ..

فأجابوه بما سيأتي في الآية (١٧).

(وجاءوا اباهم ..)

— ٢ —

وقال ابو غانم الاربدي :[١]

اختلاف القرآن والتوراة في كيف ومتى رجع اخوة يوسف بعد القائه في الجب

إذا قرأنا من هنا الى قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ، فأرسَلُوا وارِدَهُم .. الخ ﴾ وتأملنا فيه قليلًا نعلم من نظام ترتيب الآيات أن إخوة يوسف رموه في الجب وفي الحال قبلما تأتي السيارة المذكورة قاموا ورجعوا الى أبيهم ، ونعوا له يوسف وهو أجابهم بما أجابهم ، وبعد ذلك ، وفي حال غيابهم ، جاءت السيارة المذكورة فالتقطت يوسف ونشلته من جبه ، هذا ما نتعلمه من الآيات المذكورة فإنه وإن تكن «الواو» لا تفيد ترتيباً لكن المتبادر من نظام الآيات هو ما فهمناه، وانما نقرأ في «سفر التكوين» فنفهم ان «السيارة» جاءت وأخذت يوسف وذهبت به لمصر بحضور إخوته ، بل هم الذين باعوه لها ، ثم بعد أن أتموا ذلك كله، وصاروا آمنين أرسلوا بعضهم بالقميص ينعي يوسف لأبيه . ورأينا في هذا الاختلاف هو انـــه يمكن الجمع بأن فريقاً منهم ذهبوا بالقميص والنعي لأبيه ، وفريقاً آخر بقي في دوثان لأجل حفظ يوسف في الجب ، ومراقبة ما سيطرأ عليه ، خوفاً من تفلته بإحدى الوسائط ، فهروبه منه ، فرجوعه لأبيه ، فتبين كذبهم صريحاً ، وعليه فالضمير في قوله تعالى: « وجاءوا » ليس هو ضمير الجميع، بل ضمير المجموع ، أي للبعض منهم ، فيصدق بواحد أو اثنين أو ثلاثة مثلاً وإنمـــا نسب المجيء بضميرهم

(١) نسبة الى اربد من بلاد الشام (شرق الاردن) .

كلهم ، لأن مجيء البعض كان بمعرفة ورأي الكل ، فلذلك جازت نسبته للكل ، عملاً بقاعدة التضامن والتكافل التي هي معتبرة شرعاً وعليها جرى القرآن الكريم على طول الخط ، كما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وأنتم ظالِمُون ﴾ (٢ : ٥١) وقوله : ﴿ وإذْ قُلْتُمْ يا موسى لَنْ نُؤمِنَ لكَ حتى نَرَى اللهَ جَهْرَةً ، فأخَذَتْكُمُ الصاعِقَةُ ، وأنتم تَنْظُرون ، ثم بَعَثْنا كُم مِنْ بعدِ موتِكُم لعلكم تَشْكُرون ﴾ (٢ : ٥٥ و ٥٦) وقوله : ﴿ وإذْ قلتم يا موسى لَنْ نَصْبِرَ على طعامٍ واحدٍ ﴾ (٢ : ٦١) ، وقوله : ﴿ وإذْ قتَلْتُم نفساً فادّارَأْتُم فيها ، واللهُ مُخرِجٌ ما كنتم تَكْتُمون ﴾ (٢ : ٧٢) وقال تعالى ﴿ فكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوها ، فَدَمْدَمَ عليهم ربُّهُم بذَنْبِهِمْ ﴾ (٩١ : ١٤ و ١٥) ومـــا الى ذلك مما لا يُحصى في الكتاب الكريم والاحاديث النبوية والأشعار العربية .

وأما القول بأن مجيء « السيارة » وأخـذهم إياه لمصر كان قبل مجيء إخوته لأبيهم عشاء يبكون ، وأن الواو في قوله « وجاءوا » لا تفيـد ترتيباً — فهو قول أدخلَ في باب الهراء منه في باب الكلام المعقول ، وما يسع رجلاً يحترم نفسه وما وهبه الله من المدارك والمشاعر أن يقول هذا القول .

عذر أقبح من ذنب

آ (١٧) ﴿ قالوا : يا أبانا ، إنّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ ، وتركنا يوسفَ عندَ مَتَاعِنا ، فأكَلَهُ الذئبُ ، وما أنت بمؤمنٍ لنا ، ولو كُنّا صادِقِينَ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية السابعة عشرة فقام الفاضل الغزي وقال :-

روي أن يعقوب لما سمع صوت أولاده وهم قادمون عليه ، فزع وقال : مالكم يا بني هل أصابكم في غنمكم شيء ؟ قالوا : لا ــ قال : فما لكم وأين يوسف ! ــ قالوا: بلسان الفم والكآبة : (يا أبانا ، إنا ذهبنا نستبق) أي نتسابق في العدو أو في الرمي ــ ومعنى نستبق نتفضل ــ (وتركنا) أخانا (يوسف) المحبوب في الخيمة (عند متاعنا) حوائجنا (فأكله) فاختطفه (الذئب) الخبيث (وما أنت بمؤمن) بمصدق (لنا) في هذا النبأ (ولو كنا صادقين) أي ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة لشدة محبتك ليوسف، فكيف وأنت سيء الظن بنا غير واثق بقولنا؟ أو ولو كنا صادقين في الواقع ونفس الأمر .

(قالوا : يا أبانا ، إنا ذهبنا .. الخ)

— ١ —

وقال الاستاذ اليافي :

اخوة يوسف يلفقون لأبيهم كيف افترس الذئب يوسف

يمم أبناء يعقوب ــ سامحهم الله ــ فسطاط أبيهم ، وقالوا بصوت مرتجف

مضطرب أجش متقطع ، وهم يتلعثمون في كلامهم ، وعيونهم تترقرق بدموعهم : يا أبانا المحترم لا نَكْذِبُكَ ، - قال : خيراً لنا شراً لأعدائنا ، تكلموا ، فإني أراكم بحالة على غير ما أعهد ، أعرف منها وأنكر ، - قالوا : إنا ذهبنا .. نستبق.. وتركنا ... يوسف ... أخانا المحبوب ... عند متاعنا ... فأكله ... الذئب ... وما أنت بمؤمن لنا ... ولو كنا صادقين .. فيما قلناه ، - فقال أبوهم : ما هذا الذي تقولون ؟ - فوقف ابن آخر وقال : ذهبنا يسابق بعضنا بعضاً في الرمي ، وتتناضل ، ونشتد ونعدو ، وأوغلنا في الكر والفر ، وتركنا أخانا المحبوب يوسف . - ولما وصل في حديثه إلى هذا الحد - امتقع لون أبيه الشيخ ، وشخص ببصره لسماع تتمة الحديث قائلاً : ثم ماذا ؟ ؟ - قال : يا ليتنا متنا قبل أن ننقل إليك هذا الخبر السيء ، - قال أبوهم : ثم ماذا ؟ أسرع في الكلام - قال : فما عتمنا أن بعدنا عنه ، وشسعت بيننا وبينه المسافة ، فما لبث أن جاء الذئب وبَتَلَهُ ودَجَّيْهِ ، وهكذا أسلمه حظه إلى أنيابه ، أكله (وا أسفاه) ذلك الحيوان الأشرس الضاري ، واستل حياته من يدي أجله ، ولعله تعرض له في الصبح في أول ما خرجنا للاستباق ، عند فترة كلابنا ونومها ، لأن الذئاب أكثر ما تتعرض لافتراس الغنم في أول ذلك الوقت ، كما هو معروف - ولعل أخانا خافه فهرب منه ، فطمع فيه فأدركه وقتله .

وربما كان أخونا نائماً،فجاءه فخدشه بأنيابه في عنقه، أو أثقله وأثخنه بالجراح حتى سالت نفسه فقضى نحبه ، وأما نحن فبعد ما أسفنا وبكينا عليه بكاءاً مراً فقد جهزناه ، وواريناه جثمانه التراب. ولم نشأ أن نأتي به أو ببقية جسده، لئلا يتضاعف حزنك عليه ، وإنا لا نكذب الله فيما نقول ، ولكن ما العمل والإنسان هدف للنوائب ، وإنه ليعرض لنا أنك غير مصدق لنا بقلبك على صحة هذه الحقيقة ، وإن كانت كفلق الصبح، ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة، ولماذا يا ترى؟. لشدة محبتك ليوسف ، فكيف وأنت سيء الظن بنا ، غير واثق بقولنا ؟!!!

(قالوا يا أبانا، إنا ذهبنا.. الخ)

— ٢ —

قال الشيخ السلفي العُنيزي (١) :

ليسمح لي السادة المستمعون أن أبين في هذا الصدد ثاني نقاط هي من الأهمية بمكان :

المعذرة المصطنعة

أولها : ـ لقد تركز إخوة يوسف على معذرتهم التي قدموها لأبيهم ، لأنها تكفيهم للذود عن أنفسهم في موقف الجدل والمناظرة، وإن كانت كالثوب الشفاف ينم عما وراءه ، وكل أحد يدرك لأول نظرة أنها حيلة مصطنعة ، فهي في ظهور فسادها ، كحيلة الفقهاء في « الربا » التي يسمونها « العينة » وقد قيل : « إياك والعينة فإنها لعينة » . نعم لقد انتحلوا هذا العذر ، وصمموا على حكايته لأبيهم ، سواء أصادفوا منه إصغاء وقبولاً أم لا ، مع أن الشيء الذي اتخذوه عذراً ، ضعيف في العقل جداً ، ولكن ماذا يعملون ؟ .. وهم لا يجدون شيئاً يلجأون إليه سواه، « ولا بد للكذاب من بارد العذر » .

الاستباق

ثانيا : ـــ يريدون بقولهم « نستبق » يسابق بعضنا بعضاً في الرمي ، بأن يرمي اثنان مثلاً ، ليتبين أيهما يكون أسبق سهماً وأبعد غلوة ؟ ، فمعنى « نستبق » نتنضل ونترامى ، فننظر أي السهام أسبق إلى الغرض (قاله الزجاج) ، وقد روى

(١) نسبة إلى العنيزة من البلاد النجدية في المملكة العربية السعودية

مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول : « وأعِدُّوا لهم ما استَطَعْتُم مِنْ قوةٍ. ألآ إنَّ القوةَ الرميُ ألا إنَّ القوةَ الرميُ » وهو سنة، ولكن يحرم اتخاذ الحيوان الحيّ غرضاً ، فقد روي مسلم في صحيحه أن ابن عمر مرّ بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً وهم يرمونه ... فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر : من فعل هذا ؟، لعن الله من فعل هذا، « إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً » .

وقيل معنى « نستبق » نسرع ونعدو على أرجلنا ، ليتبين أينا أسرع عدواً ، وقد روي أن النبي ﷺ كا يسابق عائشة (ض) وذلك على نوع من أنواع فن الرياضة البدنية المستحب طباً وشرعاً .

وقيل معنى « نستبق » نتسابق على دوابنا ، ففي البخاري « أن النبي ﷺ سابق بالخيل التي أضمرت ، وسابق بين الخيول التي لم تضمر » وزاد مسلم : « وكان ابن عمر فيمن سابق بها » .

المتاع

ثالثها : - قولهم « متاعنا » جمعه أمتعة ، ويرادفه « الثَّقَلُ » كما في ﴿ وَتحمِلُ أثقالَكُم إلى بَلَدٍ ﴾ (١٦ . ٧) أي أمتعتكم الثقيلة ، وكلمة « متاعنا » مفرد مضاف فيعم جميع الأمتعة المعتادة لأمثالهم في البر ، المؤلفة من خيام وعدول وأصواف وسمن وزبد وألبان ولحوم مقددة ، وجرار ماء ووسائد للجلوس وأغطية نوم ، وأقط وجبن وجلود ونعال ، وما إلى ذلك .

وههنا لنا عليهم ملاحظة ، كما لا بد أن يكون قد لاحظها عليهم أبوهم (ع) وهي أنهم كانوا قالوا : ﴿ ما لَكَ لا تأمَنَّا على يُوسفَ ؟ وإنّا له لناصِحُونَ

أرسِلْهُ معنا غَداً يَرْتَعْ ويَلْعَبْ ، وإنَّا له لحافِظُون ﴾ ، فإنا نراهم الآن لم يفوا بهذا الوعد ولم يقوموا بما قالوا ، فإنهم بدّلوا يوسف عن « الرتع واللعب » بالحراسة ، فقد جعلوه كحارس لأمتعتهم ، وتركوه وحده ، ولم يكونوا له من الحافظين » ! وبهذا يكونوا قد تناقضوا ، ولم يتجاوب أول كلامهم وآخره .

ادعاء الاخوة الوجه الذي خاف أبوهم هلاك يوسف بسببه

رابعها : — قالوا : (فأكله الذئب) فسمع أبوهم ذلك النعي السيء ، فأثر فيه تأثيراً كلياً ، فاختلج قلبه أيما اختلاج ، بل شعر كأن صوت هذا النعي اخترق صدره ، حتى وقعت سهامه في قلبه ، ولكنه رجع إلى أمله في ولده ، وصبر صبْر الكرام .

وروي انه لما سمع صوتهم فزع ، وقال : « مالكم يا بني ، هل أصابكم في غنمكم شيء ! — قالوا : لا — قال : فما لكم ؟ وأين يوسف ؟ — قالوا : أكله الذئب» — فاتهمهم ، وقواه على اتهامهم أنهم ادعوا الوجه الخاص الذي خاف يعقوب (ع) هلاك ولده بسببه ، وهو أكل الذئب إياه ، فاتهمهم أن يكونوا تلقفوا العذر من قوله لهم : (وأخاف أن يأكله الذئب) أعني أن يكونوا التقطوا منه تلك الكلمة، فتمركزوا عليها ههنا ، ولا غرو ، فإن الجملة الاعتذارية التي نطق بها أبوهم لهي كالاختبار بامتحان يعطى فيه نص الجواب مع السؤال،وكثيراً ما تُتَلقف الأعذار الباطلة من كلام المخاطب المعتذر إليه ، فهم غنموا هذه التكأة ، ودبروا هذه الحيلة من يوم أن غرّوا أباهم لاستلاب يوسف .

اطلاق اكل الذئب على الخدش والنهش تجوزاً

خامسها : ـ للعرب إقدام على التجوز في الكلام ثقةً منهم بفهم المخاطب من أصحابهم عنهم كما جوزوا قولهم : « أكَلَه الأَسْود » وإنما يذهبون إلى النهش واللدغ والعض ، كما نقله صاحب فقه اللغة عن الجاحظ ، وهكذا الحال هنا فمعنى « أكله الذئب » خدشه وأثخنه بالجراح ، حتى أسلم روحه لربه .

تعدي الإيمان بالباء وباللام وبعلى

سادسها : ـ قولهم (وما أنت بمُؤْمِنٍ لنا) معناه وما أنت بقابلٍ لكلامنا ، مصدق لنا ، بل أنت من المرتابين في اخبارنا،ونظيره ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لكم ، يُؤْمِنُ بالله ، ويُؤْمِنُ للمؤمنينَ ﴾ (٩ : ٦٢) أي يصدق بالله ويقبل كلام المؤمنين الخلص ، وقوله ﴿ فآمَنَ له لوطٌ ﴾ (٢٩ : ٢٦) أي أن لوطاً صدق كلام عمه إبراهيم وقبله ، وقوله تعالى ﴿ فما آمَنَ لموسى إلاّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قومِهِ ﴾ (١٠ : ٨٣) ، أي صدقوا كلامه ، وقبلوا إخباره ، والخلاصة ، أن الايمان تارة يتعدى بالباء مثل آمنت بالله ، فيكون بمعنى التصديق بالذات ، وتارة يتعدى باللام، مثل آمنت لك ، بمعنى قبلت كلامك ، وتارة يتعدى بعلى ، مثل (هَلْ آمَنُكُمْ عليهِ) فيكون بمعنى الائتمان .

الصادق من صدق قلباً ولساناً وجارحة

سابعها : ـ يقولون : (ولو كنا صادقين) ! يرحم الله هؤلاء آباء الأسباط ، فإنهم ما كانوا صادقين ، في بكائهم ، ولا في قولهم إنهم ذهبوا يستبقون وقد تركوا يوسف عند متاعهم ، ولا في قولهم إن الذئب أكله ، فكل ذلك كذب ،

كما أن الدم الذي جاءوا به على قميصه كان كذباً ،فروايتهم هذه التي مثلوها كاذبة من الرأس للعقب ومن الجذر للفرع .

الصادق عند الإطلاق ، والصادق على الحقيقة من صدق قلباً ولساناً وجارحة فلا ينطوي قلبه على كذب ، ولا ينطق لسانه بكذب ، ولا تتحرك جارحة من جوارحه في شيء كذب،ولا يعمل أعمال كذب ، بل يكون في كل أفعالهوأقواله ظاهراً وباطناً على حق ، ولكن الجماعة لم يكونوا في شيء من هـــذا ، فالقلب واللسان ليسا بصادقين ، وعمل جارحة اليد وهو تلويث القميص بالدم ، ليس بصادق ، وعمل جارحة العين وهو البكاء ، ليس بصادق .

هم يقولون لأبيهم : (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين)، وهم إنمايعبرون بذلك عن إحساس أبيهم عجبت لهم ، يعلمون أن ما قالوه كذب سحاق ، وافتراء حَنْبَتر يت ، ويدعون الصدق !! كما قال الشاعر :

ومن البلية أنْ يسمى صادقاً   من وصفه الأولى كذوبٌ ناري
غفران ربك قلما فَعَلَ الفتى   ما ليس محوجه إلى استغفـار

الخير مؤجل والشر معجل

ثامنها : ـ وعد يوسف بالخير مناماً في رؤيه ، ثم يقظة بلسان أبيه ، وهـذه الوعود تأخر تحقق مضمونها ، ولم يصلْ إلا بعد مدة طويلة ، ولكن المصائب التي نصبت فوق رأس الصديق (رض) لم يحصل له فيها وعيد ، وإنما استلمها فوراً ، يداً بيد :

عرفت سجايا الدهر . أما شروره
فنقد ، وأمـا خيره فوعود !!!

الا إنما الدنيا نحوس لأهلها
فما في زمان نحن فيه سعودُ
(مرحى مرحى)

(فأكله الذئب)

— ١ —

قال النجم الروسي القازاني (١) :

التوفيق بين خوف يعقوب على يوسف من الذئب وبين رؤيي يوسف وبشائره

سادتي :

تقدم في محاورات المؤتمر على الآية (١٣) شرحاً لقول يعقوب (ع): ﴿ وأخافُ أنْ يأكُلَهُ الذئب ﴾ - سؤال ، صورته : كيف يقع هذا التخوف من يعقوب (ع) مع انه كان سمع رؤيا ولده ، واعتقد صحتها وعرف مرماها ، وأوصى إليه أن لا يقصها على إخوته ، ثم بشره بقوله : (وكذلكَ يجتَبيكَ ربُّكَ .. الخ) ولا ريب ان هذالم يكن منه على وجه التكهن أو التفرس أوالأملية أو حسن الرجاء ، بل كان كما هو الظاهر على وجه انه أوحي إليه به ، لأنه نبيّ: ﴿ وما يَنطِقُ عن الهَوَى ، إنْ هُوَ إلا وحيٌ يُوحى ﴾ (٥٣ : ٣) ، ولذلك ألفيناه غب حادثة الذئب التي زعموها - لا يزال معتقداً بوجود ولده يوسف وبحياته ، كيف لا وقد قال ﴿ بلْ سَوَّلَتْ لكم أنفسُكم أمراً ﴾ وقال : ﴿ عسى اللهُ أنْ يأتِيَني بهم جميعاً ﴾ وقال: ﴿ وأعلمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعلَمُونَ ﴾

(١) نسبة إلى قازان إحدى مدن بلاد الروس .

وقال : ﴿ اذهبوا فتحسسوا من يوسفَ وأخيه ، ولا تيأسوا من رَوْحِ الله إنه لا ييأسُ من رَوْحِ اللهِ إلاّ القومُ الكافرون ﴾ وقال : ﴿ إنّي لأجِدُ ريحَ يوسفَ ﴾ فمجموع هذه الأقوال الخمسة عطفاً على ما سبق من الرؤيين والبشائر يرشدنا إلى أن يعقوب (ع) كان على يقين أن ولده موجود بقيد الحياة ، وإلا فكيف كان يخبر عن ولده بمستقبل له كمن ينظر إلى الغيب ، أو إلى اللوح المحفوظ ، ويخبر عنه بأخبار راهنة أكيدة ، ثم يتخوف عليه من افتراس الوحش إياه ؟ هذا مالا يكون ولا يتفق ولا يعقل قطعاً ، وأما قوله :(وأخاف أن يأكله الذئب)فيحتمل انه إنما قاله دفعاً لطلب أولاده وحجة يحتج بها عليهم ليصرفهم عن أخذه ، هذه هي صورة السؤال الذي تقدم طبق الأصل ؛ وقد كنت أجبت عنه بثلاثة أجوبـــة ذكرتها هناك في محاورة آية (١٣) ، كما تعلمون ذلك ، وتعلمون اني انعطفت فأجبت بجواب رابع عرضته على أسماعكم بصورة مختصرة جداً ، بل رمز أو إشارة فقط ، وقلت لكم أيها السادة الكرام : إن هذا الجواب الرابع وجيه وقوي جدّ القوة ، ولكن ليس هذا الموضع محل توضيحه وبسطه .

استعمال الذئب والأكل مجازاً

والآن أيها الأحباء المحترمين أريد أن أبين لكم من هو هذا « الذئب » ،ومنه نعلم الجواب الشافي عن السؤال الآنف الذكر ، وعليه فأرجوكم أن تصيخوا لمـا أقول : هم يقولون (فأكله الذئب) ونحن نقول : يجوز أن كلمة « الذئب » مجاز عن « شمعون » الذي ناصب يوسف العداء أكثر من سائر إخوته ، وكلمة « الأكل » مجاز عن الإضرار اللاحق بيوسف .

يستعار « الذئب » كثيراً للانسان المفترس ، وهو مجاز شائع مشهور في اللغتين العربية والعبرانية ، فأما شواهده في اللغة العربية فأكثر من أن تحصر ، وهي

الشعري ، وهذا ما دعى العرب إلى أن يسموا النبي ﷺ الذي بعثه الله إليهم « شاعراً » ، وما أتى به من الله تعالى « شعراً » شُبِّه لهم ، غُمّ عليهم ، فزعموا ما زعموا ، وما هو بشاعر ، بل هو نبيّ يوحى إليه ، وما كتابه بشعر ، وإنما هو وحي يوحى .

الأكل مجاز عن النهش والعض والأضرار

ويستعار « الأكل » للنهش والعض واللدغ تجوزاً من العرب في كلامهم ثقة منهم بفهم المخاطب كما نقله صاحب فقه اللغة عن الجاحظ ، ولذلك يقال للسكين « آكِلَةُ اللحم» وهي إنما تجرح أو تقطع فقط ، ومنه في القرآن : ﴿ وما أَكَلَ السَّبُعُ ﴾ (٥ : ٤) أي جرح ، بدليل قوله : ﴿ إلاّ ما ذَكَّيْتُم ﴾ (٥:٤) ، ويطلق الأكل في كلام العرب على أوسع من ذلك ، فيقولون : « مأكول حِمْيَرَ خيرٌ من آكِلِها » ، أي رعيتها خير من واليها ، وقال الممزّق للنعمان :

فإن كنتُ مأكولاً فكن خيرَ آكلٍ   وإلاّ فأدركني ولما أُمَزَّقِ

فقال النعمان: «لا آكُلُكَ ولا أُوَكِّلُكَ غيري». وقال الخليل: «الواو في مَرْئِيّ أكلتها الياء لأنّ أصله مرؤي ، وعقدتُ لفلان عهداً فسلِمَ ولم يُؤْكَل ، ومن هذا القبيل ما نُقل عن عليٍّ كرم الله وجهه أنه قال : « إنما أُكلتُ يوم أُكِلَ الثور الأبيض » ومنه: « تأكّلَ الرعيةَ » ، واستأكلهم « إذا ظلمهم وصادرهم» .

وقال الشاعر :

لعمري لنعم الحي يدعو صريخُهم   إذا الجار والمأكول أرهقه الأكل

تفسير كلمة «يأكله» بكلمة «يتولى أمره ويتصرف فيه»

فكل هذا ونحوه يصحح لنا أن نفسر كلة «يأكله الذئب» وهو «شمعون» «يتولى أمره ويتصرف فيه، ويفعل فيه ما يشاء وما يريد» على نحو ما تقدم من الأمثلة السبعة .

وقبل الختام لابد لي أن أنبه حضراتكم بأن ما قلته لا يعبر إلا عن رأيي الخاص الذي يتحمل كاتبه وناشره مسئوليته والله أعلم .

وما أن انتهى النجم الرومي القازاني من خطابه ونزل عن منبر الخطابة حتى عتبه الشيخ الزيدي الصنعاني وقال :

تسبيك القول بأن «الأكل» هو الاستيلاء والاضرار وبأن «الذئب» هو شمعون في المجاز

بينا أخي النجم الروسي القازاني يخطب فينا مبيناً ماهو «الأكل» ، ومن هو «الذئب» في هذه الآية ، سمعت رنة صوت من خلفي من بعض الاخوان الحاضرين يقول : إن هذا البيان عما هو الأكل ومن هو الذئب ، بيان «مسلوق» يحتاج «للتسبيك» ولذلك ترون اني قمت بين أيديكم لتسبيكه قائلاً : إن «الأكل» كثيراً ما يطلق في الكلام على معنى مجازي ، كما في قوله تعالى : ﴿ ولا تَأْكُلُوا أَمْوالَهم إلى أَمْوالِكُم ﴾ (٤ : ٢) ، و ﴿ لَيَأْكُلونَ أموالَ الناسِ بالباطِلِ ﴾ (٩: ٣٤) ، وقول بعض العرب : « أكلوني البراغيث » ، فهذا وأشباهه لم يقصد به حقيقة الأكل ، وإنما قصد منه الاستيلاء والإضرار والأذى .

ثم «الذئب» مجاز عن «شمعون» ، وشمعون معناه «سمعان» ، حتى أن العرب

ينطقون به كذلك ، وسمعان صفة مبالغة ومعناه كثير السمع ، ولا يوجد في الانسان من يسمع مثل الذئب ، فقد قالوا : « إن الحيوان أرقى منا حاسيات حيوانيـة ، فالإنسان لا يشم مثل الـكلب، ولا يسمع كالذئب ، ولا ينظر كالنسر والهدهد ». فإذن يجوز أن يكون معنى « يأكله الذئب » يسطو عليه « الجبار المبرقـــع » ويضره الحيوان اللابس لباس الإنسان ، وقد يوجد اليوم في بعض أفراد الإنسان ما يشبه بعض أفراد إنسان الغابات والأحراش بالأمس ، وقد قيل : « من شأن الذئب أكله أخاه » ، وقال أبو العلاء المعري :

يعدو على خله الإنسانُ يظلمه كالذئب يأكل عند الغرة الذيبا

فشمعون أجْمَعَ مع إخوته أمْرَهُ على إلقاء أخيه في غيابة الجب ، ثم كان هو القائم بهذا الأمر ، وبظني ان أبا العلاء المعري يشير لذلك في قوله :

ولكنَّ مَن أعطاهم الخبر افترى وألفيَ مثل السِّيد أجْمَعَ وافترّا

فالسِّيد : الذئب ، وأجْمَعَ اتفق مع إخوته على الإلقاء وافترّا أبدى أسنانه .

رد القول بأن الأرض التي كانوا يرعون فيها مذأبة

قالوا : « إن الأرض التي يرعى فيها إخوة يوسف كانت مذأبة » ، وهو بعيـد مخالف للعادة ، لأن العادة أن الرعاة يبعدون عن الأرض التي تكون مذأبة لغيرها « وأرض الله واسعة فلاها » .

ومما قرره علماء التاريخ المحققون كابن الأثير وسواه ، ان سن يوسف كانت إذ ذاك (١٧) سنة ، وصدر به الطبرسي في مجمع البيان نقلاً عن الحسين ، وظاهر أن من كان كذلك لا يخاف عليه من الذئب الحقيقي ، ولكن من الذئب المجازي، وهو الرجل القوي الشرس ، فتكون معرفة المخاطبين بعمر يوسف قرينـة على

هذا التجوز ، كيف لا والذئب ضعيف في نفسه على حسب ما نتعلمه من قول الشاعر ، يصف ضعف نفسه ، وما آل إليه كبر سنه وهرمه:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا
والذئب أخشاه إن مررت به وحدي، وأخشى الرياح والمطرا

قالوا : خص الذئب بالذكر ، لأنه ضعيف .

رد قول الطبرسي بأن الأرض التي كانوا يرعون فيها مذأبة

ولكن « الطبرسي » في (مجمع البيان) أجاب عن هاتين الملاحظتين بقوله : « قيل كانت أرضهم مذأبة ، وكانت الذئاب ضارية ، في ذلك الوقت » وقد علمت أننا بما حققنا في غنية عن هذه التخرصات ، « وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ». هذا وكثيراً ما يطلقون لفظ الذئب على الرجل الذي يختطف أو يسلب الشيء ، قال سيف الدولة بن حمدان في « الخندوثاني » وهو أحد وجوه المعرة وأعيانها ، وكان سلاّبا نهاباً :

ذئب تراه مصلياً فإذا تمثّل لي ركع
يدعو وجلّ دعائه ما للفريسة لا تقع

على ان معنى قول العلماء : « الأصل في الكلام الحقيقة ، ولا يصار إلى المجاز أو الكناية إلا بدليل وقرينة » ، هذا القول لا يريدون به ان كل ما أمكن أن يراد به الحقيقة ، يحمل عليها مطلقاً ، فان من الكلام ما يجزم سامعه عند سماعه انه مجاز أو كناية ، مع إمكان إرادة المعنى الحقيقي .

هذا هو رأيي عطفاً على رأي أخي النجم الروسي القازاني حفظه الله ، قلت

أصاب الحز فيها ونمت ، وإلا فما أنا أول سار غره قمر ، فكم من مثلي يخطىء ، ويرحم الله أبي آدم .

من انكر على مفسر رأياً فكأنه أنكر على جميع المفسرين تفاسيرهم

على أنني أنا « لم اخترع البارود » ـ وهو مثل يقال لمن يأتي أمراً مسبوقاً إليه ـ بل إنني كنت رأيت قريباً مما ذكرت في تفاسير السيد « الألوسي » والسيد «حسن صديق » و « الطبرسي » في (مجمع البيان) ،وعلى كل حال فاني لا أريد أن أحملكم أيها السادة على رأيي ، كما أني أرجوكم أن لا تحملوني جبراً على رأي غيري من المفسرين ، فإن أنكر عليّ مُنكر ، لأنني خالفت المفسرين ، فليعلم انه يجب عليه أن ينكر أيضاً على جميع المفسرين تفاسيرهم ، لأنه ما من مفسر متأخر ، إلا قد خالف في مواضع كثيرة رأي جميع المفسرين قبله ، فالمخالفة أمر مشترك بيني وبين كل مفسر قبلي دون استثناء ، فالتسليم لهم لمجرد انهم أموات ، دون التسليم لي لمجرد كوني حياً أرزق ، ليس من الإنصاف في شيء ، على أنكم أيها السادة سمعتم أن الأخ النجم الروسي القازاني ، قد سبقني إلى هذه الفكرة ، وأنا لست إلا مؤيداً له فيها ، والله تعالى يقول الحق ، وهو يهدي السبيل ، والسلام عليكم.

ثم نزل الشيخ الصنعاني عن المنبر ، فقام إليه النجم الروسي وصافحه، وشكره على مناصرته لرأيه .

وتكلم بعد ذلك العلامة التدمري (١) فقال :

جواز كون الذئب ذئباً معهوداً غائباً او حاضراً

كنا سمعنا يعقوب (ع) يقول : (وأخافُ أنْ يأكُلَهُ الذئبُ)، فيجوز أن

(١) نسبة الى بلدة تدمر من بلاد الشام (سوريا)

يكون أراد من « الذئب » ذئباً معهوداً عهداً ذهنياً بينه وبين مخاطبيه ، فالالف واللام فيه نظيرهـا في : (إذْ هُمَا في الغارِ) (٩ . ٤١) ، أو معهوداً عهداً حضورياً فالألف واللام فيه نظيرهافي قوله تعالى: ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينكم﴾ (٥:٤) ويجوز أن المعهود على كل هو «شمعون» المتجوز إليه بلفظ الذئب ، فان كان شمعون غائباً وقت مكالمة إخوته لأبيه ، فالعهد ذهنيّ ، وان كان حاضراً في الجلسة ، فالعهد حضوري ، يقول : ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب ﴾ ، ولكنه ليس من ذئاب العالم الناطق ، ولا من الذئاب الساكنة في الآجام ، وانما هو من سكان الخيام . وكأني بلسان حال يعقوب (ع) يقول : (وأخاف أن يأكله الذئب) الذي تقمص صورة الإنسان ، وتمثل في جسم طويل القامة يمشي على رجلين فقط ، وأي غرابة في أن أتخيل ذلك التقمص ما دام ذلك الابن والذئب سواء في حب الشر والميـــل الى الأذى ؟ . . . وما دامت الصورة الجثمانية لا قيمة لها في جانب الأعراض الذاتية ، والصفات المقومة للماهية ؟ . . . إن العشرات من الذئاب ، لا تريق في عشرات من السنين من دم الانسان مقدار ماأراق هذا الابن من دم أهالي مدينة شكيم على ذمة التوراة(تك ٢٤ : ١ — ٣١) ، قد يكون الذئب الحقيقي في قتله الانسان والشاة، أجل مقصداً من الانسان الذي له روح الذئب ، لأن الأول يطلب عيشه ، وهذا طريقه الطبيعي الذي لا يعرف سواه ، ولا يستطيع أن يدبر لنفسه غيره ، وأما الثاني فانه يريق دماء الناس للتشفي والحسد وكبرياء النفس !

هذا هو المعنى المجازي لكلمة « وأخاف أن يأكله الذئب » ، ولقد كان كامناً في نفسي منذ القديم ، الى أن ذاكرت فيـــه بعض الناس ، فصادفت منهم جموداً أعقبوه جحوداً فاصطدمتُ بمعارضات شديدة من جراء جمودهم وجحودهم ،

فسكت ، وبقيت هذه الفكرة مستترة في ضميري الى هذا اليوم الذي اتحفني فيه الدهر بالتشرف بكم ايها السادة ، وتذكرت قول القائل :

وقد وجدتُ مجالَ القولِ ذا سَعَةٍ   فإنْ وجدتَ لساناً قائلاً فَقُلِ

فأبرزت ذلك الضمير المستتر لحيز الوجود ، لا سيما وأني أرى روح التفاهم سائداً بيننا ، وقد رأيت بعض الاخوان المحققين سبق ونطق بما ثلثت به عليهما ، وضممت به صوتي لصوتها .

كيف فات المفسرين الذهاب للمعنى المجازي في الاكل والذئب وشواهد على ذلك .

وأتذكر هنا أن سألني سائل قائلاً : إن جميع المفسرين أو أكثريتهم الساحقة لم يفهموا من كلمتي « الذئب » و « أكله » سوى المعنى الحقيقي ، وأما المعنى المجازي فلم يخطر لهم على بال ، فلو كان المعنى المجازي مراداً لاقترن بقرينة معينة ، وعلى الأقل مانعة ، فكان المفسرون اهتدوا اليه ، فكيف يقال بجواز الذهاب للمعنى المجازي ؟ فاجبته بأن هذا ليس بدعاً في نوعه :

فأولاً — حكى المؤرخون أن ليلى الأخيلية دخلت على الحجاج ، فمدحته بأبيات بليغة ، وقعت لديه موقع الاستحسان ، وسُرمنها أيّما سرور ، حتى قال : « قاتلها الله ! ما أصاب صفتي شاعر منذ دخلتُ العراقَ غيرها » ثم قال « يا غلام ، اذهب الى فلان — يريد وكيل خرجه — فقل له اقطع لسانها » ، قال فأمر باحضار الحجام ، فالتفتت إليه وقالت : « ثكلتك أمك ! أما سمعت ما قال ؟ ! إنما أمرك أن تقطع لساني بالصلة » — فبعث اليه يستثبته ، فاستشاط الحجاج غضباً ، إذ همّ بقطع لسانه ، وقال : « اردده‍ا » ، فلما دخلت عليه قالت : « كاد — وأمانة الله — يقطع مقولي » ، فأعطاها الحجاج مئة ناقة . (كذا في مصارع العشاق الجزء التاسع) .

ثانياً — ورد في الحديث : « أسرعكنّ لحاقاً بي أطولكُن يداً » ، فصار الأزواج الشريفات يقسن أذرعهن ، ليعلمن من ستموت بعد النبي ﷺ ، فحيث جاز على نساء النبي ﷺ أن لا يفهمن المعنى المجازي ، وهو طول اليد بالصدقة إلاّ بعد موت صفية (ص) ، وحيث وكيل الحجاج العربي الصميم لم يفهم المعنى المجازي من كلام الحجاج يجوز للمفسرين أن لا يتنبهوا للمعنى المجازي الذي قلنا تجوز إرادته من لفظ (يأكله الذئب) ، لاسيما والقرينة ليست لفظية ، بل حالية، وهي من الخفاء بمكان .

ثالثاً — هذا « عديّ » بن حاتم الطائي من صميم العرب في عصر تنزل القرآن لم يفهم المراد من « الخيط الابيض والخيط الأسود » فحملها على المعنى الحقيقي لا المعنى المجازي، وهو الليل والنهار ، ففي البخاري في صحيحه انه أخذ عقالاً أبيض، وعقالاً أسود ، حتى كان بعض الليل نظر فلم يستبينا ، فلما أصبح قال : « يارسول الله ، جعلت تحت وسادتي عقالين » ـ قال : إن وسادك إذاً لعريض ، أنّ كان الخيط الأبيضُ والخيط الأسودُ تحت وسادك .. » ..

رابعاً — لم يفهم بعض الصحابة كيفية التيمم من آيتـه ، فمسح جميع بدنه بالتراب ، كما حكاه البخاري أيضاً ، فاذا كانت الصحابة ـ وهم من العرب الأولى ـ لم يفهموا بعض ما في الكتاب الكريم ، فهل يستغرب على المفسرين أن لا يفهموا المعنى المجازي من الذئب وأكله ؛

وسيأتي في المحاورات على الآية (٩٣) مايزيد هذا الموضع وضوحاً وتأييداً ، هذا ما أفهمه هنا موافقة للأخوين الفاضلين النجم الرومي القازاني والشيخ الصنماني، ومما هو جدير بالسرور ان كثيراً من شبّان بلدنا « تدمر » الكرام استحسن هذا التفسير استحساناً عظيماً ، وعدّه من المواهب الربانية ، التي تحدّث بها علماء هذه

الأمة المحمدية ، فالحمد لله على ذلك،على انكم أيها السادة ، قد سمعتم هذا المعنى اللطيف من أخويّ الكريمين ، فأنا لست بأبي عذرته :

ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا بكاهـا فقلت : الفضل للمتقـدم

وهنا نزل العلامة التدمري عن المنبر في وسط عاصفة من التصفيق الشديد ، وكلمات الاستحسان والاعجاب .

ثم علق رئيس المؤتمر على خطاب العلماء الثلاثة قائلا : « أنا لا أريد أن أثبت هذا القول أو أنفيه، وللقارىء أن يميز بين الغث والسمين ، وله وحده الرأي الأخير».

قميص العلامة

آ (١٨) ﴿ وَجَاءُوا على قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ، — قَالَ : بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً !! فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، واللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة عشرة فقام العلامة البيروني وقال :

(وجاءوا على قميصه) أي فوق قميصه (بدم كذب) أي ذي كذب ، ووصف بالمصدر مبالغة ، كأنه نفس الكذب وعينه ، كما يقال للكذاب: هو الكذب بعينه والزور بذاته ، ونحوه : « فهنّ من جودٍ وأنتم من بُخْلٍ » ، (قال) أبوهم بلسان الرد والإنكار: إن الذئب لم يأكله ، (بل سولت) من السول ، وهو الاسترخاء أي سهلت (لكم أنفسكم أمراً) عظيماً ارتكبتموه من يوسف وهونتموه في أعينكم ولقد أعتقد ان تحت الرماد شيئاً هـــذا دخانه ، فأنتم قد عملتم معي ومع

ولدي عملاً سرياً بأيد خفية تلعب من وراء الستار ، وترمي الى غاية بعيدة ، ولأمر ما جدع قصير أنفه :

لي حيلة فيمن ينم وليس في الكذاب حيلة
من كان يخلق مايقول فحيلتي فيه قليلة

(فصبر جميل) وهو الذي لا شكوى فيه الى الخلق ، وقيل أراد : لا أعايشكم على كآبة الوجه ، بل أكون لكم كما كنت ؛ (والله المستعان على) احتمال (ما تصفون) من هلاك يوسف والصبر على الرزء فيه ، أو : والله المستعان على كشف حقيقة ما تصفون واتضاح جلية الحال في المستقبل ، ولا يخفى ما في هذا الخطاب من روح حزينة كئيبة ، وحتى ليستطيع القارىء أن يلمس إحساس يعقوب .

هذا وقد استدل على علمهم به بما كان يعرف من حسدهم له ، ومما قواه على اتهامهم انهم ادعوا الوجه الخاص الذي خاف يعقوب عليه السلام هلاكه بسببه ، وهو أكل الذئب إياه ، فاتهمهم أن يكونوا تلقفوا العذر من قوله لهم : (وأخاف أن يأكله الذئب) ، فكأنه لقنهم العلة ، والبلأ موكل بالمنطق ، ولا بد أن يعقوب عليه السلام قد تذكر ههنا وعدهم له بحفظ يوسف فردد في ضميره معنى قول القائل :

أما الوفاء فشيء قد سمعت به وما وجدت له عيناً ولا أثرا
فمن تعصم في الدنيا أخا ثقة فإنه بشر لا يعرف البشرا

(وجاءوا على قميصه .. الخ)

— ١ —

وقال العلامة الطرابلسي :

القميص والدم

كان اخوة يوسف نزعوا عنه قميصه الملوّن الذي عليه، وأخذوه وطرحوه في

البئر وذبحوا تيساً من المعزى ، وغمسوا القميص في الدم ، وقد صنعوا كل هذا في « دوثان » ثم قاموا منها الى « سيلون » حيث أبوهم ، وقالوا له ما تقدم من معذرتهم الملفقة ، وختموها بقولهم : مع إننّا نتكلم معك يا أبانا بحقيقة وثيقتها معها ، وتلك الوثيقة هي هذا الذي تراه — قالوا ذلك ، وأبرزوا قميص يوسف ملوثاً بالدم ، وقلوبهم تخفق لما يتوقعونه من عدم تصديق أبيهم لهم ، وهم يفتكرون ماذا عسى يكون وراء هذا العمل الرهيب — وأما أبوهم فلما رأى ذلك حزن حزناً لا يحزنه إلا أب على ابن له يتفرس في مستقبله كل رقي ونجـابة ، وصار كأنما صب فوق رأسه ماء غالياً .

وهنا لا بد لي أن أسمعكم بعض الحواشي المتعلقة بهذا البحث :

القميص

الحاشية الاولى — إن هذا القميص الذي كان على يوسف هو قميص ملون قد صنعه له أبوه خصيصاً لأنه أحبه أكثر من سائر بنيه ، إذ كان ابن شيخوخته ، وقد قصد يعقوب أيضاً بذلك « الثوب » ان يوسف سيكون رئيس آلهِ ، وانه سيكون كاهنهم بدلاً من البكر « رأوبين » فضلاً عن معنى الإكرام ، لأن الثياب الملونة كانت من ملبوسات المكرمين من الفلسطينيين ، كما ظهر ذلك من الرسوم على قبور بني حسان .

دم القميص

الحاشية الثانية — هذا الدم الذي كان على قميص يوسف كذب ، فليس هو كالدم الذي جاء به « معاوية » لأهل الشام على قميص « عثمان » (ض) بل كان ذلك الدم ، دم عثمان حقيقة ، وقد قتل بيد أثيمة حقيقة ، ولكن في حادث يوسف

ادّعي زوراً أن يوسف افترس ، افترسه سبع ، وأراق دمه على قميصه ، وأن هذا الدم الذي على القميص دمه ، وكل ذلك لم يكن !!

لسان حال يعقوب عندما رأى قميص يوسف ملطخاً بالدم

الحاشية الثالثة — كأني بكلام ابنــاء يعقوب قد وقع على أذن أبيهم كوقع النار على سويداء القلب ، وكأني به قد أخـذ القميص وجعل يقلبه وينظر اليه ، ولسان حاله يردد معنى قول الشاعر :

ليت السباع لنـا كانت مجاورة ... وليتنـا لا نرى ممن نرى أحدا
إن السباع لتهـدا عن فرائسها ... والناس ليس بهـاد شرهم أبدا

وكأن هذا القميص هو الذي عناه بعضهم يهجو بخيلاً بقوله :

كأن كل سؤال في مسامعه ... قميص يوسف في أجفان يعقوب

حجة القميص التي لهم صارت عليهم

الحاشية الرابعة : — قيل إن يعقوب (ع) أغرّب في التأمل ، فرأى القميص غير ممزق ، فقال : « يا للعجب ! هل يمكن للذئب أن يأكل ولدي بدون ان يمزق شيئاً ما في القميص !؟ » فهم اعتبروا ان هذا القميص الملوث بالدم ، هـو كوثيقة بيدهم ، يعتمدون عليها في صحة دعواهم ، ويتمركزون عليهـا في دفع الشبهة عنهم ، ولكنهم حفظـوا شيئاً وغابت عنهم أشياء ، إذ لم يمزقوا القميص ، فبعدمـا حسبوه حجة لهم ، صار حجة عليهم !

اذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يقضي عليه اجتهـاده

البرهان الباطل

الحاشية الخامسة : ــ جاءوا على قميصه بدم كذب « كشاهد » يثبتون به زعمهم ، ولكنه شاهد زور ، و « كبرهان » يصححون به دعواهم ، ولكنه برهان باطل ، و « كوثيقة » يعتمدون عليها ولكنها وثيقة مزيفة .

حقاً إن هذا العمل مما يضحك الانسان في ساعــــة يجب فيها البكاء ، لأنهم بابقائهم على القميص وعدم تمزيقهم له ، لم يحسنوا سبك هذه الأكذوبة ، فكان فعلهم هذا أوجب للحجة عليهم من الحجة لهم .

مناجاة يعقوب للذئب الحقيقي والمجازي

الحاشية السادسة : ــ كأن من يحملون « الذئب وأكله » على معناه الحقيقي سمعوا بآذان قلوبهم يعقوب (ع) يصرخ بهذه المناجاة :

مسكين أنت أيها « الذئب » ، يلصق بك بنو الانسان ما أنت منه بريء ، يتهمونك وهم المتهمون ، نعم إنك حيوان أعجم ، ولكن تلك العجمة خير من النطق الكاذب ، ما أصدق عجمتك ! وما أكذب نطق الناس ! نعم ان الله تكفل بأنه ما من دابة في الأرض إلاّ عليه تعالى رزقها ، لكن هل كتب الله التضحية بولدي في سبيل رزقك ؟!... كلا ... وحوادث الزمان المستقبلة ستكشف لنا عن جلية الأمر ، فان الزمان كشاف ، ثم لكأنه خاطب نفسه بقوله :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبــار من لم تزود

ثم لكأن من يحملون « الذئب وأكله » على المعنى المجازي سمعوا بآذان قلوبهم يعقوب (ع) يصرخ بهذه المناجاة :

أيها الذئب المستأنس ، قطعت الرحم ، أسأت إلى نفسك وسيرتك ، وضعت في تاريخك نقطـــة سوداء ، أسأت للأب والأخ ، وللخالة في قبرها ، فهي لذلك تتوجع عند « إفراتة » ، وتصرخ وتولول عند « بيت لحم » ، أيها الذئب الضاري، الذي تستره الصورة البشرية ، لماذا تفترس هذا الحمل الوديع ؟ لماذا أيها الذئب « الأصفر » تنقض على هذا الحمام « الأبيض » ؟ ـ لأيٍّ هذه الشراسة والإخلال بأمن المستأمن ؟ أما يكفيك افتراسك كل ذكر من أهل شكيم (تك ٣٤ : ٢٥) آه ، صدق من قال : من الناس من إذا كشف لك عن أنيابه رأيت الدم الأحمر يترقرق فيها،أو عن أظافره رأيت تحتها مخالب حادة لا يسترها إلا الصورة البشرية، أو عن قلبه ، رأيت حجراً صلداً من أحجار الصوان ، لا يبضّ بقطرة من الرحمة ، فهؤلاء الناس سباع مفترسة ، وذئاب ضارية ، يأكلون من دنا منهم ، أو وقف في طريقهم غير حافلين به ، ولا آسفين عليه ، أصلح الله حالهم ، وحمانا من أن يتم علينا محالهم ، آه ... إلى الماء يمضي من يغص بلقمة ، إلى أين يمضي من يغص بماء ؟

الدم نفس أو جسد

الحاشية السابعة : ـــ يقال للدم « نَفْسٌ » ويقال لليابس منه « جَسَد » ، ومنه قول الفقهاء : « ويُعفى عمّا لا نَفْسَ له سائلة » أي دم ، وقول بعضهم وهو من هذا الصدد الذي نحن فيه :

يا ويلهم !قد رموني بالذي أنا في سبيل إبطاله أصبحتُ مسبوباً
برئت منهم وممـا قد رميت به براءة الذئب من نفس ابن يعقوبا(١)

(١) أي من دمه . والنظم لرئيس المؤتمر .

السجع والترسل في القرآن

الحاشية الثامنة : — جملة « وجاءوا على قميصه بدم كذب » (تذييل مرسل) للآية السابقة المسجوعة ، وهذا أسلوب لطيف كثير الوقوع في كتاب الله ، كأنه تعالى يخيّر القارئ بين أن يراعي طريقة السجع ، فيقف على رأس الفقرة المسجوعة وبين أن يراعي طريقة الترسل ، فيقف حيث يتم الكلام ، ولو لم يكن سجع .

وفي القرآن الكريم شواهد كثيرة على ذلك ، إذ علم سبحانه وتعالى أن قوماً يحبون طريقة السجع ، وآخرين يميلون لطريقة الترسل ، فأنزل كتابه بصورة تحتمل الطريقين ، وتكفل كلا المذهبين ليختار القارئ لنفسه ما يحلو في ذوقه ، ومن هذه الشواهد ما يلي :

١ ـ ما في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، كُتِبَ عليكم الصيامُ ، كما كُتِبَ على الذينَ مِنْ قَبلِكُم ، لعلكم تَتَّقُون ، أياماً معدوداتٍ ﴾ (٢ : ١٨٣ و ١٨٤) .

٢ ـ ما في قوله تعالى : ﴿ كذلك يُبيِّنُ اللهُ لكم الآياتِ لعلكم تتفكرونَ ، في الدنيا والآخرة ﴾ (٢ : ٢١٩ و ٢٢٠) .

٣ ـ ما في قوله تعالى : ﴿ ألمْ تَرَ إلى الذين قيل لهم : كُفُّوا أيديَكُم وأقيموا الصلاةَ وآتُوا الزكاةَ ، فلما كُتِبَ عليهم القتالُ إذا فريقٌ منهم يخشَوْنَ الناسَ كخشيةِ اللهِ أوْ أشدَّ خشيةً ؟ وقالوا : ربَّنا لِمَ كتبْتَ علينا القتالَ ؟ لولا أخَّرتَنا إلى أجلٍ قريبٍ ؟ ـ قلْ : متاعُ الدنيا قليلٌ ، والآخرةُ خيرٌ لِمَنْ اتَّقى ، ولا تُظلَمونَ فتيلاً ، أينما تكونوا يُدرِكْكُمْ الموتُ ، ولو كنتم في بروجٍ مُشيَّدةٍ ، وإنْ تُصبهم حسنةٌ يقولوا : هذه

مِنْ عندِ اللهِ ، وإنْ تُصِبْهُمْ سيِّئَةٌ يقولوا:هذه مِنْ عِندِكَ ، قُلْ : كلٌّ مِنْ عنـــدِ اللهِ ، فما لِهَؤُلاءِ القَوْمِ لا يكادونَ يفقَهونَ حديثاً ؟﴾ (٤ : ٧٦ و ٧٧) فقوله : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ هو من ذيول ما قبله ، فهو مرتبط به ، فمن شاء مراعاة المعنى والجري على مـذهب الترسل وقف عنده ، ومن شـاء مراعاة السجـع وقف عند رأس الآية « فتيلاً » .

٤ ـ ما في قوله تعالى : ﴿ وأذانٌ مِنَ اللهِ ورسولِهِ إلى الناسِ يَومَ الحجِ الأكبرِ أنَّ اللهَ بريءٌ من المشركين ، ورَسُولُهُ ، فإنْ تُبْتُمْ فهوَ خيرٌ لكم الخ ﴾ (٩ : ٣ و ٤) فقوله ﴿ ورسولُهُ ﴾ هو ذيل للآية الثالثـة المسجوعة ، ولكنـه مكتوب مـع الآية الرابعة ، فإذا نظرنا المعنى ، ألحقناه بما بعده وكنا ساجعين .

٥ ـ هكذا كلمة : « من دونه » في قوله تعالى : ﴿ قل إني أُشهِدُ اللهَ ، واشهَدُوا أني بريءٌ مما تُشرِكونَ ، مِنْ دونه ، فكيـدوني جميعاً ، ثم لا تُنظِرُونَ ﴾ (١١ : ٥٣ و ٥٥) .

٦ ـ ومثله كلمة : ﴿ كأنْ لمْ يَغنَوا فيها ﴾ من قوله تعالى : ﴿ وأخَذَ الذينَ ظَلَموا الصَّيْحَةُ ، فأصبحوا في دِيارِهم جاثمين ، كأنْ لمْ يَغنَوا فيها ، ألا إنَّ ثَمودَ كفروا ربَّهم ، ألا بُعْداً لثمود ﴾ (١١ : ٦٧ و ٦٨) .

٧ ـ ومثله كلمة : ﴿ مَنْ يأتيهِ عذابٌ يُخزيه ومَنْ هو كاذبٌ ﴾ من قوله تعالى : ﴿ ويا قومِ اعمَلُوا على مكانَتِكُمْ ، إني عاملٌ . سوفَ تعلَمون ، من يأتيهِ عذابٌ يُخزِيهِ ومَنْ هُوَ كاذبٌ ، وارتَقِبُوا إني معَكم رقيبٌ ﴾ (١١ : ٩٣ و ٩٤) .

٨ ـ كلمة « زُخْرُفاً » في قوله تعالى : ﴿ وَلِبُيُوتِهِم أبواباً وسُرُراً عليها يَتَّكِئُون ، وزُخْرُفاً، وإنْ كلُّ ذلك لمّا مَتاعُ الحياةِ الدنيا ، والآخرةُ عند ربِّكَ للمتقين ﴾ (٤٣ : ٣٤ و ٣٥) .

٩ ـ كلمة « وبالليلِ » في قوله تعالى :﴿وإنَّكم لتَمُرُّونَ عليهم مُصبِحين، وبالليل ، أفلا تَعقِلون ؟ » (٣٧ : ١٣٧ و ١٣٨)

إلى غير ذلك مما هو كثير في كتاب الله الكريم ، فارجع إليه إن شئت المزيد .

القصد من ذكر القرآن لقصة يوسف

الحاشية التاسعة : ـــ قص الله علينا ما أجراه بنو إسرائيل من الحيل على أبيهم ، وبعضهم على بعض ، لنكون على بصيرة من أعمالهم ممنا ، وعلى حذر من حيلهم علينا ، لأنهم إذا كانوا يفعلون هذه الأفعال مع أصولهم وحواشيهم الأقربين فماذا عسى أن تكون أعمالهم مع من لم يكن من عنصرهم ؟!؟! وأقرب الشواهد على حيلهم ، ودهائهم ما أجروه من الكيد للنبي ﷺ في الحجاز . بل كانوا يكيدون في جميع بقاع الأرض غير الإسلامية ، حتى كان ما كان بكيدهم وختلهم من هـــدم صروح البابوات والملوك المستبدين لهم في أوربا ، وإدالة الحكومات المدنية من حكم الكنيسة ، وقد كادوا ولا يزالون يكيدون لهدم نفوذ الديانة النصرانيـة من دول أوربا ، باسم الحرية والمدنية ، كما أن بكيدهم جعلوا الدولة الفرنسية كَكُرة اللعب في أيديهم ، إذ أخذوا يسعون في إزالة سلطة الكنيسة عنها ، وحملها على عقوقها ، بعد ما كانت فرنسة تدعى « بنت الكنيسة البكر » ثم ،

حملوها على الظلم الجائر القبيح في الجزائر! مع أنها الدولة التي تفاخر الأمم بالعدل والمساواة والمدنية وقد كانت لهم يد في الانقلاب العثماني «وتداخلوا كثيراً مع» الاتحاديين من العثمانيين ، ثم أيام « الحرب العالمية » تداخلوا مع الحكومة الانكليزية وساعدوها بالمال ، ليكون لهم « وطن قومي » في « بيت المقدس» ويقيموا فيه «ملك إسرائيل» ويجعلوا « المسجد الأقصى » معبداً خاصاً لهم ، والخلاصة إن شأن هؤلاء الناس الدهاء والختل والمحال دائماً وأينما وجدوا ، وعلى كل من عداهم !!!

لذا علينا أن نأخذ من هذه الأعمال موعظة تنفعنا اليوم في معاملتنا مع أبناء العم !! الصهيونيين في فلسطين !! وهي أنه إذا لم يوجد من هؤلاء الاخوة العشرة رحمة وعطف لأبيهم وأخيهم ، بل إذا لم يسلم أبوهم وأخوهم من شرورهم ، فكيف نرجو أن نسلم نحن (العرب) اليوم من كيدهم ؟!

يميناً — ولا حاجة لليمين — إن من فسدت فطرته،حتى صار لا خير فيه لأبيه وأخيه ، لا يرجى منه خير للبعداء والأبعدين ، ويميناً إن من لا خير فيه لأصله وحاشيته الأقربين ، فلا خير فيه لأبناء عمه الأبعدين .

انتقاد دعاة النصرانية اعتقادنا بنبوة يعقوب والرد عليهم

وإني بهذه المناسبة — والشيء بالشيء يذكر — ذاكر للقراء الكرام انتقاداً كان ورد عليّ من بعض « دعاة النصرانية » وهو قوله : (إننا نحن المسيحيين كاليهود جميعاً لا نقول بنبوة يعقوب ، ولعمرنا لو كان نبياً ورسولاً كما تقولون أيها المسلمين الأعزاء لكان على الأقل أثر الهداية والطاعة والتقوى في أولاده العشرة الصليبيين) .

هذه ملاحظة ذلك البروتستانتي ، وأما الفقير فإنني أجبته بأن الرسل (ع) لم يرسلوا إلاّ مبشرين ومنذرين ، ما عليهم إلاّ تبليغ دين الله وإقامته ، وليس لهم من الأمر شيء ، ولا يملكون لأحد ضراً ولا نفعاً ، وليس عليهم هدى أحد ولا رشده بالفعل ، وإنما عليهم هداية التعليم والحجة ، فلا يهدون فعلاً من أحبوا ، ولا من كان من أقاربهم ، ولا يغنون عنه من الله شيئاً ، وإن كان أقرب الناس إليهم في النسب ، وأحبهم إليهم في المعاملة ، الدنيوية ، فالأنبياء هداة لا جبارون ، وأدلة خير لا قاهرون . هذه قاعدة التوحيد الهادمة لقاعدة الوثنية ، بالفصل بين ما هو لله وما هو لرسله ، وأما قاعدة المسيحيين ـ بعد ابتداعهم في الدين اعتباراً من تاريخ مقررات بزنطية ـ فهي كقاعدة وثنية العرب من اتخاذ أولياء من العباد كالمسيح وأمه وسائر كبار رجال الدين ، يزعمون أنهم وسطاء بين الله وبين عباده في شؤون الخلق والإيجاد ، والإشقاء والإسعاد ، والسلب والإمداد ، لا في مجرد التبليغ والإرشاد ، قياساً على ما يعهدون من الأقربين والمقربين عند الملوك المستبدين .

مخاطبة يعقوب لأولاده عند سماعه الخبر السوء منهم

الحاشية العاشرة ــ كأني بيعقوب (ع) بعد ما سمع الخبر السوء عن ولده المحبوب شعر برعشة ملأته من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، ثم سكن على أثر ذلك سكوناً لا تطرف له فيه عين ، ولا ينبض له عرق ، ولا يخفق له فيه قلب ولا يتحرك له فيه خاطر ، ثم لكأني به قد التفت لأولاده وقال: آه . لقد آلمتموني في أعز شيء لدي : إني لأعجب لكم ، تأخذون ابني في جمرة النهار ، وتأتون تنعونه إليّ في عتمة الليل ؟ ، وأعجب من هذا أنكم تبكون، كأن عبرات العيون

هذه هي محاضرة العلامة الطرابلسي ، وكان الحاضرون يصرخون عند كل حاشية من هذه الحواش بكلمة : موافق ، موافق ، وكانت علامات القبول والاستحسان بادية على وجوههم .

(قال : بل سوّلت لكم ... الخ)

– ١ –

قال نور الهدى الصيداوي :

حالة يعقوب النفسية بعد سماعه نعي ولده يوسف

كانوا حملوا لأبيهم نعي ولده ، وتأبطوا شراً بذلك الخبر السيء ، فما أتوا على تمام حديثهم (الموضوع) حتى انقبضت نفسه واتّقد حزنه ، وتمعّر وجهه ، وتولاه الكدر ، وأخذ الذهول منه مأخذه ، فلبث صامتاً هنيهة ، كأنه أصيب بصدمة ، وأطرق إلى الأرض وسكن في إطراقه سكوناً عميقاً ، لا تتخلله حركة ولا نأمة ، ثم صار يصعّد نظره فيهم ويصوّبه ، وأخيراً نظر إليهم نظرة كشف بها أسرار قلوبهم ، كما يكشف الإشعاعي [1] بأشعة « رونتكن » ما وراء الجوامد ، نظر إليهم نظرة وقد أدرك أن في الأمر سراً ، جعله يقف تجاه أخبارهم موقف المرتاب ، نظر إليهم نظرة وهو يتنفس الصعداء وينظر إلى وجوههم ويراعي حركاتهم ، نظر إليهم نظرة وقال : سواء عليّ أجئتم بهذا الثوب الملطخ بالدم ، أم لم تجيئوا به فلا أصدقكم ، إذ ليس لكلامكم نصيب من الصحة ، بل هو خارج من مصنع التزوير ، وقصتكم كلها في وجوهكم ، وليس أدل على كذبكم من هذا القميص

(١) الاشعاعي العالم الاخصائي بفن الأشعة .

غير الممزق ، ألم اقل لكم : إني « ليحزنني أن تذهبوا به ؟ . . » فما أنذا وقعت فيما تخوفت منه ، تتركون الناقة بحملها، وترجعون إليّ بخفي حنين ، «بئس العِوضْ مِنْ جَمَلٍ قَيْدُه »

(قال : بل سولت لكم ... الخ)

— ٢ —

وقال الشيخ الرشيدي (١) :

عدم انطلاء الكذبة على يعقوب

لم يصدقهم أبوهم لأنه يعرف رؤيا ابنه وتأويلها . ويعلم أن الله سيجتبيه ويعلمه من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليه ، كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحق وشيء من هذا لم يحصل بعد ولكنه يحتاج إلى وقت مديد وعمر طويل ، ولذلك حيلتهم لم تنطل عليه ، بل قال لهم : إنه يلوح إلى أن أنفسكم سهلت لكم أمراً ، أنزلتموه بيوسف ضحية حبي له ، ولولاي ولولا حبي إياه ما رأى هذا البلاء الذي أحاق به .

صبر يعقوب الجميل

لقد صبر يعقوب (ع) صبراً جميلاً على تلك المصيبة ، فلم يَصِحْ ، ولم يمزق ثوبه ، ولم يَشْكُ أمره لمخلوق ، ولم يجزع ، ولم يملأ الدنيا بكاء وعويلاً ، كما ظنه حشويوا المفسرين ، لأن ذلك كله ينافي ما أخــــذه على عاتقه من «الصبر الجميل» ويناقض ما حكاه الله عنه في قوله تعالى « فهو كظيم » .

(١) نسبة الى بلدة رشيد من البلاد المصرية .

فهذا كل ما أملك اليوم ، ولا تنسوا أنكم كنتم قلتم لي « وإنّا له لحافظون » ، فأنا الآن لا أنسى أن أقول لكم : ﴿ وإنَّ عليكم لَحافِظِينَ ، كِراماً كاتِبِينَ ، يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُون ﴾ .

وقد اقتصر يعقوب (ع) على هذه الكلمة وهي قوله (والله المستعان على ما تصفون) اختصاراً وإيجازاً لأن حال الحزن يتطلب ذلك ، أو إشارة إلى أنه غير عابيء بالخبر المصنوع الذي أتاه به أولاده .

مواعيد الله في يوسف خففت من وطأة مصيبة يعقوب فيه

رأى يعقوب (ع) نفسه وقع في شبه مصيبة ، فالتمس لنفسه تعليلاً يريح باله على ولده ، والمرء ميال إلى التماس مثل ذلك التعليل ، والناس يتفاوتون في مقدرتهم على ذلك ، فبعضهم إذا وقع في مصيبة ، هان عليه تطبيق عواطفه على تلك المصيبة ، فيجعل لنفسه مخرجاً من سوء عواقبها ، ومنهم من يزيده الافتكار قلقاً ولكنه لا يلبث وإن طال قلقه أن يصل إلى حلّ يتوكأ عليه ، ربما يرى ما يأتي به القدر ، ومن هذا القبيل يعقوب (ع) ، سيا ومعرفته بمواعيد الله له في ولده ومرمى رؤياه ، قد خفف عليه وطأة تلك النازلة .

انتقاد يعقوب على تفريطه بيوسف والرد عليه

كأني بسيدنا يعقوب عليه السلام ، بعد ما قال لأولاده ما قال ، اعتزلهم ، وخلا في خيمته وحده ، فتخيل له أن هاتفاً يقول : « يداك أوكتا وفوك نفخ » ذلك لأنك أنت السبب الأول فيما جرى، أنت الذي نزلت مختاراً على إرادة أولادك أنت الذي انساق لمشيئتهم وانصاع لميولهم ، رغماً عن كونك تعرف درجة العداء الذي يضمرونه لأخيهم ، كيف لا ... وقد كنت قلت له : (لا تقصص رؤياك

رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً » ؟ وقد كنت تعرف أن البرية التي فيها أولادك مذأبة ، وكيف لا ... وقد قلت أيضاً : (وأخاف أن يأكله الذئب) ثم كنت لا تأمن من إخوته عليه ، بل تخافهم ، كما يرمي لذلك قولهم : (ما لك لا تأمنا على يوسف ؟) وكنت متهماً لأولادك في أمره كما يشعر به قولهم : (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) هذ ما كان يعقوب (ع) سمعه بأذني قلبه من فم الهاتف ،وكأني به قد أجابه بقوله !

أيها الروح الطاهر ، اسمع معذرتي التي أتلو عليك : إنني استرسلت لأولادي لأنهم حلفوا لي مرتين ، إذ قالوا : (وإنا له لناصحون ـ وإنا له لحافظون)والمؤمن السليم القلب إذا سمع صدّق ، فلذلك هان عليّ الاسترسال معهم ،وأيضاً مما خفف عني وطأة الخوف عليهما أعلمه فيهمن المواعيدالمستقبلة،فلهذا جرى ماجرى،ليقض الله أمراً كان مفعولاً ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

حال اخوة يوسف عندما عرّض ابوهم بهم بأنهم كاذبون

حينما سمع أولاد يعقوب قول أبيهم لهم :(والله المستعان على ما تصفون) فهموا ما وراءه من الاشارة لتكذيبهم ، فتفرقوا عنه ، وهم سكوت صامتون لا يبدون حراكاً ، ولا ينبشون ببنت شفة ،سمعوا كلام أبيهم فسكتوا عليه ، ولم يتبرأوا عما أشار إليه ، فتحقق أنهم غير صادقين في نبأهم ، وردد في نفسه عندئذ معنى قول القائل :

ليس الغبي بسيد في قومه
لكن سيد قومه المتغابي

الغمز من قناة شمعون

لو كنت محل يعقوب (ع) لكنت أعطيت ذلك القميص للقدام «شمعون»!!؟ القائد الكبير في تلك المعركة عملاً بشريعة: «من قتل قتيلاً فله سلبه»، لأن الأحوال تجعلني أظن أن ذلك «الذئب» هو هذا البطل !!

انتقاد يعقوب (ع) على عدم بحثه عن ولده يوسف والرد عليه

وكأني بيعقوب (ع) قد شبه له أنه سمع صوتاً يقول: يا يعقوب، ما هو هذا «الصبر الجميل»؟... أتصبر على ظلم الظالمين، وتسكت عن مكر الماكرين وتسمي ذلك صبراً جميلاً؟... مع إن إزالته واجبة عليك، لا سيما في الضرر العائد إلى الغير! ولِمَ تصبر على ذلك؟!... وكيف يجوز لك أن تصبر؟!... وأنت تعتقد كذب أولادك ولِمَ لا توغل في التفتيش، وتبالغ في البحث، سعياً منك في تخليص يوسف من البلية والشدة، إن كان في الأحياء على ما تعتقد، أو في إقامة القصاص إن صح أنهم قتلوه، ولِمَ لم تطلب منهم جثمانه، أو بقيته ـ على الأقل ـ حتى تصل إلى جلية الواقع وتقف على شخصية ما عملوا؟!... هاهي المسافة بين «سيلون» وبين «دوثان» قريبة، لا تزيد عن بضعة أميال، وأنت رجل رحالة، متعود على الأسفار، فلم لا تعمل لأجل تمحيص هذا الحادث الجلل ما هو اللازم؟!. وعلى كل لعمرنا إن الصبر في هذا المقام مذموم، بل هو صبر قبيح، هو صبر مبني على عدم العناية، ومؤسس على القسوة. فكيف تسميه «صبراً جميلاً»، وكيف تسمي نفسك محباً لولدك المظلوم الذي ضاع حقه بين ظلم الأعداء وكسل المحبين؟! ...

أنت لم تنس رؤيي ولدك، ولم تنس أن الله أوحى إليك فيه، أن الله سيجتبيه

ثانياً — إنني أعلم وأتأكد أن الله يصون ولدي عن الهلاك ، وأن أمره أخيراً سيعظم ، وسيكون له شأنٌ ذو بال .

ثالثاً — إني لا أريد هتك أسرار أولادي ، ولا أرضى بالقائهم في ألسنة الناس تلوكهم الأفواه كأنهم مضغة .

رابعاً — قريباً ـ وكل آت قريب ـ تتغير الوضعية ، ويظهر من الغيب لطف .

خامساً — ماذا أصنع ؟ والجرح في الكف ، ومصيبة الجزاء كمصيبة الجرم كلاهما فوق رأسي ، آه وأواه ! أنا اليوم في حيرة ، لأن أولادي تعدّوا على أخيهم وأنا ولي الجميع ، و « لابان » خالٌ للجميع ، وبذلك وقعت في حيصَ بيصَ ، فإن لم أنتقم احترق قلبي على ولدي المظلوم ، وإن انتقمت احترق قلبي على هؤلاء الأولاد فماذا أصنع وجرحي في كفي ؟... والضربة على كل حال في رأسي ، وصدق قول الشاعر :

قومي هموا قتلوا أُمَيْمَ أخي فإذا رميت يصيبني سهمي
ولإنْ عفوت لأعفونْ جللاً ولإنْ سطوت لأوهِنْ عظمي

وأخيراً لما وقع هــذا الحادث تفكرت ملياً ، فرأيت أن الأصوب الصبر والسكوت ، لا أقل ولا أكثر ، لأنني لا أقدر على أكثر من الصبر ، الذي هو ملجأ الضعيف ، ولهذا يحق لي أن أدعو صبري « صبراً جميلاً » .

المشاركون ليعقوب في حزنه على فقد يوسف

لم يكن يعقوب (م) هو الذي حزن على فقد يوسف فقط ، بل شاركه في ذلك « إسحاق » لأن يوسف كان حفيده المنظور ، وموضع رجائه في مستقبل الأيام والحازم من صبر على مضض الحياة .

وحزنت عليه أيضاً « بلهة » جارية أمه ، وكافلته بعدها ، وحاضنته في خيمتها .

وبكاه بحق أخوه الأكبر « رأوبين » الذي كان يريد أن يرده لأبيه ، وكان غائباً حينما أخرجته « السيارة » من الجب وسافروا به لمصر ، ورجع إلى الجب ، وإذا يوسف ليس فيه ، فمزق ثيابه ثم رجع إلى إخوته وقال : «الولد ليس موجوداً وأنا إلى أين أذهب ؟ » (تك ٣٧ : ٣٠)

وبكاه أخوه الأصغر « بنيامين » لأنه شقيقه ، وتعزيته الوحيدة بعد موت أمه ، وأنيسه الوحيد في خيمة الجارية بلهة .

وبكاه كل من عرف أدبه من أهالي فلسطين ، ولا سيما من كانوا اعتنقوا « دين التوحيد » بدعوة أبيه وجده عليهما السلام . وعلى ذلك فقد وجد مشاطرون لأبيه في حزنه وهمه ، ولكن كان يعقوب قد أخذ من ذلك بالسهم الوافر .

(قال : بل سولت ... الخ)

— ٣ —

وقال اللوذعي الدمياطي :

السول والأمر والصبر

أيها السادة الأحبة : لي على هذه الآية بضع كلمات : راجياً سماعها :

معنى السول

الكلمة الأولى — إن لفظة « سوّلت » لطيفة لينة ، ولكن المعنى الذي فيها

جارح فهو كما يقول بعض المعاصرين في نظيره : « الكلام أنثى والمعنى ذَكَرٌ »، يقال سوّلت له نفسه كذا : زينت وسهلت ، وسوّل له الشيطان : أغواه ، من « السَّوَل » محركة ، وهو الاسترخاء ، وقد سَوِلَ كفرح ، والأسول من في أسفله استرخاء . وسَوّل له : سهّل له ركوب العظائم ، ومن غرائب الاتفاق أن هذه المادة لم تسند في كتاب الله إلا لثلاثة :

١ — للسامري الوثني ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وكذلك سَوّلَتْ لي نَفْسِي ﴾ (٢٠ : ٩٦) .

٢ — لأخوة يوسف العشرة ، وذلك في قول يعقوب لهم : ﴿ بل سَوّلت لكم أنفُسُكُم أمراً ﴾ (١٨ و ٨٣) .

٣ — للشيطان « في قوله تعالى : ﴿ الشيطانُ سوّل لهم وأملَى لهم ﴾ ، (٤٧ : ٢٥) .

احساس يعقوب بمكيدة أولاده اجمالاً

الكلمة الثانية ـ نرى أباهم قال لهم : (بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً) فكأنه كان يرى أنهم عملوا معه مكيدة ولا بد ، ولكن كان لا يراها إلا إجمالاً ، لأنها لم تتبين عنده صورتها ، إذ اشتبه في نظره شكلها واختلط ، وغمّ عليه أمرها واستعجم .

التنكير في لفظ « أمراً »

الكلمة الثالثة — التنكير في « أمراً » إما للتعظيم والتفخيم ، كأنه يقول : أمراً عظيما ارتكبتموه من يوسف ، وهونته عليكم نفوسكم ، أمراً ذا بال ، أمراً من نوع الدهاء والخبّ ، أمراً فيه دسيسة ومكر .

أو للابهام ، فكأنه يقول : أمراً من الأمور المستورة، أمراً تحت طي الكتمان أمراً لا يعلمه الا أنتم ويوسف .

معنى الصبر والصبر الجميل

الكلمة الرابعة — معنى « الصبر» تلقي المكروه بالاحتمال ، وكظم النفس عليه مع الروية في دفعه ، ومقاومة ما يحدثه من الجزع ، فهو مركب من أمرين ، دفع الجزع ومحاولة طرده ، ثم مقاومة أثره حتى لا يغلب على النفس ، وإنما يكون ذلك مع الإحساس بألم المكروه ، فمن لا يحس به لا يسمى صابراً ، وإنما هو فاقد للاحساس فيسمى بليداً ، وفرق بين الصبر والبلادة ، فالصبر وسط بين الجزع والبلادة ، وهو من أهم الفضائل ، إذ يجعل الانسان ثابتاً لا يتململ ، فيسليه عن الهم ويخفف ألم مصيبته ويدني منه بعيد الأمل ، قال تعالى : ﴿ والمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذا عاهَدوا ، والصابرينَ في البأساءِ والضَّراءِ وحينَ البأسِ ﴾ (٢ : ١٧٦) وقد ذكر الصبر في القرآن الكريم خمساً وتسعين مرة ، ولم تذكر في القرآن فضيلة أخرى بهذا المقدار من العدد ، الأمر الذي يدلنا على عظمة الصبر ، ومعنى كون الصبر « جميلاً » أنه لبق ، أديب ، محتشم ، لائق ، أو هو الذي لا جزع فيه ولا فزع،وليس فيه شكاية لمخلوق .

الباب الثالث

الفصل الأول

خروج يوسف من الجب

آ (١٩) ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ، فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ، فَأَدْلَى دَلْوَهُ .. قَالَ : « يَا بُشْرَى ! هَذَا غُلَامٌ » ، وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة عشرة ، فقام الشيخ الكرملي (١) وقال :

(وجاءت) من قبل المشرق (سيارة) ، رفقة تسير لمصر في سبيل التجارة نزلوا قريباً من « دوثان » (فأرسلوا واردهم) وهو رجل يقال له « مالك بن ذعر الخزاعي » ليطلب لهم الماء ـ والوارد هو الذي يرد الماء ليستقي للقوم ـ جاء للجب (فأدلى) أرسل بواسطة ارشاء (دلوه) فتعلق يوسف ، فلما خرج (قال) الوارد بلسان الفرح والسرور (يابشرى) ، نادى البشرى كأنه يقول: تعالي فهذا أوانك، رآه جميلا كأحسن مايكون فقال يابشراي (هذا غلام) ـ والغلام الطار أي

(١) نسبة الى الكرمل قرب مدينة حيفا (فلسطين)

النابت الشارب ، والكهل ضد ، أو من حين يولد إلى أن يشب ، وغَلِمَ كفرح غَلَماً وغُلمة بالضم واغتلم غُلِبَ شهوة ، والغُلمة شهوة الضراب ، واغتلم هاج من ذلك « القاموس » ـ ثم ذهب به لأصحابه (و) تقمصهم شيطان الظلم والقساوة حيث (أسروه) أي الوارد وأصحابه ، أخفوه عن الرفقة ، حال كونه (بضاعة) أي متاعاً للتجارة (والله عليم بما يعملون) لم تخف عليه أسرارهم ـ وهو وعيد لهم حيث استبضعوا ما ليس لهم على حسب عوائد الهمج في استرقاق الأحرار ـ وسافر معهم يوسف عليه السلام إلى مصر ولسان حاله يردد قول القائل :

وما بعض الاقامة في ديار ... يهان بها الفتى الا بلاء
وكل شديدة نزلت بحي ... سيأتي بعد شدتها رخاء
ولم أر كامرىء يدنو لخسف ... له في الأرض سير والتواء

(وجاءت سيارة .. الخ)

— ١ —

ثم قام الشيخ القلقيلي وقال :

القافلة تخرج يوسف من الجب وتقوده معها الى مصر

لا يظنن القارىء أنا نسينا أحزان يوسف وهمومه ، ولم نبال بما يقاسيه وهو في جبه من الوحشة والخوف ، فإننا لم نتركه إلا موقتاً ، ولذلك انترك الآن يعقوب ومَنْ عنده من أولاده في « سيلون » ، ولنعد إلى « دوثان » إلى الجب الذي فيها ، لنرى ماذا تم ليوسف بعد إلقائه في الجب ، وسفر فريق من إخوته عنه ، ورجوعهم لأبيهم :

كانت القوافل التي تأتي من الشام لمصر قديماً تجتاز « الأردن » جنوب بحيرة

طبرية ، فإلى « بيسان» الى « جنين » الى « دوثان » الى « السامرة »وهي سبسطية الى « جلجولية» إلى « يافا» إلى « غزة » وقـــد لا تأتي إلى يافا ، بل تذهب من جلجولية إلى « اللد » إلى غزة إلى « العريش » إلى صحراء « التيه » إلى أن تصل « لمصر » .

وبعد بيان ما تقدم تقول إن إخوة يوسف بعد أن طرحوه في الجب ، ذهب فريق منهم إلى « سيلون » يحملون نبأ أكل الذئب إياه وقميصه الملوث بالدم إلى أبيهم وبقي فريق في « دوثان » يراقبون حركاته ، وماذا عسى أن يطرأ عليه ، وهؤلاء جلسوا ليأكلوا طعاماً ، فلم يمض غير قليل من الساعات ، حتى رفعوا عيونهم ، فبصُروا بقافلة من العرب أو المديانيين أو الكنعانيين ، وقد أقبلت تلك القافلة تقطع الصحراء من وجه الشرق من « جلعاد (١) » ، وجمالهم حاملة صمغاً وبلساناً ولاذناً ، ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر ، فنزلت تلك السيارة قريباً من ذلك الجب ، ليستريحوا وتستريح دوابهم ، ولم يمض إلا دقائق بعدد الأنامل حتى أرادت العناية الإلهية أن ترفه عن يوسف ، فسخرت له من ليس من عرقه، فأرسلوا من انتدبوه للسقيا ليرد على الجب ويأتي لهم بالماء لشربهم وشرب دوابهم ، فأدلى الوارد دلوه فتملق به يوسف ، فسحبه وأصعده من الجب، ولما نظره رأى فتى كعمود الصبح فقال (يا بشرى هذا غلام) لعمري قد صدت بحبلي ظبياً ، جاءني عفواً ، فرجع أدراجه ، وأتى رفقاءه ، وهو مشرق الوجه، إشارة إلى فوزه بالعثور عليـــه (وأسروه بضاعة) إذ لم يكونوا ـ طبعـــاً ـ يعرفونه ، ولم يسألوه من أنت ؟ وهو ـ طبعـــاً ـ لم يكن رآهم من قبل ، ولم يخبرهم من هو ، فشأنه معهم شأن كل شخص غريب يعثر عليـــه أو يخطف أو يغتصب ويدعى أنه عبد ويباع كما هو الشائع الكثير في تلك العصور المظلمة ، ثم رحلوا بـه وساروا

(١) جلعاد موضع بشرقي الأردن .

يطوون البيداء، ويتيممون العراء، ووجهتهم مصر، وقد حصل كل ذلك بين سمع وبصر إخوته الذين بقوا في «دوثان» قريباً من الجب، كما كان ذلك كله بين سمع الله وبصره، فقد كان سبحانه مراقباً لسلسلة أعمالهم من مصادرته - إلى جعله كسلعة - إلى استرقاقه - إلى بيعه كأي عبد زنجي غامض النسب، فكان كل ذلك بمعرفته وعلمه وسماحه، لحكمة قدرها وأرادها.

وأما يوسف فارتضى أن يسير معهم، بدون أدنى مقاومة أو حيلة، تخلصاً من إخوته الذين هم أشد خطراً وأعمق جرحاً من مصيبة بعده عن وطنه، فالغربة مرة المذاق، ولكن شر إخوته وكيدهم له أدهى وأمر، والمثل يقول: «مثل واحد: ما الذي أحوجك إلى المر؟ - فأجاب: الذي هو أمرُّ منه»، ولذلك فهو يصدق عليه قول القائل:

محبتي تقتضي مُقامي وحالتي تقتضي الرحيلا

هذا ما كان من شأن يوسف وأفكاره، وأما ما كان من شأن إخوته وأفكارهم، فإنهم فرحوا بعد ما أخذ لمصر فرحاً شديداً، واعتقدوا أن قضيتهم ناجحة موفقة قد استجمعت كل عناصر الفوز والظفر.

الرد على من اعترض على يوسف بعدم تملصه من القافلة ولحاقه بأبيه

ورب معترض يقول: إنه كان يمكن ليوسف أن يتملص من هذه القافلة لأنه كان من جهة ابن (١٧) سنة، ومن جهة أخرى كان ولم يزل في وسط بلاده الفلسطينية، بين معارفه ومعارف أبيه وجده وأسرته، ولكن الذي يظهر انه كان يتخوف من عمله على الهروب لأبيه أن تلحق به إخوته ضرراً أعظم وكيداً أشد، وأن عيشته بين إخوته كانت مهددة بالأخطار وليست بالعيشة الراضية، فلما حصل هذا الحادث خضع له ولم يعمل أدنى مقاومة.

حرص يوسف على انتهاز الفرص وشواهد عليه

والذي يظهر أيضاً أن يوسف كان حريصاً جد الحرص على انتهاز الفرص متى سنحت له ولنا على ذلكم الشواهد الآتية :

الشاهد الأول — هذه الحادثة التي نحن بصددها، فهو حينما أخرج من الجب وأخذ كأسير، لم يأت من المقاومة شيئاً ، بل انتهز فرصة البعد عن إخوته المناوئين له المتألبين عليه ، وفضل الجلاء عن فلسطين بلاد البـــداوة والتوحش إلى بلاد الحرية والتمدن والأمن ، فاستخذا « للسيارة » ورافقهم لمصر لا يلوي على شيء (ع ١٩) .

الشاهد الثاني : — لما سأله الفتيان عن رؤياهما فقبل أن يعبر لهما ، انتهز الفرصة وشرع يدعوهما للتوحيد ، ويعظهما في الدين (ع ٣٧ — ٤٠)

الشاهد الثالث : — بعدما عبر رؤيا رئيس السقاة ، بما فيه سلامته وقرة عينه، ثم أراد الرئيس أن يخرج من معتقله ، تقدم إليه يوسف بالرجاء أن يشفع له عند الملك «الريان» ، وفعلاً إن رئيس السقاة نفسه وخدمه ، ولكن بعد حين (ع ٤٢ و ٤٥) .

الشاهد الرابع : — لما سئل يوسف عن تعبير رؤيا الملك ، وأدى واجبه بالجواب عن الرؤيا ، افترص الفرصة ، فأتى بما لم يسأل عنه ، وعرفهم ماذا يجب أن تعمل الحكومة الهكسوسية ، وبين لهم طريق السياسة وسبيل الاقتصاد (ع ٤٧ - ٤٩) وكان هذا لأجل أن يصير له شأن وذكر حسن لدى مليك مصر ورجال بلاطه ، وقد كان .

الشاهد الخامس : — لما جاءه سفير الملك آمراً له بالخروج من معتقله وأحس

بأن الملك أحبه وتوجه عليه بالنظر ، ووثق به ، افتكر أن توجه الملك عليه لابد أن يكون قد حكى في قصور أمراء مصر ، وأن كل من كان كذلك ، كان حقيقاً بأن يكون مهيب الجناب ، بحيث لا يتكلم فيه بسوى الحقائق — فنظراً لهذا كله — انتهز الفرصة فأبى الخروج من المعتقل إلا بعد التحقيق ، وبعد سؤال السيدات المصريات ، لأنه بتوجه نظر الحكومة عليه ، يكون قد أمن غائلة هؤلاء النسوة ، فلا يتكلمن فيه إلا بالحق ، فيخرج من المعتقل ناصع الجبين (ع ٥٠) .

الشاهد السادس : — حينما مثل بين يدي الملك ، ورمى الملك له تلك الاشارة ورمز له بذلك الرمز ، الذي يشير إلى أن الملك أزمع على إسناد منصب ما ليوسف في البلاط ، فاكتسب الفرصة وتوا تقدم إلى الملك بتعيين وتشخيص المنصب (ع ٥٤ و ٥٥) .

الشاهد السابع : — لما جاء اخوته لمصر للمرة الأولى انتهز الفرصة وعمل معهم كل الأعمال التي تقتضي رجوعهم لمصر بأخيه بنيامين (ع ٥٨—٦٢) الأمر الذي هو كل ما يتمناه ، لا أقل ولا أكثر .

الشاهد الثامن : — لما رجعوا بأخيهم بنيامين ، اكتسب الفرصة وعمل تلك المكيدة التي تقتضي بقاء بنيامين عنده (ع ٧٠ - ٧٢).

الشاهد التاسع : — طلب إتيان إخوته وأهليهم أجمعين لمصر منتهزاً الفرصة بذلك ، لكي يكونوا تحت نظره ، ويعيشوا تحت رعايته ، بعكس ما فعلوا معه سابقاً منذ ٢٣ سنة ، وليس يوجد ألذ للنفس وأشهى للقلب من ذلك العمل ، وأيضاً لكي يظهر لهم من مكارم أخلاقه مقدار ما أظهروا هم له من سوء أخلاقهم ، وثالثاً احتساباً لوجه الله وصلة للرحم ، ومقابلة للسيئة بالحسنة ، وبضدها تتميز الأشياء ».

وعلى الجملة فيوسف أجرى ما أجرى من هذه الأمور التسعة ، إما مماشاة للطبيعة الاسرائيلية ، لأن الاسرائيليين ، عموماً منذ القدم إلى اليوم هم حريصون على انتهاز الفرص ، قال الشاعر :

وانتهز الفرصة إنّ الفرصه تصير إنْ لم تنتهزها غصه

وإما لكون ما أجراه هو مقتضى العقل والكياسة ، وبالاجمال إن يوسف كان قوي الإرادة في كل شيء أراده ، وكبير النفس في كل شيء رام أن يتعاطاه، وكان يوسف بعدما خرج من سجنه ، وجلس على أريكة وزارة المال بمصر صار السعد خادماً له فكان يملي إرادته على الزمان ، والزمان يواتيه ويفعل ما يمليه عليه.

(وجاءت سيارة .. الخ)

— ٢ —

وقال الاستاذ راشد البعلبكي :

يوسف بين يدي « السيارة »

بينا يوسف يفتكر في ضيقه ، وما أشكل من أمره ، إذا فرج الله له على طرف الثمام ، وأقرب إليه من ظله ، فقد وردت « سيارة » سخرها الله تعالى لتكون الواسطة الوحيده في إخراجه من الجب ، وكانت هذه القافلة قد جاءت من المشرق لأنه كان يوجد اتصال تجاري واقتصادي بين الأمم الشرقيــة والمملكة المصرية الجنوبية ، فمكثوا غير بعيد ، وللحال أرسلوا واردهم ليأتي لهم بالماء ، وبينا يوسف ساكت ساكن ، يفكر في حاله ، سمع وقع أقدام وصوت إنسان ، فوجه انتباهه إليه ، وجعل قلبه يخفق بشدة وسرعة ، إذا بصدى ذلك الصوت يتعاظم شيئاً فشيئاً ، ويقترب نحو الجب ، فتطاول يوسف لباب الجب ، فنظر وارداً يرد الماء

ما أبرمه سبحانه في سابق علمه ، لا أعترضكم ولا أتعاصى عليكم ، فقد صرت بين أيديكم كأسير ، ولله الأمر من قبل ومن بعد » .

ولم يطلق يوسف لنفسه العنان في بيان ترجمة حاله الشخصية والعائلية ، إذ رأى أن لا فائدة له من ذلك لأنهم أعراب أو مديانيون أو كنعانيون ، لا يهتمون بأمر يعقوب ولا إسحق ، ولا يقدرون هذه الأسرة الاسرائيلية حق قدرها ، ولا يتعرفون اليها ، ولأنه يعلم أنه لو سعى في رجوعه لأبيه لعامله إخوته بما هو أشد وأنكى ، وربما قضوا على حياته ، ففضل البراح والبعد عن البيئة التي تجمعه باخوته ، وفضل الغربة على الاقامة في الوطن ، إذا كان فيه تخوف على النفس والحياة ، كالقائل :

رُبَّ هجرٍ يكون من خوفِ هجرٍ وفراقٍ يكون خوفَ فراقِ

أو كالقائل :

لا تصبونَّ إلى وطنْ فيه تُضام وتمتهنْ
وارحل عن الدار التي تُعْلي الوهادَ على القُنَنْ
واربأ بنفسك أن تقيمَ بحيث يخشاك الدرنْ
وجُبِ البلاد فأيُّها أرضاك فاختره وطنْ

أو كالقائل :

وإنْ نَبَتْ بك أوطانٌ نشأتَ بها
فارحلْ فكلُّ بلادِ اللهِ أوطانُ
وإنْ جفاكَ أخٌ قد كنتَ تألفُهُ
فاطلبْ سواهُ فكم في الأرض إخوانُ

لسان حال يوسف مودعاً وطنه وأهله وهو مع «السيارة»

وعلى ذلك ذهب يوسف معهم ساكتـــاً ساكناً واجمـــاً ، تنطق دموعـه عما صمت عنه لسانه ، يعالج الداء بالداء ، ويفر من هم إلى هم ، ومن قضاء إلى قضاء، فقاموا راحلين به للديار المصرية ، وكأني به حينما صار بين حدود فلسطين وحدود مصر قريباً من « رَفَح » التفت شمالاً فرآى فلسطين ماثلة أمامه ، فألقى عليها نظرة واجمة ، ثم قال :

إن مجاورة الأعداء المتألبين ، ومخالطة الخصماء المناوئين ، غدر بالنفس حتى ولو كان الوطن طيبـــاً والعيش نضراً ، فكيف والوطن بادية ، ومدار معيشتنا رعي الغنم ، وإن العاقل لهو حقيق أن تكون همته مصروفة إلى ما يحصّن به نفسه من نوازل المكروه ، ولواحق المحذور ، وإلى ما يدفع الخوف لاستجلاب المحبوب، وإن معاشرة الحسدة والمصاحب لهم ، لهو كراكب البحر ، إن هو سلم من الغرق ، لم يسلم من المخاوف ، وإننا لنرى أن الدواب قد خُصّت في طبائعها بتوقي المكروه ، واكتساب ما فيه المنفعة ، ولذلك لم نرها تورد أنفسها مورداً فيه بوارها وهلكتها ، وأنها متى أشرفت على مورد مهلك لها ، مالت بطبائعها التى ركبت فيها، شحاً بأنفسها وصيانة لها إلى النفور والتباعد عنه .

ثم استقبل « دوثان » وقال :

الوداع أيها الإخوة الذين طردوني وشردوني من بينهم ، وأبعدوني عن أبي الشيخ الجليل ، وعن أخي الوحيد اللطيم ، ولم يزودوني لقمة واحدة أتبلغ بها في طريقي ، ولا كلمة طيبة آنس بها في مطارح غربتي ، وإنكم قد ألقيتموني هذه المرة في الجب ارتكاباً لأخف الضررين المناسب لسِنّي ، فأخاف لو رجعت وبقيتم على ما أنتم عليه من العداء والمناواة أن تلجأوا لاستعمال أشد الضررين !

١١٧٢ ق . ن ثم كانت وفاته بالعراق ، وكما نتذكر بيوسف حادثة دانيال قبله ، فإنا نتذكر به أيضاً حادثة (ياقوت الحموي) بعده ، أعني صاحب «معجم البلدان» فإنه نشأ أسيراً ، أسر من الروم وبيع في بغداد فاشتراه تاجر يعرف بـ (عسكر الحموي) واليه نُسِب فقيل : ياقوت الحموي ، قرأ شيئاً من النحو والصرف وولع بالأسفار في سبيل التجارة ، فبرز ونبغ في علم « تقويم البلدان » الذي يعبر عنه أهل اليوم بالجغرافية .

ونتذكر بحادثة يوسف أيضاً ، حادثة (سلمان الفارسي) حيث ادعى بعض المسافرين معه استرقاقه ، فباعوه في المدينة المنورة ، ثم أسلم واشترى نفسه عن تملكوه ، وصار من أفاضل الصحابة المحترمين .

(وجاءت سيارة .. الخ)

— ٣ —

وقال الأديب الحلي [١] :

ليسمح لي السادة أن أوضح معنى بعض مفردات هذه الآية الكريمة :

معنى « السيارة »

١ — معنى « سيارة » ركب ، ويقال عنها « قافلة » ، ومعنى الألفاظ الثلاثة رفقة سائرون ، هذا هو المعنى المعروف قديما وحديثاً لهذه اللفظة، وما زال معروفاً لم تنكره الحياة الحاضرة ولم يندثر بعـــد ، ولكن الذين يعرفون شيئاً عن الحياة

---

(١) نسبة الى الحلة من بلاد العراق .

« يا بشرى »

٤ ّ ـ قوله « يابشرى » أسلوب من أساليب الكلام العربي والعبراني ، يعبر به الانسان عن شعوره واغتباطه بما رآه ، ولم يكن وارد القوم أكثر سروراً بيوسف ممن سواه من كل من رآه فيما بعد .

ألقاب يوسف

٥ ّ ـ لفظة غلام في قوله « هذا غلام » هو أول لقب لُقّب به يوسف في بدء غربته وهو في دوثان ، لقبه به مالك بن ذعر الخزاعي . وقد لقب بعده بألقاب عدة ، منها لقب « مُخْلَص » لقبه به المولى عز وجل وهو في مصر إذ قال : ﴿ إنه من عبادنا المخلَصين ﴾ ومنها لقب « فتى » لقبه به النسوة المصريات إذ قلن : « تراود فتاها عن نفسه » وذلك قبل أن يَرَيْنَه ، ومنها لقب « ملك كريم » لقبه به أيضاً نسوة المدينة بعدما رأينه .

ومنها لقب « الصديق » لقبه به رئيس السقاة ، وهو في سجنه . ومنها لقبا « مكين أمين » لقبه بهما ملك مصر الريان ، بعد براءته السجن .

ومنها لقبا « حفيظ عليم » وقد لقب هو نفسه بهما ، ترجمة حال نفسه عند الحكومة .

ومنها لقب « العزيز » لقبه به إخوته ، تبعاً للحكومة المصرية التي — طبعاً — لا بد أن تكون قد وجهت عليه هذا اللقب ، فكان « عزيز مصر » تحت سلطة مليكها الريان .

فيكون أول لقب وجه على يوسف في بدء محنته « غلام » ، وآخر لقب وجه عليه في بدء إشراق سعده « عزيز مصر » .

الدلو

٦ً - لم يذكر لفظ «دلو» في كتاب الله تعالى إلا هنا، كأن الله جل جلاله إنما أنزل «الدلو» في هذه السورة مساعدة ليوسف، حتى يتعلق به ويخرج من جبه.

الفصل الثاني

بيع يوسف (ع)

آ(٢٠) (وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ !!! دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ! وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ !).

افتتحت الجلسة وتليت الآية العشرون فقام السيد جمال العكاري[1] وقال:

(و) لما وصلوا مدينة «منف» وذلك سنة ٢٣٣١ ق. ن (شروه) أي باعوه فيها لعزيز مصر (بثمن) اسمي (بخس) مبخوس ناقص عن قيمة يوسف نقصاناً ظاهراً، أو زيف ناقص العيار (دراهم) لا دنانير (معدودة) قليلة تعد عداً، ولا توزن، لأنهم كانوا لا يزنون إلا ما بلغ الاوقية، وهي الأربعون، ويعدون ما دونها؛ وقيل للقليلة «معدودة» لأن الكثيرة يمتنع من عدها لكثرتها، ومن التعبير بالقلة عن العدد الدعوة المأثورة على الكفرة: «اللهم أحصهم عدداً»، وقيل كانت عشرين درهماً (وكانوا فيه من الزاهدين) ممن يرغب عما في يده فيبيعه بما طف من الثمن، لأنهم التقطوه، والملتقط للشيء متهاون به، لا يبالي بم باعه، ولأنه يخاف أن يعرض له مستحق ينتزعه من يده، فيبيعه من أول مساوم.

(١) عكار احدى بلاد الشام (لبنان)

بأوكس الثمن ؛ فإخوة يوسف وقعوا في الجريمة وتحت غضب أبيهم ، ويوسف ذاق من جراء ذلك المصاب والملقم ، وعزيز مصر الأجنبي أخذه لقمة سائغة أتته دون تعب ولا نصب .

(وشروه بثمن بخس ... الخ)

— ١ —

وقال الشيخ اسماعيل الصيداوي (١) :

ليسمح لي السادة الأفاضل أن أذكر نبذة عن أسواق الرقيق في تلك العصور قبل الكلام على الآية الكريمة فأقول :

اسواق الرقيق

كان يوجد قديماً في الممالك الكبيرة كمصر أسواق تسمى « أسواق الرقيق » يأتون فيها بالرقيق الأبيض والأصفر والأحمر والأسود من الجواري والغلمان على اختلاف القدود واللغات والأسنان ، يستجلبونهم من أقاصي بلاد الترك والروم والكرج والخزر وطبرستان وخراسان والسند والمغرب والبربر والحبش ، يأتي بهم النخاسون أولاً ، إما بطريق الغزو أو بطريق الشراء من والديهم أو بعض أقاربهم بثمن زهيد ، ثم يبيعونهم لتجار الرقيق ، هؤلاء التجار يسوقونهم كالأنعام إلى « سوق الرقيق » مشدودي الأيدي بعضهم ببعض بالأمراس ليبيعوهم بدورهم أيضاً ، وهذه « السوق » هي سوق عمومية يجتمع اليها الناس من أقاصي البلاد ،

(١) نسبة الى بلدة صيدا من بلاد الشام (لبنان) .

لشراء الرقيق أو اشترائه أو للمبادلة والمقايضة ، وحول هذه السوق سور ، بعضه من الخشب ، وبعضه من الأحجار ، فيدخل التجار السوق مع الرقيق ، ويقفلون بابه ، وحينئذ يحلون أيدي الأرقاء من الأمراس ، ويجعلون الذكور في جهة ، والاناث في جهة ، وربما أفردوا من يكونوا صغير السن جميلاً ، فيخصونهم بجهة على حدة ، فيأتي المشترون فينظرون اليهم ويفحصونهم ، يأمرونهم بفتح أفواههم ، فتفحص أسنانهم ورائحة حنكهم ، وينظرون في عيونهم وآذانهم وأنوفهم ، وأيديهم وأرجلهم ، ويسومونهم ، ومتى تمت صفقة البيع ، أخذوا العبد واستخدموه فيما يشاؤون ؛ من رعي غنم أو حرث أو زرع أو غرس ، أو خدمة في بيت ، إلى غير ذلك ، وكان تجار الرقيق قديماً ، إذا وقفوا على جارية جميلة ، أو غلام جميل ، أنفذوا بعض السماسرة إلى دار الحاكم أو الأمير أو فلان الثري ، يسعون في ترويج تلك السلع ، وكثيراً ما يكون الوسيط بالسمسرة بعض المقربين من بطانة الحاكم أو الأمير ، ممن يحبون الكسب من هذا السبيل ، ولعل وقوع يوسف ليد « عزيز مصر » المدعو « فوطيفار » كان بعض هذه الوسائط .

يوسف في سوق الرقيق

حينما أخذت «السيارة» يوسف من الجب وأسرّته بضاعة ، ساروا به يطوون البيداء ، لا يلوون على شيء ، حتى وصلوا مصر ، ولم يصبروا إلا فواقاً ، حتى دخلوا به « سوق الرقيق » وكان لابساً أسمالاً بالية ، ولا نخاله عند ذلك إلا قد « تكهرب » وتألم وحزن حزناً شديداً ، وحيث رأى نفسه بين الزنوج . فكان جالساً بهيئة محزنة مؤثرة ، تستثير الأشجان ، وتستذرف الدموع ، ولو لا علمه بمواعيد الله له ، لقضى أسىً من وقوفه ذلك الموقف . وقد كان ليوسف إذ ذاك

فكرتان تتصارعان ، فكرة حاله الظاهرة ووقوفه موقف الذل والهوان ، وفكرة حاله الباطنة ، ومواعيد الله له بالرقي إلى الأوج الأعلى ، فكان عند الفكرة الأولى يجيش صدره ، ويبكي بعينيه ، وعند الفكرة الثانية يضحك في قلبه ويطمئن .

وبينما هو كذلك ، إذ بالقافلة تسلمه لـ«عزيز مصر» الذي اشتراه منها ، فنزل حادث الشراء على نفسه ، نزول الجمرة على تامور القلب ، وتخيل عندئذ كأنما سهم رائش أصمى كبده ، إلا أنه تماسك ريثما يختار الله له ما يشاء من الفرج ، فسلم أمره لله ، وذهب لبيت «عزيز مصر» يعالج داء بداء ، وينتقل من ذل إلى ذل !!

ايضاح مفردات الآية

وبعد ذكر ما تقدم سأبين لك معنى قوله تعالى «شروه» ثم عود الضمير في «شروه» والتحقيق عن من باع واشترى يوسف ثم معنى «ثمن بخس» وكم هو هذا الثمن .

معنى «شروه»

١ ـ فمعنى قوله تعالى «شروه» باعوه ، وتنازلوا عنه وبذلوه ، ضد «اشتروه» التي تفيد معنى الأخذ ، قال تعالى ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢ : ١٠٢) أي باعوها ، وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ ﴾ (٢ : ٢٠٧) أي يبيعها ويبذلها في الجهاد ، وقيل : يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حتى يقتل ، وقال تعالى : ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴾ (٤ : ٧٣) أي يبيعون .

وقال الشاعر العربي :

شَرَيْتُ بُرْداً ولولا ما تَكَنَّفَنِي
من الحوادثِ ما فارقتُهُ أبـــدا

ومنه تسمية (الخوارج) الذين خرجوا على الإمام عليّ كرم الله وجهه (الشُّراة) أي الذين باعوا أنفسهم — في زعمهم — لله ، ويقال في اللغة : جدَعه وشراه ، بمعنى شق أذن عبده وباعه .

عود الضمير في «شروه» والتحقيق عن من باع واشترى يوسف

٢ — الضمير في « شروه » هل هو عائد على إخوته ، أو عائد على السيارة ؟ في الأمر قولان : الأول مروي عن ابن عباس (ض) ، ومعناه أن إخوة يوسف باعوه للسيارة ، وأصل ذلك في سفر التكوين (تك ٣٧ : ٢٨) وليس من مصدر آخر لهذا القول غير توراة اليهود التي بين أيديهم ، ولا يوجد حديث صحيح في هذا الموضوع يؤيد رواية التوراة أو يضعفها .

والقول الثاني يتبين من ظاهر الآية :

أ — إن الضمير في « شروه » عائد على السيارة ، لأنها أقرب مذكور ، وإنما أعاد الضمير عليها مذكراً ، لأنها بمعنى الجمع أو القفل أو الرجال المسافرون ، ومما يؤيد رجوع ضمير « شروه » للسيارة ، رجوع الضمائر قبله إليها في قوله « فأرسلوا » وقوله « وأسرّوه » فعود الضمائر مرة على السيارة ، ومرة على الإخوة ، يوجب تعقيداً في التركيب ، وبالنتيجة يجب المشي مع الظاهر ، وإهمال هذه الرواية عن ابن عباس ، والله أعلم .

ب — إن الله تعالى يقول (شروه ، واشتروه) ، فإذن الصفقة واحدة لا ثاني لها .

ج — إن الله تعالى علم أنه سيأتي قوم يفهمون غلطاً تبعاً لتوراة اليهود ، فيقولون إن الذين شروه هم إخوته : شروه للسيارة ، وبالطبع اشترته منهم السيارة وكانت صفقة هذه المقايضة في فلسطين ، فلأجل دفع أو رفع هذا التوهم ، أقحم الله تعالى لفظ (من مصر) ، ليدلنا على أن الحادثة واحدة ، لم يُشْرَ ولم يُشْتَرَ إلا مرة

واحدة ، فالشارون هم جماعة السيارة ، والمشتري هو عزيز مصر ، والحادثة لم تكن في فلسطين بل في الديار المصرية ، فهذه قرائن ثلاث تدلنا على صحة ، بل تعين ، ما فهمنا (والحمد لله) وتبعد أو تحيل ما فهمه المفسرون ، وإن عزوه لابن عباس .

الثمن البخس وماهو وكم هو

٣ ـ ومعنى « ثمن بخس » أي ثمن نزر ، تافه ، مألوت ناقص ، وإنما قنعوا بالثمن البخس لأنهم لم يدفعوا في مشتراه فلساً واحداً :

ومن أخذ البلاد بغير حرب　　　يهون عليه تسليم البلاد

ولخوفهم من هروبه وتملصه منهم ، ولكونهم لا يعرفون قدره ومنزلته ولا ابن من هو ، فكانوا كالرجل الجاهل الذي سرق ياقوتة ، وكان لا يعرف ما هي ، وكان خائفاً من أصحابها ، فباعها بخرزة لا تساوي إلا دراهم يسيرة ، مع أن الياقوتة ثمينة ، لو وقعت في يد عارف بها لأصاب بثمنها غنى الدهر .

٤ ـ ما هو هذا الثمن البخس وكم هو ؟ كان « دراهم معدودة » ويعلم أنها كانت أقلّ من أربعين ، وذلك لأن الناس في ذلك الزمن كانوا يتبايعون بالأواقي ، وكانت الوقية أربعين درهماً ، فما قصر عن الوقية فهو بالعدد .

أو يقال « معدودة » كناية عن كونها قليلة ، ومن التعبير عن القلة بالعدد الدعوة المأثورة على المشركين « اللهم أحصهم عدداً » فالمدعوّ به وإن كان إحصاؤهم عداً في الظاهر ، إلا أن هذا ليس مراداً ، لأن الله تعالى أحصى كلّ شيء عدداً ، وأحاط به علماً ، فلا بد من مقصود وراء ذلك ، وذلك المقصود هو لازم العدد وهو القلة ، فلما كان كل قليل معدوداً وكل كثير غير معدود ، دعا عليهم

بالقلة معبراً عنها بلازمها وهو الإحصاء، هذا ما قاله العلماء وقرره أحمد الاسكندري في حواشيه على الكشاف ، وهو جيد ، ولنا في ذلك وجه آخر ، وهو أن هذه الدراهم كانت مقصوصة الأطراف ، لأنهم كانوا قديماً (كما هو اليوم) يتعاملون بالدراهم عداً لا وزناً ، فكان يوجد مجال كبير لقليلي الأمانة (وكثير ما هم) أن يأخذوا من أطراف الدراهم ، كما أن أهل عصرنا الحاضر يسحبون الدنانير، والناس عند ذلك يحرصون على المعاملة بالعد دون الوزن ، لأنه أربح لهم ، فيكون المعنى الذي يرمي إليه اللفظ ، انه يالبيت أن هذه الدراهم التي بيع بها يوسف، كانت صحيحة سليمة من النقصان حتى توزن وزناً ، بل كان يغلب عليها النقصان، ولهذا عُدّت عداً .

وقد كانت هذه الدراهم عشرين درهماً من الفضة ، وكان الدرهم يساوي إذ ذاك (١٧) غرشاً ، فكانت قيمة ذلك نحو (٣٤٠) غرشاً ، وهي قيمة بخسة زهيدة جداً بالنسبة لأثمان العبيد والجواري الذين كانوا يباعون ويشترون بقيم تبلغ أضعاف أضعاف قيمة يوسف ، سواء في تلك العصور أو فيما بعدها ، ولو أردنا سرد أثمان العبيد والجواري في عهد الدولة العباسية والأموية لطال بنا الشرح والبيان، وقد كانت الفضة في تلك الأيام أثمن منها اليوم ، ومع قلة هذه القيمة ، فبائعو يوسف رأوا أنهم بهذا البيع وهذا الثمن فازوا بصفقة رابحة ، فواضيعتاه ! يا يوسف !

(وشروه بثمن بخس ... الخ)

— ٢ —

وقال الشيخ محمد أحمد علماء أم درمان (السودان) :

الاسترقاق قبل الاسلام وفي الاسلام

قضي على البشر أن يستعبد بعضهم بعضاً من قديم الزمان ، فلم تخل أمة من

الاسترقاق ، حتى في شريعة موسى عليه السلام ، وليس هذا فقط ، بل كان الناس يخطف بعضهم بعضاً للتجارة، فكانوا متى التقطوا شخصاً غريباً استأسروه واسترقوه، وقد عومل الرقيق في سائر الشعوب بضروب من القسوة، تنفطر منها الانسانية، وهكذا قضت المسيحية البولصية ، بإبقاء أحوال الأرقاء على ما كانت عليه من قبل ، إذ لم يرد في المسيحية كلمة واحدة عن تحرير الرقيق ، إنما الذي ورد فيها ، هو أمر الأرقاء أن يطيعوا مواليهم مع الخوف والرعب والرعدة ، كما يطيعون المسيح عليه السلام (أف ٦ : ٥) وأن يبالغوا بحسن القيام بخدمة ساداتهم ، تمجيداً لتعاليم المسيح ، كما يقوله القديس بولص في (كو ٣ : ٢٢) وفي (تي ٢ : ٩) وقد وافق على ذلك القديس بطرس الحواري، حيث أوصى العبيد بأن يخضعوا لساداتهم ويخشوهم (ابط ٢ : ١٨) وهكذا بقي هذا الحال ، إلى أيام الإسلام ، فلما أتى الإسلام ، رق لحال الأرقاء ، كما كان شأنه لجميع الضعفاء ، فمنع الاسترقاق بتاتاً ، إلا أن يكون في حرب شرعية ، مع قوم من غير المسلمين ، لم يؤمن أذاهم ، أعني انه إنما أباح الأسر في الحرب الدينية فقط ، وعذر الإسلام في ذلك ، أنه قد وجد النوع الإنساني ، قد تأصلت فيه عادة الأسر ، فأباح أسر الأجانب فقط ، في مقابلة أنهم يأسرون أهل الإسلام ، إذ لو حرم أسرهم على المسلمين ، لا نقرض المسلمون جميعاً ، إذ كانوا في الحرب يأسرهم غيرهم إذا غلبهم ، وهم إذا غَلَبوا لا يأسرون أحداً ، وفي ذلك شر عظيم على أهل الإسلام ، وهلاك مبيد ، فلهذا أباح أخذ الأسرى ، وبهذه القاعدة ، سد تفشي الاسترقاق وانتشاره ، وغلق أبواب الظلم والعدوان ، ثم أمر بالإحسان إلى الأرقاء ، وبمعاملتهم بالرفق واللين ، كما قال جل ثناؤه : ﴿ وبالوالِدَيْنِ إحساناً ، وبِذي القُرْبَى ـ إلى أن يقول ـ وما مَلَكَتْ أيمانُكُم ﴾ (٤ : ٣٥) ورغب في العتق ، وجعل بين المعتِق والعتيق وَلاءً ومودة ، وإن شئتم اقرأوا قوله تعالى ، ﴿فلا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ ؟وما أدْراكَ

ما العَقَبَةُ ! فَكُّ رَقَبَةٍ ، أوْ إطعامٌ في يوم ذي مَسْغَبَةٍ ، يتيماً ذا مَقْرَبَةٍ ، أوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ ، ثم كانَ مِنَ الذين آمنوا ، وتَوَاصَوْا بالصبر وتواصَوْا بالمَرْحَمَةِ ، أولئك أصحابُ المَيْمَنَةِ ﴾ (٩٠ : ١١ - ١٨) فالله تعالى ، أول ما قال في هذه الآية « فك رقبة » ، إذن فك الرقبة ، أهم ما تقتحم به العقبة ، وذكر بعدها الإيمان ، مع الصبر والمرحمة. ونهى الإسلامُ عن لطم المملوك وضربه وجعل كفارة ذلك عتقه ، حيث قال عليه الصلاة والسلام : « من لَطَمَ مملوكَهُ أو ضَرَبَه ، فكفارَتُهُ عِتْقُه » ، وليس هذا فقط ، بل قال : « إخوانُكم خَوَلُكُم ، جعلهم اللهُ تحتَ أيديكم ، فمن كان أخوهُ تحتَ يدِهِ ، فلْيُطعِمْهُ مما يأكلُ ، وليُلْبِسْهُ مما يلبسُ ، ولا تكلفوهم ما يَغْلِبُهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم » ، بل قال : « لا يَقُلْ أحدُكم : عبدي ، أمتي ـ وليقل : فتايَ ، وفتاتي وغلامي » ، وحث على تهذيبهم وتعليمهم ، في مثل قوله : « مَنْ كانت له جاريةٌ ، فعلَّمَها وأحسنَ إليها وتزوجها ، كان له أجران » ، هذا وقد أمر الله تعالى بتزويجهم فقال : ﴿ وانْكِحُوا الأيامى منكم ، والصالحينَ مِنْ عبادِكم وإمائِكم ، إنْ يكونوا فقراءَ : يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فضلِهِ ﴾ (٢٤ : ٣٢) ، ثم إذا افترش السيد أمته ، فولدت له ، كان الأولاد أحراراً ، ويرثون من أبيهم ، وهي تعتق بذلك ، إلى غير ذلك ، من القواعد العادلة ، التي لم تأت بها شريعة قط وليس هذا هو كل ما جعله الإسلام ، مساعدة لأولئك الضعفاء ، بل جعل تحرير الرقاب ، كفارة لكثير مما يقع من الإنسان ، مخالفاً للدين ، حتى في أبسط المسائل كالحنث في الأيمان : ﴿ لا يُؤاخِذُكُم اللهُ باللغوِ في أيمانِكم ، ولكنْ يُؤاخِذُكم بما عَقَّدتُم الأيمانَ ، فكفارتُهُ ـ إلى أن قال ـ أو تحريرُ رقبةٍ ﴾ (٢ : ٢٢٥) ، وليس هذا فقط ، بل أمر بجمع الأموال ـ الزكاة ـ من الأغنياء وصرف جزء منها في تحرير الرقاب : ﴿ إنما الصدقاتُ للفقراء ـ إلى

قوله ـ وفي الرِّقابِ ﴾ (٩ : ٦١) وكرر حث ذوي اليسار، على ذلك، المرة بعد المرة: ﴿ ليس البرَّ أن تُوَلُّوا وُجُوهَكُم قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ، ولكنَّ البرَّ مَنْ آمَنَ بِالله ـ إلى أن قال: ـ وآتَى المالَ على حُبِّهِ، ذَوي القُرْبى ـ إلى أن قال: ـ وفي الرِّقابِ ﴾ (٢ : ١٧٧) إلى غير ذلك مما يطول شرحه، فإذن نسأل أهل الإنصاف ونقول: أليس ما أتى بـه القرآن والدين الإسلامي منذ قرون، هو ما تفتخر به المدنية الحديثة وتتيه به إعجاباً؟!

استفادة الرقيق عند المسلمين

لقد جاء في كتاب للأستاذ الكريم الشيخ عبدالقادر المغربي قوله: ليس الغرض من الاسترقاق عندنا، مجرد استغلال الأرقاء والانتفاع بخدمتهم، كما ينتفع بالدابة، وإنما الغرض نفع الرقيق نفسه، ونفع البشرية بنشر تعاليم الإسلام بين أبنائها، فإننا نأخذ الأرقاء في الحروب أسرى وندخلهم في بيوتنا، ونمزجهم بعائلاتنا، كي يتخلقوا بأخلاقنا، فيدخلوا أخيراً في ديننا، ويكثر بهم سواد أمتنا، وربما كان ثلث المسلمين اليوم، هم من سلالة أولئك الآباء، الذين دخلوا في الإسلام من طريق الرق، فالرق في نظر العالم المسلم الاجتماعي، ضرب من ضروب الاستعمار، أو ما يسميه سواس هذا العصر (التجنس بالتبعية).

استرقاق الشعوب في اوربا وامريكا

وجاء في كتاب لأمير البيان الأستاذ شكيب أرسلان مانصه:

وإذا قيل إن الرق قد وجد في الإسلام، فالجواب إنه لم يوجد فضيلة حث عليها الإسلام بصريح القرآن، ومتواتر السنة أكثر من تحرير الرقيق، على أن النصرانية لم تنكر الرق، كما ظهر من كلام بولس الرسول.

وإن كانوا في أوربا قد اتفقوا مؤخراً على إلغاء الرق فلا يجوز أن ننسى أن الشعب الروسي إلى زمان الامبراطور بولس كان رقيقاً لأمرائه ، وأن النبيل إذا باع قرية يملكها ، يبيعها مع الأهالي الذين فيها ، لا يملكون لأنفسهم أمراً ، بل حكمهم كان حكم الحيوانات التي في القرية ؟ هذا كان شأن الأمة الروسية ، منذ ١٥٠ سنه لا زيادة ، ولا يجوز أن ننسى أن الفرنسيين بعد أن تمكنوا من طرد المسلمين من جنوبي فرنسا ، استعبدوا البقيـــة التي بقيت من المسلمين واغتصبوا أملاكهم ، واستعملوهم خولاً وخدماً مدة طويلة ، حتى اندمجوا في غمار الأمة الفرنسية وتنوسيت أصولهم ، ولا يجوز أن تنسى أن الحرب قامت في أميركا من سنة ١٨٦٣ م إلى سنة ١٨٦٦م من أجل تحرير العبيد ، وأن الاميركيين سكان جنوبي الولايات المتحدة ، حاربوا سكان شمالها مـــدة سنوات عديدة من أجل إصرارهم على استعباد السود ».

حكم الاسترقاق الشائع عند بعض المسلمين قديماً وحديثاً في الشرع

وأما حكم الاسترقاق الذي كان شائعاً في العصور السابقة فهو غير شرعي ، سواء ما كان منه في بلاد السود، وما كان منه في بلاد البيض، كبنات الجراكسة اللواتي كن يبعن في الأستانة جهراً من عصر قديم إلى ما قبل الدستور العثماني ، وكلهن حرائر من بنات المسلمين الأحرار ، ومع هذا كنت ترى العلماء ساكتين عن بيعهن والاستمتاع بهن بغير عقد نكاح ، وذلك من أعظم المنكرات ، حتى لو سألت عن حكم المسألة بعد شرحها له لأفتاك بأن هذا الاسترقاق محرّم إجماعاً وربما قال لك : (وإن مستحل ذلك يكفر ، لأنه لا يعذر بالجهل) وعلل ذلك بما يعللون بـه مثله ، وهو أنه مجمع عليـه ، معلوم في الدين علماً يشبه الضروري .

وكما كان يوجد هذا في الاستانة ، فهو قد كان يوجد في الحجاز أيضاً ، أعني انه كما كان يوجد في عاصمة الإسلام المدنية ، فكذا كان يوجد في عاصمة الإسلام الدينية ، والمسؤول عن هذه الفَعْلة الشنعاء والغلطة القبيحة هم العلماء والأمراء الذين كانوا معاصرين إذ ذاك . والحق إن الاسترقاق يحتوي على مفاسد كثيرة ، وإنه مناف لمحاسن الإسلام وحكمته العالية ، ولكنه قد كان مما عمت به البلوى بين الأمم ، فلذلك لم يمنعه الإسلام منعاً باتاً ، ولكنه خفف مصائبه ، ومهد السبيل لمنعه ، حتى إذا جاء وقت تقتضي فيه المصلحة العامة مَنْعَه ، مع عدم وجود مفسدة تعارض المنع وتُرجّح عليه ، كان لأولي الأمر مَنْعُه ، فإن المصلحة أصل في الأحكام السياسية والمدنية ، يُرجع إليه في غير تحليل المحرمات ، أو إبطال الواجبات .

زعم دعاة المسيحية بشأن تحرير الرقيق والرد عليه

زعم دعاة المسيحية ، بأن ما قام به الأوربيون في الزمن الأخير ، من « تحرير الرقيق » ، هو من آثار دينهم فيهم ، ولكن الحقيقة إن ذلك نتيجة الاشارات الرمزية ، التي وردت في القرآن ، وشجرة مكبرة ناجمة عن النواة التي غرسها القرآن ، في حقل حياة الإسلام ، وإلاّ فلماذا قضوا القرون المديدة ، في استعباد الناس ، على أشنع الأحوال ؟! وقد علمتَ فيما مرّ ، أقوال رؤساء النصرانية في حق الأرقاء ، وأين هي من أقوال القرآن والأحاديث ؟ وأين هذا من ذاك ؟ ولِمَ لمْ يهتم الدين المسيحي بشأن العبيد ، ويعطف عليهم ، كما عطف عليهم الإسلام ؟ لِمَ لمْ يأمر باستعمال الرفق بهم واللين معهم ولو بجملة واحدة ؟

سيقولون : إنه لم يأت ليسن شرائع ، أو ينسخ ما كان موجوداً منها ـ ونقول

في تفنيد جوابهم : لِمَ حرّمَ الطلاقَ والتزوجَ بالمطلقة والتعـــدد في الزوجات ؟ أما كان يمكنه أن ينهى الناس من استعمال القسوة على الأقل مع أولئك الضعفاء ؟

هذا ، والحق يقال إن ما أتى به الاسلام في شأن الرقيق لم يأت بمثله دين على وجه البسيطة ، وإن « تحرير الرقيق » الذي اتفق عليه ملوك أوربا ، كان الإسلام قرره قبلهم ، لأن الرقيق الموجود اليوم ، ليس هو مضروباً عليه الرق ، في حرب دينية ، حتى يوافق عليه الاسلام ، بل هو من قبيل الاختطاف ، كما وقع مـــع يوسف عليه السلام ، وهذا النوع لا يقول به الإسلام ، ولو كان المسلمون في درجة الأوربيين مدنية وعلماً وقوة ، لـكانوا أولى من ملوك أوربا ، في إظهار ما يعتقدون ، من تحريره ، ولأنه في عقيدتهم ، ليس رقيقاً شرعياً ، ولكن هكذا قضي أن يكون المسلمون حجة على دينهم .

وما أن نزل الشيخ محمد عن منبر الخطابة حتى تعالت الهتافات والتكبيرات في المؤتمر استحساناً لما قال .

الفصل الثالث

وصية عزيز مصر لامرأته بيوسف

آ(٢١) : ﴿ وَقَالَ الذي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ ! «أَكْرِمِي مَثْواهُ ،عَسَى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً »، وكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيوسُفَ في الأرضِ ، ولِنُعَلِّمَهُ مِنْ تأويلِ الأحاديثِ ... واللهُ غالبٌ على أمْرِهِ ، ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعْلَمونَ ... ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الحادية والعشرون فقام أمين الدين الجرشي [١] وقال :

(وقال الذي اشتراه من مصر) المسمى « قوطيفار » ، وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر ، في عهد الريان بن الوليد العمليقي الهكسوسي ، قال (لامرأته) « زليخا » بلسان الالتماس (أكرمي مثواه) اجعلي منزله ومقامه عندنا كريماً ، أي حسناً مرضياً ، بدليل قوله :« إن ربي أحسن مثواي » والمراد تفقديه بالاحسان وتعهديه بحسن الملكة ، حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا ، ساكنة في كنفنا ، (عسى أن ينفعنا) إذا تدرب وراض الأمور وفهم مجاريها ، نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله ، فينفعنا فيه بكفايته وأمانته ، (أو نتخذه ولداً) نتبناه ونقيمه

(١) نسبة إلى جرش من بلاد الشام (شرقي الاردن) .

مقام الولد ، لأنه قيل إن فوطيفار كان عقيماً لا يولد له ، وقد تفرس في يوسف الرشد فقال ذلك . (وكذلك) الذي تقدم من إنجائـه وعطف قلب العزيز عليه — والكاف في كذلك منصوب تقديره : ومثل ذلك الإنجاء والعطف — (مكنا ليوسف في الأرض) أي كما أنجيناه وعطفنا عليه العزيز ، مكنا له في أرض مصر ، تمكيناً يليق بصلاحيته ما دام عند فوطيفار ، أي تمكيناً مقيداً بالتصرف في ممتلكات فوطيفار وأطيانه وعقاراته ، لأن يوسف صار وكيلاً مفوضاً عن فوطيفار في كل ماله ، أي وكيل دخل وخرج ، يتصرف في ذلك بأمره ونهيه ، فكان فوطيفار لا يعرف شيئاً إلا الخبز الذي يأكله ، كان ذلك افوائد كثيرة تعود بالخير على يوسف (ولنعلمه) بإقامته ومكثه بمصر (من تأويل) أي مرامي ونتائج(الأحاديث) عموماً ، لأن مصر هي دار العلم والاستبصار بحيث من أقام بها ترقى واستنارقلبه ، وحصل ما لم يحصله في مثل فلسطين (والله غالب على أمره) على أمر نفسه ، لا يمتنع عما يشاء ولا ينازع ما يريد ويقضي ، أو غالب على أمر يوسف ، يدبره ولا يكله إلى غيره ، قد أراد إخوته به ما أرادوا ، ولم يكن إلا ما أراد الله ودبره (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن الأمر كله بيد الله .

(وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه)

— ١ —

وقام الشيخ الرَّمتي [١] وقال :

دخول بالقارىء الى المملكة المصرية الهكسوسية

فوطيفار عزيز مصر

ينقسم تاريخ يوسف في غربته إلى قسمين : الأول تاريخ عبوديته ، والثاني

(١) نسبة الى الرمتة من بلاد الشام (شرقي الاردن)

تاريخ حكمه على كل مصر . ونشرع الآن في القسم الأول :

أنزل يوسف إلى مصر فاشتراه « فوطيفار » بواسطة بعض بطانته ، وكان من رجال البلاط .

و « فوطيفار » هذا هو رئيس شرطة مملكة مصر ، وكان بالنسبة للملك كوزير الدولة ، أو كنائب الملك ، وكان يلقب بـ « عزيز مصر » (آ ٣٠) وهذا الاسم يدل على أن الرجل من المصريين الوطنيين الأصليين لأنه مركب من كلمتين قبطيتين بتغيير قليل ، والأصل (فوطي فارع) أي « مختص بالشمس » أو « موقوف للشمس » والشمس هي من معبودات المصريين ، ومع ذلك فقد نصّ قدماء المؤرخين على أنه كان مصرياً أي قبطياً ، لأنهما لفظتان مترادفتان ، والفلاحون ينطقون بهذه اللفظة بأصح مما نكتبها ، إذ يقولون « جبطي » أي (إيجيتي) أو مصري ، ومن هذا الاسم اشتق الإفرنج كلمة (إيجيبت) وهي لفظة يونانية في الأصل ، وعلى ذلك فقوله تعالى « من مصر » يظهر أنه نعت « للذي » أو حال منه ، وهو الأرجح ، لأن الجمل وما شابهها بعد المعارف أحوال .

ومن ألقاب هذا الرجل أيضاً « خصيّ الملك » ولفظة خصيّ تدل على وظيفة لا على حالة شخصية ، لأنه كان متزوجاً ويبعد في الخصي الحقيقي أن يتزوج ، وإنما هذا اللفظ يطلق على من يكون رئيساً في البلاط وناظراً للحرم ، لأن الذين كانوا يستخدمون لذلك جرت العادة أن يكونوا خصياناً حقيقة ، وقد كان عزيز مصر ناظراً للحرم أيضاً ، ومما لا يجب أن ننساه أن اصطلاح حكومة مصر قديماً تسمية جميع المأمورين فيها « عبيداً » لفرعون ، مع أنهم أحرار ، وكذا « خصياناً » ، مع أنهم ليسوا مجبوبين ، فكما أن تسميتهم « عبيداً » لا تنفي أنهم أحرار ، فكذا تسميتهم « خصياناً » لا تنفي أنهم كاملوا الخلقة فأفهموا ...

(وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه)

— ٢ —

وقال الحافظ الترمانيني [١] :

حياة يوسف المادية

كان فوطيفار قد عرف بوجه الإجمال أن هـــذا العبد عبراني ، من نزلاء فلسطين ، ولكن لم يعرف ابن من هو ؟ ولا السلالة التي ينتسب اليها ، وأيضاً هو لم يسأله عن ذلك ، لأن هذا الأمر لايهمه كثيراً ، لأن العبرانيين كانوا في فلسطين جماعة غرباء نزلاء ، وهم على دين التوحيد ، الذي يغاير دين الوثنيـة الذي كان إذ ذاك دين أهل مصر ، وأيضاً فقد كان يوسف في ذلكم الحـين صغيراً ، وإذاً فـلا مناسبة بين يوسف وبين فوطيفار لا في الوطنية ولا في العنصر ، ولا في الدين ولا في السن ، ولا في الجاه ولا في المركز الاجتماعي ، فلهذه العلل ونحوهـا لم يتن فوطيفار في التعمق والبحث عن حاله .

فلما اشتراه أدخله على عقيلته وكان اسمها « زليخا » على المشهور ، أو «راعيل» على ماقيل ، وكان والدها من أولاد ملوك القبط — قال لها فوطيفار : « يا أمةالله» لقد عثرنا على ضالتنا المنشودة ، إذ اشترينا هذا الغلام العـــبراني الوديع الحديث السن ، وإني أقترح عليك شيئاً ، لي ولك فيه فائدة ، أكرمي مثواه ، واجعـلي له امتيازاً خاصاً فوق ما لسائر العبيد الذين في خدمتنا ، وليكن عنـدك ضمن البيت تحت جناحك مرفهاً مسـروراً ، ولا تحرجيه ، عسى أن ينفعنا غداً ، وإن غداً لناظره قريب ، أو نتخذه ولداً في مقتبل الأيام ، فهاهو عمره نحو (١٧) سنة ،

(١) نسبة الى بلدة ترمانين من البلاد السورية .

وعما قريب ينتظم في سلك الشبيبة فيصلح لتعضيدنا، فاعطفي وتحدبي عليه، وعامليه بالدماثة والبشاشة ».

وإنما قال لها ذلكم ، لأنها هي صاحبة الحول والطول في البيت ، وهي الآمرة الناهية ، وقد قالوا : إن عقيلة الرجل في البيت تعتبر كناظر داخلية ، ضمن دائرة الآداب والاخلاق الشرعية ، كما يعتبر هو كناظر خارجية بالنسبة لأشغاله البرانية، وعلى هـذا الوجه — من تقسيم الاعمـال — تتم الفائدة ، وتستتب الراحـة للزوجين معاً .

لذلك هو يقول لها : « انفعيه اليوم ينفعنا غداً ، لاتمنعي عنه شيئاً من نوالك ، بل اجعلي له في البيت المقام الأول بين عبيدنا ، وهيئيه وأهليه للقيام بمصالحنا في المستقبل ، وأدبيه وأرشديه ، بما يكفل له النبوغ والثقافة، نعم نحن فزنا باشترائه ، ولا سيما بذلك الثمن الذي لايذكر ولا يساوي حذاء نعله ، لكن الفوز الأكبر إنما يكون بتثقيفه وتأديبه وتأهيله أن يكون عضواً عامـلاً معنا ، وساعداً قوياً لنا في المستقبل ، فهذا هو الذي يضمن لنا الفوز بكل معنى الكلمة » .

وأما هي فقالت في نفسها : (نعمّا فعل ، وحبذا ما قال) لأنها لما رأت يوسف أحبته حباً لامزيد عليه لما رأت فيه من جمال الخلق والنفس . فهذه الآية تفيد أن عزيز مصر عُني به ، وقدم له كل مايلزم للصغير جسدياً وأدبياً ، حتى وصل لسن الرشد ، وقوله تعالى بعد ذلك ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ﴾ (آ.٢٢) يفيد أن يوسف حينما بلغ مبلغ الرجال ، أرشده الله ووفقه لكل مافيه نموه روحياً، فمرمى مجموع الكلام أن الأرض والسماء عُنيتا بيوسف ، عنيت الأرض بكفالته وتربيته وتثقيفه ونموه ، مادياً وأدبياً ، وهذه هي المدرسة الابتدائية التي تعلم فيهـا التعاليم الابتدائية منذ ما كان عمره (١٧) سنة الى أن بلغ أشده ، ولما بلغ أشده عُنيت السماء بإرشاده وتوفيقه وتعليمه الحكمة والعلم ونموه روحيـاً ، وهذه هي

المدرسة الثانوية ، التي تعلم فيها العلوم العاليـة ، وأما مدرسته عند أبيه ، فكانت عبارة عن « بستان أطفال » .

مصر أيام يوسف

وأما مصر أيام يوسف ، فهي مدينة « صَوْعَنْ » ويقال لها « تانيس » ، وهي التي كانت عاصمة المملكة للسلالة السابعة عشرة من سلائل الهكسوس الثلاث ، وهي في بحرية مصر الحالية ، ويسميها اليونان « طانس » وتسمى اليوم « صان » وكانت على فرع النيل الطائي ، وإلى شرقيهـا سهل متسع يسمى بلاد « صوعن » وهذا السهل هو البلاد الشرقية ، بلاد « جاسان » التي سكنتهـا بنو اسرائيل ، (فصوعن) هي عاصمة مصر السفلى ، أيام الرعاة ، وبسط المقام إن كلمة « مصر » بحسب الأصل عبارة عن وادي النيل ، وقد تطلق هذه الكلمة ويراد بها خصوص العاصمة ، وعاصمة مصر السفلى في ذلكم العصر عصر الهكسوس كانت (صوعن) فإذا أريد من كلمة « مصر » في هذه الآية خصوص تلك العاصمة ، كان اللفظ مجازاً، من قبيل تسمية الجزء باسم الكل ، وهذا كما يطلقون اليوم كلمة « مصر » على خصوص « القاهرة » عاصمة مصر اليوم ، وكلمة « الشام » على « دمشق » عاصمة الشام اليوم .

ومما يجب أن يعلم أن « مصر القاهرة » إنما بنيت ووجدت أيام « معز الدين الفاطمي » (سنة ٣٥٠ ب. هـ) بيد جوهر الرومي القائد.

(حسن جداً)

(وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه)

- ٣ -

وقال السيد الكلسي (١) :

شيء جديد عن حياة يوسف

انتقل يوسف الآن إلى طور آخر من أطوار الحياة ، ولم يعد ذلك الإنسان المهين المثوى ، ذلك الانسان الجالس في « سوق الرقيق » ذلك الانسان المزهود فيه . لا .. لا .. بل صار ذلك الانسان الكريم المثوى ، ذلك الانسان المقيم في قصر « العزيز » مرغوباً فيه ، محبباً مرجواً .

وبهذه المناسبة يخالج نفسي بضع مقولات لها علاقة بهذا البحث أرجو أن تلقى أذناً صاغية من حضراتكم :

مصر مهبط الأنبياء والأولياء

المقولة الأولى — بمناسبة رحلة يوسف الصديق الى مصر نقول إن مصر كانت مهبط الأنبياء والأولياء من القرون الأولى ، اليها قدم إبراهيم الخليل وزوجه سارة في فجر التاريخ ، وفيها بلغ يوسف شأوه الأعلى وتولى خزائن البلاد ، وإليها هاجر أبوه يعقوب ومعه أسرته جميعاً ، وفيها تكاثر بنو اسرائيل ، وفيها ولد هرون وموسى ، وإليها قدم المسيح في طفولته مع أمه ورجلها يوسف النجار — فيا يقولون — وفيها مراقد آل البيت النبوي الشريف — حسب المشهور —

(١) نسبة الى كلس وهي اليوم في بلاد الاتراك ..

وفيها أثر النبي موسى في كنيس الاسرائيليين بمصر القديمة ، فان الاسرائيليين يعتقدون أن النبي موسى أدى فرائض الصلاة في هذا المكان ، وفيها الامام الليث ابن سعد ، والامام محمد بن إدريس الشافعي ، فأرضها غنية بتلك الذكريات الدينية والآثار المقدسة.

منزلة المرأة عند قدماء المصريين وعند الشرقيين

المقولة الثانية – يظهر من الآية الكريمة أن المصريين في ذلك العصر – وهم شرقيون – كانوا يحترمون (المرأة) ، ويعتبرون أنها ذات الحول والطول ومصدر العمل البيتي ، وأنها ليست في بيتها متاعاً لا قيمة له ، ولا أنها في البيت (أداة) غير عاملة ، ولا أنها فيه تحت رحمة زوجها ، مسلوبة الحرية والإرادة ، بل إنها كانت عاملة آمرة ، ذات سلطان ، ولها قيمة معترف بها ، نعم . نعم . لقد كان للمرأة عند المصريين القدماء مقام ممتاز ، فكانت تعقد العقود ، وتقوم بالأعمال التجارية ، وتنهمك في الأمور السياسية ، ويقول بعض العلماء : « إن الله عندما أراد أن يخلق حواء من آدم ، لم يخلقها من عظم رجله ، لئلا يدوسها ، ولا من عظم رأسه ، لئلا تسود عليه ، ولكن خلقها من ضلع من أضلاعه ، لتكون مساوية له ، قريبة من قلبه » ، وقال آخر : « المرأة حلقة عظيمة في سلسلة الحياة الوطنية ، وهي أعظم شأناً وأهم عملاً من الرجل المدرّب ، ومن مدير الأعمال العظيمة ، ومن الاستاذ في العلوم والفنون » وقال ثالث : « المال كله من الرجل ، ولكن كله للمرأة » .

وغني عن البيان أن فوطيفار شرقي ، وقد لفظ بالوصاة الآنفة الذكر إلى قرينته زليخا ، التي تشف عن اعتبار (المرأة) ، ومن ههنا نعلم أن الغربيين يظلمون الشرقيين في زعمهم أن الشرقي كان ولا يزال ينظر إلى المرأة نظرة استخفاف أو إهانة ، فإننا نرى هذه الآية تفيد عكس ما يزعمون ، فهي تشير إلى أن (الشرقي)

كان يحترم المرأة ويراعي عواطفها ، وربما أكثر من الغربي ، فالغربي ، اليوم مهما بلغ من احترام المرأة ، ومهما حرص على مراعاة إحساساتها ، لا تراه يتنازل لدرجة أنه إذا استأجر خادمة مثلاً يقول لامرأته : « أكرمي مثواها » ولو فرض أنه تنازل وقال لها ذلك ، فهو يقوله قولاً جامداً جافاً خالياً من بيان العلة ، ولا يرى نفسه في حاجة أن يذكر لزوجته علة إكرام تلك الخادمة ، كما فعل هذا الشرقي فوطيفار .

منزلة المرأة عند العرب

وهكذا كانت معاملة أكثر العرب للمرأة ، إذ أن من أسمائها عندهم (أم المثوى) ، وفي الحديث الشريف : « المرأة سيدة بيتها » و « رفقاً بالقوارير » يعني النساء « والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها » ، وإنّا إذا أردنا أن نستقي معاملة رجال العرب لنسائهم ، وجب علينا مراجعة أشعارهم التي هي ديوان أخبارهم ، فنرى أنهم كانوا ينظرون إلى المرأة نظر احترام ، فقد كان الرجل إذا أراد أن يتمدح بما لـهُ في نظر العرب من المقام السامي ، ومن الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في أكثر أوقاته إلاّ (المرأة) التي إذ ترقّ في نظرها ، فقد رضي عنه كل الناس ، وترى ذلك واضحاً جلياً في أشعار حاتم الطائي شيخ الكرام ، وعنترة العبسي شيخ الشجعان ، ثم انظر إلى أي شجاع من العرب هل كان يفتخر إلاّ محدّثاً امرأة من قومه بأنه المدافع عن الشرف ، الحامي للحقيقة ؟ ترى العربي إذا عذلته المرأة على السرف ، وأشارت عليه بالقصـــــد ، يجيبها بأرق ما يجيب به مخالف في الرأي فيقول :

ألم تعلمي ـ ياعمّـركِ اللهـ أنني كريم على حين الكرام قليلُ

ويقول المفتخر بالشجاعة :

هلاّ سألتِ الخيل يا ابنة مالك ... إنْ كنتِ جاهلة بما لم تعلمي ؟

أوَ لا ترى أن جميع الشعراء إذا بدأوا قصائدهم التي بها يفتخرون بمحامد قومهم ، وعظيم اعمالهم ، لا يذهبون إلى شيء من ذلك حتى يعطوا (المرأة) قسطها مما تحب من النسيب أو الغزل ، ويرون أن شعرهم بدون ذلك يفقد الطلاوة المقبولة . وتراهم حينما يخاطبونها . وهي ذات زوج يلقبونها بخير الألقاب ، فيقول أحدهم :

يا ربة البيت قومي غير صاغرة ... ضمي إليك رحال القوم والقربا!

فإعطاؤها هذا اللقب الجميل يشعر بما كان لها في النفس من سمو الدرجة .

ويقول الآخر لزوجه :

سلي الطارق المعترّ ياأمّ مالك ... إذاما أتاني بين قدري ومجزري

أيسفر وجهي وهو أول للقِرى ... وأبذل معروفي له دون منكري

فلا يناديها إلا بكنيتها ، وهذا من سمات التشريف في عرفهم .

وقال ابن المغيث :

لا تعذليني فيما ليسَ ينفعُني ... إليكِ عني جرى المقدار بالقلم

سأتلف المالَ في عُسْرٍ وفي يُسْرٍ ... إن الجواد الذي يعطي على العدم

وبالجملة فإن المتتبع لأشعار العرب لا يشتم منها رائحة الصغار والإهانة للمرأة بل بالعكس يجد فيها علائم التجلة والتشريف وتراهم يفخرون بنسبتهم إلى أمهاتهم، كما يفخرون بنسبتهم إلى آبائهم ، وترى الواحد منهم يتكنى بأول مولود يرزقه ، لا يفرق بين ذكر وأنثى ، وقد عرفنا كثيراً في عرب « بئر السبع » ممن يتكنى باسم بنته ، فيقال له « أبو زينب » ، ويقال لآخر « أبو مبروكة » و كانت المرأة عند

العرب ، إذا أرادت فرقت ، وإن شاءت جمّعت ، وإن اتجهت عواطفها للسلام سعت إليه ونجحت ، وإن كانت وجهتها إرادة الانتقام والشر ، أشعلت النار بين الأحياء .

وإليكم هذه الحكاية التاريخية التي هي عجيبة في بابها ، وعجيبة جداً :

قال «الحارث بن عوف المُرّي»، «لخارجة بن سنان»في إبان الحرب بين عبس وذبيان : « أتراني أخطب إلى أحد فيردني ؟ ـ قال : نعم ، « أوس بن حارثة الطائي»ـ فقال الحارث لغلامه: هيء لي مركباً،ثم ركب هو وغلام،ومعهما «خارجة»حتى أتيا « أوساً » ، فوجداه في داره ، فلما رآى (الحارثَ) رحب به ، وسأله عن مجيئه، فقال : جئتك خاطباً ـ فقال « أوس » : لستَ هناك ، فانصرف الحارث ولم يكلمه ، ثم دخل أوس على امرأته مُغضَباً ، وكانت من « عبس » ، فقالت له : من الرجل الذي وقف عليك فلم تطل ولم تكلمه ؟ ـ قال : ذاك سيد العرب «ابن عوف » ـ قالت فما لكَ لم تستنزله ؟ ـ قال : إنه استحمق، جاءني خاطباً ـ قالت : أفتريد أن تزوج بناتك ؟ ـ قال : نعم ـ قالت : فإذا لم تزوج سيد العرب فمن ؟ ـ قال : هكذا كان ، ـ قالت : « فتدارك ما كان منك ، فالحقه وقل له : إنك لقيتني ، وأنا مُغضَب ، وكلمتني بأمر لم تجعل له بساطاً قبل ذلك ، فلم يكن عندي من الجواب إلا ما قد سمعت ، فارجع إليّ ، ولك عندي كل ما أحببت ، فإنه سيوافيك » ففعل ذلك « أوس » ، وردّ « الحارث » ، فلما وصلوا إلى بيت أوس ، قال أوس لزوجه ، ادعي لي فلانة ، لكبرى بناته ، فأتته ، فقال : يابنية ، هذا « الحارث بن عوف » ، سيد من سادات العرب ، وقد جاءني طالباً خاطباً ، وقد أردت أن أزوجك منه ، ـ فقالت : لاتفعل ، لأني امرأة في وجهي ردة (١) ، وفي خلقي بعض العُهدة (٢) ، ولست بابنة عمه ، فيرعى رحمي ، وليس

(١) الردة بثور فيها قيح (٢) العهدة ضعف في العقل .

بجارك في البلد ، فيستحي منك ، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني، فيكون عليّ في ذلك ما فيه . — قال : قومي بارك الله فيك ، ثم دعا الوسطى ، فأجابته بمثل جوابها ، وقالت : إني خرقاء ، وليست بيدي صناعة ، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني ، فيكون عليّ في ذلك ما تعلم ، ثم دعى الثالثة ، وهي صغراهن ، فلما عرض عليها قالت : « أنت وذاك » ، فأخبرها بإباء أختيها ، فقالت : « لكني والله الجميلة وجهاً ، الصناع يداً ، الرفيعة خلقاً ، الحسيبة أباً ، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه بخير » ، فزوجها الحارثَ ، وهيئت إليه في بيت أبيها . فلما خلا بها ، وأراد أن يمد يده إليها ، قالت : « مـــه » أعند أبي وإخوتي ؟ هذا والله مالا يكون ؛ فارتحل بها حتى إذا كان ببعض الطريق ، أراد قربانها ، فقالت : أكما يفعل بالأمة الجليبة ، أو السَّبيّة الأخيذة ؟ . . لا والله حتى تنحر الجزر ، وتذبح الغنم ، وتدعو العرب ، وتعمل ما يعمل لمثلي ، فرحل حتى إذا وصل ديار قومه ، أعدّ لها ما يعد لمثلها ، فلما أراد قربانها قالت له : أتفرغ لنكاح النساء ، والعرب تقتل بعضها ؟ اخرج الى هؤلاء القوم ، فأصلح بينهم ، ثم ارجع الى أهلك ، فلن يفوتك ؛ فخرج « الحارث » مع « خارجة بن سنان » ، فأصلحا بين القوم ، وحملا الديات ، وكانت ثلاثة آلاف بعير ، مقسطة على ثلاث سنين .

فهذه الحكاية تدل على مكانة (المرأة) في نظرهم ، ومشاركتها لهم في جميع أمورهم ، وتبين كيف كان الرجل لا يزوج بناته ، إلا بعد أن يستشيرهن ، ثم يقف عند إرادتهن ، نعم ، نحن لا يمكننا أن ندعي أن هذا كان أمراً عاماً عندهم، بحيث تكون (المرأة) محترمة الجانب في جميع الطبقات ، تعامل هذه المعاملة من جمهور الأمة ، ولكن الذي يمكننا أن نقوله : هو إن ظهور هذه المعاملة على ألسنة الشعراء الذين هم بمثابة لسان حال الأمة من غير أن يقابلوا بالنكير ، يدل على أنه لم يكن عندهم بدعاً من العمل ، بل كان شيئاً معهوداً لا تنفر منه طباعهم .

يوجد بيننا حقيقة من يحترم المرأة احتراماً جماً ، ولكن لا يجسر أن يخالف التقاليد العامة يوماً ما ، فيكتب في إحدى الجرائد : قلت لامرأتي ، واستشرت امرأتي في زواج بنتي ، فكان مني ومنها كيت وكيت ، ولا يجسر أحد أن يقول على صفحات الجرائد : لا تلوميني يا امرأتي على بذلي الأموال لأني طبعت على الكرم ، أو يقول : قومي ياسيدة بيتي مرجوة غير مأمورة ، هيئي لنا الطعام مثلاً — كما وقع كل هـــذا من العرب ، فنحن نعلم يقيناً أن شخصاً لو قال شيئاً من هذا القبيل ، لقابلته النفوس بالاستنكار ، لأنه ليس من مألوفات عادات القوم ، ومن ذلكم يمكننا أن نقول : إن المرأة الشرقية كان لها من حرية الارادة ونفاذ القول القسط الوافر .

منزلة المرأة في الإسلام

والشريعة الاسلامية هي الشريعة الوحيدة التي رفعت شأن النساء وأعطتهن حقوق الاستقلال التام في التصرف بأموالهن ، وساوت بينهن وبين أزواجهن في أكثر الاحكام بالمعروف ، إلا رياسة المنزل وزعامة الأسرة ، وقد هتف القرآن بمجد المرأة قائـــلا : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزواجاً ، لِتَسْكُنُوا اليهـا ، وَجَعَلَ بينكم مَوَدَّةً ورحمةً ﴾ (٣٠ : ٢١) وان كلمة وجيزة من كلمات القرآن الحكيم في ذلك ، لأبلغ من كثير من الأسفار التي ألفت في المطالبة بحقوق النساء أو ما يسمونه « تحرير المرأة » ، الاوهي قوله عز وجل : ﴿ ولَهُنَّ مِثلُ الذي عليهنَّ بالمعروف ﴾ (٢ : ٢٢٨) وأما قوله : ﴿ وللرجالِ عليهنَّ درجةٌ ﴾ (٢ : ٢٢٨) فإنما هي درجة القوة ورياسة البيت التي أعطيت للرجل بحق ، لأنه أقدر على الكسب والحماية ، وهو المطالب بجميع النفقة ، وقال تعالى : ﴿ وعاشِروهُنَّ بالمعروف ﴾ (٤ : ١٨) .

كما ذكر في آية أخرى ساوى بينها وبين الرجل في جميع الأوامر والنواهي الدينية : ﴿ إنَّ المسلمين والمسلماتِ ،والمؤمنينَ والمؤمناتِ ،والصادقينَ والصادقاتِ والصابرين والصابراتِ ، والخاشعين والخاشعاتِ ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فُروجَهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكراتِ ـ أعدَّ اللهُ لهم مَغفرةً وأجراً عظيماً ﴾ (٣٣ : ٣٥) ، وقال جل ثناؤه : ﴿ إنّي لا أُضيعُ عَمَلَ عاملٍ منكم مِنْ ذكَرٍ أو أنثى ﴾ (٣: ١٩٥) فعلَّمَ الرجال أنها مِثل له في الآخرة ، كما هي في الدنيا ، ولا امتياز بينها في ذلك، ويقول تعالى في الزوجين : ﴿ فإنْ أرادا فِصالاً عن تراضٍ منهما وتشاوُرٍ ، فلا جُناحَ عليهما ﴾ (٢ : ٢٢٣) إذ اعتبر في إرضاع الولد وفطامه تراضي الوالدين وتشاورهما ، ولم يكتف برأي الزوج فقط ، ولا يخفى ما في هذه الآيات الكريمة وغيرها من اعتبار المرأة واحترام حقها ، ومعاملتها بالاحسان والمعروف ، وقد اهتدى كثير من الأمم ، ببعض هدي هذه الشريعة ، في هذه المزية ، ولم يبلغ أحد منهم شأوها ، ولكن أهلها قصروا في إقامتها ، حتى صاروا ـ مع الأسف ـ حجة عليها عند من يجهلها .

وفي الحديث الشريف : «أكمل المؤمنين إيماناً ، أحسنهم خُلُقاً ، وألطفهم بأهله »وفيه« خياركم خياركم لنسائكم»،وفيه أيضاً«استوصوا بالنساء خيراً»وفيه«المرأة راعية في بيت زوجها،وهي مسؤولة عن رعيتها » وفي لفظ « المرأة سيدة بيتها».

ومن أعجب المصادفات أن ينعقد مجمع « ماكون » في « فرنسة » في زمن النبي ﷺ أي في سنة ٥٨٦ لميلاد المسيح ، ويبحث هل المرأة إنسان ؟ .. هل لها نَفْس ؟ ... ثم قرر أن لها نفساً وانها إنسان ، لكنها خلقت لخدمة الرجل ، ولم يكد يصدر قرار المجمع هذا ، حتى نقضه النبي ﷺ في الحجاز ، ورفع صوته

قائلاً : « إنما النساء شقائق الرجال » وقائلاً : « يغلبن كريماً ويغلبهن لئيم » ثم لم يكن احترامه ﷺ للنساء والحض على احترامهن بالقول فقط ، بل دعم ذلك بالفعل ، إذ أنه كان ﷺ يضع ركبته على الأرض ، لتضعَ زوجته عليها رِجلَها إذا أرادت أن تركب ، وهذا أبلغ ما يكون في الاحترام وحسن المعاملة .

وحكى لنا المؤرخون ومنهم « ابن جرير » أنه استأذن رجل على « عمر » (ض) فدخل بيته وقت الغداء ، فقال عمر : (يا أم كلثوم غداءنا) ، فأخرجت اليه خبزة بزيت ، في عرضها ملح لم يدق فقال : يا أم كلثوم ، ألا تخرجين الينا ، تأكلين معنا من هذا ؟.. ـ فقالت : إني أسمع عندك حس رجل ـ قال : نعم ولا أراه من أهل البلد ـ قالت : لو أردتَ أن أخرج إلى الرجل لكسوتني ، كما كسا (ابن جعفر) امرأته ، وكما كسا (الزبير) امرأته ، وكما كسا (طلحة) امرأته ـ قال : أو ما يكفيك أن يقال : أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب ، وامرأة أمير المؤمنين عمر ؟ ثم قال للرجل : « كُلْ » ، فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا » .

فهذه الحادثة تبين كيف كانت (المرأة) في صدر الإسلام ، فقد كانت أم كلثوم صاحبة الرأي الأعلى في بيت أمير المؤمنين ، وكانت المرأة تتكلم في شأن نفسها ، كما يتكلم أعظم الرجال نفساً ، ولي الشرف أن أقول ذلك كشرقي يدافع عن شرقه بأنه يحتقر المرأة والعياذ بالله .

(تصفيق حاد من المقصورة التي فيها السيدات)

أخطاء فوطيفار

المقولة الثالثة ـ طلب فوطيفار من زليخا العناية بيوسف ، لأن المرأة في بيتها ـ الذي هو مملكة صغرى ـ إدارة ووزارة الداخلية والمعارف ، كما ان للرجل

ولو أن أمراء المصريين ، ومنهم فوطيفار ، ولو أن علماء مصر ، ومنهم كهنتها رجال الدين ، ولو أن نساءها ومنهن زليخا امرأة العزيز ـ لو أن هؤلاء الجراثيم الثلاث ، التزموا طريق الهدى ، وقاموا بواجبهم في مثل هـــذه الحادثة ، فمنعوا استرقاق الأحرار واستخدام الشبان داخل البيوت ، لما وقع هذا الحادث وأمثاله .

المثوى

المقولة الرابعة ـ المثوى والثّواء والمحلّ والمأوى والمغنى والمنتدى والمتبوّأ والمباءة والمكان والمعرّس والمقام والنُزُل والسَّكن والنادي والنّديّ ـ كلها تقريباً بمعنى واحد ، فمعنى « أكرمي مثواه » اجعلي منزله ومُقامه عندنا كريماً ، أي حسناً مرضياً ، بدليل قوله : « إنه ربي أحسن مثواي » والمراد تفقديه بالإحسان وتعهديه بحسن الملكة حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا ، ساكنة في كنفنا ، ويقال للنزيل : كيف أبو مثواك وأم مثواك ؟ يُسأل بذلك أصحاب البيت الذي نزل فيه يراد هل طابت نفسك بثوائك عندهم ، وهل راعَوا حق نزولك بهم ؟

مرادفات كلمة مصر

المقوله الخامسة ـ يقال لمصر « أم خنُّور » والخنور الداهية والنعمة ضـد ، و « الكنانة » ، و « مصرايم » أخذاً من مصرايم بن حام، ويقال لها « أرض حام» و « رَهب المتكبر » ، وأما اسمهـا القبطي فهو « خيمي » أي أسود ، آخـذاً من لون تربتها .

وأما كلمة « ايجبت » اللاتينية ، فمأخوذة من لفظ « القبط » أو بالعكس .

(مرحي مرحي)

(عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً)

— ١ —

قال حمدي باشا الانطاكي [١] :

وصية فوطيفار لزوجته

تفرس فوطيفار في يوسف فوجد أن له غنَاء فيا يسند إليه ، وكفاية فيا يقلد إياه ، فكان يتنازعه عاملان ، قائمان عنده مقام الاحتمال ، فهو يتراوح بينها ، وهما فكرة اتخاذ يوسف كخادم ممتاز ، وفكرة تبنيه ، فلذلك يوصي زوجته زليخا به قائلاً : ما أحوجنا إلى خادم كهذا الغلام ، وما أحوج هذا الغلام إلى أناس مثلنا ، ليس لهم ولد ، يعيش عندهم بالراحة والرفاه ، وتعلمين إنه لا تتكون أخلاق الفتى في عهد طفولته . أو في عهد شيخوخته ، بل في عهد شبابه ، فإذا ربيته تربية حسنة ، وكفلتيه كفالة صالحة ، وهذبته تهذيباً حسبما أريد منك ، بعد قليل من الزمن نجد فيه عبداً خادماً أميناً ، يقوم بمصالحنا ، ويحمل عنا شيئاً من أعباء هذه الحياة ، أو نجد فيه لنا ولداً مطيعاً ، نكون بجنبه كأب وأم ، ويكون لنا قرة عين في الحياة ووارثاً وذكراً بعد المات ، بحيث يحسب من أسرتنا ، وله ما للولد من الإرث والنصر والمحبة ، وعلى أولاد الصلب السلام .

ويلاحظ أن فوطيفار لم يكتف بتوصيته زوجه وصية مجردة عن الحكمة والعلة ، بل أردفها بأن بين لها السبب الدافع له على هذا الأمر ، وهو لطف منه

(١) نسبة الى انطاكية من بلاد الشام (سورية).

ينبىء عن أن المصريين ـ ولا سيما كبراؤهم ـ كانوا أهل لطف مع أزواجهم ،أهل لين ورفق ، حتى إذا أرادوا منهن شيئاً ، لم يقتصروا على الأمر الجاف اليابس ، سواء أَفَهِمْنَ حكمته أم لا ، بل كانوا يبينون لهن علته وثمرته ، وهذا من الواجبات الأدبية الاجتماعية .

يوسف وكيل فوطيفار

وقد تمّ ما توسمه فوطيفار في يوسف بأجلى مظاهره فإن يوسف نفع فوطيفار نفعاً عظيماً ، فنجح في بيت سيده نجاحاً باهراً ، وكان الله معه في كل ما يفعل بالتوفيق والسداد ، وكان علة بركة ونجاح لسيده ، فوكّله على جميع أمور بيته ، ودفع ليده كل ما كان له ، فحصلت من جراء ذلك البركات في واردات فوطيفار ، وتدفقت لأجل يوسف الخيرات ، ثم نفعه وعقيلته بسلوكه معها بالأمانة والشرف والطهارة ، وعدم خيانته له في عقيلته ، ثم إنه قام بنفع عام حينما أسند لعهدته « نظارة بيت المال » بمصر، وصار « عزيزاً » فخدم بذلك مصر والمصريين ،وأخيراً نفع المصريين بما أجرى الله على يديه من هداية وارشاد ، إذ أرسله الله إليهم نبياً ورسولاً (٤٠ : ٣٤) .

امرأة العزيز تنفذ وصية زوجها بيوسف

وأما زليخا زوجة فوطيفار ، فقد عملت بوصاة سيدها ، وأكرمت يوسف أيّما إكرام ، ورفهته أيّما ترفيه ، ولكن ربما كان في ذينك الإكرام والترفيه يد خفية للغرام المنبعث في أنحاء نفسها ، سيما لأنها حينما نظرت إلى يوسف ، وقع من نفسها ، وملك عليها جميع مشاعرها ، وحل من قلبها محلا لم يحله أحد من قبل، نظرته فاذا هو حسن الصورة بحيث ما كانت تظن أن الأرض تنبت مثله ، نظرته

فإذا هو صبيح مع جاذب وحلاوة يندران في البيض ، ولهذا وقع كلام سيدها في أذنها وقوع الماء على قلب الظمآن ، برداً وسلاماً ، وكأني بها قالت له : لبيكَ لبيكَ أمرك مطاع ، ووصاتك نافذة .

وقد اغتبطت زليخا بتلك الصلة التي نشأت بينها وبين هــــذا الفتى العبراني ، بوجوده في قصرها كعبد وخادم لها ولسيدها ، وبودها لو استحالت تلك الصلة إلى صلة أخرى غيرها ، أدنى إلى نفسها وألصق بفؤادها . ولكن لطهارة هـذا الفتى العبراني وعفته لم يتم لها ما أرادت .

وهنا لا بد لي من الجهر قبل مغادرة هذا المنبر الحر بأن أخالف بعض إخواني الحاضرين في كلمة ، وهي أن تسليم سياسة الخدم والعبيد لسيدة البيت هو أساس التعب والبلاء ، وعندي أن المسئول عن حادثة « زليخا » المشئومة والمسبب لها ابتداء هو سيدها « العزيز » وهكذا يخطىء ذوي البيوتات الكبيرة في إباحتهم اختلاط خدمهم وعبيدهم لا سيما البيض بنسائهم فهو أمر مخالف للدين والشرف والمروءة ، رضوا بهذا التعبير أم غضبوا ، فرضاؤهم شرف وغضبهم شرف !..

(عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً)

— ٢ —

وقام عبد الكريم الادلبي (١) وقال :

سأقتصر الكلام هنا على أمرين :

المقصد من استعمال حرف « أو » في قوله « أو نتخذه ولداً »

الأمر الأول ـ هو ان حرف (أو) في قوله « أو نتخذه ولداً » ليس لمنع

(١) نسبة الى ادلب من بلاد الشام (سورية)

الجمع ، بل لمنع الخلو ، كما في قولك : « جالس الحسن أو ابن سيرين » ، أي لا يخلو من أحد هذين الأمرين ، فلا ينافي أنه يجوز اجتماعهما فيه في آن واحد ، فقد ينفهم مع اتخاذهم إياه ولداً .

الظهار والتبني عند المصريين وفي الاسلام

والأمر الثاني ـ هو أن عبارة « أو نتخذه ولداً » ظاهرة في أن التبني كان مشروعاً عند المصريين ، كما كان عند العرب قبل الإسلام ، وفي صدر منه ، ثم نهى عنه الإسلام وحرمه ، قال تعالى : ﴿ ما جَعَلَ اللهُ لرجلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ في جَوْفِهِ ، وما جَعَلَ أزواجَكُم اللائي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُم ، وما جَعَلَ أدْعياءَكُم أبناءَكُم ، ذلِكُم قولُكُم بأفواهِكُم ، واللهُ يقولُ الحقَّ ، وهو يَهْدِي السبيلَ ، ادْعُوهُم لآبائِهِم هو أقْسَطُ عندَ اللهِ ، فإنْ لم تَعْلَمُوا آباءَهُم فإخوانُكُم في الدِّينِ ومَوالِيكُم ، وليسَ عليكم جُناحٌ فيما أخْطأتُم بهِ ، ولكنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلوبُكُم ، وكانَ اللهُ غفوراً رحيماً ﴾ (٣٣: ٤و٥).

فالآية تنص على أنه كان يوجد عند العرب شيئآن : الأول الظهار ، والثاني التبني ، فالكتاب يقول : إن قلباً واحداً لا يمكن أن يتصور أن أنثى واحدة هي في آن واحد زوجة وأمّ لشخص ما ، لأنه تناقض ، وكذا يستحيل أن يتصوّر القلبُ الواحدُ أن غلاماً هو عبد وابن في آن واحد ، لأنه تناقض ، وبناء عليه فهذا القول إنما هو قول لسانيّ لا قلبيّ ، أي لا يمكن للانسان أن يعتقده بقلبه ، إذ لا يجمع في القلب بين المتناقضين ، نعم ، لو كان للانسان قلبان ، لأمكن أن يعتقد كل قلبٍ بعقيدة تضادّ العقيدة الأخرى ، فقوله تعالى : ﴿ ما جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ في جَوْفِهِ ﴾ ليس معناه أن العرب كانوا يعتقدون هذه

العقيدة .. لا .. وإنما يؤتى بهذا القول في بدء الكلام ، إذا كان بعده شيء متناقض لا يمكن أن يدخل في العقل الواحد . (حسن)

(وكذلك مكنا ليوسف في الأرض)

— ١ —

وقام فضل الله الاسكندري (١) :

تمكين يوسف الأول

أولاً ـ تعليقاً على قوله « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض » فيه اشارة إلى ما تقدم من إنجاء يوسف وعطف قلب العزيز عليـــه ، والكاف من (كذلك) منصوب تقديره : ومثلَ ذلك الانجاء والعطف ، مكنا ليوسف في هذه الحياة الجديدة ، حياة وجوده كمملوك في بيت عزيز مصر ، لأنه أصبح أثيراً عند فوطيفار وزليخا ، مكث عندهما في مأمن من الغوائل والحسدة ، مرتاح الضمير ، وملك ثقة سيده ومحبة سيدته ، وهذا هو عصره الفضي ، وكان هـذا التمكين لأول مرة عشر سنين ، من حين أن كان عمره (١٧) سنة إلى أن بلغ من السن (٢٧) سنة ، وأما عصره الذهبي ، فانما ابتدأ بعد جلوسه على كرسي « وزارة المالية » وعهد مليك مصر له بالوكالة المطلقة .

كان في عصره الأول ، وهو موضوع حديثنا الآن قرير العين ، رفيع الجناب ، قد دفع كل شيء ليده ، مع أنه وجد في بلاد غريبة ، ومملكة غير مملكته ، وعند قوم لا يعرف سُنَنَهُم ولا شِيَمَهم ، مع افتراق الأديان وتباين الأشكال ، ومنافرة المذاهب ، ومع كل هذا كان النجاح في أعماله ، ألصق به من ظله ، وأسرع إليه من الماء إلى منحدره .

---

(١) نسبة الى الاسكندرية من البلاد المصرية .

كان هذا التمكين الأول آخر عهد يوسف بحياته القديمة ، وأول عهده بحياته الجديدة ، وحياته القديمة هي حياته في حضن أبيه في بادية فلسطين ، مرؤوساً بين إخوته ، وحياته الجديدة هي حياته في قصر فوطيفار في حاضرة مصر ، رئيساً بالوكالة عنه في كل أشغاله .

ثانياً — رب سائل يقول ما هذا التمكين الذي كان عبارة عن وجوده عبداً في بيت فوطيفار ثم تلته محنة ، ثم تلاه السجن بضع سنين؟ فالجواب هو رب محنة في وسطها منحة ، فلولا هذه العبودية لما كان مجال المحنة ، ولولا هذه المحنة لما كان هذا السجن ، ولولا هذا السجن لما عرفه رئيس السقاة ، ولولا رئيس السقاة ماعرفه ملك مصر ، ولولا ملك مصر ، ما صار يوسف على خزائن الأرض ، ولا صار (عزيز مصر) ولا وكيلاً مطلقاً عن مليكها الريان ، فهذه الأدوار كلها حلقات متلاحمة شكلت سلسلة نشأ عنها تمكين يوسف في الأرض .

ثالثاً — يتعدى التمكين باللام وبنفسه ، فيقال : « مكّن له في الأرض » : جعل له فيها مكاناً ، ونحوه : أرّض له ، جعل له أرضاً ، ويقال : مكّنه في الأرض ، أي أثبته فيها ، والتحقيق أن معنى مكّنه في الأرض أو في الشيء : جعله متمكناً من التصرف ، تامّ الاستقلال فيه ، وأما مكّن له ، كما في هنا وكما في قوله تعالى في ذي القرنين : ﴿ إنّا مكّنّا له في الأرض ﴾ ، (١٨ : ٨٥) . فهو على تقدير المفعول المحذوف ، كأن يقال : مكنا ليوسف ولذي القرنين في الأرض جميع أسباب الاستقلال في التصرف ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لهم دِينَهُمُ الذي ارتَضَى لهم ﴾ ، (٢٤ : ٥٥) وقوله تعالى ﴿ أوَلَمْ نُمَكِّنْ لهم حَرَماً آمِناً ؟ ﴾ (٢٨ : ٥٧) ومعناه أنه يمكن لهم جميع شعائر دينهم ، يتظاهرون بها كما يشاؤون ، ويمكن لهم جميعَ جهات الحرم يمشون في أي جهة

أرادوا ، في هذا التعبير من المبالغة والاتساع ما لا يوجد في التعبير الأول ، وقيل: ان مكنّه ومكن له كوهبه ووهب له ، وقال أبو علي : اللام زائدة ، كرِدف له .

رابعاً — وقعت جملة « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض » في هذه السورة مرتين ، فقيلت فيه أولاً ، باعتبار وجوده في بيت العزيز وكيلاً عنه في أشغاله ومحبوباً منه جد الحب ، وقيلت فيه ثانياً ، باعتبار وجوده في البلاط ناظر مالية ، ومحبوباً جـد الحب من الملك الريان ، فالتمكين الأول خاص ، وبطريق التبعية لعزيز مصر فوطيفار ، لأن نَفَس العبد من نَفَس سيده ، فكان يوسف يتجول في مستعمرات سيده ، ويأمر الزراع وينهاهم ، ويحل ويربط ، على حساب سيده (العزيز) وبهمته ونفوذه .

تمكين يوسف الثاني

واما التمكين الثاني فقد كان عاماً في كل المملكة الهكسوسية ، وبطريق الاصالة ، ولذلك أتبعه بقوله تعالى : « يتبوأ منها حيث يشاء » لأنه هو بذاته صار « العزيز في مصر » مع « وزارة المالية » ومع الوكالة المطلقة عن الريان ، وههنا نكتة يجب الانتباه اليها ، هي أن التمكين الأول ، كان ناشئاً عن إلقاء الله محبة يوسف في قلب « عزيز مصر » وأما التمكين الثاني ، فكان ناجماً عن إلقاء الله محبة يوسف في قلب « مليك مصر » ، فالأول تمهيد للثاني ، والثاني أقوى وأمتن من الأول ، واسع جداً وأطلق حرية ، وإن شئت قلت : إن التمكين الأول كان نواة لشجرة التمكين الثاني ، « وأول الغيث قطر ثم ينهمل » .

(ولنعلمه من تأويل الأحاديث ...)

-١-

قال الشهاب الحيفاوي(١).

تعليم يوسف

كأنّ العناية الالهيّة رأت أن يوسف بحسب السُّنن الجارية يحتاج في تعلمه علوم الاجتماع ، والعلوم الكونية ، والعلوم السياسية ، والعلوم المدنية ، ومبادلة الكلام ، والأخذ والرد ، والقبول والرفض ومصائر الكلام ومراميه وعواقبه و .. و .. الخ الخ ، فحضرّ سبحانه وتعالى الأسباب التي اقتضت ذهابه لأرقى مملكة في العالم إذ ذاك . ليتعلم فيها ما ذكر وما إليه مما تتوقف معرفته على وجود الانسان في محيط راق .

ومما لا مشاحة فيه أن كل إنسان يكتسب العلم من ثلاثة ينابيع الارث والمحيط والتجارب ، فمن يعقوب وفرط ذكائه وقوة مداركه قد انتقل شيء منه لولده يوسف بطريق الارث ، فاخذ منه نصيباً مفروضاً ، ووجود يوسف في محيط كمصر أكسبه مبلغاً عظيماً من الفهم والنبل والثقافة المصرية ، لأن مصر إذ ذاك كانت أرقى الممالك المجاورة لها ، كالكلدان واليونان وأشور وآرام ونحوها ، وقد حكى لنا التاريخ أن اليونان تلاميذ مصر وعالة عليها في المدنية ، والرومان تلاميذ اليونان . ثم صار العرب تلاميذاً للرومان واليونان والفرس ، وصارت أوربا تلميذة للعرب ، فاساس المدنية والرقي والمعارف هو مصر ؛ وتجارب يوسف واحتكاكه

---

(١) نسبة الى حيفا من بلاد فلسطين

بذاك المجتمع الراقي زاده فضلاً على فضل ، وجعله يضم الى التالد طريفاً ، فقوله تعالى : ﴿ ولنعلمه الخ ﴾ معناه لنضم لعلمه المطبوع ما يزيد من العلم المسموع ، وما لبث سبحانه أن وفىّ بما وعد فعلّمه من تأويل الأحاديث ما تطرب اليه أكباد الابل ، كما قال تعالى ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ﴾ ولولا هجرته لمصر لانحصر فضله في الحصة التي وصلت اليه من طريق الارث ، فالله القدير الذي لايخرج فعله عن السُنَن الكونية ، ولا يتجاوز ربط المسببات بأسبابها ، أرسله لمصر ، ومكنّ له فيها ليزيده من فضله ، بزيادة الأسباب التي هي أيضاً من وضعه سبحانه وتعالى .

فوائد الارتحال والسفر

لا يسع أحداً أن ينكر أن الارتحال من إقليم لإقليم أكبر ، والانتقال من بلد لبلد أعظم — من شأنه زيادة العلم ونمو مادته ، خصوصاً إذا كان الاقليم أو البلد الذي ذهب اليه متحضراً وراقياً أكثر فأكثر ، ﴿ الأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً ونِفاقاً ، وأَجْدَرُ أَنْ لا يَعْلَمُوا حُدودَ ما أَنزَلَ اللهُ ﴾ (٩ : ٩٨) ، وفي الحديث « ساكن الكُفُور كساكن القبور » .

وقد سافر « ابن البيطار » إلى بلاد الأغارقة ، لجمع غريب النبات وتدوينه ، وسافر الامام « البخاري » لجمع صحيحه ، وساح كل من « الأسد الافريقي » و « البيروني » و « الشريف الادريسي » في آسية وأفريقية والجزر ، واكتشفوا تلك البقاع ، ووصفوا لنا تلك المواطن ، كما ساح « ابن بطوطة » ، وأخبرنا بالعجائب .

ولذلك سن الشارع لنا السياحة ، واستشراف أحوال الأمم ، وتعرف نواميس الخليقة والعمران ، والنظر في الكون ، وتنور أسرار الكائنات ، حتى قال عن

السياحة لأجل النظر في عواقب الأمم : ﴿ قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا في الأرض ، فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ (٣ : ١٣٧) وقال عن السياحة لأجل النظر في تبدلات الدول والشعوب والمواليد : ﴿ قل سيروا في الأرض ، فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ﴾ (٢٩ : ٢٠) ، وقال عن السياحة لأجل العلم والحج وصلة الرحم والجهاد : ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون ﴾ (٩ : ١١٢) وقال : ﴿ تائبات عابدات سائحات ﴾ (٦٦ : ٥) ولكن الرجال للقتال ، والنساء لخدمة الجيش وتمريضه ، وقال تعالى عن السياحة لأجل التعقل واستخراج النتائج من الأقيسة : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ (٢٢ : ٤٦) تشير هذه الآية إلى أن السياحة تكسب الانسان تعقلاً وفهماً وادراكاً ، أكثر وأكثر جداً مما لو بقي في بيته وبلده ، فالسياحة تزيد في سعة المدارك ، وتشرف بالانسان أسرار العالم ، وعلى نواميس العمران والخراب في الأمم ، وعلى أسباب المدنية والوحشية في الشعوب ، وتجعل للانسان فكرة عامة على معنى الحياة الانسانية الصحيحة ، وهذا يعلو بالعقل والفكر ، ويسمو بها درجات متوالية على أقدار محسوسة ، فيحصل ما يسمونه « الترقي في الهيئة الاجتماعية » .

العلم الكسبي والعلم الوهبي

وغني عن البيان أن العلم نوعان ، كسبي ووهبي : فالكسبي يتوصل اليه بما يقرؤه الانسان في الكتب السماوية ، وما يؤثر عن الأنبياء وما يسمعه من آثار أصحاب الأنبياء ، وكذا من علماء الأمصار . وما يستفيده من دقائق اللغة وأساليبها ، ومن

علوم الكون ، وشؤون البشر ، وسنن الله في الخلق ؛ وأما العلم الوهبي فيكون بزيادة الفهم في أسباب العلم الكسبي وعلو المدارك في ينابيع هذا العلم .

العطف على محذوف في القرآن

والواو في قوله « ولنعلمه » للعطف على محذوف تقديره : « مكنا ليوسف في الأرض لأغراض شتى ولنعلمه .. الخ » ، وهذه طريقة قرآنية ، وأسلوب عربيّ لطيف ، ضابطه عطف مذكور على محذوف، للإيذان بأن المصلحة في إيجاد يوسف بمصر وتمكينه فيها ليست بواحدة ، بل المصالح في ذلك كثيرة ، منها ما لا تحويه العبارة ، ومنها تعليمه من تأويل الأحاديث ، ولهذا شواهد ومثل كثيرة في كتاب الله تعالى : منها قول إبراهيم وإسماعيل (ع) : ﴿ رَبَّنَا ... واجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لكَ ﴾ (٢ : ١٢٨) أي يا ربنا اجعلنا كذا وكذا واجعلنا مسلمين لك ،أو كأنهما يقولان : وفي النفس حاجات وفيك نباهة ، وعلمك بها يغني عن ذكرها ، ولكننا نصرح الآن بواحدة منها ، وهي أن تجعلنا مسلمين لك ؛ ومنها قوله تعالى : ﴿ يريدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ ولا يُريدُ بكم العُسْرَ ... وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ ، ولِتُكَبِّرُوا اللهَ على ما هداكم ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٢ : ١٨٥) ومنها قوله تعالى : ﴿ وكذلكَ نُصَرِّفُ الآياتِ .. وَلِيقُولوا دَرَسْتَ ﴾ (٦ : ١٠٥) ، ومنها قوله تعالى : ﴿ إنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وتلكَ الأيامُ نُداوِلُها بينَ الناسِ ..ولِيَعْلَمَ اللهُ الذين آمنوا ، ويتَّخِذَ منكم شُهَداءَ ، واللهُ لا يُحِبُّ الظالمين ﴾ (٣ : ١٤٠) ومنها قوله تعالى : ﴿قل لو كنتم في بيوتِكُم لَبَرَزَ الذين كُتِبَ عليهِمُ القَتْلُ إلى مضاجعِهِم .. وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ ما في صُدُورِكُم ،ولِيُمَحِّصَ ما في قلوبِكم واللهَ عليمٌ بذاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٣ : ١٥٤) .

ومنها قوله تعالى: ﴿ وألقيتُ عليكَ محبةً مني ... ولتُصنَعَ على عيني ﴾ (٢٠ : ٣٩).

ومنه حديث: «أخوكَ البكريُّ ... ولا تأمنْهُ».

وقول الأبوصيري:

يارب..واجعل دعائي غير منعكس لديك واجعل رجائي غير منخرم

وإنما أكثرنا من شواهد هذا النوع، لأن بعض المفسرين تكلم ههنا بكلام غير صحيح، فكان حقاً علينا أن نذكر ما ذكرنا من الشواهد:

ولو كان هذا موضع العتب لاشتفى فؤادي، ولكن للعتاب مواضع

هذا وأما الكلام في شرح «تأويل الأحاديث» بصورة مسهبة، فقد كفانا فيه المؤونة أخونا الشيخ مضيوف اليافي في محاضرته على قوله تعالى ﴿ وليعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ (آ: ٦) فليرجع إليه. (أحسنت)

(والله غالب على أمره)

— ١ —

قال السعيد الدوماني (١):

الله غالب على أمر نفسه أو على أمر يوسف

إن الله سبحانه وتعالى غالب على أمر نفسه، لا يمنع عما يشاء، ولا ينازع فيما يريد ويقضي، أو إن الله تعالى غالب على أمر يوسف، يدبره، لا يكله إلى غيره. قد أراد إخوته به ما أرادوا، ولم يكن إلا ما أراد الله ودبره.

(١) نسبة الى قصبة دوما قرب دمشق (سورية)

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون)

— ١ —

قال عبدالمنعم السلطي (١) :

جهل اكثر الناس ان الامر كله بيد الله

أولاً — أكثر الناس في كل عصر ومصر لا يعلمون أن الأمر كله بيد الله تعالى وحده .

ثانياً — أكثر الناس لا يعلمون ، أي لا يدركون حكمته في خلقه ، وتلطفه وفعله لما يريد ، أو لا يعلمون ما الله به صانع .

ثالثاً — وردت هذه الفقرة في القرآن إحدى عشرة مرة ، ووردت بصيغة ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ تسع مرات ، والجملة عشرون مرة ، أنزلها الله من السماء تنفي العلم عن أكثرية الناس من وثنيين ويهود ونصارى ومسلمين .

شهادة الله ليوسف بالحكم والعلم والاحسان

آ (٢٢) ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانيــة والعشرون فقام الشيخ محسن الصيداوي (٢) وقال :

يقول الله تعالى (ولما بلغ) يوسف (أشده) أي مبلغ الرجال (آتيناه حكماً)

(١) نسبة الى السلط من أعمال بلاد الشام (شرقي الاردن) .

(٢) نسبة الى بلدة صيدا من بلاد الشام (لبنان) .

منعاً لنفسه من المعاصي وإلزاماً لها على الطاعات (وعلماً) لدنياً ، قال تعالى : ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ (٢ : ٢٨٢) وقال تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴾ (٦٥ : ٢) وإنما قال تعالى : ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ تنبيهاً على أنه كان محسناً في عمله ، متقياً في عنفوان شبابه ، وأن الله آتاه الحكم والعلم جزاء إحسانه ، وعن الحسن (رض) : « من أحسن عبادة ربه في شبيبته آتاه الله الحكمة في اكتهاله ». والعلم علمان : علم لدني يحصل بمحض فضل الله تعالى على العبد ، لكن بسبب إخلاصه وتقواه ، وعلم كسبي وهو ما يكون بالسهر والتعب ، وإلى هذا القسم الثاني يشير بعضهم بقوله :

لو كان نور العلم يدرك بالمنى ... ما كان يبقى في البرية جاهل
اجهد ولا تكسل ولا تك غافلاً ... فندامة العقبى لمن يتكاسل

(ولما بلغ أشده)

— ١ —

وقام الشيخ عبدالحي الجولاني (١) وقال :

بلوغ يوسف الأشد

قضي الأمر ، وعاش يوسف في بيت فوطيفار ، عزيز مصر ، وهو متمتع بحياة طيبة ، محفوفة بالهناء والراحة ، لا يفتكر إلا فيما يعود عليه بالسرور ، كأن لسان حاله يقول : أريد أن أنعم بالحاضر ، وأعد الماضي نسياً منسياً ، غير أنه كان في وسط هذه المسرات يتذكر أباه الشيخ الجليل ، فتفيض نفسه ، لبعده عنه ، وعدم

(١) نسبة الى الجولان احد أقضية بلاد الشام (سورية) .

وثلاثين سنة ، وذلك منتهى الشباب ، وأما قوله تعالى : ﴿ حتى إذا بَلَغَ أشُدَّهُ وبَلَغَ أربعين سَنَةً ﴾ (٤٦ : ١٥) فهي نهاية بلوغ الأشد .

ورأيت في خطبة الحجاج العراقية : « أخو خمسينَ مُجتمعٌ أشُدّي » .

الأشد والرشد في القرآن

ويقول العبد الحقير ، يوجد في القرآن الكريم كلمتان: « أشُدّ » و «رُشْد» فكلمة أشد تعني النمو في الجسم والخروج من سن الصبوة . وكلمة الرشد تعني النمو في العقل وإصلاح أمور الدين والدنيا ، وهذه تكون من الأولى ، وتارة على إثرها ، وقد يوجد الأشد ولا يوجد الرشد ، بسبب عارض ، كما إذا عرض له إسراف وتبذير أو جنون أو قلة دين ، قال تعالى : ﴿ولمّا بَلَغَ أشدهُ واسْتَوى آتيناهُ حُكماً وعِلماً ﴾ (٢٨ : ١٤) وقال تعالى : ﴿ وابْتَلُوا اليتامى حتى إذا بَلَغُوا النِّكاحَ ، فإنْ آنَسْتُم منهم رُشداً فادْفَعُوا إليهم أمْوالَهُم ﴾ (٤ : ٥) ويمكن أن يكون قوله : « حتى إذا بلغوا النكاح » هو سن الأشد الذي يتقدم الرشد أو يقارنه ، فلا رشد إلا بعد تحقق الأشد ، وقد يوجد الأشد ولا يوجد الرشد إلا بعد مدة ، ولكن يوسف (ع) من حين أن بلغ الأشدأوتي الرشد بإيتائه الحكم والعلم . (أحسنت)

(آتيناه حكماً وعلماً)

— ١ —

قال العلامة المعري [1] :

ابناء يوسف الحكمة العملية والحكمة الفكرية

أصل « الحكم » الإلزام والمنع ، وسميت (حَكَمَةٌ) الدابة بهذا الاسم

(١) نسبة الى معرة النعمان من بلاد الشام (سورية)

لأنها تمنع الدابة عن الحركات الفاسدة ، و « الحكم » ملكة في النفس بها يقدر الإنسان أن يحكم نفسه ، بحيث يلزمها الطاعات ، ويمنعها من المعاصي ، و « الحكم » بهذا المعنى هو « العصمة » التي تكون في الأنبياء ، ويجب علينا اعتقادها فيهم ، ولهذا كثر ذكر إيتاء الحكم لهم في القرآن الكريم بهــذا المعنى ، والحكم بهذا المعنى تصدر عنه العلوم اللدنية والمعارف الوهبية ، التي تكون في الدرجة الأولى للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولهذا ذكر العلم ههنا بعد الحكم .

ورأى بعض المحققين أن معنى « حكماً وعلماً » حكمة عملية ، وحكمة فكرية ، ويقــال لمن أوتي الحكم أو الحكمة (حاكم وحكيم) ويقال لمن أوتي العلم (عالم وعليم) . فيوسف أوتي العلم العملي ، المدعو تارة بالحكم وتارة بالحكمة ، وأوتي العلم الفكري الذي هو معرفة الأشياء، وبعبارة ثانية: يوسف أوتي الحكم الذي فيه استخدام الجسم والحواس،والعلم الذي فيه استخدام العقل والروح،وبعبارة ثالثة: أوتي حكم النفس بالنفس،أي منعها عما لا ينبغي(وهذا المعنى يدخل فيه ما يدعونه بالعصمة والعفة أو الحفظ) ، وأوتي العلم اللدني الذي لا يصل اليه الانسان إلا بتلك المجاهدات ، فالثاني هو نتيجة الأول ، كما قال تعالى : ﴿ واتَّقُوا اللهَ ويُعَلِّمُكُمُ اللهُ ﴾ (٢ : ٢٨٢) ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لكم فُرقاناً ﴾ (٨ : ٢٩) ، وفي الحديث الشريف : « مَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ رزقه الله ما لم يعلم » .

لا ينشأ الحكم عن العلم بل عن الدين

وأذكر انه اعتفاني أحد الطلبة يوماً من الأيام ، فاستفتاني قائلاً : نرى الله جل

جلاله قد أتبع كلمة « الحكم » بكلمة « العلم » في كتابه الكريم أربع مرات ، كما قال تعالى في شأن يوسف : « ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً » وقال تعالى في شأن لوط : ﴿ ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً ﴾ (٢١ : ٧٤) وقال تعالى في شأن موسى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ واسْتَوَى ، آتَيْنَاهُ حُكْماً وعِلْماً ﴾ (٢٨ : ١٤)وقال تعالى في شأن داود وابنه سليمان : ﴿ وكُلّاً آتينا حكماً وعلماً ﴾ (٢١ : ٧٩) قال : فلماذا نراه تعالى يذكر العلم بعد الحكم حينما يذكرهما معاً ، مدحاً وثناءً على أنبيائه الكرام عليهم الصلاة والسلام ؟... فأفتيته بقولي : إن الله تعالى علم أنـــه سيوجد أناس في مستقبل الأيام يسمون (بالفلاسفة) يقولون : (إن الحكم فرع عن العلم، فمتى كان الانسان عليماً كان حكيماً ، لأن علمه يحكمه ويمنعه من ارتكاب ما لا ينبغي ، ويدفعه لعمل ما ينبغي ، ومن هؤلاء « ابن رشد » من فلاسفة الاسلام فيما حكي عنه ...، وقد قالوا : « إن الدين إنما تقصد به منفعة العامة فقط ، أما العلماء ففي غنى عنه بعلمهم » ، وقلت له : فلذلك سبق الله تعالى وذكر العلم بعد الحكم ، ليشير إلى أنه ليس الحكم ينشأ عن العلم ، ولكن عن الدين ، فلا غنى لأحد مطلقاً عن الدين ، سواء أكان عالماً أم جاهلاً ، نعم يوجد قبل الحكم علم يقال له عـــلم الشريعة أو علم الفقه ، ويوجد بعد الحكم علم يقال له العلم اللدني ، ويقال لأولهما كسبي ولثانيهما وهبي ، وليس الفقه ، بمعنى معرفة الأحكام ، هو المراد من كلمة « علم » في هذه الآيات ، بل المراد منها العلم اللدني الوهبي ، وتسبب العلم الوهبي عن الحكم ظاهر ، بخلاف تسبب الحكم عن العلم الكسبي الذي هو الفقه ، « فكم من فقيه ، يتبلغ المأذنة في فيه ... » .

فظهر مما قررنا ان لفظ « الحكم » هنا مرادف للفظ الحكمة ، لا فرق بينهما، أبداً ، يقال : « الصمتُ حُكمٌ » أي حكمة ، على حد مافي قول المتنبي :

إن بعضاً من القريض هُراءٌ ليس شيئاً وبعضُـــه أحكامُ

فأحكام جمع حُكْم مراداً منه الحكمة ، ومعنى آتيناه حكماً وعلماً ، أنعمنا عليه برتبتين : : رتبة « حكيم » ورتبة « عليم » ، بل وحققناه بذلك ، فكان يتصرف في كل أموره بحكمة ودراية .

تفسير العلم بالمعرفة

هذا وقد قال بعض الأصدقاء : إن لفظ (العلم) في القرآن أينما وجد هو بمعنى المعرفة بأوسع معانيها ، وهو بهذا المعنى يطلق حتى على المعارف الدنيوية كما ورد على لسان (قارون) : ﴿ قالَ : إنَّما أوتِيتُهُ — أي المال — على عِلْمٍ عندي ﴾ (٣٩ : ٤٩) أي معرفة بطرق كسب المال ، ومنه قوله : ﴿ ويُعَلِّمُكَ مِنْ تأويلِ الأحاديثِ ﴾ على قول المفسرين إن معناه تفسير المرائي المنامية ، ومن علمه الدنيوي أيضاً انه بعد ما عبر وهو في السجن رؤيا (الملك) التي جاءه بها (الساقي) أتبعه بتدبير (اقتصادي) وهو قوله : « تزرعون .. الخ » وعلم الاقتصاد من العلوم الدنيوية . وبعد ، فأكثر ما يستعمل (العلم) في المعرفة التي توصل إلى الهداية كما يوجد ذلك في أكثر آيات القرآن .

(آتيناه حكماً وعلماً)

— ٢ —

وقالت السيدة قوت القلوب المصرية :

ايتاء يوسف قوة الارادة ونور العقل

أوتي يوسف « الحكم » بحيث صار يحكم نفسه عما لا يليق ، لأنه قوي الإرادة وهذا هو الحد الفاصل بين الفضيلة والرذيلة ، لأن الناس يتشابهون في ميولهم

البدنية ، وفي تمييزهم بين الفضيلة والرذيلة ، وإنما يتفاضلون بقوة الإرادة على كبح الشهوات ، والعمل بما يقتضيه الشرع ويوجبه الضمير ، في مثل ذلك الموقف يتفاضل الناس ، وأقربهم إلى الفضيلة أقوام إرادة ، فأهل النزاهة والعفة لا يفضلون سواهم بالتمييز بين الخير والشر ، ولا يفهمون من معنى الفضائل والرذائل أكثر مما يفهم سواهم ، ولكنهم يفضلونهم باقتدارهم على ضبط عواطفهم ، فاذا استطاعوا ضبطها حفظوا كرامتهم طول العمر ، وعاشوا في راحة وسعادة ، يدلك على ذلك ان الذين يعجزون عن كبح شهواتهم ، ويستسلمون لأهوائهم ، لا يلبثون أن يندموا حين لا ينفع الندم .

ثم أوتي يوسف « العلم » الذي هو نور العقول ، وحياة النفوس ، وحسبنا في تعريف فضله قوله تعالى خطاباً لخاتم الأنبياء ﷺ : ﴿ وقُلْ ربِّ زِدْني عِلماً ﴾ (٢٠ : ١١٤) ، وقوله ﷺ : ﴿ إذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علماً يقربني إلى الله تعالى ، فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم ﴾ .

والعلم خير من المال ، لأنك أنت تحرس المال ، ولكن العلم يحرسك ، والمال بلا علم صائر للزوال :

إذا لم يكن علم يزان به الفتى فمال الفتى جهل عظيم يشينه
لعمرك إن المال داعيةُ الهوى إذا هو لم يُصحب بعلم يصونه

يمكن رفع الانسان وخفضه في كل وقت ، والآلة الرافعة والخافضة له هي العلم أو الجهل ، وعلة العلل في ارتقاء الانسان وانحطاطه هي العلم أو الجهل ، وما عدا ذلك فأسباب ثانوية ، والعلم هو أهم سلاح تسلح به يوسف للانتصار على العزيز وامرأته ، ثم للرقي إلى البلاط الملكي ، ثم للانتصار على إخوته ، فبعلمه وهو «فرد»

انتصر عليهم ، وهم « عصبة » هو فزع إلى القوة العلمية ، وهم فزعوا إلى القوة الجسمية ، والجاهل ولو قوياً بالجسم ، مع العلم ولو ضعيفاً بالبدن ، كالأعزل مع المدجج بالسلاح .

وبعد ، فيظهر لنا ان إيتاء الله يوسف — وهو في بدء سن الأشد — الحكمة والعلم هو من قبل الإرهاص لنبوته المزمعة أن تصير ، فهو بإيتائه « الحكم » يكون قد ملك نفسه وهواه ، وبإيتائه « العلم » يكون قد انتقل من دور التقليد لدور معرفة الحقائق كما هي .

ورد في الحديث الشريف : « الشباب شعبة من شعب الجنون » ، وقال بعض الشعراء :

إن الشباب والفراغ والجِدَه مفسدة للمرء أيّ مفسده

فالعادة ان الانسان في شرخ شبابه ، تكمل فيه قوة الشهوة الحيوانية ، فيميل مع هواه ، وينزل على إرادة عواطفه ، حتى انه ليستغرب حال من يخالف هذه العاطفة ، كما في حديث : « عجب ربك من شاب ليس له صبوه » ، ولكن في نحو هذا الوقت أوتي يوسف مايؤتاه الشيوخ الكبار ، من العفة والطهارة والعلم الوهبي ، فهذا القول : « ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجزي المحسنين » . كالتمهيد الاستدراكي أو كالاستدراك التمهيدي قبل قوله : « وراودته التي...الخ » فكأن الله تعالى يقول : قبلما تراوده تلك المرأة عن نفسه هو كان قد ترقى إلى الدرجات العلى ، وصار كأهل الملأ الأعلى ، طهارة وصفاء وقداسة ، وأحرى بمن آتاه الله (الحكم والعلم) أن يكون طاهر النفس ، ونقي الثوب .

(حسن وحسن جداً)

(آتيناه حكماً وعلماً)

— ٣ —

وقال السيد محمد الجاوي(١)

سبب تقديم الحكم على العلم

قدم الله الحكم على العلم ، مع ان العلم مقدم على الحكم ، لأن الانسان أولاً ، يعلم ثم يعمل ، لسر دقيق لا يعقله إلا من وفقه الله تعالى لفهم دقائق أسرار كلام الله العزيز جل جلاله وذلك انه لا يلزم من العلم الحكم ، فكم وكم من عالم لا يقف عند حدود علمه ولا يعمل به ، كما انه لا يلزم من الحكم العلم ، فكم وكم من حاكم لنفسه تقليداً لغيره ، مع جهله وقلة علمه ، فلا يقع فيما نهى الله عنه ، ولكن لا عن علم بل عن تقليد ، وعلى هذا فلا ملازمة بين الحكم والعلم ، فقد يكون حكم بدون علم ، ولكن عن تقليد ، وقد يكون علم بدون حكم ، وهو الذي لا يعمل بعلمه ، وهما مصيبتان كبريان ، وفتنتان عظيمتان ، ولكن أيهما أكبر من أختها ؟ لا شك ان الثانية أكبر من الأولى ،

وعالم بعلمه لم يعملن معذب من قبل عباد الوثن

فالخاطيء عن جهل ، أخف جرماً من الخاطيء بعد العلم ، والجاهل التقي ، خير من العالم الشقي ، إذاً فالتقوى مع الجهل ، خير من الشقوة مع العلم ، وبذلك صار الحكم أهم من العلم ، وان المهم المقدم ، وقد أخبر تعالى أن اتباع الهوى ، وهذا يكون بترك الحكم ، يضل عن سبيل الله ، ولم يخبرنا بأن عدم العلم كذلك ، فقد يكون الانسان سالكاً سبيل الله تقليداً ، لا علماً كما قررناه ، قال تعالى : ﴿ ياداود إنا جعلناك خليفة

---

(١) نسبة الى جزيرة جاوة من بلاد اندونيسيا .

في الأرض ، فاحكمْ بين الناس بالحق، ولا تتَّبِعِ الهوى ، فيُضِلَّكَ عن سبيلِ الله ، إنَّ الذين يَضِلُّونَ عن سبيلِ اللهِ لهم عذابٌ شديد بما نسوا يومَ الحساب ﴾ (٣٨ : ٢٦) ولم يرد وعيد كهذا للجاهل ، ولا تنس ههنا ان أهل الفترة الناجون ، وان المغضوب عليهم أقبح من الضالين ، وان الغواة أرباب الشهوات ، أقبح من الضلال أصحاب الظنون والشبهات .

(وكذلك نجزي المحسنين)

— ١ —

قال مولانا عمر البيلاني (١) .

إن لي على هذه الآية الكريمة خمسةَ تعاليق :

الاجماع على احسان يوسف

التعليق الأول :— نسمع هذه الآية في هذه السورة ترن على آذاننا كثيراً ، فمرة نسمع الله يقول في شأن يوسف : ﴿ وكذلكَ نجزي المُحْسِنين ﴾ (آ ٢٢) ، ثم نسمع الفتيين السجينين يقولان له : ﴿ نبئْنا بتأويله ، إنّا نراك من المحسنين ﴾ (آ ٣٦) ، ثم نسمع إخوته يقولون له : ﴿ فخذْ أحدَنا مكانَه إنّا نراكَ منَ المحسنين ﴾ (آ ٧٨) ، ثم سمعناها من فم يوسف نفسه متحدثاً بنعمة ربه يقول : ﴿ إنه مَنْ يتّقِ ويصبرْ فإنَّ اللهَ لا يُضيعُ أجْرَ المحسنين ﴾ (آ ٩٠) ، وهذا من قبيل توارد الخواطر ، الذي يفيد تحقق مورده ، فالرب والعبد ، والأقارب والأباعد نطقوا بنغمة واحدة ، هي ان يوسف كان محسناً ولا بد .

الجزاء على السبب لا على النسب

التعليق الثاني : — لم يقل : وكذلك نجزي أولاد الأنبياء ، أو يقل : وكذلك

---

(١) نسبة الى بيلان من بلاد الشام (سورية)

وثلاثين سنة ، وذلك منتهى الشباب ، وأما قوله تعالى : ﴿ حتى إذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وبَلَغَ أربعين سَنَةً ﴾ (٤٦ : ١٥) فهي نهاية بلوغ الأشد .

ورأيت في خطبة الحجاج العراقية . « أخو خمسينَ مُجتمعٌ أشُدّي » .

الأشد والرشد في القرآن

ويقول العبد الحقير ، يوجد في القرآن الكريم كلمتان: « أشُدّ » و « رُشْد » فكلمة أشد تعني النمو في الجسم والخروج من سن الصبوة . وكلمة الرشد تعني النمو في العقل وإصلاح أمور الدين والدنيا ، وهذه تكون من الأولى ، وتارة على إثرها ، وقد يوجد الأشد ولا يوجد الرشد ، بسبب عارض ، كما إذا عرض له إسراف وتبذير أو جنون أو قلة دين ، قال تعالى : ﴿ولمّا بَلَغَ أشدهُ واستَوى آتيناهُ حُكماً وعِلماً ﴾ (٢٨ : ١٤) وقال تعالى : ﴿ وابتَلُوا اليتَامَى حتى إذا بَلَغُوا النّكاحَ ، فإنْ آنَسْتُم منهم رُشداً فادْفَعُوا إليهم أموالَهُم ﴾ (٤ : ٥) ويمكن أن يكون قوله : « حتى إذا بلغوا النكاح » هو سن الأشد الذي يتقدم الرشد أو يقارنه ، فلا رشد إلا بعد تحقق الأشد ، وقد يوجد الأشد ولا يوجد الرشد إلا بعد مدة ، ولكن يوسف (ع) من حين أن بلغ الأشدأوتي الرشد بإيتائه الحكم والعلم . (أحسنت)

(آتيناه حكماً وعلماً)

— ١ —

قال العلامة المعري [١] :

إيتاء يوسف الحكمة العملية والحكمة الفكرية

أصل « الحكم » الإلزام والمنع ، وسميت (حَكَمَةُ) الدابة بهذا الاسم

(١) نسبة الى معرة النعمان من بلاد الشام (سورية)

لأنها تمنع الدابة عن الحركات الفاسدة ، و « الحكم » ملكة في النفس بها يقرر الإنسان أن يحكم نفسه ، بحيث يلزمها الطاعات ، ويمنعها من المعاصي ، و « الحكم » بهذا المعنى هو « العصمة » التي تكون في الأنبياء ، ويجب علينا اعتقادها فيهم ، ولهذا كثر ذكر إيتاء الحكم لهم في القرآن الكريم بهـذا المعنى ، والحكم بهذا المعنى تصدر عنه العلوم اللدُنية والمعارف الوهبية ، التي تكون في الدرجة الأولى للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولهذا ذكر العلم ههنا بعد الحكم .

ورأى بعض المحققين أن معنى « حكماً وعلماً » حكمة عملية ، وحكمة فكرية ، ويقـال لمن أوتي الحكم أو الحكمة (حاكم وحكيم) ويقال لمن أوتي العلم (عالم وعليم) . فيوسف أوتي العلم العملي ، المدعو تارة بالحكم وتارة بالحكمة ، وأوتي العلم الفكري الذي هو معرفة الأشياء، وبعبارة ثانية: يوسف أوتي الحكم الذي فيه استخدام الجسم والحواس، والعلم الذي فيه استخدام العقل والروح، وبعبارة ثالثة: أوتي حكم النفس بالنفس، أي منعها عما لا ينبغي (وهذا المعنى يدخل فيه ما يدعونه بالعصمة والعفة أو الحفظ) ، وأوتي العلم اللدني الذي لا يصل اليه الانسان إلا بتلك المجاهدات ، فالثاني هو نتيجة الأول ، كما قال تعالى : ﴿ واتَّقُوا اللهَ ويُعَلِّمُكُمُ اللهُ ﴾ (٢ : ٢٨٢) ، وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُم فُرْقَاناً ﴾ (٨ : ٢٩) ، وفي الحديث الشريف : « مَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ رزقه الله ما لم يعلم » .

لا ينشأ الحكم عن العلم بل عن الدين

وأذكر انه اعتفاني أحد الطلبة يوماً من الأيام ، فاستفتاني قائلاً : نرى الله جل

جلاله قد أتبع كلمة « الحكم » بكلمة « العلم » في كتابه الكريم أربع مرات ، كما قال تعالى في شأن يوسف : « ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً » وقال تعالى في شأن لوط : ﴿ ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً ﴾ (٢١ : ٧٤) وقال تعالى في شأن موسى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ واسْتَوَى ، آتَيْنَاهُ حُكْماً وعِلْماً ﴾ (٢٨ : ١٤)وقال تعالى في شأن داود وابنه سليمان : ﴿ وكُلًّا آتَيْنا حكماً وعلماً ﴾ (٢١ : ٧٩) قال : فلماذا نراه تعالى يذكر العلم بعد الحكم حينما يذكرهما معاً ، مدحاً وثناءً على أنبيائه الكرام عليهم الصلاة والسلام ؟... فأفتيته بقولي : إن الله تعالى علم أنه سيوجد أناس في مستقبل الأيام يسمون (بالفلاسفة) يقولون : (إن الحكم فرع عن العلم، فمتى كان الانسان عليماً كان حكيماً ، لأن علمه يحكمه ويعنعه من ارتكاب ما لا ينبغي ، ويدفعه لعمل ما ينبغي ، ومن هؤلاء « ابن رشد » من فلاسفة الاسلام فيما حكي عنه ...، وقد قالوا : « إن الدين إنما تقصد به منفعة العامة فقط ، أما العلماء ففي غنى عنه بعلمهم » ، وقلت له : فلذلك سبق الله تعالى وذكر العلم بعد الحكم ، ليشير إلى أنه ليس الحكم ينشأ عن العلم ، ولكن عن الدين ، فلا غنى لأحد مطلقاً عن الدين ، سواء أكان عالماً أم جاهلاً ، نعم يوجد قبل الحكم علم يقال له علم الشريعة أو علم الفقه ، ويوجد بعد الحكم علم يقال له العلم اللدني ، ويقال لأولهما كسبي ولثانيهما وهبي ، وليس الفقه ، بمعنى معرفة الأحكام ، هو المراد من كلمة « علم » في هذه الآيات ، بل المراد منها العلم اللدني الوهبي ، وتسبب العلم الوهبي عن الحكم ظاهر ، بخلاف تسبب الحكم عن العلم الكسبي الذي هو الفقه ، « فكم من فقيه ، يتبلغ المأذنة في فيه ... » .

فظهر مما قررنا ان لفظ « الحكم » هنا مرادف للفظ الحكمة ، لا فرق بينهما أبداً ، يقال : « الصمتُ حُكْمٌ » أي حكمة ، على حد مافي قول المتنبي :

إن بعضاً من القريض هُراءُ ليس شيئاً وبعضُه أحكامُ

فأحكام جمع حُكْم مراداً منه الحكمة ، ومعنى آتيناه حكماً وعلماً ، أنعمنا عليه برتبتين : : رتبة « حكيم » ورتبة « عليم » ، بل وحققناه بذلك ، فكان يتصرف في كل أموره بحكمة ودراية .

تفسير العلم بالمعرفة

هذا وقد قال بعض الأصدقاء : إن لفظ (العلم) في القرآن أينما وجد هو بمعنى المعرفة بأوسع معانيها ، وهو بهذا المعنى يطلق حتى على المعارف الدنيوية كما ورد على لسان (قارون) : ﴿ قالَ : إنَّما أوتيتُهُ — أي المال — على علمٍ عندي ﴾ (٣٩ : ٤٩) أي معرفة بطرق كسب المال ، ومنه قوله : ﴿ ويُعَلِّمُكَ مِنْ تأويلِ الأحاديثِ ﴾ على قول المفسرين إن معناه تفسير المرائي المنامية ، ومن علمه الدنيوي أيضاً انه بعد ما عبر وهو في السجن رؤيا (الملك) التي جاءه بها (الساقي) أتبعه بتدبير (اقتصادي) وهو قوله : « تزرعون .. الخ » وعلم الاقتصاد من العلوم الدنيوية . وبعد ، فأكثر ما يستعمل (العلم) في المعرفة التي توصل إلى الهداية كما يوجد ذلك في أكثر آيات القرآن .

(آتيناه حكماً وعلماً)

— ٢ —

وقالت السيدة قوت القلوب المصرية :

ايتاء يوسف قوة الارادة ونور العقل

أوتي يوسف « الحكم » بحيث صار يحكم نفسه عما لا يليق ، لأنه قوي الإرادة وهذا هو الحد الفاصل بين الفضيلة والرذيلة ، لأن الناس يتشابهون في ميولهم

البدنية ، وفي تمييزهم بين الفضيلة والرذيلة ، وإنما يتفاضلون بقوة الإرادة على كبح الشهوات ، والعمل بما يقتضيه الشرع ويوجبه الضمير ، ففي مثل ذلك الموقف يتفاضل الناس ، وأقربهم إلى الفضيلة أقواهم إرادة؛ فأهل النزاهة والعفة لا يفضلون سواهم بالتمييز بين الخير والشر ، ولا يفهمون من معنى الفضائل والرذائل أكثر مما يفهم سواهم ، ولكنهم يفضلونهم باقتدارهم على ضبط عواطفهم ، فاذا استطاعوا ضبطها حفظوا كرامتهم طول العمر ، وعاشوا في راحة وسعادة ، يدلك على ذلك ان الذين يعجزون عن كبح شهواتهم ، ويستسلمون لأهوائهم ، لا يلبثون أن يندموا حين لا ينفع الندم .

ثم أوتي يوسف « العلم » الذي هو نور العقول ، وحياة النفوس ، وحسبنا في تعريف فضله قوله تعالى خطاباً لخاتم الأنبياء ﷺ : ﴿ وقُلْ ربِّ زِدْني عِلماً ﴾ (٢٠ : ١١٤) ، وقوله ﷺ : ﴿ إذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علماً يقربني إلى الله تعالى ، فلا بورك لي في طلوع شمس ذلك اليوم ﴾ .

والعلم خير من المال ، لأنك أنت تحرس المال ، ولكن العلم يحرسك ، والمال بلا علم صائر للزوال :

إذا لم يكن علم يزان به الفتى ... فمال الفتى جهل عظيم يشينه
لعمرك إن المال داعيةُ الهوى ... إذا هو لم يُصحب بعلم يصونه

يمكن رفع الانسان وخفضه في كل وقت ، والآلة الرافعة والخافضة له هي العلم أو الجهل ، وعلة العلل في ارتقاء الانسان وانحطاطه هي العلم أو الجهل ، وما عدا ذلك فأسباب ثانوية ، والعلم هو أهم سلاح تسلح به يوسف للانتصار على العزيز وامرأته ، ثم المرقي إلى البلاط الملكي ، ثم للانتصار على إخوته ، فبعلمه وهو «فرد»

انتصر عليهم ، وهم « عصبة » هو فزع إلى القوة العلمية ، وهم فزعوا إلى القوة الجسمية ، والجاهل ولو قوياً بالجسم ، مع العلم ولو ضعيفاً بالبدن ، كالأعزل مع المدجج بالسلاح .

وبعد ، فيظهر لنا ان إيتاء الله يوسف — وهو في بدء سن الأشد — الحكمة والعلم هو من قبل الإرهاص لنبوته المزمعة أن تصير ، فهو بإيتائه « الحكم » يكون قد ملك نفسه وهواه ، وبإيتائه « العلم » يكون قد انتقل من دور التقليد لدور معرفة الحقائق كما هي .

ورد في الحديث الشريف : « الشباب شعبة من شعب الجنون » ، وقال بعض الشعراء :

إن الشباب والفراغ والجِدَه مفسدة للمرء أيّ مفسده

فالعادة ان الانسان في شرخ شبابه ، تكمل فيه قوة الشهوة الحيوانية ، فيميل مع هواه ، وينزل على إرادة عواطفه ، حتى انه ليستغرب حال من يخالف هذه العاطفة ، كما في حديث : « عجب ربكم من شاب ليس له صبوه » ، ولكن في نحو هذا الوقت أوتي يوسف مايؤتاه الشيوخ الكبار ، من العفة والطهارة والعلم الوهبي، فهذا القول : « ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً ، وكذلك نجري المحسنين » . كالتمهيد الاستدراكي أو كالاستدراك التمهيدي قبل قوله : « وراودته التي...الخ» . فكأن الله تعالى يقول : قبلما تراوده تلك المرأة عن نفسه هو كان قد ترقى إلى الدرجات العُلى ، وصار كأهل الملأ الأعلى ، طهارة وصفاء وقداسة ، وأحرّ بمن آتاه الله (الحكم والعلم) أن يكون طاهر النفس ، ونقي الثوب .

(حسن وحسن جداً)

(آتيناه حكماً وعلماً)

— ٣ —

وقال السيد محمد الجاوي(١)

سبب تقديم الحكم على العلم

قدم الله الحكم على العلم ، مع ان العلم مقدم على الحكم ، لأن الانسان أولاً ، يعلم ثم يعمل ، لِسِرٍّ دقيق لا يعقله إلا من وفقه الله تعالى لفهم دقائق أسرار كلام الله العزيز جل جلاله وذلك انه لا يلزم من العلم الحكم ، فكم وكم من عالم لا يقف عند حدود علمه ولا يعمل به ، كما انه لا يلزم من الحكم العلم ، فكم وكم من حاكم لنفسه تقليداً لغيره ، مع جهله وقلة علمه ، فلا يقع فيما نهى الله عنه ، ولكن لا عن علم بل عن تقليد ، وعلى هذا فلا ملازمة بين الحكم والعلم ، فقد يكون حكم بدون علم ، ولكن عن تقليد ، وقد يكون علم بدون حكم ، وهو الذي لا يعمل بعلمه ، وهما مصيبتان كبريان ، وفتنتان عظيمتان ، ولكن أيهما أكبر من أختها ؟ لا شك ان الثانية أكبر من الأولى ،

وعالم بعلمه لم يعملن معذب من قبل عباد الوثن

فالخاطيء عن جهل ، أخف جرماً من الخاطىء بعد العلم ، والجاهل التقي ، خير من العالم الشقي ، إذاً فالتقوى مع الجهل ، خير من الشقوة مع العلم ، وبذلك صار الحكم أهم من العلم ، وان المهم المقدم ، وقد أخبر تعالى أن اتباع الهوى ، وهذا يكون بترك الحكم ، يضل عن سبيل الله ، ولم يخبرنا بأن عدم العلم كذلك ، فقد يكون الانسان سالكاً سبيل الله تقليداً ، لا علماً كما قررناه ، قال تعالى : ﴿ ياداودُ إنّا جعلناكَ خليفةً

(١) نسبة الى جزيرة جاوة من بلاد اندونيسيا .

في الأرض ، فاحكمْ بين الناس بالحق،ولا تتَّبِــع الهوى ، فيُضِلَّكَ عن سبيلِ الله ، إنّ الذين يَضِلُّونَ عن سبيلِ اللهِ لهم عذابٌ شديد بما نسوا يومَ الحساب ﴾ (٣٨ : ٢٦) ولم يرد وعيد كهذا للجاهل ،ولا تنس ههنا ان أهل الفترة الناجون ، وان المغضوب عليهم أقبح من الضالين ، وان الغواة أرباب الشهوات ، أقبح من الضلال أصحاب الظنون والشبهات .

(وكذلك نجزي المحسنين)

— ١ —

قال مولانا عمر البيلاني (١)

إن لي على هذه الآية الكريمة خمسةَ تعاليق :

الاجماع على احسان يوسف

التعليق الأول:— نسمع هذه الآية في هذه السورة ترن على آذاننا كثيراً،فمرة نسمع الله يقول في شأن يوسف : ﴿ وكذلكَ نجزي المُحْسِنين ﴾ (آ ٢٢) ، ثم نسمع الفتيين السجينين يقولان له : ﴿ نبِّئْنا بتأويله ، إنَّا نراكَ من المحسنين ﴾ (آ ٣٦) ، ثم نسمع إخوته يقولون له : ﴿ فخُذْ أحدَنا مكانَه إنّا نراكَ مِنَ المحسنين ﴾ (آ ٧٨) ، ثم سمعناها من فم يوسف نفسه متحدثاً بنعمة ربه يقول : ﴿ إنه مَنْ يتَّقِ ويصبرْ فإنَّ اللهَ لا يُضيعُ أجْرَ المحسنين ﴾ (آ ٩٠) ، وهذا من قبيل توارد الخواطر ، الذي يفيد تحقق مورده ، فالرب والعبد ، والأقارب والأباعد نطقوا بنغمة واحدة ، هي ان يوسف كان محسناً ولا بد .

الجزاء على السبب لا على النسب

التعليق الثاني : — لم يقل : وكذلك نجزي أولاد الأنبياء ، أو يقل : وكذلك

(١) نسبة الى بيلان من بلاد الشام (سورية)

نجزي ذوي البيوتات العريقة في المجد ، بل جعل هذه المجازاة أثراً من آثار إحسان يوسف في أعماله وأقواله وأفكاره وسيره وسيرته،لأن الله تعالى لا ينظر للأنساب والأحساب ولكنه بنظر الى الأعمال والنوايا ، فالمرء بأعماله ، لا بآماله ، وبسببه ، لا بنسبه ، وبطي لسانه ، لا بطيلسانه ، وبأصغريه ، قلبه ولسانه ، وبِجَنانه ، لا بِجِنانه .

اركان الاحسان

التعليق الثالث : — رب سائل يسأل : ما هوهذا الاحسان الذي كان يوسف متحلياً به ، حتى استحق المكافأة عليه ، وصار به خليقاً لايتاء الله إياه (الحكم) وجديراً أن يسدي الله اليه مَوْهِبَة (العلم) اللدني ؟

فنجيب قائلين : الاحسان يقوم بثلاثة أركان ، الركن الأول — العقيدة ، وهي الايمان بالله تعالى وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والركن الثاني — الأعمال البدنية والمالية ، وهي الصلاة والصوم والحج والزكاة والصدقة وما إلى ذلك ، والركن الثالث — الآداب مع الله والناس،والأخلاق الفاضلة ؛ وذلك يقوم بسلامة القلب ، وحسن النية ، وطهارة الوجدان ، وصلة الرحم ، ونفع أهل الجوار ، والنصيحة والارشاد ، والصبر عن وعلى ، والوفاء بالوعد ، والثبات على العهد ، والصدق في القول والعمل ، والوداعة ومحبة الخلق ، والتفكر في آلاء الله تعالى ومصنوعاته ، وآياته العجيبة ، وطاعة الوالدين ، والعفو عن المسيء ، والصفح عن الزلات والحلم والأناة ومقابلة السيئة بالحسنة وخدمة الإنسانية وخدمة المصالح العامة ، والكف عن الضرب والقتل والسرقة ، وزجر النفس عن الكبرياء والغضب ، والرجوع إلى الحق بعد ظهوره ، وتنزيه القلب عن الحقد والبغض ، وصون اللسان وسائر الأركان عن الكذب والبهتان ، وترك الغيبة والنميمة وكل أمر مكروه ، وعدم البغيان على أي إنسان ، ومزايلة الأشرار .

اركان الاحسان في القرآن وتحلي يوسف بها

قال تعالى وفيه صراحة بالأركان الثلاثة ﴿ ليسَ البِرَّ أنْ تُولُّوا وجُوهَكُم قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ، ولكنَّ البرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ والملائكةِ والكتابِ والنَّبِيِّينَ ؛ وآتَى المالَ - على حُبِّهِ - ذَوِي القُرْبَى واليتامَى والمساكينَ وابنَ السَّبيلِ ، والسائلينَ وفي الرقابِ ، وأقامَ الصلاةَ وآتَى الزكاةَ ،والمُوفونَ بعَهدِهِم إذا عاهَدُوا ،والصَّابِرِينَ في البأساءِ والضراءِ وَحينَ البأسِ . أولئكَ الذينَ صَدَقُوا، وأولئكَ هُمُ المُتَّقُونَ ﴾ (٢ : ١٧٧) ، ولقد كان يوسف متحلياً بهذه الأركان الثلاثة التي منها إيتاؤه المال ذوي القربى ، إذ أنه أمر فتيانه أن يجعلوا بضاعة إخوته في رحالهم ، فهم لما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، ومنها صبره في البأساء والضراء كصبره في غيابة السجن وصبره على أخذه لمصر وبيعه وخدمته في بيت العزيز كعبد . وصبره عن السوء والفحشاء ، وفي غياهب الحبس وصبره عن شفاء غليله من إخوته .

وقال تعالى وفيه عشرة أسهم من أسهم الدين : ﴿ التائِبُونَ العابِدونَ الحامدونَ السائحونَ الراكعون الساجدونَ ، الآمرونَ بالمعروفِ والناهونَ عن المنكرِ ، والحافظونَ لحدودِ الله وَبَشِّرِ المؤمنينَ ﴾ (٩ : ١١٣) ، ولقد كان يوسف (تائباً) راجعاً في كل حين إلى ربه ، (عابداً) له بأركانه وَجنانه (حامداً) له أيام حريته وأيام رقه (سائحاً) بهجرته من بلاد الهوان إلى بلاد الإطمئنان (راكعاً ساجداً) لمولاه (آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر) كما وقع منه مع الفتيين السجينين ، إذ نهاهما عن الوثنية ، وأمرهما بالتوحيد ، (حافظاً لحدود الله) إذ لم ينزل على إرادة امرأة العزيز ولم يخن سيده في أهله وعرضه .

وقال تعالى : ﴿ قَدْ أفلحَ المؤمنونَ ، الذينَ هُمْ في صَلاتِهِم خاشِعونَ ، والذينَ هم عن اللَّغْوِ مُعْرِضون، والذين هم للزكاةِ فاعلون ، والذين هم لِفُرُوجِهِم حافِظُون ، ـ إلى أن يقول ـ والذين هُمْ لِأَماناتِهِم وَعَهْدِهِمْ رَاعونَ ، والذين هُمْ على صَلواتِهِم يُحافِظونَ ، أولئك هم الوارثون ؛ الذين يَرِثُونَ الفِرْدَوْسَ ، هُمْ فيها خالِدونَ ﴾ (٢٣ : ١ ـ ١١) وبديهي أن يوسف كان (مؤمناً) بالله (خاشعاً في صلاته) لمولاه (معرضاً عن اللغو) كما ظهر ذلك جلياً في إعراضه عن لغو إخوته حينما قالوا له : ﴿ إنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أخٌ له مِنْ قَبْلُ ، فَأَسَرَّها يُوسفُ في نفسِهِ ولم يُبْدِها لهم ﴾ (مزكياً) كما آنس منه إخوته ذلك إذ قالوا له: ﴿ وتَصَدَّقْ علينا إنَّ اللهَ يجزي المتصدقين ﴾ ولا بد أن يكون قد صدّق ظنهم فيه (حافظاً لفرجه) ، (مراعياً لأمانته) كما ظهر ذلك بأجلى مظاهره في حادثة سيدته معه .

فما اشتملت عليه هذه الآيات الكريمة هو قوام الإحسان الذي وصف به يوسف عليه السلام ، ولذا كان خليقاً بما أنعم الله عليه من الوسامين المرصعين ، وهما وساما (الحكم) و (العلم) مكافأة له على إحسانه. وفي قوله تعالى : ﴿ وكذلكَ نَجْزِي المُحْسِنينَ ﴾ تقريظ ليوسف ، بأنه لم يؤت ما أوتيه مجاناً أو محاباة ، لا . لا . بل لسابق إحسانه في أقواله وأعماله ونواياه وسرائره ، أي أنه تعالى وجه عليه وِسامَي (الحكم والعلم) لأنه محسن ، فهو قمن بذلك ، وهكذا هو تعالى يجزي سائر المحسنين .

الجزاء يكون في الدنيا كما في الآخرة

التعليق الرابع ـــ قوله تعالى : ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ يريد به الجزاء الدنيوي ، لأن هذا الجزاء الذي عجل ليوسف هو كان في الدنيا ، كما سيأتي قوله

في موضع آخر : ﴿ وكذلكَ مَكَّنَّا ليوسفَ في الأرضِ ، يَتَبَوَّأُ منها حيثُ يشاءُ ، نُصيبُ برحمَتِنا مَنْ نَشاءُ ، ولا نُضيعُ أجْرَ المحسنين ، ولَأجْرُ الآخرةِ خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يَتَّقُونَ ﴾ (آ ٥٦ و ٥٧) .

فكثيراً ما يصيب الإنسان في الدنيا صنوف من الخير ، جزاء على أعماله الصالحة ، وصنوف من الشر ، عقاباً له بما اجترح من الأعمال السيئة ، كما يظهر لمن تدبر سنة الله في خلقه ، ودرس تواريخ الأمم الخالية والأمم الحاضرة ، فليس الجزاء على الأعمال الصالحة ، والأعمال السيئة مقصوراً على الآخرة فقط ، بل يكون في الدنيا كما في الآخرة ، ولكن لكل دار ما يناسبها من الجزاء .

(فالحكم والعلم) الذي أوتيه يوسف هو من الجزاء الذي يستحقه على إحسانه ، جزاء معجلاً في الدنيا ، فهو من قبيل : ﴿ واتَّقُوا اللهَ ويُعلِّمُكُمُ اللهُ ﴾ (٢ : ٢٨٢) ، ومن قبيل : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا ، إنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لكم فُرقاناً ﴾ (٨ : ٢٩) ومن قبيل : ﴿ ذلكَ مِمَّا علَّمَني رَبِّي ، إنِّي تَرَكْتُ مِلةَ قومٍ لا يؤمنونَ باللهِ ﴾ (آ ٣٧) الخ حيث جعل تعليم ربه له ثواباً على ترك الوثنية واتباع التوحيد .

فيوسف أحسَنَ أعماله وأقواله ونواياه ، فأحسن الله اليه ، لأنه : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإحسانِ إلاَّ الاحسانُ ﴾ (٥٥ : ٦٠) وهذه قاعدة جارية في الدنيا والآخرة ، لأن كلام الله تعالى فيها مطلق ، نعم هو في الدنيا مطرد في الامم ، وغير مطرد في الأفراد ، وأما في الآخرة فهو مطرد للجميع .

الله يؤتي الحكم والعلم لكل من اتصف بالاحسان

التعليق الخامس — نتعلم من هذه الآية ان إيتاء الله (الحكم والعلم) ليس هو عطية شخصية ، ولكنها عطية وصفية ، وأريد أن أقول إنها ليست عطية خاصة

بشخص يوسف ، ولكنها عامة لكل من اتصف بالاحسان ، وهكذا العطية في قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ ، يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ، وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آ ٥٦) فنتعلم منه ان كل من كان محسناً ، مكنه الله في الأرض ، وأصابه برحمته ، فليس هذا العطاء متعلقاً بالشخص ، ولكنه منوط بالوصف ، يدور معه حيثما دار ، وهكذا نتعلم من قول يوسف الآتي : ﴿ قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا ، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ، فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آ ٩٠)، فمنّة الله على عباده بالنعم الوافرة ليست مرتبطة بأشخاص مشخصين ، ولكنها مرتبطة بوصفي التقوى والصبر ، فأينما وجدت التقوى والصبر ، وجدت نعم الله .

الوعد يتناول الناس بحسب اوصافهم

نأخذ من المثل السابقة وأشباهها قاعدة ، هي : الوعد لا يكون قاصراً على أشخاص وآحاد معينين ، بل إنه يتناول الناس بحسب أوصافهم ، واليكم بعض الأمثلة على ذلكم من غير سورة يوسف :

(١) — ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ ﴾ (٢٤ : ٥٥) فالموعودون بالاستخلاف في الأرض ليسوا هم أشخاص الصحابة فقط ، بل كل من اتصف بالايمان والعمل الصالح .

(٢) — ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ ﴾ (٤٧ : ٧) فهذا الوعد ليس خاصاً بشخص الصحابة ، بل هو عام لكل من اتصف بنصر الله .

(٣) ﴿ رَبَّنَا . . . وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ، وَلا تُخْزِنَا

يَومَ القِيَـٰمةِ ، إنكَ لا تُخلِفُ الميعادَ ، فاستجابَ لهم رَبهم ﴾ الخ (٣ : ١٩٤ و ١٩٥) فهذه الاستجابة ليست خاصة باولئك الصحابة أولي الألباب ، الذين كانوا يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم،ويتفكرون في خلق السموات والأرض، ثم يتلون هذا الدعاء ، وليست هـــذه الاستجابة منوطة بأفراد بحسب ذواتهم ومشخصاتهم ، بل هي عامة لكل من اتصف بتلك الأوصاف ، لأن فضل الله ليس قاصراً على شخص دون شخص ، ولكنه منوط بالأعمال والأوصاف ، فأينما وجدت الأعمال والأوصاف ، تحقق وعد الله تعالى ، فالله تعالى لا يراعي ولا يحابي الأشخاص ، ولا ينظر إلى الوجوه ، ولكنه ينظر إلى العمل التي ، فينوط به الجزاء الآلهي .

الله يؤتي كل محسن حكماً وعلماً على قدر احسانه

وعلى هذا فيمكننا أن نقتطف من قوله تعالى : ﴿ وكذلكَ نجزي المحسنين ﴾ قاعدة كلية مطردة ، وهي ان كل محسن يؤتيه اللهحكماً وعلماً ، على قدر إحسانه، ممن كان وممن هو كائن ، وممن سيكون وسوف يكون . فليعتبر بذلك القارئون والسامعون .

المراودة

آ (٢٣) ﴿ وَرَاوَدَتْهُ التي هُوَ في بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ ، وَغَلَّقَتِ الأَبْوابَ ، وقالتْ : هَيْتَ لَكَ ! ـ قالَ : مَعاذَ اللهِ ! إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ ، إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظالمونَ . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة والعشرون وما كاد المقرر ينتهي من تلاوتها حتى سمـع جلبة من مقصورة النساء المؤتمرات كلا منهن تريد التكلم على هذه الآية فقامت أولاهن وهي السيدة انصاف الدمشقية وقالت :

في يوم من الأيام دخل يوسف القصر ليقوم ببعض الخِدَم والملاحظات والترتيبات على حسب عادتـه ، فانتهزت امرأة سيـده فرصة خلو المكان من كل أحد ما عداهما ، فاقتربت منه (وراودته)أي كلمته (التي هو في بيتها) وهي السيدة زليخا ـ والمراودة مفاعلة من راد يرود : إذا جاء وذهب ، كأن المعنى خادعته ـ (عن نفسه) أي فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لايريد أن يخرجه من يده ، يحتال أن يغلبه عليه ويأخذه منه ، وهي عبارة عن التمحل لمواقعته إياها (و) لما لم تفد المراودة الكلامية وقام بها تهيج جنسيٌّ شديد (غلقت الأبواب) أي كل ماللقصر من أبواب ، حذراً من هروبه، وخوفاً من مجيء إحدى الخادمات على غفلة ولئلا يسمع أحد كلامهما ، إذ الأبواب والنوافذ « آذان البيت » (وقالت) له بصريـح العبارة وبلسان الغرام والحب (هيت) أي أقبل ، فسألها لمن تقولين هذا الكلام ؟ ـ فقالت (لك) ـ (قال) بلسان العظمـة والنفور : بَرْحَى ، لا

يكون ذلك دون أن يبيض الفار ويجتمع الليل والنهار ، أنا أخون مولاي العزيز في عرضه ؟!؟!؟! .. (معاذ الله) أي أعوذ بالله معاذاً (إنه) أي الشأن والحديث (ربي) سيــــدي ومالـكي وهو فوطيفار ﴿ أحْسَنَ مثوايَ ﴾ حين قال لك : ﴿ أكرمي مثواه ﴾ ، فما جزاؤه أن أخلفه في أهله سوء الخلافـة وأخونه فيهم ﴿ إنه لا يفلح الظالمون) الذين يجازون الحسن بالسيء .

(وراودته التي هو في بيتها)

— ١ —

وقالت السيدة علية المكية (1) :

المراودة من زليخا والترفع من يوسف

جعلت زليخا تفكر فيما مر بها من الأهوال منذ عرفت يوسف ، وما رأتـه من حوادث الحب وهواجسه ، وتذكرت حالها قبل قدوم يوسف إليها ، وأنهـا كانت خلية البال ، لا تعرف الهواجس ولا الأفـكار ، وكان السبب في ذلك كله الحب ، ذكرت يوسف وجماله فطارت عجباً ، ثم ذكرت أنه فتاها ورهين إشارتها فرقص قلبها طرباً وسهل عليها ما ينتابها من الشواغل والحب ،ظنت أن في وجوده عندها بصفتـه عبداً لهـا مؤتمراً بأمرها تعزية لها ، تنسيها الهموم وتخفف عنهـا الأحزان ، وتهون عليها أمر حبها له ، فانتعشت جوارحها وثابت إليها آمالها . وانجلى صـدرها وانبسطت نفسهـا ، وكانت غادة في مقتبل العمر ، وشرخ الفتوة، جميلة الطلعة ، قد أشرق وجهها بماء الشباب ، وقد تعبدت له وسلمته قلبها . لأن المرأة

---

(١) نسبة الى مكة المكرمة من البلاد الحجازية .

تفوق الرجال في بعض القوى العاقلة ، كالإدراك عن طريق الحواس ، المعروف بالشعور ، وكسلامة البداهة والذوق العقلي ، فلذلك مالت إليه كثيراً . ومع كل هذا لم تكن ترى منه ميلاً وانعطافاً فلبثت أياماً تتردد بين اليأس والرجاء ينقبض صدرها تارة ، وينبسط أخرى ، فبالغت في تعزية نفسها عنـــه ، ولكنها لم تتعز ، فغلب الحب على عواطفها، واستحوذ الضعف الطبيعي وسلطان الهوى على مشاعرها وعيل صبرها ، فخضعت لعواطفها ، ورضخت لأميالها ، فانتهزت فرصة دخوله البيت ليصلح بعض شأنه ، كما هو العادة كل حين ، فلم يَرِمْ مكانه حتى دنت منه ، وجعلت تنظر إليه نظرات الحب والشغف ، وتفضي إليه من طريق الصمت والسكون ، بما تخجل عن الإفضاء به من طريق الكلام ، ولما لم يفد معه ذلك ولم تطق هي صبراً استجمعت قواها فراودته ويا للخجل !!! ... فاقشعر بدنه ووقف شعره ، وقال مستهجناً مستغرباً : ماذا تقولين يا إمرأة ؟!..! لقـــد ابتغيت بيض الأنوق ، وطلبت المستحيل ، إني ولدت شريفاً ، وعشت شريفاً ، هو ذا دم الشرف والأصالة جار في عروقي ، وهاهي ذي العفة اليعقوبيـة سارية في كل جروحي ، فبعد ذلك هل أسمح للتاريخ أن يسجل عليّ فعل الفحشاء ؟...لا والذي نفسي بيده وبعد فهل لهذا غلقت الأبواب ، وتنازلت مني في الخطاب اللين ، فوالله ما أحسنت في القول ، ولا أجملت في الفعل .

الكبرياء

إنه لأمر غريب أمر هذه المرأة ! فقد كانت تحسب مراودتها إياه منة وتكرماً عليه، وكانت تظنه لا يلبث إن علم بميلها أن يطير فرحاً ، لأن حاله الدنيوي منحط عن حالها كثيراً ، فهو فتاها وعبدهـــا ، وعبراني غريب ، وهو في نظرها من السوقة ، ومن سائر النـاس ، وهي سيدته وقرينة سيـده ، وأميرة من أميرات

البلاط الملكي ، ومن سلائل الفراعنة فلذ لكم كانت تتوقع منه قبول اقتراحها ، والنزول على إرادتها بما لها من دالة السيادة والنفوذ .

المرأة العتيقة الجديدة

وغنى عن البيان ، أن هذه المرأة من قدميات النساء المصريات وهو ظاهر ، لأن بينها وبين الإسلام ما يقرب من (٣٧٠٠) سنة قمرية فهي بحسب الزمان من نوع « المرأة القديمة » ولكنها بحسب مسلكها وأفكارها . هي من نوع « المرأة الجديدة » ، إذ كانت لها السيادة المطلقة في المنزل ، بدليل قول العزيز لها : « أكرمي مثواه » ، وكانت تبغض الحجاب بغض الشريفات للسفور ، بدليل انها راودته عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت : « هيت لك » وكانت متهتكة لا تبالي بشيء ، بدليل انه لما هرب منها لحقته الى الباب ، وهي متعلمة نبيهة مدافعة كأكبر المحامين ، بدليل قولها للعزيز ،وهي في أحرج المواقف وأذهبها للألباب : ﴿ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً الا أن يسجن أو عذاب أليم﴾ ، وقولها للسيدات المصريات: « هذا الذي لمتنني فيه » تقيم عليهن الحجة ، وكانت تعرف كل شيء ، إلا واجب عرضها وواجبات زوجها ، بدليل انها خانته في نفسها أولاً ، ثم لم تمتثل أمره ثانياً، وكانت لها المهارة في الخداع والتغلب على عقل الزوج ، بدليل انها نفذت وعيدها ليوسف بالسجن ، فاقنعت زوجها بذلك ، فسجنه حتى حين ، وأخيراً كانت ذات بيان واقتدار فصيحة وخطيبة بليغة ، بدليل النطق الذي فاهت به أمام مندوب التحقيق من طرف الملك ، إذ قالت : « الآن حصحص الحق » الى آخر الآيات الثلاث ، فهي بأوصافها هذه تعد من نوع « المرأة الجديدة » بكل معنى الكلمة .

المرأة أعف من الرجل

وقبل الختام ليسمح لي السامعون الكرام أن أنتصر للمرأة ولهم عليّ أن لا أتكلم إلا بما يوافق العقل والمنطق وبما هو مدون في بطن كتب التاريخ :

إن هذا النوع من بدء المرأة بمراودة الرجل نادر ، وقليل جداً ، ومن المسلم به أن المرأة تقل عن الرجل فساداً وشذوذاً ، وتزيد عليه فضلا وعفة ، انظر إلى أيّ بلد شئت من البلاد الكبيرة ، وتطلع فيها الى « دور الفسق » تجد في كل بلد يعد أهله الخمسين الفاً من السكان ، الفاً من النساء من تلك الطبقة « الشاردة » وتجد من يرتادون هذه الدور من الرجال عشرة آلاف ، أي أن كل واحدة من « الشاردات » يقابلها عشرة من « الشاردين » وهذا تقدير تقريبي ، ولكنا نظن أنه صحيح في الأغلب ، بالنظر للبلاد الكبيرة ، التي دخلتها المدنية العوجاء ، وأما البلاد المتوسطة « فالساقطات » فيها ، هن واحدة في المئة ، وأما البلاد الصغيرة « فالساقطات » واحدة في الألف ، وربما شذ في بعض العائلات واحدة بينها أولا يشذ منها أحد مطلقاً من النساء ، ولكن يكون قد خرج عن قانون العفة فيها جمع من الرجال ، وهذا أمر مشهود يعرفه جميع الناس ، ويعترفون به سراً ، إذا لم يكن جهراً ، وها نحن أولاً نلاحظ أن المرأة في الشارع أكثر حشمة ووقاراً من الرجل ، ويندر أن تتحرش امرأة برجل ، حتى ولو كانت من « الشواذ » إلا قليلاً ، ولا نرى المضايقة تأتي إلا من قبل الرجال ، بما فيها من كلام لطيف أو خشن .

وظاهر ان للمرأة رجحاناً في كفة العفاف على الرجل ، وهذه ميزة لها ، يجب علينا الاعتداد بها والافتخار ، وترويض النفوس على الاقتداء بما فيها .

وأما حادثة «امرأة العزيز» مع يوسف «فشاذة» بسبب أن تلك المرأة اندهشت بجماله العبراني ، فلم تعد تتمالك ، ومما سهلها كثرة اختلاطها به ، وأنه تحت أمرها ويوسف أبى عليها بما أوتي من عفة وطهارة ، فهذه حادثة نادرة في بابها ، فما كل النساء « زليخا » ولا كل الشباب « يوسف » .

وما أريد من هـذا البحث إلا رفع الغرور من رؤوس الذين يتبجحون بفضائلهم ورذل المرأة واحتقارها لهفوتها ، وبظني إن مراودة امرأة لرجل أندر من الكبريت الأحمر ، ولذلك ذكرت هذه المراودة في التاريخ الذي لا يذكر فيه إلا الشيء النادر ، ولو كان يعتنى في التاريخ بذكر فواحش الرجال ، لكانت صحفه مملوءة أكثر مما هي اليوم مرتين ، ولا أحسبكم إلا مسلمون لي في هـذا الاعتقاد على طول الخط .

مقابلة بين زليخا وبين بعض نساء العرب

وتابعت السيدة عليه المكية خطابها قائلة :

والآن ليسمح لي السادة المؤتمرون أن أجري مقابلة بين امرأة العزيز «زليخا» وبين بعض نساء العرب الفضليات اللواتي سطر التاريخ فضلهن وعفتهن ورجاحة عقلهن بمداد من الفخار والشرف فأقول :

١ ـــ أين هذه المرأة (زليخا) من السيدة (خديجة بنت خويلد) ، زوج النبي وأم المؤمنين ، فانها لما رغبت في النبي ﷺ أرسلت إليه عجوزاً تشوقه في خطبتها من وليها ، فالنبي ﷺ بعد مشورة أعمامه ، خطبها من أبيها ، فاقترن بها .

٢ ـــ بل أين هذه المرأة (زليخا) من (هند بنت عُتْبَة) التي أراد أبوها أن يزوجها من أحد رجلين ، رجل ذي ثروة وجمال رائع .. ورجل ليس عنده

شيء من ذلك ، ولكنه منظور إليه في الحسب والنسب ، فعدلت عن صاحب الثروة والجمال ، واختارت الثاني فكان هو (أبا سفيان بن حرب) » فولدت منه معاوية مؤسس دولة بني أمية ، وأحد نجباء العرب ودواهيهم .

٣ — وأين هذه المرأة (زليخا) من الفتاة (بهة بنت أوس) الطائي التي لما زفت إلى (الحارث المري) وأراد ان يدخل إليها ، نسيت لذتها وشهوتها وقالت له: « أتفرغ للنساء ، والعرب يقتل بعضها بعضاً ؟!! » تشير إلى حرب ظلت مستعرة نحواً من أربعين سنة ، بين بني عبس ٍ وبني ذُبيان ، ولم يتفكر أحد في إطفائها إلا هيَ ، فقال لها وهي بين ذراعيه . « ماذا تقولين ؟ » . قالت : « اخرج إلى هؤلاء القوم ، فأصلح بينهم ، ثم ارجع إليّ !!! » ، فقام من عندها وخرج ومشى بالصلح ودفع الديات ، ثم رجع إليها وحظي بها ، فلا ريب أن مسلك هؤلاء النسوة كان خيراً جداً وأشرف مما سلكته (امرأة العزيز) التي كان معظم اجتهادها النظر إلى شهوتها ولذتها .

٤ — وأين هذه المرأة (زليخا) من (معاذة الباهلية) التي نزل بها رجل من العرب ، وليس زوجها عندها ، فأكرمته وفرشت له ، فلما لم ير عندها أحداً سامها نفسها ، فأخذت مدية فأخفتها ، فلما ثار إليها ، ضربته بها في نحره ، فسقط ميتاً (مصارع العشاق ج ٣) .

٥ — وأين هذه المرأة (زليخا) من (أسماء ابنة رويم) التي كانت من نساء العرب العاقلات الحكيمات الولودات والتي كانت تسمي أولادها بأسماء الوحوش الضارية ، قيل أنـه مرّ بها يوماً (وائل بن ساقط) فرآها منفردة في خبائها ، فراودها عن نفسها فقالت : « والله لئن قربت مني ، لأدعون أسبعي » ـ فقال : ما أرى سواك في الوادي ، فصاحت ببنيها : « يا كلب يا ذئب ، يا فهد ، ياسبع ، يا دب ، يا ضبع ، يا نمر » فجاءوا يتعادَون بالسيوف ، فقال وائل : « ما هذا إلا

وادي السباع » فلزم هذا الإسم ذلك الوادي ، وقالوا لها : « ما شأنك ؟ » ـقالت: « إنه نزل بنا ضيف فأحببت أن تكرموه » فأكرموه إكراماً زائداً وانصرف وهو يتعجب من ذريتها ومن حضور بـديهتها ، لتحمل العـذر الذي أبدتـه لأولادها !! .

هـذا قليل من كثير أيها السادة ولو أردت أن أسرد جميع ما كتب في التاريخ من أمثال ذلك لاحتجت إلى مئات من الصحائف .

« وما أن أتمت السيد علية خطابها حتى دوت في قاعة المؤتمر عاصفة حادة من التصفيق وكلمات الاستحسان » .

(وراودته التي هو في بيتها)

— ٢ —

وقالت الآنسة أسماء المقدسية :

المراودة من طرف واحد

كانت زليخا أولاً فارغة من حب يوسف وسواه ، ولكن لما وُجـد يوسف عندها على ما هو عليه من الصباحة ، ومقتبل الشباب ، وشرخ الفتوة، وتكررت (طبعاً) رؤيتها له صباح مساء ، علقت به من حيث لا تشعر ، ومن غريب أمر الحب أنه يقع على الناس وقوع السبات ، من حيث لا يعلمون .

أحبت يوسف ، ويا ليتها اقتصرت على الحب فعفّت وصبرت ، ليكون طاهراً، بل أرادت تلويثه بما فعلت ! إذ تاقت نفسها وشرهت ، وألـحّ عليهـا الغرام ونازعتهـا الميول الجسـدية واستولى عليهـا سلطان الحب فأنساهـا سلطانها،

وسلطان سيدهـا ، الذي كان رئيس الشُرَط ، وناظر الحَرَم ، وعزيز مصر ، والحب نافذ الكلمة ، ماضي القضاء ، غالب على كل سلطان ، يستذل الملوك ، ويحطّم سيوف القادة .

علقت زليخا بيوسف ، وأرادت قضاءوطرها منه ، فجعلت تفكر هل تطيع قلبها وتعصي زوجها ؟ وهل سيكون عند يوسف مثل ماعندها ؟ وهل يمكنها الوصول لذلك بدون أن يشعر بها أحد من خدمة قصرها ؟ وهل يمكن ليوسف أن يدوس إرادتها تحت أقدامه ولا يمتثل أمرها ، وهي سيدته النافذة ؟ وهل سيُخفي هذا الأمر أو يُفشيه .

قضت في ذلك أياماً وليالي ، وهي تطوف في عالم الخيال ، ثم تعود إلى حيث بدأت ، حتى لم تعد تستطيع الصبر ، ولم تمالك السكوت ، فتغلبت عواطفها على عقلها، واستسلمت لشيطان شهوتها، وانقادت لميولها الحيوانية، وآثرت اللذة الفانية، على لذة الشرف الباقية وتنزلت عن عرش أنفتها وعزة نفسها، وترلفت له بالدوطاب من لطيف الخطاب ولما لم تكن ترجو الوصول لمطلوبها بسهولة ، افتكرت أن هذا الأمر يحتاج إلى روّية وتمهيد ، فابتدأت في مناغمة يوسف ومناغشته بالبسمة الخفية ، فلم تجد منه سوى الجد والإغضاء والصلابة ، ولم تر في شيء من حركاته وأقواله مايفتح لها نافذة من الأمل ، ولكن الحب كان يمترض عوامل اليأس فيها ، وكانت أميالها وآمالها تقوى شيئاً فشيئاً ، — والخلوة — كما يقولون — رُقية الفحشاء — ، كما ان — الجمال عزيمة الحب — فراودته جائية ذاهبة وذاهبة جائية ، ولكن هو لم يراودها ، فالمفاعلة من واحد ، كمطالبة الدائن ، ومماطلة المدبون ، ومداواة الطبيب ونظائرها ، مما يكون من أحد الجانبين بالفعل ، ومن الجانب الآخر سببه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وقَاسَمَهُمَا ﴾ (٧ : ٢٠) أي حلف لهما ، ولم يحلفا له ، كما قاله البخاري ، ومنه كلمة : فقاطع كلامه .

وإنما وقعت المراودة منها فقط لأن الغريزة النوعية فيها أكثر عملاً وأقوى فعلاً ، فضلاً عن أن عواطفها تتغلب على عقلها بعكس الرجل الذي يتغلب عقله على عواطفه ، فهي أحس بالجمال من الرجال وإن كانت أضيق له فهماً ، ولا تنس ما ليوسف عليه السلام من عفة دينية ، لا يزعزعها جمال ولا جبال .

(وراودته التي هو في بيتها عن نفسه)

— ٣ —

وقال الامام الزاهري لي على هذه الفقرة التعليقات التالية :

الحكمة من ذكر حديث المراودة

١ — لا بد لسائل يسأل عن الحكمة في ذكر حديث المراودة فنقول إن في ذلك هي العبرة للقارئين ، ليحتاطوا لأنفسهم فلا يقتنوا في بيوتهم الفتيان والمماليك وإذا اقتنوهم لم يسوغوا لهم الخلوة بنسائهم فإنهم إن يفعلوا هكذا يمزقون أعراضهم بأيديهم ، ولا يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، إذ ليس كل فتى هو يوسف ، وليس كل مملوك كهذا « الملاك الكريم » كما إن الحكمة في ذكر حديث المراودة الصادر من امرأة العزيز وذكر تهتك النسوة المصريات وعشقهن ليوسف واستغراقهن في جماله وتقطيعهن أيديهن وتغزلهن في محاسنه ، هو الذم في أهله بصورة تبغضه وتنفر عنه ، وتوجب الانتهاء عما نهى الله عنه ، والبغض لما يبغضه ، وتبين سوء عاقبة أهله ثم تبين عفة يوسف وطهارته ، وحسن عاقبة المتعففين ، وسوء عاقبة الساقطين ، هذا وقد قص الله تعالى علينا في القرآن الكريم قصص الأنبياء والمتقين وقصص الفجار والكافرين ، لنعتبر بالأمرين ، فنحب الأولين وسبيلهم ونقتدي بهم ، ونبغض الآخرين وسبيلهم ، ونجتنب فعالهم .

والحكمة أيضاً في ذكر قصة المراودة هي تعليم الاناث ان عاقبة مراودة الشابات للشبان إنما هي الخزي والعار وسوء السمعة وانها مهما اجتهدت في قلب الحقيقة وستر الفحشاء ، فلا بد أن الله تعالى يظهر الحق ويدافع عن الأبرياء الأعفاء وإن الانثى الساقطة قد يكون أبوها أو أخوها أو غيرهما من أهلها من المقاومين لها ، كما اتفق أن الرجل الشاهد من أهل زليخا كان من أعظم المقاومين لها وكذا زوجها العزيز ، وكذلك صديقاتها النسوة المصريات ، وان العاقبة للأعفاء الطاهرين ، وفيه أيضاً تعليم أن سقوط الإمرأة أو محاولتها السقوط ربما يسبب زوال محنة بزوجها ، كما وقع لزوج زليخا فانه أنزل عن وظيفة « عزيز مصر » بسبب أعمال زوجته ، فظهر أن في قراءة هذه القصة أو هذه السورة فائدة كبرى للرجال والنساء .

وأما ما يرويه بعض المفسرين من حديث : « لا تعلموهن سورة يوسف ، علموهن سورة النور » فهو من الموضوعات ، وماذا يقول من يروي مثل هذه الأخبار الموضوعة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ (آ : ٢) هل هذا التعقل خاص بالرجال ؟! وما يقول في قوله تعالى: ﴿ نحنُ نقصُ عليكَ أحسنَ القَصصِ ﴾ (آ : ٣) فهل أحسن القصص هذا مخصوص بالرجال ؟! وماذا يقول في قوله تعالى : ﴿ لقد كان في قَصَصِهم عِبرةٌ لأولي الألباب ﴾ (آ : ١١١) فهل هذه العبرة هي منحة ومزية للرجال فقط ؟! وما القصد من قوله تعالى : ﴿ ذلكَ مِنْ أنباء الغيبِ نوحيه إليك ﴾ (آ : ١٠٢) فهل القصد نوحيه إليك لتبلغه الرجال فقط وتكتمه عن النساء أو لتبلغه للجميع كما هو مقتضى عموم قوله تعالى : ﴿ يا أيها الرسولُ ، بَلّغْ ما أُنزلَ إليكَ مِنْ رَبّك ، وإن لم تَفعلْ فما بلّغْتَ رسالته ﴾ (٥ : ٧٠) وهل القرآن نازل لأجل الرجال فقط أولهم وللنساء ؟ وهل تبليغ الرسول لما أنزل من ربه خاص

بناس دون ناس ، وبشيء من القرآن دون شيء ؟! سبحانك هذا بهتان عظيم ، وإذا كنا منهيين عن تعليم نسائنا سورة يوسف لما فيها من ذكر قصة امرأة العزيز ، فلم لا ننهى عن كل قصة يوسف مع إخوته لما فيها من ذكر قطع الرحم والعقوق والختل .. والخ والخ .

فالخلاصة ان رواية النهي عن تعليم النساء سورة يوسف هي كاذبة محضة وفرية على الله ورسوله والله أعلم .

مواضع استعمال المراودة في القرآن

٢ـ لم تقع هذه المادة « المراودة » في القرآن الكريم إلا في موضوع الإحتيال والدهاء ، فحيناً استعملت في مفاوضة (امرأة العزيز) ليوسف الصديق ، كما هنا وحيناً استعملت لدى مفاوضه أبناء يعقوب لأبيهم في إرسال بنيامين معهم لمصر عند رحلتهم الثانية ، وذلك في قولهم : ﴿ سنراود عنه أباه ﴾ (آ: ٦١) وحيناً استعملت في مفاوضة السدوميين لنبي الله لوط (م) بشأن ضيوفه الملائكة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ ولقد راودوهُ عن ضَيفِهِ ، فطمسنا أعيُنَهُم ﴾ (٥٤ : ٣٧) فهذه مواضع ثلاثة وردت فيها هذه المادة ، ولم ترد في غيرها ، وكلها من نوع التحيل والاستدراج كما قلنا .

اختلاط الرجل بالمرأة

٣ـ نعلم حق العلم أن الذي سهل على زليخا (امرأة العزيز) مراودة عبدها العبراني (يوسف) إنما هو المخالطة والخلوة ، ولو لا ذلك لما حصل شيء مما ذكر .

قيل لأعرابية : « لِمَ زنيتِ بعبدِكِ ، ولم تزنِ بحرٍّ ، وما أغراك به ؟ » ـ قالت : « طول السواد ، وقرب الوساد » فما يمرق السهم من الرمية كمروق السيدة للباطل ولمذاكرة عبدها الذي تختلي بـه بلا رقيب ولا ملاحظ ، بخلاف ما إذا لم تكن هناك مخالطة ولا خلوة ، فان وصولها لهذا الأمر لبعيد جداً .

فاختلاط الرجل بالمرأة فيما إذا كان (مثلاً) زائراً أو خادماً كما هنا لهوا اختلاط محفوف بالمخاوف .

وبدعة الاختلاط ، وبالأحرى بدعة المفاوضات السرية الدنيئة ، موجودة (غالباً) في الطبقات العليا من الناس ، وإنما قلنا (غالباً) لأننا نعرف أنه يوجد في الطبقةالعليامن هن أعف وأشرف من كل من عداهن، وحكم الطبقات الدنيا كحكم العليا ، وأما الطبقات الوسطى ، فهن أبعد عن أمثال هذه البدعة من الطبقتين .

وكما كان الاختلاط والخلوة من أسباب سهولة المراودة في العصور القديمة فهو من سموم العصور الحاضرة الحمقاء ، ومن دواعي السفور والخلاعة والاستهتار،

وقد أثبت كتاب أوربا وكاتباتها ــ ان سبب سقوط أكثر النساء عندهم هو اختلاط المرأة بالرجل في البيوت والمعامل والمخازن والأسواق وغيرهـا من أبواب الحياة .

ولذلك جاءت الشريعة المحمدية بالحجاب الحقيقي الشرعي ، وهو يتجلى في كل مايمنع الفتنة ، قال تعالى : ﴿ يا أيُّها النبيُّ ، قُلْ لأزواجِكَ وبناتِكَ ونساءِ المؤمنينَ : يُدْنِينَ عليهنَّ مِنْ جلابيبهنَّ ذلكَ أدنى أنْ يُعْرَفْنَ ، فلا يُؤذَيْنَ ، وكانَ اللهُ غفوراً رحيماً ﴾ (٣٣: ٥٩) وقال تعالى : ﴿ وقُلْ للمؤمناتِ : يَغْضُضْنَ مِنْ أبْصارِهِنَّ ، ويَحفَظْنَ فُروجَهُنَّ ، ولا يُبْدِينَ زينَتَهُنَّ إلا ما ظَهَرَ منها وليَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ ، ولا يُبدينَ زِينَتَهُنَّ إلا لِبُعُولَتِهِنَّ أو آبائِهِنَّ أو آباءِ بُعُولَتِهِنَّ أو أبنائِهِنَّ أو أبناءِ بُعولَتِهِنَّ أو إخوانِهِنَّ أو بني إخوانِهِنَّ أو بني أخَواتِهِنَّ أو نسائِهِنَّ أو ما ملكَتْ أيمانُهُنَّ أو التابعينَ غيرِ أولي الإرْبَةِ مِنَ الرجالِ أوالطفلِ الذينَ لم يَظْهَرُوا على عَوراتِ النساءِ ،

ولا يَضْرِبْنَ بِأرجلِهِنَّ ، لِيُعْلَمَ ما يُخفِينَ مِنْ زِينتِهِنَّ ، وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنونَ ، لعلكم تُفلِحون . ﴾ (٢٤ : ٣١)، ومعلوم أن يوسف لم يكن مملوكاً لامرأة العزيز ، بل لسيدها ، ولم يكن من غير أولى الا ربة ، بل من أصحابها .

هذا وإن الشرع الشريف ، يحرم الخلوة بالمرأة الأجنبية ، وكذلك مكالمتها للأجنبي مع الخلوة دون الملأ ، وأما مكالمة المرأة الرجال في الملأ ، فجائزة ، كما كان يقع ذلك من نساء النبي (ص) مع الأجانب ، وهن اللاتي أُمِرْنَ بالمبالغة في الحجاب ، وقد ورد : « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكلم إحدى أزواجه « زينب » في باب المسجد ، فمر رجلان ، فأسرعا في المشي ، فقال لهما : على رسلكما ، إنها فلانة » ففي هذا تنبيه للمسلمين ، الى أنه لايجوز للرجل أن يخلو بامرأة ، مهما كان صالحاً ، هذا في الشريعة الاسلامية ، ولعل الشريعة الابراهيمية — العبرانية — كانت تبيح كلا من الخلوة ، والمكالمة في الخلوة ، كما وقع من يوسف ، أو لعل يوسف كان يرى نفسه مقهوراً على ذلك ، حيث انه عبد .

وقد أباح علماء المسلمين رؤية الوجه واليدين ، قائلين إنهما ليسا بعورة ، ومن قال إنهما عورة أباح رؤية الوجه ونحوه إذا مست الحاجة ، وذكروا من ذلك تحمل الشهادة والمتاجرة مع المرأة والتطبيب والمحاسبة وما إلى ذلك ، وبالجملة : فالمدار عندهم على الحاجة كائنة ما كانت .

وجه اضافة البيت الى زليخا

٤ـ كثيراً ما أضيف البيت إلى النساء باعتبار انهن القائمات بمصالحه أو الملازمات له ، كما يقول الكتاب : ﴿ وَقَرْنَ في بيوتِكُنَّ ﴾ (٣٣ : ٣٣) و ﴿ هَلْ أدُلُّكُمْ على أهلِ بيتٍ تكْفُلُونَهُ لكم ؟ ﴾ (٢٨ : ١٢) و ﴿ إنما

يريد الله ليُذهِبَ عنكُم الرِّجْسَ أهْلَ البيتِ ﴾ (٣٣ : ٣٣) ﴿ ولا تخرِجُوهُنَّ مِنْ بُيوتِهِنَّ ﴾ (٦٥ : ١) هذا وجه ، ووجه آخر ، وهو انه قد يكون لنساء الحكام والأمراء ، وذوي البيوتات الرفيعة بيت خاص بهن ، لزيارة النساء ، كما يكون للرجال بيت خاص بهم ، لاستقبال الرجال ، ويكون بيت ثالث قريب من الباب يسمى بهواً .

وكلمة « في بيتها » ، أريد بها أمران ، الأول الستر عليها ما أمكن ، بعدم التصريح باسمها ، والثاني الإشارة إلى استهجان هذه المراودة بكون (امرأة العزيز) إنما راودت عبداً ، هو من خدمة القصر ، وممن حوام القصر للخدمة .

وفي تبيان أن يوسف « في بيتها » ثم تغليق الأبواب ، واستعدادها له ـ إعلاء لشأن يوسف ، لأن كونه في بيتها أدعى إلى موافقتها ؛ وتغليق الأبواب ، أدعى وأدعى ، فان المستتر لا سيما مع من يملك أمره ـ يفعل ما لا يفعله الذي يستبين فعله ويظهر حاله ، وقد راودته من تملك أمره ، وتملك نفعه وضره ، فالعفة مع هذه الأحوال أرقى ما وصل إليه أهل العفة .

لماذا عبر بكلمة « عن نفسه »

٥ـ وأما كلمة « عن نفسه » فمعناها خادعته عن نفسه ، فعدّى بـ « عن » لتضمنه معنى المخادعة ، أي فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه ، عن شيء لا يريد صاحبه إخراجه من يده ، وهو يحتال أن يأخذه منه ، والكلمة عبارة عن التمحل في مخالطته إياها .

عمر يوسف وزليخا حين المراودة

٦ – نعلم أن يوسف لما اشتراه (عزيز مصر) كان ابن ١٧ سنة وأما كم كان عمره وعمر زليخا حينما حدثت تلك الحوادث ، حوادث المراودة فذلك سؤال لا يمكننا الإجابة عنه ، غير ان الظاهر من التاريخ ، ان عمر يوسف حين المراودة كان يتراوح غالباً بين ٢٦ و٢٧ سنة ، كما أننا نقدر أن نستنتج من حال امرأة العزيز وشبقها وشغفها وحبوتها انها كانت نصفاً أو إلى الشباب أقرب .

(وغلقت الأبواب ..)

— ١ —

وقالت السيدة لطيفة العامرية :

أبواب قصر العزيز

لما دخل يوسف يوماً على جاري عادته قصر سيده العزيز ، انتهزت زليخا فرصة تلك الخلوة ، فأرادته ، فأبى ، وهكذا ما زالت تؤزه أزاً ، وهو لا يزداد إلا ترفعاً ، حتى اضطرها إلى أن قامت مسرعة وغلقت الأبواب ، ومنعت كل دخول وخروج منها ، وقالت : الآن اختر الحائط التي تريدها واخرج منها .

والأبواب هذه ، هي كما جرت العادة من القديم إلى الآن أن يكون لقصور الأمراء والكبراء عدة أبواب ونوافذ من الجهات الأربع ، أو أن يكون لكل قصر أبواب متتابعة بعضها وراء بعض خارجة وداخلة ووسطى ، وقد جرى «أبو حيان» في « البحر » على الاحتمال الأول إذ قال : « هي أبواب ليست على الترتيب باباً باباً بل هي في جهات مختلفة ، وكلها منافذ للبيت الذي كانا فيه » ، وقد قلنا شأن بيوت الأمراء والكبراء أن يكون للقصر الواحد عدة أبواب في عدة نواح للدخول

والخروج ، كما يكون فيها عدد من النوافذ لتبادل الهواء ودخول النور ، فلعل تلك المرأة أوصدت كل ذلك وقوله فيما يأتي : ﴿ واستبقا الباب ﴾ بالإفراد يؤيد الاحتمال الأول .

المراودة وتغليق الأبواب

وعندنا أن تغليقها الأبواب كان لأحد ثلاثة أسباب أو لجميعها :

الأول — التقدم لتلك الفعلة الشنعاء التي تُرخى على مثلها الستور ، وتُسد النوافذ ، وتقام من حولها الدعائم والجدران .

الثاني — خوف أن يدخل أحد من الخدم والجواري الذين اعتادوا الدخول فيه بلا إذن ، ليعملوا عملهم ، أو خوف أن يفتهم العزيز نفسه إذا جاء على حين غرة وفي غير وقت مجيئه المعتاد .

الثالث — خوفها أن يأبى يوسف عليها ، ويركن إلى الهروب من بين يديها ورب سائل يسأل : لماذا لم تغلق الأبواب قبل المراودة . مع أن فيه احتياطاً واحتفاظاً أكثر ، ثم أليست حكاية المراودة تكفي عن ذكر أنها قالت له « هيت لك » ؟ لأنهما شيء واحد ؟ فالجواب هو أن هذا السؤال مبني على أن ما ذكر في كلام الله تعالى هو حادثة واحدة ، وهو ما درج عليه المفسرون ، وعندنا انه يحتمل أنها حادثتان ، فالحادثة الأولى هي أن « امرأة العزيز » كانت رفعت عينيها إلى يوسف يوماً ما وراودته فأبى ، ثم كلمته يوماً آخر ولاحقته على أن يضطجع معها ، ولكنه لم يسمع وأبى إباء كلياً ، ثم حدث بعد ذلك أن دخل القصر ليقوم بما كان عليه من الأعمال والخدم ، باعتبار أنه وكيل البيت ، وناظر حرم، فكلمته أيضاً وأرادته على نفسها قائلة : « هيت لك » تعال اضطجع معي في هذه الكلّة ، فقال : « معاذ الله » الخ ما حكاه الله تعالى عنه ، فطلب امرأة العزيز

ليوسف تكرر مراراً ، كما صرح به في (تك ٣٩ : ٧ — ١٣) وقد أشار الله تعالى لذلك بكلمة « راودته » ، وكل لبيب بالإشارة يفهم ، لأن هذه الكلمة تشعر بالذهاب والإياب تكراراً ، كما نعلمه من كتب اللغة ؛ وبهذا التحقيق يظهر أنها حادثتان ، لا حادثة واحدة ، فقوله : ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ﴾ يشير للحادثة الأولى وقوله : ﴿وغلقت الأبواب ، وقالت هيت لك ﴾ الخ يشير للحادثة الثانية ، وبهذا يظهر الجواب عن السؤال بشقيه .

ويجوز أن تكون راودته بلطف وإيماء ، ولما لم تر منه نزولاً على إرادتها ، قامت وغلقت الأبواب ، وانتقلت من دور اللطف والايماء الى دور الصراحة والوضوح فقالت : « هيت لك » وعلى هذا فالحادثة واحدة ، والله تعالى أعلم .

ما معنى « غلّقت »

و « غلقت » أجافت وأوصدت دونه الأبواب ، وأرتجتها « بالمزلاج » وهو ما يفتح باليد ، ويقال له في عرف اهل الشام « الدّقْر » ، حملاً على العوائد القديمة عند أهل العالَم ، أو ارتجتها « بالمغلاق » ويقال له « الغلَق » ، وفي العرف « ضَبّة » وهذا لا يفتح إلا بالمفتاح ، أو غلقتها « بلاقطة » من خشب سهلة الحركة ، ويقال لها في عرف أهل الريف اليوم « لَقّيطة » .

وقد عبر « بغلّقتْ » دون « غَلَقتْ » لأنه لثغة أو لغية رديئة متروكة « ولا يقال لباب الدار مغلوق » فما بقي إلا غلّق وأغلق ، ولكن الأول أكثر استعمالاً ، وربما قالوا « أغلق » قليلاً ، والأفصح غلّق ، فلذلك اختير في كتاب الله هذا التعبير .

(وقالت هيت لك — قال : معاذ الله)

— ١ —

وقالت الحاجة صفية المقدسية :

طلب زليخا الفاحشة من يوسف واباء يوسف

عملت زليخا أمام يوسف كل عزيمة سحرية ، وحرقت بين يديه البخور ، وقالت بلغة الحب والغرام ، قالت وهي باشة متهللة قالت وهي ترقبه بعينين يشع منها بريق الأمل ، قالت يا يوسف ، أمتع الله بك ، تعال لنقض من اللذات الأرب ، ثم ليكن بعد ذلك الطوفان ، يا يوسف ، إنني في خطر الموت من حبي لك ، وحياتي في يدك ، فهَلُمَّ إليَّ ؛ يا يوسف ، هذا صوتي ، فاسمعني صوتك ، وهذه رغبتي ، فأرني رغبتك ، وهذا حبي ، فأرني حبك ، وهذه إرادتي ، فأرني طاعتك ... وهكذا أقبلت به وأدبرت واجتهدت ، وفي لحن كلامها وملامحها ما يدل على شدة توافقها وترامها ، بغية الوصول لهذا الأمر ، وكانت قد أخفت صوتها لئلا يسمعها أحد ، وجعلت تتطلع من النوافذ خوفاً من تجسس بعض الجواري أو القهرمانات.

سمع يوسف خطابها فتمعّر وجهه ، حتى صار كالصّرف ، وقال أيْ هَنْتاه ، لمن تقولين هذا القول ؟ — قالت لك وإياك أعني ، — قال هل غرك أني عبد لكِ ؟ ، « وأنكِ مهما تأمري القلب يفعل ؟ » حاشا لي من ذلك ؛

فكررت عليه القول وكرر عليها الإباء مبيناً لها حرمة الطلب وشناعة الملتمس ، ولما رأت منه ذلك أخذت تخطر في القصر وقلبها يخطر في صدرها ، ثم أعادت عليه الطلب مُلِحّة مُلحِفَة وأخذت تتبعه بنظراتها ، لتفحص صورة نفسه

المرتسمة على وجهه ، فما رأت إلا أنه قد اربدّ ، وعلاه لون الكدر والكمد وقال لها بملء فيه : برحى' برحى' ، معاذ الله ، وألف مرة معاذ الله حاشا لي أن اقدم على هذه العظيمة التي فيها العار والشنار ، وفي الآخرة النار .

وما زالت امرأة العزيز تستعطفه باللين تارة ، وتعـده بالسعادة تارة أخرى كما انها لم تترك وسيلة من الوسائل إلا اتخذتها للوصول الى غرضها منه ولكن يوسف كافح كفاح الاسود وصبر عما أرادته صبر الرجال ، وثبت على قداسته وطهارته .

ويظهر لنا ان استنكاف يوسف عن مس تلك الأميرة يعد من قبيل الإرهاص لنبوته ، لأن تعفف شاب من الشبيبة ، عن قربان سيدة أميرة ، تطالب منه وترغب اليه أن يعرفها ، حال كون هذا الطلب كان وهو في قصرهـا ، ليس عليها رقيب ولا ملاحظ ، ولا محلّ لخوف يوسف منها أو من زوجهـا ، لأنهــا هي المتزلفة المتهافتة ، فهذا الامتنـــاع في مثل هذه الحال ، هو نادر في بابه جداً ، ويعد من الأولياء كرامة ، وممن سيكونون أنبياء إرهاصاً .

(انه ربي أحسن مثواي)

— ١ —

وقف الشيخ أحمد من علماء « ليبيـا » ليلقي خطاباً حبرته يد السيدة عصمة بالنيابة عنها فقال :

اعتراف يوسف بالجميل

يقول يوسف ان فوطيفار رباني في عهد الثقافة بنعمته ، وكلأني برعايته ، فتح لى صدره ومنازله ، فيجب عليّ أن أحفظ كرامته ، أباح لي التصرف في بيتـه ،

واني إذا لم أحسب له حساباً ، يجب عليّ أن أحسب لفضله وخيره ألف حساب .

ألقى الي مقاليد أموره ، وهو صاحب نعماي ، وقد أمنني على عرضه ، ولا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عقل له ، فلا مندحة من أن أحتفظ بمعروفه، لأن لي شرفاً أحب أن أبقي عليه . أكثر ما أُبقِيَ على متاع الدنيا ولذاتها .

إنني فقدت وطني وأهلي ، وخسرت أبويّ وإخوتي ، ولم يبق لي إلا شرفي ، فهو كل ما أصبحت أملكه ، من بعد ذلك كله ، فهل يسوغ لي أن أعدمه أيضاً ، وأُلحقه بتلك الخسائر ؟!.. حاشا لي من ذلك ...

نعم إنه ربي أحسن مثواي ، وجدا أحسن مثواي فيما درج من الأيام ، وبذل في سبيل راحتي كل مرتخص وغال ، ورَفَدني وأفضل عليّ ، ولا يقدم على هذا الأمر ، إلا كل ناس أو متناس للاحسان ، ميت الضمير ، لا زمام له يزجره ، ولا عقل يعقله ، وإن لي بحمد الله ضميرا حياً يؤنبني ، وعقلاً عاقلاً يعقلني .

هو جعل لي في قصره ، بل وفي قلبه ، المقام الأول ، وكلني على بيته ، وائتمنني على عقيلته وحرمه ، فيجب أن تكون حقوقه عندي مقدسة ، فان كان مثلي يخون ، فرحمة الله على الوكلاء ، وسلام على الأمناء ، إن ما سألتني إياه محظور من وجهين : وجه ديني ، ووجه أدبي ، فلو لم أدع هذا تأثماً ، لتركته تأدباً ، وإذا كانت الشرائع تقول : « لا تخن من خانك » فكيف أخون أنا من أمنني؟ وإذا أراد الله بعبد خيراً ، جعل صنائعه ومعروفه في أهل الحفاظ ، واذا أراد به شراً ، جعل صنائعه ومعروفه في غير أهل الحفاظ ، كما نطقت بذلك الحِكم السماوية ، فهل تريدين أن أكون من غير أهل الحفاظ ، هذا هو مرمى كلام يوسف (م) ومغزاه .

وههنا فوائد :

الاسباب التي تبعد الانسان عن الفحش والمخالطة

الفائدة الأولى — إن ما يبعد الانسان عن الفحش والمخالطة المحرمة ، هو إما سبب صحي يبين الخطر الهائل الكامن في هذا الفعل ، أو سبب ديني ، يدعو إلى الائتمار بأمر الله والانتهاء بنهيه والخوف من ناره وغضبه ، والرجاء في جنته ورضوانه أو سبب أدبي ، يدعو الى المحافظة على المروءة والشرف ، وحسن السمعة وكرم المحتد ، ومراعاة الامانة .

وظاهر ان الذي منع يوسف الصديق (م) هو السببان الأخران ، الديني والأدبي ، فلهذا عصم نفسه بعصمة الله تعالى إياه .

توبيخ يوسف لزليخا ضمناً

الفائدة الثانية — كانت كلمة ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ أشد وقعاً على رأس زليخا من الصاعقة ، ولما سمعتها اضطربت لها كل جارحة من جوارحها ، لأنها تذكرها بارتباطها بزوجها الرباط المقدس ، الذي لا يجيز لها مراودة سواه بمثل ذلك ، ولا ريب أنه عندما سمعت جوابه ، استاءت وخجلت بتلك الكلمة ، لما تضمنته من التوبيخ والتعنيف ، ولكن مع الاسف رغماً عن كل ذلك ، فما زالت مندفعة بتيار العواطف الرديئة ، حتى كررت عليه الطلب ، فالجأته الى همه بقتلها فالهرب كما سيأتي .

تعريض يوسف بزليخا

الفائدة الثالثة — يريد بقوله « إن ربي أحسن مثواي » نفسه ، ثم هو أيضاً يعرض به لها ، كأنه يقول : أنا أفتكر هذا الفكر ، وأحفظ لسيدي معروفه معي ، وأحافظ على شرفه ، فكان من الواجب عليك أنت أيضاً أن تحفظي لسيدك (الذي أحسن مثواك) حقه ، ولا تظلميه في التعدى على شرفه ، بل إن هذا بك أولى مني ، فليس العبد أولى بحفظ معروف سيده وبالمحافظة على شرفه — من زوجته (شريكة حياته التي هي وهو إنسان واحد) .

المراد بالرب في قوله انه ربي

الفائدة الرابعة — نتعلم من قوله « إنه ربي » أن إطلاق لفظ « الرب » مضافاً للعاقل — على غير الله تعالى كان جائزاً عند يوسف الصديق وفي عصره ، أو بعبارة أصح كان جائزاً في شريعة جده إبراهيم (م) بل إن مثل ذلك وارد في شريعتنا ، ففي صحيح البخاري ، في أشراط الساعة الصغرى : « وأنْ تلد الأمة ربها » وفي رواية « ربتها » ، وربما جاء باللام عوضاً عن الاضافة إذا كان بمعنى السيد ، قال الحارث بن حلزة :

فهو الرب والشهيد على يوم الحِيَارَينِ والبلاء بـــلاء

(مصباح) ومنه ما في صحيح البخاري أيضاً : « إن تداول سلمان الفارسي بضعة عشر من ربّ إلى ربّ » ، أي تداولته الأيدي من مالك إلى مالك .

وعليه فيكون المراد هنا « بالرب » — « عزيز مصر » والرب بمعنى السيد والمولى والمالك .

ومنه فيما أفهم على احتمال ما في قوله تعالى : ﴿ لولا أنْ رآى برهانَ رَبِّه ﴾ (آ : ٢٤) إذ يحتمل عندنا أنه بمعنى سيده ومالكه وهو فوطيفار ، وبرهانه هو إحسانه لمثواه . ومنه : ﴿ فيَسْقي رَبَّه خَمْراً ﴾ (آ : ٤١) أي سيده ومولاه وهو الريان مليك مصر .

ومنه : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ (آ : ٤٢) ، أي سيدك وهو الريان .

ومنه : ﴿ فأنساهُ الشيطانُ ذِكرَ ربِّهِ ﴾ (آ : ٤٢) أي الريان .

ومنه : ﴿ ارجع إلى ربك ﴾ (آ : ٥٠) أي الملك الريان .

ومن هذا القبيل — فيما نفهم — مافي قول يوسف : ﴿ إنَّ ربي بكيدِهِنَّ عليمٌ ﴾ (آ ٥٠) فربه ههنا فيما نفهم هو سيده ومالكه عزيز مصر ، الذي كان علم بكيدهن ، إذ قال : ﴿ إنَّ كيدَكُنَّ عظيمٌ ﴾ (آ ٢٨) ، ودليلنا على ذلك أن يوسف يريد الاحتجاج ، ولا تقوم له حجة ، إلا إذا كان المراد من لفظ « ربي » في هذه الآية هو ما فهمناه ، وأما علم الله فلا ينهض حجة عليهم ، لأنه غير مطّلع عليه ، بل هو غيب محض ومن اطلاق « الرب » على السيد ما في قول « أبي نُخَيْلَة » يمدح « هشاماً » :

إلى أميرِ المؤمنين المُجتدي رَبِّ مَعَدّ وسوى مَعَدٍّ

تعاليم الاسلام في كلمة الرب

الفائدة الخامسة — إطلاق « الرب » على غير الله تعالى اصطلاح عتيق ، كان جرى عليه الأشوريون والكلدان والسوريون والمصريون واليهود والنصارى — تبعاً لهم — والعرب في الجاهلية ، وبعض شعراء العرب في الاسلام ، الذين ما كانوا يتقيدون بالدين ، ولكن الاسلام يعلمنا أن لا نطلق كلمة « الرب » على غير

الله تعالى أدباً مع الله ، واحتياطاً في باب التوحيد ، ولهذا قال ﷺ : « لا يقولنّ أحدكم : عبدي ، أمتي ، ولا يقل المملوك ربي ، ليقل المالك فتاي وفتاتي ، وليقل المملوك سيدي وسيدتي ، فانكم المملوكون ، والرب هو الله عز وجل » ، رواه الشيخان ، وهذا الأدب اللطيف أخذه النبي ﷺ من القرآن من نحو قوله تعالى ﴿ فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ﴾ (٤ : ٢٤) ، ﴿ وقال لفتيانه : اجعلوا بضاعتهم في رحالهم ﴾ (آ ٦٢) ، ﴿ تراود فتاها عن نفسه ﴾ (آ ٣٠) ، ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم ﴾ (٢٤ : ٣٣) ، والصواب أن يمنع في غير ما ورد النص به فيما إذا كان معرفاً بأل ، أو مضافاً لعاقل عام ، وهذا نظير السجود ، أعني سجود إنسان لانسان على جهة الاحترام والترسم ، فانه كان جائزاً في العصور السابقة ، ولكنه منع في شريعتنا المحمدية منعاً مطلقاً ، احتياطاً في باب التوحيد ، والله تعالى أعلم .

هل كان العزيز خصياً حقيقة أو مجازاً

الفائدة السادسة — قيل : « كان العزيز خصياً ، فكانت امرأته ترسل الدمعة إثر الدمعة ، وتنتابها لوعة بعد لوعة ، كلما استعرضت حياة الزوجية الكاملة ، التي تكفل اللذة والولد ، ولكنها لم تزل خلواً من طفل محبوب تناغيه ، وطفلة جميلة تلاعبها ، لذلك فهي لا تفتأ تطلب الذرية ، وتسعى لها سعيها ، والآن قد سمت ذلك السعي المملوم ، ترمي بذلك حجراً لتصيد به صيدين ، أي لتحصل على استكمال الشهوة البدنية واللذة الجسمانية ، ولتكون أماً ويصير « العزيز » أباً ، ولكن على حساب سيدنا يوسف ، حماه الله وعصمه » .

ولكن الصحيح إن فوطيفار « عزيز مصر » لم يكن خصياً حقيقة لغوية ، بل

كان خصياً حقيقة عرفية ، جرى عليها عرف حكومات المصريين والأشوريين والكلدانيين ، وربما بل كثيراً ما يسمون المأمورين في التاريخ عبيداً ، والحقيقة أنهم أحرار وكاملو الخلقة ، ومن لم يقف على هذا الاصطلاح الذي جرى عليه قدماء المؤرخين تبعاً لاصطلاح تلك الحكومات دخل عليه من الغرور ما جرّأه أن يقول إن فوطيفار عزيز مصر كان خصياً حقيقة لغوية ، كما اغتر بنحو ذلك من المفسرين « ابن جرير » رحمه الله ، وأما قول عزيز مصر لامرأته « أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » (آ ٢١) فلا تقتضي أنه كان خصياً مقطوع عضو الرجال ، إذ يجوز أن يكون عدم وجود ولد له ناشئاً لمانع من جانب زوجته أو لمانع من جانبه غير قطع العضو كالعقم أو الارتخاء أو العنة أو نحو ذلك مما بسطه علماء الطب، فافهموا ..

(انه لا يفلح الظالمون)

— ١ —

صعد على المنبر الشيخ حسين العاملي [1] وقال :

أيها الاخوان هذا خطاب السيدة سلمى بنت الحاج حسين الصيداوي فأرجوكم أن تصغوا اليه .

الظالم لا يفلح

يقول يوسف : إن سيدي خلق لك ، وأنت خلقت له ،فبعد ذلك هل يجوز لي أن أظلم سيدي وأتعدى على ما خصته الشريعة به ؟ — حاشا — إنه لا يفلح الظالمون .

(١) نسبة الى جبل عامل في بلاد الشام (لبنان) .

أنا كما لي يد تتناول إحسان سيدي ، فلي قلب يحس بواجب شكره ، ويشعر بحفظ معروفه ، ويقدّر إنسانيته معي حق قدرها، فهل يسوغ لي التغاضي عن ذلك الحس والشعور ؟ حتى أكون بذلك قد ظلمت قلبي وحسه وشعوره — حاشا — إنه لا يفلح الظالمون .

أنا لا أمتنع من هذا العمل خوفاً من القانون ، فالقانون في هـذا البلد مدني لا أدبي ، ولا خوفاً من الحكومة ، فالحكومة (بالنسبة اليّ) هي أنت ، وأنت هيه ، ولا خوفاً من أبيك وولي أمرك ، فانهما لا يعلمان من حالنا شيئاً ، ولكني أخاف من ضميري يوبخني ، فان ربي فوطيفار أحسن مثواي ، وأخاف من (الأُلوه) أن يكتبني في ديوان الظلمة ، الذين لا يفلحون ، حيث يجازون الحسن بالسيء . إن هذا العمل ، ظلم لسيدي العزيز ، ظلم لحقوقه وشرفه وعرضه ، ظلم لنعمته وخبزه وملحه ، ظلم لنفسي ، ظلم للشريعتين ، شريعة الطبع وشريعة السماء ، واني أخاف إنْ عصيت ربي عذاب يوم عظيم .

بدء المعركة بين زليخا ويوسف

آ (٢٤) ﴿ ... ولَقَد ... هَمّتْ بِه وَهَمَّ بِها ! ، لَوْلا أنْ رَأى بُرهانَ رَبِّهِ ... ، ... كذلكَ ، لِنَصْرِفَ عنهُ السُّوءَ والفَحشاءَ ، إنّهُ مِنْ عِبادِنا المُخْلَصِين . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة والعشرون فتسابقت السيدات أيضاً الى الكلام على هذه الآية ، فقامت السيدة نزار الموصلية وقالت :

(ولقد) كان انه لما لم ينجع مع « يوسف » الطلب باللين والرفق ، ولم ينجع مع

« زليخا » الرد بالعظة الحسنة ، ولم تجد هي عنده صدى غرامها به ، وقد أخذ الشبق منها مأخذاً قوياً ، كما أخذ التغيظ منه مأخذاً قوياً أيضاً ، (همت به) ضرباً أو لكماً أو قتلاً (و) هو أيضاً (همّ بها) كذلك ، وكاد أن يقع ذلك منها ، لولا أن تراخت هي عن تنفيذه ، بالنظر لما هو معلوم طبعاً من ضعف المرأة ، و (لولا أن رآى) هو ، أي استحضر أو تصور أو تخيل في نفسه (برهان ربه) وهو الدفع بالتي هي أحسن أو التملص متى أمكن (كذلك) ـ الكاف منصوب المحل ـ أي مثل ذلك التثبيت ثبتناه — أو مرفوعة أي الأمر مثل ذلك (لنصرف عنه السوء) وهو الزنا أو مقدماته ، بدليل قولها فيما بعد :

« ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً » ثم قول النسوة : « ما علمنا عليه من سوء » ، (والفحشاء) القتل (إنه من عبادنا المخلصين) الذين قلنا فيهم إنهم : ﴿ ولا يقتلونَ النفسَ التي حرّمَ اللهُ إلاّ بالحقِ ولا يزنونَ ﴾ (٢٥ : ٦٨) وقلنا فيهم : ﴿ إنّ عبادي ليسَ لك عليهم سلطان ﴾ (١٥ : ٤٢) وورد فيهم : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغوِيَنَّهُمْ أجمعينَ إلاّ عبادكَ منهم المخلَصينَ ﴾ (٣٨ ٨٢ و ٨٣) ؛

هذه كلمتي ابتعثها الألم ، فسطرها القلم ، وهذا هو التفسير الذي يطاير رؤوس غلطات المفسرين عن أبدانها لأن المعنى الذي قرروه شيء لا وجود له في الواقع وإنما هو من مخلوقات الخيال ، ليس إلا ... !! وإنه ليعز علينا أن نناقش المفسرين هذه المناقشة الشديدة ، ولكن دفاعنا عن مقام نبي الله ورسوله «يوسف الصديق » تحدو بنا لمثل ذلك والسلام .

(ولقد همت به وهم بها ...)

— ١ —

وقالت السيدة ميمونة الحليه (١) :

همت به جلباً وهم بها دفعاً

أعظمت زليخا إباء يوسف ، وهالها جفاء جوابه ، ورأت أنه لم ينفع فيه الكلام الهادىء الناعم المرن ، فأخذت تغلظ له في القول ثم قامت « فهمّت به » جلباً ، وتفانت طلباً ، واستماتت رغبة ، في سبيل الحصول على شهوتها والوصول إلى رغبتها ، واجتهدت على هذا بكل حواسها وعواطفها النفسية ، وأما هو (ع) « فهمّ بها » دفعاً ، واستمات منعاً في سبيل المحافظة على شرفه وطهارته ، والاحتفاظ بدينه ، واجتهد على ذلك بكل حواسه وعواطفه العقلية ، وهكذا قامت القيامة بينهما ، وشنت الغارة وأعلنت الحرب .

برهان ربه هو حجة الله التي تقضي عليه بالدفع بالتي هي أحسن

أراد يوسف أن يدفعها بشدة وعنف « لولا أن رآى برهان ربه » القاضي عليه بالدفع بالتي هي أحسن ، فاستدرك وشرع يحاول دفعها باللطف ، عملاً بالقانون السماوي المذكور ، ولئلا يعرض نفسه للخطر لأنه عبدها وفتاها و « برهان ربه » هو حجة الله على العبد في تحريم الضرب أو القتل أو الدفع بقسوة وشدة ، مع إمكان الدفع بيسر ولين .

(١) نسبة الى بلدة الحلة من بلاد العراق .

هذا هو المعنى الذي أعثرني الله عليه، وأطلعني على مكنونه ، فان كنت مصيبة فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وإن كنت مخطئة فما ذلك بأول قارورة كسرت .　　　(مرحى).

(ولقد همت به وهم بها ، لولا أن رآى . الخ).

— ٢ —

وقالت السيدة خديجة الغزية :

همت بقتله وهم بقتلها

إن رأيي في هذين الهمين هو أن يوسف رآى نفسه مع تلك المرأة في حالة أخذ ورد ، ورغبة وإباء ، وأنه صار في موقف خطير ، فاحتدم الدم في وجهه ، فكررت الطلب بإلحاح وشدة ، و كرر هو الاباء بأشد ، فصارت هي في حالة غير اعتيادية ، وهاجت عواطفها أكثر من ذي قبل ، « فهمت » به أن تقتله أو تبطش بـه أو تضربه ، أي أنها لجأت إلى الطلب اليابس الجاف ، ولكن خوفها منه اعترض مجرى أفكارها ، فتوقفت ، ورآى هو نفسه أن موته أهون ، ولئن مات مات شهيد الطهر والعفاف ، ولكنه أخيراً لم يرد أن يستسلم لها ، بل أراد الدفاع ، فصار في حالة غير اعتيادية « وهمّ » بها أن يقتلها أو يبطش بها أو يضربها ، إذا لم يجد مخلصاً سوى ذلك لسان حاله يقول : « إن الموت في سبيل حياة الشرف ، خير من الحياة في سبيل موت الشرف ، وإنه لا محيص من الصدر أو القبر » ، ولكن برهان سيده منعه من إتمام ذلك . وحوادث الغرام والحب مملوءة من ذكر القتل أو إرادة الإقدام عليه تارة من جانب المحب إذا استولى عليه الحب وملك عليه حواسه ، وطوراً من المحبوب إذا كان شريفاً ، وحيناً من الجانبين عند اختلافهما في الفكرة كما هنا ،

وهذا هو المعتاد في مثل هذه الحال بمقتضى الطبع البشري ، وله شواهد تقع دائماً والعبارة تدل عليه دون غيره ، فان المقام مقام خلاف ومغاضبة ، ولا يقال : « همّ بالشخص » في هذا المقام إلا إذا أريد بالهمّ الضرب أو ما ماثله أو فوقه من الايذاء ، وأيضاً لا يقال : « إنّ المرأة همت بالرجل » بالمعنى الذي جرى عليه المفسرون ، لأن الهم إنما يتعلق بالعمل دون الشخص ، وهي في المباشرة موآتية لا عمل لها .

البرهان في قوله « لولا أن رأى برهان ربه »

وأما رأيي في هذا البرهان فهو أنه لما حمي الوطيس بين يوسف وزليخاوانتقل الكلام من الجدال الى الجلاد ، ومن المقال الى القتال ، أراد أن يتمادى هو على ذلك « لولا أن رآى برهان ربه » وهو شعوره بثقل فضل سيدته عليه ، وثقل فضل سيده فوطيفار ، ولكونه تربى في بيتها ونعمتها وكفالتها ، ورآى في هذا البيت عزاً وراحة .

ويجوز أن يكون الرب هناهو الله سبحانه ، وبرهانه هو أن الضرر لا يزال بالضرر ، كما ورث ذلك من أبيه يعقوب وجديه إسحاق وإبراهيم ، من أنه لا يجوز قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأنه يجب الدفاع بالتي هي أحسن ، قال الشاعر :

ليس الشجاع الذي يحمي فريسته عند القتال ونار الحرب تشتعل
لكن من كف طرفاً أو ثنى قدماً عن الحرام فذاك الفارس البطل

وجواب « لولا أن رآى برهان ربه » محذوف ، تقديره : لولا أن رآى برهان ربه

لقتلها أو ضربها أو صفعها ، لأن قوله « هم بها » يدل عليه ، كقولك : « هممت به أي بقتله ، لولا اني خفت الله » ، أي لولا أن خفت الله لقتلته .

هذا هو المعنى الذي يشف عنه اللفظ ، شفوف الكأس الصافية عن الشراب ، وتفسير هذه الآية بغير نحو ما قدمنا ، هو من قبيل تفسير الكلام بالمعنى المركوز في نفس السامع ، لا من قبيل تفسيره بالمعنى الذي أراده القائل ، ولعمري إن ما قالوه في تفسير هذه الآية لا يقبله إلا من يأخذ برواية « مسيلمة » عن « فاختة » ويا ليت الأقلام التي كتبت تلك الروايات لم تنبت بعد ، ولعمري إني أول ما قرأته أصابتني نوبة ذهول شديدة ، صرعتني أكثر من عشر سنين ، ولم أفق منها إلا بعد ما رأيت الفيلسوف الشيخ محي الدين بن عربي يقول « هممت به » جلباً « وهم بها » دفعاً ، ثم رأيت العلامة ابن حزم يقول : « هممت به » قتلاً « وهم بها » كذلك ، فسررت بذلك كثيراً والحمد لله .

الرؤية في قوله (لولا أن رأى) هي رؤية علمية

والرؤية هنا علمية ، كما في قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسانُ أنَّا خلقناهُ من نُطْفَةٍ ، فاذا هو خَصِيمٌ مبين ﴾ (٣٦ : ٧٧) ، وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أنَّا أرسلنا الشياطينَ على الكافرين تؤُزُّهُم أزًّا ؟ ﴾ (١٩ : ٨٤) ، وقوله تعالى : ﴿ ألم تَرَ أنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما في السموات وما في الأرض ؟ ﴾ (٥٨ : ٧) وقوله تعالى : ﴿ وإنْ يَرَوْا سبيلَ الرشْدِ لا يتخذوه سبيلاً ﴾ (٧ : ١٤٥) وقوله تعالى : ﴿ إنهم يَرَوْنَهُ بعيداً ، ونراهُ قريباً ﴾ (٧٠ : ٦ و ٧) وما إلى ذلك مما هو كثير في كتاب الله وسنة رسوله ، وفي شعر العرب ، ولكن القافية ضاقت على فريق من المفسرين فحملوه على الرؤية البصرية ، وفهموا غلطاً أن ما رآه كان كتابة في حائط ، أو في صورة برزت منها ، إلى آخر ما فهموا ...

ولو كان المعنى على حسب ما ذكره هذا الفريق من المفسرين ، لم يكن في قوله سبحانه « همت به » فائدة جديدة ، لأن همها به — بالمعنى الذي تصوروه — قد عرف تماماً من سابق قوله « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت : هيت لك » ، فلو قال قائل : إن قوله ، ولقد همت به توكيد لما سبق من مراودتها وتغليقها الأبواب وطلبها إياه ، — قلنا إنه لأمر معلوم أن التأسيس خير من التأكيد كما هو معلوم أن المؤكِّد يجب أن يكون من درجة المؤكَّد ، حال كون « الهم » هنا — بالمعنى الذي تخيلوه — ليس هو من درجة المراودة وتغليق الأبواب وطلبها إياه ، بل ليس من درجة « العزم » الذي هو أعلى من الهم ، كما قال الناظم اللغوي الفقيه :

مراتب القصد

مراتب القصد خمس : « هاجس » ذكروا
« فخاطر » « فحديث النفس » فاستمعا
يليــــه « همّ » « فعزم » كلهـا رُفِعَت
سوى الأخير ففيه الأخذ قد وقعـــا

هكذا كنت رأيته منذ القديم أو نحواً منه ، في كلام الفيلسوف الشيخ محي الدين ابن عربي ، وكلام العلامة ابن حزم . (مرحى)

استعمال كلمة الهم في كلام العرب والقرآن والحديث

وتفسيرنا هذا الهم ، وهذا الهم بما قلنا هو الذي يستدعيه الاسلوب العربي ، قال الشاعر :

همت ولم أفعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكي حلائله

ويقول جميل بثينة :

فليت رجالاً فيكِ قد نذروا دمي وهموا بقتلي يا بثين لَقُوني

وقال تعالى : ﴿ وَهَمُّوا بإخراج الرسولِ ﴾ (٩ : ١٤) وقال تعالى : ﴿ إذْ هَمَّ قَوْمٌ أنْ يَبْسُطوا إليكم أَيديَهُم ﴾ (٥ : ١٢) وقال تعالى : ﴿ وهمت كلُّ أمَّةٍ برسولِهِم ليأخذوه ﴾ (٤٠ : ٥) فهذه النقول تفيد أنه كثيراً ما يستعمل الهم في الايقاع والاقدام على المكروه والقتل ، وفي حديث ابن ماجة وغيره : « جاء رجل يطلب نبي الله ﷺ بدين ، فتكلم ببعض الكلام « فهمّ » صحابة رسول الله به ، فقال رسول الله : « مَهْ ، إن صاحب الدين له سلطان على صاحبه حتى يقضيه » ، وفي ابن ماجة أيضاً : « بعث رسول الله ﷺ أبا حذيفة مُصَدِّقاً فلاجّه ، رجل في صدقته ، فضربه أبو جهم فشجه ، فأتوا النبي ﷺ ، فقالوا : القودَ يارسول الله ، — فقال النبي ﷺ : لكم كذا وكذا ، فلم يرضوا ، فقال لكم كذا وكذا فرضوا فقال النبي ﷺ إني خاطب على الناس ومخبرهم برضاكم — قالوا : نعم ، فخطب النبي ﷺ فقال : إن هؤلاء الليثيين أتوني يريدون القود ، فعرضت عليهم كذا وكذا ، أرضيتم ؟ — قالوا : لا ... « فهمّ » بهم المهاجرون ، فأمر النبي أن يَكُفوا » فكفوا ، ثم دعاهم فزادهم ، فقال أرضيتم ؟ — قالوا : نعم — قال : إني خاطب على الناس ومخبرهم برضاكم — قالوا : نعم ، فخطب النبي ثم قال : أرضيتم ؟ قالوا نعم » وفي البخاري عن ابن عباس : « أن عُيَيْنة بن حِصْن ، قال لعمر (ض) : هِيْ[1] يا ابن الخطاب ! فوالله ما تعطينا الجَزْل ، ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر حتى « همّ به » ، فقال له الحُر بن أخي عُيَيْنَة : يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ : ﴿ خُذِ العَفوَ وأمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِضْ عن الجاهلين ﴾ (٧ :

(١) كلمة تهديد ، وقيل هي ضمير لمبتدأ حذف خبره ، أي هي داهية .

١٩٨) ، وإن هذا من الجاهلين ، فوالله ماجاوزها عمر ، حين تلاها عليه ، وكان وقافاً عند كتاب الله » .

(ولقد همت به وهم بها ، لولا أن رآى برهان ربه)

— ٣ —

وقالت الآنسة ربيحة المقدسية :

الرد على من طعن في عفاف يوسف بقوله انه همّ بمخالطة امرأة العزيز

هذه كلمة يجب التكلم عليها برفق وأناة ، وهي قبل التأمل فيها « شبهة » لمن طعن في عفاف يوسف ، وقوله ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ مع ملاحظة قوله : ﴿ إنّ عِبَادي ليسَ لَكَ عليهمْ سُلطانٌ ﴾ « حجة » لمن قام يناضل عن يوسف ، وقد فسرّ الخطباء من قبلي « الهمّ » بما سمعتم ، فلا تكونوا ممن يتمسك « بالشبهة » ويغض نظره عن « الحجة » ، فإن قوماً من المفسرين ذكروا في هـذا المحل ما يهوي برأس الحقيقة الى عقبها ، ولعمري إنهم لطخوا عرض يوسف بما هو براء منه ، وأرادوا أن يكسبوا تاريخه لوناً قاتماً ، قد كادوا له كيداً أعظم جداً من كيد إخوته له ، فان من يسقطك عن درجة الأعفاء الأطياب ، يسيء اليك أكثر ممن يلقيك في غياهب الجباب .

وعندنا إن كلام هـؤلاء المفسرين الذين أرادوا تشويه تاريخ يوسف (ع) متصل بالمعمل الذي خرجت منه تلك « الأسفار » التي لا تزال تنال من عفة الأنبياء الأطهار .

أي أن بعض المفسرين نقلوه عن جهلة اليهود الذين اعتنقوا دين الإسلام لأمر ما ، مع أن نفس تلك الأسفار اليهودية وإن تكن قد حشيت بالطعون الفاحشة في أنبياء الله ، لكنها خلت عن الطعن بيوسف (ع) .

وطالما دافعت بلساني وقلمي عن يوسف (ع) في هذا المقام ، وإني أود أن يكون لي لسان ثان ، وقلم آخر ، لأستخدمهما في سبيل الدفاع عن هـــذا النبي الصديق (ع) .

فأنا الحقيرة أؤمن بأن يوسف نبي ورسول(٤٠ : ٣٤) وصديق (١٢ : ٤٦) وأنه لما بلغ أشده ، آتاه الله حكماً (١٢ : ٢٢) يحكم به نفسه عن الهمّ بالمخالطة وعن كل سوء ، وأنه من عباد الله المخلَصين (١٢ ، ٢٤) الذين ليس لابليس عليهم سلطان بحكم قول القرآن :﴿ولأغوينَّهُم أجمعين إلاّ عبادَكَ منهم المُخْلَصينَ قالَ : هذا صِراطٌ عليّ مُستقيمٌ ، إنّ عِبادي ليْسَ لكَ عليهمْ سُلطانٌ﴾ (١٥ : ٣٩ ـ ٤٢) وبالتالي والنتيجة أُؤمن بأن يوسف إنما « همّ » بدفعها بشدة أو بضربها أو بقتلها ، لولا أن رأى برهـــان ربه ، الذي أرشده للدفع بالتي هي أحسن ، وأما من صدق بهذه الآيات الكريمة مع قوله : إن يوسف « همّ » بمخالطتها فقد آمن بشطر دون شطر ، أو نقول إنه آمن بالمقدمات دون النتيجة ، أو بالفاظ الكتاب دون معانيه .

حقاً إنه ليصعب علينا أن نعتقد ما قاله القائلون ههنـا ، مما يلوث شرف السيد الصديق ، مما يخالف ما أخذ على نفسه تحقيقه ، وهـو حفظه معروف ربه ، وإن الظالم لا يفلح أبداً . (مرحى مرحى)

(كذلك ، لنصرف عنه السوء والفحشاء)

— ١ —

قال الشيخ اسعد البنهاوي (١) :

السوء والفحشاء

الكاف في كذلك منصوب المحل ، أي مثلَ ذلك التثبت ثبتناه ، أو مرفوعه ، أي الأمر مثل ذلك (الكشاف) .

« والسوء » هو كل ما يُغم الانسان من الأمور الدنيوية ومن الأحوال النفسية والبدنية والخارجية ، من فوات مال وفقد حميم ، وفعل قبيح ، وهو اسم من ساءه ضد سره ، والسوء ضد الحسَن ، وهو في قوله تعالى : ﴿ إنَّ الخِزْيَ اليَومَ والسُّوءَ على الكافرينَ ﴾ (١٦ : ٢٧) بمعنى الغم ، وفي قوله تعالى : ﴿ مَنْ يَعملْ سُوءاً يُجزَ بِهِ ﴾ (٣ . ١٢٢) بمعنى القبيح ، فالسوء كل عمل قبيح يسوء فاعله إذا كان عاقلاً سليم الفطرة كريم النفس أو يسوء الناس .

« والفحشاء » هي والفحش والفاحشة الفاظ ثلاثة معناها واحد ، وهو كل ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال ، وفحُشَ الرجل صار فاحشاً ، قال الشاعر :

أرى الموتَ يَعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدد

يعني به العظيم القبح في البخل ، وفي الحديث : (إن الله يبغض الفاحش المتفحش) ، فالفاحش : ذو الفحش في كلامه وأفعاله ، والمتفحش الذي يتكلف ذلك ويتعمده ، وكل ما يشتد قبحه من الذنوب والمعاصي تطلق عليه هذه الألفاظ

(١) نسبة الى بنها من البلاد المصرية .

ومنه الحديث : (قال لعائشة : لا تقولي ذلك ، فان الله لا يحب الفحش ولا التفاحش) أراد بالفحش التعدي في القول والجواب ، والتفاحش تفاعل منه ، وقد يكون الفحش بمعنى الزيادة والكثرة ، ومنه حديث بعضهم ، وقد سئل عن دم البراغيث ، فقال : (إن لم يكن فاحشاً فلا بأس) وقوله تعالى : ﴿ ولا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشيطانِ ، إنَّه لكم عَدوٌّ مُبين ، إنما يأمُرُكم بالسُّوءِ والفَحْشاءِ وأنْ تقولوا على اللهِ مالا تعلمونَ ﴾ (٢ : ١٦٩) « فالسوء » القبيح ، « والفحشاء » ما يتجاوز الحد في القبح (كشاف) .

وكل واحد من القتل والزنى يقال له سوء وفحشاء ، قال تعالى : ﴿ ولا تَنكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النساءِ ، إلاّ ما قد سَلَفَ ، إنَّه كانَ فاحِشَةً ومَقْتاً وساءَ سَبيلاً ﴾ (٤ : ٢١) وقال تعالى : ﴿ ولا تَقْرَبُوا الزِّنى إنَّه كانَ فاحِشَةً وساءَ سبيلا ﴾ (١٧ : ٣٢) وقال : ﴿ ما كانَ أبوكِ امْرَأَ سَوْءٍ ﴾ (١٩ : ٢٨) أي زنى ، وقال : ﴿ ولا تَمَسُّوها بِسُوءٍ ﴾ (٧ : ٧٢) أي قتل ، وقال: ﴿ يسُومونَكم سُوءَ العذابِ ، يُذَبِّحونَ أبناءَكم ﴾ (٢ : ٤٩) وقال: ﴿ فإنْ أتَيْنَ بفاحِشَةٍ فعَلَيْهِنَّ نِصْفُ ما على المُحْصَناتِ مِنَ العَذابِ ﴾ (٤: ٢٤) .

فاذا تقرر هذا فحاصل المعنى لنصرف عنه ما يغمه ويحزنه وكل أمر قبيح وكل ما يتجاوز الحد في القبح ، أو انصرف عنه الصغيرة والكبيرة ، أو لنصرف عنه الكبيرة والكبرى من المعاصي ، فلعله أراد : لنصرف عنه ما يسوءه ، وهو خيانته لسيده ، والفحشاء وهو قتله لسيدته ، أو السوء ما لا حد فيه وهو قتله لسيدته دفاعاً عن عرضه ، والفحشاء مافيه حد وهو الزنى ، أو نصرف عنه السوء وهو مقدمات الفاحشة من التقبيل والضم ونحو ذلك والفحشاء وهي الزنى أو القتل ، أو السوء هو الزنى والفحشاء هي القتل ، وهذا الاخير هو الاقرب عندنا بدليل قوله تعالى : ﴿ مَنْ أرادَ بأهلِكَ سُوءاً ﴾ أي زنى ، و ﴿ ما علمنا عليه

من سوء﴾ أي زنى ، و ﴿ إنَّ النَّفسَ لأمَّارَةٌ بالسوء﴾ أي الزنى ، فكلمة سوء في هذه الآيات الثلاث في هذه السورة مستعملة في الزنى ،فليكن لفظ «السوء» في قوله ﴿ لنصرف عنه السوء ﴾ مراداً منه الزنى ، وإذا ثبت هذا « فالفحشاء » هي القتل الذي كان حاوله يوسف ثم رأى غيره أحسن منه وهو الفرار ، ومع كل هذا فنحن لا نمنع أن يسمى كلا فعلي الزنى والقتل سوأ وفاحشة . هذا ما فهمته ذكرته لكم والله تعالى أعلم .

(انه من عبادنا المخلصين)

— ١ —

قال العلامة الجيزاوي (١) :

(اخلاص يوسف لله واخلاص الله ليوسف)

هذا هو حجر الزاوية في عفة يوسف وطهارته ، فيوسف كان من عباد الله الذين قال فيهم : ﴿ وعبادُ الرحمن الذينَ يَمشُونَ على الأرضِ هَوْناً — الى أن يقول — ولا يَقتُلونَ النفسَ التي حرَّمَ اللهُ الا بالحقِ ، ولا يَزْنون ﴾ (٢٥ : ٦٣ — ٦٨) ، كان يوسف من عباد الله الذين قال فيهم : ﴿ إنَّ عبادي ليسَ لكَ عليهم سلطان ﴾ (١٥ : ٤٢) كان يوسف من عباد الله الذين ورد فيهم : ﴿ قالَ فبعزَّتكَ لأغوِيَنَّهُم أجمعينَ ، إلا عبادَكَ منهم المُخلَصينَ ﴾ (٣٨ : ٨٢و٨٣) .

فيوسف بانصرافه عن الزنى والقتل تم فيه قوله تعالى : ﴿ ولا يقتلونَ النفسَ التي حرَّمَ اللهُ إلا بالحقِ ولا يَزنون ﴾ (٢٥ : ٦٨) وباعراضه عن

(١) نسبة الى الجيزة في البلاد المصرية

مراودة امرأة العزيز إياه وقولها له « هيتَ لك » ثم فيه قوله تعالى : ﴿ وإذا مَرُّوا باللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً ﴾ (٢٥ : ٧٣) وبرؤيته برهان ربه والعمل بمقتضى ذلك البرهان تم فيه قوله تعالى: ﴿ والذينَ إذا ذُكِّرُوا بآياتِ رَبِّهم لم يَخِرُّوا عليها صُمّاً وعُمْياناً ﴾ (٢٥ : ٧٣) .

وهنا تتمة للكلام مهمة جداً ، وهي أن كلمة « مخلَصين » في القرآن الكريم تقرأ بالفتح والكسر ، بمعنى أن الانسان لما أخلص دينه لله أخلصه الله لطاعته ، ومن خواص الاخلاص انه لايعلمه مَلَك فيكتبه ، ولاعدوّ فيفسده ، ولا يعجب به صاحبه فيعطله . فامرأة العزيز كانت مشركة ، فوقعت مع زوجها فيما وقعت فيه من السوء ، وأما يوسف (ع) فمع عزوبيته ومراودتها له واستعانتها عليه بالنسوة ، وتهديدها له بالحبس ، فقد عصم نفسه ، فعصمه الله باخلاصه لله .

قميص الشهادة

آ (٢٥) ﴿ واسْتَبَقا البابَ ، وقَدَّتْ قميصَهُ مِنْ دُبُرٍ ، وألفَيَا سَيِّدَهَا لدا البابِ ... قالتْ : ماجزاءُ مَنْ أرادَ بأهلِكَ سُوأً إلاّ أنْ يُسْجَنَ أو عذابٌ أليمٌ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة والعشرون فقام الشيخ الدنوشري [1] وقال :

(واستبقا الباب) أي تسابق يوسف وزليخا الباب البراني الذي هو المخرج من الدار والمخلص من العار ، لأنها ضايقته وضغطت على حريته ، وشددت عليه

(١) نسبة الى دنوشر في السودان .

وأخرجته، ولما كانت شدة الضغط تولد الانفجار، ولما كان الإحراج يؤدي إلى الاخراج، نفر منها فأسرع يريد الباب ليخرج، وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج، (وقدت قميصه من دبر) اجتذبته من خلفه فانقد أي انشق قميصه حين هرب منها إلى الباب وتبعته تمنعه، وما كان منه إلا أن نزعه عن جسمه ليسهل عليه التخلص منها فأخذته ملفوفاً في يدها (وألفيا سيدها) وصادفا بعلها فوطيفار (لدا الباب) مقبلاً يريد أن يدخل وقيل كان جالساً مع ابن عم المرأة، فما تصورت إلا كأنها أفاقت من سبات، وقد رجعت اليها حواسها، فراعها ذلك، والتمست مخرجاً أرادت أن تلهب به عليه سيدها (فقالت) بلسان المشتكي المظلوم: الله أكبر، ما هذا؟ «إن البغاث بأرضنا يستنسر»، الله أكبر «حاميها حراميها» جئنا بالعبيد لكي يحرسونا فاذا هم الخائنون! صدق من قال: «من اشترى الدون بالدون، كان هو المغبون» قالت وجرس صوتها ينم عليها (ما) أي ليس (جزاء) عقاب كل (من أراد بأهلك) بزوجك (سوءً) زناً (إلا أن يسجن أو عذاب أليم) كالضرب بالسياط مثلاً أو تشغيل بأشغال شاقة، ويجوز أن تكون «ما» استفهامية بمعنى أي شيء جزاؤه إلا السجن، ولو كان حبها شريفاً، لم تقل ذلك ولآثرته على نفسها، ولكن حبها إياه كان حباً شهوانياً. وأما يوسف، فنظن انه لما سمع هذا السباب تأفف جد التأفف ولكنه صبر، وردد في نفسه معنى قول القائل:

إذا ما كنت في قوم غريباً فعاملهم بعقل يستطابُ
ولا تحزن إذا فاهوا بفحش غريب الدار تنبحه الكلابُ

(واستبقا الباب)

— ١ —

قالت الآنسة معصومة النابلسية (١) :

هرب يوسف من زليخا ولحاق زليخا به

كانت زليخا لم تأل جهداً في استنزال يوسف على مرادها ، وهو لم يأل جهداً في ردها عما ترغب اليه فيه ، فتمشا كساوهم كل بالآخر ، وبتعبير آخر لما حمي الوطيس بينها ، أرادت ضربه أو لكمه أو قتله ، وأراد ضربها أو لكمها أو قتلها ، ثم رجع هو عن هذه الفكرة ، بحكم البرهان الذي رآه ، القاضي عليه أن يدفع بالتي هي أحسن ، وعندئذ رآى نفسه عاجزاً أمامها ، وأن ليس له سلاح يتسلح به سوى الفرار من بين يديها ، فولى وجهه شطر الباب ، فر هارباً وللنجاة طالباً ، فلطمت يداً بيد وضربت صدرها ، وما عتمت أن لحقته ، فذهبا يتسابقان نحو الباب ، وهما بين هارب وطالب ، طريد هارب ، وصائد طالب ، تسابقا تسابقاً يمني المصور أن يراه فيرسمه ، لكي يرسم صورة الطهارة والعفة في ذلك الشاب الشريف ، ويرسم صورة الخيانة والدناءة في تلك المرأة الساقطة .

هو يستبق لباب الجنة ، وهي تستبق لباب جهنم ، هو يستبق لباب الطهارة ، وهي تستبق لباب الدنس ، هو يستبق لباب الشرف والعلو ، وهي تستبق لباب الدناءة والانحطاط — كل منهما يريد الباب ، ولكن لأمرين مختلفين ، كل منهما يريد الباب ، وهو عمل في ظاهره واحـــد ، ولكنه في باطنه مختلف أيما اختلاف ، صورة هذا العمل واحدة ، ولكن الروح مختلفة ، هو استبق الباب ليخرج منه ،

(١) نسبة الى نابلس من بلاد فلسطين .

وهي استبقت الباب لتمنعه من الخروج ، هو استبق الباب ليفتحه ، وهي استبقت الباب لتسده في وجهه ، هو استبق الباب ليفر بدينه ومروءته ، وهي استبقت الباب لتهدم دينها ومروءتها .

هذا يا سادتي ما أردنا التعليق به على كلمة (استبقا) ، وأما تعليقنا على كلمة (الباب) فيظهر أن هذا الباب هو أحد أبواب القصر الداخلية التي تحوطه من جهاته، وكانت قد غلقتها كما تقدم ذكره ، وكان الباب في طريقه ، فقصده ليخرج منه ، وكان مغلقا (بالمزلاج) أي السقاطة ، على حسب العوائد القديمة ، وليس هو الباب الخارجي الذي يؤدي إلى الطريق المسلوكة ، إذ يبعد أن تعمل هي هـذا العمل ، اللهم إلا إذا كانت الحركة حركة حب جنوني ؛ هذه كلمتي في هذا الموضوع ، والله أعلم .

(وقدت قميصه من دُبُر)

—١—

وقالت السيدة فريدة الحمصية (١) :

قد القميص

هرب منها يريد الخروج من باب القصر ، وعدت خلفه لتجذبه إلى نفسها ، فتبادرا الى الباب ، يجتهد كل واحد منهما أن يسبق صاحبه فإن سبق يوسف ، فتح باب القصر ونجا لأنه يصير بين جمهور من الخدم ؛ وإن سبقت هي أمسكت

(١) نسبة الى بلدة حمص من سورية

الباب لئلا يخرج ، ولكن يوسف سبقها إلى الباب ، وأراد الخروج وهي تعدو خلفه ، فلم تصل إلاّ إلى دبر قميصه فأمسكت به وجذبته فانشق والغالب ان هذا كان طولاً ، لأن أكثر استعمال « القد » في الشق طولاً ، وأما عرضاً فيقال له « قط » ، وفي وصف سيدنا علي (رض) « إنه كان إذا اعتلى قدّ ، وإذا اعترض قطّ » ، ولم تزل الامرأة متمسكة بالقميص ، نزعه يوسف وتركه بيدها وبقي مثابراً على الهرب ؛ وههنا دقيقة قد أغفلها جميع أهل التفسير ، ولكن نحن لا بد لنا من التنبيه عليها وهي :

هل بقي يوسف لابساً قميصه بعد قده

هل بقي يوسف لابساً قميصه بعد قده ، حتى ألفى « سيدها » لدى الباب ، أو هو لما رآها قد تمسكت به فانقدّ ، وكانت لا تزال متمسكة به ، تضايق منها فنزعه عن جسمه وتركه لها ، إمعاناً في سرعة التخلص منها كما أشرنا اليه سابقاً ؟

هذا هو السؤال الذي لم نجد من المفسرين والمؤرخين من تخيله فذكره في أثناء هذه القصة ، وجوابنا بطلان الشق الأول من هذين الاحتمالين ، لأنه لو بقي لابسه ، وهو واقف ماثل أمام تلك الهيئة المؤتلفة من « عزيز مصر وامرأته والشاهد من أهلها » لكان الأمر ظاهراً ، وكان القدّ محسوساً منظوراً للجميع ، فلا يكون هناك مجال للشك والتردد وتطريق الاحتمالات ، وثانياً لو كان لا يزال لابسه لجاز « لإمرأة العزيز » أن تدافع عن نفسها وترد كلام ذلك « الشاهد من أهلها » قائلة له : « إنك متحيز لهذا العبد لأمرٍ ما ، وإنك حاقد عليّ لسابقة بيني وبينك ، فأنت لما رأيت القميص غير مقدود من قُبُل ، اعتقدت بالضرورة أنه مقدود من دُبُر ، فلذلك تحيزت لهذا العبد ، وحكمت بهذا الحكم الجائر » .

ولكنها لما لم تحتج على « الشاهد من أهلها » ولم تنتقد على حكمه بشيء بل سلمت له تسليماً ، تبين أن يوسف لم يكن لابس القميص ، كما هو الواقع ، بل كان القميص ملفوفاً بيدها ، فلما فتش وجد أن قدّه كان من دبر ، هذا هو الصواب الذي يجب أن يقال في هذا المقام ، والله تعالى أعلم ..

(وألفيا سيدها لدا الباب)

— ١ —

وقالت الحاجة صالحة الموصلية (١) :

مفاجأة فوطيفار لزليخا و يوسف عند الباب

ولم يكن إلا كلمح البصر حتى وجدا عزيز مصر عند باب القصر ، وقد انقلب من دار الحكومة للغداء أو لبعض شؤونه ، واذا هو بين ظهرانيهما ، وكأنما كان يسمع صدى عدوهما حينما قربا منه ، وكان كل من زليخا ويوسف متهيجاً ، يخرج منهما نَفَس مرتفع متواتر ، وعند ذلك تحشت الغمزات والاشارات في أفواه الجواري والعبيد وعيونهم ، وعَقَدت أنظارهم نطاقاً حول ذلك المنظر المدهش . ويا لهول ذلك الموقف ! موقف يترك في النفس حسرة ، وفي القلب لوعة ، موقف يندى له الجبين خجلاً ، وتشمئز منه النفوس الطاهرة .

ألفيا سيدها لدى الباب ، ويا شرّ ما ألفيا ، وبعبارة أصحّ ياشرّ ما ألفت هي فقط وأما يوسف فكان ذلك له — بحسب النتيجة — فرجاً ومخرجا ، ألفيا سيدها لدى الباب ، فاعترت الأشخاص الثلاثة حالة غير اعتيادية ، فأما يوسف فبغت بهـــذا

(١) نسبة الى الموصل من بلاد العراق .

الاتفاق ، ولكن سر فؤاده وفرح به قلبه ، لأنه رآى انه قد تخلص من شرها ، بحضور سيدها ووقوفه على واقعة الحال ، وقد تبدل حاله من وجل الى خجل ، وتخيل كأنما يد القدر كانت قد خبأت عزيز مصر خلف الباب ، ثم أبرزته حين اللزوم ، نعم ، لا يخلو ان يوسف في بدء ما رآى عزيز مصر ، تقرر في نفسه لأول وهلة ، قائلا : « ههنا المطرقة والسندان ، وأنا بينهما » ، ولكنه ثاب الى أمنه أخيراً ، لأنه يعتقد في نفسه البراءة ، وأن البريء لا يخاف ظلماً ولا رهقاً ، فلذلك اطمأن باله ، وسكت راجياً من الله الخلاص .

وأما فوطيفار فبهت وشُدِه ، وألقى عليهما نظرة التعجب ، ورابه منظرهما ، وخيل اليه أن ذلك العبد آبق ، أوسارق أو هارق ، فدارت به الأرضُ الفضاء دورة كاد يُصعق فيها ، وتمثل له أن صرح راحته ومسرته بذلك العبد الكنعاني قد خرّ بين يديه دفعة واحدة ، فثار لذلك ثائره ، واكفهر وجهه واربد ، وتَفَصَّد عرقاً .

رآى فوطيفار من الأمور المدهشة المحزنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فرابه أمرهما ، وقال ما لكما ؟ إني أراكما في أمر مَريج ثم التفت لامرأته ، لفتة استفهام بتغيظ وتحرق واستغراب . وأما زليخا فراعها ذلك ، فتضعضت واستخذت ، واستُطير عقلها ، خوفاً ورعباً ، فولولت وجَلَّبَت وصاحت ، وتبرّمت وضاقت بذلك ذرعاً ، ودق قلبها دقات متسارعة ، وظهرت البغتة على وجهها ، وارتعدت فرائصها ، كأنها أمسكت نضيدة [1] كهربائية قوية ، وأوجست في نفسها خيفة ، وانتُقِع لونها وامتُقِع . ولكنها ما لبثت أن عادت الى

---

(١) بطرية كهربائية .

نفسها واستجمعت قواها ، وخاطبت سيدها بلهجة يابسة ونغمة جافة ، كأنها تريد بذلك « ستر السموات بالقبوات »(١) .

هذا خطابي المختصر ، ألقيته على مسامعكم الشريفة ، ولا مندحة لي قبل الختام من أن أتكلم كلمتين :

ايضاح لفظ السيد في اللغة والقرآن والتوراة

الكلمة الأولى : — إطلاق كلمة « سيد » على الزوج هي لغة المصريين ، وشائعة بينهم الى اليوم ، حكاها القرآن الكريم جرياً على اصطلاحهم ، وأما العرب فيسمون شريك الحياة «زوجاً» قال تعالى :﴿ قد سَمِعَ اللهُ قولَ التي تُجادِلُك في زَوْجِها ﴾ (٥٨ : ١) وربما سموه « رجلاً » كما قال تعالى :﴿ الرجالُ قوّامُونَ على النِساء ﴾ (٤ : ٣٣)،« وبعلاً » كما قال تعالى :﴿ وبُعُولَتُهُنَّ أحقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾ (٢ : ٢٢٨) و « حليلاً » كما يستفاد بالمقابلة من قوله تعالى : ﴿ وحلائلُ أبْنائِكم ﴾ (٤ : ٢٢) و « صاحباً » كما نتعلمه بالمقابلة من قوله تعالى : ﴿ وصاحِبَتِهِ وبنيه ﴾ (٨٠ : ٣٦) وقد ورد : « المرأة سيدة بيتها ، والرجل سيد بيته » .

الكلمة الثانية — لم يطلق لفظ « السيد » في كتاب الله تعالى إلا على شخصين فمرة على نبيّ الله « يحيى » (م) في قوله جل من قائل : ﴿ وسَيِّداً وحَصُوراً ونبياً مِنَ الصالحينَ ﴾ (٣ : ٣٩) وثانية على « عزيز مصر » في هذه الآية : ﴿ وألفيا سيدها لدا الباب ﴾ ، ومن غريب الصدف أن الأول (م) لم يتزوج قط ،

(١) القبوات احشاء الحيوانات من كرش ومصارين وهو مثل عامي يضرب لمن يريد ستر أمر مفضوح .

والثاني كان غنيناً على أشهر القولين ، وورد في الأسفـــار الالٰهية ، إطلاق لفظ « السيد » على عيسى المسيح (م) وهو أيضاً لم يتزوج ، فاطلاق لفظ « السيد » على هؤلاء الثلاثة خاصة، الذين ليس للنساء حظ منهم، إن لم يكن له سر، فهو من عجائب المصادفات وأخشى أن يكون من معاني «السيد» من لم يخضع لشهوة النكاح فهو من هذه الجهة سيد على الحقيقة، وأما من كان خاضعاً لتلك الشهوة، فهو من هذه الوجهة «عبد» على الحقيقة، قال الشاعر:

صاحب الشهوة « عبد » فاذا ترك الشهوة أضحـــى ملكا

(قالت ما جزاء مـن أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم ..؟)

— ١ —

قالت الآنسة سهير المصرية :

المرافعة والاتهام

رمت زليخا بهذا الحجر ، لتصيد صيدين ، أي لتبرر نفسهـــا أمام زوجها ، ولتوغر صدره على عبده ، فتشفي غليلهـا منه بسجنه أو عذابه ، لأنه لم يقض لها شهوتها .

نطقت بهذا الحكم القضائي بكل عين قوية لما تعلم من دالتها عليه ، ولتهيج من ثورته ، وتشعل من نار غضبه على عبده وفتاه العبراني وقالت وصوتهـــا يرتعش ، وركبتاها تصطكان ، ولسانها يتلعثم ، وكلامها يتقطع مما لحقها من التعب بسبب الجري، أو مما لحقها من الخزي والخجالة وحراجة الموقف :

« ما جـــزاء . . مـــن . . . . أراد . . بأ . . هـ . . لـ ك . . .

سـوأ ... وا فضـيحـتـاه ! إلا ... أن ... يسـجن أو عـذاب ألـيم ... وا خجـلتـاه ! »

هكذا نظن ان نغمة كلامها كانت متقطعة ، كأنها قد أصيبت في مخيلتها بمرض عصبي في دماغها تقول : بماذا يحكم على من ربيناه كظبي ، فاذا هو نمر ضاري ، يريد أن يلتهم فريسة القصر بين أنيابه ، ولا يخشى بأس الأسد حارس القصر وعزيز مصر ؟ .. إذ قد تزلف لي وغازلني، ثم أرادني وراودني ، فانتهك حرمة بيتك ، وعبث بشرفك .

رأت أنها وقعت في الشراك ، فتسلحت بالكذب ، لتتخلص من الشرك الذي وقعت فيه وكان صوتها متزعزعاً مضطرباً ، مع أن المعهود فيه ان يكون رخيماً مطرباً .

صرخت باكية شاكية ، لكي تدفع عنها الشبهة ، كما قيل : « وسيلة المرأة في هجومها دموعُها ، ووسيلتها في دفاعها صراخها » والنكبة الحقيقية تظهر جلد المرأة ، بينما الهموم الصغرى تظهر ضعفها ، فلهذا انقلبت من « غزالة » وديعة ، إلى « وحش » ضار مهاجم ، حاولت إخفاء عواطفها الشهوانية أمام سيدها وعكست الآية ، وشوهت الحادث ، وقلبت المسألة رأساً على عقب ، وكانت كما تقول العامة: « ضربني وبكى وسبقني واشتكى » .

تقول في تصاغر كله كبرياء : ليس جزاء من حاول الفحشاء مع حرمك ، وهن في عقر دارهن ،واقتسرهن على ماأراد اقتساراً ، واعتسرهن عليه اعتساراً ، إلا السجن في المطبق ، أو أن يسام الخسف والجور والإذلال ، وكل ما فيه ألم وأذى ، فيجب أن يدان بأحد هذين الأمرين ، ولا أحسبك إلا مسلماً لي ذلك على طول الخط ، لأن فعلته هذه خيانة وكفران بالنعمة ، وجرأة على «عزيز مصر» .

هذا ما رمت اليه في مقالتها التي استعْدت بها على يوسف البريء جبابرة الأرض وزبانية جهنم ، نطقت بذلك لا بلهجة الصاغرة المشدوهة ، بل بلهجة المستكبرة المتأمرة ، وبلسان سليط .

ولنا ههنا احدى عشرة ملحوظة :

التناقض في حكم زليخا على يوسف

الملحوظة الأولى — رأيناها تقول هنا : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » وسنراها تقول : «ولقد راودته عن نفسه ، فا ستعصم، ولئن لم يفعل ما آمره ، ليسجنن وليكونن من الصاغرين » فجعلت الجزاء على جريمة الفحش (المزعومة) والجزاء عن النزاهة عن تلك الجريمة واحد !!! فما أبعد إنصاف الانسان !!! وما أشد تناقضه خدمة لأغراضه الشخصية !!! ...

ارتياب العزيز في أمر زوجته منذ بدء تكلمها

الملحوظة الثانية — أدرك سيدها من هيئتها وغنة صوتها ، ويجمل حالها أنها هي الطالبة وهي الراغبة وهي التي أرادت السوء ليوسف وان حالها تنم عن مكنون صدرها ، إذ قد قرأ في صفرة وجهها وملامحها ان في الأمر دسيسة ، وانها مفترية « ويكاد المريب يقول خذوني » ، ولذلك لم يجاوبها بشيء ، ولم يظهر له أقل عناية.

وبعبارة أبسط من ذلك : سمع سيدها كلامها ، فأدرك أنه ليس فيه شيء من من الغيظ والحنق ، كما هو الواجب لو كانت صادقة ، وليس فيه شيء من الشدة والغلظة التي يجب أن تكون نتيجة للتعدي على شرفها ، بل بالعكس فيه ما يشف عن الرأفة بيوسف ، وذلك لأنها راعت في كلامها دقيقتين ، فأولاً بدأت بذكر

السجن ، واخرت ذكر العذاب ، لأن المحب لا يبادر إلى السعي في إيلام المحبوب، ولطفت امر السجن بقولها : « إلا أن يسجن » لأن هذه العبارة تصدق بسجن أيّ مدة ولو قلّت ؛ فأما السجن الدائم ، فانه لا يعبر عنه بهذه العبارة بل يقال مثلاً « إلا ان يكون من المسجونين » .

وثانياً لم تصرح باسم يوسف ؛ بل ذكرت ذلك ذكراً مرسلاً ، صوناً له عن الذكر بالسوء والألم .

ادرك سيدها العزيز هاتين الدقيقتين في طي شكاتها ، فساء فيها ظنه ، واتخذ ذلك علامة انها هي الماكرة الخاتلة ، وحفظ الأمر عليها .

ما المراد بكلمة « الاهل »

الملحوظة الثالثة — المراد بكلمة « الأهل » هنا الزوجة ، كما في قوله تعالى: ﴿ فلمّا قَضَى موسى الأجَلَ وَسَارَ بأهلِهِ ﴾ (٢٨ : ٢٩) فاهله هنا هي زوجته « صَفُّورة » وقوله تعالى للنبي (ﷺ) : ﴿ وإذ غدَوْتَ مِنْ أهلكَ تبوّيءُ المؤمنينَ مَقَاعِدَ للقتالِ ﴾ (٣ : ١٢١) اراد من اهله عائشة (ض) لأن غدوه الى أُحُدٍ كان من حجرتها ، وقوله تعالى : ﴿ فراغَ إلى أهلِهِ ﴾ (٥١ : ٢٦) ، اراد من اهله هنا ساراى وهاجر خاصة ، لأن ولده اسماعيل كان اذ ذاك ابن ١٢ سنة ، وابن اخيه لوط كان ساكناً في شرقي الأردن ، بخلاف إبراهيم فني غربيه في فلسطين ، فالأهل ههنا في هذه الآيات الأربع اعام الزوجات .

رابعاً تضيف نفسها الى زوجها اعظاماً للخطب

الملحوظة الرابعة — في إضافة نفسها إلى العزيز في قولها : « بأهلك » إعظاماً للخطب ، وإغراء على تحقيق ما تتوخاه ، بحكم الغضب والحمية .

زليخا تبادر بالكلام خشية ان يسبقها فيه يوسف او زوجها

الملحوظة الخامسة — رأت نفسها قد وقعت في مأزق حرج ، فخافت ان يتكلم يوسف قبل ان تتكلم هي ، او خافت ان يبادرها « سيدها » بالسؤال عن هذا الحال ، فبادرت في التكلم وسبقت قبل ان تُسأل .

اطالة زليخا الكلام في الشكوى

الملحوظة السادسة — لم تعمد في كلامها الى الاختصار الذى فيه البلاغ إذ كان يكفيها أن تقول : « هو راودني عن نفسي » ، كما اكتفى يوسف بمثل ذلك إذ قال: « هي راودتني عن نفسي » ، ولكن أنىّ هذا وقد قال العلماء : « إن حذق فن الكلام والبراعة فيه ، مع طول وكثرة واطناب ، هو شيء تحتكره النساء من دون الناس أجمعين » .

عقاب محاولة فعل الفاحشة في الشريعة المصرية

الملحوظة السابعة — قولها : « ما جزاء من اراد بأهلك سوءاً إلا ان يسجن أو عذاب أليم » هو من مواد الشريعة المصرية ، وهذه المادة توافق شريعتنا المحمدية لان كلا شقي هذه المادة من انواع « التعزير » الذي هو عقاب من حاول فعل الفاحشة ، وبعبارة اخرى ، الذي يكون في المعصية التي لا حدّ فيها .

اخفاء زليخا اسم يوسف عند الاتهام

الملحوظة الثامنة — لو قال قائل : « كيف لم تصرح في شكاتها بذكر يوسف ، وانه هو الذي اراد بها سوءاً» — قلنا قصدت العموم ، وان كل من اراد بأهلك سوءا فحقه ان يسجن او يعذب لأن ذلك ابلغ فيما قصدته من تخويف يوسف ، او يقال : إنها اظهرت بهذا الإجمال الحياء والحشمة ان تقول لبعلها امام ذي رحمها : « هذا اراد بي سوءاً» ، ولذلك ايضاً كَنَّتْ بالسوء عما أضمرته من الهناة ، مبالغة في المكر والكيد ، وابعاداً للتهمة عنها ، بتوقي ما يشعر منها بالتبرج والقِحَة .

القميص المقدود كان دثاراً

الملحوظة التاسعة — نتعلم من قوله : « وقدت قميصه من دبر » مع ما روى التاريخ من انه خلع ثوبه في يدها ، أن هذا القميص كان دثاراً لا شعاراً ، وإلا لزم ان يوسف صار عرياناً لا شيء على جسده ، ونتعلم ايضاً أن يوسف كقدماء المصريين المعاصرين له انه لم يكن يلبس ألبسة كثيرة ، على قبيل ماهو حاصل اليوم من تقطيع الثياب الى قطع كثيرة ، بل كان يلبس ثياباً طويلة بحيث تكون قطعة واحدة ، كما هو المعروف عند قدماء العرب والاسرائيليين .

سبب عدم ذكر القرآن اسم العزيز واسم امرأته

الملحوظة العاشرة — قالوا : لم يصرح القرآن الكريم باسم «العزيز» وامرأته ستراً عليهما ، ولكننا نحن ذكرناهما باسمهما وهو العلم الشخصي ، لأننا نعتقد أنهما اليوم مجهولان جداً ، بحيث لا يمكن لأحد ما أن يعرفهما منهما ، ولأنهم قالوا يجوز التصريح في مقـــام التعليم ، على أن القرآن الكريم لم ينبه علينا بعدم ذكر اسمها اختصاراً حسب عادته ، فلذلك نحن في حل من التصريح باسمها على هذا المنبر .

الثأر هو الدافع التهمة

الملحوظة الحادية عشرة — هي قالت : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » ، فنراها بحسب الظاهر حولت العاطفة من القلب الى السجن ، أو الى العذاب الأليم ، أصحيح إنه يوجد حب يؤدي لمثل ذلك؟ والجواب نعم إن الحب إذا لم يكن طاهراً يؤدي لمثل ذلك ، ولأعظم من ذلك كالقتل ونحوه ، وثانياً يخيل إلينـــا أن المسألة مسألة كبرياء وأنفة ، وتحويل جريمة من شخص لشخص آخر ، وان الدافع لهذه التهمة إنما هو الثأر لعدم امتثال الأمر. (مرحى)

المحاكمة

آ (٢٦) ﴿ — قالَ : « هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي » ، وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها : إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ ... فَصَدَقَتْ ، وَهوَ مِنَ الكاذِبِينَ ﴾ .

آ (٢٧) ﴿ وإِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ ... فكَذَبَتْ ، وَهُوَ مِنَ الصّادِقِينَ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآيتان السادسة والعشرون والسابعة والعشرون فقام الشيخ عبد الغني الانطاكي وقال :[١]

لما أغرت زليخا بيوسف وعرضته للسجن والعذاب ، وجب عليه الدفع عن نفسه ، فقال بل (هي راودتني عن نفسي) ولولا ذلك لكتم عليها (وشهد شاهد) أي وقال قائل من (أهلها) قيل كان ابن عم لها ، قال بلسان الحاكم العدل (إن كان قميصه قدّ من قبل) أي شق من أمام (فـ) قد (صدقت وهو من الكاذبين) لأنه يكون قد هجم عليها فدفعته عن نفسها فقدت قميصه من قدامه ؛ وانما ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أقاربها ، لتكون أوجب للحجة عليها وأوثق لبراءة يوسف وأنفى للتهمة عنه (وإن كان قميصه قد) شق (من دبر) أي من خلف (فـ) قد

(١) نسبة الى انطاكية من بلاد الشام (سورية) .

(كذبت) في رميها له (وهو من الصادقين) في أنها هي التي راودته ، لأن شق قميصه من خلفه يدل على أنه كان هارباً ، وهي لاحقة له .

قيل هو الذي كان جالساً مع زوجها لدى الباب ، ويجوز أن يكون بعض أهلها كان في الدار فبصر بها من حيث لا تشعر ، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له والقيام بالحق ، وسمى قوله شهادة ، وما هو بلفظ الشهادة ، لأنه أدى مؤدى الشهادة في أن ثبت به قول يوسف وبطل قولها ، وانه ليصدق على هذا « الشاهد » المثل السائر « ربّ أخ لك لم تلده أمك » .

(قال هي راودتني عن نفسي)

— ١ —

وقالت الآنسة رحمة الناصرية [١] :

دفاع يوسف

تعلمون أيها السادة أن يوسف كان أولاً سمع من زليخا مراودتها إياه ، ثم رآى همها بضربه إنلم يوآتهـــا ، ثم بلحوقها إياه حينما هرب منهـا ، ثم الآن رآها تُسمّع [٢] به زوراً وبهتاناً وتتهمه وتلصق به العيب ، فشعر بالدم يغلي في عروقه ، ولكنه تماسك وتمالك ، ولم يكن يحجزه عن المبـادرة لاظهار الحقيقة إلا ما لبيت العزيز عليه من الاحسان واكرام المثوى ، فاقتصر عن الدفاع عـن نفسه بأخصر عبارة وأوجز كلمة ، قائلاً « هي راودتـــني عن نفسي » مؤملاً أن الواقع سيتكلم عنه طويلاً ، وان ميزان العدل سيكون له القول الفصل بالبحث عن القرائن والاستشهاد بالامارات .

(١) نسبة الى الناصرة من بلدان فلسطين .

(٢) سمع بالرجل اذاع عنه عيباً وندد به وأشهره وفضحه واسمع الناس اياه .

قال كلمته الموجزة هذه مفصلاً فيها نوع الاكتفاء ولم يطلق للسانه العنان في الدفاع عن نفسه بأن يقول مثلاً : « هي راودتني عن نفسي ، وأرادتني على السوء ، فلم أنزل على إرادتها ، وهي غلقت الأبواب، لتحصرني وتكرهني على الأمر الشنيع، وهي همت بالايقاع بي ، جلباً وحملاً على مرغوبها ، وهي لحقتني إذ هربت منها ، وبالنتيجة هي شقت ثوبي من خلفي ، عندما أرادت أن تمسكني » نعم ، لم يطلق للسانه العنان ببيان ذلك كله ، بل تجاهل عن أكثر ما حصل منها،واختصر الكلام في المحاماة عن نفسه اختصاراً ، لأن خير الكلام ما قل ودل .

قال يوسف كلمته وأمارات العفة والطهارة ظاهرة على وجهه ، ودلائل الصدق لائحة على محياه ، وهو رابط الجأش ، ثابت الجنان ، يقرأ الناظر في إشراق وجهه وملامحه آية النزاهة والشرف فكانت دعواه كما قال القائل :

سَبوحٌ لهـا منها عليها شواهدُ

وأما « العزيز » فكأني به كان مصغياً لجوابه ، وعيناه شاخصتان فيه ،يتفرس في حركاته وسكناته ، ليستطلع مقدار ما في كلامه ، فرآى الصدق ظاهراً على كل حرف من حروف جملته المختصرة .

وأما « امرأة العزيز » فنتخيل انها لما فرغت من كلامها التفتت لجهة يوسف وتسمعت ما عسى أن يبدو منه ، وكانت تتوقع استياءه وكدره ، ليندفع ببذيء الكلام ، فيشفي ما في نفسها ، ولكن يوسف لم يزد على كلمه « هي راودتني عن نفسي »،معرضاً عن اهانتها له بتلك الافتراءات والأيعادات،فزاد استياؤها وبلبالها، لأن من يتعمد إهانتك إذا لم يَرَ قولَه قد أغضبك . يرى أن تلك الاهانة رجعت اليه ، وشق ذلك عليه .

(مرحى مرحى)

(وشهد شاهد من أهلها : إن كان ...)

— ١ —

قالت الآنسة سميحة الدومانية (١) :

الشاهد والتحقيقات

كان رجل من أهلها حاضراً ومشاهداً الحادث وكأني به قد افتتح جلسة المحاكمة في هذه « المحكمة المختلطة » ... بقوله : ﴿ اللهُ شهيدٌ بيني وبينكم ﴾ (٦ : ١٩)، ﴿ وإذا قلتم فاعْدِلوا ولو كان ذا قُربى ﴾ (٦ : ١٥٢) ، ﴿ يا أيها الذينَ آمَنوا إنْ جاءَكم فاسقٌ بنبأ فتبيَّنُوا ... أنْ تُصيبُوا قوماً بجهالةٍ ، فتُصبِحُوا على ما فعلْتُم نادمين ﴾ (٤٩ : ٦) ، ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا ، كونوا قوّامينَ لله ، شُهداءَ بالقِسْطِ ، ولا يَجْرِمنَّكُم شَنَآنُ قَوْمٍ على أنْ لا تَعْدِلُوا ، اعْدِلوا هو أقربُ للتقوى، واتقوا اللهَ ، إنّ اللهَ خبيرٌ بما تعملون ﴾ (٥ : ٩) ، ثم قال مخاطباً يوسف وزليخا : كلاكما يدعي وليس بيده سلطان ، وكلاً منكما يريد هدم ما عند خصمه من العفاف والطهر ، فهذه بهجومها تريدهدم عفاف هذا العبد وطهره ، بدون إثبات ولا برهان، وهو بدفاعه يقصد هدم عفاف هذه السيدة وشرفها ، بغير مستند ولا حجة وما هكذا يدلى بالتهم ، ولا سيما في باب الأعراض ، ولذلك وحيث لا يوجد مع كل شهود تثبت له صحة دعواه ، فما علينا إلا أن نلتجيء إلى الأمارات ، ونحكّم العلامات ، ونستطلع حقيقة الأمر من الدلائل المحسوسة، فأطلقوا للساني الحرية لأقول كلمة — فقال له صهره «العزيز» : « اقضِ ما أنت قاضٍ » — فقال : أيها العزيز « أحبُّ الجهادِ إلى اللهِ تعالى كلمةُ حقٍ

---

(١) نسبة إلى بلدة دوما من ضواحي دمشق الشام (سورية) .

تقال لإمامٍ جائرٍ »[1] حاشاك ، أيها العزيز ، أنا أكفيك أمر هذا المشكل ، وأكشف لك عنه النقاب .

وعندما وصل إلى هنا اشرأبت أعناق كل من الحاضرين ، من عزيز وامرأته ويوسف ، وأصاخوا لما سيقوله هذا الرجل « الشاهد » وتولاهم جميعاً سكوت عميق .

ثم قال : « أيها العزيز ، أنت تعلم ان الدعاوي لا ينصرها إلا الدليل ، وعليه فالدليل الممكن هنا الذي يصلح لكشف وجه هذه المعركة ، والبرهان الذي ينبغي التعويل عليه ، ولا ينبغي التعويل على غيره .

والذي نقيمه مقام الشهود ، هو أن نتأمل في هذا القميص الملفوف المحمول بيدها ، الذي يقولان عنه إنه قُدّ — هل هو مقدود من أمام ، أم من خلف ؟ فان رأيناه مقدوداً من قُبُلٍ ، فهي صادقة في دعواها ، وانـه كان تابعها وهاجماً عليها ، وانها هي دافعته عن نفسها فقدت قميصه من قدامه بالدفع ، وان رأيناه مقدوداً من دُبُرٍ ، فهي كاذبة ، بل تكون هي التي تبعته واجتذبت ثوبه اليها فقدّته » .

هذا مرمى كلام ذلك « الشاهد » وكان هذا الشاهد رجلاً شهماً عاقلاً فهماً ؛ مثالاً للعدالة والانصاف .

فعند ذلك صارت الهواجس تتقاذف المتداعيين وأخذت الخواطر تتضارب في نظر هذين المتدافعين ، بين يأس وأمل ، وخوف ورجاء .

ولا بد انه قبلما سرد الشاهد حكمه ، كان الأمل والرجاء يغلبـان على امرأة

(١) رواه احمد في سنده من حديث أبي امامة .

العزيز ، لكون « الشاهد » من أهلها ، وان حال يوسف كان بالعكس ، لأن غايته انه خادم وغريب ، ولكن بعدما أصدر « الشاهد » حكمه ، انعكست الآية ، وصار يوسف في غاية الأمن والرجاء ، ولا تسل عما خامر فؤآده من الامتنان لذلك « الشاهد » وحكمه عفواً ، خدمة للعقل والوجدان الطاهر ، وهو وان لم يشكره بلسانه ، اكتفى بشكره بقلبه ، ومن القلب إلى القلب دليل ؛ أمّا امرأة العزيز فلا تخال إلا انه قد وقع حكم « الشاهد » عليها وقوع الصاعقة على الخشبة اليابسة » .

وقف هذا « الشاهد » وقد تمثلت في كلامه روح العدالة ، ولم يكن ليريد الدفاع عن واحد من هذين الخصمين بعينه ، وإنما يريد الانتصار للحق والحقيقة ، ولكنه ما كأنه إلا وقف وقفة مدافع عن يوسف ، كمحام قدير وقف للذب عن موكله ، فالله تعالى هو الذي سخر هذا « الشاهد » للانتصار للواقع وخدمة يوسف من حيث لا يشعر هو ولا يوسف .

بمثل هذا الرجل صاحب العبقرية البارزة الذي لا يخشى في الحق لومة لائم ـ تتجلى العدالة في أجلى مظاهرها ، وتعلم أنه كان يوجد في مصر في ذلك التاريخ المظلم أفراد أفذاذ هم ذوو إنصاف وضمير حيّ .

رجل وقف كحاكم وهو من ذوي قربى امرأة العزيز ، وبالتالي هو صهر لنفس العزيز ، وقف على منصة الحكم ، وتلا ذلك الحكم العادل ، الذي لم يراع فيه قرابته لتلك السيدة الأميرة ، ولم يحاب فيه صهره الوجيه ، ولم يغدر فيه بذلك العبد العبراني الغريب ، ولكن نطق بالصدق ، ولم يشطط عن جادة الصواب ، فعلينا نحن ان وسّد الينا أمر الحكم مهما كان نوعه ان لا نراعي الوجوه ولا نحابي ولا نغدر بالضعيف ، لكي يسطر لنا التاريخ صفحة بيضاء بمداد الفخر ، كما سطر لهذا الرجل المنصف .

وهنا لا بد من قلم كاتب ماهر ، به يمكن الكشف عما كان يخالج نفسَي يوسف « الصديق » وزليخا « المفترية » ، وهما واقفـــان بين يدي « العزيز » و « الشاهد » ، وما يحيط بالجميـع من الجواري والقهرمانات والخدم ، لا شك انهما كانا فريسة الهواجس والمخاوف وكيف انهما لا يكونان كذلك و « امرأة العزيز » تعرف نفسها ، والخائن خائف ، ويوسف يعرف ان الانصاف في الدنيا قليل ، وانه غريب وحيد مملوك ، وان خصماءه هم حكامه ؟ ..

ولكن كان هذا بالنسبة ليوسف في الابتداء ، وأما أخيراً فقد تجلت له أمانة هذا « الشاهد » وظهرت له عدالته وانصافه ، فصار من الأمن بمكان هذا ما يسره الله لي من القول في هذا الموضوع،والله تعالى بالحقيقة اعلم .

(وشهد شاهد من أهلها ..)

—٢—

وقالت السيدة مليحة اليافية : —

لي على هذه الآية عدة فرائد :

شهد شاهد بمعنى اخبر حاضر او حكم حاكم

الفريدة الأولى — « شهد » بمعنى أخبر ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَما شَهِدْنا إلا بما عَلِمْنا ﴾ (آ: ٨١) ، و « شاهد » حاضر ، كما في ﴿ لِيَشْهَدُوا منافِعَ لهم ﴾ (٢٢ : ٢٨) ، ﴿ وَلْيَشْهَدْ عذابَهُما ﴾ (٢٤ : ٢) ، ﴿ وما شَهِدْنا مَهْلِكَ أهلِهِ ﴾ (٢٧ : ٤٩) ، ويقولون : « صَلَّينا صلاةَ الشاهـــد » وهي صلاة المغرب ، لأنها لا تقصر ، بل يصليهـا الغائب كما يصليها الشاهد ، أي الحاضر (أساس) .

إذا تقرر هذا فيجوز أن يكون بعض أهلها كان في الدار ، فبصر بها من حيث لا تشعر ، فأغضبه الله ليوسف ، والانتصار لهذا العبد المظلوم .

فكل من أخبر بشيء فقد شهد به ، وان لم يتلفظ بلفظ « أشهد » فلا يشترط في صحة الشهادة ذكر لفظ أشهد ، بل متى قال الشاهد : رأيت كيت وكيت ، أو سمعت أو نحو ذلك ، كانت منه شهادة ، ولا يتوقف إطلاق لفظ الشهادة لغة ولا شرعاً على قول « أشهد » قال تعالى : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الذينَ يَشْهَدُونَ أنَّ اللهَ حَرَّمَ هـذا ، فإنْ شَهِدُوا فلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ﴾ (٦ : ١٥٠) ، ويشهدون يخبرون ، فلاتشهد معهم : فلا تخبر كاخبارهم ، أي لا تسلم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم ، لانه إذا سلمّ فكأنه شهد معهم مثل شهادتهم ، وكان واحداً منهم ، وقال تعالى : ﴿ لـكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بما أنْزَلَ إليكَ ﴾ (٤ : ١٦٥) ، ومعنى شهادة الله بما أنزل اليه ، إخباره باثبات صحته ، ولكن هذا الاخبار ليس كلامياً ، بل فعلياً باظهار المعجزات كما تثبت الدعاوى بالدلائل المحسوسة المشاهدة ، وقال تعالى : ﴿ ولا يَمْلِكُ الذينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعة ، إلاّ مَنْ شَهِدَ بالحقِ ﴾ (٤٣ : ٨٦) أي أخبر بالحق وهو توحيد الله ، وهو يعلم ما يخبر به عن بصيرة .

ويجوز أن يكون معنى « وشهد شاهد » : وحكم حاكم ، والنكتة في العدول عن جملة « حكم حاكم » الى جملة « شهد شاهد » الاشارة الى أن هذه الأمارة هي قائمة مقام « الشاهد » فكأنها شهادة ، لأن معنى قول النبي (ﷺ) « البينة على المدعي » : ان عليه أن يظهر ما يبين صحة دعواه ، فاذا ظهر صدقه بطريق من طرق الأمارات والعلامات والقرائن حكم له (١)

(١) الطرق الحكمية لابن القيم .

موجبات الحكم

لم يوجب الله على الحكام أن لا يحكموا إلا بشاهدين ، وإنما أمر صاحب الحق أن يحفظ حقه بشاهدين ، أو بشاهد وامرأتين ، وهذا لا يدل على أن الحاكم لا يحكم بأقل من ذلك ، فقد حكم النبي ﷺ بالشاهد واليمين ، وبالشاهد فقط ، ويجوز للحاكم أن يحكم بالنكول ، وباليمين المردودة ، وبالقرعة ، وبالقافة ؛ وبالقسامة ، ويجوز له أن يحكم بشاهد الحال ، إن تداعى الزوجان والصانعان متاع البيت والدكان ، ويجوز له أن يحكم بوجوه الآجر في الحائط ، فيجعله للمدعي إذا كانت الى جهته (١) .

من هو الحاكم

فلو سأل سائل وقال : هل كان هذا الرجل قاضياً حتى يحكم ؟.. قلنا : كل من حكم من ولاة الأمور ، أو من أهل الفهم والعلم فهو حاكم ، سواء سُمّوا قضاة ، أو ولاة الأحداث ، أو ولاة المظالم ، أو حكام صلح ، أو حاكماً منفرداً ؛ أو كانوا من أهل الفضل ، أو كانوا محكّمين ، أو حكاماً إداريين ، أو غير ذلك من الأسماء العرفية ، والألقاب الاصطلاحية ، فان كل واحد من هؤلاء يعتبر حاكماً ، ولو لم يسم عند الناس بهذا الاسم ، ويعتبر قاضياً ولو لم يستحق هذا اللقب في اصطلاح القوم ، ولكنه يستحقه بحسب اللغة ، لأن الحكم والقضاء ، والحاكم والقاضي واحد ، وأن الفلاحين أهل الأرياف ، والبدو أهل الخيام ، يسمون اليوم كل من حكم لهم من رؤسائهم « قاضياً » فالحكم ليس مختصاً بناس دون ناس

---

(١) الطرق الحكمية لابن القيم .

ولا يتوقف على نصب من طرف الحكومة ، قال تعالى : ﴿ لقد أرْسَلْنا رُسُلَنا بالبيِّنَات ، وأنزلنا مَعَهُمُ الكتابَ والميزانَ ، ليقومَ الناسُ بالقِسْطِ ﴾ (٥٧ : ٢٥)، وقال جل جلاله : ﴿ إنّ اللهَ يأمُرُكم أنْ تؤَدُّوا الأماناتِ الى أهْلِها ، وإذا حكَمْتُم بين الناسِ أنْ تَحْكُموا بالعَدْلِ ﴾ (٤ : ٥٧) ، وقال جل من قائل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد ، وأنتم حُرُمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ منكم مُتَعَمِّداً ، فجزاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ، يَحْكُمُ به ذَوَا عَدْلٍ منكم ﴾ (٥ : ٩٨) .

مرادفات الشاهد

الفريدة الثانية ـــ الشاهد والضمين والعريف والنقيب واحد ، كما في القاموس في مادة « نقب » ، فلعل ذلك « الشاهد » كان من أهل العلوّ والرئاسة ، حتى أنه ليمكننا أن نفسر كلمة «شاهد» برئيس .

نفي كون الشاهد كان طفلا

الفريدة الثالثة ـــ قيل كان هـذا الشاهد « طفلاً » ، وعندنا أن هذا القول بعيد جداً لوجوه :

أولاً ـــ لو كان الحال كذلك لم يحسن التعبير بعبارة « شهد شاهد » التي تفيد أن ما قاله هو من قبيل الشهادة أي من قبيل الاخبار عن مشاهدة ، ولو كان «طفلاً» لحسن أن يقال : « ونطق طفل في مهده » .

ثانياً ـــ لو كان ذلك صحيحاً ، لم يحتج لتقوية هذه الشهادة بكونه من أهلها ، لأن هذا « الطفل » لو كان من هنود أميركا أو من هندوس الهند لقبلت شهادته، قال الجبائي : لو كان « طفلاً » لكان قوله معجزاً لا يحتاج معه الى البيان .

ثالثاً — لو كان ما روى صحيحاً لم يحتج الى التطويل ، والالتجاء الى تقرير هذه العلامة ذات الوجهين ، بل كان يكفي من هذا « الطفل » الرضيع أن يقول : « يوسف صادق» أو « امرأة العزيز كاذبة » ، ثم يرجع لطبيعته ويسكت ، ويكون حينئذ قد ظهرت براءة يوسف ليس بعلامة فقط ، بل بأوضح دليل في العالم ، لأن نطق الطفل الرضيع في مهده ، يعد معجزة ، أو إرهاصاً خارقاً للعادة ، وهادماً لناموس الطبيعة .

تحريم الدفاع عن الخائن والمجرم

الفريدة الرابعة — نحن لا يسعنا إلا أن نقدم لهذا « الشاهد » كل شكر وثناء ، يليقان بعدالته وإنصافه ، حيث تكلم بما أوجبه عليه ضميره ، ولم يراع قرابته لزليخا ، ولم يدلّس ، لأنه صهر للعزيز ، بل نطق بما أوحاه اليه الإنصاف قال تعالى : ﴿ ولا تكنْ للخائنينَ خصيماً ﴾ (٤ : ١٠٤) ، فلا يجوز للمحامي أو للحاكم أن يخاصم البراء لأجل الخائنين ، وقال تعالى : ﴿ ولا تجادلْ عَنْ الذينَ يختانونَ أنفُسَهُمْ ، إنَّ اللهَ لا يُحبْ مَنْ كانَ خَوّاناً أثيماً ﴾ (٤ : ١٠٦) ، فلا يجوز للمحامي ولا للحاكم أن يدافع عن الذين يخونون أنفسهم بالمعصية كما في حادثة زليخا ، فهذا القول بحرم المحاماة عن المجرمين ، والدفاع عن الخائنين .

لم يكن الشاهد شاهداً بالمعنى المصطلح عليه عند الفقهاء

الفريدة الخامسة — لو سأل سائل : « إن الرجل الذي يشهد ولم يُستشهد ، ويحلف ولم يُستحلف مذموم ، كما ورد في الحديث في سنن ابن ماجة وغيرها ، ومع ذلك فالشاهد الواحد لا يكفي ، بل لا بد من اثنين » والجواب : هو أن شهادة هذا « الشاهد » ليس من قبيل الشهادة الواردة في الحديث والمصطلح

عليها عند الفقهاء ، ولكن معنى « شهد شاهد » : قال حاضر ، فشهد مضمّن معنى قال ، ولذلك جازت حكاية الجملة الشرطية بعد فعل الشهادة و « شاهد » بمعنى حاضر كما قال الشاعر :

ما علموا أني لكم حافظ شاهداً ما كنتُ أو غائباً

أو « شهد شاهد » بمعنى حكم حاكم ، أو أخبر مخبر ، كما تقدم آنفاً .

تغلب الحق على القوة

الفريدة السادسة — كان هذا الرجل « الشاهد » من أهل امرأة العزيز ، ودمه من دمها ، ولكن الأخلاق والطباع متباعدة :

أبوك أبي والأصل لا شك واحد ولكننا صنوان ورد وخروع

ولكونه من أهلها ، وبالتالي لكونه صهراً « لفوطيفار » كان له دالّة عليه ، فأطلق لسانه بين يديه ، وتكلم بحرية تامة ، ونطق بحكمه العادل وبفضل هذا الحكم تغلّب يوسف على امرأة العزيز من قبيل تغلب الحق على القوة .

مشابهة الشاهد لبعض الحكام والحكماء

الفريدة السابعة — ما أشبه هذا « الشاهد » في فراسته بالنبي سليمان (ع) وعمر بن الخطاب (رض) وعلي بن أبي طالب (رض) والقاضي أياس بن معاوية ، والقاضي شريح ، والقاضي أبى حازم ، وغيرهم من حكام العرب وحكمائهم ، فجميع هؤلاء مع مشاركة سواهم في العلم والحكمة قد اختصوا بالفهم وامتازوا بالاستدلال بالأمارات وشواهد الحال ، وهذا الذي فات كثيراً من الحكام الجامدين ، فأضاعوا كثيراً من الحقوق ، وأحيوا كثيراً من الباطل .

جواز الحكم بالقرائن والاستدلال بالأمارات

الفريدة الثامنة — أخذوا مما فعله هـذا الرجل « الشاهد » أن للحاكم أو الوالي أن يحكم بالقرائن التي يظهر له فيها الحق ، وأن يستدل بالأمارات ، ولا يقف عند خصوص البينات والاقرارات .

اختصم رجلان الى « أياس » قاضي البصرة ، في قطيفتين حمراء وخضراء ، فقال أحدهما : « دخلت الحوض لأغتسل ووضعت قطيفتي ، ثم جاء هـذا ووضع قطيفته بجنب قطيفتي ، ثم دخل واغتسل ، فخرج قبـلي ، وأخذ قطيفتي فتبعته ، فزعم أنها قطيفته » — فقال أياس : ألك بينة ؟ — قال : لا — قال : ائتوني بمشط فأتي به ، فسرح رأس هذا ثم هذا ، فخرج من رأس أحدهما صوف احمر ومن رأس الآخر صوف أخضر فقضى بالأخضر لصاحب الأخضر ، وبالأحمر لصاحب الأحمر .

ولا تنس في هذا الموضع حكاية نبي الله سليمان (ع) مع المرأتين اللتين ادعتا الولد ، فحكم به داود (ع) للكبرى ، فقـال سليمان : « ائتوني بالسكين أشقه بينهما » فسمحت الكبرى بذلك ، وقالت الصغرى : « لا تفعل رحمك الله ، هو ابنها » فاستدل برضى الكبرى بشقه وامتناع الصغرى من الرضا بذلك — على انها أمه ، وان الحامل لها على الامتناع من الدعوى ما قام بقلبها من الشفقة والرحمة التي وضعها الله في قلب الأم ، فاتضحت هذه القرينة عنده حتى قدمها على إقرارهـا ، فانه حكم به لها مع قولها : هو ابنها .

وهنا في هذه السورة الكريمة نرى ذلك « الشاهد » من أهـل امرأة العزيز توصّل بقد القميص الى تمييز الصادق منها من الـكاذب ، وهذا « لوث » في دعوى « العرض » وقد حكم به .

وقد يكون « اللوث » في دعوى « المال » فيحكم بموجبه، وهذا مذكور في سورة المائدة في دعوى المال ، في قصة شهادة أهل الذمة على المسلمين ، في الوصية في السفر ، في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا ، شَهَادةُ بَيْنِكم إذا حَضَرَ أحَدَكُمُ الموتُ حينَ الوصيةِ اثنانِ ذوا عدلٍ منكم ، أو آخرانِ مِنْ غيركم ، إنْ أنتم ضَرَبْتُم في الأرضِ ، فأصابتكُم مُصيبةُ الموتِ ، تَحْبِسونَهُمَا مِنْ بعدِ الصلاةِ ، فَيُقْسِمانِ باللهِ إنْ ارْتَبْتُمْ : لا نَشْتَرِي به ثمناً ، ولو كان ذا قُربىٰ ، ولا نَكْتُمُ شهادةَ اللهِ ، إنّا إذاً لَمِنَ الآثمين ﴾ (٥ : ١٠٩) .

وقد يكون « اللوث » في « الدماء » ، فقد حكم النبي ﷺ بموجب اللوث في القسامة ، وجوز للمدعين أن يحلفوا خمسين يميناً ويستحقوا دم القتيل .

وقد حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) والصحابة معه برجم المرأة التي ظهر بها حمل ، ولا زوج لها ولا سيد ، وحكم عمر وابن مسعود بوجوب الحد برائحة الخمر من فم الرجل ، أو قيئه خمراً اعتمادا على القرينة ، ولم يزل الأئمة والخلفاء يحكمون « بالقطع » إذا وجد المال المسروق مع المتهم ، وهذه القرينة أقوى من البينة والإقرار .

وهل يشك أحد رأى قتيلاً يتشحّط في دمه ، وآخر قائم على رأسه بالسكين أنه قتله ؟ ولا سيما إذا عرف بعداوته ، وكذلك إذا رأينا رجلاً مكشوف الرأس وليس ذلك عادته ، وآخر هارباً قدامه ، بيده عمامة ، وعلى رأسه عمامة ، حكمنا له بالعمامة التي بيد الهارب قطعاً ، وجزمنا بأنها يد ظالمة غاصبة ، بالقرينة الظاهرة ، التي هي أقوى بكثير من البينة والاعتراف .

وهل القضاء « بالنكول » إلا رجوع إلى مجرد القرينة الظاهرة ، التي علمنا بها

ظاهر أ انه لولا صدق المدعي لرفع المدعى عليه دعواه باليمين ؟ فلما نكل عنها ، كان نكوله قرينة ظاهرة دالة على صدق المدعي ، فتقدمت على اصل براءة الذمة (١) .

وبالجملة فان ما قاله وما حكم به ذلك « الشاهد » هو من قبيل الاعتماد على « الأمارة » وانها تقوم مقام البينة ، وله نظائر كثيرة ، فمن ذلك ان النبي (ﷺ) أمر الملتقط أن يدفع اللقطة الى واصفها ، وأمره أن يعرف عفاصها ووعاءها ووكاءها كذلك ، فجعل وصفه لها قائماً مقام «البينة» ، وقد سئل الإمام احمد عن المستأجر ومالك الدار ، تنازعا « دفيناً » في الدار ، فكل واحد منها يدعي انه له ، فقال : « من وصفه منهما فهو له » .

وكذلك اللقيط إذا تداعاه اثنان ووصفه أحدهما بعلامة خفية في جسده حكم له به عند الجمهور ، ومن ذلك أن ابني عفراء لما تداعيا قتل أبي جهل ، فقال النبي (ﷺ) : « هل مسحتما سيفيكما ؟ — قالا : لا — قال : فأرياني سيفيكما ، فلما نظر فيها ، قال لأحدهما : هذا قتله ، وقضى له بسلبه » .

وعلى الاجمال « فالبينة » اسم لكل ما يبين الحق ويظهره ، ومن خصّها بالشاهدين ، لم يوفّ مسماها حقه ، ولم تأت « البينة » قط في القرآن الكريم مراداً بها الشاهدان ، وإنما أتت مراداً بها الحجة والدليل والبرهان ، وكذلك قول النبي (ﷺ) : « البينة على المدعي » المراد به أن عليه ما يصحح دعواه ليحكم له ، والشاهدان من البينة ، ولا ريب أن غيرهما من أنواع البينة قد يكون أقوى منهما كدلالة « الحال » على صدق المدعي ، فانها أقوى من دلالة إخبار الشاهد ، والبينة والدلالة والحجة والبرهان والآية والتبصرة والعلامة والأمارة والسلطان والمستند

(١) ملخصاً من الطرق الحكمية لابن القيم .

والقرينة — ألفاظ متقاربة المعنى ، فالشارع لم يلغ القرائن والأمارات ودلائل الأحوال ، بل من استقرى الشرع ، في مصادره وموارده، وجده شاهداً لها بالاعتبار ، مرتباً عليها الأحكام ، وقد مدح الله سبحانه الفراسة وأهلها في مواضع من كتابه ، فقال تعالى ﴿ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ للمُتوَسِّمين ﴾ (١٥ : ٧٥) ، وهم المتفرسون الآخذون بالسيماء ، وهي العلامة ، يقال : تفرست فيك كيت وكيت وتوسمته ، وقال تعالى : ﴿ولو نشاءُ لأرَيْناكهُم فلعَرَفتَهُم بسيماهُمْ﴾ (٤٧ : ٣٠) ، وقال تعالى : ﴿ يحسَبُهُم الجاهلُ أغنياءَ مِنَ التَّعفُّفِ ، تعْرِفُهُم بِسيماهُمْ ﴾ (٢ : ٢٧٣) ، وفي جامع الترمذي مرفوعاً : (اتَّقُوا فِراسَةَ المؤمِنِ ، فإنَّهُ ينظرُ بنُورِ اللهِ) ثم قرأ : ﴿ إنَّ في ذلكَ لآياتٍ للمُتَوسِّمينَ ﴾ (١)

وقد ذكر الفقهاء ان الدعوى إن كانت من قبيل تهمة ، وهي أن يدعي إنسان على إنسان فعل محرم ، مثل قتل أو قطع طريق أو سرقة أو غير ذلك من العدوان الذي يتعذر إقامة البينة عليه في غالب الأحوال ، فهذا القسم إن أقام عليه المدعي حجة شرعية فذاك ... وإلاّ فالقول قول المدعى عليه بيمينه ، لما روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال ، قال رسول الله (ﷺ) : (لو يُعطَى الناسُ بدعواهم ، لادعى ناسٌ دماءَ رجالٍ وأموالهم ، ولكن اليمين على المُدعَى عليه) (٢) .

فلهذا وحيث ان يوسف رفض الدعوى عليه رفضاً مجرداً عن اليمين ، وان المرأة المدعية لم تأت ببينة تثبت دعواها ، احتيج الى الاستناد الى أمارة تؤيد واحداً من المدعى والمدعى عليه ، فقيل : إن كان .. وإن كان ...

(١) الطرق الحكمية لابن القيم

(٢) الطرق الحكمية لابن القيم .

وهذا من قبيل نصب العلامة على الحق المشروع ، وقد نصب الله سبحانه على الحق الموجود والمشروع علامات وأمارات تدل عليه وتبينه ، قال تعالى : ﴿وأَلْقَى في الأَرضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُم ، وأَنهاراً وسُبُلاً لعلَّكُم تَهْتَدُونَ ، وَعلاماتٍ ، وبالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (١٦ : ١٥ و ١٦) ، ونصب على القبلة علامات وأدلة ، ونصب على الإيمان والنفاق علامات وأدلة ، قال النبي (ﷺ) : (إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان) ، فجعل اعتياد شهود المسجد من علامات الإيمان ، وجوز لنا أن نشهد بإيمان صاحبها ، مستندين الى تلك العلامة ، والشهادة إنما تكون على القطع ، فدل على أن الأمارة تفيد القطع ، وتسوغ الشهادة ، وقال (ﷺ) : (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان) .

وقد نصب تعالى الآيات دالة عليه وعلى وحدانيته وأسمائه وصفاته ، فكذلك هي دالة على عدله وأحكامه ، والآية مستلزمة لمدلولها ، لا تنفك عنه ، فحيث وجد الملزوم وجد لازمه ، فاذا وجدت آية الحق ثبت الحق ، ولم يتخلف ثبوته عن آيته وأمارته ، والحكم بغيره يكون حكماً بالباطل ، وقد اعتبر النبي (ﷺ) وأصحابُه من بعده العلامات في الأحكام ، وجعلوها مبينة لها ، كما اعتبر العلامات في اللقطة ، وجعل صفة الواصف لها آية على صدقه وأنها له ، وقال لجابر : « خذ من وكيلي وسقاً ، فإن التمس منك آية ، فضع يدك على ترقوته » ، فنزل هذه العلامة منزلة البينة ، التي تشهد انه أذن له أن يدفع له ذلك ، كما نزّل الصفة للقطة منزلة البينة ، بل هذا نفسه بيّنة ، إذ البينة مايبين الحق ، من قول وفعل ووصف ، وجعل الصحابة رضي الله عنهم الحَبَل علامة وآية على الزنا ، فحدّوا به المرأة ، وان لم تقر ولم يشهد عليها أربعة ، بل جعلوا الحَبَل أصدق من الشهادة ، وجعلوا رائحة الخمر ، وقيئه لها آيةً وعلامة على شربها ، بمنزلة الإقرار والشاهدين ، وجعل النبي

(ﷺ) كثرة المال وقِصَرَ مدةِ إنفاقه آيةً وعلامة على كذب المدعي أنه ذهب في النفقة والنوائب ، في قصة « حيّ بن أخطب » واعتبر العلامة في السيف وظهور أثر الدم به في الحكم ، بالسَّلَب لأحد المتداعيين ، فنزل الأثر منزلة البينة، وجعل الحيض علامة على براءة الرحم من الحمل ، واعتبر العلامة في الدم الذي تراه المرأة ويُشتبه عليها ، هــل هو حيض أو استحاضة ، واعتبر العلامة فيه بوقته ولونه ، وحكم بكونه حيضاً بناءً على ذلك ، وهذا في الشريعة أكثر من أن يحصر وتستوفى شواهده ، فمن أهدر الأمارات والعلامات في الشرع بالكلية ، فقد عطّل كثيراً من الأحكام ، وضيّع كثيراً من الحقوق (١)

ولولا العلامة التي اتخذها « الشاهد » دليلًا على التمييز بين المحق والمبطل هنا لحكم على يوسف ، أو على الأقل لكان حال يوسف مشكوكاً فيه .

سبب تأخير أمارة صدق يوسف على أمارة صدق امرأة العزيز

الفريدة التاسعة — إن كان « الشاهد » بعض أهلها كان في الدار فبصر بها من حيث لا تشعر ، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له ، كما ذكره الزمخشري احتمالاً، ونحن درجنا عليه في تقريرنا — إن كان كذلك كان من حقه أن يصرح بما رآى ، فيصدق يوسف ويكذبها ، ولكنه أراد أن لا يكون هو الفاضح لها ، ووثق بأن انقداد قميصه كان من دبر ، فنصبه أمارة لصدقه وكذبها ، ثم ذكر القسم الآخر ، وهو قده من قبل ، على علم منه بأنه لم ينقد من قبل ، حتى ينفي عن نفسه التهمة في الشهادة ، وقصد الفضيحة ، وينصفهما جميعاً ، فيذكر أمارة على صدقها المعلوم نفيه ، كما ذكر أمارة على صدقه المعلوم وجوده ، ومن ثمّ قدم أمارة صدقها

(١) الطرق الحكمية لابن القيم .

على أمارة صدقه في الذكر ، إزاحةً للتهمة ووثوقاً بأن الأمارة الثانية هي الواقعة، فلا يضره تأخيرها ، وهذه اللطيفة بعينها — والله أعلم — هي التي راعاها مؤمن آل فرعون في قوله : ﴿ وإنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ، وإنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الذي يَعِدُكُمْ ﴾ (٤٠ : ٢٨) ، فقدم احتمال الكذب على احتمال الصدق إزاحة للتهمة التي خشي أن تتطرق اليه في حق موسى (م) ووثوقاً بأن الاحتمال الثاني وهو صدقه ، هو الواقع ، فلا يضره تأخيره في الذكر لهذه الفائدة ، ومن ثم قال : « بعضُ الذي يَعِدُكُمْ » ، ولم يقل : : « كُلُّ ما يَعِدُكُمْ » ، تعريضاً بأنه معهم عليه ، وأنه حريص على أن يبخسه حقه .

وبنحو هذا النحو تأخير يوسف (ع) لكشف وعاء أخيه ، لأنه لو بدأ به لفطنوا أنه هو الذي أمر بوضع السقاية فيه ، والله أعلم ، فقصد هذا « الشاهد » الأمارة الأخيرة فقط ، وأما الأمارات الأولى فليست مقصودة ، وإنما ذكرها توطئة وهي من قبيل الفرض والتقدير ، وكأنه قال : إن كان قميصه قد من قبل فهي صادقة ، لكنه يعلم انتفاء الأمارة المذكورة ، فعلق صدقها على محال ، وهو ثبوت قدّه من قبل حالة عدمه .

هذا هو التقرير الصواب ، والحق اللباب . وههنا قام السيد رئيس المؤتمر وقال: حقاً ان هذه الفرائد هي فرائد درية وفريدة في بابها ، لأنها مفعمة بالابحاث الاجتماعية والدينية الدقيقة ، فبارك الله في الخطيبة .

(وإن كان قميصه قدّ من دبر .. الخ)

— ١ —

وقالت السيدة صباح النابلسية :

سأقتصر كلامي على هذه الآية بكلمات ثلاث :

هل كان يوسف لابسا القميص المقدود حين التداعي

الكلمة الأولى : — قوله في الآية السابقة : « إن كان ... الخ » وقوله هنا : « وإن كان ... الخ » ، هذا التشقيق والتشكيك يفيدنا أن يوسف لم يكن لابساً القميص إذ ذاك ، بل كان منزوعاً عنه ، كما قالته اختنا السيدة فريدة الحمصية في محاضرتها ، على موضوع « قد القميص صحيفة ٥٤٨ » ، لأنه لو كان إذ ذاك لابساً القميص المقدود لكان القدّ ظاهراً ملموساً ، واقعاً تحت حس ونظر الجميع ، إذ كيف يعقل أن يخفى القد اين هو ، هل هو في جهة الأمام أو في جهة الخلف ، ويوسف لابسه وواقف قدام تلك الهيئة ، فلا ريب إذاً ان يوسف لم يكن لابساً القميص آنئذ ، بل كان ملفوفاً مستوراً ، بحيث لا يعلم قده في أي جهة كان ، أمن قبلٍ أو من دبرٍ ، والظاهر من كلام « الشاهد » ومن احتماليه اللذين حكاهما بقوله : إنْ ... وإنْ ... ، أنّ القميص لم يكن ملبوساً حين التداعي ، هذا ما فهمته في هذه الآيات القرآنية الكريمة ، ولا أظنه إلا الصواب الذي لا محيد عنه ، وعليه فالصحيح ان امرأة العزيز لما جذبت قميص يوسف انشق طولاً ، فسهل على يوسف ان ينزعه عن بدنه ويتملص منه ، فتركه لها في يدها ، ومضى في حال سبيله مستمراً في فراره ، حتى وصل الباب ، وهذا الذي فهمناه من ان القميص كان منزوعاً وكان في يد امرأة العزيز هو المذكور صريحاً في (تك ٣٩ : ١٢ — ١٨) .

احتقار الشاهد «لامرأة العزيز» رغم مقامها

الكلمة الثانية — قال ذلك «الشاهد» أمام تلك السيدة «امرأة العزيز»: «فكذبت» ولم يحترم مقامها، لأن الرجل الحر يقدر الناس بفضائلهم لا بمناصبهم. ثم ان ما ظنه في يوسف من الصدق قد أظهرت الحادثة تحققه؛ وسيأتي لرئيس السقاة أن يصفه بالصدق حيث يقول له: «يوسف، أيها الصديق»، كما سوف سيأتي لنفس عدوته امرأة العزيز أن تصفه بالصدق، إذ تقول: «وإنه لمن الصادقين» فهذا من قبيل توارد الخواطر الذي يفيد تحقيق مورده.

قد القميص من قبل دليل الاقبال وقده من دبر دليل الادبار

الكلمه الثالثة — لو كنت حاضرة محاكمة يوسف وزليخا أو لو رفعت إليّ دعوى تشبه دعواهما لكانت خلاصة حكمي الجملة المختصرة التالية: «إن قدالقميص من دبر دليل على إدبار يوسف عن زليخا بظهره، وقد القميص من قبل دليل على إقباله عليها بوجهه والسلام»، هذا ما أحب أن يسجله التاريخ ويحفظه عني علماء الحقوق ...

— بخٍ بخٍ —

وثيقة البراءة

آ(٢٨) ﴿ فلمَّا رأى قَميصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ ، قالَ : إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ، إنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثامنة والعشرون فقام الشيخ عبدالجواد السلطي [١] وقال :

فتش العزيز قميص يوسف الذي بقي في يد زوجته زليخا (فلما رأى) سيدها (قميصه) أي قميص يوسف الذي بيدها قد (قُدّ من دبر) علم براءة يوسف وصدقه وكذبها ، ثم (قال) آنئذ بلسان الغاضب الماقت : كل هذا يجري تحت جناحي وفي عقر داري !.. (إنه) أي إنّ قولك : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً .. الخ » ، أو إن هذا الأمر — وهو طمعها في يوسف ، أو إن هذا الالصاق والتجريم ، بغير حق (من كيد كن) يا بنات حواء (إن كيدكن عظيم) بالنسبة لكيد أبناء آدم ، لان النساء ألطف كيداً وأنفذ حيلة ، ولهن في ذلك نِيقَة [٢] ورفق ، وبذلك يغلبن الرجال .

وفي هذه الآية الكريمة تعليم للملوك ومن دونهم أن ينزلوا على حكم القضاة ويعملوا بقضائهم ، كما فعل « العزيز » إذ نزل على حكم ذلك الحاكم «الشاهد».

---

(١) نسبة الى بلدة السلط من البلاد الاردنية .

(٢) النيقة اسم من التنوق وهو الرفق والأناة .

(فلما رأى قميصه ... الخ)

— ١ —

قال الحاج صالح الاسكندروني [1] :

تبرئة يوسف وتجريم زليخا وتوبيخها

لما أتم « الشاهد » خطابه الذى به (قطعت جهيزة قولَ كل خطيب) استطابه « العزيز » ، ونزل على حكمه ، ثم طلب نشر القميص ليُفتش ، فلما رآه مقدوداً من دبر ، فهم الدسيسة ، فضرب يداً بيد ، وحوقل وندب حظه ، وقرع سنه ، وأضمر بين جنبيه لوعة وأسى ، وكاد قلبه يذوب بين أضالعه ، ذوب السبيكة في البوتقة .

نعم ، نعم ، انه دهش دهشة عظمى ، وعض على شفته السفلى ، وورد عليه ماطار بلبه ، وأخذ عليه أنفاسه ، فصمت لحظة ثم التفت يمنة ويسرة ، وبعد لأْيٍ ما استطاع أن يقول بصوت منخفض ، لئلا يسمعه أحـــد من العبيد والخدم : عَقْرَى حَلْقَى — إن آفة الحديث الكذب - إن طمعك في هذا العبد ، وقولك ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم — إن هذا العمل وهذا القول من كيد كن الذي تَعْدِدْنه للناس ، وسوف يرتد لنحور كن ، إنه من مصائد كن التي تنصبنها لمن تردن وقوعه في الشَرَك ، إنـه من ختلكن يابنات آدم الذي لا يَعْدو كن ، إنه من دهائكن الذي لا يتجاوز كن ياحبائـــل الشيطان ، آه ...

(١) نسبة الى اسكندرونة من بلاد الشام (سورية)

إن من غره النساء بود بعد هذا لجاهل مغرور

فالآن ــ وقد رأينا القميص ــ فقد دفع الحق الباطل ، وظهر الصبح لذي عينين ، وزالت الرغوة وبدا الصريح ، يميناً لقد ظهرت الحقيقة ، ووثيقتها معها ، و (على نفسها جنت براقش) ، يميناً لقد تبين أن «السوء» الذي الصقته بيوسف هو واقع منك ، ولا خيرة في الواقع ، وماله من دافع .

« إن كيد كن » يا فصيلة (الجنس اللطيف) « عظيم » ، بخلاف فصيلة(الجنس القوي) فالغالب فيهم حقارة كيدهم .

« إن كيد كن » الذي يدبر من جهتكن « عظيم » ، فقد ظهر لي الآن أني ما كنت أعرفك إلا معرفة مُطَوَّسة (١) ، كنت لا أعرف منك إلا الذْنَب ، ولكن اليوم عرفت منك الدماغ ، وماحوى من خبث وطيش .

« إن كيد كن عظيم » ، فأنتن مُعَشّش الشياطين ، ووكرُ الباطل ،ومرسى دعائم الفتنة ، أللهم إلا قليلاً .

« إن كيد كن عظيم » لا سيما فيما يتعلق باللبس والأزياء وأمر الاستمتاع بالشهوة والحب ، فهناك رحمة الله على الأمانة ، رحمة الله على العفاف والشرف .

نعم انه « عظيم » من معاظم الشؤون المنكرة ، ومن عظائم الصفات المستقبحة وأي عظيمة أقبح من الختل ؟ وأي كبيرة أفحش من المِحَال (٢) .

عجبت لك كيف تتهمين هذا العبد بتهمة باطلة ؟! ... كبرت كلمة تخرج من فيك ، ان تقولين إلا كذباً .

---

(١) مطوسة متصورة أو متخيلة.
(٢) المحال بكسر الميم الكيد والمكر

قال العزيز ذلك ، وعلى وجهه دلائل البغتة والاندهاش ، وفي ملامحه أمارات الخجل من هذه المرأة ، قال العزيز ذلك موجهاً الخطاب لزليخا ، وتفرس فيها يسبر حالها ، فاذا لونها ممتقع ، وإذا الارتباك ظاهر على وجهها . قال لها ذلك ، وهو ينظر اليها بعين تتجلى فيها الحدّة .

وأما هي ، فكانت واقفة وقوف الصنم ،وقد جمد الدم في عروقها ،واصطكت ركبتاها ، وانماث [١] قلبها ، كما ينماث الثلج في الحر ، وعقرت [٢] حتى كادت تقع الى الأرض ، بل كأنما خرت من السماء في مكان سحيق ، وأخيرا أطرقت برأسها إطراق من ترى ان بطن الأرض خير لها من ظهرها .

وأما يوسف ، فلما سمع هذا القياس الذي أنتج هذه النتيجة ، أفرخ روعه ، وأمن جنابه ، وأحس كأنه قد ألقي عن ظهره حمل ثقيل ، وحمد الله تعالى ، وشكر في نفسه هذا الرجل ، وقال : « رب أخ لك لم تلده أمك » .

هـذا ما اردت قوله على هـذه الآية الكريمة ولا بد لي من إنهاء حديثي بترفيلات [٣] تسع :

رب محنة في وسطها منحة

الترفيلة الاولى ـ كان في مصيبة يوسف بقدّ قميصه فائدة له كبرى ، وهي براءته مما نسب اليه ، ورب محنة في وسطها منحة :

من عرف الله أزال التهمه : وقال : كل فعله لحكمه

(١) انماث ذاب (٢) عقرت : فجأها الروع فلم تقدر أن تتقدم أو تتأخر (٣) الترفيل التذييل .

حفظ القميص المقدود للعبرة والذكرى

الترفيلة الثانية - لو كنت مكان يوسف لادخرت هذا القميص في « صِوان »[1] وحده، وأوصيت أن يكون أثراً من بعدي، يحفظ في « دار الآثار » المصرية، تذكاراً لهذه الحادثة التاريخية المؤلمة السارة، ولأنه من الأزياء التاريخية.

تبادل التهنئة والشكر

الترفيلة الثالثة - كأني « بالشاهد » بعد ما ظهرت براءة يوسف، أخذ يهنئه ويمسحه، وكأني بيوسف، أخذ يجتزي « الشاهد » خيراً، ويقدم له التحيات والشكران.

مرادفات الكيد

الترفيلة الرابعة - الكيد والمِحال والخداع والختل والغدر والتمحل والخِب والمكر والدهاء والخلابة - تقريباً واحد.

الكيد والمكر من صفات الضعفاء والبهود

الترفيلة الخامسة - الكيد والتقلب والرياء والنفاق والخداع والخيانة والمكر والتدابير الخفية والألغاز المجهولة - كل هذه هي من الصفات المشتركة بين الرجل والمرأة، غير ان المرأة لما كانت أضعف من الرجل، رأت نفسها مضطرة الى الالتجاء لهذه الصفات اكثر من الرجل القوي الجبار القاهر، فلذلك اشتهرت النساء

(١) الصوان وعاء الثياب.

بهذه المعاني اكثر من الرجال ، ويوجد الختل والمكر في النساء عموماً ، وفي « اليهود » من الرجال وغيرهم ، وسببه الذل والمسكنة لان الرجال ظلموا المرأة وأهانوها وأذلوها ، وكذا حال « اليهود » بين الناس ، من حين أن هاجروا من العراق إلى سورية وفلسطين ، فعاشوا غرباء بين تلك الأمم المتوثنة ثم حين أن عاشوا بمصر بعد يوسف فأذلهم الفراعنة وسخروهم وذبحوا أبنائهم واستحيوا نسائهم ، ثم ـ بعد رجوعهم لسورية وفلسطين ـ من حين أن استولى عليهم الكلدان فالفرس فاليونان فالرومان ، فبعض قساة ملوك الاسلام .

كيد المرأة

الترفيلة السادسة — يريد بقوله : « إنه من كيدكن » ، إنه من كيدكِ ، ولكنه عبر بصيغة الجماعة ليشير الى أن الكيد طبيعة مدفونة في قلب جميع النساء ، فجل النساء في الخدعة والمِحال كزليخا ، وزليخا في الختل والحيلة صورة صادقة لجل النساء .

وبعبارة اخرى : هو لا يصف ما جال في نفس امرأته فحسب ، وما حاك في صدرها فقط ، من ختل وخِب ، إنما هو يصف العادة الطبيعية لكل امرأة ، ويخبر بالحال النفسية لكل أنثى ، فهو يمثل النوع بأن ديدنه كما ذكر ، فالكيد هو خلق لهن عريق فيهن :

ولا تحسبن هنداً لها الغدر وحدها سجية نفس ، كلُ غانيــــة هند

وبعبارة ثالثة : لم يقع الكيد إلا من واحدة ، ولكن لما كان الكيد من نفسية « الجنس اللطيف » نسبه لذلك الجنس ، ونظيره قوله (ص) : « إنكنَّ لأنتنَّ صواحب يوسف » ، يريد أن الإلحاح والمكر من نفسية هذا الجنس النسائي ، قاله ﷺ لحفصة ، إذ كانت قالت عائشة (رض) : (إن أبا بكر رجل أسيف ،

إذا قام مقامك ، لم يسمع الناس ، من البكاء ، فمر عمر فليصل بالناس) فلم يقبل ﷺ ، ثم قالت له ذلك حفصة ، فلم يقبل ، وإذ رآهن قد ألححن ، قال ذلك .

هذا وان سبب اتصاف المرأة بالكيد أكثر من الرجل هو انها لما أضلت حريتها في ظلمات الأجيال الماضية ، وفقدت استقلالها وعزها، وادركها العجز عن تناول ما ترغب اليه بالطرق المسنونة ، بسبب ظلم الرجل لها ، اضطرت الى استعمال الحيلة ، وأخذت تعامل الرجل — وهو سيدها ووليأمرها — كما يعامل المسجون حارس سجنه والحفيظ عليه ، ونمت فيها ملكة المكر الى غاية ليس وراءها منزع ، فأصبحت ممثلة ماهرة ، ومشخصة قادرة ، تظهر في المظاهر المتضادة ، والألوان المختلفة ، في كل حال بحسبها ، وذلك لا عن عقل وحكمة ، وإنما هي حيل الثعالب، وعذرها في ذلك انها ليست حرة مع ولي أمرها ، من أب أو زوج مثلاً .

الكيد موجود في الرجال والنساء ، إلا ان النساء ألطف كيداً ، وأنفذ حيلة، ولهن في ذلك نيقة ورفق ، وبذلك يغلبن الرجال ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ومن شر النفاثات في العقد ﴾ (١١٣ : ٤) ، والقصريات من بينهن معهن من البوائق ماليس مع غيرهن .

ولعل الحال في بلاد « التيبت» بالعكس ، لأن الأمر والنفوذ والإرادة والسيادة هي هناك — كما يقال — « للنساء » ، وأما الرجال عندهم لخدمة مستعبدون لهن في كل شيء بلا استثناء ، فالمرأة هناك أقوى جداً من الرجل ؛ فاذاً لا ندحة من أن رجالهم هم أصحاب الكيد والتقلب والرياء والختل .

سئل الشاعر الانكليزي « ميلتون »: لماذا يسمحون « لولي العهد » عندكم بأن يتولى الملك في الرابعة عشرة من عمره ، ولا يسمحون له بأن يتزوج قبل

الثامنة عشرة ؟.. فقال : « لأن سياسة البلاد على مافيها من رعايا كثيرين ، أسهل مراساً من سياسة الزوجة » :

وقال بعضهم : « إن النساء لو تدربن على السياسة ، لكنّ أعظم سائسي العالم ».

كتب أحد الأغنياء على بابه : « يا باب ، لا يدخلك سوء » ، فلما قرأه « ديوجينس » قال : « وامرأتك من أين تدخل ؟ »

إذا رأيت أموراً　　منها الفؤاد تفتت
فتش عليها تجدها　　من النساء تأتت

قال نابليون : « إن المرأة التي تهز المهد بيمينها ، تهز العالم بيسارها » ، وقال بعضهم : « إني لا أخشى في الحياة سوى تلك التي ملكت قلبي ، إذ هي وحدها قادرة على أن تمنحني السعادة والشقاء » ، وقال فولتير : « إذا كانت المرأة هي التي أفقدتنا النعيم ، فهي وحدها تستطيع أن تعيده إلينا » ، وقال بلزاك : « لقد درست طبائع النساء طويلاً ، وإني لأفاخر بأني لم أضع وقتي كله ، فقد عرفت الآن أني لا أعرفهن » ، وقال « سنت جوست » : « لا يمكنك أن تتصور ما يتولد في قلب المرأة الضعيف من القوة والإقدام حال ما تحب » ، ومن الأمثال اليابانية : «النساء يفهمن الرجال ، ولكن لا يفهم النساء إلا النساء » ويقولون أيضاً: « الرجل يضحك بقلبه ، أما المرأة فتضحك بفمها فقط » ، وقال الفيلسوف شوبنهور الألماني : « يسألونني عن الأفعى اللينة الملمس ، وهي أمامهم في كل وقت ، بل في كل لحظة ، وهي المرأة » ، وقال أيضاً : « لتكن المرأة ملاكاً طاهراً ، أو شيطاناً رجيماً ، فمالنا ولها ؟ أجارنا الله من شرها وأذاها » ، وقال سنت بوف : « المرأة شيطان محسن » .

فضل المرأة

الترفيلة السابعة — جرت المقادير ، وقضي الأمر على « المرأة » أن تكون أضعف من الرجل في الجسد والقوة والسيطرة ، فلذلك التجأت للتسلح « بالتدابير الخفية » والأفكار الباطنية ، لكي تقوى بذلك على الدفاع عن نفسها ، وتارة على الهجوم عند الاقتضاء . غير أن هذا لا ينافي أن « المرأة » أحسن من «الرجل» في الفضل الأدبي ، والتهذيب الفطري ، والعفة ، وعمل الخير ، وما إلى ذلك من أمثال وفضائل ، فهذه ما لا يقدر الرجل أن يجاري المرأة فيها ، وهي من هذه الوجهة أفضل من الرجل وأسمى منه ، في كل آن ومكان ، على اختلاف الأجناس والأديان .

انظر إلى الرجل أولاً من جهة قوته الجسدية وشدته ، تجد أن قوته هذهأدت في جميع أدواره إلى ارتكابه الجرائم ، كبيرة وصغيرة ، من السرقات ، الى قطع الطرق على السابلة ، ونهب أموالها،إلى تأليف العصابات وإيقاد الثورات ،والانتقام من بعض إخوانه في الانسانية ، وربما في الدين والوطن ، هذا عدا ما في إثارة الحروب ، وتقتيل البشر — مزاحمة على حطام الدنيا — من نبذٍ لكل شريعة ومدنية .

فكل ما جرى ويجري في هذه الدنيا من الفجائع والاستبداد والاستعباد واستعمار البلاد وإرهاق أهلها ، إنما يفعله الرجل ، نعم أن الرجل هو القائم بكل هذه البلايا ، ولم يعرف لا في عصرنا ، ولا في العصور الماضية أن النساء ألّفْنَ من بينهن عصابات للسرقة والقتل والسلب ، ولا تَجَمَّعْنَ لجريمة ، أو أعَنَّ عليها !

ولا يقدح في هذا أنه وجد في التاريخ نساء دعون إلى مثل هذا ، وباشرنه بأنفسهن ، « كوقعة الجمل » ، وأعمال « جاندارك » و « غزالة » الخارجية ، و « زنوبيا » ملكة تدمر ، و « الزباء » إلى غير ذلك من الشواذ ، فما كان الدافع إليهن إلاّ حب تأييد عقيدة ، رسخت في تلك النفوس ، لا حباً بسفك الدماء ، والتغلب على الأعداء ، ولا يدحض أيضاً ما هو معلوم عن مساعدة النساء لرجالهن في الحروب ، فهو إنما اضطرت اليه « المرأة » لتخفف من ويلات الحرب عن الرجال ، بدافع الكرامة القومية ، لا بقصد قتل الأعداء .

ونعلم ان كثيراً من جرحى الحرب الذين يؤسرون ويدخلون مستشفيات أعدائهم — كانوا يلقون من عطف « المرأة » وحنانها مثل ما كان يلقى أهلها وقومها ، إذاً فما كان وجودهن في تلك الساحات قديماً وحديثاً إلا لتلطيف هذه المصائب . بحنانهن ورقة إحساسهن ، فهن محسنات بالطبيعة ، والروح الأدبية فيهن أقوى وأسمى مما هي في الرجال .

أراك يعلو صوتك ، وتندفع الرد عليّ قائلاً : إن أكثر الحروب والعداوات الشخصية ، والجرائم المتعددة ، التي ذكرتها ، إذا دققت في أسبابها ، تجدها آتية من طريق « المرأة » ، وهو أمر مشهور وبرهانه ساطع ، لا يقبل الرد — إذاقلت هذا فإني أجيبك ان السبب ليس هو « المرأة » ، أي أن المرأة لم تدفع الرجال إلى هذه المخازي ، ولا حرّضتهم عليها ، ولكن الرجال بأنانيتهم ، وحبهم للاثرة ، ومزاحمة بعضهم لبعض ، وما في رؤوسهم من مطامع يندفعون إلى هذه الشرور ، تنفيذاً لمآربهم ، فلا ذنب « للمرأة » في هذا .

وهل شهدتَ أو سمعتَ إلا نادراً ان امرأتين اقتتلتا ، أو قتلت إحداهما الثانية من أجل الوصول للرجل؟ — وهي أولى منه بذلك لما فيها من قوى ثائرة ،وعواطف

متهيجة ـ أو أثارت جنسها أو ناحيتها أو قومها من أجل الحصول على رجل ؟ هذا ما لا وجود له إلا في القليل النادر ، وخاصة فيمن كان في حياتهن العائلية شيء من الشرف ..

وهل تعتقد أن الزانيات في النســـاء يبلغن عشر عشر الزانين من الرجال ؟ ـ كلا ـ ؛ وهل تعتقد ان شاربات الخمر من النساء يساوين جزأ من ألف من شاربي الخمر الرجال ؟ — كلا — ، وهل تعتقد ان المرابيات من النساء يساوين جزأ من ألف جزء من مرابي الرجال ؟ — كلا — .

هذا ما عدا ما « للمرأة » من التأثير على الرجال بإبعادهم عن تلك المآزق الحرجة ، وما عدا ما لها من الفضل في نشر السلام ، فهي رسوله الصادق الأمين ، وهذا ما يدعو كل منصف بصير أن يعترف « للمرأة » بهذه الحسنات الكبرى ، وبُعدِها عن الأعمال القاسية .

ثم إذا استعرضت « الرجل والمرأة » في ملاعب الميسر تجد أن الرجل يأخذ من هذه البلية القسط الأوفر ، والبلاء الأعظم ، ولا ينال « المرأة » منها إلا جزء صغير ، إذاً « فالمرأة » أبعد من الرجل عن المخازي الفتاكة بالهيئة الاجتماعيـة ، والمنهكة للأجساد والأرواح ، الدافعة للناس — بين بأسهم ورجائهم — إلى اقتراف السرقة والقتل .

ولننظر إلى « الرجـل والمرأة » من حيث الدماثة واللطف ورقـة العواطف والشعور والحنان ، فهذه الأخلاق تفضل فيها « المرأةُ الرجلَ » .

ولا أحسبك إلا مسلماً لي في هذا الاعتقاد على طول الخط...وفوق ما اتصفت به من تلك الأخلاق وتفوّقها فيها ، فهي مخصصة للقيام بعبء عظيم ، من أعباء هذه

الحياة ، إذا لم تقل أعظمها ، وهو الحمل والولادة والرضاع وتربية الأطفال التربية الأولية .

نعم لا ننكر ان الرجل يفضل المرأة بأشياء هي جوهرية وذات قيمة كالعقل الثابت في مقابلة عاطفتها المضطربة ، والقيام بالواجبات الاقتصادية والسعي والإنفاق في مقابلة كونها لا تقوم بشيء من ذلك ، والدفاع عن الوطن والشرف والمال في مقابلة كونها ليس فيها أهلية لذلك ، والثبات على المبدأ في مقابلة تناقضها في أعمالها وأقوالها ، فبهذه الأشياء وأمثالها فَضُلَ الرجلُ المرأةَ .

كيد النساء وكيد الشيطان

الترفيلة الثامنة — قال بعض الناس : إني أخاف من النساء أكثر مما أخاف من الشيطان، لأنه ورد في النساء: ﴿ إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ﴾ (٢٨:١٢) وورد في الشيطان : ﴿ إنّ كيدَ الشيطانِ كان ضعيفاً ﴾ (٤ : ٧٥) .

وفي كلام هذا البعض نظر ، لأن كيد الشيطان مذكور في الآية مقابلاً لكيد الله تعالى ، فكان ضعيفاً بالنسبة اليه ، ألا ترى أول الآية : ﴿ الذينَ آمنوا يقَاتِلون في سبيلِ اللهِ ، والذين كَفَروا يقاتِلونَ في سبيل الطاغوتِ ، فقاتِلوا أولياءَ الشيطانِ ، إنّ كيدَ الشيطانِ كانَ ضعيفاً ﴾ (٤ : ٧٥) فصدر الآية متضمن لكيد الله تعالى ، وعجزها متضمن لكيد الشيطان ، وكيد الشيطان ضعيف بالنسبة لكيد الله تعالى ، وأما قوله « إن كيدكن عظيم » فهو بالنسبة لكيد الرجال ، أي ان كيد زليخا وأمثالها من النساء عظيم بالنسبة لكيد يوسف وأمثاله من الرجال .

وأيضاً فان الكيد الذي يتعاطاه النساء وغيرهن مستفاد من الشيطان بوسوسته،

وتسويله ، وشواهد الشرع قائمة على ذلك ، فلا يتصور حينئذ أن يكون كيدهن أعظم من كيده .

قميص يوسف والقميص الذي وضع فيه الحجر الأسود

الترفيلة التاسعة — كأني بهذا « القميص » المقدود هو أشبه شيء « بالقميص » الذي وضع فيه « الحجر الأسود » حين بناء قريش الكعبة ، فهذا القميص المذكور هنا كان سبباً لرفع الخلاف بين يوسف وزليخا ، وذلك « الشاهد » بسبب حكمته كان الواسطة الكبرى لعمل طريقة أزال بها الخلاف ، كذلك كان « القميص » الذي أمر النبي ﷺ قريشاً أن يأتوا به ليضع ﷺ « الحجر الأسود » فيه ، كان هو الواسطة العظمى لازالة الشقاق العظيم بين قبائل قريش وكان هذا بسبب حكمة النبي عليه الصلاة والسلام.

هذا ... وإذ قد تم خطابي فاني أقدم أسمى احتراماتي لحضرات إخواني أعضاء المؤتمر المحترمين ، وأختم هذه الجلسة باعراب عن تشكراتي وتقديم اسمى التحية لهم لحسن إصغائهم إليّ والسلام عليكم . (مرحى)

نتيجة الحكم

آ(٢٩) « يُوسُفُ ، أعْرِضْ عَنْ هـذا ، واسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكَ ، إنَّكِ كُنْتِ مِنَ الخاطِئينَ .. »

افتتحت الجلسة وتليت الآية التاسعة والعشرون فقام الأستاذ العلامة البغدادي [1] وقال :

قال العزيز بلسان الرجاء إلى يوسف يا (يوسف) لأجل خاطري (أعرض

(١) نسبة الى بغداد من القطر العراقي العربي .

عن هذا) الأمر ، واكتمه ولا تحدث به ، (و) قال بلسان النصيحة لزوجته زليخا (استغفري) أنت (لذنبك) الذي ثبت عليك ، واسدلي الستار على هذه المأساة (إنك كنت من) جملة القوم (الخاطئين) المتعمدين للذنب .

ولما سمعا هذا القول ، امتثل يوسف وعادت أمور إدارته في القصر لمجراها الطبيعي ، غير أنه كان فيما نظن بعيداً عن امرأة العزيز والخلوة بها ، وأما امرأة العزيز فجلست في كسر بيتها يحفها الخجل ويحوطها الذل والهوان .

(يوسف أعرض عن هذا ..)

—١—

وتابع العلامة البغدادي قوله :

طلب الاعراض من يوسف

جعل « العزيز » يتطلع حواليه ، ويلتفت يمنة ويسرة ، لئلا يسمعه أحد من الخادمات والجواري ، وقال مخاطباً يوسف بصوت منخفض ، ونفس صغيرة :

يوسف :

لله أنت ، ولله أبوك ، لا فض فوك ، ولا عاش من يشنوك ، هنيئاً لبطن حواك ، وثدي سقاك وحجر آواك ، فقد نطقت بالحق ، وتكلمت بالصدق ، بورك فيك من عفيف شريف ، ومن شاب نشأ في طاعة ربه ، حقاً أنت ممن يستظلون بظل العرش يوم القيامة .

يوسف :

كن مطمئناً ، تهنأ بمروءتك وشرفك ، فقد ظهر لنا جلياً أنك أطهر من الزهرة المطلولة ، وأنقى من القطرة الصافية :

يوسف:

كفاك افتخاراً انتصارك على العواطف البشرية ، وحسبك شرفاً ، انتصارك على هذه « المرأة » برجل من أهلها ، فلا تفتكر في هذا الشأن ، وافرض أن هذا الكائن لم يكن ، « أعرض عن هذا » الحادث ، وقدره كأنه ما كان ، ولاتخطره لك على بال ، اضرب عنه صفحاً ، وأعرض عنه إعراض الكرام ، واغض عنه إغضاء ذوي الستر والمروءة:

وقد علمت وغيري علمَ تجربة أن الكياسة خبء السر في خيس (١)

فاكتم حديثك لا يشعر بـه أحد : من رهط جبريل أو من رهط ابليس، أعرض عنه ، ريثما تسكن هذه السيرة المنتنة ، وتتلاشى من نفسها ، بل أعرض عنه مطلقاً ، وانتزع رسمه من خيالك ، واجعله نسياً منسياً ، فلا تذكره لأحد ما، حتى لا يفشو ويشيع وينتشر بين الناس ، ولا تكترث بهذا الأمر ، ولا تهتم به ، فقد بان عذرك ، واتضحت براءتك .

هذا مغزى كلام « العزيز » ، وهذا هو معناه الروحي ، الذي يجب أن يكون قد أراده « عزيز مصر » في خطابه ليوسف .

وأما يوسف فكأني به حينما سمع كلام « العزيز » قال له : لبيك لبيك ، سمعت لك مأموراً مطاعاً ، لأن الذي يحب أن تشيع الفاحشة ملعون في الدنيا والآخرة.

ثم ربض يوسف في مكانه في بيت العزيز على حاله ، وآثر الصمت ، واعتصم بالأناة ، واستمسك بتناسي كل ما وقع ، وهذا الحادث — والحمد لله — لم يقلل من شرف يوسف ، بل بالعكس زاده قيمة واعتباراً .

(مرحى)

---

(١) الخيس بالكسر موضع الاسد .

(واستغفري لذنبك)

— ١ —

وقالت السيدة رشيدة البيروتية :

طلب الاستغفار من زليخا وعطفها

من انصاف « العزيز » أنه أعدى يوسف على زوجته ، وحكم له عليها ، نظر فيها نظرة كأنها وقع السهام ، نظر اليها نظرة ملؤها الكره والهوان . وقال لها : وأما أنتِ ، فلا إخالكِ إلا مفترية على هذا البريء الطاهر ، وكأني بكِ قد سعيتِ الى حتفكِ بظلفكِ ، أقلعي عن كل ما تقدم ، وابغضي حالتك الأولى بغض الأرض للدم ، اقرأي سورة التوبة ، وعليكِ بسرعة الفيء والأوبة ، أسمعي السماء صوت توبتكِ ، قبل أن تسمعي منها صوت العذاب الأليم ، الذي سيحيق بكِ إذا لم تؤوبي وتتوبي ، وتقرعي سن الندم ، على ما فرط منكِ في حق هـذا العبد العبراني من الرغبة اليه ، ثم الفرية عليه ، فذنبكِ مزدوج ، ولذلك فأنتِ قد أصبحتِ مخروطة في سلك الخاطئين ، الذين إذا عدوا فأنتِ — واخجلتاه — معدودة ، وإن حدوا كنتِ — واآسفاه — محدودة ، فليتكِ قبل هذا كنتِ موؤدة.

« استغفري لذنبكِ » ، فليست العفة عفه الخدر والخباء ، ولكنها عفة النفس والضمير ، وأنتِ مسوؤلة عن ذنوبكِ وآثامكِ أمام نفسكِ وضميركِ ، فضميركِ هو الذي يتولى بنفسه محاسبتكِ على جميع أعمالك ، وهو المراقب على حركاتكِ وسكناتكِ ، لأنه أعظم سلطاناً وأقوى يداً من جميع الوازعين والمسيطرين ، فأصلحي ما بينكِ وبين من خلقكِ ، الذي يعلم السر وأخفى ، أنا لا أريد أن أرهقكِ ، ولا أن أدينكِ ، لأنك ربما تريْنَ أنكِ لستِ مسؤولة أمام رجلكِ ،

ولكنك مسؤولة في الدنيا أمام ضميرك ، وفي العقبى تسألين أمام هيئة المحكمة العدلية الكبرى المؤلفة من الملائكة ، تحت رئاسة الديان العظيم .

يسوءني أن أصرح باسمك ، وأناديك بلقبك الرسمي في هـذا المقام ، مقام صدور الحكم عليك ، ولكني أكني عنك فقط ، فيـــا أمة الله ، يا هَنْتَاه ، بل يا عدوة نفسها ، يا قَرْن الفتنـة ، قد هَبِلْتِ ، فاستغفري لذنبك ، وسبعين مرة استغفري لذنبك ، واشطبي جميع حسابات الحب الماضية ؛

خليق بك أن تستغفري الله ، فقـد أسأت وظلمت ، ﴿ ومَنْ يَعملْ سُوءاً أو يَظْلِمْ نَفْسَهُ ، ثم يَستَغْفِرِ اللهَ ، يَجِـدِ اللهَ غَفوراً رحيمـــاً ﴾ (٤ : ١٠٩) .

ثم جعل « فوطيفار » ينظر الى يوسف ، نظر عنـاية واعجاب ، موصيه أن يتغاضى عن هذا الحادث الأليم ، راغبـاً اليه أن يجعله تحت طيّ الكتمان ، وجعـل ينظر الى « زليخــا » شذراً وتنفس نفساً وصل اليهـا حرّه ، وأمرهـــا بالتوبة والاستغفار وطلب العفو من المولى الغفار عن « ذنبها » الذي هـو مجموع المراودة باللسان ، وتغليق الأبواب باليد ، وهمها بالقلب أن تبطش به إذا لم يوآتها ، فقد زنت بلسانها ويدها وقلبها ، لأن الزنا كما يكون بالفرج ، فكذا يكون بالجوارح ، وهو الزنا الأصغر ، وهو (طبعا) دون الأول ، وفي البخاري عن أبي هريرة : « فزنى العـين النظر ، وزنى اللسان المنطق ، والنفس تَتمَنَّى وتشتهي ، والفرج يُصَدِّق ذلك كلَّه ويكذبه » .

سمعت « زليخا » خطاب سيدها لها ، فودّت لو تنفتح الأرض وتبتلعهـــا ولا يراها أحد ، ولم تفه ببنت شفة في تبرير فعلها ، ورجعت لقصرها وهي كاسفة البال مسربلة بالخزي والعار . قبعت في كسر بيتها ، تُصعِّد الزفرة تلو الزفرة ، وترسل

العبرة فالعبرة ، وباتت محطمة من آثار معركة التحقيق . ولكأني أراها حينئذ قالت بينها وبين نفسها : يأمرني بالاستغفار !! أسأل الله العافية ، لقد أدخل يده في الجراب ، فأخرج أشدّ ما فيه وأصعبَه ، وإلاّ .. فمن ماذا استغفر ؟.. أستغفر من حب يوسف ؟.. أستغفر من حرصي على قربه ؟ ؟.. أستغفر من تمتعي بمحاسنه ؟. أستغفر الله العظيم !!! ثم قالت متمثلة :

ما ذا لقيتُ من الهوى وعذابه   طلعَتْ عليّ بليةٌ من بابه

مرحى

(واستغفري لذنبك)

— ٢ —

وقالت الآنسة ثريا اللاذقانية :

سوف لا أتكلم في هذا المقام إلا عما تضمنته هذه الآية الكريمة من نكات دقيقة لا ندحة لي من التنبيه عليها :

بعض فضليات النساء في التاريخ

النكتة الأولى — لقد ذكر التاريخ كثيراً من السيدات الفضليات ، مثل السيدة « مريم » بنت عمران ، من بنات إسرائيل ، ومثل « بلقيس » ملكة سبأ . من بنات قحطان ، ومثل « زنوبيا » ملكة تدمر ، من صميم العرب ، ومثل « تماضر الخنساء » أفضل شاعرة من شواعر العرب ، ومثل السيدة « خديجة » بنت خويلد ، زوج النبي ﷺ ، والسيدة « عائشة » وأختها « أسماء » بنتي أبي بكر الصديق ، من بنات قريش ، ومثل « كليو بطرة » ملكة مصر ، من بنات الرومان ، ومثل « جاندارك » من بنات الفرنسيس ، وغيرهن .. وقد حفظ التاريخ

لهؤلاء وأشباههن ذكريات فخمة ، غير أن هذه « المرأة القبطية » زليخا ، مع الأسف ، لم يرو لنا التاريخ عنها إلا أسوأ الذكرى .

لماذا لم يعاقب العزيز امرأته بصرامة

النكتة الثانية — لا ريب أن « فوطيفار » كان اعتبر أن هذه الحادثة نكبة من أعظم النكبات التي حلت به وبأسرته ، وبأسرة زوجته أيضاً ، ولكنه لم يؤاخذها بأكثر من العظة ، حتى قيل عنه : « إنه كان رجلاً فَسْلاً[1] ، لا مروءة له ، وكان ضعيف الغيرة » ، وقيل عنه : « إن هذا الرجل ، جبان هيّابة ، رعْديد رعشيشة ، قنذع ، طسيع »[2] وقيل عنه : « إنه كان خوّار العود ، رخْو المكسِر » ، وعندنا أن هذا الرجل لم يقاص امرأته ، ولم يعاملها بشيء من الصرامة ، ولم يطلقها ، ولم ... ولم ... الخ ... لوجوه عديدة ، وكلها وجيهة إن شاء الله .

يدا فوطيفار أوكتا وفوه نفخ

أ — لأنه هو الذي وضع هذا « الحمام الوديع » يوسف ، بين مخالب هذه « اللبوة الشرسة » زليخا ، هو الذي جمع بين هذا « الشاب » الفاتن وبين تلك الامرأة القوية الشعور ، هو الذي غرس بيده هذه الشجرة ، شجرة الحب في قلب امرأته ، وهو الذي « يداه أوكتا وفوه نفخ » ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا خُذُوا حِذْرَكُم ﴾ (٤ : ٧٠) ، وقال تعالى : ﴿ يا أَيُّها الذينَ آمَنُوا ، قُوا

(١) الفسل : الضعيف المسترذل الذي لا مروءة له .

(٢) الرعديد : الجبان الكثير الارتعاد . والرعشيشة : الجبان الكثير الارتعاش . والقنذع : الذي يغض ما يرى من زوجته . والطسيع : عديم الغيرة .

أنفُسَكُم وأهليكم ناراً ، وَقودُها الناسُ والحِجارةُ ، عليها ملائكةٌ غِلاظٌ شِدادٌ ، لا يَعصُونَ اللهَ ما أمرَهُم ، ويَفعلون ما يُؤمَرون ﴾ (٦٦ : ٦) ..

فعندنا أن « العزيز » لم يعاقب امرأته بما يلزم من العقاب ، ولم يقاصها ، ولم يعاملها بشيء من الصرامة ، لأنه افتكر فرأى أن الذنب كل الذنب عليه ، لأنه هو الذي جلب يوسف اليها ، وجعل لها عليه سلطاناً ودالّة ، إذ قال لها « أكرمي مثواه » وسوّغ له الدخول في أيّ وقت في بيتها الخاص بها ، كما يدل عليه قوله : « في بيتها » ، فاذا كان هذا ، وكان يوسف من الجمال كما وصفه سفر التكوين والقرآن الكريم والحديث الشريف ، فهل يستطيع أقدر « محام » في الأرض أن يدافع عن « العزيز » ؟ وهو السبب الوحيد في هذه الفتنة التي حدثت في قصره ، وهو الواسطة الكبرى في هذا الخطر الذى أحدق بامرأته ، وهل يستطيع ذو مُسكة أن يتصور خطراً على امرأة العزيز ، وعلى عفتها وطهرها أعظم من هذا الخطر ، الذي عرّضها له سيدها العزيز ؟ .. كلا ..

فاذاً الضرر كل الضرر إنما جاء من جانبه ، ولذلك ولكونه يوجد عنده شيء من الانصاف ، لم يقاص زوجته بما يجب من القصاص ، ولم يعاقبها بطلاق أو غيره.

ثم الغريب انه أخطأ في التسبب في وجود يوسف عندها في القصر وفي بيتها ، وعرف أنه مخطىء ، وتبين له عاقبة خطئه ، ولم يتدارك الأمر ، بل بقي مصراً على خطئه ، إذ لم يبعدها عن يوسف ، أو يبعد يوسف عنها ، نعم لا ننكر أنه لما تفاقم الشر ، واتسع الخرق على الراقع ، بسبب حادثة النسوة ، وتقطيعهن أيديهن في قصره ، بدا له أن يعتقله وقد فعل ، ولكن بعد خراب البصرة ..

والخلاصة أن « العزيز » هو الذي هيأ الوقود لنار هذه الفتنة بيده ، إذ أتى بيوسف بين يدي زوجته ، وأطلق لها الحرية أن تجتمع به ، بلا رقيب ولا ملاحظ كما أطلق الحرية ليوسف في خدمة القصر ، والدخول والخلوة بلا مهيمن ولا

مسيطر ، فيوسف قدّر الله أن يكون معصوماً بتوفيقه تعالى ، لكن تلك المرأة « زليخا » لم يقدر لها ذلك ، فوقعت في الشَّرَك ، ولو أن « سيدها » أراد معاقبتها لكانت تقدر أن تقول له « يداك أوكتا ، وفوك نفخ ».

فلذلك نحن نرى أنه لم يعاقبها ، مع أن عملها جريمة ، لأنه باهماله وتفريطه شاركها في ارتكاب الجريمة ، فقد سهل لها الاجتماع والخلوة بفتاه ومملوكه الجميل فرّط في واجبات اعتزال زوجته عن الغير ، فحق عليه القول : « المفرط أولى بالخسارة » .

احتمال اتصاف العزيز بشيء من فساد الأخلاق

٢ً — ربما كان « عزيز مصر » من الأمراء الذين لم يترفعوا عن بعض أنواع الفحشاء ، فكان يحاسب نفسه بنفسه ، ويقرر مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة ، ويقول في نفسه : ليس من العدل أن يغضب الزوج من خيانة زوجته إذا كان هو يخونها ، فلذلك لم يحاسبها على ما صدر منها بأكثر من العظة والنصيحة ، وقد روى الحاكم من حديث أبي هريرة : « وليردّك عن الناس ما تعلم من نفسك » .

وحيث أن إيضاح المقام يحتاج إلى بسط في الكلام نقول :

إنه لأمر معلوم أن « عزيز مصر » كان تهاون في صون امرأته وحجابها عن الخدَمة ، وبناء عليه ، فيحتمل أن هذا الرجل كان عنده شيء من فساد الأخلاق والتطلع إلى الأجنبيات ، بمقدار ما كان عند زوجته من ذلك ، ولذلك لم ينكّل بها ، من قبيل : « افتضحوا فأصلحوا » و « إن الطيور على أشكالها تقع » و « إن هذا الكعك من هذا العجين » و « الجنس للجنس يميل » ، قال تعالى : ﴿ الخبيثاتُ للخبيثينَ ، والخبيثون للخبيثاتِ ، والطيباتُ للطيبين ، والطيبون للطيبات ﴾ (٢٤ : ٢٦) ، وقال تعالى : ﴿ الزاني لا ينكِحُ إلاّ زانيةً أو مُشرِكةً ،

والزانيةُ لا ينكحها إلا زانٍ أو مشركٌ ﴾ (٢٤:٣)، ومعنى الآية الأولى أن الغالب أن الطيب لا يقترن إلا بالطيبة، والطيبة لا تقترن إلا بالطيب، ومعنى الآية الثانية أن الغالب في المائل الى الزنا أنه لا يرغب في نكاح الصوالح، والزانية لا يرغب فيها الصلحاء، فالمشاكلة على الألفة، والمجالسة من دواعي الانضمام، والمراد «بالزاني» ولو بالنظر أو اللسان أو تمني القلب، فان تحول الأخلاق الاجتماعية في النساء، ينشأ من تحول الأخلاق الاجتماعية في الرجال، لأن الرجل مرآة المرأة، كما ان المرأة مرآة الطفل، ولذلك لما فسدت أخلاق أكثر شباننا، بدأ فساد أخلاق أكثر النساء، بما يتناسب مع هوى الرجل.

حقاً إن العوامل التي تفسد المرأة، وتحول أخلاقها هذا التحويل المشئوم، ترجع كلها إلى تحول أخلاق الرجل، فاذا صار هو فاسقاً، فلا ينتظر أن تكون هي العفيفة، وإذا هو هدم المسجد، فلا يعقل أن تبني هي المأذنة، وإذا كان هو متهتكاً، فلا يمكن أن تبقى هي حيّيه مصونة. هذه هي القاعدة الاجتماعية (الغالبة)، وما خرج عنها فهو شاذ، وقليل ماهم.

ولا نعلم هل هذا العزيز «فوطيفار» ممن قد انخرطوا في سلك هذه «القاعدة» أم هو من الأفراد الشاذة التي خرجت عنها؟، ولذلك قلنا: إن فساد أخلاق «فوطيفار» «من المحتمل»، وليس من «الأمر المحق».

احتمال خوف العزيز من أُسرة زوجته وضعفه تجاهها

٣ً — لعل «عزيز مصر» سكت عن تأديب زوجته بأكثر من التأنيب الكلامي لأنها كانت بنت رجل عظيم في البلاط، يخاف «العزيز» من إفساده قلب مليك مصر عليه، لو أهان أو فارق بنته، والتزوج أو التزويج في سبيل التجارة، عادة قديمة بين العظماء، ومستمرة إلى اليوم، فكم من رجل يتزوج امرأة لمالها أو لأملاكها، أو لجاه ونفوذ أبيها، أو لمنصبه ومكانته في الحكومة، عسى أن ينال الزوج من مالها شيئاً، أو يعيش تحت ظل والدها.

ويظهر لنا مما سبق من قول « سيدها » لها : « أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » ، ومن اقتراحها إذ قالت : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يُسجن أو عذاب أليم » ، ومن جرأتها فيما سيأتي إذ تقول أمام النسوة : « ولقد راودته عن نفسِهِ فاستعصم » ، ومن استبدادها حين تقول : «ولَئِنْ لم يفعلْ ما آمُرُهُ ، ليُسجَنَنَّ ولَيكوناً من الصاغِرِينَ » ومن الإجمال والابهام، وعدم تخصيصها بالكلام حينما يقول يوسف : « ربِّ ، السجنُ أحبُّ إليَّ مِمّا يَدْعونَنِي اليه » ، ومن أنَّ يوسف أهمل التصريح باسمها ، مكتفياً بالتلويح اليها فيما يقول : فاسألْهُ ما بالُ النسوةِ اللاتي قَطَّعْنَ أيدِيَهُنَّ ، إنَّ ربي بكيدِهِنَّ عليمٌ » ، ومن صراحتها المدهشة وعدم خوفها من سيدها ، إذ تقول أمامَ مندوب التحقيق : « الآنَ حصْحَصَ الحقُ ، أنا راوَدْتُهُ عن نفسِهِ ، وإنه لَمِنَ الصادقين » — يظهر لنا من مجموع ذلك ان امرأة العزيز كانت (كما روى) من سلائل العائلة القبطية ، التي كانت مالكة ، أو على الأقل كانت من قوم مُدِلّين بأنفسهم وبوفرهم وثرائهم ومكانتهم في الهيئة الاجتماعية ، أو كانت شخصياً ، لما لها من مال أو جمال ، نافذة ، مستبدة ، جريئة ، محفوظة — الأمر الذي يكشف لنا سر ضعف « سيدها » الذي تجلى في قوله لها : « واستغفري لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين » ، حيث جعل عقابها على خطئها مجرد الاستغفار .

احتمال عدم وجود طلاق في زمن العزيز عند المصريين

٤ً — يقول بعضهم : لماذا لم يطلقها ؟ — ونحن لا نعلم المانع له من طلاقها تماماً، لأننا لم نقف على نظام « الأحوال الشخصية » عند هؤلاء المصريين القدماء ، ثم إني لقد رأيت في شرح سفر التكوين أنه كان للمرأة عند المصريين أن تستولي على كل ما يملكه الرجل إذا تركها ، كما علم مما نُشر من أخبارهم ، على ما قال الدكتور

« بين سميث » ومع ذلك فلعله لم يطلقها ، لأنه ليس في شريعتهم طلاق البتة ، كما هو عند « الكاثوليك » ، ويحتمل أن الطلاق لا يجوز عند المصريين إلا في صور وحوادث معلومة صعبة التطبيق والاثبات ، كما يقول بعض المؤرخين ، وكما هو مذهب « الأرثوذكس » .

احتمال حرص العزيز على ستر حادثة زوجته

٥ — من المحتمل ان « فوطيفار » لم يكن سريع الانفعال ، متكهرب الأعصاب ، كان بعيداً عن خشونة الأخلاق ووعورتها ، فلذلك اكتفى بعظتها وتثويبها ، ولم يؤدبها بالسجن أو الضرب ونحوهما ، لأن المرأة التي لا تحافظ من تلقاء نفسها على شرفها ، فعبثاً أن يؤمل منها الخير بالضرب أو السجن ونحوهما ، كما انه من العبث أن تحاول صيانتها بوضعها تحت المراقبة ، والتضييق على حريتها ، ولهذا قيل : إن هذه الطريقة التي جرى عليها فوطيفار هي منه عقل ، وحرص على ستر هذه الحادثة ، والعاقل من ستر إهانة نفسه .

والتاريخ حافل بأمثال ذلك ، إذ أن « الحجاج » في عتوّه ، لم يتعرض « لابن نمير » في تشبيبه « بزينب » أخته ؛ مخافة أن يكون ذلك سبباً للخوض في ذكرها ، فيزيد زائد ، ويكثر مكثر ، وكذلك « معاوية بن أبي سفيان » ، لم يتعرض « لعبد الرحمن بن حسان بن ثابت » ، وكان يتشبب بابنته .

ولدى التأمل العميق يرى القاريء ان ما فعله « عزيز مصر » خير مما فعله « هرون الرشيد » مع أخته « العباسة » ، فانه كان عقد عليها لوزيره « جعفر بن يحيى البرمكي » ، عقداً شرعياً صحيحاً ، وأذن لهذا الوزير بالدخول على كل أهل بيته وأخته ، وأمرها أن لا تمنعه من دخول البيت ، في أيّ وقت شاء ، ليلاً أو نهاراً .

أجرى ذلك العقد مستوفياً لشروطه الشرعية ، لأجل أن يحل لوزيره «جعفر» النظر والاجتماع والخلوة والمكالمة ، وكل شيء ما عدا النكاح ، ولكن الوزير « جعفر » كان دخل عليها سراً ، ورزق منها ولدين ، سماهما الحسن والحسين ، ولما بلغ « الرشيد » ذلك ، حرّق أسنانه ، واشتد غضبه ، وقتل أخته « العباسة » والوزير « جعفر » ، مع انهما لم يفعلا إلا ما أحله الله ، وأذِنَ فيه ، ثم قتل الغلامين الصغيرين المعصومين ، وقتل عشرات من الفَعَلة والحمالين والحفارين الفقراء ، الذين أطلعوا على هذا القتل ، ارتكب هذه الكبائر الفاحشة بداعي الكبرياء ، ودعوى أن « جعفر » البرمكي ليس كفواً « للعباسة » وأراد بقتل أخته وولديها ، ومن نقلهم وحفر لهم ودفنهم من الفَعَلة الفقراء إخفاء هذا الأمر ، وجعله في طي الكتمان ، مع انه قد تناقلته الألسنة ، وكتبه المؤرخون ، ولم يغادروا من هذه الحادثة صغيرة ولا كبيرة إلا سطروها ، فالذي عمله «فوطيفار» أفضل مما عمله « هرون الرشيد » ، ولو عمل « فوطيفار » كما عمل « الرشيد » لكان قتل « يوسف » وقتل زوجته « زليخا » و « الشاهد » الذي من أهلها ، وقتل جميع من اطلع في قصره على هذه الحادثة ، من الجواري والقهرمانات ونحوهم ، ولكان بئسما عمل ، ولكن أنّى للرجل ذي الأناة والرصانة راجح الحكم ، ثابت التؤدة أن يعمل ذلك ؟

معصية امرأة العزيز عقوبتها التعزير

٦ ـــ المعاصي ثلاثة أنواع : نوع فيه « الحدّ » وذلك كالزنا والسرقة وشرب الخمر ، ونوع فيه « الكفارة » وذلك كالجماع في الإحرام وفي نهار رمضان ، والحِنث في اليمين ، ونوع لا حدّ فيه ولا كفارة ، بل فيه «التعزير» ، وذلك كسرقة مالا قطع فيه ، واليمين الغموس ، والنظر إلى الأجنبية بشهوة ، ومحاولة ارتكاب الفاحشة وأخذه في أسبابها وإقامة الدعوى الباطلة على أهل الفضل والدين كما وقع من « امرأة العزيز » لما راودت يوسف ، ثم لما افترت عليه ، فهذا النوع الثالث فيه التعزير فقط ، والتعزير أنواع : منها التشهير وتغيير الهيأة وحلق اللحية ،

ومنها الضرب ، كما في حديث أبي بردة بن نيار في الصحيحين وغيرهما انه سمع النبي ﷺ يقول : « لا يجلد فوق عشرة أسواط إلا في حد من حدود الله » ، ومنها الحبس ، إذ حبس ﷺ رجلاً في تهمة ، يوماً وليلة ؛ ومنها الربط ، إذ ثبت أن عمر (ض) أمر أبا عبيدة بن الجراح أن يربط خالد بن الوليد بعمامته ، لما عزله عن إمارة الجيش ، كما في كتب السير ، وسبب ذلك أنه استنكر منه إعطاء شيء من أموال الله ؛ ومنها إقامة الانسان من المجلس ، ومنها النفي كما فعله ﷺ بالثلاثة الذين تخلفوا ، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ؛ ومنها السبّ الذي لا فحش فيه ، كقول موسى للاسرائيلي الذي استنصره أولاً ، واستصرخه ثانياً : ﴿ إنكَ لَغَوِيٌّ مُبين ﴾ (١٨:٢٨) وقول النبي ﷺ لأبي ذر ، لما سمعه يسب امرأة : « إنكَ امرؤ فيك جاهلية » كما رواه البخاري ، ومن هذا القبيل قول « العزيز » لامرأته « زليخا » : « إنكِ كنتِ مِنَ الخاطئين » مع سابق قوله : « إنه من كيدكن إنّ كيدكن عظيم » يعتبر توبيخاً وزجراً « لزليخا » لأن تعزير كل إنسان بحسبه وعلى قدر منزلته ، ورب امرأة غير زليخا إذا افترت افترائها تستحق الضرب ، واخرى تستحق الحبس ، الى غير ذلك ؛ فكل واحد يُعَزر بما يليق بمقامه ومركزه بين الناس .

عقاب المراودة في الشريعة الاستتابة مع التعزير

لا يوجد في الشريعة في مثل حادثة « امرأة العزيز » مع يوسف ، أعني حادثة المراودة ، سوى الاستتابة مع التعزير ، والتعزير — كما سبق — يكون لكل شخص بحسبه ، وواحدة مثل امرأة العزيز يكفي في تعزيرها ما خاطبها به سيدها لا أكثر ، سيما أنه لم يثبت عليها عند زوجها انها راودته وطلبت اليه الفحشاء من طريق البرهان الجلي ، ولكن من طريق « اللوث » ، طريق الأمارة والعلامة ، وقد ذكر الفقهاء في باب « اللعان » : أن الزوج إذا رمى زوجته بالفحشاء ،

وجبت عليه البينة ، وإلاّ أقيم عليه الحدّ ، فان لم تكن بينة ، وأراد الزوج تبرئة نفسه من الحد أتى بالايمان المؤكدّة ، وعند ذلك يثبت « اللوث » عليها ، فتحبس لأجله ، ويضيق عليها به ، فان دافعت عن نفسها بالأيمان المؤكدة ، سقط عنها الحدّ ، وفرّق الحاكم بينهما .

هذا ما ذكروه في باب « اللعان » ، وهـــذا الباب مبني على أن الزوج رمى امرأته بالزنا ، ولكن ههنا لا يوجد رمي من الزوج بالزنا ، وإنما كل الموجود ينحصر في أن «إمرأة العزيز» تدعي أن يوسف راودها، وبالمقابلة يدعي يوسف أن المراودة وقعت منها لا منه ثم بالبحث وجدت قرينة تدل على أن المراودة والرغبة صدرت من امرأة العزيز، فاذا تقرر هذا فما هو الحكم يا ترى في هذه الحادثة ؟ والجواب، انه لا حكم سوى ما فعله «سيدها »، من استتابتها واستغفارها لا غير .

نعم ، ينبغي طلاق المرأة التي يصدر منها مايغاير المروءة والشرف ، كما إذا ثبت عليها انها راودت رجلاً أجنبياً عن نفسها ، لأن المرأة مأمورة أن تعاشر زوجها بالمعروف ، ومن يصدر منها ذلك ليست من هـــذا القبيل ، كما ورد في صحيح البخاري عن عبد الله (ض) أنه قال عن زوجته : « لو صدر منها نحو الوشم، ما جامَعَتْنا » ، أي ما إجتمعت معنا في بيت واحد ، بطريق العشرة الزوجية ، ولا تنس ما تقدم من أن الفراق عند المصريين كان يوجد له مانع كبير ، وهو اســـتيلاء المطلقة على كل ما يملكه الزوج ، بل نفى بعضهم الطـــلاق عن المصريين بالمرة .

هذا ما حضرني الآن في الجواب عن « عزيز مصر » ، والله تعالى أعلم .

(إنك كنت من الخاطئين)

— ١ —

وقالت الانسة سلمى البصرية :

العزيز يخطيء زوجته ويوبخها

كأني بالعزيز بعد أن طلب من امرأته أن تستغفر لذنبها ، أخذ يوبخها ويعزرها قائلاً لها : أيتها السافرة المتبرجة ، تقدمين على عمل هو من العار والنذالة بمكان ! ، تقدمين على هذه المراودة مع عبد أنت سيدته ؟! ؟! هاه . هاه .

العوض على الله في أخلاقك وآدابك ، حقاً (إنك كنتِ من الخاطئين)خطأً مزدوجاً ، إذ راودتِ يوسف الطهور ، ثم هممت بالايقاع به ، ثم رميتِه بارادة السوء : « وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أوْ إثماً ، ثم يَرْمِ به بريئاً ، فقد احتَمَلَ بُهتاناً وإثماً مُبيناً » (٤ : ١١١) ، وقد أخطأتِ في حق سيدكِ وأهلكِ ، وفي جانب الله تعالى ، وقد أخطأتِ للهيئة الاجتماعية بمصر ولكل بنات مصر ، فأنت إذاً من الخاطئين، حقاً أيتها المتحفزة للخلوة ، الجاحدة للواقع ، إن وجهكِ يتكلم، وعينيكِ تعترفان ، وحالكِ ينطق بما ينكره اللسان ، فتبصري وانظري في أمر نفسكِ ، بعين غير عين الحب ، فانها دائماً حولاء !

حقاً لقد أوقعتِ ذاتكِ في مهواة لا منقذ لكِ منها سوى الاستغفار ،وأوردتِ نفسكِ موارد لا صَدر لكِ منها بغير التوبة الى الكريم الغفار .

هذا هو مغزى كلام سيدها معها ، وهذا هو المعنى الروحي الذي اراده من خطابه لها .

ولكن « زليخا » سكتت على مضض إذ لم تنجع فيها هذه العظة ، بل زادتها تأججاً وثوراناً ، وكان من الواجب المعقول على سيدها ، بدلاً من هذه العظة ، أو بعد هذه العظة ، أن يعمل على التفرقة بينهما ، بأن يعتق يوسف ويطلقه من قصره ، ليذهب حيث يشاء ، أو يرجعه الى وطنه فلسطين ، إذ لا أنفع لزوال الغرام من ابعاد المحب عن محبوبه ، أو إبعاد المحبوب عن محبه ، ولو فعل « العزيز » ذلك من أول الأمر ، لما حدثت حادثة « نسوة مصر » ، وتقطيع ايديهن ، ولما ثارت زوجته ثانية ، راغبة الى يوسف بالنزول على حكمها (تكراراً) ، ولما احتاجوا لاعتقاله ظلماً ، ولكن هكذا صار ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً .

معنى الخطء

هذا وأختم كلمتي بملحوظة لغوية وهي : يقال للمتعمد : خطِئ فهو خاطئ ، والمصدر الخطء ، قال تعالى : ﴿ إنَّ قَتْلَهم كانَ خِطْأً كبيراً ﴾ (٣١:١٧) والاسم منه الخطيئة ، ويقع على الصغيرة ، كما في قول ابراهيم (م) : « أنْ يغفرَ لي خَطيئتي يَوْمَ الدِّينِ » (٨٢:٢٦) ، وعلى الكبيرة كما في : « وأحاطَتْ به خَطيئَتُهُ » (٢ : ٨١) ويقال فيمن لم يتعمد الفعل : أخطأ وكذا لمن اجتهد ولم يوافق الصواب ، لحديث « إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر » وإنما أوجب له الأجر على اجتهاده في إرادة إصابة الحق ، لا على الخطأ الذي يكفي صاحبه أن يعذر فيه ، ويرفع عنه مأثمه ، والفاعل من أخطأ : مُخطئ ، والاسم الخطأ ، قال تعالى : ﴿ وَما كانَ لمُؤمنٍ أنْ يقتُلَ مُؤمناً إلاّ خطَأً ﴾ (٤ : ٩١) وقال الحريري :

لا تخطونّ الى خِطء ولا خطاءٍ	من بعدما الشيب في فوديك قد وخطا
فأيّ عذر لمن شابت مفارقه	إذا جرى في ميادين الهوى وخطا؟

كل سر جاوز الاثنين شاع

آ (٣٠) « وقال نِسْوَةٌ في المدينةِ : امرأةُ العزيزِ تُراودُ فتاها عن نَفْسِهِ ! ، قد شغفَها حباً ! ، إنا لنراها في ضلالٍ مبينٍ . »

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثلاثون فقامت ست اخوتها اللدية [١] وقالت :

انتقل الخبر لقصور الأميرات بواسطة بعض الخدم والجواري ، ووقع هذا النبأ عندهن موقعاً سيئاً ، (وقال نسوة) جماعة من النساء ، وكن خمساً : امرأة رئيس السقاة ، وامرأة رئيس الخبازين ، وامرأة صاحب الدواب ، وامرأة صاحب السجن ، وامرأة الحاجب ، (في المدينة) وهي صوعن عاصمة المملكة العمليقية الهكسوسية ، ـ قلن بلسان المكر (امرأة العزيز) فوطيفار ـ والعزيز في اصطلاح المصريين من قديم وحديث هو نائب الملك (تراود) تخاتل (فتاها) عبدها العبراني يوسف (عن نفسه) ليقترب منها لأنه (قد شغفها حباً) خرق حبه شغاف قلبها حتى وصل الى الفؤاد ، والشغاف حجاب القلب ، وقيل جليدة رقيقة يقال لها لسان القلب ، وقد اصطلح عليها اليوم بأنها جليدة رقيقة تبطن جوف القلب ، فيميناً بآلهة مصر المقدسة (إنا لنراها في ضلال مبين) في خطأ وبعد عن طريق الصواب ـ وقد وجهوا اليها هذا النقد مبطناً بالزراية — .

(١) نسبة الى اللد من بلاد فلسطين .

(وقال نسوة في المدينة)

— ١ —

وقالت السيدة مديحة الديرية(١):

وصول خبر السوء الى نساء الأمراء الخمس

إن « حادثة » يوسف وزليخا لم تظل مكتومـــة في قصر « العزيز » بل ذاعت وشاعت ، حتى وصلت الى قصور الأمراء ، ودخلت في آذان سيدات تلك القصور ، وإن الداخل الى غرف الأميرات المصريات إذ ذاك ، يجد أحاديث الغيبة والانتقادات قد أخذت مأخذها فيها ، ويرجع السبب في ذلك اما الى « القيّمات » اللاتي أطرن الحادثة الى بيوت الأميرات ، أو إلى « المواشط » صواحب النفوذ في بيوت الكبراء ، لأن الأميرات يفضين الى « الماشطة » بأسرارهن ، ويعتمدن عليها في المهام العظام ، فإذا كانت من أهل الذكاء والدهاء ، ملكت زمام القصر ، ووقفت على جميع حوادثه . فتصبح « خزانة أسرار » وجعبة حوادث ، أو يرجـــع الى بعض « القهرمانات » ، و« الجواري » لأنهن أكثر الناس رغبة في نقل الأحاديث ، وأنمّ من الصبح في إفشاء الســـر ، وأسرع من البرق في حكاية ما يسمعن ، وخصوصاً إذا كان من هذا القبيل .

سئل « ديوجنيس » : « أي فعل يعسر على الانسان ؟ — فقال أن يعرف نفسه ويخفي سره » ، وقال أبو العلاء المعري :

تلقى الفتى كالريـــح إن أودعته
سراً ، أذيع ، فصـار كالمزمار

(١) نسبة الى دير الزور من بلاد الشام (سورية) .

والشمس أكتم للسريرة فى الضحى

من قهرمانة دميـــة وجواري

وربما يكون الحادث بلغهن بواسطة « الخادمات » ، بل ربما أن يكون بعض الخادمات مُقامة في قصر العزيز « رَصَداً » لبعض نساء الأمراء ، تأتيهن بالحوادث التي تحدث في قصر العزيز .

وهذه عادة قديمة ومستمرة ومطردة في قصور الأمراء ، فقد كان « للأمين ابن الرشيد » ، جارية في بيت الوزير « جعفر » البرمكي ، أهداها له ، لتكون رَصَداً عليـــه ، تراقب حركاته ، وتنقلها للأمين ، كما كان « لزبيدة » زوج الرشيد « جاسوس » عند « العباسة » أخت الرشيد ، يطلعها على ماجريات العباسة ، وهكذا نعلم أنه كان للسلطان عبد الحميد العثماني « جواسيس » من جواري ورجال في كل قصر من قصور الأمراء في « الأستانه » .

وربما أن النبأ اتصل ببيوت هؤلاء النسوة بواسطة أناس من أهل بيت العزيز، فان امرأته كانت نادت اهل بيتها ، وكلمتهم قائلة : « انظروا قد جاء سيدي العزيز الينا برجل عبراني ، ليداعبنا » (تك ٣٩ : ١٤) ، وكل سر جاوز الاثنين شاع . وبالجملة : تناهى الخبر الى قصور الامراء ، وتساقطت هـــذه الحادثة الى سِطاة السيدات المصريات ، واستطار ذلك النبـأ الى سِرْب من عقيلات رجال البلاط ، واتصل بسجيرات زليخا ، وهن من بطانة المملكة وسَرَوات السيدات ، ومنهن امرأة حاجب الملك الذي كان رئيس التشريفات » ، فطرق آذانهن ، وحام حول قلوبهن ، وذلك رغماً عن أن يوسف أعرض عن ذكر هذا المصاب ، وتكتم امرأة العزيز فيه ، فصِرْنَ يَصِمْنَ تلك « المرأة » بـــكل عيب حتى صارت مضغة في أفواههن ، ونبذنها من نفوسهن نبذ النواة ، لأنهن استفظعن هذا الأمر ، وهالهن

هذا العمل الدنيء من سيدة شريفة من شريفات مصر وكبرياتهن، وبدأن يحاولن التوفيق بين نظريتي الشرف والدناءة، وكدن أن لا يصدقن الخبر، لولا تكرر الروايات المؤكدة لوقوعه، وليس بين الأحاديث حديث أسيرَ ولا أذيعَ من حديث السوء.

ولكن .. كم كنا نتمنى لهؤلاء «النسوة» — ويا للأسف — أن يبقين ثابتات على فكرة انتقادهن تلك «المرأة»، إذ سرعان ما رأيناهن قد تغير فكرهن، حينما وقع نظرهن على يوسف وجماله، (كما سيأتي)، وهكذا شأن مخضوبات البنان، ليس لهن ثبات على حال، اللهم إلا على حال التقلب والدهاء.

وتشعر كلمة «المدينة» أن «النسوة» كن «مدنيات» من سيدات مصر، من مدينة «صوعن» أو «منفيس» عاصمة المملكة الهكسوسية في ذلك العصر، ومثلهن يُصغَى لقولهن، لوقوفهن على الحوادث الاجتماعية، وهن من سجيرات وخليطات امرأة العزيز ونظيراتها، فلا ريب أنها تتأثر ببلوغ الحادثة لهن، ثم بانتقادهن، بخلاف مالو كنّ من «البادية» أو «الارياف» فقولهن لا يغيظ، ولا يجد آذاناً صاغية.

(امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه)

— ١ —

وقالت السيدة ماهتاب الكابلية [١] :

انتشار حديث السوء

لما بلغ خبر المراودة إلى سيدات «صوعن» أخذن في لومها وتضليلها، قائلات ما هو في معناه :

(وا أسفاه) امرأة العزيز «تراود فتاها عن نفسه»، مع أنها مقترنة بزوج،

(١) نسبة إلى كابل عاصمة الأفغانستان.

وأيّ زوج ؟!؟! فلا عذر لها ، وكان يجب حسب العادة أن تكون المراودة منه فالشبان هم الذين يراودون النساء ولا عكس ، لمكان الحياء الشديد الذي يمنعهن من المراودة ، ويا للعار ! فإنها لو أرادت أميراً من أمراء البلاط من سجراء سيدها لكان لها بعض العذر ، ولكنها لم تراود إلا عبداً من العبدان !

امرأة العزيز — سليلة المجد ، ربيبة النَعمة والنِعمة ، مالكة الدور ، ساكنة القصور ، ذات المال الوفير والخير الكثير ، ربّة التاج والحَلْي الوهاج ، تراود عبدها عن نفسه ، لأنها علقت بحبه !!! امرأة العزيز — يغفر الله لها ، من البيوتات الشريفة ! وسيدها من علية القوم وجلتهم، فانها أرادت خادمها لنفسها ، لتشبع لذتها الحيوانية ، فانا لله ، وإنا اليه راجعون ؛

امرأة العزيز — تراود خادمها (العبراني) عن نفسه ، تريده على الفعل الشنيع عنوة وقسراً ، ومراغمة وقهراً ، لا يلفتها عن ذلك شيء ، ومن العجب العاجب أن تستبيح سيدة كزليخا مثل هذا الفعل ، الذي يتردد صداه في القصور ، وهي من اللاتي يؤاخذن بأعمالهن أمام ضميرهن ، وأمام الناس .

نسبة زليخا الى زوجها في حديث السوء واغفال اسمها

وهنا لا بد للمدقق في هذه الآية الكريمة أن يبحث في الدقائق التالية :

أولاً — ان « النسوة » قد دعون زليخا « امرأة العزيز » للاشعار بأنها شريفة وماجدة ، إذ لو لم تكن كذلك ، ، لما اقترن بها ، كما أنهن قد دعون يوسف « فتى » لها ، للايذان بأنه عبد من عبيدها ، وخادم من خدامها ، وكل ذلك لاظهار ما بينهما من التباين البين ، وأيضاً ليظهر أن « زليخا » هي امرأة عزيز مصر ، أي امرأة رجل عظيم ومقترنة به بالفعل ، قصدن بذلك الاشباع في لومها ، فان من لا زوج لها من النساء ، أولها زوج دنيء قد تعذر نوعاً في مراودة الأخدان ، لا سيما إذا كان فيهم شيء من علو الجناب ، وأما التي لها زوج ، وأيّ

زوج هو ؟ هو عزيز مصر ، فلعمري إن مراودتها لغيره ، لا سيما لعبدهـا الذي لا كفـاءة بينها و بينـه أصلاً ــ بحكم الظـاهر ــ وتماديهـا في ذلك ، لهي غاية الغيّ ، ونهاية الانحطاط .

هذا ، ويحتمل أنهن أردن من هذه الاضافة (امرأة العزيز) نسبة العـــار والعيب للعزيز ، باضافة هذه المرأة الساقطة اليه ، نسبنها له ، لا لأهلها ، لأنه هـو السبب فيما حدث ، فهو الملوم دون سواه من أهلها ، ولذلك لا يجب نسبتها لواحـد من أهلها ، ولكن لزوجها .

إن التهاون الذي يبدو من الزوج في شأن زوجته ، قد يكون له سوء مغبة، ليس في جانب الزوجة فقط ، أو في جانبها وأهلهـا فحسب ، بل إن سوء المغبة قد يلحق الزوج ، لا سيما إذا كان هو المتسبب .

انظر (يا رعاك الله) الى هؤلاء النسوة المصريات ، عنـدما أردن ذكر زليخا بالاقذاع ، لم يسمينها باسمها الشخصي ، بأن يقلن : « زليخا تراود فتاها عن نفسه» بل نسبنها إلى زوجها ، قائلات : « امرأة العزيز تراود فتاهـا عن نفسه » وتناسين اسم أبيها وأسرتها ، كأنها « حواء » ثانية ، خلقت من ضلع من أضلاع زوجهـا اليسرى ، فهو أبوها وهو عصبتها .

فلماذا يا ترى هذه النسبة ؟ قلنا إنها للاشارة لنسبة العار والعيب للعزيز نفسه ، بنسبة هذه الساقطة اليه ، ولماذا هذا ياترى ؟ قلنا لأنه هو الذي تسبب ، فهذا جزاء كل زوج يتساهل في حفظ زوجته مما يخاف منه العار ،

نحن لانلوم عزيز مصر في إطلاق يد فتاه في سائر أموره الاقتصادية ورؤيته الصادرمنها والوارد اليها ،ورؤيته سائرأحوال البيت ، ولكن ما هوعذره فيالسماح لزوجته زليخا أن تدخل على فتاه في غرفته الخاصة به وبأشغاله ؟ وماهو عذره في

أمره ليوسف أن يدخل القصر في أي وقت شـــاء لرؤية بعض اللوازم ؟ سواء أكانت العزيزة زليخـا في القصر أم لا ، لا فرق في ذلك ، حتى ولو كان هنـاك خلوة ، فلا منع ولا حظر أصلاً ، وهل يجمع بين النار والحطب ؟

نعم ، صادف أن هذا العبد (من حيث لا يعـــلم العزيز) ، ذو دين وشرف وعصمة ، ولماذا ؟.. لأنه يوسف وكفى ! ولكن ليس كل الفتيـان يوسف ، فاذاً يجب علينـــا المحافظة على صواحبنا وبناتنـا كل حين ، والله خير حافظاً ، وهو أرحم الراحمين .

تسمية العبد فتى

ثانياً — إن هذا الأدب الذي كان يمشي عليه المصريون الأقدمون في تسمية العبد « فتى » ، هو نِعْمَ الأدب ، في الحديث الشريف : « لا يقل أحدكم عبدي وأمتي ، وليقل : فتاي وفتاتي » والفتى من الناس : الشاب ، ويستعار للمملوك أو التـابع أو الخادم أو المستخدم للحكومة « قال تعالى : ﴿ وإذْ قال موسى لفتاهُ ﴾ (٦١:١٨) لأن يوشع بن نون كان تابعاً لموسى عليهما السلام ، وقال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِجْنَ فَتَيانِ ﴾ (آ ٣٦) لأن رئيس السقاة المسمى « نَبُو » ورئيس الخبازين المدعو « مَجْلَتْ » ، كانا مستخدمين في حكومة الهكسوس ، وقال تعـــالى : ﴿ وقالَ لِفِتْيانِـــهِ ﴾ (آ ٦٢) لأن هؤلاء أيضـاً كانوا مستخدمين عنـد يوسف أيام عمالته بمصر .

تسمية حاكم مصر عزيزاً

ثالثاً — إن تسمية حاكم مصر الذي يكون تحت أمر وسلطة فرعون « عزيزاً » هو اصطلاح للمصريين ، ونظيره تسمية حاكم مصر سابقاً « خديوي » ما دام تحت نفوذ وإمرة السلطان العثماني بالآستانة ، بل إننا أدركنا العصر الذي كان يسمى

فيه الخديوي بكلمة « عزيز مصر » ، وأما مليك مصر الأكبر ، مليك القبط قديماً فكان اسمه الرسمي « فرعون » كما أن اسم مالك الفرس كسرى ، والروم قيصر ، والترك خاقان ، واليمن تبَّع ، والحبشة نجاشي ، وفلسطين أبي مالك ، فهذه كلها ألقاب حكومية رسمية ، يلقب بها الملك من جانب الرعية يوم تتويجه ، وهي غير الأعلام الشخصية التي يسمى بها هؤلاء الملوك من جانب آبائهم يوم سابع ولادتهم ، وكما أن الرعية تعطي الملك لقباً خاصاً يوم إجلاسه على العرش ، فكذلك هو يعطي رجال دولته ألقاباً رسمية مثل: عزيز ، خديوي ، وزير بلاط ، رئيس تشريفات ، صدر أعظم ، الخ .. الخ ..

(قد شغفها حباً)

— ١ —

وقالت السيدة سكينة العَدَنية (١) :

شغف الحب

يقول سيدات «صوعن» : إن امرأة العزيز تراود عبدها العبراني لأنه « شغفها حباً » بحيث لو بحثت بين جوارحها ، وفتشت قلبها ، لما رأت فيه غير يوسف ، وغير جماله وحبه ودلاله « شغفها حباً » حتى قهرها سلطان الهوى وأحاط حبه بقلبها كاحاطة الشغاف بالفؤاد .

وإننا لنعجب ، وتأخذنا الدهشة ، كيف أنه « شغفها حباً » مع أن العادة الغالبة ، ان الشباب هم الذين يشغفون بحب النساء ، وإن عشق الكواعب للشباب ، أندر من الكبريت الأحمر ؛

ما هذا العشق الذى تمكن من قلبها ، واستبد بفؤادها ، واستقل بميولها

(١) نسبة الى عدن عاصمة مقاطعة عدن جنوب المملكة اليمنية .

وعواطفها ، اللهم لا شك انه عشق ضال عن جادة الصواب ، وإلا فكيف يسوغ لأميرة مصرية ، قرينة أمير مصر الوحيد ، وأول رجل بعد الملك ، أن تتنازل لعبد من عبيدها !!!

وليسمح لي السادة والسيدات والآنسات أن أنهي خطابي هذا بالتعليقتين التاليتين:

أمثلة من غرام النساء بالرجال

التعليقة الأولى — إن كتب التاريخ تذكر لنا عدة أمثلة من غرام « الجنس اللطيف » « بالجنس الخشن » منها :

١ — حب الآنسة « قارعة » بنت ثابت ، « لعبد الرحمن » بن الحارث المخزومي حتى قالت فيه :

يا خليـلي نابني سهدي لم تنم عيـني ولم تكد
فشرابي ما أُسيغ وما أشتكي ما بي إلى أحد
كيف تلحوني على يَفَعٍ آنِسٍ تلتذه كبدي ؟
مثل ضوء البدر طلعته ليس بالزُّمَيْلَةِ النَّكِدِ
نظرت عيـني فلا نظرت بعده عيـني إلى أحد

٢ — حب « عُلَيَّة بنت المهدي » لغلامها « طَلّ » ، وقد حرم عليها أخوها « هارون الرشيد » أن تتشبَّب به ، فكان من نتيجة ذلك ، أن تشببت بجاريتها زينب ، وجعلتها كناية عن « طل » .

٣ — أحبت امرأة من الأوس شاباً من الخزرج ، كان تقياً باراً بأبيه ، قد كفاه جميع ما يعنيه ، فأرسلت اليه تشكو له حبها ، وتسأله الزيارة ، وتريده على نفسها ، وكانت ذات بعل ، فأرسل اليها :

إن الحرام سبيل لست أسلكه ولا أمر به ما عشت في الناس
ألغي العتاب فإني غير متبع ما تشتهين وكوني منه في ياس

فكتبت اليه :

دع عنك هذا الذي أصبحت تذكره
وصِرْ الى حاجتي يا أيها القاسي
دع التنسك إني غير ناسكة وليس يدخل ماقد قلتَ في راسي

فأمسك عنها وأهملها ، فأرسلت اليه : « إما أن تزورني واما أن أزورك » — فأرسل اليها : « إربعي أيتها المرأة على نفسك ، ودعي عنك هذا الأمر ، واكتفي بعرسك » (مصارع العشاق ج ١٤) .

٤ً — قيل إنه كانت جارية اسمها « سَلاّمة » اشتراها « يزيد بن عبد الملك » بثلاث مئة دينار ، وكان يوجد في زمنها فتى صالح تقي ، اسمه « عبد الرحمن » بن أبي عمار من عباد أهل مكة ، ولقب « بالقَسّ » لكثرة عبادته ، وكان شاباً جميلاً ، رأته تلك الجارية فأحبته ، وشغفت به ، كما هو بها ، وصار بينهما تخالل وتواد ، فقالت له يوماً على خلوة : « أنا والله أحبك » — قال : « وأنا كذلك » — قالت : « أحب أن أقبلك » — قال : « وأنا كذلك » — قالت : « أُحب أن أصادرك وأخاصرك » — قال : « وأنا كذلك » — قالت : « فما يمنعك » — قال قوله تعالى : ﴿ الأَخلاّءُ يومَئذٍ بعضُهمْ لِبعضٍ عَدوٌّ إلاّ المُتّقِينَ ﴾ (٤٣ : ٦٧) ، وانا أكره أن تؤول خلّتُنا إلى عداوة ، ولذلك اشتهرت هذه الجارية باسم « سَلاّمة القِسّ » (أخبار النساء لابن قيم الجوزية) .

٥ً — روي أن جارية من الجواري القِيان : كانت على غاية العشق لشاب من أهل الأدب والظرف ، اسمه « العَلاءَ التغلبي » فكانت تتودد اليه ، ولا ترى منه سوى الجفاء والاباء ، ولم يزالا على ذلك ، حتى مرضت الجارية من حبها له فماتت . (مصارع العشاق ج ٨) .

العشق بين الرجل والمرأة وبالعكس

التعليقة الثانية ــ العشق بين الرجل والمرأة وضع سماوي ، فتارة يكون من الطرفين ، وطوراً يكون من أحدهما ، والغالب على الهندوس الوثنيين أن العشق يكون من جانب المرأة للرجل ، وسببه أن المرأة في دينهم ، لا تتزوج إلا زوجاً واحداً فقط فحظ عيشتها منوط بحياة الزوج ، حتى انه إذا مات تحرق نفسها معه ، وتمام الحظ يكون بجمال الزوج وصحته ونشاطه ، وهذا بخلاف العرب والهنود الموحدين ، فالأكثر أن العشق يكون فيهم من طرف الرجل للمرأة (حسن صديق).

(إنا لنراها في ضلال مبين)

—١—

قالت السيدة سعيدة الكويتية :

تلوم السيدات الخمس على امرأة العزيز حبها ليوسف

لم يكتف النسوة الخمس ، بترداد حديث السوء ، حديث المراودة ، بل حكمن على « زليخا » بأن حبها هذا للعبد العبراني ، هو حب أحمق ، حب ضال عن محجة الصواب ، وها هن يقلن انه إذا كان لها نفس تحملها على انتهاز اللذات ، ألم يكن لها عقل يعقلها عما فيه سوء السمعة وسوء المغبة ، وإذا كان لها جسد حيواني يطالبها بارتكاب الشهوات ، ألم يكن لها روح شريفة نزيهة ، تربأ بها عما فيه خسة ودناءة ، وإذا كان فتاها جميلاً ، ألم يكن لهـــا من المنصب والمركز والجاه ما هو أجمل وأجمل ، فاذاً ويميناً « بأبيس » المقدس إن فكرتها لفكرة جنونية ، يميناً ، ولسنا بالحانثات في يميننا ، إنها ذات ضمير ميت ، وخلق سيء ، وصاحبة وجدان غير طاهر .

مسكينة هذه المرأة ، فقد تتابعت في عمايتها ، ولجّت في غلوائها ، وإن مراودة سيدة مثلها ، لعبد من عبدانها ، وشغف قرينة « عزيز مصر » بالإغرام بخادم من

خدامها ، أمران مستهجنان جداً وكل واحد منهما منفرداً ، خليق أن يشين بسمعتها ، فكيف وقد اجتمعا ! إن هذا ليس فعل الحرائر ، ولا أهل المروءة والدين ، فتباً له من عمل ، يورث العار والشنار ، ويخفض الرأس ، ويُغمِض الأبصار .

إن هذه المرأة قتلت شرفها ، وقاتل الشرف أخس من قاتل النفس ، لأن قاتل النفس يحوّل احتقار الجمهور إلى ذاتــــه فقط . أما قاتل الشرف ، فيحول ذلك الاحتقار إلى الأسرة جميعها ، هي كانت سابقاً « قرينة العزيز » ولكنها اليوم (قرينة الذل والصغار) ، لتسقط ولتنزل إلى أسفل سافلين ، ونحن لم يصدر منا هذا الحكم مجازفة أو عن تقليد ، بل عن علم ورأي ، وإننا بحمد الله متنزهات مترفعات عن أمثال ما هذه المرأة عليه من السقوط والانحطاط ، « وإلى الملتقى إن كابرت » .

هذا مرمى كلامهن ، ومعناه الروحي ، قلن هذا الكلام بلهجة الأنكار والانتقاد والتلوم عليها ، ولكن في هذا القول ماكرات أولاً ، ومغتابات ثانياً . (مرحى مرحى)

تذييل : — إن ما قاله هؤلاء المحاضرات الأربع هو الصحيح ، وما عداه لا يستحق النظر مما قاله بعض المفسرين .

اقامة الحجة على النسوة الخمس

آ (٣١) ﴿ فلمّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ... وأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ، وآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً ، وقالَتْ : «اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ» ، فلمّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ، وقُلْنَ : « حاشَ لِلّهِ ، ما هذا بَشَراً ، إِنْ هذا إِلاّ مَلَكٌ كَرِيمٌ » . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الحادية والثلاثون فقامت السيدة فاطمة اليوغوسلافية ورجت أحد الأعضاء المؤتمرين لقراءة خطابها فقال :

وأما زليخا (فلما سمعت بمكرهن) واغتيابهن وسوءفالتهن ، وقولهن : امرأة العزيز عشقت عبدها الكنعاني ، فمقتها وأجفل منها أيمّا إجفال ـ وسمى الاغتياب مكراً ، لأنه في خيفة وحال غيبة ، كما يخفي الماكر مكره ، وكثير من الألفاظ في هذه السورة استعملت في غير معناها الحقيقي وذلك مثل (وشهد شاهد) وقد مر الكلام عليه ، ومثل (قلن حاش لله) وسيأتي الكلام عنه ـ ، أقول لما سمعت زليخا ذلك قالت أنا أعلم أن لكل حادث حديثاً ، وأن هؤلاء النسوة معذورات لأنهن لم يرين جمال يوسف ، ولذلك (أرسلت اليهن) تدعوهن ضيوفاً عندها لكي يرينه فيعذرنها ، فلبين الدعوة وأتين ودخلن عندها في البهو (وأعتدت لهن متكأ) أي مجلس طعام ـ لأنهم كانوا يتكئون عند الطعام والشراب والحديث كعادة المترفين ، وقيل المتكأ الطعام أو المائدة التي عليها الطعام ـ (وآتت) أمرت بأن

يؤتي الخدم (كل واحدة منهن سكيناً) ليعالجن بها مايأكلن من فواكه وغيرها، على حسب العادة الجارية عند المترفين في تلك الأزمنة من الأكل بالسكين ، (و) بعد ما انتظم الجمع وقدمت أنواع الأطعمة اليهن وشرعن يأكلن ، وبينما هنّ في ذلك قالت: ماالذي بلغني عنكن؟-قلن هو الذي بلغك- تحاشياً منهن عن الكذب فعند ذلك أرادت أن تقيم عليهن الحجة ليعذرنها ، فرفعت رأسها و(قالت) بلسان الافتخار والابتهاج، لعبدها العبراني (اخرج عليهن) ، ولا بد انه لم يكن في البدء عندهن ، بل كان جالساً في مكتبه أو نحوه من الغرف ، وربما انه لم يكن شاعراً بشيء من هذه الترتيبات ولا سبق له بها علم ، لأن الحادثة ليست إلا حادثة ضيافة يقصد بها التوصل لرؤيتهن يوسف وجماله فيعذرنها ، هذا كل ما كان ، لا أقل ولا أكثر ، وأما يوسف فلم يسعه إلا امتثال أمرها والنزول على إرادتها ، لأنه عبدها ورهين إشارتها ، فخرج ومثل بين أيدي هؤلاء السيدات الجالسات حول المتكأ ، (فلما رأينه أكبرنه) أعظمنه وهبن ذلك الحسن الرائع والجمال الفائق (وقطعن أيديهن) أي جرحنها وشطبنها - كما تقول : « كنت أقطع اللحم فقطعت يدي » تريد جرحتها ، وقد يطلق تقطيع الأيدي على فصلها وإزالتها جملة ، كما في قوله تعالى : ﴿ السارقُ والسارقةُ فاقْطَعُوا أيْدِيَهُمَا ﴾ (٥ : ٤١) فلفظ التقطيع أو القطع مرن يمكن تضييقه وتوسيعه ، إنما قطعن أيديهن وانشغلن به عن الطعام، لأنهن في ذلك الوقت لم يكن منهومات بمعدهن وأحشائهن ، بل بحواسهن وأذواقهن، فكان نهم النظر والذوق منهن ، أشد من نهم المعدة والأحشاء - (وقلن) بلسان الاندهاش والتنزيه (حاش لله) وهي كلمة تفيد معنى التنزيه والبراءة ، فمعنى حاش لله : براءة لله وتنزيه له ، وكأن هذه الكلمة من جملة الكلمات التي عرف معناها المراد من غير أن يدل عليه اللفظ ، لأن المقصود ههنا التعجب من جمال يوسف لا غير (ما هذا بشراً) نَفَيْنَ عنه البشرية لغرابة جماله ، ومباعدة حسنه لما عليه محاسن

الصور (إنْ) أي ما (هذا إلا ملك كريم) نزل من السماء « سفيراً » ، ليمثل المملكة الملائكية السماوية ، في المملكة البشريـــة الأرضية ، فاثبتن له الملـكية ويَتْثَنَ بها الحكم ، لأن الله ركز في الطباع أن لا أحسن من الملَك ، كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان ، وركز أن لا أجمع للخير من الملائكة ، كما ركز فيها أن لا أدخل في الشر من الشياطين ، قامت عليهن الحجة لأمرأة العزيز .

(فلما سمعت بمكرهن ...)

— ١ —

وقالت السيدة وفائيه الدمنهورية [1] :

بلوغ امرأة العزيز اغتياب النسوة لها

وصل النبأ الى امرأة العزيز بأن نساء رجال الدولة من الوزراء والعظماء قد بلغهن حادثتها مع يوسف وانهن أخـذن في لومها واغتيابها ، شامتات ، منافسات ، حاسدات ، نعم « سمعت بمكرهن » بواسطة جواريها أو ماشطاتها أو قهرماناتها أو غيرهن ، وربما كان الذي نقل عنهـا الخبر الى النسوة هو الذي نقل خبر لوم النسوة ومكرهن واغتيابهن اليها ... ، « سمعت بمكرهن »الذيمنه قولهن: « قد شغفها حباً » وانهن أرجفن وخضن ، فثارت حفيظتها وبدأت تمتعض ويجيش صدرها من الغيظ ، ويغلي دمها من الحنق ، ورأتأن معاملتهن لها كمعاملة « الجبان المبرقع » ، لغريمه ، فافتكرت أن تحول دفتهن عن جهة لومهن إياهـــا ، إلى جهة معذرتهن لها ؛ « سمعت بمكرهن » وتألبهن عليها . وعرفت أنهن يسخرن بهـا في أعماق نفوسهن ، وينلن بلسانهن من شرفها ، « سمعت بمكرهن » وسقط اليها أن السيدات المصريات تآزرن وتكاتفن على تنقيضها ، وتضافرن على تضليلها ، وأصبحن

(١) نسبة الى دمنهور من البلاد المصرية .

حرباً وألباً واحداً عليها ، فقالت في نفسها : إن هؤلاء السيدات الغافلات ليس لهن سلاح ، إلا القيل والقـال ، ثم حسبت لذلك ألف حساب ، وافتكرت فرأت أن تطلعهن على يوسف ليعذرنهـا ، أو لـكي توقعهن في الشرك الذي وقعت هي فيه ، فيشار كنها في عواطفها وبلاياها ، حتى يصدق عليهن جميعاً المثل القائل : « افتضحوا فأصطلحوا » وتكون بذلك قد طوقت مكرهن ، وأجهزت عليه وهو في مهده .

وجه تسمية الغيبة مكراً

ملحوظة ـ سميت الغيبة مكراً ، باعتبار أساسها ومنشأها ، لأن الغيبة التي هي من هـذا القبيل المذكور هنا ، إنمـا تنشأ عن اختلاس أسرار الناس ، واستطلاع ما يدور في البيوت من الحوادث بواسطة البحث والتنقيب مع الجواري والعجائز ونحوهن ، وهذا مكر بمن يبحث عنهم ، وينقب عن أحوالهم وخفاياهم ، ولا ريب أن هذا أمر منكر ، لما فيه من عدم احترام تلك الأسرار ، وعدم الاغضاء عن استطلاعها وتجسسها ، عملاً بالآداب العامة ، ووجه ثان في تسمية هذه الغيبة مكراً: وهو أنهن كن يتمنين يوسف ويشتهينه لأنفسهن ، لأن المرأة كالسياسي سواء بسواء ، تقول بلسانها ما ليس في قلبها ، والله أعلم بما تكنّه ، ولذلك لم يُسمه غيبة بل مكراً ، فهنّ بقولهن : « تراود فتاها عن نفسه » يتمنين أن تكون الأسباب قد سهّلت لهن مثل هذه المراودة ، وبقولهن « قد شغفها حباً » يشتهين أن يكون هذا الشغف لقلوبهن ، ولما قلن : « إنا لنراها في ضلال مبين » أردن انها في هداية ظاهرة حيث اهتدت لمحبة هذا الشاب الوحيد في صباحته ، عديم النظير في ملاحته ، فملاحظتهن على امرأة العزيز ، ملاحظة غبطة وغيرة ، ملاحظة لا يقصد منها معنى آخر ، يعرفنه وتعرفه امرأة العزيز ، ويعلمه الله الخبير ، الذي سمى هذه الغيبة « مكراً » .

ووجه ثالث : كن قلن ما قلن تحت تأثير عاطفة « المكر » بدليـل إنهنّ لنها وهن غائبات عنها ، ولم ينصحنها وجهاً لوجه ، وإلاّ فهن لو أردن النصح لاجتمعن

بها وقدّمن لها ما يعود عليها بالفناء ، فسماه « مكراً » ، لأنه من قبيل التحكك بشخصية تلك المرأة وتنقصها ، وليس من قبيل العظة والنصيحة التي تكون بالمواجهة .

ووجه رابع : سميت هذه الغيبة « مكراً » ، لأنها طعن لم يرتكز على مستندات قوية ، لأن هذا الذي وقع منهن ، وإن استند على إخبار الوصائف أو القهرمانات أو العجائز ، إلا أنه غير جائز ، إذ يجب أولاً التثبت والتبين ، لأنه يغلب على هؤلاء المخبرات الفسق والفساد والكذب ، وقد قال تعالى : ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا ، إنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا .. أنْ تُصيبُوا قَوْماً بِجَهالةٍ ، فَتُصْبِحُوا على ما فَعَلْتُم نادِمينَ ﴾ (٤٩ : ٦) ويجب على العاقل أن يظن باخوانه وأخواته ظناً حسناً ، كما قال تعالى : ﴿ لَوْلا — إذْ سَمِعْتُمُوهُ — ظَنَّ المؤْمِنونَ والمؤْمِناتِ بأنفُسِهِمْ خَيْراً ؟ وقالوا : هذا إفْكٌ مُبِينٌ ﴾ (٢٤ : ١٢) ، لأنه ليس من دليل يصدقه ، والأصل في الرجال والنساء العدالة ، والسلامة من الطعون ، وحيث لم يقم عند هؤلاء النسوة — على تلويث تلك المرأة — دليل مقنع ، كان الواجب عليهن حسن الظن بها ، ورد ذلك الاخبار السيء ، قال تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا ، اجْتَنِبُوا كثيراً مِنَ الظَّنِّ ، إنَّ بعضَ الظَنِّ إثمٌ ﴾ (٤٩ : ١٢) ، ويقول النبي (صلى الله عليه وسلم) : « إياكُمْ والظن فإن الظن أكذبُ الحديث » ، والانسان يُنهى عن تلقي مثل هذا ، كما قال تعالى : ﴿ إذْ تَلَقَّوْنَهُ بألْسِنَتِكُمْ وتقولون بأفْواهِكُم ما لَيْسَ لكم به عِلْمٌ ، وتَحْسَبُونَه هَيِّناً ، وَهُوَ عندَ اللهِ عظيمٌ ، ولولا — إذْ سَمِعْتُمُوهُ — قُلْتُم : ما يكونُ لنا أنْ نتكلَّمَ بهذا ، سبحانَكَ هـذا بهتانٌ عظيمٌ ﴾ (٢٤ : ١٥ و ١٦) وقال تعالى : ﴿ ولا تَقْفُ ما ليسَ لَكَ بهِ علمٌ ﴾ (١٧ : ٣٦) .

وكان يجب على هؤلاء النسوة المصريات، أن يسكتن حين سمعن هذا الخبر السيء، كما قال تعالى: ﴿إنَّ الذين يُحبّونَ أنْ تَشيعَ الفاحشةَ في الذينَ آمَنوا لهم عَذابٌ أليمٌ، في الدنيـــا والآخرة﴾ (٢٤ : ١٩)، وهو ذم لمن يتكلم بالفاحشة، أو يخبر بها حسداً أو بغضاً، وكأن الذي هون على هؤلاء النسوة القبطيات أن يصدقن خبر هؤلاء المخبرات، ان امرأة العزيز كانت من المشركات، وأن مراودة أهل التوثن الناسَ عن أنفسهم، أمر معهود وقريب جداً، بل قد عهد مراراً من أهل الشرك الوقوع في الفاحشة، وذلك لأن الزنا والشرك أخوان، قلما يوجد شرك إلا ومعه زناً، وقلما يوجد زنا إلا ومعه شرك، كما يعلم ذلك من الاطلاع على تواريخ الأمم العتيقة.

هذا ما ظهر لنا في تعليل تسمية هذه الغيبة «مكراً»، فان صادف قبولاً عند أولي النظر، فذاك من فضل الله علينا بصحة تعليلنا، وعليهم لحسن ظنهم، وسلامة طويتهم، وأما الرجعيون فعليهم أن يرجعوا الى ما قاله غيرنا في هذا المقام.

(أرسلت اليهن ..)

— ١ —

وقالت الآنسة رؤوفة الحمصية:

دعوة امرأة العزيز للنسوة

تضافرت الأخبار في قصور الأميرات المصريات، عن هـذه الحادثة الأليمة، وانتشرت فيهن، رغماً عن كل الاحتياطات والتحفظات وبالتـالي طفقن ينتقدنهـا ويسلقنها بألسنة حداد، فنُمي الخبر باشاعة ذلك عند هؤلاء النسوة الى زليخـا،

فظنت انها تقدر أن تدرأ انتقادهن بما ستتخذه من التدابير الصامتة ، التي يرجى أن تكون ناجعة ، في سبيل تسكين غيتهن ومكرهن ، وتدبير نفسها عندهن ، في حبها إياه ، بما سيرين من جماله الفائق ، ومنظره الجاذب ، فلذلك « أرسلت اليهن »، وللمفسرين ههنا كلام غير هذا الكلام ...

« أرسلت اليهن » برسم الدعوة لقصرها ، على سبيل الضيافة ، مع الإعزاز والا كرام ، لتحتج عليهن بما سيشاهدن من جمال يوسف وكماله ، احتجاجاً صامتاً ، ولتقلّم ظفر انتقادهن ، وتشذب من لومهن ، وقد هيأت لهن مظاهر الزينة والنعيم ، ومجالي السرور والتكريم ، وأما هن فصدعن بمرامها ، ولبّين وحضرن ، عملاً بسنة « مَن دُعي فليجب » أو امتثالاً لأمرها ، لما لها عليهن من الدالّة ، بكونها امرأة العزيز .

ولنا ههنا كلمة — وهي بدلاً من هذه الدعوة النسائية ، كان يجب على امرأة العزيز حينما سمعت بوصول النبأ لقصور الأميرات أن تتدارك حصره قبل شيوعه ، وتتلافى طيه قبل نشره ، بطريقة غير طريقة هذه الدعوة النسائية ، طريقة تكفل كتمانه عن غير هؤلاء السيدات ، وتضمن إخفاءه عما عداهن من قبيل حصر النار قبل انتشارها في سائر البيوت ، لأن دعوة هؤلاء النساء توسع دائرة الفتنة ، ولكن أبى الحب إلا أن يترك في نفس المحب نوعاً من الجنون ، وأبى الشموخ الذي في أنف امرأة العزيز ، وأبت الغطرسة التي في رأسها ، إلا أن تعمل عملاً من شأنه توسيع الخرق على الراقع ، ومن طبيعته أن يزيد الطين بلة ، فرأت بحسب اجتهادها أن تعتذر لهن اعتذاراً صامتاً ، وبعبارة أصح أن تحتج عليهن احتجاجاً أخرس. وقد كان الأحرى بها اختصار هذه الحوادث ، ويكفي ما وقع سابقاً من المعارك ، بينها وبين يوسف ، ثم المحاكمة بمعرفة سيدها والشاهد من أهلها ، فهي بتلك الدعوة

النسائية ، مع ما نجم عنها من تقطيع الأيدي والغرام ، وبما صدر عنها من الاعتراف أمام السيدات ، ثم توعدها ليوسف توعداً مشتملاً على القحّة وقلة الحياء وعدم المروءة ، قد زادت الفتنة اشتعالا ، وبذلك انتقلت الحالة من ردىء الى أردأ ، ومن سيء إلى أسوأ ، فيا للفضيحة .. ويا للعار .. ويا للجهالة .. ويا للحب يُعمي ويصم ...

(وأعتدت لهن متكأ ...)

— ١ —

وقالت السيدة زهراء النجفية :

المطعم الصائد — المتكأ

لما أرسلت زليخا تدعو النسوة الى قصرها أعدت وهيأت لهن متكأ يكفل أنواع الأطعمة اللذيذة ، من لحوم أرضية وسماوية ومائية ، ومن فواكه وأثمار مختلفة الألوان والأجناس ، وأمرت بفرش الطنافس ، وترتيب المجالس ، واستحضرت مياه النيل المروّقة الممزوجة بماء الزهر ، والمطيبة بالبخور ، وقد أمرت بنصب ذلك في روضه من رياض القصر يجري من تحتها النيل ، قد غرست بالوان من الأشجار اليانعة الثمار . واكتست أرضها بسندس النبات ، ومختلف الورود والرياحين ، فطاب هواؤها ، ورق ماؤها ، وتطايرت عصافيرها ، وانطلق نسيمها ، فاختلط حفيف الأشجار بتغريد الأطيار ..

هناك أشارت بترتيب المائدة ونصبها ، فكانت هذه الروضة كالجنة ، وكان هؤلاء السيدات المصريات فيها كالحور العين ولم ينقص تلك الجنة الا الولدان ، فلذا

أمرت يوسف بالبروز لهن (كما سيذكر) ليتم بهاء ذلك المنظر الجميل ، وتكمل اللذات من جميع الوجوه .

وههنا نتذكر الملحوظات التالية :

معنى أعتدت

الملحوظة الأولى — يقال عَتُدَ الشيءُ عَتَاداً : حضر ، عَتَدٌ وعَتِيد ، ويتعدى بالهمزة والتضعيف ، فيقال : أعتَدَه صاحبه وعتّده إذا أعدّه وهيأه ، ويقال : أخذ للأمر عَتَاده ، أي ما أعدّه من السلاح والدواب وآلة الحرب ، أعْتُدُ وأعْتِدَة ، مثال زمان وأزْمُن وأزْمِنَة ، وفي حديث : « إن خالداً جعل رقيقه وأعْتُدَهُ حُبُساً في سبيل الله » (المصباح) ، وفي البخاري « وأعْتَدَت » : أعدّت ، « أعْتَدنا » : أعْدَدنا ، أفعلنا من العَتَاد .

معنى المتكأ

الملحوظة الثانية — يطلق المتكأ على نفس الطعام ، وعلى نفس المائدة والخوان ، وعلى نفس ذلك ومحلّه ، وعلى النمارق والوسائد ، كل ذلك جائز ، وصحيح في اللغة والاصطلاح ، وفي البخاري « المتكأ : ما اتكأت عليه لشراب أو حديث أو طعام » ، ولكن التعبير بالاعداد والتهيئة والتحضير ، قرينة واضحة على أن المراد هنا نفس الطعام الذي يؤكل ، لأن هذا الذي يحتاج عادة للاعداد والتهيئة ، بحيث يجلب حيناً فحيناً ، وشيئاً فشيئاً ، وأما نفس الخوان أو المكان أو النمارق ، فتبعد إرادته هنا ، لأنه موجود ، متوفر في بيوت الأمراء والمترين على الدوام .

ومع ذلك فقد فسر بعضهم « المتكأ » هنا بالمجلس يجلسْنَ عليه أو الكراسي يقعدن عليها متكئات على ظهورها ، فكلمة « متكأ » هي مثل كلمة « نُزُل » ، فان

النزل يطلق على ما يعد للضيف من الطعام وعلى المحل الذي فيه الطعام ، ويقال للمتكأ بمعنى الطعام : « سُوْر » بلغة الفرس ، وفي الحديث : « يا أهل الخندق ، إن جابراً صنع لكم سؤراً ، فحيّ هلاً بكم » رواه البخاري في صحيحه ، وقد فسره شراح البخاري بالضيافة أو الطعام ، ويسمى عند العرب « مأدبة » وهو طعام الدعوة .

وقال بعض العلماء : الاتكاء الجلوس مع التمكن والقعود مع تمايل معتمداً على أحد الجانبين ، وتوكأ على عصاه ، اعتمد عليها ، وقال تعالى : « وسُرُراً عليها يَتَّكِئُون » يجلسون ، والعامة لا تعرف الاتكاء إلا الميل في القعود معتمداً على أحد الشقين ، ويقال اتكأ : أسند ظهره أو جنبه إلى شيء معتمداً عليه ، وكل من اعتمد على شيء ، فقد اتكأ عليه ، ويقال : أتكأتُه : أعطيته ما يتكيء عليه ، أي ما يجلس عليه ، وضربته حتى أتكأتُه ، أي سقط على جانبه ، والاسم التُّكَأَة مثل رُطَبَة . وإعداد « المتكأ » للطعام هو عادة للمترفين ضد إعداد « الحصيرة » للطعام الذي هو عادة للفقراء » ؛

ويطلق « المتكأ » على مائدة مؤلفة من ثلاث قطع ، على طرفي الواحدة منها الاثنتان الأخريان ، على وضع قائم معها ، فتشبه الثلاث مربعاً نزعت إحدى أضلاعه ، فيكون بذلك فيها مدخل لموزعي الطعام ، وكانوا يضعون حول الجوانب الخارجة للمائدة أسرة ، تتكيء عليها الأكلة ، ورؤوسهم مسندة على أكفهم اليسرى ، متجهة الى المائدة ، وأرجلهم منفرجة الى الوراء .

هذه هي صورة « المتكأ » عند المصريين واليهود قديماً ، وكان « متكأ » صاحب الوليمة في الصدر ، مقابل مدخل المائدة ، ومحل الشرف عن يمينه ، وهو المقعد الأول ، لأعظم الضيوف وأوجههم « فالمتكأ » إذاً آلة خشبية للأكل ، بديعة عالية يستعملها الأغنياء والأمراء في الولائم ، في عشائهم أو غدائهم .

هذا وقد قرأ بعضهم « مُتْكاً » بضم الميم وسكون التاء، وتنوين آخره بلا همز ، وذكر « المفضل » أنه المائدة أو الخمر ، في لغة « كندة » ، وكان بعض أصحابنا تعجبه هذه القراءة مع تفسير « المُتْك » بالخمر ، ويقول : « إنه يسهل حينئذ على من يكون أجنبياً عن الدين هضم القول : بتقطيع الأيدي — فقلت له : « أليس القصد وجود السكر ، حتى يهضم الأجنبي حادثة تقطيع الأيدي ؟ » — قال نعم — قلت له : فالجمال نوع من السكر ، فقد ذكروا ان للسكر سبعة أنواع : سكر الشراب ، وسكر الشباب، وسكر المال ، وسكر الجمال ، وسكر المنصب ، وسكر القوة البدنية ، وأخيراً سكر الموت ، فالسكر على كل حال حاصل، فالرجوع للقراءة المشهورة أولى ، لاسيما وقد حدثت حوادث كثيرة للعشاق ، تشبه هذه الحادثة (١) .

(وآتت كل واحدة منهن سكيناً)

— ١ —

وقالت السيدة تماضر الحضرموتية (٢) :

سكين الطعام

بعد أن استقر المقام بعقيلات الأمراء والوزراء في قصر امرأة العزيز أمرت جواريها باعداد الطعام وأعطت هي بيديها كل واحدة من هؤلاء المدعوات سكيناً لتأكل بها ، مبالغة في الاحترام ، ويحتمل أنها أمرت الجواري بذلك ، على جاري العادة ، فقد كان من عادة المصريين أن يأكلوا اللحم والفواكه بالسكين (الخازن)

(١) راجع مصارع العشاق ج ٢ و ٨ و ١٠ و ١٢ و ١٤ و ١٨ .

(٢) نسبة الى حضرموت عاصمة احدى مقاطعات الجزيرة العربية الجنوبية .

وكذا كان من عادة العرب أكل اللحم بهـــا ، كما كان يفعل النبي (ﷺ) [١] ، بل وبالشوكة ، أعني شوكة النخل ، التي يقال لها مسلة النخل [٢] ، تكون طول شبر تقطع وتشذب وتغرز في اللحم ، أمام كل واحد سكين مربوطة بسلسلة في الجفنه وشوكة من سلاّي النخل ، إذ لم يكونوا يستعملون الصابون ولا غيره ، مما يزيل الدهن .

وأهل اليوم يأكلون بالسكين والشوكة والملعقة ، المصنوعة من المعدن .

وامرأة العزيز لم تأمر باعطاء كل سيدة سكيناً ، توصلاً لما لعله يقع ، وذريعة لما ربما يصير ، من قطع السكين ليد حاملتها ، لا .. لا .. لأنهـا لم تكن تتوقع منهن ذلك ، ولم يقم عندهـــا احتمال قط أنه ستنزل بهن تلك الفاجعة ولكن هي أمرت الخادمات وأشارت على مرتبات المتكأ أي المائدة ، بأعداد السكاكين ، جرياً على القاعدة عند الكبراء ، ومشياً مع العـادة في بيوت الأمراء ، من وضع السكاكين على « الخوان » ، لأجل تقطيـع ما عليه من خبز ولحم وفاكهة ، فتقطيعهن لأيديهن كان حصل بالعرض وعن طريق الصدفة ، لا أكثر ولا أقل .

ويقال للسكين مدية ، حتى ان بعض العرب لا يعرف إلا الأسم الثاني ، وقد روى أن أبا هريرة ، لما قدم من دَوْس عام خيبر ، لقي النبي (ﷺ) وقد وقعت من يده السكين ، فقال له : « ناولني السكين » ، فالتفت أبو هريرة يمنة ويسرة ، ولم يفهم ما المراد باللفظ ، فكرر له القول ثانية وثالثة ، ثم قال : « آلمديةَ تريد ؟» وأشار إليها ، « فقيل له نعم » — فقال « أو تسمى عندكم السكين ؟ » — ثم قال : « والله لم أكن سمعتها إلاّ يومئذ » .

---

(١) شمائل الترمذي (٢) شعراني .

(وقالت اخرج عليهن)

—١—

قالت السيدة إنصاف الدمشقية : —

اجتماع المحب والحبيب والعواذل

إن طعن أولئك السيدات في شرف امرأة العزيز وعقلها ، ترك أثراً سيئاً في نفسها ، فأرادت أن تمحو انتقادهن باحتجاج صامت أخرس ، فقدمتهن للمائدة ، فشرعن يأكلن ، وأنشأن يتساقطن الأحاديث والأخبار ، في سرور وضحك ، وفيما هن في ذلك قالت لهن : « ما الذي بلغني عنكن ؟ — قلن : هو الذي بلغك»، تحاشياً منهن عن الكذب ، فعندذلك أرادت أن يرين ما كنّ سمعن من جمال يوسف وصباحته ، لأن الرؤية فوق السماع ، « وما راءٍ كمَنْ سمِعا » ، أعني أرادت أن تقيم عليهن الحجة الصامتة ليعذرنها ، فوجهت وجهها شطر المكتب الذي هو فيه وقالت منادية : أنت ، يوسف ، اخرج ، اخرج من مكتبك على ضيوفنا هؤلاء السيدات العواذل ، اخرج عليهن لأدلي لهن بأن رأيي في هواك هو عين الصواب ، وانني لم أكن في ضلال مبين كما قلن ، اخرج عليهن وعلى إحساسهن السلام ، وعلى عقولهن رحمة الله ؛

فلما سمع يوسف هذا الطلب من سيدته ، تمرمر في داخله ، وكرب وضاق ذرعاً ، وأوجس خيفة مما قد يتلوه من اقتراحات ، لا يمكنه تنفيذها أو من أعمال لا يروق له أن يراها ، أو من سفور . وإبداء زينة وتبرج جاهلي ، لا يمكنه أن يصبر على رؤيته ، بدون أن يتكدر ويتنغص ، وأخيراً لما سمع إلحاحها ، لم يجد بداً

من الامتثال لأمرها ، لأنه لم يكن وهو في بيت العزيز ذا جاه وشوكة ، بحيث يسوغ لنفسه عصيان سيدته ، والاستبداد عليها فيما تأمر ، ولذلك نراه نزل على إرادتها ، وترك دفاتره ومحابره وخرج من مكتبه على السيدات وهو خائر النفس ، وقلبه يخفق ، لما يتوقع من مغازلة له منهن ، ومداعبة تصدر عنهن ؟

برز لهن كبدر التمام ، ويا له من موقف غرام ، ووله وهيام ، موقف دهشة وحيرة وارتباك ، موقف ذهول ، وسكر عقول ، وغيبة عن الإحساس !!! لاسيما وانه لما رآى نفسه وسطهن ، اعترته حمرة الخجل ، وأسبل جفنيه حياء وعفة ، فزاد بذلك بهاء وجمالاً ، وأنف أن يتبع نظره اليهن ، فلم تزده الأنفة إلا حسناً وكمالا ورواء .

وأما السيدات فلما سمعن من امرأة العزيز كلمة اخرج عليهن ، أتلعن بأعناقهن ، وشخصن بأبصارهن ، ينتظرن طلوعه عليهن ، التي كن سمعنها ، والتي كنّ خضن فيها ، وهن يتطاولن لرؤية محيا يوسف الباهر ، ويستشرفن للقياه ، ويشتقن لمشاهدة طلعته ، فلما مثل بين أيديهن ، شرعن ينظرن اليه ، نظر المنجم إلى الكوكب ، الخافق في أفق السماء .

وأما زليخا فانما اختارت خروجه عليهن وهن على المتكأ ، لأن هذه الحال حالة صفاء وسرور ، فأرادت حضور فتاها الجميل ، لتكمل لهن اللذة بمشاهدته ، وبذلك تكون جمعت لهن بين تمتع البطن بالأكل من صنوف الطعام ، وتمتع العين والأذن بنظرهن لذلك الجمال الباهر ، وسماع كلامه الرخيم .

(فلما رأينه أكبرنه ...)

—١—

قالت الآنسة أسماء من كلكتا (١) :

انقلاب العواذل محبين

لما خرج يوسف عليهن (رأينه) كأنه آية الجمال المحكمة ، التي لا تقبل تبديلا ولا تغييراً ، فظهرت على وجوههن الدهشة ، (رأينه) فرأين ما يبهر النظر ، ويستوقف البصر ، وقرأن في صحيفة محياه « سورة النور » (رأينه) فانفتحت له قلوبهن ، وفرحت به أفئدتهن ، واختلط فرحهن بأمارات البغتة ، وبهتن كأن على رؤوسهن الطير ، (رأينه) لأول مرة ، فأعقبت تلك النظرة ألف حسرة وحسرة ، وسرعان ما ذهلن وغبن عن أنفسهن ، (رأينه) فبهتن ودهشن ، ودخل عليهن رعب شديد ، ولم تبق جارحة من جوارحهن لم يتصورن فيها « صورة أبي مسلم » ولا تسل عن حالهن في تلك الجلسة الرهيبة ، من الاضطراب والذعر الحائرين (رأينه) ودرسن صحيفة وجهه ، وقرأن فيها آيات الصفاء القلبي ، رأين مالا عين منهن رأت ، وسمعن مالا أذن منهن سمعت ، وظهر لهن ما لم يخطر على قلوبهن يوم اعتراضهن على « زليخا » ، (رأينه) فرأين نزهة النفس ، وربيع القلب ، وعددن يومهن هذا « يوم عيد كبير » ، وودن لو أن هذا اليوم يكون « يشوع » ، يطول عن باقي الأيام بارتداد الشمس فيه بعد الغياب ، فلما رأينه (أكبرنه) — وأجللن جماله وأعظمن حسنه ، وكدن أن يقمن اليه ويجذبنه ، ولكنهن رأين في عينيه هيبة أوقفتهن عند حدهن ، فاكتفين بالكلام ، (أكبرنه) وصار موضوع

(١) كلكتا احدى مدن الهند .

إكبارهن وإجلالهن ، ومركز دائرة إطرائهن وتقريظهن ، وأحللنه المحل الأعظم من نفوسهن وألسنتهن ، (أكبرنه) وغدون مسبوهات (ذاهبات العقول ، مشردات الأفكار ، مبلبلات النفوس ، وامتلأت به قواهن ومشاعرهن ، وصرن به صرعى الهيام ، ومشت الرعدة في أجسامهن ، مشي المدام في أدمغة أهل الغرام . (أكبرنه) ما أن رأينه ، فاذا هو في نواظرهن ، أكبر مما كان في خواطرهن ، أي أنهن وجدن مخبره ، أسنى جداً من خـــبره ، وأن « ليس الخبر كالعيان » . (أكبرنه) لأنهن رأين عليه نور « النبوة » وسيما « الرسالة » وشاهدن فيه مهابة ملكية ، وهي عدم الالتفات الى الطعام والنساء ، وعدم الاعتداد بكل ذلك ، فتعجبن من تلك الحالة ، فلا جرم إنهن أجللنه [1] .

وههنا تتمتان :

عدم رؤية النسوة ليوسف قبلاً

التتمة الأولى : — يظهر من قوله : « فلما رأينه أكبرنه » مع قولها : « هذا الذي لمتنني فيه » انهن لم تسبق لهن رؤيته ، رغماً عن انه كان مضى عليه في (قصر العزيز) نحو عشر سنين ، وان بيت العزيز كان في ذلك العصر كعبة الرائدات ، ومنتدى الصديقات النبيلات ، فلذلك نظن ان امرأة العزيز كانت تحرص على إخفاء يوسف ، وإبعاده عن هذا « الجنس اللطيف » غيرة منها عليه وأمثال ذلك كثير في التاريـخ ...

احترام النسوة الأقصى ليوسف

التتمة الثانية — إن الذي صـــدر من هؤلاء النسوة حينما رأين يوسف هو

(١) الرازي .

مجموعة مركبة من ثلاثة أركان : ركن قلبي ، وهو اكبارهن له ؛ وركن عملي ، وهو تقطيعهن أيديهن ، وركن لساني ، وهو قولهن : « حاش لله ، ما هذا بشراً ، إنْ هذا إلا ملك كريم » ؛ فقد ظهر احترامهن ليوسف في مظاهره الثلاث ، في الجنان والأركان واللسان ، على حد قول الشاعر :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة   يدي ولساني والضمير المحجّبا

وهذا أقصى أنواع الاحترام ، هذا ما حضرني الآن فما قولكم فيه ؟

(مرحى وأحسنت)

(وقطعن أيديهن)

— ١ —

وقالت الآنسة وصفية الديرية :

جرح النسوة المدعوات أيديهن

بينما النسوة المدعوات يأكلن ، وقد مسكت كل واحدة منهن سكيناً في يدها اليمنى وأهوت بها لتقطع الطعام ، من لحم أو فاكهة ، وهو مُمْسَك بيدها اليسرى إذ دخل عليهن يوسف ، تلبية لأمر امرأة العزيز ، فلما رأينه تأثرن بجماله تأثراً زائداً ودهشن اندهاشاً عظيماً ، وذهلن به عن شعورهن ،وأصبحن كأن قوى الاحساس المتنوعة المتفرقة على أعضائهن ،قدتوحدت واجتمعت كلهاوانحصرت في عيونهن، فلم يعد في أيديهن حس ولا إدراك ، أو كأن في اندهاشهن بجماله قوة التخدير الموضعي لأيديهن ، فبدلاً من أن يقطعن الطعام أو الفاكهة بالسكين قطعن أيديهن، بأن جرحنها وحززنها من حيث لا يشعرن بألم ، ولا يعلمن أنهن يصنعن شيئاً ، لفرط ما قد تولاهن من الدهشة والذهول ، حتى يكاد الناظر اليهن في تلك الساعة

يعتقد أن هناك منزلة وسطى بين الحياة والموت ، تنبعث فيها الحواس في سبيلها ، ولكنها لا تعود الى الدماغ بشيء مما تحس به ؛

أو يحتمل أن يكون المعنى أنهن قاربن ذلك ، كيف لا وقد ورد قوله تعالى: ﴿ وإذا طلقتم النساءَ فبلَغْنَ أجلَهُنَّ ﴾ (٢ : ٢٣١) (ومثله في ٦٥ : ٢) ، أي إذا شارفنه ، كما يقال : بلغ البلد إذا شارفه وداناه ؛ ويقال : وصلت ولم يصل وإنما شارف (الكشاف) .

وأما امرأة العزيز فلم تندهش ولم تذهل لرؤيته معهن ولم تقطع يدها ، لأنها قد تعودت رؤيته من قبل ، وتكرر لقائه ، إذ أنها أول ما رأته كان ابن ١٧ سنة ، أي صغير السن ليس محلاً لمحبة الإناث إياه « فضلاً » عن أنه « فتاها » وعبدها ، وتحت يدها ، وان مشاهدته مبذولة لها في كل حين ، بخلاف النسوة فإنهن لم يكن قد تعودن رؤيته من قبل ، وانهن حينما رأينه لأول مرة كان بالغاً مبلغ الرجال ...

ويمكن أن نقول وجهاً آخر في تفسير ذلك ، وهو أن زليخا قدمت للنسوة مع الطعام « مُتْكَأً » « الذي هو « الخمر » في لغة « كندة » على مافسره « المفضل » رحمه الله ، فلما أكلن وشربن وسكرن ، ضاعت عقولهن ، وضل إحساسهن ، فلم يعدن يميزن بين الطعام وبين أيديهن ، وعند مباغتتهن بخروج يوسف عليهن ، واندهالهن بجماله وقده سكرن سكر الهوى ، فاهوين بالسكين على أيديهن بدل الطعام فجرحنها وشطبنها ، ولما صحون من سكر الخمر وسكر الهوى ، أدركن حالهن ، فرأين الدم يسيل من أيديهن ، فجعلن يمسحنه بمناديلهن ، ثم أتي لهن بمناديل أخرى ، عصبن بها جروحهن وضمدنها .

ولنا ههنا بضع ملحوظات :

وقع جرح النسوة أيديهن على امرأة العزيز

الملحوظة الأولى — كأني بامرأة العزيز وقد نظرت إلى هذا الحادث الأليم المدهش ، حادث تقطيع النسوة أيديهن ، ووقفت أمامه وقفة المتحير ، ولسان حالها يقول : « ما هذا الاتفاق الغريب ؟! إنني إنما أمرت بالسكاكين لهؤلاء السيدات لأجل أن يقطعن بها طعامهن الذي على المتكأ (طبعاً) ، لا ليقطعن بها أيديهن ، ولكن حقاً ، إن لي من هذه الصدفة العجيبة حجة بينة على هؤلاء اللوامي ، بهـا يكون لي عندهن من العذر الواضح » .

هي افتكرت أن تدعوهن في قصرها ضيوفاً ، وقت غداء أو وقت عشاء ، ذريعة لجمعهن بيوسف ، ورؤيتهن جماله الفائق ، حتى يعذرنها في إغرامها به ، وسعيها في وصاله .

هذا كل ما أرادت ، وهذا جميع ماقصدت لا أقل ولا أكثر ، وقد حصلت على ما أرادت وقصدت ، ولكن ليس العجب حصولها على هذا الذي قصدت اليه ، وسعت فيه ، فانه أمر عادي ، ليس فيـــه ما يقتضي العجب ، ولكن إنْ تعجب فعجبٌ كونه حصل شيء (عن عرض) هو فوق مرامها ، وهو تقطيعهن أيديهن ، لشدة دهشتهن وذهولهن وغيبتهن عن إحساسهن ، حتى بذلك تسنى لها بكل سهولة الاحتجاج على تثريبهن عليها احتجاجاً صامتاً أخرس ، ولكنه أنطق من اللسان .

احتمال جرح النسوة أيديهن في عدة مواضع

الملحوظة الثانية — من المحتمـــل أن التشديد في « قَطَّعْنَ » هـو لكون الأيدي متعددة كما قالوه ، ويحتمل عنـدنا أن معنى التشديد ، هو أن كل واحـدة

جرحت يدها جروحاً عدة في مواضع من يدهـــا ، ويشير له ابن جرير بقوله : « حززن بالسكين في أيديهن حزاً حزاً » .

أمثلة النسوة اللائي جرحن أيديهن في التاريخ

الملحوظة الثالثة — ليست حادثة تقطيع النسوة ايديهن بالحـــادثة الأولى في التاريخ ، بل هناك أمثالها كثير ومنها ، الحوادث التالية :

١ — دخلت « عَزّة » على « كُثَيّر » وهو يبري سهاماً ، فجعل ينظر اليها ، ويبري ساعده ! فدنت منه ومسحت الدم بثوبها [١] .

٢ — روى ان « الحارث بن حِلِّزة اليَشْكُري » أنشد معلقته بين يدي « عمرو بن هند » الملك ، وهو متوكيء على قوسه ، وقد زعموا انه حين إنشادها ، اقتَطِم [٢] كفّه من الغضب ، وهو لا يشعر .

وقال ابن السيد في « أدب الكاتب » : كان متوكئاً على عَنَزَةٍ [٣] ، فارتزت [٤] في جسده ، وهو لا يشعر .

٣ — كان بالكوفة شاب حسن الوجه ، نظرت اليه فتاة ، ذات جمال وعقل، فشغفت بحسنه ، ولم تأل جهداً في أن تحظى به ، وهو يأبى عليها ، ولم تجد لذلك سبيلاً ، فجعلت تبكي بكاء مراً ، وتحزن حزناً شديـــداً ، ولم تزل كذلك ، حتى مرضت ولم تلبث أن بليت ببلية في جسمها ، فكان الطبيب يقطع من لحمها أرطالاً ، ولما كان قد عرف حديثها مع الفتى ، كان إذا أراد أن يقطع من لحمها ، يحدثها

(١) الدر المنثور .

(٢) قطع .

(٣) رمح صغير لاسنان له وفي أسفله زج أي حديدة .

(٤) انفرزت .

بحديث الفتى ، فما كانت تجد لقطع لحمها ألماً ، ولا كانت تتأوه ، فاذا سكت عن ذكره تأوهت ، ولم تزل كذلك حتى ماتت كمداً (١) .

٤ً — كان شاب يقال له « مسافر » يحب جارية من أهل مكة ، وكان غائباً بالحيرة ، فسأل عنها ، فقيل له : تزوجت ، فشهق ومات في مكانه (٢) .

فإذا كان خبر زوجها أثر على جميع جسمه وروحه ، فأسلم روحه توا ً ، فهل من غير الممكن أن تؤثر رؤية يوسف فقدان الاحساس من أيدي هؤلاء السيدات اللاتي شغفن به ، وبوغتن برؤيته ؟ .. كلا ..

٥ً — حكي أن فتى علق بجارية من القيان ، فاشتراها بستة آلاف دينار ، فلما حصلت عنده وملكها ، قالت له : « أيها الفتى لم اشتريتني ؟ وما في الأرض أبغض إليّ منك ، وإني أرى نظري اليك عقوبة ، فاسترد مالك ، فلا متعة لك بي ، مع بغضي إليك » ، ورآى منها بغضاً وإعراضاً شديدين ، فبذل لها كل ما يبذله الناس ، فما ازدادت إلا عتواً ، واعتزلت في بيت ، لا تأكل ولا تشرب ، وإنما كانت تبكي وتتضرع ، حتى ضعف صوتها ، وأحسّ منها بالموت ، وكان كل يوم يجيء إليها ، ويبذل لها الرغائب ، ولا ينفع ذلك ، ولا تزداد إلا بغضاً له ، مكثت على ذلك ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع ، ذهب إليها ، فرآى منها شيئاً من الاقبال ، فسألها عما تشتهيه ، فاشتهت عليه « حريرة » ، خلف لا يعملها أحد سواه ، فأوقد النار ونصب القدر ، وبقي يترس ما جعل فيها ، والنار تعمل وتتقد ، وقد أقبلت عليه تشكو

(١) مصارع العشاق ج٢ .

(٢) مصارع العشاق ج٨ .

ما مرّ بها من الآلام ، في هذه الأيام ، وبينما هو يمرس الحريرة بيده على النار ، إذا يده قد انسمطت (١) بالحريرة ، فصارت مشلولة (٢) وهو لا يدري ، ولا يشعر ، لولا أن دايته جاءت فرأت ذلك ، فأخبرته ، فأخرج يده ونظرها ، فإذا هي مشلولة (٣) .

٦ً — قال ابن حزم في كتابه « طوق الحمامة » : حدثتني امرأة أثق بها ، أنها شاهدت فتى وجارية ، كان يجد كل واحد منهما بصاحبه فضلاً وجداً ، قد اجتمعا في مكان على طرب ، وفي يد الفتى سكين يقطع بها بعض الفواكه ، فجرها جراً زائداً ، فقطع إبهامه قطعاً لطيفاً ، ظهر فيه دم ، وكان على الجارية غلالة قصب خزائنية ، لها قيمة ، فأخرجت منها فضلة شد بها إبهامه .

حمل التقطيع على التحزيز والتشطيب

الملحوظة الرابعة — لقد حمل تقطيع الأيدى على تشطيبها وتجريحها وتحزيزها وهو أمر ظاهر ، وعليه درج ابن جرير وسواه من محققي علماء التفسير ، ومما مرّ بي في بعض كتب التاريخ أن « المبرد » دخل يوماً على « عبيد الله بن طاهر » ، وقد فصد ، فظن أن ذلك لعلة ، فدعا له بالشفاء ، فقال عبيد الله : « خفص عليك أبا العباس ، فليس ذلك لعلة ، وانظر ما تحت طرف البساط » ، فنظر ، فإذا رقعة فيها :

حلف الظريف بقطعه يده إذ مس من يهواه بالألم
حتى إذا ضاق الفضاء به جعل الفصاد تحلة القسم

فقال المبرد : « حسن أيها الأمير فما سببه ؟ » ، قال : مددت البارحة يدي إلى بعض الجواري بالضرب فأَلِمتْ لما نالها من الألم ، فحلفت بقطع يدي ، فاستفتيت اليوم

(١) ذهب شعرها من شدة الحرارة .

(٢) يابسة متكتعة .

(٣) مصارع العشاق ج ١ : ٤ .

فأُفتيتُ بالفصد ، ففعلتُ ، قالوا : لأن الله تعالى قال : « قطعن أيديهن » مريداً التشطيب والتجزيز .

كتمان حادث تقطيع النسوة أيديهن عن مليك مصر

الملحوظة الخامسة — رب سائل يسأل ، لِمَ لمْ يظهر لتقطيع هذه الأيدي سيرة في البلاط ، بل طوي هذا الحادث عن مليك مصر ، كأنه لم يحدث ، مع أنه عمل مهم ومغيظ ، ولماذا حصل هذا التكتم يا ترى ؟ — فنجيب أن المصريين القبط هم أصحاب البلاد ، وهم الوطنيون الأصليون ، فكانوا يكرهون هؤلاء العمالقة المستعمرين ، فلأجل كراهتهم لمليك مصر « الريان » المستولي على البلاد بالقهر والغصب ، — كانوا يطوون أخبارهم وحوادثهم عنه ما أمكن ، ولا يريدون أن يوقفوه على أحوالهم الداخلية ، لا سيما حادث كهذا يمس بشرف عزيز مصر وامرأته وهؤلاء السيدات المدعوات ، وبالجملة يمس بشرف عموم القبط الوطنيين ، فلذلك طويت هذه الحادثة عنه كأن لم تكن ، بل طويت عن سمع التاريخ وبصره بالمرة ، حتى أذن الله أن تقص علينا في كتابه الكريم .

جمال يوسف

الملحوظة السادسة — ذكر البغوي بسنده المتصل أن النبي ﷺ قال : « أعطي يوسف شطر الحسن » ، ويقال إنه ورث ذلك الجمال عن جدته « سارة » وكانت قد اعطيت سدس الحسن ، وقال محمد بن إسحاق : « ذهب يوسف وأمه بثلثي الحسن » (١) ، وقال عكرمة : « كان فضل يوسف على الناس في الحسن ، كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم » ، وروى أبو سعيد الخدري (ض) قال قال : رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أُسري بي إلى السماء يوسف كالقمر ليلة البدر » ، وورد في سفر التكوين أنه قد « كان يوسف حسن الصورة وحسن المنظر » (تك ٣٩ : ٦).

(١) خازن

وتحرير المقام أن يقال :

يوسف هو ابن يعقوب من زوجته راحيل، ويعقوب هو ابن اسحاق من زوجته رفقـة ، واسحق هو ابن ابراهيم من زوجته ساراي ، فابراهيم كان جميلاً وكذا زوجته ساراي فقد جاء في سفر التكوين «أنها حسنة جداً» (تك ١٢: ١٤) فهذان الزوجان ورثا الجمال لولدهما إسحق ، وهو تزوج برفقـة التي جاء في سفر التكوين انها « كانت حسنة المنظر » (تك ٢٦ : ٧) ، وهذان الزوجان أيضاً ورثا الجمال لولدهما يعقوب ، وهو تزوج براحيل التي جاء في سفر التكوين أنهـا « كانت حسنة الصورة وحسنة المنظر » (تك ٢٩ : ١٧) ثم هذان الزوجان ورثا الجمال لولدهمـا يوسف ، الذي وردت في جماله النقول الكثيرة ، فهو ورث الجمال من أبيه يعقوب وأمه راحيل ، وأما يعقوب فكان ورث الجمال من أبيه إسحق وأمه رفقة ، وأما اسحق فـكان ورث الجمال من أبيه إبراهيم وأمه ساراي ، فيصدق على يوسف أنه الجميل بن الجميل بن الجميل بن الجميل ، من زوجات أربعة جميلات ، فلذلك وردت في حسنه الروايات المتعددة ، ونظمت في ذلك الأشعار ، وضربت الأمثـال ، وهذا المقدار من حسن يوسف ، كاف لأن يدهش هؤلاء السيدات المصريات ، ويأخذ بأفئدتهن ، بل ويذهب بإحساسهن ، لاسيما وانهن ما خرجن عن كونهن من سلالة حام ، وغني عن البيان ان كل أفراد هذه السلالة الحامية سواء أكانوا رجالاً أم نساء ، هم (كما ذكر المؤرخون وعلماء الجغرافية) فطس الأنوف ، متجعدو الشعر ، طوال القفا ، ذوو رؤوس مفلطحة ، ووجنات بارزات العظـام ، وأفواه واسعة كبيرة ، وشفاه غليظة ، وألوان سوداء ، لأنهم من « العرق الأسود » أحد عروق البشر الأربعة ، وأما يوسف فكان كغيره من العبرانيين من سلالة سام أي من « العرق الأبيض » الذي من مميزاته انه أبيض الجلد ناصعه ، دقيق الانف ، رقيق الشفة ، سبط الشعر ناعمه. فالقـارىء الفهيم إذا لاحظ هذا وهذا ، ولاحظ ثالثاً ان النساء عموماً ، والأفريقيات منهن خصوصاً ، رقيقات الشعور ، شديدات الحس ، سريعات التأثر بالجمال والمحاسن ، — إذا استحضر ما ذكرنا كله سهل عليه اعتقاد ان هؤلاء النسوة المدنيات قد قطعن أيديهن .

هذا ما فتح به الوهّاب ، في هذا الخطاب ، وهو تعالى أعلم ، واتباع الحق أولى وأسلم . 　　(حسناً حسناً)

(وقلن حاش لله !)

— ١ —

قالت الآنسة ست إخوتها الكوفية (العراق) -

النسوة المدعوات ينزهن يوسف عن البشر

من المعلوم ان النسوة المدعوات كن في ذهول عميق ، أو في سكر متغلب على العقل ، ولكن لما أفقن من ذلك ، ونجون من غلابه ، ورجعن لأنفسهن شرعن يهتفن بجمال يوسف ، ويعجبن من محاسنه ، نعم ، كن سكتن سكتة استغراق في في محاسنه ، ثم رأين أن يتكلمن كلمة يخرجن بها من هذا الذهول والاستغراق ، فقلن « حاش لله » أي براءة لله ، وتنزيهاً لله ، — أصله حرف جر وضع موضع التنزيه والبراءة ، فهو مفعول مطلق ، كقولك : « سقياً لك » والمعنى تنزيه لله تعالى — أن يكون هذا الشاب من العالم الأرضي ، بل هو من العالم السماوي ، وكلمة « حاش » يختص استعمالها بالله تعالى ، فلا تقل : « حاش لك ، بل حاشاك ، وحاشى لك » والمقصود من كلمة « حاش لله » تنزيه يوسف عن أن يكون بشراً ، فهذه الكلمة من قبل الكلمات التي استعملت في غير معناها ، ومنه قول النبي ﷺ في أبي بكر (ض) : «والله يغفر له » ، وقوله (ﷺ) في عتبة بن أسيد: «ويل أمه»، وقوله ﷺ لأم سلمة «تربت يداك» ،وقولهم «لا أم لك» ،وقول الكتاب : ﴿أرأيتك هذا؟﴾(٦٢:١٧) وقوله: ﴿أرأيتَ الذي يُكَذِّبُ بالدينِ﴾(١:١٠٧) ونحو ذلك.

والغريب ان كلمة « حاش لله » لم ترد في القرآن المجيد إلا في هذه السورة ، ثم

لم تحك هذه الكلمة في هذه السورة إلا عن فم هؤلاء النسوة المصريات ، في مقام تنزيه يوسف عن أن يكون بشراً مرة ، وفي تنزيه عن السوء مرة أخرى (آ : ٥١) .

(ما هذا بشراً)

وقالت الآنسة زبيدة الغزية .

المغالاة طبيعة في المرأة

جعل النسوة يتأملن في وجه يوسف ، ويتفرسن في ملامحه ، تارة يستغرقن في النظر لوجهه ، وطوراً يطرقن متأملات، يبحثن في ذاكرتهن : هل سبق انهن رأين إنساناً يشبهه في الحسن ؟ .. أجهدن فكرتهن في تذكر أهل المحاسن والجمال ، فلم يهتدين على أحد يشبهه ، أو يقاربه في صباحته وملاحته ، فعند ذلك قررن انه ليس من عالم البشر ، بل هو من عالم أرقى جمالاً ، وأعلى بهاء ، وأسمى نوراً ، نعم إن الصورة وإن تكن صورة إنسان أرضي ، لكن النفس التي يحملها بين جنبيه ، هي نفس مَلك سماوي .

هنّ كنّ ظنن َقبل أن يرينه أنه جميل الصورة فقط ، حسب العادة المألوفة، أي انه ليس فيه إلا جمال الجسم ، وقسامة الوجه ، ونحو ذلك .

أما الآن ، وقد رأينه ، وتأملن وتفرسن فيه ، وعلمن ما عنده من طهر وزاهة وجمال نفس ، ونورانية روح — فقد عرفن شيئاً كنّ يجهلنه من قبل ، فقد امتزج في نظرهن جمال صورته بجمال نفسه ، فاستحالتا الى صورة واحدة ، هي يوسف ! حتى انه لو نزلت به كارثة ، من كوارث الدهر أفقدته جمال صورته ، لبقي معشوقاً للقلوب ، تتشربه النفوس ، وتهفو له الأحلام،

بما فيه من الجمال النفساني ، الذي هو أعلى قيمة جداً من الجمال الجثماني ، فكيف وقد اجتمع فيه الجمالان ، فاذا هو نور على نور .

إن هؤلاء النسوة ، ولا ريب ، كن يعتقدن أنه بشر ، ولكن المغالاة طبيعة نسائية ، قال « غونكور » : « أظهر أخلاق المرأة حب المغالاة في كل شيء » لاسيما إذا لاحظنا أن أفكارهن هذه شعرية بحتة .

عجبت لهؤلاء النسوة ، لا يشغلهن شأن عن شأن ، ولا يمشين على طريقة من قال : « حال الجريض دون القريض » ، فهن مع ما أصابهن من الجراح تراهن يتلاهين بتقريظ يوسف ، وإطراء ما له من جمال وجلال ، وطبع النساء معاداة الصمت في حالي الحزن والفرح ، ومحبة الكلام ، وهن بين الحسرة والغبطة .

(إنْ هذا إلا مَلَكٌ كريم)

— ١ —

وقالت السيدة ماهتاب البنجابية :

النسوة اللائمات ينقلبن الى متغزلات مادحات

عجيب وايم الله ذلك الذي أحدثه هذا الاتفاق الغريب الأطوار !! فالنساء اللاتي كن لائمات أصبحن متغزلات مادحات عاشقات ، ووقعن في شرك الحب كما وقع غيرهن ، وصار لسان كل واحدة منهن ينشد :

وعذلتُ أهل العشق حتى ذقته　فعجبت كيف يموت من لا يعشق
وعذرتهم وعرفت ذنبي أنني　عيرتهم فلقيت منه ما لقوا

انهن نظرن شاباً في ريعان الشباب ، جميل الصورة ، له منظر جذاب يغري الرائين ويعجب الناظرين ، يدل على الجلال والعظمة ، فهتفن بهذه الجملة الامتداحية

وهي : « إن هذا إلاملك كريم » بجمالذاته وكمال نفسه ، وطهارة ضميره ، بحيث لم يبق فيه من صفات البشر إلا الاسم واللقب ، بأن نقول عنه : « يوسف فتىامرأة العزيز » ، فهو بشر ، بحسب ذلك اللفظ فقط ، وأما فيما عدا ذلك ، فهو من نوع سكان السموات ، المنشأين من النور .

ورغماً عما أصابنا من هذه الكارثة ، فإننا اليوم سعيدات ، برؤية هذا الفتى مثلوجات الصدر ، بمشاهدة وجهه الصبيح،الله أكبر ! إنه لجميل ! وجميل جداً !. إنه زهرة سماوية ، ونفس ملكية . كلامهن هذا هو من قبيل الغزل بجمال يوسف، المبني على استحسانهن له ، واستكبارهن لظرفه،ومن قبيل المدح بالنزاهةوالطهارة، والدليل على أن تشبيههن له «بالملك»غزل ومدح ، استعملهن الشعراء قديماً وحديثاً ذلك التشبيه في مقام الغزل بمحاسن المحبوب ومدح كماله ، وشواهد ذلك أكثرمن أن تحصر ، وأشهر من أن تسطر .

نفين عنه البشرية ، لغرابة جماله ، ومباعدة حسنه لما عليه محاسن الصور ، وأثبتن له الملكية وبتتن بها الحكم ، وذلك لأن الله عز وجل ركز فيالطباع أن لا أحسن ولا أكمل من الملك ، كما ركز فيها أن لا أقبح ولا أنقص من الشيطان .

فهذا بدء التغير الفكري الذي جدّ لهن ، وأعظم دليل على تغير فكرهن عن ذي قبل ، هو اندهاشهن وغيبوبتهن عن الحس ، حتى قطّعن أيديهن ، من حيث لا يشعرن، ولا يحسسن ، فهذا هو دليلنا على انهن اندهشن بجماله وجلاله .

ذاب فكرهن الأول الانتقادي فيما صرن إليه من هذا الفكر الجديد ،فانقلبن عما كن فيه ، فكنّ من قبيل من قيل فيهم : « يحلونه عاماً ويحرّمونه عاماً » ، أو « الحرام ما حُرموه ، والحلال ما حلّ بأيديهم » وكأن « الشغف حباً » ،إنما يعد « ضلالاً مبيناً » لغيرهن ، وأما لهن فهو الهدى الساطع !!!...

كنّ سرقن لحمها وأكلنه ميتاً ، فقطعت أيديهن وهن في قيد الحياة ، مكرن بها قولاً ، فمكرت بهن فعلاً ، حكمن عليها بالضلال ، فضللن عن تقطيع طعامهن إلى تقطيع أيديهن ، دعون يوسف قبل أن يرينه « فتى امرأة » ، فلما رأينه دعونه « ملكاً كريماً » .

هذه الانقلابات والتطورات هي نتيجة من نتائج الاندهاش بالجمال ، فسبحان مقلب قلوب النسوة ، قبل قلوب الرجال ، وبهذا صِرْنَ من « مريدات » امرأة العزيز ، المحبذات لغرامها وحبها ، بعـــد ما كن سابقاً من اللوامى المنتقدات ، والعواذل المنكرات ، فانقلبت حالهن ،وتغيرفكرهن ، وشاطرنها في شغفها ،وهذا كل ما أرادت وسعت إليه .

كان جمال يوسف من أكبر المؤثرات على دقائق قلوبهن ، وكان كماله من أقوى السلطات النافذة لأفئدتهن ، فقلن ذلك القول مع اعتقادهن أنه بشر ، فهن يعبرن بذلك عن شعورهن ، وشدة سرورهن وإعجابهن بيوسف ، نظير قول القائل :

محمد بشر ما كان كالبشر بل كان ياقوتةً والناس كالحجر

والنساء يحكمن بمقتضى الشعور والوجدان ، أكبر ممـــا يحكمن بمقتضى العقل والبرهان ، أو انهن قلن ذلك على الطريقة الشعرية ، أو على وجه المبالغة في الوصف وعلى كل ، فلعمري ما أبعدن المثَلَ ، ولا تجاوزن القياس ..

قال بعض الحكماء : « الملائكة روح وعقل ، والبهائم نفس وهوى ، والانسان يجمع صفات الملائكة وصفات البهائم ،فان غلبت روح الانسان وعقله على نفسه وهواه ، كان أفضل من الملائكة ، وإن غلبت نفسه وهواه على روحه وعقله ، كانت البهائم أفضل منه » .

لوم واعتراف ووعيد

آ (٣٢) ﴿ قالتْ : فَذٰلِكُنَّ الذي لُمْتُنَّنِي فيهِ ، ولَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نفسِهِ فاسْتَعْصَمَ ،ولَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ ولَيَكُوناً مِنَ الصّاغِرِينَ ﴾ .

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثانية والثلاثون فقامت السيدة هدى اليمانية وقالت :

رأت « امرأة العزيز » أن النسوة بما صدر منهن من فعل وقول قد قامت عليهن الحجة ، فعند ذلك (قالت) لهن بلسان الاحتجاج (فذلكن) الفتى الرائع في الجمال الفاتن في الحسن ، أو فذلكن العبد الكنعاني الذي صورتن في أنفسكن ثم (لمتنني فيه) ولم تخطرن على بالكن قول بعض الحكماء : « امل لها عذراً وأنت تلوم » و « ليس من العدل سرعة العذل » ، تعني انكن لم تصورنه بحق صورته ولو صورتنه بما عاينتن لعذرتنني في الافتتان به،ولذلك وبما صار لكن أحتج عليكن في انتقادكن علي ، ثم قالت بلسان الاعتراف : (و) إلسر عندكن اني (لقد راودته عن نفسه فاستعصم) — والاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد ، كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها،ونحوه استمسك واستوسع الفتق واستجمع الرأي واستفحل الخطاب ، وهذا بيان لما كان من يوسف عليه السلام لا مزيد عليه ، وبرهان لا شيء أنور منه على أنه بريء مما أضاف إليه أهل الحشو الذين لا يفقهون — ثم قالت بلسان الايعاد والارهاب : (و) قسماً بأبيس وبتماسيح النيل (لئن لم يفعل ما آمره) به (ليسجنن) في المطبق (وليكوناً من الصاغرين) الأذلاء .

(قالت : فذلكن الذي لمتنني فيه)

— ١ —

قامت الآنسة زينب العدنية وقالت :

لوم زليخا للنسوة

بعد ما احتجت امرأة العزيز عليهن احتجاجاً صامتاً قالت لهن بلسان اللوم والعتاب : « ذلكن » الشاب الفتى الذي برؤيتكن لم تتبين لكن حقيقة معذرتي ـ هو « الذي لمتنني فيه » ، وهل أنا في حاجة إلى أن أعتذر لكنّ ، وقد رأيت ما حل بكنّ ، مما لم يكن في الحسبان ؟.. هل أنا في حاجة إلى أن أعتذر لكنّ ، وقد صرتن به مغرمات ، بعد ما كنتن فيه عواذل ؟.. هل أنا في حاجة إلى أن أعتذر لكنّ ، وقد جُنّ جنونكنّ في حبه ، فزدتنّ فيه عليّ أضعافاً مضاعفة ؟..

« ذلكن الذي لمتنني فيه » ، وماذا عساي أن أعمل ؟.. وأنا قد وُلِدت «امرأة» ضعيفة الارادة ، ودبيت « امرأة » لطيفة الشعور ، وشببت « امرأة » رقيقة الاحساس ، ونشأت « امرأة » تتغلب عليها العواطف ، ثم الدم النسائي اللطيف جار في عروقي ، والميول النسائية المتقلبة سارية في كل جوارحي ، وهذا الفتى قطعة من الجمال ، خُلق من معمل اللطف والحسن ، خلق فتنة للعباد ، وهو عبدي وتحت يدي ، أفمن العجب بعد هذا كله أن أستسلم لجماله ، وأسلم له عقلي ؟!؟!..

« ذلكن » الفتى الأديب الذي أكبرتنّه وقطعتن بمجرد النظر اليه أيديكن ، هو « الذي لمتنني فيه » ، والآن مع انني من جهة آسفة جداً ، لما أصابكن من هذه النازلة ، لاسيما وأنتن في بيتي وضيافتي ، لكنني من الجهة الثانية أحمد الله ، إذ شعرتن بثقل الحب وشدة سلطانه ، وإني لأرجو أن كل ما صدر مني وسيصدر لا يقلل من قيمتي شيئاً

عند من رأت جمال الفتى ، وكانت ذات إنصاف ، فأنا لست من غير طينتكن ، بل أنا مثلكن من لحم ودم .

أنتن كنتن لمتنني فيه ، سامحكنّ الله ، فابحثن الآن في ذات أنفسكن ، هل ترينَ ضميركنّ يشهد ان حبي إياه عبث ، أوانه في غير محلّه ؟..

أنتن كنتن لمتنني فيه ، وأراكن هذه الساعة قد شغفتنّ به حباً ، فهل ألومكن أنا الآن فيه ؟ .. كلا .. لأن من جرب الحب لا يلوم فيه أحداً :

يالائمي في الحب ذق طعم الهوى فاذا عشقت فبعد ذلك عنف

فاذن نحن الآن قد تفاهمنا جميعاً ، فلا تمكرن بي ولا تنتقدنني .

ملحوظة — لقد تقدم انها كانت سمعت بلومهن لها ، وانتقادهن عليها ، فتنازعتها العوامل التي تتنازع عادة كل محب انصب عليه لوم اللائمين ، ونيل من شرفه وعرضه ، فتارة كان يدفعها « عامل الكبرياء والغطرسة » لرد لومهن بحمو وشدة ، زاعمة انه ليس من شأنهن البحث والسؤال عما في قصر العزيز ، وان كل تدخل من فريق ثالث في الشؤون التي بينها وبين عبدها تدخلٌ غير وديّ .

وحيناً يدفعها « عامل الذل » — ذل المحبين المغرمين — للاعتذار بهدوء وسكينة ، ومرة يدفعها « عامل الاعتدال » للجواب عما يخالج ضميرهن ، بما يكفل عزتها ويرفع بلطف لومهن ، كانت تتجاذبها هذه العوامل ، وتنتابها هذه الأفكار المختلفة ، ثم حسن في عينيها أن تعمل عملاً أهم من هذه كلها ، وهو أن تبعث اليهن على سبيل الضيافة في قصرها ، حتى يرين يوسف ، فيشاطرنها في حبه ، ويقعن في الشرك الذي ارتطمت هي فيه ، او على الأقل يرين جماله فيعذرنها ، وبذلك تكون قدمت لهن معذرة محسوسة ، بارزة ، صامتة ، ذلك كل ما قصدته من الارسال اليهن ، وأما ما حصل في تلك الجلسة ، من تقطيع النسوة ايديهن ، واعترافها الصحيح أمامهن ، وتوعدها ليوسف إن لم يوآتها ، فلم يكن شيء من ذلك مقصوداً

لها ، ولم يخطر على بالهـــا ان هؤلاء السيدات ، سيستغرقن في حبه ، ويندهشن بجماله ، لدرجة أن يغبن عن أنفسهن وإحساسهن ، فيقطعن ايديهن ، وأما هي فلما حصل منهن ، ولما قيل : « حبك الشيء يعمي ويصم » ، سوغت لنفسهـا أن تبوح لهن بكل صراحة انها (نعم) مشغوفة به حباً ، وانها كانت أرادته فأبى ، وانهـا حتى اليوم والى الغـد باقية على هذا الحب ، وعلى هذا الشغف ، وعلى هذا الشيء الذي سمينه (ضلالاً) ، لا يهدأ لها بال ، ولا تروق لها معيشة ، الا بالحصول على غرضها ، أحبّ يوسف أم كره ، وبقين هن على لومهن ، أم أقلعن عنه .

هذا ما سمح به الوقت أن ألقيه على مسامعكم ، والسلام عليكم ورحمة الله .

(مرحى)

(ولقد راودته عن نفسه فاستعصم)

قالت السيدة لطيفة المراكشية

— ١ —

اعتراف زليخا للنسوة

لقد أرادت امرأة العزيز أن تبرهن للنسوة ثقتها بهن فقالت لهن : أريد أن أدلي اليكن بحديث خطير ، أرجو أن يكون سراً ، تحت طيّ الكتمان ، فأنتن لستن ممن يتاجر بالاسرار النسائية ، نعم سأعلمكن بجلية الواقع ، مما كان مني ومنه ، فأما ما كان مني ، فهو انني كنت سلمت أمري لعواطفي فراودته عن نفسه ، وأما ما كان منه ، فإنه سلم أمره لعقله لذا فقد استعصم ، متعللاً بأن سيدي « العزيز » أحسن مثواه ، مع ان إحسان سيدي العزيز لمثواه كان بواسطتي ومباشرتي ، ونحن

إنما أحسنا له وأكرمنا مثواه ، ليكون طوع إرادتنا ، فما تصورناه نحن (سبباً) ، تصوره هو (مانعاً) ! فيا للعجب من هذا العبد المتمرد !ولا بد ان أضحي كل افكاري وتدابيري وقواي في سبيل الوصول الى رغبتي منه .. الخ مالهـا من قول هراء كما سيأتي .

ولنا هنا ملحوظات أربع :

زيادة قحة زليخا

الملحوظة الاولى — جرت عادة بعض العشاق أن يبوح بسره لبعض خلصائه، ولكن مقتصراً على ما يجوز ذكره شرعاً ومروءة، امتثالاً لقول القائل :

لا تخف ما فعلت بك الأشواق واشرح هواك فكلنـــا عشاق

إنما هذه المرأة زادت في القحة ، فنفضت لهن جملة حالها ، فذكرت ماالأفضل عدم التصريح به ، إذ ينبغي لمن ابتلي بشيء من هذه المعاصي أن يستتر بستر الله ، كما ورد في الحديث الشريف .

عدم صبر النساء على حفظ الاسرار

الملحوظه الثانية — كانت سمعت أن النسوة المصريات وقفن على حادثتها ، ثم دعتهن فرأت اندهاشهن بتقطيع أيديهن ، وحكمهن على يوسف بأنه ليس من نوع البشر ، بل من نوع الملائكة ، فعلمت من هذا انهن صرن شريكات لها في حبه ، ولا بد أن يكنّ قد عذرنها في شغفها به. وأخيراً رأت أن تلك الجلسة السرية، انتقلت من جلسة ضيافية الى جلسة غرامية ، وهي قديماً تعرف ان الصدور يرتاح لبث شكواه لمن يخفف عنه لذا رأت أن سلسلة هذه الاشيـاء ، تصلح أن تشكل سببـاً يسوغ « اعترافها » بالحب أمام هولاء النسوة ، فصارت عواطفها تتراوح بين « الاعتراف»

بما كان صدر منها ، وبين البقاء على التكتم ، وأخيراً فضلت أن تبوح لهن بما كان ، وقد اعترفت لهن بذلك،لأن النساء أقل صبراً على حفظ أسرارهن وأسرار سواهن من الرجال ، ذلك بما فطرن عليه من ضعف المزاج ، وخصوصاً فيما يتعلق بالحب وأسبابه ونتائجه ، ويغلب أن يكون إفشاؤهن السر على سبيل المسارة ، والانسان إذا أعجزه أمر . أحس بميل شديد الى مكاشفة بعض أخصائه به ، فامرأة العزيز !! أعياها أمر يوسف ، أرادت أن تكاشف به هؤلاء السيدات ، لعل أن يكون عندهن ما يسهل عليها الوصول لغرضها منه .

اعتراف فاسقة لفواسق

الملحوظة الثالثة — إن قولها للنسوة (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) هو « اعتراف » منها بالخطيئة ، ولكنه ليس « اعترافا » أمام رجل دين مسلم ، توصلاً للتوبة عن يده إلى الله ، ولكي يخبر ذلك الرجلُ الديني المعترف بالكفارة التي تجب لهذه الخطيئة ، كما أنه ليس « اعترافاً » لرجل دين مسيحي ، توصلاً لمغفرته تلك الخطيئة ، وإنما هو « اعتراف » فاسقة لفواسق لا تترتب عليه فائدة دينية أبداً .

الاعتراف السري

الملحوظة الرابعة — لا نشك في أن اعتراف زليخا للنسوة بمراودتها ليوسف وباستعصامه كان ضمن دائرة الأسرار ، وتحت طي الخفاء ، عن كل ما عدا هؤلاء النسوة المدعوات ، لأنه سيأتي اعترافها جهراً بهذه الحوادث في جلسة التحقيق ، على يد مندوب الملك ، كما سيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى في الكلام على الآية (٥٢) .

(ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين)

— ١ —

قالت الخاتون ماهتاب الشيرازية (١) :

انذار يوسف ووعيده

تعلمون أن امرأة العزيز كانت أولاً راودته ، فرأت منه كل الاباء والامتناع فتركته وتناست هذه الفكرة ، ولكن شهوة النفس وعواطف أمثال هذه المرأة ، وعزة المنصب وعبودية يوسف في بيتها — أمور دفعتها لتعليل نفسها بالأمل ، وسهولة حصولها على رغبتها ، لا سيما إذا اسمعته إرعاداً وإبراقاً ، والحب يهون على صاحبه كل عسير ، حتى يريه القصور مبنية في الهواء ، فلذلك هي تقول الآن موجهة خطابها للنسوة ، وعلامات الاهتمام ظاهرة على وجهها يمازجها شيء قليل من الحياء : لئن لم يفعل ما آمره به ، ولم ينزل على حكمي وارادتي عاجلاً أو آجلاً ، ليكونن عرضة للجزاء الصارم بالاعتقال في (المطبق) والاهانة والذل ، حتى ولو كان هذا الجزاء مخالفاً لقانون الجزاء المصري ، الذي هو بالعكس يعتقل ويهين من يفعل ذلك ، فآخر الدواء الكي ، وإنني لقديرة أن أرغم هذا الفتى بالقوة ، وأصل إلى ما أريد منه بالقسر بدون احتياج إلى ترغيب وتشويق ، كما قال الشاعر :

من أطاق اغتنام شيء غلاباً واغتصاباً ، لم يغتنمه سؤالا

فكم مرمر معيشتي بعدم انصياعه لميولي ، فان هو بقي مصراً على إبائه ، ولم يختم رواية حبي له بما أريد ، فإني سأعامله بالمثل ، وأمرمر معيشته ، بسجنه وصغاره .

ثم قالت وصوتها يرتجف ، وجوارحها ترتعش ، أنا والله لست بمغلوبة لمن هو

---

(١) نسبة الى شيراز احدى مدن ايران .

في يدي ، وتحت أمري ، وضمن قصري ، وقد اشتري بدراهمنا ، وغُذي بخيراتنا فهو أصغر من أن يثابر على مخالفتي ، وأنا أكبر من أكون مقهورة باستبداده .

وإني سوف لا أستصعب أمراً في سبيل الحصول على غرضي من هـذا الفتى العبراني ، فخلاصه من دخول الحبس ، وشموله بالصغار معقود بتنفيذ ما أريد منه وإلا عوقب بيد منبسطة ، ولسان منطلق .

هذا مرمى كلامها الروحي مع هؤلاء النسوة ، وهكذا قضين سحابة ذلك اليوم . وهن في أحوال متناقضة ، في أفراح وجراح ، في عتاب وتراض ، في اندهاش وانتعاش ، في إرعاد وإبراق ، ووعيد وتهديد ، في أمل ويأس ، ثم ختمت تلك الجلسة النسائية ، فتحفزن للقيام ، وودعن امرأة العزيز ، وهن يحسسن بألم سهم الفراق . وقبل أن أنهي خطابي أذكر الدقيقتين التاليتين :

وعيد زليخا ليوسف دون وعده

الدقيقة الأولى — ترى أن زليخا أوعدت يوسف بشقاوة مستقبلة إن لم يخنع لأمرها ، بقولها : « وإن لم يفعل .. الخ .. » ، ولكنها لم تعده بسعـادة مستقبلة ، إن أطاعها وطاعها ، لأنه من جهة حاصل في بيت « العزيز » على كل سعادة ، تليق بواحد مثله ، ومن جهة ثانية ، هي تعلم ترفعه عما عساه أن يصل اليه من السعـادة على يدها ، فرأت انه لا يجدي معه وعدهـا ، بل وعيدهـا ، وانه لا تؤثر عليه بشائرها ، بل انذاراتها .

دلائل نفوذ زليخا وشموخها

الدقيقة الثانيه — كانت « امرأه العزيز » شديدة الذهـــاب بنفسها ، مُدِلّة بجاهها ونفوذها ، متشددة في آرائها وأفكارها ، متغلبة على سيدها ؛ ألا ترى الى

ضراعته لها بقوله : « أكرمي مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » ؟

ألا ترى إلى شدة وطأة انتقادها على سيدها بما ورد في سفر التكوين من قولها : « قد جاء الينا برجل عبراني ليداعبنا » ؟ (تك ٣٩ : ١٤)

ألا ترى الى أنها لحقته لما هرب ولم تبال برؤية الجواري ونحوهن لها وافتضاح أمرها عندهن ؟

ألا ترى الى ثقل اقتراحها واستبدادها أمام سيدها ، إذ قالت له كحاكم مستبد : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » ؟

ألا ترى الى سيدها ، حينما ثبت عليها « الجرم » لم يقاصها إلا بقوله : « إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم » وقوله : « استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين » ؟

ألا ترى الى قحتها إذ قالت بمسمع ومرآى من السيدات المصريات ، وربما كان واقفاً عندئذ بعض الجواري : « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » ؟

ألا ترى الى استهانتها بوصاة سيدها واستبدادها في الحكم إذ قالت : « ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن ، وليكوناً من الصاغرين » ؟ تتوعده بما كانت هي حقيقة به ؛

وأخيراً ألا ترى الى صراحتها واعترافها أمام مأمور التحقيق ، المندوب من جانب الملك ، إذ قالت : « الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه » ، ثم قالت : « وما أبرئ نفسي » ؟

فبهذه المواضع التسعة تعلمنا ان هذه المرأة كانت شامخة مستبدة .

« مرحى »

المناجاة

آ (٣٣) ﴿ قالَ : رَبِّ ، السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي اليهِ ، وإِنْ لا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ، أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ، وَأَكُنْ مِنَ الجاهِلِينَ . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الثالثة والثلاثون فقامت الآنسة سليمة البعلبكية وقالت :

سمع يوسف كلام « امرأة العزيز » وتهديدها له ، فالتجأ إلى ربه ، و (قال) يا (رب) الذي إليه التجىء وبه اعتصم (السجن أحب إلي مما يدعونني إليه) أي أحب إلي من ركوب المعصية — لأنه وإن يكن نزول السجن مشقة على النفس شديدة ، وما دعونه إليه فيه لذة عظيمة ، لكن تلك المشقة آثر عنده نظراً لحسن الصبر على احتمالها في وجه الله ، ونظر القبح معصية ،وعبر بكلمة « يدعونني » على إسناد الدعوة إليهن جميعاً ، لأنهن سكتن على كلام امرأة العزيز، والسكوت رضاً، بل كن بحالة من يدعو إلى الفحشاء ، ورب حال أفصح من مقال ،ومن استحسن عملاً قبيحاً فكأنما عمله — ثم قال يوسف أدعوك يامولاي أن تصرف عني كيدهن صرفاً متأصلاً دائمياً ، بحيث إذا قــبر اليوم لا يبعث غداً ، (وإلا تصرف عني كيدهن) بألطافك الإلهية ، وعصمتك الربانية (أصبُ) أي أميلْ (اليهن) — والصبوة الميل إلى الهوى — فإني لا أملك من القوة إلا معونتك (وأكن من الجاهلين) الذين لا يعملون بما يعلمون ، لأن من لا جدوى لعلمه ، فهو ومن لا يعلم سواء ، أو من السفهاء ، والحكيم لا يفعل القبيح .

(قال : رب ، السجن أحب الي مما يدعونني اليه)

— ١ —

قالت الآنسة جهينة الحمصية :

مناجاة يوسف ربه لصرف كيد النسوة عنه

رأى يوسف تلك الحفلة النسائية الخطيرة ، وسمع فيها كلام « امرأة العزيز » وتهديدها وإنذارها الشديد ، وممالأة « النسوة » لها عليه بسكوتهن على ما قالته ، فعلم أنها تريد أن تبعث مسألة « المراودة » من قبرها ، رغماً عن نهي « العزيز » لها فرأى نفسه انه على شفا حفرة من التهمة ، وأنه ليس بينه وبين وقوع « الكيد » عليه ، من هؤلاء الكواعب إلا كلفتة الجيد ، فقال في نفسه : ليت شعري أُراجع مَنْ مِنْ أهل البلاط في شأنها ، واقتراحاتها الساقطة ؟.. فهل أراجع سيدها عزيز مصر ، وأخبره بأنها لم تسمع صوت أمره لها ، ولم ترضخ لنصحه ؟.. أو يا ترى أراجع مليك مصر « الريان بن الوليد » ، وأحيطه علماً بسلسلة هذه الحوادث ،التي جرت وتجري في مملكته ، بغير علم له بها ؟.. ومَنْ لي بأن أقف ماثلاً بين يديه ، حتى أنفض له جميع ما في صدري ؟.. لا .. لا .. لا لزوم لمراجعة عزيز مصر ، ولا ملك مصر ، ولكني أراجع العزيز الحقيقي المطلق ، عزيز كل الأمصار ، وملك الملوك الحقيقي الأكبر ، ملك الأرض والسموات ، وهو « الله » سبحانه وتعالى ، فيارب ، يا الله ، إليك أتوجه بعرض حالي ، وإليك أضرع بمقالي ، يا رب ، أبعد عني هذه الفتنة العمياء ، وغير قلوب هؤلاء النسوة،ليرجعن إلى طاعتك ،ويشعرن بفظاعة الأمر ، الذي هنّ عازمات على ارتكابه .

يا رب ، أرشدني إلى سبيل أنجو به من هذه الأشراك، واحفظ عبدك يوسف

من دهائهن وختلهن ، تحنن يا رب على هذا المسكين الغريب ، هذا المسكين الذي ليس له ملجأ إلا ّكَ ، أنت ملجأ البائسين الضعفاء فاحفظني من كل سوء وتجربة ، وحقاً إني أفضل المعتَقَل المظلم على القصور المتلألئة بالأنوار ، فإن كان لا ندحة عن الإعتقال ، فلهو خير لي مما يرغبن إليّ فيه ، ولو قضيت فيه سحابة عمري ، ولا يهمني مفارقة القصر المنير ، إلى سجن مظلم،فقد عافت نفسي القصور ،ومايحف بها من أسباب الفتن والفجور .

هذا ما حُدِّثتُ به أيها السادة، ان هذه المعاني حاكت في صدر يوسف (ع) فجعل يناجي بها ربه سبحانه وتعالى .

(قال : رب ، السجن أحب إلي مما يدعونني اليه)

— ٢ —

وقالت الآنسة خيرية الريحاوية (١) :

سبب سكوت يوسف في حفلة النسوة المدعوات

نتعلم من كتاب الله تعالى أن يوسف في تلك الحفلة النسائية السابقة ، كان ساكتاً ، لم يتبادل الحديث ، لا مع النسوة المدعوات ، ولا مع امرأة العزيز صاحبة الدعوة ، ونعلم أن ذاكم السكوت زاده رفعة في أعينهن ، وزاده هيبة في قلوبهن ، فالصمت يرفع منزلة صاحبه ، وكثرة اللفظ تقلل من مهابته ، وهذا في مبادلة الحديث بين رجل ورجل ، فكيف والجليسات في تلك الحفلة اناث لا يليق بذي المروءة مثل يوسف أن يتبسط في الكلام معهن ، ولكن يصمت عن محادثتهن، فلذلك وحيث ان العاقل يحتفظ بكلامه إلى حين الحاجة ، بقي يوسف ساكتاً ،

(١) نسبة الى اريحا من بلاد فلسطين .

حتى سمع إنذار « امرأة العزيز » إياه ، فأوجس منها خيفة ، وخشي أن تصيبه من ختلها دائرة ، لأنها تقول وتفعل ، وكابد في نفسه ألماً ممضاً ، لا تستشف مكانه من أعماق قلبه ، غير عين واحدة ، وهي عين الله تعالى ، ففزع إلى مولاه ورفع بصره إلى السماء ، وشخص لجهة العلو ، وقال وفي صوته غنة الضراعة ، والذل : يا رباه ، يا من يجيب المضطر إذا دعاه ...

(قال : رب ، السجن أحب إلي مما يدعونني اليه)

— ٣ —

وقالت السيدة سعدى العكية (١) :

كيف كانت مشقة نزول السجن أحب الى يوسف مما يدعوه النسوة اليه

لي ههنا كلمة مختصرة في هذا الموضوع، يقول يوسف الصديق (م) : «السجن أحب إلي مما يدعونني اليه » وقد استشكلوه بأن نزول السجن مشقة على النفس شديدة ، وما دعونه النسوة إليه لذة عظيمة ، فكيف كانت المشقة أحب إليه من اللذة ؟ وأجابوا عنه بانه كانت المشقة أحب إليه وآثر عنده ، نظراً في حسن الصبر على احتمالها لوجه الله ، وفي قبح المعصية ، وفي عاقبة كل واحدة منها ، لا نظراً في مشتهى النفس ومكروهها .

وهو جواب حسن جداً ، ونحن نزيد على ذلك بأن هذا أسلوب عربي مألوف ومنه ما رواه مسلم في صحيحه عن علي (رض) : « إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فلأنْ أَخِرَّ من السماء أحبُّ إلي من أنْ أقول عليه ما لم يقل » ، مع أنْ كلاً من الخرور من السماء والكذب على النبي ﷺ مبغوض للنفس . والشاعر العربي يقول :

(١) نسبة الى بلدة عكا من بلاد فلسطين .

لنقلُ الصخر من قلل الجبالِ أحب إليّ من مِنَن الرجالِ

على أن أصحاب النفوس الملكية العالية ، يرون ان الفاحشة مرة الطعم جداً ، وعليه فالمعنى : حامض السجن ، أخف عليّ من مرّ الفاحشة ، « حنانيك بعض الشر أهون من بعض » ، على أن أحد المحاضرين قد بين في خطابه ان في السجن فوائد جمة ، لا يستهان بها ، وقد سمعتموه آنفاً ، « وما بالعهد من قِدَم » ..

(قال : رب ، السجن أحب إلي مما يدعونه اليه)

— ٤ —

ثم قامت السيدة علية النجفية وقالت :

لماذا نسب يوسف الدعوة لجميع النسوة

نسمع يوسف يقول « يدعونني » بصيغة الجمع ، مع أننا نعلم أن التي دعته إنما هي واحدة ، وهي مولاته « زليخا » ، ونرى انه كثر في هـذه السورة كغيرها إطلاق الجمع على المفرد ، لعلة من العلل المناسبة لـكل موضع ، وفي بيان ذلك أربع احتمالات :

الاحتمال الأول : ان المراد من قوله تعالى « يدعونني » هو امرأة العزيز خاصة، لأنها هي التي دعته للفحشاء، كما حكاه القرآن الكريم عنها، ولم يحك ذلك عن غيرها من النسوة. وأما ماحكي من أنهن قلن ليوسف: «أطع مولاتك» أو أنهن طلبن منه كما طلبت، أو أن الطلب كان منها خاصة، وهن مالأنها على طلبها، فهو افتراء على هؤلاء النسوة، وهتك سترلهن، بما لم يثبت عنهن، وعندنا ان من نسب إليهن ذلك القول، قد أقولهنّ ما لم يقلن، ونسب إليهن مالا تجوز نسبته إلاّ بحجة وبينة وقوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعدِ مَا رَأوا الآياتِ ﴾ (آ : ٣٥) وما رأوا سوى آية واحدة ، وهي القميص ، وقوله تعالى : ﴿ أضغاث أحلام ﴾ (آ : ٤٤) وما هو إلا حلم واحد ، وقوله تعالى : ﴿ فأرسلون ﴾

(آ: ٤٥) خطاباً للملك الريان، وقوله تعالى: ﴿لعلي أرجع الى الناس، لعلهم يعلمون﴾ (آ: ٤٦) والمراد من الناس الملك الريان أيضاً وقوله تعالى: ﴿إذْ راودتُنَّ يوسف عن نفسه﴾ (آ: ٥١) والتي راودته هي امرأة العزيز خاصة، فهي التي راودته في بيتها: وهي قالت «أنا راودته عن نفسه»، ولكن اتى هنا بصيغة الجمع ستراً عليها، وقوله تعالى: ﴿اجعلني على خزائن الأرض﴾ (آ:٥٥) أي ناظر خزينة، وهو وزير المالية، وفي غير هذه السورة قال تعالى ﴿وَنحنُ الوارثونَ﴾ (١٥ : ٥٣) وإنما هو إلـه واحد، وقال تعالى: ﴿رَبِّ ارْجِعُون﴾ (٢٣ : ١٠٠) قال (في فقه اللغة): «من سنن العرب الاتيان بالجمع مراداً به الواحد»، كما قال تعالى شأنه: ﴿ما كانَ للمُشْركينَ أنْ يَعْمُروا مساجِدَ الله﴾ (١٨:٩)، وإنما أراد المسجد الحرام، وقال عَزَّ سلطانه: ﴿وإذْ قَتَلْتُم نَفْساً فادّارَأْتُم فيها﴾ (٧٢:٢)، وكان القاتل واحداً وهكذا قال في (العقد الفريد) ومثّل له بقوله جل جلاله: ﴿نادَتْهُ الملائكةُ، وهو قائمٌ يُصَلّي في المحرابِ﴾ (٣:٣٩)، والمراد بالملائكة جبريل فقط وقوله سبحانه: ﴿إنَّ الذينَ يُنادونَكَ مِنْ وَراءِ الحُجُراتِ أكثَرُهُم لا يَعْقِلونَ﴾ (٤٩ : ٤) وإنما هو رجل واحد من بني تميم.

وفي القاموس إن «المدائن» هي مدينة كسرى قرب بغداد، وسميت بذلك لكبرها. والخلاصة ان هؤلاء النسوة المرسل إليهن باسم الضيافة، لم يطلبن من يوسف شيئاً، مما يقال عنه «سوء وفحشاء»، كما طلبت امرأة العزيز، نعم إنهن يتلاقين معها في نقطة واحدة، هي الابتهاج بحسن يوسف، والاعجاب بجماله وجلاله، وإنما قال: «يدعونني» بصيغة الجمع، ستراً على سيدته زليخا، فهو لم يرد أن يطعن سيدته في صدرها، ولكنه لمس حاشيتها فقط، وذلك لأنه لم يذكر شخصها في دعائه، بل لفتها في مجموعة النساء وجنسهن، والسامع أدرى بمراد المتكلم.

الأحتمال الثاني – وهو انه حينما قال : « يدعونني » ، لا يصف امرأة العزيز فقط ، ولا يحكي عنها فحسب ، ولا يتكلم عن شخصية هذه المرأة ، وطبيعتهـــا الخاصة بها ، ولا ينعت واحدة مخصوصة ، لأن الأشخاص تفنى وتزول ، وإنما يصف « نوع الإناث » الذي يبقى ويدوم ، يصفه ان هذا شأنه . يصف الحيـاة النفسية لـكل شابة ،ويحكي عن الحالة الغرامية لـكل ذات هوى ، هو يتكلم عن النوع بأن شأنه ما ذكر ، وهو دعوتهن للشبـان ، شنشنة أخذمية ، وعادة كالطبيعة الثانية ، فـكل امرأة لا بد أن يملكها الهوى ، وتؤثر عليها عاطفة الغرام ، نقول « كل » ومرادنا الـكل المجموعي لا الجميعي ، والا فيوجد في هذا النوع أفراد ، هن كملائكة الرحمة ، طهارة وقداسة ، وما من عام ّإلا وخُصّص ، فأرجو من السيدات عدم موآخذتي .

الاحتمال الثالث – وهو ان امرأة العزيز دعته بلفظها المسموع بالآذان ،وأما النسوة المصريات ، فدعونه بسكوتهن على طلبتها . نعم كنّ صامتـات ، ولـكن نفوسهن الصامتة ، كانت تنطق بلسان الحال ، لسانِ الموافقة ، فهو سَمِع نفوسهن الصامتة تتطلب سراً ، ما تطلبه زليخا جهراً ، ولـكن حلّ السكوت محل الـكلام ، « ولسان حالي بالشكاية أنطق » ، « ورب حال أفصح من مقال » . امرأة العزيز نطقت بدعوته صريحاً علناً بمرآى ومسمع من النسوة المصريات ، فلم يَنْهَرْ نَهَـا ، ولم يَلُمنها ، ولم يضللنها ، كما سبق انهن جرين على ذلك في غيبتهـا قبل دعوتهن عندها ،وقبلما يرين يوسف وجماله ، فسكوتهن على كلامها ، يعد موافقة لها ، فصار ذلك من قبيل الاجماع السكوتي ، فلهذا نسب يوسف الدعوة اليهن ، وعندي ان إنكار نسبة الدعوة للجميع ، مع سكوت النسوة على كلام زليخا ، لهو من قبيل الانـكار للاجماع السكوتي ، وإلا فما الفرق ؟ امرأة العزيز تكلمت ورغبت وتوعدت ، والنسوة سمعن هذا المنكر وسكتن عليه وقررنه ، هن لم يؤيدن شرعة

العفاف ، ولم ينكرن الباطل ، فجُعِلن بسكوتهن وإقرارهن مشاركات لها في الدعوة للفحشاء ، وصارت هذه الدعوة مجمعاً عليها إجماعاً سكوتيـاً من هؤلاء النسوة ، جميعاً ، المتكلمة منهن والسامعات .

وعلى هذا المذهب قوله تعالى : ﴿إذ قالوا لَيوسُفُ وأخوهُ أحبُّ الى أبينا مِنّا ونحنُ عُصبة الخ﴾ وظاهران هذا القول لم يصدر من كل فرد من إخوته العشرة ، ولكنه صدر من البعض ، وأقره البعض الآخر ، فنسب لجميعهم ، وكذا نرى الله تعالى نقـل عنهم انهم قالوا : ﴿اقتلوا يُوسفَ أو اطرحوهُ أرضاً﴾ ، ولم يصدر هذا القول إلا من البعض ، قيل إن هذا البعض هو « شمعون » ، قاله وأقره آخرون من إخوته ، ولم يقله جميعهم ، إذ قال يهوذا : « لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب إن كنتم فاعلين » ، وسبق النقل عنهم انهم قالوا : « يا أبانا ما الك لا تأمنا على يوسف »وانهم قالوا : « يا أبانا إنا ذهبنا نستبق » وظاهر ان ذلك لم يصدر عن جميعهم ، وسبق ان « نسوة المدينة » لما رأين يوسف « قلن حاش لله ، ما هذا بشراً » وطبعاً لا بد أن يكون هذا القول إنما صدر من البعض ، لا من الكل ، وهكذا يقال فيما سيأتي من قوله : « قالوا أضغاث احلام الخ .. » وقوله : « سنُراوِدُ عنه أباه ..الخ » وقوله : « قالوا يا أبانا مُنِعَ منّا الكيل ..» الى ما لا نهاية له في كلام الله تعالى من هذا القبيل ، فغنيّ عن البيان ان هذه الأقوال عادة وعرفاً إنما تصدر من البعض ويقرها الباقون ، وبسبب هذا الاقرار ينسب القول للجميع ، لأن السكوت موافقة واعتراف ، فكيف وقد زاد هؤلاء النسوة على المشاركة السكوتية المشاركة الفعلية ، بالحب والغزل ، فلذلك اعتبر يوسف انهن دعونه جميعاً ، فقال « يدعونني » ذاكراً انهن دعونه ، ونسب اليهن كيدهن إياه ، لأنه يجب على من سمع أو راى منكراً أن ينكره وينهى عنه ، فاذا قصر في العظة والإنكار ، كان شريك الفاعل فيما هو بصدده .

الاحتمال الرابع — جرت العادة منذ القديم الى اليوم ان كل عمل وقع من فرد من أفراد «أمة»أن ينسب ذلك العمل الأمة ، وكل فعل صدر من فردمن أفراد «نوع» مثلا أن ينسب ذلك الفعل لكل النوع ، وهكذا ، جرياً على قاعدة التضامن والتكافل ، فما حصل من شخص من بلد نسب ذلك الحاصل لأهل تلك البلد ، وما صدر من انسان من قبيلة ، نسب ذلك الصادر لتلك القبيلة ، وهلم جرا ، وعليه تتخرج آيات كثيرة في كتاب الله تعالى ، وذلك : كقوله تعالى : ﴿ وإذْ قَتَلتُم نَفْساً فادّارأتُم فيها ﴾ (٢ : ٧٢) وقوله تعالى . « وَظَلّلْنا عليكُمُ الغَمامَ ، وأنزلنا عليكُمُ المَنَّ والسَّلوَى ﴾ (٢ : ٥٧) ، وقوله تعالى : ﴿وإذْ قلتم يا موسى لَنْ نَصْبِرَ على طعامٍ واحدٍ ﴾ (٢ : ٦١) . وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اتّخذتُمُ العِجْلَ مِنْ بعدِهِ وأنتم ظالِمونَ ﴾ (٢ : ٥١) ، وقوله تعالى : ﴿ وإذْ قلتم يا موسى ، لَنْ نُؤمِن لَكَ حتى نرى الله جَهْرةً فأخَذَتْكُمُ الصاعقةُ وأنتم تنظُرونَ ، ثم بَعَثْناكُم مِنْ بَعدِ موتِكُم، لعلكم تَشْكُرونَ ﴾ (٢ : ٥٥ و ٥٦)، الى غير ذلك مما لا يحصى كثرة ، مما نسبه ليهود المدينة المنورة، المعاصرين لحضرة صاحب الرسالة (ﷺ) ، مع ان هؤلاء اليهود اليثربيين المعاصرين للنبي (ﷺ) المخاطبين بهذه الخطابات لم يفعلوا شيئاً من ذلك ،وانما الذين فعلوه آباؤهم ونسبة للذرية لأنهم «امة»متكافلة متضامنة ،مرتبط بعضهم ببعض بماهاوما عليها فهؤلاء اليهود في المدينة لما كانوا عرباً أومتعربين، وكانوا يفهمون الأساليب العربية التي نزل بها القرآن الكريم لم ينكروا على النبي(ﷺ)شيئاً مما سمعوه، فههنا لما دعت زليخا يوسف ، نسب الدعاء لعموم هؤلاء النسوة ، اللاتي كن حاضرات إذ ذاك ، والله تعالى أعلم .

ولم تكد السيدة علية النجفية تنتهي من مقالها حتى قامت السيدة لمياء الدمشقية وقالت :

إنني لا أنتقد الاحتمالات الأربع التي جادت بها اختي المحترمة السيدة علية ،بل

أسلم بها تسليماً ، ولكن عندي احتمال خامس ، جرى عليه المفسرون قبلنا ، وذلك انه يظهر من قوله : « رب ، السجن أحب إليّ مما يدعونني اليه ، وإن لا تصرف عني كيدهن ، أصب اليهن » ، ومن قوله : « فصرف عنه كيدهن » ، وقوله : « فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، إن ربي بكيدهن عليم » — يظهر من هذه الأقوال الثلاثة ، ان النسوة المصريات كنّ دعونه لإطاعة مولاته زليخا ، والنزول على إرادتها ، على ما قاله علماء التفسير ، والقرينة على ذلك هذه النسبة في هذه المواضع الثلاثة . ومن المعروف ان المعنى يلتقط من مجموع الجمل ، المتساند بعضها لبعض ، أقول هذا ، راجية من اختي السيدة علية أن لا تؤاخذني ، والعلم مائدة مباركة ، تقتضي المشاركة ، وكلنا يصيب ويخطىء ، ويسرع ويبطىء .

(وإن لا تصرف عني كيدهن ، أصب اليهن ، واكن من الجاهلين)

— ١ —

وقالت الآنسة أميمة الحلبية :

استغاثة يوسف بربه لحمايته من الانعطاف للنسوة

يقول الصديق (م) : ها أنذا ، سادافع عن ديني وشرفي ومروءتي جهد طاقتي إلى آخر نسمة من حياتي ، ولكن واخيبة من اعتمد على قواه ، تاركاً مولاه ، فلذلك أسألك يارب أن تمدني بالتوفيق ،وتصرف عني بألطافك مكر هؤلاء النسوة.

نعم ، إنني لا أبالي بهن ، ولا بجمالهن وزينتهن ، ولا أحسب لهن حساباً ، ولا أقضي لواحدة منهن وطراً ، ولا أشعر بانعطاف نحوهن ، وميل اليهن ، ومع كل هذا ، فلست اعتمد في السلامة من فتنتهن على نفسي ، بل عليك يا رب أعتمد ، وبك أتحصن ، وإليك التجيء ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله .

فلا تتركني لنفسي فواقاً ، ولا لفتة جيد ، بل ولا طرفة عين ، وإنما ساعدني بألطافك الخفية ، وإلا فأنا في خطر من الوقوع في براثن هؤلاء الثعالب .

حل بيني وبين ختلهن ، وأزْوِعني كيدهن ،وإلاّ ذهبت عفتي أدراج الرياح، وقلت قيمتي التاريخية المعنوية ، كما كانت قلت قيمتي الذاتية ، حينما اشتريت في هذه الديار المصرية ..

أنا الآن أسخر من كل القلوب التي تميل مع الهوى ، وأضحك على كل فتى شاب ، يستسلم لفتاة شابة ، ولكني أخشى على قلبي ، إن لم يكن محفوفاً بألطافك الربانية ، وأتخوف على نفسي إن لم تكن محوطة بعصمتك الصمدانية ، وفي الحقيقة أنت عصمتي التي اعتصم بها ، وأنت حماي من غوائل الصبوة وشرورها .

يا رب ، إن لم تدركني بالعفة أتُقْ وأمِلْ نحوهن ، وأنعطف عليهن ، وإن لم تسعفني بحمايتك أفْتَنَ فيهن ، ويُجنّ جنوني بهن ، وإن لم تحفني بالعناية ، أقع في فخوخهن ، وأعلق بشباكهن ، ويصرن عثرة في سبيل طهارتي ونزاهتي ،ويتسلطن على قلبي ، فإنهن الخطر العظيم ، الذي يحيط بالمرء من كل جانب ، فلا يعرف له سبيلاً إلى الخلاص منه إلا بمعونتك ، وهن المغناطيس الجذاب ، الذي يستهوي قلب الناظر إليهن ، وعقله وجميع حواسه ومشاعره ، إلا إذا أدركته مساعدتك ، فاصرف عني ختلهن ، ، وردّه في نحورهن ، وإلا ... أمِل نحوهن ، وأكن من المأفونين ، الذين لا يعملون بما يعلمون ، لأن دائرة الشغف (بالجنس اللطيف) مرنة ، تسع كل من لم يلطف به ربه ، ولم يصرف عنه أسباب الهوى والغرام .

يا رب ، أنا انسان ، لا ملَـك ، حساس ، لا جامـــد ، في شرخ الشباب ، لا هرم ولا شيخ ، مركب من مادة وروح ، لا روحاني فحسب ، قابل للاقتران والتناسل ، لا خصيّ ولا عقيم ، والحاصل أنا بشر كسائر الناس ، وغاية الأمر أني

معصوم ، ولكن هذه العصمة ليست لي، ولكنها بك يا الله ، فاحفظها عليّ ،بلطفك الخفي ، فأنت الحفيظ اللطيف .

فهذا الالتجاء ، وهذه الضراعة ، هو كل ما أملك اليوم ، فاستجب لي يا رب ولا تردني خائباً ، فوالله لوددت أن أكون تراباً ، ولا أسمع من هذه المرأة ماسمعت من كلام الفحشاء والمنكر .

هذا مرمى دعاء يوسف واستغاثته بربه سبحانه وتعالى، دعاه مخلصاً له ،لاجئاً إليه ، بعد أن عمل بما أمر الله به عباده على قدر الطاقة ، وبعد ما استعمل مايصل اليه كسبه من الوسائل والذرائع ، التي هي وسائل الاستجابة في الحقيقة ، فهو في الحقيقة دعا ربه بلسان مقاله ولسان حاله معاً ، قال الشاعر :

ليس الشجاع الذي يحمي فريسته يوم القتال ونار الحرب تشتعل
لكن من غض طرفاً أو ثنى قدماً عن الحرام فذاك الفارس البطل

الدعاء الى الله تضرعاً وخفية

تذييل أول — كأني بيوسف (ع) نطق بدعائه وهو يخفض صوته،احتراماً لمقام الربوبية ،وعملاً بالشرائع السماوية، كما قال تعالى: ﴿ أُدعُوا رَبَّكُم تَضَرُّعاً وخُفْيَةً ، إنَّه لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ ﴾ (٧ : ٥٤) في بعض وجوه التفسير أن المعتدي هو من رفـــع صوته في الدعاء ، وقال ﷺ : « أيها الناسُ اربعوا على أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً بصيراً ، وهومعكم، والذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » .

الجاهلون هم الفاعلون فعل الجهالة

تذييل ثان — « الجاهلين » هنا الفاعلين فعل الجهالة ، لأن من عمل مايؤدي

إلى الضرر في العاقبة ، وهو عالم بذلك ، أو ظان ، فهو من أهل الجهل ، لا من أهل الحكمة والعلم ، ومنه قول الشاعر :

على أنها قالت عشية زرتها : جهلتَ على عمد ولم تك جاهلا

وفي الحديث : « ابن آدم ، أطع ربك تسمى عاقلا ، ولا تعصه ، فتسمى جاهلاً » .

استجابة الدعاء

آ (٣٤) ﴿ فاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ ،فَصَرَفَ عنهُ كَيْدَهُنَّ إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الرابعة والثلاثون فقام الحاج أحمد اللاذقاني وقال :

(ف) لم يكن إلا بمقدار ما صعدت الدعوة إلى السماء كشرر النار ، وخرقت الحجب ، حتى (استجاب له ربه) — وإنما عبر بالاستجابة التي تقتضي تقدم الدعاء عليها لأن قوله : وإن لا تصرف عني كيدهن .. الخ) فيه معنى طلب الصرف والدعاء باللطف – (فصرف عنه كيدهن ، وإنه) سبحانه (هو السميع)لدعوات الملتجئين اليه (العليم) بأحوالهم وما يصلحهم .

وهنا أيها السادة أزمعنا على ترك الكلام المتعلق بهؤلاء النسوة ، وسنأتي على تتمته عند قول يوسف « ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة .. الخ » .

(فاستجاب له ربه .)

— ١ —

وقال المرزا حسين الأصفهاني (١):

أشكال الدعاء

دعا يوسف مولاه ، باستكانة وضراعة ، فصعدت كلمته من قلبه الطاهر ، تتطاير إلى الأجواء العليا ، حتى قرعت صفحة السماء ، فسمعت الملائكة رنينها ، وعرضتها على ربه (وهو أعلم بها) فاستجاب له ربه دعاءه .

والدعاء قد يكون صريحاً ، مثل « اصرف » و « لتصرف » ، وقد يكون بالثناء والمدح ، كما هنا ، لأن قوله : « وإن لا تصرف عني كيدهن ، أصب اليهن وأكن من الجاهلين » ثناء يتضمن الدعاء ، وعلى ذلك قول الفقهاء : « دعاء الثناء ، وهو : « سبحانك اللهمَّ وبحمدِكَ ، وتباركَ اسمُكَ ، وتعالى جَدُّكَ ، ولا إلهَ غيرُكَ » و « دعاء الافتتاح » وهو : « وجَّهتُ وجهِيَ لِلَّذي فَطَرَ السمواتِ والأرضَ ، حنيفاً مسلماً ، وما أنا من المشركين ، إنَّ صلاتي ونُسكِي ومحيايَ ومماتي للهِ ربِ العالمينَ ، لا شريكَ له ، وبذلكَ أُمِرْتُ وأنا مِنَ المسلمين » ، ومنه حديث : « أفضلُ دعاءٍ قلتُه أنا والنبيونَ مِنْ قبْلي ، لا إلهَ إلا اللهُ ، وحدَهُ لا شريكَ له ، له الملكُ ، وله الحمدُ ، يُحيي ويُميتُ ، وهو على كل شيءٍ قديرٌ » ، وسبب تسمية هذا كله ونحوه دعاء ان الثناء على الكريم يحمله على الاحسان . كما قال الشاعر في عبد الله بن جدعان :

(١) نسبة الى بلدة أصفهان من البلاد الايرانية .

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حباؤك إن شيمتك الحبـــآء
إذا أثنى عليك المرء يومـــاً كفاه من تعرضه الثنـــآء

وقال تعالى حكاية عن يونس (ع) : « فنادَى في الظُّلُماتِ : أنْ لا إلهَ إلاّ أنتَ ، سُبحانَكَ إني كنتُ مِنَ الظالمينَ ، فاستَجبنا له ، ونَجّيناهُ مِنَ الغَمّ وكذلكَ نُنجي المؤمنينَ » (٢١: ٨٧و٨٨) وقد سماه النبي ﷺ دعاء ، حيث قال : « من دعا بدعاء يونس استجيب له » ، وفي حديث : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » ، وقال تعالى: ﴿ وأيوبَ إذْ نادَى ربَّهُ :أَنّي مَسَّنيَ الضُرُّ ، وأنتَ أرحَمُ الراحِمينَ ، فاستَجَبْنا لَهُ ،فكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ ،وآتَيْناهُ أهلَهُ ومِثْلَهُمْ مَعَهُمْ .رَحمةً مِنْ عِندِنا وَذِكرَى للعابِدِينَ ﴾ (٢١ : ٨٣و٨٤) .

(فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم) :

— ١ —

وتابع المرزا حسين الأصفهاني قوله :

استجابة دعاء يوسف بصرف كيد النسوة عنه

دعا يوسف ربه ، فما هو إلا أن لفظ آخر كلمة ، حتى استجاب له ربه فوراً ، وفي أسرع ما يكون ، بدون أدنى تأخير ، وسرعان ما يستجيب الله المخلصين من عباده !

فقال الله له : لبيك ، قريباً دعوت ، فصرف عنه كيدهن حسبما طلب ، وحجز بينه وبين حبهن على ما رغب ، وأطفأ الله نارهن التي كن أوقدنها ، لاستمالة هـذا

الصديق الكريم ، فأحس يوسف حينئذ كأنه ألقى عن ظهره حملاً ثقيلاً ، ومن ذلك الحين صار يستهزىء بكل حيلهن ، ولقد قيل : « من يهرب من أمام الحب هو الظافر » .

دعا يوسف ربه ، فأحس بانبساط نفسه ، وارتياح ضميره ، وشعر كأن الأخطار قد زالت عنه ، (وقد ألقى اتكاله على الله) ، ومثل هذه الراحة لا يشعر بها غير أهل الايمان الوطيد ، فان أحدهم إذا أحدقت به مصائب العالم تحملها بالصبر وأذهب آثارها بالدعاء والتوجه إلى الله تعالى ، كما كان نبينا ﷺ إذا حز به أمر قام إلى الصلاة ، كما رواه البخاري في صحيحه .

إلى هنا انتهت حادثة تجربة يوسف ، وخروجه من تلك التجربة ، شريفاً طاهراً ناصع الجبين ، فاطمأن حينئذ وطاب نفساً ، وقال في نفسه : (أحمد الله على ما حفني بلطافه ، فإن ما تَشْرَه اليه نفوس الناس ، لا يساوي شيئاً في جانب روح الأبد وراحته) ، وأخذ بعد ذلك يخدم في البيت كجاري عادته ، لكن مع التحفظ التام من زليخا ؛

كيف صرف الله كيد النسوة عن يوسف مع انه سجن بعد ذلك

ورب سائل يسأل ويقول : كيف يمكن أن ندعن بأن الله تعالى صرف عنه كيدهن ، مع أنه سجن وصار من الصاغرين، كما سيأتي على الأثر ، تحقيقاً لإيعادها له بقولها : « ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين » ؟ فالجواب عنه ان سجنه لم يكن نتيجة انه لم يفعل ما أرادت منه، إذ هي ليس لها دخل في سجنه، كما سيأتي توضيحه وتدليله ، وإنما كان سجنه برأي « العزيز » وآله ، ورأي آل « زليخا » بدون حضورها ولا أخذ رأيها في هذا الشأن ، لأن سجنه كان لأجل إبعاده عنها ، ولأجل إلصاق التهمة به عند الجمهور ، فهم عملوا هذا العمل لأمرين،

كمن رمى حجراً ، فصاد صيدين ، وهذا سيأتي بيانه بما لا مزيد عليه، وأما توعدها له بأن يكون من الصاغرين ، فلم يقع ، لأن العبرة بالخواتيم ، وهو في الخاتمة كان من الكبراء المحترمين ، والأعزاء المعظمين ، ولا أدل على ذلك من كونه صار « عزيزاً لمصر » . بدلاً من فوطيفار ، ووزير ماليتها ، ووكيلاً عن مليكها . الأمر الذي به سقط « فوطيفار » ، فسقطت زوجه « زليخا » بسقوطه .

— مرحى —

الفصل الرابع

يوسف في السجن

آ (٣٥) ﴿ ثُمَّ بَدا لَهُمْ ، مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الآيات ، لَيَسْجُنُنَّهُ حتى حِين ... ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية الخامسة والثلاثون فقام العلامة الصفدي وقال :

(ثم) بعد حين من الزمن ، يظن أن مقداره نحو ثلاث سنين ، أعني لما صار عمر يوسف نحو ٢٨ سنة، تفكروا في هذا الحادث المشؤوم الذي حدث في القصر، وخافوا سوء معرته ، وأن يفهم الجمهور أن المراودة كانت من طرف زليخا ، لا من جانب يوسف ، فأرادوا تغشية الأبصار ، وقلب الحقيقة ، و (بدا) أي ظهر (لهم) أي للعزيز وأهليه وأقارب امرأته وفي مقدمتهم ذلك

الشاهد الذي هو من أهلها ومع الأسف ان ذلك الذي بدا لهم كان(من بعدما رأوا الآيات) وهي الشواهد على براءته ، وما كان ذلك إلا رعاية لمصلحتهم ،وستراً لما حدث من زليخا ، وقلباً للحقيقة (ليسجننه حتى حين)أي سجناً موقتاً روعيت فيه مصلحتهم الشخصية ، بينما يسكت عن زليخا الحب والغرام ، أو لبينما تموت تلك السيرة السيئة ، أو حتى يثبت عند الناس ان الجاني هو يوسف لا غير ، وقد سجن كما أرادوا وأراد لهم ظلمهم واستبدادهم ، لأن السياسة ليس لهـــا قلب ، وليس فيها شيء من الانصاف .

(ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الايات ليسجننه حتى حين)

— ١ —

وقال الشيخ منصور السوداني :

لماذا سجن يوسف

لندع نساء مصر وقصتهن ، ونشرع في الافصاح عن الفكرة الجديـدة التي طرأت « للعزيز » وذويه :

إن المسألة منذ الآن ستنتقل لدور آخر ، وتتطور تطوراً مدهشاً ، لأن « العزيز » قنع قناعة تامة ببراءة يوسف ، وكان هو وقريب زوجته من أنصار هذا « الصديق » الكريم، فكان مقتضى ذلك أن لا تمس كرامته بشيء ،ولعمري إن هذا العمل الجديد من « العزيز » بعد أن اتضحت له الحقيقة لهو منكر جداً ، غير أنه افتكر ان المصلحة تقتضي سجن يوسف ، لكي يقول من سمع بالحادث ، أنه سجن لأن المراودة كانت منه ، ولأن سجن يوسف يفرق بينه وبين زوجته زليخا التي وصل حبها له لدرجة قصوى ،وبهذا يستريح « فوطيفار » فلا تشتغل

أفكاره فيها وفيه ، فلهذين الوجهين أراد العزيز أن يمسك بالحبل من طرفيه ، فأقدم على سجنه .

نعم أيها السادة لم يكد يوسف يتوسم الراحة ، ويحيي الأمل ، بالخلاص من المكاره ، والابتعاد عن حوادث الزمان، حتى بغت بادخاله في السجن ، وكان أمر الله مقدوراً ، ولو شاء ربك ما فعلوه .

خلص يوسف من تهمة امرأة العزيز إياه ،ثم خلص من فتنة النسوة المصريات ودعا ربه أن يمنع عنه كيد النساء فلبى طلبه ، فهو بعد ذلك كان يحسب أنه قد ذللت كل عقبة في سبيل راحته ، ولم يكن يخطر له على بال انه سيدعى يوماً إلى السجن بعد ما تبرأت ساحته ، ولكن الظلم ليس له حدود تعرف ، وأعمال الاستبداد ليس لها غاية تقف عندها ، وما هو إلا أن تلقى تلك المفاجأة المستغربة التي تستفز النفوس بهدوء وسكينة شأن كل عاقل كريم ، أو شأن كل غريب ضعيف بين حكام ظلمة لا يراعون خالقاً ولا ضميراً .

★ ★ ★

سُجن يوسف سجناً إدارياً ، عداءً وزوراً،بحجة أنه الذي تقتضيه مصلحتهم وتستدعيه السياسة ، وكثيراً ما ساقت هذه الفكرة الادارية الأبرياء والأشراف إلى أعماق السجون ، وقضت عليهم بالاعتقال في « الجزر » تارة ، وتحت بطن الأرض أخرى ، كما قضت على يوسف اليوم ، فسجنوه ليبرءوا ساحتهم ،ويظهروا شرفهم ، على حسابه ، وعلى حساب ظلمه والاساءة اليه .

سجن يوسف حينما رآى « العزيز » نفسه كحجر بين مطرقتين ، فهو من جهة يريد أن يتستر ، ويخفي قباحة زوجته بحبسه يوسف ، ليقال انه هو المجرم دونها ، ومن جهة أخرى ، هو ما زال يعتقد في يوسف البراءة الكاملة ، كما يعتقد ذلك

فيه صهره الرجل الذي هو من « أهلها » ولكنه لم يعدم حلاً لهذا المشكل ،فرآى أن يسجن يوسف ، ولكن ليس في سجن العامة،بل في سجن الأمراء والأشراف وليس سجناً مؤبداً ، ولكن سجناً مؤقتاً إلى حين من الزمن ، ثم يعاد إلى القصر أو يفعل الله ما يشاء .

حالة يوسف عند دخوله السجن

كانت حالة يوسف عند دخوله السجن ، مزيجاً من الحزن والفرح ، فأما الحزن فلكونه سجن ظلماً محضاً ، ولأنه سينجم عن سجنه سمعة سيئة ، عند من لم يكن مطلعاً على الحقيقة ، وهم الجمهور من الناس . وأما فرحه ، فلخروجه من بيت « فوطيفار » بيت الفتنة والأتعاب ، إلى بيت العزلة والراحة ، قائلاً في نفسه : « حنانيك بعض الشر أهون من بعض » ، فهو لذلك كان مسروراً (نوعاً) ، لا سيما وان سجنه كان على نوعٍ ما بسبب دعائه وطلبه إذ كان قال: « رب،السجن أحب إلي مما يدعونني اليه »(آ: ٣٣) دخل السجن وهو ساكت صامت ، مع ان سجنه كان بدون إقامة دعوى ، ولا إثبات ريبة ما عليه ، ولكنه ماذا يصنع ، وخصمه حاكمه ؟!

★ ★ ★

قضي الأمر وسُجن يوسف ! وصبر على هذه المصيبة التي نزلت به ظلماً وعدواناً ، صبر مترقباً من الله فرجاً قريباً ، وخلاصاً عاجلاً ، فلا بد من تغير الأحوال ، وان للدهر لدورة ، ولئن سكت الانسان ، فالدهر لا يسكت ، قال الشاعر :

كن حليماً إذا بليت بغيظ وصبوراً إذا أتتك مصيبه
فالليالي من الزمان حبالى كل يوم يلدن كل عجيبه

نتائج سجن يوسف

قُضي الأمر وسُجن يوسف ! ولقد كانوا ظانين له بسجنه ، ولذلك وقعت عاقبة ظلمهم على رؤوسهم ، فأما « العزيز فوطيفار » فانه نُحّي عن منصبه ، بجلوس يوسف الصديق محله ، بدليل ما نقرؤه في هذه السورة الشريفة،من أخذ يوسف لقب « العزيز » بعد ما كان لقباً لفوطيفار ، حتى أنه بعد ما أعطي يوسف «وزارة المالية » بمصر ، لم يرد ذكر لفوطيفار البتة ، بل أميت اسمه تماماً ، وأما « امرأة العزيز زليخا » فانها اضطرت أخيراً للاعتراف صريحاً أمام « مندوب » التحقيق ، فأعلنت أنها هي التي راودته عن نفسه، فكان في ذلك انكشاف سرها ، وانتشاره لدى الجمهور .

★ ★ ★

قضي الأمر وسجن يوسف ! وكان سجنه هذا هو « الحلقة الأخيرة » من سلسلة ما انتابه من خطوب ، ثمن فقد أم رؤوم ، إلى عيشة بين إخوة حسدة ، إلى إلقاء في غيابة جب ، إلى تشريد واسترقاق ، إلى بيع في سوق الرقيق ، إلى خدمة وعبودية ، إلى تلويث عرض بلا حق . إلى غياهب السجن .

ويمكن أن نعتبر أن سجن يوسف هذا هو « الحلقة الأولى » من سلسلة أسباب رقيه لوزارة المال بمصر ، وانه « النواة » التي أنبتت شجرة شهرته بالعلم ، ثم جاءت « بثمرة » رقيه العظيم .

★ ★ ★

قضي الأمر وسجن يوسف ، ولكن كان هذا الاعتقال بحسب النتيجة مفيداً له ، وذلك بسبب تعرفه في معتقله برئيس السقاة الذي أفاده الفائدة العظمى ، والذي كان خروجه من « مطبقه » بسببه ، كما كان بواسطته قد وقف مليك مصر «الريان»

على ترجمة حال يوسف وفضله ، وأنه سجن عدواناً وهذا بخلاف ما لو بقي يوسف في قصر العزيز « فوطيفار » منعماً مرفهاً « فان ذلك لا يفيـده شيئاً ، ولا بقي في القصر ضعف ما لبث في السجن ، ولقد صدق من قال : « رب محنة ، ضمنها منحة ، فعزيز مصر ، وإن يكن باقتصاره على قوله : « يوسف أعرض عن هـذا » بدون أن يبعده عن القصر لقصر آخر — يكون قد أساء ليوسف ، لأنه لم ينحه عن مواقف التعب . كما انه بالعكس بفكرة سجنه إياه يكون قد أحسن اليه ، بحسب العاقبة ، وعليه فهو ما أساء إلا حيث ظن الاحسان ، وما أحسن إلا حيث ظن الاساءة .

(ثم بدا لهم من بعدما رأوا الايات ليسجننه حتى حين)

— ٢ —

وقال السيد عبد المحسن الصيداوي :

لي ههنا ملاحظات تسع :

متى سجن يوسف

الملاحظة الأولى : التعبير بكلمة « ثم » يفيد أنه كان مضى زمن بعـد تلك الحادثة المشئومة ، وكان هذا الزمن ليس بالقصير ، أي بعد ما مضى ما شاء الله أن يمضي من زمن فيه شيء من الطول ، فبدت لهم فكرة الحبس .

مرادفات لفظة « بدا »

الملاحظة الثانية — من مرادفات « بدا » : عرض ، ظهر ، خطر ، لاح ، بان حدث ، عَنّ ، طرأ ؛ فمن التعبير « بثم » ومن هذه المفردات جميعها التي هي مرادفة

« لبدا » نعلم أن فكرة سجنه لم تكن حاصلة على أثر تلك الحوادث ، ولكن بعدما مضى ردح من الزمن ليس باليسير عرض لهم استحسان سجنه .

من هم الذين « بدا لهم » سجن يوسف وهل لامرأة العزيز دخل في ذلك

الملاحظة الثالثة — نتعلم من كلمة « لهم » ان الذين استحسنوا سجنه كانوا جماعة ولعلهم فوطيفار وذووه ، ونظن أن فوطيفار جمع ذوي قرابته وقرابة زوجته وذاكرهم في شأن يوسف وسجنه ، فرأوا جميعاً ان المصلحة تقضي ذلك .

ولسائل أن يسأل : هل لامرأة العزيز دخل في سجن يوسف وانها اشتركت معهم في المؤآمرة ؛ والجواب ان جمهور المفسرين أو جميعهم فهموا أن لها ضلعاً ورأيا في سجنه ، بل هي التي كانت مهيجة وحاملة عليه ، بقرينة قولها سابقاً : « ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين » .

وأما نحن فيظهر لنا أن لا دخل ولا رأي لامرأة العزيز في سجن يوسف ، وأما توعدها إياه سابقاً بالحبس ، فانما هو من قبيل أقوال العشاق ، الذين هم كالشعراء يقولون ما لا يفعلون .

ولكن هذا الرأي حدث جديداً لنفس فوطيفار عزيز مصر ، ومن اليه من ذوي قرباه ، وذوي قربى زوجته ، ولنا على هذا عدة أدلة :

١ً — قوله تعالى « بدا » لأن فكرة سجنه إنما بدأت في ذهن فوطيفار وذويه دون امرأته ، وأما امرأته فان فكرة سجنه لم تكن بدأت جديداً في ذهنها ، بل هي بالنسبة اليها فكرة بعيدة العهد قديمة ، اختلجت في ذهنها مرة ، إذ قالت : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن ، أو عذاب اليم » ، وثانية إذ قالت : « ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين » فهذه كانت فكرة شخصية فردية ترددت في ذهن زليخا قبل الوقت الذي ظهر لهم فيه استحسان سجنه .

٢ً — إن الله تعالى قال : « فصرف عنه كيدهن » ، فحيث أنه أبعد عنه مكر الماكرات ، لاجرم ان امرأة العزيز لادخل لها في سجنه ، بل هي بهذا الصرف السماوي ، تحولت هي وغيرها من مفسدات على يوسف ، لمسعدات له ، ولذلك سيأتي أنهن لم يتكلمن في شأنه إلا بالجميل الطيب ، حيث قلن ، « حاش لله ، ماعلمنا عليه من سوء » وتقول امرأة العزيز ، « الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين » .

٣ً — إن امرأة العزيز بظهور خيانتها سقطت من نفس العزيز ومن اليه ، فكيف فيما بعد يستأمنها ويشاركها في هذا كرة حبس يوسف ، ولاسيما وأن سجنه كان لأغراض منها إبعاده عنها ؟ . .

فيظهر من هذه الأدلة أن ليس لامرأة العزيز ضلع في سجن يوسف ، خلافاً لما ذكره المفسرون .

هذا ، ومع كل ماذكر ، يحتمل أن يكون لزليخا دخل في سجن يوسف ، وأن صرف « كيدهن » عنه إنما هو من جهة ما يمس العرض لامطلقاً .

سجن يوسف كان بعد حادثة دعوة النسوة وخروجه عليهن

الملاحظة الرابعة — نرى أن العزيز وذويه لم « يبد » لهم أن يسجنوا يوسف بعد الحادثة الأولى التي جرت بين يوسف النزيه وزليخا الطموحة ، وذلك لأنها حصلت في دائرة السكون وتحت طيّ الخفاء تقريباً ، وقد « بدا » لهم سجنه في الحادثة الثانية بسبب ماوقع للنسوة ثم لتصميم زليخا بكل شدة على فكرة المراودة — تكراراً — مهما كلف الأمر إذ بعد المفاوضة ظهر لهم أن المصلحة العمياء والسياسة الخرقاء تقتضي سجن يوسف ، فسجنوه ، وعلى العدالة السلام ، و « إن من الحسن لشقوة » .

الاستقلال الاداري لامراء ووكلاء الدولة المصرية في عهد مليكها الريان

الملاحظة الخامسة — يظهر من قرائن الأحوال ، ومن أمثال هذا المقال ، أن الأمراء ووكلاء الدولة في مصر ، في ذلك العهد ، كانوا متمتعين بما يشبه « الاستقلال الإداري » ، فكان كل مأمور في الحكومة يحبس ويطلق ، حسبما تسول له نفسه ، ولذلك حبس يوسف بمجرد إرادة فوطيفار عزيز مصر ، فهو فاه بكلمة « ليسجن » فكان مسجوناً ، بدون علم مليك مصر الريان ، وبلا إقامة دعوى وثبوت جرم .

دعوى امرأة العزيز هي من قبيل دعاوى التهم

الملاحظة السادسة — نعلم أن دعوى امرأة العزيز هي من قبيل دعاوى التهم ، ونعلم أن المدعى عليه في هذا النوع ينقسم الى ثلاثة أقسام ، فان المتهم إما أن يكون « بَرّاً » ليس من أهل أمثال تلك التهمة ، أو « فاجراً » من أهلها ، أو « مجهول الحال » ، لا يعرف الوالي أو الحاكم حاله .

فان كان « بَرّاً » لم تجز عقوبته اتفاقاً ، ولكن بالعكس ان الذي يعاقب هو المُتَّهِم . فيعاقب صيانة لتسلط أهل الشر والعدوان ، على أعراض ذوي البراءة ، وإن كان المتهم معروفاً بالفجور . كالسرقة وقطع الطريق والقتل نحو ذلك ، حُبِسَ ، وكذلك اذا كان المتهم مجهول الحال ، لا يعرف ببر ولا فجور ، فانه يحبس حتى ينكشف حاله ، ويتبين للحاكم أمره[1]

وغني عن البيان أن المدعى عليه هنا وهو يوسف هو من القسم الأول ، أي أهل « البر » الذين لم يعرف لهم عدوان ، فقد مكث في بيت العزيز نحو العقد من

(١) ملخصاً من الطرق الحكيمة .

السنين لم يجترم فيها جريمة قط ، ولم يتهم بخيانة ، فيكون حبسهم اياه — على حسب هذه الشريعة — ظلماً محضاً ، وكان يجب اجراء العكس ، وهو حبس تلك المرأة التي اتهمته زوراً تأديباً لها ولأمثالها الشريرات أن يجسرن على أهل الفضل والدين، ولكن العزيز وما اليه اعتبروا يوسف من القسم الثالث وهو من كان « مجهول الحال » فسجنوه .

بعض الانبياء والصلحاء الذين سجنوا

الملاحظة السابعة — هذا السجن الذي صار على يوسف يذكرنا بسجن « يحيى الحصور » (ع) لأن سجن يوسف كان بسبب رفضه الزنا ، وكذلك كان سجن « يحيى » بسبب اعتراضه على « هيرودس » لأنه لم يترك خطية الزنا مع « هيروديا » ، ويذكرنا بحبس « أبي حنيفـة » أيام « المنصور » وحبس « الامام أحمد » أيام « المعتصم والواثق » وبحبس شيخنا « الشيخ عليش » وشيخنا « الشيخ حسن العدوي » في الحادثة العرابية .. و الخ والخ

تحسر يوسف وهو في السجن

الملاحظة الثامنة — كأني بيوسف للسجن أمسى يقول : أوْهِ . أوْهِ . أوْهِ ! اليوم يشاع عني مالا ينبغي ذكره ، ولا يليق بسمعتي ، فإنا لله ، كانت إخوتي تريد القضاء على « حياتي الجسمانية » والآن وقعت فيما ربما يقضي على « حياتي الأدبيـــة والأخلاقية » ، فما من يوم يمضي الا والذي بعده شرٌّ منه ، سلمت من الرماد فوقعت في ذات الجمر ، فان موت الجسوم ، أهون جداً من موت الشرف .

أوْهِ . أوْهِ . أوْهِ ؟ إخوتي في بُلَهْنِية وترف عند أبيهم ، وأنا أتنقل من جب ، لبلاد غريبة ، لسوق بيع الرقيق ، لبيت الخدمـة والاستعباد ، وأخيراً لأعماق السجون !!! ...

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله　　　وأخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ

مكان سجن يوسف

الملاحظة التاسعة — قيل كان سجنه في « بوصير » من أرض مصر ، وأعمال « الجيزة » في أول « الصعيد » من ناحية مصر[١] وأما العاصمة في ذلك العصر ، فهي « صوعن » ويقال لها « تانيس » وهي في بحرية مصر الحالية ، وكانت على فرع النيل الطائي ، والى شرقها البلاد الشرقية ، بلاد « جاسان » .

السجن في زمن النبي والصحابة

الملاحظة العاشرة — على ذكر « السجن » — والشيء بالشيء يذكر — نتذكر أنه لم يكن الحبس في زمن النبي ﷺ هو الحبس في مكان ضيق مجعول لذلك خصيصاً ، كما هو الحال اليوم ، وإنما هو تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه ، سواء أكان في بيت أو مسجد ، أو كان بتوكل الخصم أو وكيله عليه وملازمته إياه ، ولهذا سماه النبي ﷺ « أسيراً » أو باقامة حافظ عليه ، وهو الذي يسمى « الترسيم » ، وهكذا كان الحال في زمن ابي بكر (رض) فلم يكن له محبس معد لحبس الخصوم ، ولكن لما انتشرت الرعية في زمن عمر بن الخطاب (رض) ابتاع بمكة داراً ، وجعلها سجناً يحبس فيها ، وهي دار صفوان بن أمية ، اشتراها عمر بأربعة آلاف درهم وجعلها حبساً[٢] ، وقد اتخذ معاوية بن أبي سفيان السجن سنة (٥٠) هـ ، وأما سجن يوسف . فاسمه في العبرانية « السُّهَر » ومعنى هذه الكلمة برج مستدير كان يسجن فيه ، وكان جزءاً من « الثكنة » التي كان فيها

(١) معجم البلدان .
(٢) ابن القيم

« فوطيفار » بالنظر الى كونه « رئيس الشرط » ، هذا مافتح الله به على عبده الحقير ، وفوق كل ذي بصارة بصير . مرحى

ثم بدا لهم ، من بعد ما رأوا الآيات ، ليسجننه حتى حين

— ٣ —

قال العلامة البيروتي :

ما هي الآيات التي أدت الى سجن يوسف

رب سائل يسأل ماهي هذه الآيات التي رأوها ؟ وكيف رأوها ؟ فنقول انهم رأوا بعضها رأي العين وبعضها رأي الأذن وبعضها رأي العقل والتجربة ، فمما رأوه رأي العين كون القميص قدّ من دبر ، ومما رأوه رأي الأذن اعترافها أمام النسوة يوم أن دعتهن بانها هي التي راودته عن نفسه فاستعصم ، ومما رأوه ، رأي العقل والتجربة هو ماجربوه على يوسف من حسن السلوك وكرم الاخلاق والأمانة في العمل ، حينما كان في القصر وكيلاً عن العزيز في وارداته ، ومصروفاته ، فهذه ثلاث آيات ، والآية الرابعة انها لم تدافع حين قال « الشاهد » : « وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين » بان تقول مثلاً : « هذا لا يدل دلالة قطعية على كذبي وصدقه ، وعلى أني كنت تابعة له من ورائه ، لاحتمال أنه عثر في مقادم قميصه حين إسراعه فانقد » أو تقول : « إنه قصدني وطلبني فغضبت عليه ، فهرب ، فعدوت خلفه وجذبته لكي أضربه ضرباً موجعاً ، فتمزق قميصه من دبر ، فأنا البريئة وهو المجرم » ، فلما لم تقل ذلك ، تبين أنها هي الطالبة للفحشاء .

والآية الخامسة سكوتها حينما سمعت قول العزيز : « إنه من كيدكن ، إن كيدكن عظيم » وقوله : « استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين » ، فسكوتها

وعدم دفاعها عن نفسها حينما سمعت هذا القول هو آية باهرة على براءة يوسف كما قيل « السكوت إقرار » .

والآية السادسة هي ما كان يلوح على وجه امرأة العزيز نحو يوسف من الحب في بحر هذه المدة ، ثم ما كان يلوح على وجه يوسف نحوهـــا من العفة ، قال « لاروشفوكو » : « ليس شيء يستر الحب حيث يكون ، ولا شيء يظهره حيث لا يكون » .

والآية السابعة : قوة شكيمتها بقولها : « ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم » ، فقد قالوا : « إن للمبطل صولة وللكاذب دولة » وفي الحديث : من آيات المنافق : « وإذا خاصم فجر » . فهي صالت بهذا القول وفجرت ، ولكن يوسف اقتصر على مجرد قوله : « هي راودتني عن نفسي » ، فتلك الاستطالة وتزويق الطمن مع هذه المدافعة البسيطة الموجزة لهي من الآيات الـتي تميز المحق من المبطل .

الآية الثامنة : شكل عيونها وهيئتها وقت التكلم ، على حد ما قال عبد الله بن المعتز :

تفقّدْ مساقط لحـــظ المريب   فان العيون وجوه القلوب
وطالـــعْ بوادره في الكلام   فانك تجـني ثمـــار الغُيوب

وقول مجنون ليلى :

وكيف يفوت هذا الناسَ شيء   ومافي النـاس تظهره العيون

وكثيراً ما كشفت العينان ماحاول صاحبها ستره من الأسرار النفسية ، والقضاة اليوم يستعينون بها على كشف الجرائم وقد قيل : « قلب الانسان في عينيه ، فما عليك إلا أن ترى وتقرأ » وقال بعض الحكماء ، « متى كلمتك المرأة ، فاسمع ماتقوله عيناها » .

حكي أنه تقدم للقاضي أياس بن معاوية أربع نسوة ، فقال أياس « أما إحداهن فحامل ، والأخرى مرضع ، والأخرى ثيب ، والأخرى بكر » فنظروا فوجدوا الأمر كما قال ، قالوا : كيف عرفت ؟ — قال : « أما الحامل فكانت تكلمني وترفع ثوبها عن بطنها ، فعلمت أنها حامل ، وأما المرضع فكانت تضرب ثدييها ، فعلمت أنها مرضع ، وأما الثيب ، فكانت تكلمني وعينها في عيني ، فعلمت أنها ثيب وأما البكر ، فكانت تكلمني وعينها في الأرض ، فعلمت أنها بكر » (١) .

الآية التاسعة : اصفرار وجهها دون احمراره كما حكاه بعض المؤرخين ، ومعنى هذا أن المرأة اذا خافت اصفر وجهها ، وهذا يكون حينما تكون مقهورة ، وإذا لم يكن لها دخل فيما يستحى منه خجلت وهذا فيما اذا لم تكن مقهورة .

الآية العاشرة : حالتها النفسية ، ولا ريب أن الناس يتفاهمون ببواطنهم أكثر مما يتفاهمون بظواهرهم وإن لاح لنا أن الأمر خلاف ذلك ، لطول عهدنا باستخدام اللغة في الإعراب عن مرادنا ، فما اللسان إلا الموضح والمفسر لما عساه أن يبهم على السامع من مجمل سر المتكلم ومما قد تحتويه أفكاره ، ولا يمكن أن تعبر عنه تمام التعبير ألفاظه ، والحاذق لايعول فيما يراه من رضى صاحبه أو غضبه ، ومن صدقه أو مكره ، ومن أمانته أو خيانته ـ على شيء غير مايتفرس في أسارير وجهه وغمزات طرفه وحركات أعضائه .

فجملة الآيات هذه ، على حسب مافهمناه واستخرجناه ، عشرة ، ولهذا أتى بصيغة الجمع فقال : « من بعد مارأوا الآيات » .

ذلك أن تقول إنها آية واحدة فقط ، هي آية القميص ، وإنما جمعها على طريقة

(١) الطرق الحكمية

العرب وسنتهم من الإتيان بالجمع مراداً به الواحد ، كما تقدم مبسوطاً ممثلاً موضحاً في خطاب أختنا السيدة علية النجفية حفظها الله،في خطابها على قوله تعالى «يدعونني اليه » فانظره إن شئت .

فالقوم من بعد ما رأوا تلك الآيات ، ومن بعد ما تبين لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، واتضحت لهم براءة يوسف تماماً ، وارتاح ضميرهم من هذا القبيل — من بعد ذلك كله سجنوه ، ظلماً وعدواناً ،فصدق عليهم أنهم صرعوا البرهان بالسلطان ، وصادموا الحق بالقوة ، وقابلوا الآيات النيرات ، بالسجن في أعماق الظلمات ، كان هذا كله وهم يعلمون أنهم ظالمون معتدون ، ولكن هل تظنهم بعد ذلك أصغوا لنداء ضميرهم؟.. كلا ..فانهم لو صغوا لما ثابروا على اعتقاله ساعة واحدة. على أنك لو سبرت غور قلوبهم لرأيتهم يناجون أنفسهم بشبهة أنهم عمدوا إلى ذلك، ليقال ان المراودة كانت منه لا منها ، ولإخماد ثورة الحب بالتفريق بين المحب والمحبوب يناجون أنفسهم بذلك ، ليدفعوا تبكيت ضمائرهم فهذا الاعتقال هو أشبه بما يسمونه اليوم « اعتقالاً إدارياً سياسياً » يرتكز على القوة ، لا على الحق .

وهم لم ينووا أن يسجن مؤبداً ، ولكن « حتى حين » أي الى زمان انقطاع القالة ، أو إلى أن تزول حرارة الحب ودواعيه ، أو إلى مدة يرون فيها رأيهم ، أو إلى مدة يفعل الله فيها ما يشاء ، وعلى كل فليس هذا من قبيل ما يسمونه اليوم « التوقيف المؤقت » الذي يكون عند ما يكون الحاكم مشغولاً عن تعجيل الفصل بين المتخاصمين ، أو يكون عنده حكومات سابقة ، فيسجن المتهم من حين يُطلب إلى أن يفصل بينه وبين خصمه ، ولكن هو كان للأسباب أو لبعض الأسباب التي قدمناها ، والله تعالى أعلم .

سجن الفتيين ورؤياهما

آ (٣٦) ﴿ ودَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ ، قالَ أحَدُهُما : إنِّي أرَانِي أعْصِرُ خَمْراً ، وقالَ الآخَرُ : إنِّي أرانِي أحْمِلُ فوقَ رأسي خُبْزاً تأكُلُ الطيرُ منهُ ، نَبِّئْنَا بتأْويلِهِ ، إنَّا نَراكَ مِنَ المُحْسِنِينَ . ﴾

افتتحت الجلسة وتليت الآية السادسة والثلاثون فقام السيد الطنطاوي [١] وقال :

لقد تقدم أنهم سجنوا يوسف (و) صادف أنه (دخل معه السجن فتيان) عبدان الملك الريان مستخدمان عنده ، وهما رئيس السقاة « نبو » ورئيس الخبازين « ملحب [٢] » ترقى اليه أنهما يسمانه أو أنهما دخلا في المؤآمرة على خلعه ، فحبسا ساعة حبس يوسف عليه السلام ، ثم بعد زمن رأى كل منهما رؤيا ، فأرادا أن يقصا ما رأيا على يوسف ف (قال أحدهما) وهو (نبو) رئيس السقاة ، بلسان المستفهم المستفتي (إني أراني) في المنام (أعصر خمراً) أي عنباً ، تسمية للعنب بما يؤول اليه — وقال الزجاج وابن الأنباري : « العرب تسمي الشيء باسم ما يؤول اليه إذا وضح المعنى ولم يلتبس ، يقولون فلان يطبخ الآجر ويطبخ الدبس » وإنما يطبخ اللَّبِنَ والعصير ، وقال قوم إن بعض العرب يسمون العنب خمراً ، لقي بعضهم أعرابياً معه عنب ، فقال له : « ما معك ، قال خمر » ، وفي قراءة عبد الله :

(١) نسبة الى طنطا من البلاد المصرية .
(٢) وفي رواية يسمى « مجلث » .

« إني رأيتُني أعصر عنباً » — (وقال) الفتى (الآخر) وهو « ملحب » رئيس الخبازين (إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منـــه) ، فرجاءً واطفاً (نبئنا بتأويله)، أي بعاقبة ما قصصناه عليك (إنا نراك من المحسنين)الذين يحسنون عبارة الرؤيا ، أي يجيدونهـــا ، كأنهما رأياه يقص عليه بعض أهل السجن رؤياه فيؤولها له ، فقالا له ذلك ، أو رأياه من العلماء ، لأنهما سمعاه يذكر للناس ما علما به أنه عالم ، أو رأياه من المحسنين لأهل السجن ، فقالا له أحسن إلينا بأن تفرج عنا الغمة بتأويل ما رأيناه إن كانت لك يد في تأويل الرؤيا .

وقد قيل كان يوسف يُطرفهم في السجن بالحكايات النادرة المثال ، ويشنف آذانهم بالعظات ، وإن أصاب بعضهم انحراف صحي عالجـــه ، فكان عوناً لهم في السجن على المصائب ، ومجناً يدفعون به أحزانهم ، وبالجملة كان يحتفي بالمسجونين ، احتفاء يليق بهم ، ويخفف من وطأة سجنهم ، وشدة عنائهم .

إن وجوده في السجن وكدره من الحيف والظلم الذي وقع عليه ، لم يمنعه من اكتساب جميل الذكر ، ولا قطعه عن اغتنام جليل الشكر ، ولا حال بينه وبين استعمال الاحسان إلى أهل السجن ، لا سيما هذان الفتيان اللذان عهد إليه بهما .

وهاتان الرؤيان هما من قبيل الرؤى الصادقة المعتبرة التي لها تأويل ، لأن الرؤيا الصادقة المعتبرة لا تتوقف على دين، بل تقع لمن يكون وثنياً وجاحداً وفاسقاً، ولذلك اعتبرها يوسف وأولها لهما .

(ودخل معه السجن فتيان)

— ١ —

قال الامام الدمشقي :

من هما الفتيان السجينان مع يوسف وما سبب سجنهما

كان « عزيز مصر » صمم على سجن يوسف ، ولكنه — مع ما في الحكومة من الاستبداد والفوضى — كان يتخوف من الملك « الريان » أن يسأله عن سبب سجنه إياه ، فاتفق أن الملك أصدر إرادته بسجن شخصين من مستخدميه أحدهما ساقيه وصاحب شرابه واسمه « نبو » ويقال له « رئيس السقاة » والآخر خبازه وصاحب طعامه واسمه « ملحب » ويقال له « رئيس الخبازين » ، فانتهز « العزيز » الفرصة ، وحبس يوسف معهما ، وأقامه عندهما ليخدمهما ، وليقوم بمصالحهما في السجن ، فقام بما أسند اليه أحسن قيام ، وعمل كل ما نيط به على أتم الوجوه .

والسبب في سجن الفتيين ، الساقي والخباز ، هو أنه يظن أن زمن الملك « الريان » الذي هو من الهكسوس ، كان زمن اضطراب وضعف في السلالة الخامسة عشرة ، ويظن أن « الملك الريان » كان هو الأخير أو قبل الأخير منها ، وأنه كان حصل تواطؤ بين بعض أشراف مصر الوطنيين ، وبين هذين الفتيين ، لأجل نقل الملك من الغرباء إلى الوطنيين ، أو أن التواطؤ كان حصل بين السلالة السادسة عشرة من الهكسوس وبين هذين الفتيين ، لأجل نقل الملك من فخذ إلى آخر ، أي من السلالة الخامسة عشرة إلى السلالة السادسة عشرة .

وقيل ان « نبو » رئيس السقاة ، اتهم بدس السم في شراب الملك ، وان « ملحب » رئيس الخبازين ، اتهم بدس السم في خبزه ، لذا أمر بسجنهما .

وههنا بدا لي الملحوظتان التاليتان في هذا الصدد :

غاية عزيز مصر من سجنه يوسف مع الفتيين

الملحوظة الأولى — كأني بعزيز مصر رمى حجراً فصاد طيرين ، قصد بسجن يوسف أن يظهر للناس انه سجنه تأديباً له ، لأن المراودة كانت من جانبه لا غير ، كما قصد أن يقوم في السجن بخدمة رئيس السقاة ورئيس الخبازين ، لأنهما وطنيان وعزيز مصر وطني أيضاً ، وهو إذا سئل من قبل الملك « الريان » عن ذلك لا يعدم جواباً مرضياً أن يقول له إنني أرسلته للسجن لأجل أن يكون عيناً على هذين الرجلين اللذين هما ضد الملك .

كما أنه أرسل سهماً فأصاب صيدين ، حينما أمر يوسف بخدمتهما في الحبس ، لأنه قصد إذلال يوسف ، وقصد إكرام الفتيين ، لأنهما مثله وطنيان ، ولما ذكر كله كان دخول يوسف في المعتقل في الساعة التي دخله فيها هذان الرئيسان ، من بطانة الملك وحاشيته .

« الفتى » « والرب » في اصطلاح المصريين أيام يوسف وحكمه في الشرع الإسلامي

الملحوظة الثانية — نعلم من قوله : « ودخل معه السجن فتيان » ومما سيأتي من قوله : « أما أحدكما فيسقي ربه خمراً » ان اصطلاح المصريين الذي كان أيام يوسف ، وجرى هو عليه — هو انهم كانوا يطلقون كلمة « فتى » على المستخدم في الحكومة كما تطلق على « العبد » كأن المستخدم في نظر الملك عبد من عبيده ، وأنهم كانوا يطلقون كلمة « رب » على « الملك » كما تطلق على « المالك » ، كأن

الملك في نظر الرعية بمنزلة « الرب » أو هو الرب بمعنى المالك أو المربي لرعيته بنعمه وحدوده .

هذا هو عرف المصريين القدماء في عصر يوسف أما تسميتهم المستخدم في الحكومة أو تسميتهم العبد « فتى » فهو أدب حسن، أقره الشرع الاسلامي وحسنه، وأما تسميتهم الملك أو المالك « رباً » فنهى عنه الإسلام في آخر الأمر ، وأرشدنا أن نسمي الملك كالمالك « سيداً » .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة : « لا يقولنّ أحدكم : عبدي ، فكلكم عبيد الله ، ولكن ليقل : فتاي ؛ ولا يقل العبد ربي ولكن ليقل سيدي» وفيه أيضاً من حديث أبي هريرة : « لا يقل أحدكم اسق ربك ، أطعم ربك ، وضىء ربك ، ولا يقل أحدكم ربي ، وليقل سيدي ومولاي ، ولا يقل أحدكم : عبدي ، أمتي ، وليقل : فتاي ، غلامي » .

(قال احدهما : إني أراني أعصر خمراً، وقال الآخر: إني أراني أحمل ... الخ)

— ١ —

وقال الاستاذ السامراني (١) :

رؤيا الفتيين

بعد ما دخل يوسف السجن مع الفتيين ، لم يلبث الفتيان أن رأى كل منهما حلماً في ليلة واحدة ، فدخل يوسف اليهما في الصباح على جاري عادته ، لأنه كان يخدمهما بأمر سيده فوطيفار ، فاذا هما مغتمان ، فسألهما: ما بالهما ،ولماذا وجهاهما مكمدان ؟ — فقالا له : « حلمنا حلماً وليس من يعبره » ، قالا ذلك ، لأنه كان في

(١) نسبة الى سامراء من بلاد العراق .

ذلك العصر رجال ، يعلمون تفسير الأحلام ، ويتخذون ذلك عملاً خاصاً ، وكانوا يسمون سحرة وحكماء ، ولم يكن أحد منهم في السجن ، ليفسر لهما حلميهما ، ولكن يوسف نفى حصر القدرة على تفسير الأحلام في أشخاص مخصوصين ، وأثبت أن ذلك فضل الله يهبه لمن يشاء ، من أهل الذكاء وأصحاب القياس ، فقال لهما : أليست التعابير لله ؟ ، قصّا عليّ ما رأيتما — فقص رئيس السقاة « نبو » حلمه على يوسف وقال له : « بأبي أنت وأمي ، نمت الليلة ، فشعرت براحة وسرور ، وهدوء في نومي ، ورأيت أمامي كرمة ، وفي الكرمة ثلاثة أغصان ، وهي مفرخة ، قد طلع زهرها ، وأنضجت عنا قيدها عنباً ، وكانت كأس الملك الريان في يدي ، فأخذت العنب ، وعصرته في كأس الملك ، وسلمته الكأس في يده ، فأفدني تأويله أمتع الله بك ، وخلاك ذم ».

ثم قص رئيس الخبازين « ملحب » حُلمه قائلاً : « نمت الليلة فشعرت بقلق واضطراب وتشتت فكر ، ولم أذق في ليلتي رقاداً هنيئاً ، وبينما كنت نائماً ، رأيتني أحمل على رأسي ثلاثة سلال مملوءة خبزاً حَوّاري ، وفي السل الأعلى أنواع من الخبز مما يصنع للملك الريان ، والطيور تأكله من السل عن رأسي » .

هذا منام الساقي والخباز وهذا كلامهما ، ثم قال أحدهما ليوسف « هذا ما رأيناه قصصناه على سمعك ، فما قولك ؟ فمن فضلك نبئنا تأويل ما رأيناه حتى يتبين لنا الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، نرجوك أخبرنا بسريرته ، وعرفنا بما يصير اليه حُلمنا ، فقد غمت علينا حاله ، واستغلق مآله ، أرح نفوسنا بتفسيره ، وأفتنا بعبارته ، هذا وقت الحاجة اليك ، وإنا نقرأ آية الاحسان على وجهك ، فانك لا تخذل من قصدك ، وتعلم ما لا يعلمه غيرك ، وتسخو بعلمك ولا تبخل به ، فأضف منتك هذه الى سائر مننك وصل نعمتك علينا بنظائرها من نعمك » .

وههنا أبحاث مهمة :

ملوك مصر الاقدمين والخمر

(١) يظهر ان ملوك مصر الأقدمين ؛ ما كانوا يشترون الخمر التي يشربونها من الأسواق أو الحانات ، بل كانوا يتخذون خدماً أخصائيين لعملها خصيصاً لهم ، ويرى علماء الآثار في جدران قبور المصريين صور رجال يقطفون العنب ويفرطون من العناقيد حبه ، ويجملون العصير في دنان من فخار يضعونها في المخازن.

أقوال في الخمر ومضارها

(٢) قالوا : « الخمر كالمرابي ، تأخذ من العقل أكثر مما تعطي » ، ولما خرج عبد الرحمن الداخل من البحر أول قدومه الى الاندلس ، أتوه بخمر ، فقال : « اني محتاج لما يزيد في عقلي ، لا لما ينقصه » ، وكان العباس بن علي المنصور يأخذ الكأس بيده ثم يقول : « ها ، أما المال فتبلعين ، وأما المروءة فتخلعين ، واما الدين فتفسدين » ، وسقى قوم أعرابية مسكراً ، فقالت : « أيشرب نساؤكم مثل هذا ؟ » قالوا : « نعم » قالت : « فما يدري أحدكم من أبوه » ... وقيل لعدي ابن حاتم : « ألا تشرب الخمر ؟ » — فقال : « لا أشرب ما يشرب عقلي » ، وترك رجل النبيذ ، فقيل له : « لم تركته ، وهو رسول السرور الى القلب ! » ـ فقال : « ولكنه بئس الرسول ، يبعث الى الجوف ، فيذهب الى الرأس » ، وقيل للعباس ابن مرداس : « ألا تشرب الخمر ؟ » — فقال : « لا أرضى أن أصبح سيد القوم ، وأمسي سفيههم » .

هذا قطرة من بحر ، ودرة من عقد نحر ، مما أثر في الخمر عن عقلاء العرب وغيرهم .

وأما الأطباء فقد اتفقوا على أن الخمر تضر بأجهزة الجسم المختلفة ، إذ تضعف

المعدة وتحدث فيها الالتهاب والتقرح والسرطان ، كما أنها تضر بالكبد فتحدث فيها ضخامة أو ضموراً وتلفاً وتوقفاً عن العمل ، وتضر بالرئتين فينجم منها السُلال ، وقد قالوا في ذلك : الغول [1] يؤدي الى فراش السل » ، كما أنهـا تؤذي القلب وعروق الدم فتحدث فيها أمراضاً شتى تودي بصاحبها الى الهلاك البطيء أو السريع وتضر بالكلى وينشأ عنها أمراض مدنفة شتى » وتؤذي الخصيين بحصول الضمور وقلة أو فقد الحيوينات المنوية في النطفة ، كما انها تحدث في الجلد حكاك وأكال ودمامل وبثور وغيرها من الامراض الجلدية ،وأخيراً تضر بالمخ والمخيخ والنخاع الشوكي والأعصاب ويتجلى ذلك بالصداع والأرق والرجفة في الرأس واليدين وركاكة اللسان والتلعثم وفقد الذاكرة ونقص المحاكمة والتمييز ، ثم يصبح الشخص مستعداً للاصابة بداء الصرع والهزيان والعته الباكر وتتغير طباعه فيغدو أنانياً ، مهملاً لواجباته ميالاً لمعاشرة الأدنياء والسفهاء ، قليل التحسس بصفات الشرف والمروءة .

الخمر عند الامم الغربية وفي كتب الدين المسيحي وفي القرآن والحديث

(٣) وأما عند الأمم الغربية ، فقد انشئت في أنحاء العالم المتمدين جمعيات متعددة ، لتحريم الشراب ، وأخذ الشاربين بالعقوبة ، تفادياً من المضار التي تنجم عن الغول ، وما يجلبه قانون الوراثة ، من خروج نسل ضعيف ، والجنون والسل الرئوي وزيادة معدل الجرائم ،

حقاً إن من آيات العبرة ، ومن الرجوع الى دين الاسلام أن الأفرنج الذين يستبيحون شرب الخمر ديناً ، ويستحسنونه أدباً ومدنية ، ويصنعون منه أنواعاً

(١) ويسميه البعض بالكحول وهو الشراب المسكر .

كثيرة ، يربحون منها ألوف الألوف من الدنانير في كل عام — قد ألفوا جمعيات للنهي عن الخمور ، والسعي لابطالها .

ومن آيات العبرة فيها ان العرب كانوا في الجاهلية يعدون من منافع الخمر الحماسة في الحرب ، وقوة الاقدام فيها ، ولكن ثبت عن الطب أن السكر يضعف الجنود عن القيام بأعباء الحرب ، واحتمال أثقالها ، فقررت بعض الدول إبطال الخمور الوطنية ، الشديدة الرواج في بلادها ، مدة الحرب ، مع ان أكثر انتفاعها المالى منها ، قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا في الآفاقِ وفي أنْفُسِهِمْ حتى يَتَبَيَّنَ لهم أنه الحقُّ ﴾ (٤١ : ٥٣) ومع هـذا كله لا يزال بعض المسلمين (جغرافياً) يتململون من تحريم الاسلام للخمر !!!

ومن إحدى العجائب أن كتب المسيحيين الدينية تقول : إن أولمعجزة جرت على يد المسيح (ع) حدثت في قرية « قانا الجليل » ، وهي تحويله الماءخمراً ، وذلك ان المسيح (ع) دُعِيَ هو ووالدته وإخوته وتلاميذه لعرس في «قاناالجليل» وهي قرية على بعد نحو ساعتين على الماشي من بلدة « الناصرة » ، لجهة الشمال الشرقي عنها ، فذهب وجلس مع الناس ، وصار أهـل العرس يصبون للمدعوين خمراً ، وكان ان الخمر التي عندهم فرغت ، قبل أن يشرب كثير من المدعوين ، فوقع أهل العرس في حيرة وخجالة من الناس . فقالت له أمّه : « ليس لهم خمر » ، وكان في دار أهـل العرس ستة أجران حجر ، يسع كل منها نحو ثمان جرار ماء اعتيادية ، فأمر المسيح الخدام أن يملأوا هذه الاجران ماء ، فملأوها حسب أمره الى فوق ، ثم أمر أن يستقوا منهـا ويقدموا لرئيس المتكأ فامتثلوا ، ولما ذاقها الرئيس ، شهد للجودة الممتازة في هذه الخمرة المقدسة ، وأدّى شهادته جهاراً بعدأن نادى العريس وشكره ، لتقديمه خمراً أجود مما شربوا أولاً ؛

وقد نهى نبينا عنها ، إذ ورد عن عقبة بن الحارث انه قال : « جيء بالنعمان أو

ابن النعمان شارباً ، فأمر رسول الله (ﷺ) من كان في البيت أن يضربوا ، قال : فكنت انا فيمن ضربه ، فضربناه بالنعال والجريد » رواه البخاري ، وفيه : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهومؤمن ، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس اليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن » ، وفيـــه : « كل مسكر حرام » ، وروى الحاكم من حديث ابن عباس : « اجتنبوا الخمر ، فانها مفتاح كل شر » .

وقـــد نهى القرآن عن الخمر ، لأن العرب كانوا في الجاهلية وصدر الاسلام يشربونها ، فنزل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ ، وأنتم سُكارىٰ حتى تَعْلَمُوا ما تقولونَ ﴾ (٤ : ٤٢) فحرمها بذلك في الأوقات القريبة من وقت الصلاة ، لأنه نهى عنـه قرب الصلاة في حال السكر . فلم يبق للمصر على شربها إلا الاغتباق بعد صلاة العشاء ، وكذا الصبوح من بعد صلاة الفجر ، لمن لا عمل له ، ولا يخشى أن يمتد سكره الى وقت الظهر ، ثم نزل قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلونَكَ عن الخمرِ والمَيْسِرِ قُلْ فيهما إثمٌ كبيرٌ ، ومنافعُ للناسِ ، وإثْمُهُما أكبرُ مِنْ نَفْعِهِما ﴾ (٢ : ٢١٩) ، فشربهـا قوم لقوله : ﴿ منافعُ للناسِ ﴾ ، وتركها آخرون لقوله : ﴿ إثمٌ كبيرٌ ﴾ ، ثم نزل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذينَ آمنوا ، إنَّما الخمرُ والمَيْسِرُ والأنصابُ والأزلامُ رِجسٌ مِنْ عَمَلِ الشيطانِ ، فاجْتَنِبُوهُ لعلكم تُفلِحونَ ، إنَّما يُريدُ الشيطانُ أنْ يُوقِعَ بينكم العـــداوةَ والبَغْضاءَ في الخمرِ والميسرِ ، ويَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وعن الصلاةِ ، فهلْ أنتم مُنْتَهُونَ ؟ ، وأطيعُوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ واحْذَرُوا ، فإن تَوَلَّيْتُمْ فإنَّما على رسولِنا البلاغُ المُبِينُ ﴾ (٥ : ٩٣ — ٩٥) نزلت هذه الآيات ، فقال عمر (رض) : « أقُرِنَتِ بالميسر والأنصاب والأزلام ؟ بعداً

لك وسُحقاً » ، فتركها الناس جميعاً ، وروي أن عمر لما سمع « فهل انتم منتهون » قال « انتهينا، انتهينا » .

والحكمة في تحريم الخمر بالتدريج أن الناس كانوا مفتونين بها ، حتى أنها لو حرمت في اول الاسلام ، لكان تحريمها صارفاً لكثير من المدمنين لها عن الاسلام، بل عن النظر الصحيح المؤدي الى الاهتداء به ، لأنهم حينئذ ينظرون اليه بعين السخط ، فيرونه بغير صورته الجميلة ، فكان من لطف الله تعالى ، وبالغ حكمته أن ذكرها أولاً في سورة النساء بما يقتضي تحريمها في الأوقات القريبة من وقت الصلاة وإباحتها فيما عدا ذلك ، ثم ثانياً ذكرها في سورة البقرة بما يدل على تحريمها مطلقاً ، لكن دلالة ظنية ، فيها مجال للاجتهاد ، ليتركها من لم تتمكن فتنتها من نفسه ، ثم تركهم الله تعالى على هذه الحال زمناً قوي فيه الدين ، ورسخ اليقين ، وكثرت الوقائع التي ظهر لهم بها إثم الخمر وضررها ، فنزلت آية سورة المائدة بما يدل على تحريمها صريحاً في كل حين .

والخلاصة إن الله تعالى حرم الخمر تحريماً قطعياً في معظم الأوقات ، ثم حرمها تحريماً ظنياً في باقي الأوقات ، ثم تحريماً قطعياً مستغرقاً لكل زمن .

هل كانت الخمر حلالا عند المصريين والرعاة في زمن يوسف

(٤ ً) إن قال قائل : هل كانت الخمر حلالاً عند هؤلاء المصريين والرعاة ، حتى كان الملك يشربها علنـــاً بلا نكير ! قلنا إن الخمر محرمة بألسنة جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، على جميع الشعوب والأمم ، فالمصريون والرعاة وغيرهم كانوا يشربونها في حال انها محرمة عليهم ، ويحتمل ان المحرم عليهم هو القدر المسكر فقط ، وان ما دون القدر المسكر حلال ، وهو ظاهر كتب العهدين الموجودة اليوم عند اليهود والنصارى ، فلما كان من حكمة الله تعالى سير أمور البشر كلها

على سنن الترقي التدريجي ، الذي من مقتضاه أن يكون الآخر أكمل مما قبله ، أكمل الله دينه العام بإنزال القرآن الحاوي تحريم الخمر مطلقاً ، لما فيها من الضرر الذاتي .

الخمر عامة هو ما يعصر او ينبذ

(٥) قول رئيس السقاة : « إني أراني أعصر خمراً » لا يدل على أن الخمر هي مما يعصر فقط ، بل إنما يدل على أنهم كانوا يستعملون هـذا النوع ، فلا ينافي أن الخمر قد تكون مما ينبذ نبيذاً أو يقطر تقطيراً ، فاتخاذ المصريين الخمر من العصير ، لا ينافي اتخاذها من غيره ، وليس في كلام رئيس السقاة ما يدل على الحصر ، دع ما يمكن ان يقال : « إن هذا القول محكيّ عن أعجمي في بيان ما رآه في نومـه ، مما هو معهود في بلاده ، فليس بحجة في لغة العرب ولا في صناعتهم وصناعة غيرهم للخمر ، وبالأولى لا يكون حجة في الشرع ، فالخمر لغة وشرعاً ، أعم مما يتخذ من العصير » .

الرؤى الصريحة

(٦) نعلم من صحيحي الشيخين وغيرهما من الأسفار الصحيحة أن النبي ﷺ كان في بدء الوحي ، لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، أي تجيء كما يراها صريحة ظاهرة لا تحتاج إلى تفسير ، قالوا : وهذا هو الغالب في رؤى أهل الخير والصلاح ، فلذلك ولما كان « رئيس السقاة » مسجوناً ظلماً ، وكان بريء الساحة مما اتهم به ، كانت رؤياه صريحة ، ليست من قبيل الاستعارات والتمثيل ، وهذا بخلاف رؤيا « رئيس الخبازين » التي هي من نوع المجاز والمثال ، لأن الظاهر من الحكم عليه بالموت ، أنه كان غير سليم الساحة ، وإنما قلنا إن رؤياه مجاز ، لأن الخبز الذي رآى أن الطير تأكله هو حياته ، لأن بالخبز حياة

الانسان ، وقوام الأجسام ، ولذلك ناسب تأويله بالرأس ، الذي به حياة سائر البدن لأنه العضو الرئيسي .

اطلاق ضمير المفرد على المثنى والجمع في لغة العرب

(٧ً) إنما قيل « بتأويله » ولم يقل بتأويلها ، لأن من سنن العرب ، أن تجمع بين شيئين اثنين ، ثم تذكر في الضمير أحدهما دون الآخر ، وتريد بالضمير كليهما معاً ، يقولون : « رأيت زيداً وعمراً وسلمت عليه » أي عليهما ، قال الله عز وجل: ﴿ والذين يَكْنِزُونَ الذهبَ والفِضَّةَ ، ولا يُنفِقونها في سبيلِ الله ﴾ (٩:٣٥) وتقدير الكلام ولا ينفقونهما في سبيل الله ، وقال تعالى : ﴿ وإذا رَأَوْا تِجارةً أولَهْواً انفَضوا اليها ﴾ (٦٢ : ١١) وتقديره انفضوا اليهما ، وقال تعالى : ﴿ واللهُ ورسولُه أحَقُّ أنْ يُرضُوه ﴾ (٩ : ٦٣) والمراد أن يرضوهما [١] ومنه قوله تعالى فيما يأتي : ﴿ قُضِيَ الأمرُ الذي فيه تستفتيان ﴾ (آ : ٤١) ، تقديره قضي الأمران اللذان فيهما تستفتيان ، وقوله : ﴿ أفتوني في رُؤْيايَ ﴾ (آ : ٤٣) أي في رؤيَيَ ، ويوجد من مثل ذلكم في كلامهم الشيء الكثير .

احسان يوسف لاهل السجن

(٨ً) إنما قالا له : « إنّا نراكَ مِنَ المحسنينَ » لأنه كان إذا احتاج من أهل السجن إنسان جمع له ، وإذا مرض إنسان في السجن عاده وقام عليه ، وتعاهده وداواه ، وإذا انقطع رجاء إنسان في سجنه ، واشتد عليه فيه بلاؤه جعل يقول له : « أبشر واصبر تؤجر ، فان لهذا أجراً ، ولهذا ثواباً » ، وكان إذا ضاق على أحد المكان أوسع له ، وكان يعزي حزينهم ، ويجتهد لربه في عبادته ، ويعبر لهم أحلامهم .[٢] فكأنه جعل من السجن مدرسة ومستشفى ومعبدا وجمعية خيرية ومجالس وعظ وتذكير .

---

(١) فقه اللغة .
(٢) جامع البيان

الاعتراف باحسان يوسف

(٩) كل من كان من أهل الاصالة يُسرّ بأن يقر بالفضل لأهل الفضل ، ويعترف بالاحسان لأهل الاحسان ، كما وقع من هذين الرئيسين . فيظهر أنهما كانا كبيري النفس ، أصيلي المحتد ، وهذا بخلاف طائفة من الناس ساءت سريرتهم ، وسفلت طباعهم ، وصغرت نفوسهم ، فهؤلاء ينكرون فضل الفضلاء ، ويجحدون إحسان المحسنين ، بل قد تحملهم الكبرياء على إيقاع الأذى بمن أحسن اليهم ، لاسيما إذا كان هؤلاء المحسَن اليهم ممن ولدوا في الفاقة وخفض العيش ، وساعدتهم الأقدار على الارتقاء ، فربما حدثتهم أنفسهم الأمارة بإنكار إحسان المحسنين اليهم بل بايذائهم بل بإهلاكهم .

نهاية الجزء الأول

* * *

فهرس الجزء الأول من كتاب مؤتمر تفسير سورة يوسف (ع)

الصحيفة والموضوع :

الصحيفة والموضوع

الصحيفة والموضوع

الصحيفة والموضوع

الصحيفة والموضوع

الصحيفة والموضوع

الصحيفة والموضوع

فهرس الآيات والمواضيع التي للمؤلف فيها رأي أو فهم خاص في الجزء الاول

الصحيفة والموضوع :

جدول الاخطاء المطبعية وتصويبها في الجزء الاول

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
١٢	١٣	سنة ونيف، لم يكن	سنة ونيف ، وتركه مسوداً بخط يده في بضع وستين كراساً قمت بتبييضها بعد ما نسقت مواضيعها ورتبتها وضبطت الآيات القرآنية ثم وضعت للمواضيع عناوين تناسبها وشرحت بعض الكلمات في الهامش ووضعت فهرس الكتاب وفهرس المواضيع التي انفرد المؤلف في فهمها وقسمت الكتاب الى جزئين الجزء الأول من مقدمة السورة الى الآية ٣٦ والجزء الثاني من الآية ٣٧ الى آخر السورة . فان ظهر في الكتاب هفوات أو أخطاء فما ذلك إلا من تقصيري وعجزي، اذ العصمة لله وحده، هذا ولم يكن ..
١٧	١٠	السيد رشيد رضا	السيد محمد رشيد رضا . .
٢٣	١٥	الغزلية	الغزية
٢٥	١٣	تطبيقها	تطبيبها
٣٠	١٠	عَجَزَ	عَجْزَد
٣١	٩	الفريز	العزيز
٣٦	١٩	ويمثلوا	يمثلون
٦٧	١٢	تعوز	نعوذ
٧١	٧	يحضره	يحضروه
٧٩	٦	كثيرة	كثير

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٨٥	٤	مكاتب	مكاتيب
٨٥	١٤	كتيراً	كثيراً
٩١	١٥	مزول	نزول
٩٢	٣	عنَد	عِنْـَد
٩٩	١١	بلاغتها	بلاغتها
١٠٠	١٣	وفيهم	وفهم
١٠٤	١١	املغه	اللغة
١١٢	١	آ(١)	آ(٢)
١١٨	١٥	العراقيين	العراقيين
١٢٣	٣	أحلامه ومن أجل	ومن أجل
١٣٧	٨	ثلاث	ثلاثاً
١٤٣	١٦	إذ	إذا
١٤٧	٥	وإنما	انما
١٤٧	٩	أن	إنّ
١٤٧	٢١	فقال الرب	فقال ملاك الرب لنوح
١٤٩	١٤	ص (٢٢٠)	(ص ٢٠ : ٢)
١٥٢	١١	َعنَد	عِنْدَ
١٥٥	١٠	اسرائيل،لا يصلح أن	اسرائيل (تك ٣٦ : ٣١) فقوله : قبلها ملك ملك لبني إسرائيل، لا يصح أن
١٥٨	١٣	(٣ : ٢٨)	(٤ : ٢٨)
١٥٩	٢	الخطيئة	الخطية
١٧٠	١٣	يربعام	يربعام
١٧١	٦	للكذب	الكذب

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
١٧١	٨	وأمر الرب	وأن الرب
١٧٣	٦	طاردتك	طاردك
١٧٣	١٨	التواة	التوراة
١٧٤	١٨	َفطَرَ النَاسَ	فَطَرَ الناسَ
١٧٧	١	آ(٢)	آ(٣)
١٨١	١١	وهو تربية	الا وهو تربية
١٩٥	٢	نحل	تحل
١٩٦	٦	بخساً	نجساً
٢٠٣	١٤	(ص)	(رض)
٢١٩	١٥	يا ُبنَـيَّ إن اللهَ	يا بَنِي ْ إن الله
٢٢١	١٦	ماجدا	ما حدا
٢٢٢	١٤	بين وأبيه	بين يوسف وأبيه
٢٣٧	١٢	شْتَرَوا	اشْتَـَرَوا
٢٣٨	٨	توفير	توقير
٢٤٥	١	والاعلام	وللاسلام
٢٤٧	٩	أنْ نقاتِلَ	أنْ لا نقاتِلَ
٢٤٨	٨	ابن يَضنه	بن يَفْتُنَّـةْ
٢٦١	١٧	لـكم حكم مقتبس	لـكم مقتبس
٢٦٢	٧	شخص	شخصي
٢٦٣	٣	ووثنى	ووثنيي
٢٧٥	١	بعقبة	بعاقبة
٢٨١	١	المهمة	الهامة
٢٨١	٤	َفتَنَّا	َفتَنَا
٢٨١	٩	المهمة	الهامة

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٢٨٢	١	اسباب عواءالاخوة الهامة	اسباب عداء الاخوة المهمة
٢٨٢	١١	يتخيلون إن	يتخيلون أن
٢٨٢	١١	يظنون إنه	يظنون أنه
٢٨٢	١٥	واذ دادو	وازدادوا
٢٨٣	١١	لحزُمته	لحُـزْمته
٢٨٤	٤	وإن	وأن
٢٨٥	١٨	فا استطارت	فاستطارت
٢٨٧	١٤	فينبغي	فيبغي
٢٨٨	٨	َقَبات	قبات
٢٨٨	٩	سليمانُ	سليمانَ
٢٩٢	١٠	أولوا	ألُو
٢٩٥	٤	َيَروك : محبِاً	يَرَوْكَ ُمحباً
٣٠٤	١٣	ُثمَ اتخذتم	ثمّ اتّخذْتم
٣٠٥	١٣	المبدنية	البدنية
٣١٠	٧	قيل أنه	قيل إنه
٣١٦	١٦	صيرت	صيدت
٣١٦	١٧	فيها	مها
٣١٨	٢	مع أبناءَ	مع أبناءِ
٣١٨	٦	الكلمة السابقة	الكلمة السابعة
٣٢٠	١٥	ويزاد	ويزداد
٣٢٠	١٨	يوسف من الحسد	يوسف هو من الحسد
٣٢٢	٣	فالصيهونيين	فالصهيونيون
٣٢٥	١١	﴿قال قائل﴾ منهم	﴿قال قائل منهم﴾

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٣٢٧	١٩	فإن قلتم أنه	فإن قلتم إنه
٣٣٢	١٧	الجب على	الجب من
١٣٤	١٥	بدل	يدل
٣٣٥	٧	الكلمة السابعة وهي الأخيرة	الكلمة السابقة
٣٣٧	١	آ(١٠)	آ(١١)
٣٣٧	٤	أحسن	أحسّ
٣٤٦	١٣	والضّر	والفقرّ
٣٤٧	٢	إن الكثير	أنّ الكثير
٣٤٧	١٦	لاسمح إلله	لاسمح الله
٣٥٠	٨	خذا الوعد	خُذْ الوعد
٣٥٢	٢	عليكم إنكم	عليكم أنكم
٣٥٣	١٧	إداً لذَهبَ	إذاً لَذَهَبَ
٣٥٨	٣	كأنها جانٌ	كأنها جانٌّ
٣٦١	١٤	ومعناها إن	ومعناها أن
٣٦١	١٧	معناها ، إن	معناها ، أنّ
٣٦٣	١٢	دومان	دوثان
٣٦٣	١٩	ليس لناقطٌ	ليس لنا قطّ
٣٦٨	٤	(بالعزيز)	(بالعزير)
٣٨٠	١٨	في والدم	والدم في
٤٠١	١	والأضرار	والإضرار
٤٠٣	١٣	وافترّا	وافتَرّا
٤٠٨	٥	(ص)	(رض)
٤١٠	١٤	والبلأ	والبلاء

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٤١٨	٢٠	الصليبيين	الصلبيين
٤٢٢	١٧	حشويوا	حشويو
٤٥٠	٥	عود الضمر	عود الضمير
٤٥٠	١٨	(شروه،واشتروه)	(شروه ، اشتراه)
٤٥٤	١٣	وقد أمرا	وقد أمر
٤٦٦	٢	فان	وإنّ
٤٦٨	١٧	سأتلف الحال	سأتلف المال
٤٦٨	٢٢	باسم بنته	بينته
٤٧٨	١٣	فهو أمر	وهو أمر
٤٨١	٢٢	حهات	جهات
٤٨٢	١١	الثالي	الثاني
٤٨٤	٢٠	قواميس	نواميس
٤٩١	١	آ (٢٠)	آ (٢٢)
٤٩١	٥	فيقمنس	فيقمنسس
٤٩٣	٢	يقرر	يقدر
٤٩٩	٩	خمسةَ	خمسةُ
٥٠٧	٢	الفار	القـار
٥١٢	٥	بهة	بهسة
٥١٣	٨	السيد	السيدة
٥١٨	٢٣	بِخُمُرِهِنّ ولا يُبدينَ	بِخُمُرِهِنّ على جُيُوبِهِنّ ولا يُبدين
٥١٩	٢٢	تَـكفلونَهُ	يَـكفلونَهُ
٥٢١	٧	وحبوتها	وصبوتها
٥٢٥	١	في الجميل	بالجميل
٥٢٦	١	في الجميل	بالجميل

صحيفة	سطر	الخطأ	التصويب
٥٣٤	١	همت به جلياً وهم بها وقعاً	همت به جلباً وهم بهـا دفعاً
٥٣٥	١٦	لسان	ولسان
٥٤١	١١	المُخلِصينَ	المُخلَصينَ
٥٤٢	٥	كذلك	(كذلك)
٥٤٤	١٦	المُخلِصينَ	المُخلَصينَ
٥٧٧	١٢	عقار	عقاب
٥٦١	٢	مفصلاً	مفضلا
٥٩٢	١٦	لِذَنْبِكَ	لِذَنْبِكِ
٦٠٠	١٩	فأصلحوا	فاصطلحوا
٦٣٥	١٦	يكون « يشوع »	يكون يوم « يشوع »
٦٤٢	١	التحزير	التحزيز
٦٦٥	٧	أخذمية	أخزمية
٦٦٧	١٧	ونسبة	ونسبه
٦٩٥	١٤	حَوّاري	حَوّارى
٦٩٧	٧	حكاك وأكال	حكاكاً وأكالا
٦٩٧	٨	وبثور	وبثوراً
٧٠٢	٤	لمثنى	المثنى

وهناك اخطاء اخرى لاتخفى على القارىء

MOU'TAMAR TAFSIR SOURAT YOUSSOF

Congrés pour l'explication de la Sourate de Joseph

(Chapitre XII du Coran)

Met en lumiére les caractéres des sionistes, montre que les caractéres des descendants sont hérités de leurs ancêtres, dévoile la vérité sur les juifs et donne une leçon aux arabes de palestine .

O Arabes de Palestine ! O Arabes et Musulmans de tous les pays Lisez ces conférences sur la sourate de Youssof vous comprendrez ce dont sont capables les sionistes de par leur hérédité .

PAR

CHEIKH ABDALLAH EL - ALAMI

(1862 — 1936)

Professeur, chargé de l'explication du Coran

à la Mosquée des Omayades à Damas

Editeurs

Imprimerie DAR - EL - FIKR

DAMAS

MOU'TAMAR TAFSIR SOURAT YOUSSOF

Congrés pour l'explication de Sourat de Joseph

(Chapitre XII du Coran)

Met en lumière les caractères des Sionistes, montre que les caractères des descendants sont hérités de leurs ancêtres, dévoile la vérité sur les Juifs et donne une leçon aux Arabes de Palestine .

O Arabes de Palestine ! O Arabes et Musulmans de tous les pays ! Lisez ces conférences sur la Sourat de Youssof vous comprendrez ce dont sont capables les Sionistes de par leur hérédité .

PAR

CHEIKH ABDALLAH EL - ALAMI

(1862 — 1936)

Professeur, chargé de l'explication du Coran

à la Mosquée des Omayades à Damas

Editeurs

Imprimerie DAR - EL - FIKR

DAMAS